جامعة الجزائر 2

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانيَّة

قسم التَّاريخ

حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصري المرابطين والموحِّدين

479–591هـ/1086–1195م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التَّاريخ الوسيط

إعداد الطالب:
خالد حموم

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمَّد الأمين بلغيث

السنة الجامعيَّة: 1436–1437هـ/2015–2016م

جامعة الجزائر 2

أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانيَّة

قسم التَّاريخ

حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصري المرابطين والموحِّدين

479–591هـ/1086–1194م

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التَّاريخ الوسيط

لجنة المناقشة:

الأستاذ الدكتور: عبد العزيز بوكنة .... رئيسًا

الأستاذ الدكتور: محمَّد الأمين بلغيث .... مقررًا

الأستاذ الدكتور: رشيد تومي .... عضوًا

الأستاذ الدكتور: توفيق مزاري عبد الصَّمد................ عضوًا

الدكتور: محمَّد الشَّريف سيدي موسى.................. عضوًا

إعداد الطالب: إشراف الأستاذ الدكتور:

خالد حموم محمَّد الأمين بلغيث

السنة الجامعيَّة: 1436–1437هـ/2015–2016م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء:

أهدي هذا العمل إلى جدي علي حموم ووالده محمَّد (محند الشريف) اللَّذين سقطا شهيدين بإذن الله تعالى، في مجازر الثامن ماي 1945م بخراطة ولاية بجاية

وإلى روح جدتي الطاهرة فاطمة حموم التي انتقلت إلى رحمة الله تعالى يوم الثالث والعشرين أكتوبر 2015م (رحمة الله عليها) ووالدها قاسي حموم الذي سقط هو الآخر شهيدًا في مجازر الثامن ماي 1945م

وإلى والدي العزيزين حفظهما الله تعالى، وأطال في عمرهما

وإلى زوجتي الغالية، وولدي الحبيب "محمَّد الأمين"

وإلى صهري لخضر قطاف، وحماتي زوينة (نعيمة) عمير وولدهما خالد

وإلى صديقي في الدراسة في مرحلة الماجستير الذي رحل عنا إلى الأبد عبد الله بن حفاف

وإلى صديقاي لمين عفون وشعبان بكدا وزميلته في البحث كريمة إسعون

وإلى كل عائلة أرزقي حموم كبيرهم وصغيرهم وأخص بالذكر أخوايا عبد السَّلام وسيف الدِّين

كلمة شكر:

أتقدم بشكري الجزيل إلى الأستاذ الدكتور محمَّد الأمين بلغيث لقبوله الإشراف على هذا العمل، منوهًا بتشجيعه لي، وحسن معاملته وتعاونه معي طيلة مدة البحث، وقد أفادني كثيرًا بتوجيهاته القيِّمة، ونصائحه السديدة، فله كل التقدير والعرفان.

كما أوجه الشكر الخالص إلى مدير المكتبة المركزية بجامعة سطيف 1 "لخضر قطاف" الذي أمدني بالكثير من المصادر والمراجع وشجعني كثيرًا لإتمام هذه الأطروحة، وإلى حماتي عمير زوينة (نعيمة) التي أعانتني بخبرتها الواسعة وتجربتها الطويلة في إعداد الخرائط وإلى زوجتي العزيزة التي عانت كثيرًا بسبب تفرغي لإتمام هذا العمل، وظلت دائمًا صبورة معي وقاسمتني العناء النفسي الكبير.

وأتقدم أيضًا بشكري الكبير إلى أساتذة التاريخ الوسيط بجامعة الجزائر 2 الذين كانوا بمثابة مصابيح أنارت طريقي، وإلى زملائي في تخصص المغرب وحضارته وأخص بالذكر الصديق الوفي الدكتور "عبد العزيز شاكي"، وإلى صديقي العزيز الأستاذ "عمر راكة" وإلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاح هذا العمل.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أعضاء لجنة المناقشة

لتواضعهم وقبولهم مناقشة هذه الأطروحة

مقدمة

تعاظمت حروب الاسترداد في بلاد الأندلس أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بالخصوص بعد استيلاء ألفونسو السَّادس ملك قشتالة على طليطلة سنة 478هـ/1085م، وراح بذلك يهدِّد جميع بلاد الأندلس بالسقوط، فتفشى الرعب والخوف وعمَّ البلاء واشتدَّ الخطر على المسلمين في الأندلس، فسارع أمراء الطَّوائف لخطب ود ألفونسو السَّادس بالمبالغة في دفع الإتاوات والهدايا، ولكنه لم يرض بهذا القدر بل أراد امتلاك أراضيهم، ولم يكتف بتهديد مدن الثغور كسرقسطة وبطليوس فحسب بل قام بتهديد جميع أرجاء الأندلس.

وفي تلك الأثناء، كانت دولة المرابطين ببلاد المغرب قد بلغت شهرتها الأفاق حيث استطاعت في فترة وجيزة أن تحكم سيطرتها على كامل بلاد المغرب الأقصى، وجزء من بلاد المغرب الأوسط، وأجزاء كثيرة من بلاد السودان الغربي، وحدث ذلك تحت إمرة زعيم هذه الدَّولة وهو الأمير يوسف بن تاشفين الذي اشتدَّ سلطانه وذاع صيته في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، فاشتهر ذكره، وعلت مكانته.

فسارع أمراء الطوائف وأهل الأندلس للاستنجاد به، وعلقوا عليه الآمال لتخليصهم من عدوان النَّصارى، الذي استفحل أمره واشتد أكثر من ذي قبل. ولم يُخيِّب الأمير يوسف آمالهم فعبر إلى الأندلس للتَّصدي لهذه القوى النَّصرانيَّة الغازية، فسجل هناك ملاحم كبيرة، وانتصارات خالدة، بالخصوص انتصاره في معركة الزَّلاقة.

وقد استطاع الأمير يوسف بعد انتصاره هذا بقليل بضمِّ الأندلس إلى دولته، بعد أن ثبتت خيانة أمرائها وبعد حصوله على الرخصة من علماء المشرق والمغرب والأندلس بشرعية خلع أمراء الطَّوائف المتعاونين مع النَّصارى ضدَّ إخوانهم المسلمين.

وقد كرَّس أمراء هذه الدَّولة بما فيهم الأمير علي خليفة يوسف، حياته في الدِّفاع عن بلاد الأندلس، فأبلى بلاءً حسنًا في مواجهة هذا الهجوم المسيحي الداهم، وخاض العديد من المعارك مثل أُقليش وإفراغة وغيرهما، وقد اتبعه ولده تاشفين في هذه النهج وقاد هو الآخر بعض المعارك ضدَّ النَّصارى الصَّليبيِّين.

وهي السيرة نفسها التي اتبعها حكام الدَّولة الموحِّديَّة خلفاء المرابطين في حكم الأندلس، وقد تصدوا بكل شجاعة لهذا الزحف المسيحي المتواصل، خاصة حكامها الثلاثة الأقوياء عبد المؤمن بن علي وولده يوسف وحفيده يعقوب المنصور.

فالبِّنسبة للخليفة عبد المؤمن فقد استطاع ضمَّ الأندلس إلى كنف الدَّولة الموحِّديَّة والقضاء على أغلب المعارضين له، كما نازل النَّصارى في العديد من المعارك، أمَّا ولده يوسف فقد قاد بنفسه الجيوش الموحِّديَّة بالأندلس وعبر إليها مرتين مكث في عبوره الأوَّل خمس سنوات وهو يقاوم الممالك المسيحيَّة ويوقف زحفها الجارف على الأندلس، وفي عبوره الثَّاني استشهد في ميدان الوغى وهو يحاول فتح مدينة شنترين بغرب الأندلس.

وانتهج الخليفة يعقوب المنصور نهج والده يوسف في التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي وعبر إلى الأندلس مرتين تمكن في عبوره الأوَّل من استرجاع مدينة شِلب، وفي عبوره الثَّاني حقَّق انتصارًا باهرًا على النَّصارى في معركة الأرك الشهيرة.

أسباب اختيار الموضوع:

وقع اختياري على هذا الموضوع لأسباب موضوعية أعرضها في العوامل الآتية:

- وجدت في نفسي رغبة مُلِحَّة في دراسة تاريخ دولتي المرابطين والموحِّدين، ومن صنعوا مجدهما وعظمتهما، وتوضيح ما طمسه المستشرقون من حقائق ساطعة، وماضي مُشرِّف لأمراء هاتين الدَّولتين خاصة في الشق المتعلق بالجهاد ضدَّ المسيحيِّين في بلاد الأندلس.

- محاولة إبراز علاقة الوحدة التي ربطت بلاد المغرب بالأندلس، من خلال التَّجربتين المرابطيَّة والموحَّديَّة اللَّتين استطاعتا توحيد العُدوتين (المغرب والأندلس) خلال القرنين الخامس والسَّادس الهجريين.

- تسليط الضوء على حلقة من حلقات الصَّراع المرير بين المسلمين والمسيحيِّين في العصور الوسطى الإسلاميَّة، وهذا من خلال جهاد المرابطين والموحِّدين بالأندلس، والدور الهام الذي بذله أمراء هاتين الدَّولتين لرد خطر حركة الاسترداد المسيحية على إخوانهم المسلمين.

إشكالية الموضوع:

أمَّا الإشكالية المطروحة في هذا البحث فتتمثل في توضيح الدور الذي قام به أمراء دولتي المرابطين والموحِّدين من أجل التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي للأندلس، من عصر الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين إلى غاية عصر الأمير الموحِّدي يعقوب المنصور ؟

وقد طرحت من أجل الإجابة على هذه الإشكالية العديد من التَّساؤلات:

- كيف كانت ظروف عبور المرابطين والموحِّدين إلى بلاد الأندلس ؟

- كيف كان رد فعل القوى المسيحيَّة من عبور المرابطين والموحِّدين إلى الأندلس لنجدة إخوانهم المسلمين ؟

- وهل استطاع أمراء دولتي المرابطين والموحِّدين تدعيم وتثبيت سلطانهم في بلاد الأندلس وإيقاف زخم حركة الاسترداد المسيحي ؟

أهمية الموضوع:

حُدد عنوان البحث بـ "حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصري المرابطين والموحِّدين 479-591هـ/1086-1195م" فالمجال الزمني يشمل الفترة الممتدة من حُكم الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين إلى غاية فترة حُكم الأمير الموحِّدي يعقوب المنصور، أمَّا المجال المكاني فهو بلاد الأندلس. ومن هنا كانت للموضوع أهميته، فكما هو معلوم أن دولتي المرابطين والموحِّدين نشأتا في بلاد المغرب، ولكنهما مدَّتا نفوذهما إلى بلاد الأندلس، حيث تمكن أمراؤها من توحيد العُدوتين المغرب والأندلس، وجعلهما تحت سلطة واحدة، وبذلك كان لهم تاريخ ومصير مشترك.

ولكن لم يحدث هذا الترابط والوحدة بين العُدوتين بمحض الصُّدفة، بل قام بعد بذل الغالي والنَّفيس من قِبل أمراء المرابطين والموحَّدين، حيث رفعوا لواء الجهاد، وإعلاء راية الإسلام في بلاد الأندلس، بعد أن استغاث بهم أهلها وأمراؤها. واستطاعوا التَّصدي لأطماع النَّصارى في الاستيلاء على هذه البلاد، بخوضهم العديد من المعارك المدويَّة، والتي خرجوا في أغلبها مُنتصرين فأوقفوا بذلك حركة الاسترداد المسيحي، وأخروا سُقوطها في أيديهم حوالي قرن ونصف من الزمن.

خطة البحث:

للإجابة على مجموعة التَّساؤلات المطروحة اتبعت الخطة التالية: قسمت البحث إلى مقدمة وفصل تمهيدي وبابين، لكل واحد منهما فصلين، وخاتمة.

أمَّا المقدمة فعرَّفت فيها بالموضوع وأسباب اختياره وإشكاليته، وأهميته، وخطة العمل، والمنهجية المتبعة في البحث، والصعوبات التي واجهتني أثناء إعداد البحث، وعرض أهم المصادر والمراجع المعتمدة فيه.

وبالنِّسبة للفصل التَّمهيدي فقد جاء بعنوان استدعاء أمراء الطوائف للمرابطين إلى الأندلس لصدِّ حركة الاسترداد المسيحي، وتناولت فيه مبحثين، ففي المبحث الأوَّل تناولت الأوضاع السِّياسيَّة للأندلس قبل عبور المرابطين إليها، ودرست فيه أوضاع الإمارات الإسلامية التي كانت تعاني الضُّعف والانقسام، والممالك المسيحيَّة التي كانت في حالة قوة وتكتل ممَّا سهَّل عليها شن حرب ضروس على مسلمي الأندلس. أمَّا المبحث الثَّاني فقد تحدثت فيه عن أسباب العبور المرابطي إلى الأندلس وذكرت فيه سببين أولهما سقوط طليطلة وتعاظم حروب الاسترداد المسيحيَّة على المسلمين، وثانيهما دعوة أمراء الطَّوائف للأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، وتناولت فيه مختلف السَّفارات والرَّسائل المتبادلة، بين هؤلاء الأمراء والأمير يوسف الذي قبل في آخر المطاف العبور للأندلس لنجدة إخوانه المستضعفين.

ويليه الباب الأوَّل تحت عنوان حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصر المرابطين 479-541هـ/1086-1146م وقد قسمت هذا الباب إلى فصلين، تحدثت في الفصل الأوَّل عن حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عهد الأمير يوسف بن تاشفين، وتناولت فيه عبوره الأوَّل وخوضه معركة الزَّلاقة ضدَّ القوى النَّصرانيَّة بقيادة ألفونسو السَّادس، وسردت وقائع هذه المعركة وأحداثها والنتائج التي تمخضت عنها. ثمَّ تحدث عن العبور الثاني للأمير يوسف للأندلس، وخوضه معركة حصن لييط ضدَّ النَّصارى، وختمت هذا المبحث بالحديث عن النتائج التي أسفرت عنها هذه المعركة. وفي المبحث الثالث درست العبور الثالث للأمير يوسف إلى بلاد الأندلس، وقيامه بضمِّ هذه البلاد

إلى دولته، بعد أن قام بخلع أمراء الطَّوائف المتخاذلين، وكانت له معارك عديدة معهم ومع النَّصارى في جميع أقطار بلاد الأندلس، انتهت الكثير منها بانتصار المرابطين، وانهزام القوى المسيحيَّة.

وأنهيت هذا الفصل بالحديث عن العبور الرَّابع والأخير لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، وتطرقت لمختلف الأعمال التي أنجزها خلال عبوره هذا، كتنظيم شؤون الإدارة وعقد البيعة لولده علي، ووصيته له بمواصلة مقارعة النَّصارى، بتحصين الثغور، وتجهيز الجيوش، وخوضه لسلسة من المعارك ضدَّ المسيحيِّين استطاع خلالها الاستيلاء على الكثير من المدن خاصةً بشرق الأندلس.

أمَّا الفصل الثاني من هذا الباب، فقد خصصته للحديث عن حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عهد الأمير علي بن يوسف وولده تاشفين، وتطرقت في البداية إلى الحديث عن الدَّور الذي قام به الأمير علي بن يوسف للقضاء على حركة الاسترداد المسيحي للأندلس عندما عبر إلى هذه البلاد أربع مرات وفي كل مرة يقود جيش المسلمين في معارك ضارية ضدَّ جيوش النَّصارى الصَّليبيِّين، ففي العبور الأوَّل، قام الأمير علي بتنظيم شؤون الأندلس وتفقد أحوالها، كما جهَّز الجيوش لمقارعة النَّصارى حيث حقَّق انتصارًا مدويًا في معركة أُقليش سنة 501هـ/1108م على ملك قشتالة ألفونسو السَّادس، وتحدثت عن النَّصر الذي أحرزه في هذه المعركة والنَّتائج التي انبثقت عنه.

وتحدثت عن عبوره الثَّاني سنة 503هـ/1109م وخوضه لسلسلةٍ من المعارك في جميع أنحاء الأندلس، فقد فتح المرابطون طلبيرة وحاصروا طليطلة، وحقَّقوا أهم انجاز خلال هذا العبور وهو الاستيلاء على سرقسطة في شهر ذي القعدة 503هـ/ماي 1110م، كما استولوا على مدن يابرة وإشبونة وشنترين بغرب الأندلس في شهر ذي القعدة 504هـ/ماي 1111م، وعلى الجزائر الشَّرقيَّة مَيورقة ومِنورقة ويابسة بشرق الأندلس عام 509هـ/1116م.

وفي هذا الفصل أيضًا تحدثت عن العبور الثَّالث للأمير علي إلى الأندلس عام 511هـ/1117م، وتحقيقه في نفس السنة انتصارًا مدويًا بغرب الأندلس حيث فتح مدينة قُلُمْريَّة

عاصمة البرتغاليِّين. وتحدثت أيضًا عن أوَّل ضربة حقيقية هزت أركان دولة المرابطين في الأندلس بسقوط مدينة سرقسطة في يد المسيحيِّين سنة 512هـ/1118م، وعن هزيمتهم في معركة كتندة سنة 514هـ/1120م.

ثمَّ تحدثت عن العبور الرَّابع والأخير للأمير علي إلى الأندلس سنة 515هـ/1121م، وما تلاه من تصدي المرابطين لغزوة ألفونسو المحارب الكبرى للأندلس سنة 519هـ/1125م، ثمَّ هزيمة المرابطين في موقعة القِلاعة سنة 523هـ/1129م. وبعدها تحدثت عن موقعة إفراغة سنة 528هـ/1134م وتحقيق المرابطين انتصارًا مُدويًا على النَّصارى، وفي نهاية الفصل تحدثت عن معارك الأمير تاشفين بن علي في الأندلس والدور الذي قام به لكبح حركة الاسترداد المسيحي التي تعاظمت واشتدت كثيرًا في تلك الآونة، وقد قاد هذا الأمير سلسلة من الغزوات والمعارك في أراضي قشتالة وسائر بلاد النَّصارى، حقَّق في أغلبها انتصارات خالدة اشتهرت خاصةً تلك التي سجلها في موقعتي قرب الزَّلاقة وفحص البَكار.

وفي الباب الثَّاني درست حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصر الموحِّدين 541-591هـ/1146-1195م وقسمت هذا الباب إلى فصلين، تحدثت في الفصل الأوَّل عن حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، وتطرقت في البداية إلى الحديث عن أوضاع بلاد الأندلس في نهاية عهد المرابطين وبداية حكم الموحِّدين، وذكرت الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين بالأندلس، وظهور عصر الطَّوائف الثَّاني، وكيفية استيلاء الموحِّدين على هذه البلاد، وتحدثت أيضًا عن أوضاع الممالك المسيحيَّة التي عانت هي الأخرى من الحروب الطاحنة فيما بينها ولكن ملوكهم خاصةً ملك قشتالة ألفونسو السَّابع، لم ينسوا حرب المسلمين والإغارة على بلادهم كلما أتيحت لهم الفرصة لذلك.

ثمَّ تحدثت عن استيلاء الموحِّدين على المرية واسترجاعها من أيدي النَّصارى سنة 552هـ/1158م، وعن ظروف وأسباب عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة

555هـ/1160م، وقيامه بمقارعة النَّصارى، وابن مردنيش حليفهم، واختتم هذا الفصل بالحديث عن استعداد الخليفة للعبور إلى الأندلس للمرة الثَّانية لغزوِّ الممالك المسيحيَّة.

أمَّا الفصل الثَّاني من هذا الباب فقد خصَّصته للحديث عن حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ويعقوب المنصور، وتطرقت في البداية للحديث عن عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، وعن موقعة فحص الجلَّاب التي خاضها الموحَّدون ضدَّ ابن مردنيش وحلفائه المسيحيِّين، ثمَّ تحدثت عن هزيمة ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز واسترجاع الموحِّدين لمدينة بطليوس في شعبان 564هـ/ماي 1169م بمساعدة ملك ليون فرناندو الثَّاني.

ثمَّ تطرقت للحديث عن ظروف وأسباب العبور الأوَّل للخليفة يوسف إلى الأندلس سنة 566هـ/1171م، وغزوه لمدينة وبذة وفشله في فتحها سنة 567هـ/1172م، وغزوه لمدينتي طلبيرة وطليطلة سنة 568هـ/1173م، ومسارعة ملوك النَّصارى على إثر هاتين الغزوتين لعقد الهدنة مع الموحِّدين، وتحدثت أيضًا في هذا الفصل عن العبور الثَّاني للخليفة يوسف إلى الأندلس سنة 580هـ/1184م واستشهاده في غزوة شنترين بغرب الأندلس في نفس السنة.

كما تحدثت في هذا الفصل عن عهد الخليفة يعقوب المنصور، عن ظروف وأسباب عبوره الأوَّل إلى الأندلس سنة 586هـ/1190م، وعن استرجاعه لمدينة شِلب سنة 587هـ/1191م، ثمَّ أتطرق للحديث عن ظروف وأسباب العبور الثَّاني للخليفة المنصور سنة 591هـ/1195م وخوضه لمعركة الأرك الشهيرة وأتحدث عن النَّصر الذي أحرزه في هذه المعركة والنتائج التي انبثقت عنها.

وأخيرا أنهيت الموضوع بخاتمة حوت أهم النتائج المتوصل إليها في البحث، وألحقتها بمجموعة من الملاحق والخرائط رأيت أنَّها تفيد دراستي، وختمت كل ذلك بفهارس البحث.

منهجية البحث:

أمَّا المنهجية التي تناولت بها الموضوع، فقد تراوحت بين السرد التَّاريخي للأحداث ونقدها، وتحليلها، ومقارنتها، وكانت عملية السرد اعتمادًا على المصادر، وهو منهج لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابات التَّاريخيَّة، وقد كان ذلك خاصة في حديثي عن مختلف المعارك التي خاضها المرابطين

والموحِّدين في بلاد الأندلس ضدَّ المسيحيِّين. وفي حالة وجود تباين في الرِّوايات مثلًا حول عدد الجيوش المشاركة في معركة الزَّلاقة لدى المسلمين والنَّصارى، ومتى حدثت بالتَّحديد معركة الأرك، أُرجِّح الرِّواية الأقرب للحدث زمانًا ومكانًا والأكثر شُهرةً، والتي خضعت للمناقشة من قِبل المحققين المعاصرين من أمثال حسن أحمد محمود، ومحمَّد عبد الله عنان، ويوسف أشباخ وميراندا وغيرهم، أو أرى أنَّها الأقرب إلى الصَّواب من غيرها بمقارنة النُّصوص.

وتخللت عملية سرد الأحداث، منهج التَّحليل والنقد لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفية، حيث كثَّفت من الاستشهاد بالنُّصوص في المتن والهامش، إمَّا دعمًا لرأي أو مُساندة لاستنتاج. وحاولت الرد بموضوعية تامَّة على أراء بعض المؤرخين الغربيِّين أمثال دوزي وأشباخ وميراندا حينما حاولوا التَّقليل من شأن الانتصارات التي حقَّقها أمراء دولتي المرابطين والموحِّدين في معاركهم ضدَّ الممالك المسيحيَّة، وهذا بالاعتماد على النُّصوص الواردة في مختلف المصادر الإسلاميَّة المعاصرة للحدث، مثل كتاب التِّبيان لصاحبه عبد الله بن بلكين أمير غرناطة المعاصر لدولة المرابطين، أو كتاب المن بالإمامة على المستضعفين لابن صاحب الصلاة المعاصر لدولة الموحَّدين، أو باقي المصادر الأخرى مثل كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع، أو كتاب الحُلل الموشيَّة، أو كتاب البيان المغرب لابن عذارى وغيرهم.

صعوبات البحث:

أثناء عملية البحث واجهتني العديد من الصعوبات أكتفي بذكر البعض منها: صعوبة الإلمام بمختلف الرِّوايات التَّاريخيَّة الموجودة في المصادر والتَّرجيح فيما بينها، وهذا لاختلاف هذه الرِّوايات وتباينها في الكثير من الأمور، وفي أدق التَّفاصيل.

قِلة المادة التَّاريخية الواردة في المصادر، بالنِّسبة للمعارك التي خاضها المرابطون والموحِّدون في الأندلس ضدَّ النَّصارى، بالخصوص المعارك الغير مشهورة، فقد اهتمَّت جُل المصادر التَّاريخيَّة بالحديث عن المعارك الكبرى لهم مثل الزَّلاقة وأُقليش والأرك، في حين أنَّ باقي المعارك لم تلق نفس العناية والاهتمام، ووردت على شكل إشارات مقتضبة ومتفرقة بين المصادر التَّاريخيَّة.

كما واجهتني مشكلة ضيق الوقت، حيث لم تكن أربع سنوات كافية للإطلاع وبصفة جيدة على كل مصادر البحث ومراجعه، وتحليل الأفكار، وترجيح الرِّوايات، واستنتاج الخلاصات.

عرض المصادر والمراجع:

1-كتب التَّاريخ:

- كتاب "**التِّبيان- أو- مُذكرات الأمير عبد الله**": للأمير عبد الله بن بلكين الزيري (توفي بعد سنة 483هـ/1090م)، صاحب غرناطة في عهد دويلات الطَّوائف بالأندلس، تولى الحُكم بها بعد وفاة جده باديس سنة 465هـ/1072م، واستمر في الحكم إلى غاية عزله من قِبل الأمير يوسف بن تاشفين سنة 483هـ/1090م، وتمَّ نفيه إلى المغرب التي توفي فيها. وقد ترك لنا هذا الأمير كنزًا نفيسًا وهو كتابه التِّبيان، الذي خصَّصه للحديث عن إمارة غرناطة منذ نشأتها إلى غاية سقوطها في أيدي المرابطين، ويحوي كذلك معلومات قيِّمة عن باقي دويلات الطَّوائف، فهو معاصر للأحداث كتب عن فترة حكم أمراء الطَّوائف وتواجد الأمير يوسف بن تاشفين في الأندلس لجهاد النَّصارى، وقد شارك صاحب هذا الكتاب كغيره من أمراء الطَّوائف إلى جانب الأمير يوسف في معركتي الزَّلاقة وحصن لييط، ونقل لنا كل كبيرة وصغيرة عن هاتين المعركتين، كما أفادنا بمعلومات عن الخصومات التي وقعت بين أمراء الطَّوائف، وبين هؤلاء الأمراء والأمير يوسف، وعن كيفية القضاء على دولهم من طرف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. ولكونه عايش الأحداث، فإن كتابه يشكل مصدرًا أساسيًا لأغلب المؤرخين الذين أتُوا بعده.

- كتاب "**المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**": لابن صاحب الصلاة، وهو مصدر مهم لتاريخ الدَّولة الموحِّديَّة، ذلك أنَّ مؤلفه يُعد شاهد عيان للأحداث التي دوَّنها فضلًا عن كونه عضوًا في البلاط الموحِّدي ومقربًا من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن. ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء، لكن ضاع الجزءان الأوَّل والثالث وبقي الجزء الثَّاني الذي حقَّقه الأستاذ عبد الهادي التَّازي وثمَّن كثيرًا هوامشه حيث أفادنا كثيرًا في هذه الدِّراسة خاصةً ما يتعلق بالحروب وبالمعارك التي خاضها الخليفة عبد المؤمن وولده يوسف ضدَّ الممالك المسيحيَّة، وقد

أورد في ضمنها الكثير من الرَّسائل التي تصف مشاهدها أو تحث النَّاس على الجهاد وما إلى ذلك من أمور الحرب وكذلك الثورات التي حدثت على الموحِّدين في بداية حكمهم للأندلس. وقد نقل عنه أغلب المؤرخين الذين جاؤوا بعده مثل ابن القطان وابن عذارى وغيرهما.

– كتاب "**الحُلَلُ المَوْشِيَّة في ذِكر الأخبار المرَّاكشيَّة**": لمؤلف أندلسي مجهول من القرن الثامن الهجري الرَّابع عشر الميلادي، حقَّقه سهيل زكار وعبد القادر زمامة. كما نَسب الأستاذ الدكتور عبد القادر بوباية هذا الكتاب إلى ابن سماك العاملي، وهو كتاب صغير الحجم عظيمُ الفائدة، يعتبر هذا الكتاب من أمهات الكتب التي تتحدث عن تاريخ دولتي المرابطين والموحِّدين، لكونه نقل معلوماته من مصادر تعتبر الآن مفقودة مثل كتاب ابن الصيرفي "**الأنوار الجلية في أخبار الدَّولة المرابطيَّة**". ويكاد من يطلع على هذا الكتاب، يستغني عن باقي المصادر والمراجع لما يقدمه من معلومات وفيرة جدًا عن تاريخ دولتي المرابطين والموحِّدين في المغرب والأندلس. وقد أفادني بمعلومات كثيرة عن معركتي الزَّلاقة وحصن لييط، وغيرهما من المعارك التي خاضها المرابطون والموحِّدون في الأندلس. كما أورد في كتابه وثائق هامَّة تتمثل في رسائل عدَّة تبادلها الأمراء المرابطون والموحِّدون مع ملوك النَّصارى، وقد أوردت بعض هذه الرَّسائل في الملاحق الخاصة بالبحث.

– كتاب "**البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**": لابن عذارى المرَّاكشي (كان حيًا سنة 712هـ/1112م) يقع هذا الكتاب على خمسة أجزاء، وهو أيضًا واحد من أهم المصادر لدراسة تاريخ المغرب والأندلس في هذه الفترة، وتكمن أهميته في أنَّ صاحبه اعتمد على مصادر بعضها مفقود مثل كتاب ابن الصيرفي "**الأنوار الجلية في أخبار الدَّولة المرابطيَّة**"، والجزأين المفقودين من كتاب "**المن بالإمامة**" لابن صاحب الصلاة، كما نقل عن البكري، ومصادر أندلسية أخرى ترجع إلى القرنين الخامس والسَّادس الهجري، وقد استفدت كثيرًا من هذا المصدر، وبخاصة جزءه الرَّابع المتعلق بالمرابطين، والذي حقَّقه المؤرخ الباحث إحسان عباس، والجزء الخامس الخاص بالموحِّدين، والذي حقَّقه مجموعة من الباحثين، حيث احتوى هذان الجزآن على معلومات غزيرة وقيِّمة عن جهاد المرابطين والموحِّدين في الأندلس.

– كتاب "**الأنيس المطرب بروض القرطاس**": لابن أبي زرع (ت726هـ/1325م) وهو كتاب نفيس المحتوى، استفدت منه في مواضع كثيرة في بحثي لأنَّه يحوي الكثير من التَّفاصيل المهمَّة عن دولتي المرابطين والموحِّدين منذ نشأتهما إلى سقوطها، كما أنَّه يُسلط الضوء على جهاد أمراء الدَّولتين في الأندلس.

– كتاب "**العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيَّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُلطان الأكبر**": لعبد الرَّحمان بن خلدون (ت808هـ-1405م)، يعتبر هذا الكتاب موسوعة شاملة لتاريخ المغرب والأندلس، ولا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه، وبالرغم من أنَّه أورد أخبار الدَّولتين المرابطيَّة والموحِّديَّة بشيء من الاختصار في الجزء السَّادس، إلَّا أنَّ معلوماته كانت دقيقة وقيِّمة، تناولت جميع أطوار تاريخ الدَّولتين من بدايتهما إلى نهايتهما.

– كتاب "**نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب**": لأحمد بن محمَّد المقرِّي التِّلمساني (ت1041هـ/1631م)، يعد هذا الكتاب بمثابة موسوعة شاملة لتاريخ الأندلس والمغرب في جميع جوانبه السِّياسيَّة، الفكريَّة والأدبية. وقد استخدمته في معظم أجزاء البحث خاصة ما يتعلق بأحوال دويلات الطَّوائف وأمرائها، وكذا تدخل أمراء المرابطين والموحِّدين في بلاد الأندلس، والمعارك التي خاضوها هناك.

كما استفدت أيضًا من مصادر أخرى لا تقل أهميةً عنها والتي أمدَّتني بمعلومات جد هامَّة أذكر منها كتاب "**تاريخ الأندلس**" وهو قطعة من كتاب "**الاكتفاء في أخبار الخلفاء**" لابن الكردبوس أبي مروان عبد الملك (كان حيًا أواخر القرن السَّادس الهجري)، وكتاب "**الكامل في التَّاريخ**" لعز الدِّين بن الأثير (ت630هـ/1232م)، وكتاب "**المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**" لعبد الواحد المرَّاكشي (ت647هـ/1250م)، وكتاب "**نُظُمُ الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزَّمان**" لابن القطان المرَّاكشي (توفي في منتصف القرن السَّابع الهجري)، وكتابَّي لسان الدِّين بن الخطيب (ت776هـ/1374م) "**أعمال الأعلام**"، و"**الإحاطة في أخبار غرناطة**".

2- كتب التَّراجم:

- كتاب "**الحُلة السِّيراء**": لمحمَّد بن عبد الله القضاعي المعروف بابن الأبَّار (ت658هـ/ 1260م)، وهو كتاب في جزأين، حقَّقه حسين مؤنس، حوى على تراجم للكثير من الشَّخصيات السِّياسيَّة والعلميَّة، تخللت هذه التَّراجم الكثير من المعلومات التَّاريخيَّة، وقد استعنت به في التَّعرف على أحوال بلاد الأندلس زمن أمراء الطَّوائف، وبعض أخبار المرابطين والموحِّدين بالأندلس.

- كتاب "**الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**": لابن بسام الشنتيري (ت542هـ/ 1147م)، وقد جاء كتابه على شكل موسوعة أدبية، ويعد هو الآخر من أهم مصادر تاريخ الأندلس، وأدبائها وشعرائها. كان معاصرًا للمرابطين، وشهد ذلك الصراع المرير بين المسلمين والنَّصارى في بلاد الأندلس، وعليه فإن كتابه جاء مليئًا بالمعلومات التَّاريخيَّة حول أمراء الطَّوائف والتي أعانتني في رصد حركة جهاد المرابطين في بلاد الأندلس.

- كتاب "**قلائد العَقيان في محاسن الأعيان**": لابن خاقان (ت529هـ/1134م) ويعتبر هذا الأخير مؤرخًا عايش فترة حكم المرابطين، ممَّا سمح له بتدوين تراجم لكثير من الأعلام والشَّخصيات السِّياسيَّة والأدبيَّة والفقهيَّة لبلاد الأندلس، وقد استفدت من كتابه هذا رغم أسلوبه الصَّعب الذي اهتم بالمبنى أكثر من المعنى، عند حديثه عن أمراء الطَّوائف ودولهم ومصيرها المحتوم.

3-كتب الجغرافيا:

- كتاب "**جغرافية الأندلس وأوروبَّا من كتاب المسالك والممالك**": للبكري أبي عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت487هـ/ 1094م)، حقَّقه عبد الرَّحمان علي الحجي، اشتمل على ذِكر بلاد المغرب والأندلس، وتكمن أهمية هذا المصدر في كون مؤلفه عاصر المرحلة الأولى من قيام دولة المرابطين، فأمدَّنا بمعلومات قيِّمة عن هذه الفترة حول كيفية تأسيس المرابطين لدولتهم والمعارك التي خاضوها مع أعدائهم قلَّما نجدها في مصادر أخرى، وأفادنا الكتاب أيضًا في وصف المدن المغربيَّة والأندلسيَّة.

– كتاب "**القارَّة الإفريقية وجزيرة الأندلس**" مقتبس من كتاب "**نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**": للإدريسي، أبي عبد الله محمَّد بن عبد الله الحمودي (ت560هـ/1164م)، يُعتبر من أهم المصادر الجغرافيَّة التي اعتنت بوصف مُدن المغرب والأندلس وصفًا دقيقًا وشاملًا، وأفادني هذا المصدر كثيرًا، حيث اعتمدت عليه في معظم أجزاء الرِّسالة، وقد زودني بمعلومات جغرافية قيِّمة عن الكثير من المدن والقرى ببلاد المغرب والأندلس، لم تتطرق إلى ذكرها باقي المصادر الجغرافيَّة.

– كتاب "**مُعجم البلدان**": للحموي أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرُّومي البغدادي (ت 626هـ/1228م) ويُعد هذا الكتاب من المعاجم الجغرافيَّة الهامَّة التي عنيت بذكر مدن بلاد المغرب والأندلس بصفة مختصرة ومفيدة، واستفدت منه في التَّعريف بالكثير من المدن والمواقعبهاذين الصقعين.

– كتاب "**الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**": للحِميري، محمَّد بن عبد المنعم الصَّنهاجي (توفي في منتصف القرن الثامن الهجري)، حقَّقه إحسان عباس، وعلى الرغم من أنَّ صاحبه يستمد أحيانًا معلوماته من كتاب البكري والإدريسي وصاحب الاستبصار، مع إدخال إضافات بسيطة، إلَّا أنَّ مصنفه يعتبر من المصادر التي لا غنى عنها في وصف مدن وقرى بلاد المغرب والأندلس وغيرهما من الأقطار، نظرًا للمعلومات القيِّمة التي يحتوي عليها، كما ساعدني أيضًا في تغطية الأحداث الخاصة بمعارك المسلمين والمسيحيِّين بالأندلس منها الزَّلاقة، أقليش والأرك.

وقد استعنت أيضًا بمجموعة أخرى من المصادر الجغرافيَّة مثل كتاب "**الجغرافيا**" لابن سعيد المغربي (ت685هـ/1286م)، وكتاب "**الاستبصار في عجائب الأمصار**" لمؤلف مرَّاكشي مجهول من أهل القرن السَّادس الهجري.

4– الدِّراسات الحديثة:

ولانجاز هذا البحث استعنت أيضًا بمجموعة معتبرة من الدِّراسات الحديثة والأعمال الجامعية، والتي كانت لي سندًا قويًا في دراستي في كثير من الجوانب، حيث أرشدتني هذه المراجع إلى التَّعرف على أراء أصحابها حول بعض الأحداث الواردة في هذا البحث، ويتقدمها:

– كتاب "**دولة الإسلام في الأندلس**": لمحمَّد عبد الله عنان، وهو بمثابة موسوعة، اعتنت بتاريخ حكم المسلمين في الأندلس من الفتح حتَّى سقوطه، وقد استفدت كثيرًا من الجزء الخاص بعصر الطَّوائف، والجزء المتعلق بفترة حكم المرابطين والموحِّدين في الأندلس.

– ويليه كتاب "**تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**": للمؤرخ الألماني يوسف أشباخ، يقع الكتاب على جزأين ترجمه إلى اللغة العربية محمَّد عبد الله عنان، وهو كتاب قيِّم أفادني كثيرًا في دراستي، حيث استعنت به لمعرفة الرِّوايات النَّصرانيَّة حول الأحداث، وموقف أصحابها من أمراء دولتي المرابطين والموحِّدين.

- ويأتي بعدهما في الأهمية كتاب المؤرخ الإسباني أمبروسيو هويثي ميراندا بعنوان "**التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**": ترجمه إلى اللغة العربية عبد الواحد أكمير، ويعتبر موسوعة هامَّة في تاريخ الموحِّدين السِّياسي في بلاد المغرب والأندلس، ذكر فيها مختلف الرِّوايات النَّصرانيَّة التي تناولت المعارك الدائرة بين جيش الموحِّدين والممالك المسيحيَّة في الأندلس.

– كما استخدمت في هذه الدِّراسة أيضًا كتاب "**قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**": لحسن أحمد محمود، الذي يُعد من أوائل الكتاب الذين تناولوا موضوع المرابطين، وكان له السَّبق في قراءة المصادر المرابطية ونقدها وإخضاعها للمقارنة، فقد عبَّد الطَّريق لكل من يريد خوض البحث حول الدَّولة المرابطية. اعتمدت عليه لدراسة معظم جوانب البحث، كما أنني استفدت كثيرًا من آرائه وتحليلاته ومناقشاته المختلفة المتعلقة بإشكالية الموضوع.

– وأشير كذلك إلى الكتابين اللذين ألَّفهما المؤرخ الهولندي الشهير رينهرت دوزي عنوانهما "**المسلمون في الأندلس**" و "**ملوك الطوائف**": ومن خلالهما تعرفت على وجهة نظر هذا المؤرخ وعموم مؤرخي المسيحيِّين التي تميزت بالتحامل الشديد والمقيت تجاه المرابطين والموحِّدين حيث ووصفهم بأشنع الأوصاف، وقد اغتنمت الفرصة للرد على هذه الادعاءات المغرضة بالحجة والدليل اعتمادًا على مختلف المصادر العربية سواء المعاصرة للأحداث مثل كتاب "**التِّبيان**" للأمير عبد الله بن

بلكين المعاصر لدولة المرابطين، وكتاب "**المن بالإمامة**" لابن صاحب الصلاة المعاصر لدولة الموحّدين، أو باقي المصادر الأخرى مثل كتاب "**الحُلل الموشية**" لمؤلف مجهول، وكتاب "**روض القرطاس**" لابن أبي زرع، وكتاب "**البيان المغرب**" لابن عذارى، وكتاب "**العِبر**" لابن خلدون.

وثمة مراجع أجنبية أخرى مترجمة أفادتني في هذه الدراسة أخص منها بالذكر كتاب "**الإسلام في المغرب والأندلس**" للمؤلف ليفي بروفنسال، وكتاب "**في تاريخ اسبانيا الإسلاميَّة**" للمؤرخ مونتغمري وات.

واعتمدت أيضًا على مراجع كثيرة ومهمَّة، منها كتاب "**أضواء جديدة على المرابطين**" لعصمت عبد اللَّطيف دندش، وكتاب "**جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**" لمعمر الهادي محمَّد القرقوطي، وكتاب "**دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**" لشعيب عبد الواحد، وكتاب "**تاريخ المغرب العربي- الجزء الرَّابع- المرابطون صنهاجة الصحراء الملثمون في المغرب والسودان والأندلس**" لسعد زغلول عبد الحميد، وكتاب "**النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحِّدين**" لتوفيق مزاري عبد الصَّمد.

وإلى جانب هذه الأدوات العلمية المذكورة، وظفت أيضًا مجموعة من المراجع باللغة الأجنبية، وكذلك بعض الرَّسائل الجامعية الحديثة، والمقالات الواردة في الكتب والمجلات التَّاريخيَّة، وهي مثبتة في القسم الخاص بها.

الفصل التَّمهيدي: استدعاء أمراء الطوائف للمرابطين إلى الأندلس لصدِّ حركة الاسترداد المسيحي

أولًا - أوضاع الأندلس السِّياسيَّة قبل عبور المرابطين إليها

ثانيًا - أسباب العبور المرابطي للأندلس

تعرضت بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة الأمويَّة سنة 422هـ/1031م إلى محنة عظيمة، حيث انقسمت هذه البلاد إلى حوالي ثلاث وعشرون دويلة، عرفت بدويلات الطَّوائف وقد انتشرت هذه الدويلات في أرجاء الأندلس وتكاثر عددها واختلفت توجهاتها ونزعاتها ممَّا ولَّد صراعًا عنيفًا ومتواصلًا فيما بينها، كانت نتيجته تسلل الوهن والضعف إلى جميع بلاد الأندلس فشجع المسيحيِّين على شنِّ حرب ضروس على المسلمين في جميع بلاد الأندلس عرفت بحروب الاسترداد.

واشتدت هذه الحروب وقوي خطرها في عهد ألفونسو السَّادس أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) الذي قام بتوحيد القوى المسيحيَّة من أجل محاربة المسلمين، وقد تكلَّلت جهوده بالاستيلاء على إحدى حواضر بلاد الأندلس الكبرى وهي مدينة طليطلة سنة 478هـ/1085م، وكان سقوطها نذير بوقوع كامل بلاد الأندلس في أيدي الصَّليبيِّين، حيث اشتد الخطر على المسلمين أكثر من ذي قبل بتعاظم حركة الاسترداد، وتحمس القوى الصَّليبيَّة لطرد المسلمين نهائيًا من بلاد الأندلس.

وقد سارع أمراء الطَّوائف إلى نيل ود ألفونسو السَّادس ودفعوا له إتاوات وهدايا عديدة، ولكنه لم يقنع بخراجهم المادي، بل أراد امتلاك جلَّ أراضيهم، فقام بشنِّ الغارات على جميع بلاد الأندلس.

فلم يجد أهل الأندلس وأمراؤها غير الإسراع إلى طلب النَّجدة من المرابطين ببلاد المغرب وأميرهم يوسف بن تاشفين، الذي هبَّ على عجل إلى الجواز إلى الأندلس لنجدة إخوانه المهدَّدين وإيقاف زحف الصَّليبيِّين على بلادهم.

أولًا- أوضاع الأندلس السِّياسيَّة قبل عبور المرابطين إليها:

1- أوضاع الإمارات الإسلاميَّة:

مع مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بدأ الضعف يدب في أركان الخلافة الأمويَّة[1] بالأندلس[2] والتي انهارت كليةً سنة **422**هـ/**1031**م[3] بإعلان الوزير أبي الحزم بن جَهْوَر[4] سقوطها، بعد خلع آخر خلفاء بني أميَّة هشام بن محمَّد المعتد بالله، وقد نتج عن ذلك

1- أسَّسها بالأندلس عبد الرَّحمان بن مُعاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي الملقَّب بالداخل سنَّة 138هـ/755م بعد أن هرب من اضطهاد العباسيِّين بالمشرق الإسلامي إثر سقوط الخلافة الأمويَّة في معركة الزاب سنة 132هـ/749م، اتخذ الأمويون من مدينة قرطبة عاصمةً لدولتهم التي عاشت حوالي ثلاثة قرون، مرت خلاها بثلاث مراحل رئيسية وهي مرحلة الإمارة 138-316هـ/755-928م، مرحلة الخلافة 316-366هـ/928-977م، مرحلة الدَّولة العامريَّة 366-422هـ/977-1031م. (انظر: مجهول: **كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها**، تحقيق وتعليق إسماعيل العربيّ، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1989م، ص121 وما بعدها ؛ ابن خلدون: **العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيَّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2000م، ج4، ص154 وما بعدها ؛ عبد المجيد نعنعي: **تاريخ الدَّولة الأمويَّة في الأندلس- التَّاريخ السِّياسي**، دار النَّهضة العربيَّة للطَّباعة والنَّشر، بيروت، د.ت، ص133 وما بعدها ؛ راغب السرجاني: **الموسوعة الميسَّرة في التَّاريخ الإسلاميّ**، ط1، مؤسَّسة اقرأ، القاهرة، 2005م، ج1، ص375).

2- تمَّ فتح بلاد الأندلس سنة 92هـ/711م على يد طارق بن زياد البربري مولى موسى بن نُصير أمير إفريقية في عهد بني أمية. (انظر: ابن عبد الحكم: **فتوح أفريقيا والأندلس**، حقَّقه وقدَّم له عبد الله أنيس الطبَّاع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1964م، ص70 وما بعدها ؛ البلاذري: **فتوح البلدان**، تحقيق عبد القادر محمَّد علي، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2000م، ص141 وما بعدها ؛ ابن القوطية: **تاريخ افتتاح الأندلس**، تحقيق وتعليق إسماعيل العربيّ، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1989م، ص22 وما بعدها ؛ جرجي زيدان: **فتح الأندلس أو طارق بن زياد**، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص3 وما بعدها).

3- ابن الوردي: **تاريخ ابن الوردي** – أو- **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1996م، ج1، ص319 ؛ علي حبيبة: **مع المسلمين في الأندلس**، مكتبة الشباب، مطابع سجل العرب، مصر، 1972م، ص229.

4- هو جَهْوَر بن محمَّد بن جَهْوَر يُكنى بأبي الحزم ولد سنة 364هـ/974م، تولى حكم قرطبة سنة 422هـ/1031م وأحسن تدبيرها، سارت به الأمثال وعدم فيها المثال، وكان له أدب ووقار وحلم، وعُرف بالدَّهاء ورجاحة العقل وكان كثير البِرِّ والإحسان حيث كان يشهد الجنائز ويعود المرضى، عاشت قرطبة في أيامه بأمن ورخاء إلى أن توفي في صفر سنة 435هـ/1043م عن عُمر بلغ إحدى وسبعين سنة. (انظر: الحُميدي: **جَذْوَةُ المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق=

قيام ما يُعرف بدول الطَّوائف، حيث استقل كل أمير أو وزير أو قاضي بمدينة من المدن وأعلن نفسه حاكمًا عليها، والتفت هذه الدويلات إلى محاولة التَّوسع على حساب أراضي وممتلكات وحدود المدينة المجاورة، فولَّد كل هذا صراعًا وعداءً انتهى في كثير من الأحيان إلى معارك وحروب طاحنة، ويُعد هذا العهد من تاريخ بلاد الأندلس أكثر الفترات تعقيدًا وتشابكًا واضطرابًا[1].

وتلقَّب هؤلاء الأمراء المتغلبون بألقاب الخلافة كالمتوكِّل والمعتضد والمعتمد والمستعين وغيرها[2]، فجلب لهم ذلك هجاء الشُّعراء حيث وصفهم ابن رشيق القيرواني[3] ساخرًا منهم بقوله:

= إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م، مج7، ص59 وما بعدها ؛ ابن خاقان: **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، ط1، مطبعة الجوائب، قسنطينة، الجزائر، 1302هـ/1884م، ص15 ؛ ابن بشكوال: **كتاب الصِّلة**، تحقيق ابراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م، مج11، ج1، ص215 ؛ الضَّبي: **بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م، ج1، ص319 ؛ ابن سعيد المغربي: **المُغرب في حُلى المغرب**، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ص56 ؛ الذهبي: **العِبر في خبر من غبر**، حقَّقها وضبطها على مخطوطتين أبو هاجر محمَّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميَّة، بيروت، د.ت، ج2، ص270-271).

1- محمَّد سهيل طقوش: **تاريخ المسلمين في الأندلس 91-898هـ/710-1492م**، دار النفائس، بيروت، 2008م، ص427.

2- وصف ابن جُبير في رحلته سلاطين مدينة دنيصر القريبة من مدينة الموصل بالعراق بأوصاف مذمومة وشبههم بأمراء الطَّوائف بالأندلس حيث قال: كلهم قد تَحَلَّى بحليةٍ تُنسب إلى الدِّين، فلا تسمع إلَّا ألقابًا هائلة، وصِفات لِذي التَّحصيل غير طائلة، قد تساوى فيها السوقة والملوك، واشترك فيها الغني والصعلوك، ليس فيهم من اتَّسم بسمة به تليق، أو اتَّصف بصفة هو بها خليق). (انظر: ابن جُبير: **رحلة ابن جُبير**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص216).

3- هو أبو عليّ الحسن بن رشيق المسيلي القيرواني الصِّقلي أديب وشاعر ولد في حدود سنة 390هـ/999م بالمحمديَّة وهي مدينة المسيلة بالمغرب الأوسط، وقيل ولد بالمهديَّة بتونس، والده مملوك رومي من موالي الأزد وكان يعمل بالمسيلة صائغًا فعلَّمه صنعته، كما تعلَّم بها الأدب ثمَّ ارتحل إلى القيروان سنة 406هـ/1015م واشتهر بها، له عدَّة تصانيف منها كتاب العُمدة في معرفة صناعة الشِّعر ونقده وعيوبه، وكتاب قراضة الذَّهب، وكتاب الشُّذوذ في اللغة، وكتاب طراز الأدب، وكتاب معالم التَّاريخ وغيرها، توفي بمدينة مازر بصقلية سنة 463هـ/1071م. (انظر: المرَّاكشي: **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط1، منشورات محمَّد عليّ بيضون دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1998م، ص53 هامش 1 ؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان**، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، د.ت، ص85 وما بعدها).

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ   سَمَاعُ مُقْتَدِرٍ فيها ومُعْتَضِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا   كالهِرِّ يَحكِي انتفَاخًا صَوْلَةَ الأَسَدِ[1]

وبلغ عدد دويلات الطَّوائف حوالي ثلاثٌ وعشرون دويلة[2]، تتفاوت فيما بينها من حيث القوَّة والضُّعف، برزت منها حوالي سبع دول رئيسية غلبت على جميع الدُّويلات الأخرى أو تحالفت معها[3]، وتتمثل هذه الدُّويلات في:

دولة بني جَهْوَر بقرطبة[4]: برئاسة أبي الحزم بن جَهْوَر، الذي بايعه أهلها بالرِّئاسة بعد أن لمسوا فيه الخير والصلاح وحسن التَّدبير[5]، وقد دبَّرها أحسن تدبير إلى غاية وفاته سنة 435هـ/1043م، فخلفه ابنه أبو الوليد محمَّد الذي اقتفى أثر أبيه، لكنه زهد في الإمَّارة، وقدَّم ابنه عبد الملك الذي لم يكن في المستوى المطلوب، فاضطربت أحوال قرطبة في عهده، ما سهَّل

1- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص53 ؛ ابن أبي الضياف: **إتحاف أهل الزَّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تحقيق لجنة من كتابة الدَّولة للشؤون الثقافيَّة والأخبار، الدار التونسيَّة، تونس، 1976م، ج$_1$، ص69-70 ؛ شكيب أرسلان: **الحُلل السُّندسيَّة في الأخبار والآثار الأندلسيَّة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج$_1$، ص248 .

2- مريم قاسم طويل: **مملكة المريَّة في عهد المعتصم بن صمادح 443-484هـ/1051-1091م**، ط$_1$، مكتبة الوحدة العربيَّة، الدار البيضاء، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1994م، ص27 .

3- محمَّد سهيل طقوش، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، ص430 .

4- مدينة عظيمة هائلة، قاعدة الأندلس وقُطبها وأم مدائنها وقطرها الأعظم، أنشأها عبد الرَّحمان بن مُعاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي سنَّة 138هـ/755م وجعلها عاصمة لملك بني أميَّة، وهي طيِّبة الماء والهواء وكثيرة البساتين والحُصون والقِلاع. (انظر: الحموي: **المُشتركُ وضعًا المفترقُ صقعًا**، ط$_2$، عالم الكتب، بيروت، 1986م، ص206 ؛ الحِميري: **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عبَّاس، ط$_1$، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ص456 وما بعدها ؛ الغزَّال: **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد** (**رحلة الغزَّال وسفارته إلى الأندلس**) تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1984م، ص95). (انظر أيضًا: **خريطة رقم 1**، ص432).

5- الحُميدي: **جَذْوَةُ المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النَّباهة والشِّعر**، تحقيق وتقديم صلاح الدِّين الهواري، ط$_1$، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1425هـ/2004م، ص34 ؛ عبد المجيد نعنعي، **تاريخ الدَّولة الأمويَّة في الأندلس**، ص530-531 .

على صاحب طليطلة[1] يحي بن ذي النُّون[2] الاستيلاء عليها مدَّة من الزمن، ثمَّ استولى عليها بعده المعتمد بن عبَّاد[3] صاحب إشبيلية[4] وذلك سنة **462**هـ/**1070**م وانتهى بذلك حكم بني جَهْوَر لقرطبة بعد أن استمر حوالي أربعين عاماً[5].

1– تقع على هضبة مرتفعة تقريبًا في وسط شبه الجزيرة الأندلسيَّة، فتحها المسلمون بقيادة طارق بن زياد في شهر رمضان سنة 92هـ/711م، وهي من أقدم هذه البلاد وأمنعها وأعذبها ماءً، وأطيبها هواءً، ولها من جميع جهاتها أقاليم وقلاع منيعة، وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المعروف بالشارات (Sierra) وتبعد عن قرطبة التي تحدها من الجنوب الغربي بتسع مراحل ونفس المسافة تبعدها عن لشبونة غربًا وعن بلنسيَّة بين شرق وجنوب، وتبعد عن مدينة وادي الحجارة شمالاً خمسون ميلًا. (أنظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1983م، ص256 وما بعدها ؛ مجهول، **تاريخ الأندلس**، تحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2007م، ص91 وما بعدها ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص393 وما بعدها) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 1**، ص432).

2– هو أبو الحسن يحي بن إسماعيل بن ذي النُّون، تلقَّب بالمأمون، تولى الحُكم بعد وفاة أبيه سنة **435**هـ/**1043**م، كان كريمًا شجاعًا، وكان من بين أقوى أمراء الطَّوائف، توفي سنة **467**هـ/**1074**م. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص**259–260**).

3– هو محمَّد بن عبَّاد بن محمَّد بن إسماعيل اللَّخميّ الملقَّب بالظافر والمؤيد بالله والمعتمد على الله ولكن المعتمد هو اللَّقب الذي غلب عليه واشتهر به، ولد بمدينة باجة في ربيع الأوَّل سنة 431هـ/1040م وقيل سنة 432هـ/1041م، تولى الحكم بعد وفاة أبيه المعتضد بالله سنة 461هـ/1068م ويُعتبر من أقوى أمراء الطَّوائف، كان من أوائل المبادرين بالاستنجاد بالمرابطين لنصرة أهل الأندلس من عدوان النَّصارى الصَّليبيِّين وكان من أبطال معركة الزَّلاقة سنة 479هـ/1086م، استولى المرابطون على عاصمة دولته إشبيلية في شهر رجب 484هـ/1091م بعد أن ثبتت خيانته بتعاونه مع النَّصارى وقُبض عليه وأُخِذ أسيرًا مع أهله إلى بلاد المغرب وتوفِّي بمدينة أغمات في شهر ربيع الأوَّل سنة 488هـ/1095م ودفن بظاهر المدينة. (انظر: ابن الأبَّار: **الحُلَّة السِّيراء**، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ج2، ص52 وما بعدها ؛ ابن بسَّام: **الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق سالم مصطفى البدري، ط1، دار الكتاب العلميَّة، بيروت، 1998م، ج2، ص31؛ ابن قنفذ: **كتاب الوفيات**، تحقيق عادل نويهض، ط4، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983م، ص260 ؛ الزّركلي، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرِّجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م، ج3، ص257).

4– مدينة كبيرة قديمة البناء أوَّليَّة ويقال أنَّ الذي بناها هو يوليوس قيصر، تعتبر من أعظم مدن بلاد الأندلس، عُرفت عند المسلمين باسم حِمص وهي تقع غرب قرطبة بينهما أربعة أيام، وهي على شاطئ نهر عظيم يقال له الوادي الكبير. (انظر: البكري: **جغرافية الأندلس وأوروبَّا من كتاب المسالك والممالك**، تحقيق عبد الرَّحمان علي الحجي، ط1، دار الإرشاد للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، **1968**م، ص**107** وما بعدها ؛ القزويني: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار بيروت للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1984م، ص**497**) ؛ (أنظر أيضًا: **خريطة رقم 1**، ص**432**).

5– الحُميدي، **جَذْوَةُ المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، ص**37** ؛ الضَّبي، **بُغية الملتمس** ج1، ص**57** .

دولة بني عبَّاد بإشبيلية: أسَّسها محمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد[1] سنة 414هـ/1023م وبلغت العظمة في عهد حفيده المعتمد بن عبَّاد بالخصوص بعد استيلائه على قرطبة، وأصبح أشهر أمراء الطَّوائف وأجلِّهم، قال عنه ابن الأثير أنَّه كان من محاسن الدُّنيا كرمًا وعلمًا وشجاعةً ورئاسةً تامةً[2].

دولة بني ذي النُّون بطليطلة: تأسَّست بعد سقوط الخلافة الأمويَّة بالأندلس عام 427هـ/1036م على يدِّ إسماعيل بن عبد الرَّحمان بن ذي النُّون وهو من أصل بربري تلقب بالظافر بحول الله[3]، حكم طليطلة إلى غاية وفاته سنة 435هـ/1043م وخلفه ابنه يحي الملقَّب بالمأمون وعرفت طليطلة في عهده صراعًا كبيرًا بينه وبين باقي أمراء الطَّوائف خاصة المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيليَّة والمقتدر بالله بن هود[4] صاحب سرقسطة[5]،وإثر وفاته سنة 467هـ/1074م

1- أبو القاسم محمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد اللخمي قاضي إشبيلية ورئيسها، كان ذا أدب ومروءة ومن أهل العناية بالعلم، حاز رياسة إشبيلية وأورثها عَقبه، توفي في شهر جمادى الأولى عام 433هـ/1041م. (انظر: ابن بشكوال، **كتاب الصَّلة**، ج$_2$، ص765 ؛ ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَراء**، ص34 وما بعدها ؛ ابن عذارى: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ج$_3$، ص194 وما بعدها ؛ النباهي: **تاريخ قضاة الأندلس – أو – المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، تحقيق مريم قاسم طويل، ط$_1$، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1995م، ص125).

2- ابن الأثير: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1966م، مج$_{10}$، ص248.

3- ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ج$_1$، ص 319 .

4- هو أبو جعفر أحمد بن سليمان بن هود الملقَّب بالمقتدر بالله، كانت حصته من مُلك أبيه مدينة سرقسطة، استبدَّ بالحكم على إخوته واستولى على كثير من المدن في الثَّغر الأعلى للأندلس، فغدت سرقسطة في عهده من بين أقوى دويلات الطَّوائف إلى غاية وفاته يوم الخامس من جمادى الأولى سنة 474هـ/10 أكتوبر 1081م، وقد ملك ست وثلاثين سنة. (انظر: مجهول، **فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير**، تحقيق حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر، د.ت، ص79 ؛ ابن عذارى، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق إحسان عبَّاس، ط$_5$، دار الثقافة، بيروت، 1998م، ج$_4$، ص54-55).

5- مدينة كبيرة القُطر تقع شمال شرق الأندلس على ضفة النهر الكبير المسمى إيبرو، اسمها الايبيري القديم هو سلدوبا (Salduba) ثمَّ سماها الرومان (Caesarea Augusta) ثمَّ تحور الاسم أيام القوط إلى (Cesaragusta) ثمَّ صار أيام المسلمين سرقسطة، وهي قاعدة الثغر الأعلى في أيامهم، وتُعرف بالمدينة البيضاء لأنَّ عليها نورٌ مشرق، منها إلى وشقة أربعون ميلًا، ومنها إلى تطيلة خمسون ميلًا، وهي طيبة الماء والهواء وواسعة الشَّوارع، وحسنة الدِّيار والمساكن وكثيرة البساتين. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص277-278 ؛ ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس وهو قطعة من كتاب** =

خلفه في الحكم حفيده يحي بن إسماعيل الملقَّب بالقادر[1] وزادت في عهده أحوال طليطلة اضطرابًا وتدهورًا واشتد الصِّراع بينه وبين باقي أمراء الطَّوائف، ممَّا جعله يستعين بالنَّصارى الصَّليبيِّين للتَّخلص من تهديدهم[2]، وبذلك بدأت مرحلة النِّهاية بالنِّسبة لدولة بني ذي النُّون بطليطلة والتي استولى عليها النَّصارى سنة 478هـ/1085م[3].

= **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، تحقيق أحمد مختار العبَّادي، مطبعة معهد الدِّراسات الإسلاميَّة، مدريد، 1971م، ص118-119، هامش2 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص317 ؛ مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص127 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ عنان محمَّد عبد الله: **دولة الإسلام في الأندلس– العصر الثَّالث– عصر المرابطين والموحِّدين في المغرب والأندلس – القسم الأوَّل– عصر المرابطين وبداية الدَّولة الموحِّدية**، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990م، ص86). (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**، ص434).

1- هو يحي بن إسماعيل بن ذي النُّون الملقَّب بالقادر من أصل بربري من قبائل هوارة، تولى حكم طليطلة منذ سنة 467هـ/1075م خلفًا لجده المأمون، كان ضعيف الشَّخصيَّة فانشغل عن أمور الحكم وتفرغ لحياة التَّرف واللَّهو فبلغت مدينة طليطلة في عهده مرحلة متقدمة من الضُّعف والاضطراب فأدى ذلك إلى سقوطها بيد ملك النَّصارى ألفونسو السَّادس سنة 478هـ/1085م، وفي تلك السَّنة آلت إليه مدينة بلنسيَّة تعويضًا له على استسلامه في طليطلة ولكنه لم يكن الحاكم الفعلي لها حيث كان ألعوبةً في يدي ألفونسو السَّادس والسيد القمبيطور وكان هذا الأخير يجبره على دفع إتاوة (ضريبة) سنوية مقدارها 120 ألف دينار مقابل حمايته من أطماع أبناء ملته أمراء الطَّوائف وعدم الاعتداء على مدينة بلنسيَّة، واستمر الوضع على حاله إلى غاية دخول القوَّات المرابطيَّة إلى بلنسيَّة يوم الجمعة السَّابع من رمضان سنة 485هـ/12 أكتوبر 1092م حيث تمَّ قتل القادر والتَّنكيل بجثته. (انظر: ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، ج4، ص94-95 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص31-32 ؛ شكيب أرسلان: **الحُلَلُ السُّندسيَّة**، ج3، ص56 ؛ ليفي بروفنسال: **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمَّد صلاح الدِّين حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، 1995م، ص135 وما بعدها ؛ عنان، **دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثَّاني، دول الطَّوائف منذ قيامها حتَّى الفتح المرابطي**، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ص106 وما بعدها).

2- ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، ج4، ص93 وما بعدها ؛ إبراهيم بيضون: **الدَّولة العربيَّة في إسبانيَّة من الفتح حتَّى سقوط الخلافة 92-422هـ/711-1031م**، ط3، دار النَّهضة العربيَّة، بيروت، 1986م، ص369 وما بعدها.

3- أغلب المصادر التَّاريخيَّة اكتفت بذكر سنة سقوط طليطلة وهي 478هـ/1085م دون ذكر اليوم والشهر، واختلفت باقي المصادر في تحديد التَّاريخ بدقة، حيث يذكر ابن الأبَّار بأنَّ السقوط كان يوم الأربعاء 10 محرم سنة 478هـ/1085م، بينما يقول ابن خلكان بأنَّه حدث يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة 478هـ/1085م، ويذكر المقَّري التَّاريخين معًا دون ترجيح أحدهما عن الآخر. (انظر: ابن الأبَّار: **كتاب التَّكملة لكتاب الصِّلة**، تحقيق الفريد بل، وابن أبي شنب، المطبعة الشرقيَّة، الجزائر، 1919م، ص29 ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج7، ص27 ؛ المقَّري: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرَّطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988م، مج4، ص352 وما بعدها).

دولة بني هود بسرقسطة: أسَّسها المستعين بالله سليمان بن هود الجذامي في الثَّالث محرم سنة 431هـ/24 سبتمبر 1039م[1] بعد أن تخلَّص من سلطة التَّجبيِّين[2]، كان من أقوى أمراء الأندلس ويُذكر بأنَّه لم يستعن بالنَّصارى في مواجهته لخصومه أمراء الطَّوائف ومع ذلك استطاع إيقاف طموحاتهم، وظلَّت سرقسطة صامدة في عهده إلى غاية وفاته سنة 438هـ/1046م[3] حيث اضطربت أحوال الدَّولة بسبب الصِّراعات اللامتناهية التي ظهرت بين أولاده الخمسة الذين استقل كل واحد منهم بحكم مدينة من المدن، واستعان كل طرف بالنَّصارى للقضاء على أخيه والاستيلاء على ملكه، إلى أن استبد المقتدر بالله بالأمر فعلت مكانة سرقسطة في عهده إلى غاية وفاته يوم الخامس من جمادى الأولى سنة 474هـ/10 أكتوبر 1081م[4] فعاد الاضطراب من جديد بظهور صراع بين ولديه، واستمر الوضع على حاله إلى غاية قدوم المرابطين[5].

1- مجهول، **فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير**، ص79. (غير أنَّ ابن عذارى يذكر تاريخ آخر لاستيلاء المستعين بالله سليمان بن هود على سرقسطة وهو شهر ذي الحجة سنة 436هـ/1044م). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص54).

2- استولى بنو تجيب على حُكم سرقسطة بزعامة محمَّد بن عبد الرَّحمان المعروف بالأنقر زمن الخلافة الأمويَّة بقرطبة، وخلفه في حكمها أبناءه وأحفاده إلى غاية استيلاء المستعين بالله سليمان بن هود عليها في الثَّالث محرم سنة 431هـ/24 سبتمبر 1039م. (انظر: مجهول، **فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير**، ص79 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص54 ؛ محمَّد سهيل طقوش، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، ص450-451 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي: **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، دراسة سياسيَّة وحضاريَّة**، دار الندوة الجديدة، بيروت، 1985م، ص138-139).

3- يخالف صاحب كتاب فتح الأندلس، ابن عذارى في تحديد تاريخ وفاة المستعين بالله سليمان بن هود حيث يذكر بأنَّه توفي في شهر ذي القعدة سنة 448هـ/1056م، وأعتقد أنَّ رأي ابن عذارى هو الأرجح لأنَّ المقتدر بالله الذي خلف والده المستعين بالله توفي سنة 474هـ/1081م، وحكم مدة ست وثلاثين سنة، وباحتساب عدد السنين نجد أنَّ سنة وفاة المستعين بالله وتولي المقتدر بالله هي 438هـ/1046م. (انظر: **فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير**، ص79 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص54-55).

4- مجهول، **فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير**، ص79 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص55 .

5- يُنتسب المرابطون الذين عُرفوا بالملثَّمين إلى قبائل صنهاجة الجنوب، والتي اختلف المؤرخون في نسبها، فمنهم من ينسبها إلى قبيلة حِمْيَرَ باليمن كرواية ابن عذارى وابن أبي زرع وصاحب الحُلل الموشيَّة، وابن الأثير الذي قال بأنَّهم دخلوا إلى المغرب مع موسى بن نُصير وتوجهُّوا مع طارق بن زياد إلى مدينة طنجة فأحبوا الإنفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها، بينما أورد ابن خلدون في تاريخه روايتين الأولى تنسبهم إلى حِمْيَرَ باليمن، والرِّواية الثَّانيَّة نقلها من المحقِّقين من نسابة البربر حيث تنسب صنهاجة إلى البربر الذي قال عنهم أنَّهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السَّلام، في حين يرى ابن حزم الأندلسي أنَّهم بربر =

دولة بني عامر ببلنسيَّة[1]: استولى عليها العنصر الصقلبي وحكمها مجاهد العامري، ثمَّ استولى عليها عبد العزيز بن عبد الرَّحمان شنجول عام 411هـ/1021م كما استولى على مدينتي شاطبة[2] والمريَّة[3] بشرق الأندلس، وقد ساد الأمن في ربوع دولته حتَّى وفاته عام 452هـ/1060م

= وليسوا من حِمْيَرَ حيث قال: "ولا كان لحِمْيَرَ طريق إلى بلاد البربر، إلَّا في تكاذيب مؤرخي اليمن"، وعلى الرغم من هذا الاختلاف فإنَّ المرابطين كانوا يُمدحون بنسبهم إلى حِمْيَرَ والدليل على ذلك قول الفقيه الكاتب أبو محمَّد بن حامد:

قَوْمٌ لَهمُ شَرَفُ العُلاَ مِنْ حِميَرٍ   وإن انتَمُوا صَنْهَاجَةً فَهُمْ هُمُ

لمَّا حَوَوا أَحوَازَ كلِّ فضيلةٍ   غَلَبَ الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا

(انظر: **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت، ص495 وما بعدها ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص618 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص7 وما بعدها ؛ **الأنيس المُطرِب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصورة للطِّباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص119 وما بعدها ؛ **الحُلل الموشيَّة في ذكر الأخبار المُرَّاكشيَّة**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرَّشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979م، ص15 وما بعدها ؛ **العِبر**، ج6، ص181 وما بعدها ؛ ابن عبدون: **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، نُشرت ضمن ثلاث رسائل أندلسية، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقيَّة، القاهرة، 1955م، مج2، ص28 ؛ ابن خليل غلبون الطرابلسي، **تاريخ طرابلس وما كان بها من الأخبار**، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، المطبعة السلفيَّة، القاهرة، 1930م، ص65، هامش1 ؛ محمَّد الأمين بلغيث: **فصول في التَّاريخ والعمران بالغرب الإسلامي**، ط1، منشورات أنتر سيتي، الجزائر، 2007م، ص37 وما بعدها). (حول الرِّباط، انظر: محمَّد الأمين بلغيث: **الرُّبط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحِّدين**، رسالة ماجستير في التَّاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، قسم التَّاريخ، 1987م، ص29 وما بعدها).

1- مدينة مشهورة بشرق الأندلس على تسع مراحل من مدينة سرقسطة، وهي برية بحرية بينها وبين البحر المتوسط أربعة كيلومترات، وهي على نهرٍ جارٍ يُنتفع به ويسقي المزارع ولها عليه بساتين وجنات وعمارات متصلة، وبها أسواق وتجارات. (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج1، ص490 ؛ الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص280-281 ؛ مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص133) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**).

2- مدينة بشرق الأندلس قريبة من جزيرة شقر، جليلةً، مُتقنة، حصينة، لها قصبتان مُمتنعتان، وهي كريمة البُقعة، طيِّبة الهواء، تبعد عن مدينة دانية خمسة وعشرون ميلاً، وعن بلنسيَّة اثنان وثلاثون ميلًا. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص281 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص337) ؛ (أنظر أيضًا: **خريطة رقم 4**).

3- مدينة حديثة تقع جنوب شرق الأندلس بناها عبد الرَّحمان النَّاصر لدين الله الأموي سنة 344هـ/955م، وهي على ساحل البحر الرومي، تبعد عن مدينة مالقة برًا مسيرة سبعة أيام وبحرًا مسافة مائة وثمانون ميلًا، عليها سُورٌ حصينٌ، بها المتاجر العظيمة والصِّناعات الكثيرة. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص289-290 ؛ ابن الخرَّاط الإشبيلي: **الأندلس في اختصار اقتباس الأنوار**، تقديم و تحقيق ايميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلميَّة =

فخلفه ابنه عبد الملك الذي تلقّب بنظام الدّولة وبالمظفر[1]، تعرضت في عهده مدينة بلنسيَّة لهجوم من صاحب طليطلة المأمون بن ذي النُّون فاستولى عليها، وبوفاة المأمون انتهز أبو بكر محمَّد بن عبد العزيز العامري الفرصة، واستقل ببلنسيَّة عام 467هـ/1075م وظلَّت طوال عهده محل صراع بين صاحب طليطلة القادر بن ذي النُّون وصاحب سرقسطة المستعين بن هود، وكانت الغلبة في سنة 478هـ/1085م لصاحب طليطلة حيث استولى على بلنسيَّة بمساعدة ملك النَّصارى ألفونسو السَّادس[2].

دولة بني الأفطس ببطليوس[3]: كان أوَّل ظهور لها سنة 413هـ/1022م عندما استولى

= معهد التَّعاون مع العالم العربي، مدريد، 1990م، ص164 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص537-538) ؛ (أنظر أيضًا: **خريطة رقم4**، ص435).

1- عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرَّحمان العامري، بويع بشاطبة وبلنسيَّة يوم وفاة أبيه عام 452هـ/1060م، استمر في حكم بلنسيَّة وساءت سيرته، فتمكن صهره صاحب طليطلة من القبض عليه سنة 458هـ/1065م ونفيه إلى مدينة شنت برية التي توفي فيها. (انظر: الزِّركلي، **الأعلام**، مج4، ص160).

2- (Alphonse VI) تُسميه المصادر الإسلاميَّة الأذفنش أو الأذفونش وأحيانًا الفُنْش، وهو ابن فرديناند الأوَّل، ولد سنة 421هـ/1030م وكان رَجُلًا طموحًا قضى على مُلك إخوته وأعلن نفسه إمبراطورًا على ليون، قشتالة، جليقية ونافارا، تعرض لهزيمة قاسية في معركة الزَّلاقة سنة 479هـ/1086م، استمر في حرب المسلمين بالأندلس إلى غاية وفاته بطليطلة في شهر ذي الحجة سنة 502هـ الموافق لشهر جويلية 1109م وقد مات همًا وحزنًا على أثر مقتل ابنه الوحيد سانشو (شانجة) في معركة أقليش (Uclés). (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص50 وما بعدها ؛ الزِّركلي، **الأعلام**، مج6، ص181 ؛ أشباخ يوسف: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ترجمة وتعليق محمَّد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996م، ج1، ص125 وما بعدها ؛ سيد أمير عليّ: **مختصر تاريخ العرب**، ترجمة عفيف البعلبكي، ط2، دار العلم للملايِّين، بيروت، 1967م، ص435 ؛ قايد مولود: **البربر عبر التَّاريخ في إسبانيا الإسلاميَّة ابتداء من عام 711م**، ترجمة إبراهيم سعدي، دار النشر ميموني، الجزائر، 2007م، ص171- 172).

3- مدينة عظيمة تقع شمال غرب قرطبة على نهر في بسيط من الأرض، وهي مدينة حصينة كثيرة الفواكه والزرع، منها إلى إشبيلية مسيرة ستَّة أيام، ومنها إلى قرطبة ستَّة مراحل وإلى مدينة ماردة على نهر يانة (Guadiana) شرقًا ثلاثون ميلًا. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص268-269 ؛ أبو الفداء: **تقويم البلدان**، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود والبارون ماك كوكين دسيلان، دار صادر، بيروت، 1840م، ص174 ؛ مجهول: **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق وترجمة لويس مولينا، مدريد، 1983م، ج1، ص53 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص93) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم4**، ص435).

الوزير عبد الله بن محمَّد بن مسلمة[1] على حكم بطليوس، ودخل مثل باقي أمراء الطَّوائف في حروب عنيفة حيث كان له صراع مرير مع المعتمد بن عبَّاد من أجل الاستيلاء على مدينة باجة[2] والتي كانت من نصيب بني الأفطس، وعندما آل حُكم بطليوس لمحمَّد الملقَّب بالمظفَّر سنة 437هـ/1045م صار على نهج والده في عداوة ابن عبَّاد، كما دخل في صراع مع المأمون بن ذي النُّون صاحب طليطلة واستمر حاله على هذا النحو إلى غاية وفاته عام 461هـ/1068م[3] فخلفه ابنه عمر الملقَّب بالمتوكِّل على الله[4]، الذي استولى على طليطلة عام 473هـ/1080م

1- هو عبد الله بن محمَّد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، كان وزيرًا لسابور الفارسي والي بني أميَّة، تنتمي أسرته إلى إحدى القبائل البربريَّة بمدينة مكناسة المغربيَّة، وأصله من بلدة فحص البلوط بمدينة قرطبة بالأندلس، غير أنَّ بني الأفطس يُرجعون نسبهم إلى قبيلة تجيب العربيَّة وقد مدحهم الشعراء بهذه الصفة، وقد أثار ذلك تعجب كبير عند المؤرخين لأنَّ الثابت أنَّهم من البربر. ينتمي عبد الله بن الأفطس إلى أسرة متواضعة لم يكن لها نصيب في النباهة والمعرفة، إلاَّ أنَّه كان رجلًا كثير المعرفة والدَّهاء، بعيد النَّظر، وافر الحزم والسِّياسة ممَّا سمح له بتأسيس دولة بني الأفطس ببطليوس. (انظر: عنان، **دول الطَّوائف**، ص82 ؛ محمَّد سهيل طقوش، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، ص449).

Carnets Séguier : **2000 ans d'Algérie,** éditions Séguier, Paris, 1998, tome 1, p22 .

2- من أقدم مدن الأندلس بنيانًا، بنيت أيام الأقاصرة، تقع غرب قرطبة بينهما مائة فرسخ، لها مدن كثيرة وحُصون وهي أرض زرع وضرع. (انظر: ابن الخرَّاط الإشبيلي، **الأندلس في اختصار اقتباس الأنوار**، ص107 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص75) ؛ (أنظر أيضًا: **خريطة رقم4، ص435**).

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص84 وما بعدها.

4- هو عمر بن محمَّد المظفَّر بن الأفطس الملقَّب بالمتوكِّل على الله، تنتمي أسرته إلى إحدى القبائل البربريَّة بمدينة مكناسة المغربيَّة، وأصله من بلدة فحص البلوط بمدينة قرطبة بالأندلس، غير أنَّ بني الأفطس يُرجعون نسبهم إلى قبيلة تجيب العربيَّة وقد مدحهم الشعراء بهذه الصفة وقد أثار ذلك تعجب كبير عند المؤرخين لأنَّ الثابت أنَّهم من البربر، دخل المتوكِّل في صراع مع أخيه يحي المنصور على حكم بطليوس عند وفاة أبيه المظفَّر سنة 461هـ/1068م واستتب له الأمر بعد وفاة أخيه سنة 464هـ/1071م، وكان أديبًا وشاعرًا يُشبه المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيلية في الأبَّهة والمكانة، استمر في حكم بطليوس إلى أن خلعه المرابطون وقتلوه مع ولديه الفضل والعبَّاس سنة 487هـ/1094م. (انظر: ابن بلكين، **مذكرات الأمير عبد الله – أو – كتاب التِّبيان**، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1988م، ص172 وما بعدها ؛ ابن خاقان: **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، قدم له ووضع فهارسه محمَّد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص41 وما بعدها ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص56-57 ؛ ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص96 وما بعدها ؛ الكتبي: **فوات الوفيات والذَّيل عليها**، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، 1974م، مج3، ص155-156 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص71 وما بعدها).

فتعرض إلى ضغط الممالك المسيحيَّة من الشَّمال[1].

دولة بني زيري بغرناطة[2]: التي يرجع الفضل في إنشائها لزاوي بن زيري[3]، أحد زعماء البربر في مطلع القرن الخامس الهجري، ولكنه لم يمكث هناك طويلًا وعاد إلى إفريقيَّة[4] وترك ابن أخيه حبوس بن ماكسن حاكمًا عليها فنعمت غرناطة في عهده بالهدوء والاستقرار، وبعد وفاته سنة 428هـ/1037م خلفه ابنه باديس[5]، ويعد من أقوى حكام هذه الدَّولة، حيث دخل في نزاع مع جيرانه أمراء الطَّوائف خاصة المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيلية، وبعد وفاته عام 465هـ/1073م

1- رجب محمَّد عبد الحليم: **العلاقات بين الأندلس الإسلاميَّة واسبانيا النَّصرانيَّة في عصر بني أميَّة وملوك الطَّوائف،** دار الكتب الإسلاميَّة، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص 370-371.

2- مدينة بجنوب الأندلس قديمة، تبعد عن مدينة البيرة بأربعة فراسخ، وعن قرطبة بثلاثة وثلاثون فرسخًا، وهي من أحسن مدن الأندلس وأحصنها، ومعناها الرمانة بلغة الأندلسيِّين، يشقها نهر يعرف بنهر قلوم الذي يلفظ من مجراه برادة الذهب الخالص. (انظر: الحموي: **مُعجم البلدان،** دار صادر، بيروت، 1979م، مج4، ص195 ؛ ابن بطوطة: **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظَّار في غرائب الأمصار،** شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلميَّة، بيروت، د.ت، ص679-680 ؛ أبو حامد الغرناطي: **تُحفة الألباب ونخبة الإعجاب،** تحقيق إسماعيل العربي، المؤسَّسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص158) ؛ (أنظر أيضًا: **خريطة رقم 1،** ص432).

3- هو زاوي بن زيري بن مناد الصَّنهاجي، قَدم إلى الأندلس مع أقاربه ودخل في خدمة المنصور العامري بقرطبة سنة 390هـ/999م، كان داهية البربر، ووصف بالعزم والإقدام، عاد إلى إفريقية قادمًا من غرناطة سنة 420هـ/1029م ومكث هناك إلى غاية وفاته. (انظر: ابن الخطيب: **ديوان الصَّيب والجهام والماضي الكهام،** تحقيق محمَّد الشريف قاهر، ط1، الشركة الوطنية للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 1973م، ص13 ؛ مريم قاسم طويل: **مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر 403-483هـ/1012-1090م،** ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، 1994م، ص86 وما بعدها).

4- عن ظروف رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان،** ص24-25).

5- باديس بن حبوس بن ماكسن بن بلكين بن زيري الصنهاجي الملقب بالمظفر بالله والنَّاصر لدين الله، كان حسن السياسة صبور على الأذية، يرجع له الفضل في تحصين غرناطة وتشيِّيد معالمها، توفي عام 465هـ/1073م فآل حكم غرناطة لحفيده عبد الله بن بلكين. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان،** ص30 وما بعدها ؛ الذهبي: **سِير أعلام النبلاء،** تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمَّد نعيم العرقسوسي، ط4، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، 1986م، ج18، ص590-591).

خلفه حفيده عبد الله بن بلكين[1]، ودخلت غرناطة في عهده في صراع مع إشبيليَّة والتمس كل طرف المساعدة من الممالك المسيحيَّة[2].

وقامت في الأندلس دويلات أخرى ظهرت في تواريخ متقاربة، وانقرضت كذلك في تواريخ متقاربة لم ترق بعضها إلى مستوى دول الطَّوائف منها دولة ابن صمادح في المريَّة، والدَّولة الحمودية في مالقة[3] والجزيرة الخضراء[4]، ودولة بني برزال في قرمونة[5]، ودولة بني طاهر في مرسيَّة[6]

1- عبد الله بن بلكين (بلقِّين) بن باديس بن حَبوس بن ماكْسَن بن زيري بن مناد الصَّنهاجي البربري، الملقَّب بالمظفَّر بالله، ولد سنة 447هـ/1055م وتولى تربيته الوزير الصَّنهاجي سماجة، كان وافر البلاغة والمعرفة، تولى حكم غرناطة سنة 465هـ/1073م واستمر في حكمها إلى غاية تغلب الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين عليه سنة 483هـ/1090م وأخذه إلى مدينة مرَّاكش ببلاد المغرب أسيرًا رفقة أخيه تميم وتوفي هناك، وقد ترك قبل وفاته كتاب التِّبيان وهو عبارة عن مذكرات بالغة الأهميَّة عن تاريخ مدينة غرناطة وباقي دول الطَّوائف وأولية المرابطين بالأندلس وحروبهم مع الممالك المسيحيَّة. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص208 وما بعدها ؛ ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حقَّق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمَّد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974م، مج3، ص379 وما بعدها ؛ السَّملاليّ: **الإعلام بمن حلَّ مرَّاكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكيَّة، الرِّباط، 2002م، ج8، ص184-185).

2- إسماعيل العربي: **دولة بن زيري ملوك غرناطة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص148.

3- مدينة تقع جنوب الأندلس على البحر الرومي من أعمال مدينة ريَّة، تبعد عن مدينة غرناطة جهة الغرب ثمانون ميلاً، وعن قرطبة جهة الشمال مسيرة أربعة أيام، عليها سور صخر، وهي مدينة حسنة عامرة، كثيرة الدِّيار ولها مباني فخمة وحمامات وأسواق جامعة. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص297-298 ؛ ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ص679 ؛ الحِميري: **صفة جزيرة الأندلس مُنتخبة من كتاب الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، ط2، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص177 وما بعدها) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم3**، ص434).

4- مدينة تقع على البحر الرومي توسطَّت مُدن السواحل، منها إلى جزيرة طريف ثمانية عشر ميلًا، وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر وعرضه هناك ثمانية عشر ميلًا، ومنها إلى إشبيلية مسيرة خمسة أيام وإلى مدينة مالقة مائة ميل، يشقها نهر يُسمَّى نهر العسل وهو حلوٌ عذبٌ وعلى ضفتيه بساتين وجنات، وهي ذات مياه عذبة، وهواء مُعتدل ومرساها أحسن المراسي للجواز. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص262 وما بعدها ؛ ابن سعيد المغربي: **المغرب في حُلى المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ص320) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم3**، ص434).

5- مدينة قديمة البناء تحدها من الشرق قرطبة، ومن الغرب إشبيليَّة بها أسواق ضخمة وحمامات، وهي من حصون الإسلام المشهورة. (انظر: ابن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ط1، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1970م، ص299 ؛ حمدي عبد المنعم محمَّد حسين: **دراسات في التَّاريخ الأندلسيّ "دولة بني برزال في قرمونة" 404-459هـ/1013-1067م**، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، مصر، 1990م، ص3).

6- من المدن العظيمة في شرق الأندلس، تقع جنوب مدينة بلنسيَّة وهي قريبة البحر الأبيض المتوسط، اختطها عبد الرَّحمان بن الحكم بن هشام الأموي و هي مُشيَّدة في بسيط من الأرض حسنة المنظر، طيبة الماء و الهواء و لها حصون كثيرة و قرى =

وغيرها من الدُّول[1].

وعلى العموم نقول أنَّ هذه الدويلات نمت كالفطريات في بلاد الأندلس، حيث كثر عددها وتنوعت ألوانها وأطيافها، ممَّا ولَّد صراعًا عنيفًا ومتواصلًا فيما بينها، أدى في نهاية المطاف إلى ضعف وتدهور أحوال جميع هذه الدول ممَّا شجَّع النصارى على شنِّ حرب ضروس على المسلمين في جميع بلاد الأندلس عُرفت بحروب الاسترداد[2].

2- أوضاع الممالك المسيحيَّة:

ارتبطت نشأة الممالك المسيحيَّة وتطورها بحركة الاسترداد التي ظهرت في شبه الجزيرة الإيبيرية[3]، هذه الحركة التي أخذت في النُّمو شيئًا فشيئًا وبدأت تأخذ شكلًا أكثر وضوحًا بعد

= متصلة. (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج5، ص107 ؛ مجهول، **ذكر بلاد الأندلس**، ج1، ص75-76 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص539-540 ؛ الغزَّال، **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد**، ص176-177).

1- ضيف الله محمَّد الأخضر: **محاضرات في النُّظم الإسلاميَّة والحضارة العربيَّة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985م، ص152 ؛ شوقي أبو خليل: **عوامل النَّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلاميّ**، دار الفكر، دمشق، 1981م، ص101 ؛ يوسف عيد، يوسف فرحات: **معجم الحضارة الأندلسيَّة**، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 2000م، ص52.

Robert Mantran : **L'expansion musulmane VII^{e}-XI^{e} siècle,** presses universitaires de France, Paris, 5^{e} édition , 1995, p214.

2- (la Reconquista) هي تسمية أطلقها المؤرخون المحدثون على مجموعة العمليات العسكريَّة التي نفذها النَّصارى بالأندلس منذ بداية القرن الأوَّل الهجري حتى نهاية القرن التَّاسع الهجري، وقد برزت هذه الحروب جليًا في عهد أمراء الطَّوائف مع مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، واستفحلت في عهد المرابطين والموحدين وبني نصر. (انظر: إدوارد برّوي وآخرون: **تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى**، نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، عويدات للنَّشر والطِّباعة، بيروت، 2003م، مج3، ص311-312 ؛ عليّ أحمد: **ظهور حركة الاسترداد بالأندلس وتطورها حتَّى نهاية القرن التَّاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها**، منشور ضمن مجلة الدِّراسات التَّاريخية، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، السنة السَّادسة، العددان (97-98)، 2007م، ص189 وما بعدها).

Ernest Weibel: **Occident-Maghreb 13 siècles d'histoire**, Ellipses édition Marketing S.A, Paris , 2010, p93-94 .

3- سميت بشبه الجزيرة لإحاطتها بمياه البحر الرومي وبحر الظلمات من الشرق والغرب والجنوب، وكان لفظ بلاد الأندلس يشمل شبه الجزيرة الإيبيرية كلها لما كانت تحت سلطة المسلمين، وعندما تقلَّصت حدود المسلمين أصبحت تدعى الأندلس الإسلاميَّة. (انظر: عصام الدِّين عبد الرؤوف الفقي: **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م، ص33-34 ؛ سامي الكيالي: **في الربوع الأندلسيَّة**، مكتبة الشرق، حلب، سورية، 1963م،ص11).

سقوط الخلافة الأمويَّة وقيام دول الطَّوائف[1]، وقد استغلت القوى النَّصرانيَّة ضعف هذه الدُّول وتفرق شملها وسوء أحوالها، فتطلعت للاستيلاء على أراضيها بقيادة ملكها سانشو الكبير[2] الذي بسط نفوذه على إسبانيا النَّصرانيَّة واستطاع توحيدها تحت سيادته[3].

ورغم انهيار وحدة القوى المسيحيَّة بعد وفاة سانشو الكبير سنة **427**هـ/**1035**م بتقسيم المملكة بين أبنائه الأربعة إلَّا أنَّه سرعان ما عادت هذه الوحدة بفضل ولده الثَّاني فرديناند الأوَّل[4] الذي ورث من مُلك أبيه مملكة قشتالة[5] ومضى يُوسِّع حدود مملكته على حساب إخوته واستطاع

1- حسن أحمد محمود: **قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص246 ؛ محمَّد محمود أحمد النشار: **علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطة المماليك (1260–1341)م/(658–741)هـ**، ط$_1$، عين للدِّراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، مصر، 1997م، ص29.

2- (Sancho) عُرف أيضًا باسم شانجة، يُعتبر باعث حروب الاسترداد في الأندلس وهو من وحَّد القوى النَّصرانيَّة تحت سُلطته عام 1000م، فملك نافار وقشتالة وليون وأراغون. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص10–11 ؛ محمَّد العمروسي المطوي: **الحروب الصَّليبيَّة في المشرق والمغرب**، ط$_2$، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1982م، ص211).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص11 ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: **أوروبا العصور الوسطى، التَّاريخ السِّياسيّ**، ط$_6$، مكتبة الأنجلو المصريَّة، 1975م، ج$_1$، ص531.

4- (Fernando) معروف في المصادر العربيَّة باسم فرذلند وهو الابن الأكبر لسانشو الكبير، تلقب بلقب الإمبراطور تأكيدًا لسيادته على إسبانيا المسيحيَّة، اشتدت في عهده حروب الاسترداد وأصبحت أكثر قوة من ذي قبل، خلَّف بعد وفاته سنة 458هـ/1065م إمبراطورية كبيرة تقاسمها أبناؤه الثلاثة. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص11 وما بعدها ؛ شريفة محمَّد عمر دحماني: **العلاقات السياسيَّة بين الطائفتين الأندلسيَّة والبربريَّة في جنوب الأندلس في عصر ملوك الطَّوائف القرن 5هـ –11م**، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2006م، ص237).

5- (Castilla) إقليم عظيم بالأندلس جميعه بيد الإفرنج، قاعدته مدينة قشتالة فسمِّي الإقليم كله بها، يشمل الأراضي الواقعة شمال الجبل المسمَّى بالشارات، يحد هذا الإقليم من الغرب مدينة نافارا (Navarra) ومن الشرق مدينة ليون (Leon) ومن الجنوب مُدن وادي الحجارة ومجريط وطلبيرة. (انظر: **الحموي، معجم البلدان**، مج$_4$، ص352 ؛ الحِميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص161) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 1**، ص432).

بعد انتصاره في معركة تمارون (Tamaron) سنة 429هـ/1037م[1] أن يضمَّ ليون[2] إلى أملاكه كما استولى على كل من جلِّيقيَّة[3] وأشتوريش[4] وما إليها وغدا بذلك أقوى ملك في إسبانيا فأخذ على عاتقه حرب المسلمين، وخطا خطوة كبيرة في ذلك بحيث توسعت في عهده حركة الاسترداد وأضحت أكثر قوة من ذي قبل[5].

وقد خاض معارك ظافرة مع جيرانه المسلمين وانتزع عدَّة قلاع وحصون من أمير سرقسطة، واستولى على العديد من المدن التابعة لأمير بطليوس المظفر وحاصر طليطلة فاضطر صاحبها لدفع الإتاوة وتبعه في ذلك باقي أمراء الطَّوائف حتَّى صاحب إشبيليَّة الذي يُعد أقوى حكام الأندلس كان يدفع الإتاوة للنَّصارى لكي يأمن شرهم ويتخلص من تهديدهم[6].

1- انتصر في هذه المعركة على صهره الملك برمود الثَّالث. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص11 ؛ شريفة محمَّد عمر دحماني، **العلاقات السياسيَّة بين الطائفتين الأندلسيَّة والبربريَّة**، ص237).

2- (Leon) من أجلِّ مُدن الجلالقة وأعظمها، تقع شمال سمورة بانحراف إلى الشرق، تبعد عن ساحل بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) أربع مراحل غرباً، بها معاملات وتجارات ومكاسب ولأهلها همَّة ونفاسة. (أنظر: أبو الفداء، **تقويم البلدان**، ص185 ؛ الحميري، **الرَّوض المعطار**، ص514 ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم1**، ص432).

3- (Galicia) بلدة من بلاد الرُّوم وصل إليها موسى بن نصير لما فتح الأندلس، تمتد من نهر دويرو (Duero) جنوبًا حتَّى الساحل الشمالي لشبه الجزيرة الإيبيريَّة ومن السَّاحل الغربي لها حتَّى قشتالة، وهي بلاد لا يطيب سكناها لغير أهلها. (أنظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص71 هامش1 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج2، ص157 ؛ الزُهري: **كتاب الجغرافيَّة**، تحقيق محمَّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، مصر، د.ت، ص78-79) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم4**، ص435).

4- (Asturias) هي المنطقة الواقعة في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية، وهي القسم الثَّاني من أقسام جليقية الأربعة تحصن بها النَّصارى إثر فتح الأندلس من قبل المسلمين بقيادة طارق بن زياد سنة 92هـ/711م وهناك نظموا أنفسهم لمقاومتهم. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبا**، ص72 هامش3 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص10).

5- دوزي: **المسلمون في الأندلس**، ترجمة وتقديم حسن حبشي، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، 1995م، ج3، ص79.

6- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص21 .

أمَّا إخوة فرديناند الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تكاد تعادل ثُلث مملكته؛ بينما في شرق الجزيرة كانت هناك إمارة برشلونة[1] التي يحكمها الكونت رامون برنجير الأوَّل[2]، وبلغت الممالك المسيحيَّة في ذلك الحين خمس ممالك[3]، في مقابل ذلك كان عدد إمارات المسلمين في الأندلس حوالي ثلاث وعشرون إمارة[4]، وهذا دليل على قوة الممالك المسيحيَّة التي اجتمعت معظمها تحت سلطة ملك قشتالة وليون فرديناند الأوَّل، وضُعف دويلات الطَّوائف التي تفرقت كلمتها وتشتت جُمعها وأضحت أيامها في الأندلس معدودة .

ولم تتنفس دويلات الطَّوائف الصعداء إلَّا بعد وفاة فرديناند الأوَّل عام 458هـ/1065م[5] وانقسام أمراء النَّصارى على أنفسهم، بحيث تفرق شمل أبناء فرديناند[6]، وانشغلوا بخلافاتهم وتخلوا

1- (Barcelona) مدينة للقوط تقع شمال شرق الأندلس من القسم الثَّالث في إقليم قطلونية، وهي على ساحل البحر ولها ربض وعليها سور منيع، وهي كثيرة الحنطة والحبوب والعسل، واليهود بها يعدلون النَّصارى كثرةً، بينها وبين مدينة طركونة خمسون ميلًا، تقابلها من عدوة الغرب الأوسط بجاية وبينهما أربع مجار في عرض البحر. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص96 وما بعدها ؛ الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص307).

2- هو الكونت رامون برنجير الأوَّل (Ramón Berenguer I) وتكتبه بعض المراجع "ريموند برنجار الأوَّل"، يلقب برامون الكبير أو المسن، وهو ابن برنجير رامون الأوَّل 1018-1035م المعروف بالمنحني أو المقوّس، حكم من سنة 427هـ/1035م إلى سنة 469هـ/1076م، ظهر كأحد حُماة النَّصرانيَّة وقاتل المسلمين بشجاعة، وانتزع منهم الأراضي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر لوبرجات، وفرض الضَّريبة على صغار الأمراء المجاورين له، أوصى قبل وفاته سنة 469هـ/1076م بالحكم المشترك لولديه برنجير الثَّاني ورامون الثَّاني، فتناوب الحكم بينهما كل ستة أشهر إلى غاية مقتل رامون الثَّاني سنة 475هـ/1082م فاستأثر منذ ذلك الحين برنجير الثَّاني بحكم برشلونة لوحده. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص97 هامش1 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص28-29).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص12 .

4- جاك ريسلر: **الحضارة العربية**، تعريب خليل أحمد خليل، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1993م، ص232 .

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج3، ص239 ؛ عبد الرَّحمان عليّ الحجي: **التَّاريخ الأندلسيّ من الفتح الإسلاميّ حتَّى سقوط غرناطة (92-897)هـ/(711-1492)م**، ط1، دار القلم، دمشق، بيروت، دار القلم، الكويت، الرياض، 1976م، ص328.

6- قسَّم فرديناند الأوَّل سنة 1064م وبموافقة الأساقفة والأشراف مملكته الكبيرة بين أولاده الثلاثة، فأعطى شانجة (سانشو) مملكة قشتالة وحق الضَّريبة السنويَّة على صاحب سرقسطة ابن هود، واختص ألفونسو السَّادس (الأذفنش) بمملكة ليون وأشتوريش وحق الضَّريبة السنويَّة على صاحب طليطلة ابن ذي النُّون، وأصغرهم غرسية أعطاه مملكتي جليقية والبرتغال وحق الضَّريبة على أمير إشبيليَّة ابن عبَّاد و أمير بطليوس ابن الأفطس، و أعطى حق الإشراف على الأديار في جميع المملكة إلى =

بصفة مؤقتة عن حرب المسلمين الذين كانوا بدورهم منشغلين بعداء بعضهم البعض كسابق عهدهم[1]. واستمر انقسام النَّصارى مدَّة من الزمن إلى أن عادت وحدتهم بزعامة ألفونسو السَّادس الذي سلك مسلك آبائه في التَّمكين لحركة الاسترداد.

وقبل أن يمضي ألفونسو السَّادس في حرب أمراء الطَّوائف بذل جهودًا شاقة في محاولة جمع أطراف مُلك أبيه فاستولى على ليون وجلِّيقيَّة بعد وفاة أخيه شانجة، وبسط سلطانه على الأقاليم الواقعة في وسط البلاد وغربها إلى الشمال من نهر التاجة[2]، واستطاع أن يجمع كلمة أراغون[3] ونافارا[4] وأن يقوم بتوطيد علاقته بالكنيسة الرُّومانيَّة وعموم القوى المسيحيَّة في أوروبَّا، فاتخذت بذلك حركة الاسترداد طابعًا صليبيًا[5] ترعاها كنيسة روما وتباركها وتدعو لها وتجند المسحيِّين من أجل المشاركة فيها[6].

= ابنتيه أوراكا وإلبيرة. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص23 ؛ شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة**، مج3، ج3، ص59 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص389).

1- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص252 .

2- نهر عظيم يخرج من بلاد الجلالقة يشق مدينتي طليطلة وطلبيرة ويصب في المحيط الأطلسي عند مدينة أشبونة. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص87 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص127).

3- (Aragon) مملكة إسبانية في شمال الأندلس، تقع على نهر إيبرو وشرق مملكة نافارا، تشتمل على بلادٍ ومنازل وأعمالٍ. (انظر: الحميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص12 ؛ محمود شيث خطاب، **قادة فتح الأندلس**، ط1، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، منار للنَّشر والتَّوزيع، دمشق، 2003م، مج1، ص83) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم1**، ص432).

4- (Navarra) تُسميها المصادر العربية أحيانًا نبرة، وهي مملكة نصرانيَّة في شمال الأندلس مجاورة لمملكة أراغون، وتقع شرق مملكة ليون محاذية لجبال البُرْت (Pirineos) التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص79 هامش5 ؛ محمود شيت خطاب، **قادة فتح الأندلس**، 83/1) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم1**، ص432).

5- هي تلك الحروب التي شنها المسيحيون (الصَّليبون) على العالم الإسلامي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، واستمرت حوالي قرنين من الزمن أشهرها ثماني حملات، تمت بمباركة الكنيسة الرُّومانية، واتخذت الصَّليب شعارًا لها. (انظر: مصطفى وهبة: **موجز تاريخ الحروب الصَّليبيَّة**، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ط1، 1997م، ص3 وما بعدها ؛ أحمد مختار العبادي: **دور المغاربة في الحروب الصَّليبيَّة في المشرق العربي**، منشور ضمن كتاب **بحوث في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة**، مجموعة البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلاميَّة في ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري، 16-20 أكتوبر 1976م، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، 2000م، ص82).

6- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص252-253.

وبعد أن قوي نفوذ ألفونسو السَّادس بين الممالك المسيحيَّة عاد لخوض حروب الاسترداد ويمهِّد لها السُّبل لتحقيق أهدافها المتمثلة في القضاء على تواجد المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيريَّة[1] فاشتدت هجماته على المدن الأندلسيَّة، وكان يفرض عليها المغارم الباهظة فإذا عجزت أو امتنعت عن دفع الإتاوة هاجمها وحاصرها حتَّى يشتد عليها البلاء فتذعن للأمر الواقع، وتستسلم له بلا قيد أو شرط[2].

ولم يكتف ألفونسو السَّادس بتهديد وإذلال مدن الثغور القريبة إلى مملكته كسرقسطة وطليطلة وبطليوس، بل هدَّد جميع مدن الأندلس سواء الواقعة في الشرق أو في الغرب وحتَّى في الجنوب كغرناطة وإشبيليَّة[3]، هذه الأخيرة انتزع من أميرها المعتمد بن عبَّاد الإتاوة رغم كونه أقوى أمراء الطَّوائف[4].

1- كمال أبو مصطفى: **محاضرات في تاريخ الغرب الإسلاميّ وحضارته (المغرب والأندلس)**، مركز الإسكندريَّة للكتاب، مصر، 2007م، ص263).

2- عصام الدِّين عبد الرؤوف الفقي، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، ص255 .

3- يظهر جليًا أنَّ نظام الثغور في عهد أمراء الطَّوائف لم يكن قويًا، لهذا تمكن ألفونسو السَّادس من تهديد جميع مدن الأندلس ولم يكتف بمدن الثغور، وقد نبَّه بعض علماء المسلمين بضرورة الاهتمام بالثغور، وأفتوا في مسألة التوطن فيها، حيث أجازوا اتخاذ النِّساء والذراري فيها، وتحويلها إلى مدن عامرة مسكونة سكنى دائمة، بحيث لو هجم عليهم العدوّ دافعوا على هذه الثغور بشراسة لأنَّها ديارهم وبها نساءهم وذراريهم. ونشير إلى أنَّ المسلمين في الأندلس سبقوا المسيحيِّين بقرون في مسألة إقامة الرباطات في الثغور، وهذه الرباطات يعتكف فيها الزهاد للعبادة والدِّفاع عن الحدود. (انظر: فتحي عثمان: **الحدود الإسلاميَّة البيزنطيَّة بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الثَّالث في الاتصال الحضاري**، دار الكتاب العربي للطِّباعة والنَّشر، القاهرة، د.ت، ص14 ؛ محمَّد الأمين بلغيث: **نَظَرَاتٌ في تاريخ الغرب الإسلامي**، ط1، دار الخلدونية للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 2007م، ص148).

4- مونتغمري وات: **في تاريخ اسبانيا الإسلاميَّة (مع فصل في الأدب بقلم بيير كاكيا)** ترجمة محمَّد رضا المصري، ط2، شركة المطبوعات للنَّشر والتَّوزيع، 1998م، ص104.

ثانيًا- أسباب العبور المرابطي للأندلس:

1- - سقوط طليطلة وتعاظم حروب الاسترداد المسيحيَّة:

بلغت دولة بني ذي النُّون بطليطلة في عهد أميرها يحي بن إسماعيل الملقب بالقادر الذي تولى الحكم بها منذ سنة 467هـ/1075م مرحلة متقدمة من الضعف والاضطراب، ويرجع ذلك بالأساس إلى ضعف شخصيته، وسوء سياسته[1]، وانشغاله عن أمور الحكم، وتفرغه لحياة الترف واللهو[2]، بالإضافة إلى صراعه مع باقي أمراء الطَّوائف الذين كانوا في موقف العِداء والحروب والدَّسائس ضدَّ بعضهم البعض، وكانوا يلجئون إلى ملوك النَّصارى من أجل الحصول على معونتهم، للاستيلاء على حصن أو مدينة من مدن إخوانهم المسلمين[3].

وقد انتهج القادر هذا الأسلوب، وكان من بين أكثر أمراء الطَّوائف خضوعًا لملك قشتالة وليون ألفونسو السَّادس، وكان يدفع له الإتاوة، ويتنازل له عن القلاع والحصون نظير حمايته ومساعدته في حروبه ضدَّ أمراء الطَّوائف[4]، فجلب له ذلك سخط الرعية، خاصة وأنَّه فرض عليهم ضرائب باهظة، لأجل جمع الإتاوة التي يتزايد مقدارها عامًا بعدآخر[5] لتقديمها لألفونسو السَّادس

1- ومن سُوء سياسته أنَّه قام بقتل الفقيه والوزير أبي بكر بن الحديدي، المعروف بالذكاء والمهارة في إدارة أمور الحُكم، وقد كان له شأن كبيرٌ في عهد جده المأمون، الذي أوصى حفيده القادر بأن يجعله وزيراً ويستشيره في كل أمُوره، ولكنه ارتكب خطأً فادحًا بقتله، فثارت عليه الرعية. (انظر: ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، ج4، ص94-95 ؛ ليفي بروفنسال: **الإسلام في المغرب والأندلس**، ص135 وما بعدها).

2- عليّ أدهم: **المعتمد بن عباد**، دار القدس للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، د.ت، ص198.

3- محمَّد لبيب البتنوني: **رحلة الأندلس**، مكتبة الثقافة الدِّينية، مصر، د.ت، ص197.

4- ذكر ابن بلكين في هذا الشأن أنَّ القادر عندما أراد استرجاع أحد الحصون القريبة من طليطلة التي تنازل عليها في السَّابق لألفونسو، فرض عليه هذا الأخير ضريبة باهظة تتمثل في مائة وخمسين ألف مثقال طيبة، وخمسمائة مُدًا من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه عنده، ورغم كل هذه الضَّريبة إلَّا أنَّ ألفونسو سُرعان ما عاود الاستيلاء على هذا الحصن. (انظر: **التِّبيان**، ص77).

5- شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة**، ج1، ص462 ؛ حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص253.

فثاروا عليه وأخرجوه من طليطلة[1]، وبعثوا إلى عمر بن الأفطس صاحب بطليوس فبايعوه ودخل طليطلة سنة 472هـ/1079 م[2]، وكان القادر في ذلك الحين عند ألفونسو السَّادس يطلب منه مساعدته لاسترداد عرشه، فاستغل هذا الأخير الفرصة واندفع نحو طليطلة لمحاصرتها بعد أن استولى على بعض القلاع والمدن المتاخمة لها[3]، فأحس صاحب بطليوس عمر بن الأفطس بتعاظم الخطر فانصرف عن المدينة بعد أن مكث فيها حوالي تسعة أشهر وهو عاجز عن حمايتها[4]، فاستولى عليها القادر بن ذي النُّون مجددًا بمساعدة ألفونسو، الذي طلب منه مقابل هذا التأيِّيد مكافأة ضخمة[5].

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الهيمنة الفعليَّة على مدينة طليطلة بيد ألفونسو السَّادس وكان القادر ألعوبة في يديه، يتصرف به كيفما شاء، ورغم ذلك لم يقنع ألفونسو بكل هذه المكاسب التي حصل عليها وطمع في امتلاك هذه المدينة[6] التي أدرك بأنَّ الاستيلاء عليها قد آن أوانه[7] فشدَّد الحصار عليها، وعاث في أراضيها وأحكم سد المنافذ عليها، فساءت أحوال المدينة إلى أقصى حد، وشمل أهلها البلاء، فراحوا يستغيثون بمن حولهم من أمراء الطَّوائف دون أن يعبأ بهم

1- مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص260 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص108.

2- ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، ج4، ص98 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص125 ؛ سلمى الخضراء الجيوسي: **الحضارة العربية الإسلاميَّة في الأندلس**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999م، ج1، ص106.

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص61-62 ؛ محمَّد شرقي: **طليطة في الذكرى الألفيَّة لسقوط أعظم حضارة أندلسيَّة**، منشور ضمن مجلة التَّاريخ، يصدرها المركز الوطني للدِّراسات التَّاريخيَّة، قصر الثقافة، الجزائر، 1986م، ص38.

4- مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص260.

5- لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة مقدار هذه المكفأة، والظاهر أنَّها تحوي أموالًا وتُحَفًا جليلة، وقد ذكر ابن بسَّام ذلك حيث قال بأنَّ القادر أعطى لألفونسو أموالًا جليلةً. (انظر: ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، ج4، ص101).

6- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص255.

7- ذكر ابن الأثير أنَّ ألفونسو السَّادس عرف من أين يُؤتى البلد، وكيف الطَّريق إلى ملكه. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص 142).

أحد، فقد تحالف معظم هؤلاء الأمراء مع ألفونسو السَّادس[1].

وكان المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيليَّة على عهد معه، يتمثل في عدم اعتراض سبيله إذا غزا طليطلة مقابل إعانته بالجيوش المرتزقة في حروبه مع أعدائه أمراء الطَّوائف[2]، غير أنَّ صاحب بطليوس عمر بن الأفطس، كان له موقفٌ مشرفٌ حيث لم يحالف ملك قشتالة ألفونسو السَّادس بل نزل إلى ميدان النِّضال بإرساله جيش بزعامة ولده الفضل لمحاولة إنقاذ طليطلة من السُّقوط، ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النَّصارى المتفوقة عليه في العدد والعدَّة فاضطر للانسحاب من المعركة تاركًا طليطلة لمصيرها المحتوم[3].

وفي غمار هذه الأحداث لم يجد أهل طليطلة المحَاصَرون بُدًا من الاستسلام بعد أن تفاقم الخطب، وبلغت الشِّدة بهم أقصاها[4]، وتبدَّدت كل محاولة لعقد الصلح مع ملك قشتالة من أجل ثنيه عن فك الحصار على مدينتهم[5]. وفي آخر المطاف حدث اتفاق بين ألفونسو والقادر لتسليم المدينة تضمَّن هذا الاتفاق مجموعة من الشروط من بينها، أن يؤمَّن أهل المدينة في النَّفس والمال وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم، وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع ويسمح لهم بتأدية شعائرهم بكل حرية مقابل أن يسلِّموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع والحصون والقصر الملكي[6]،وتعهد هو الآخر بأن يُمكِّن القادر من الاستيلاء على مدينة بلنسيَّة[7] ؛ وقد تظاهر

1- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج7 ، ص27 ؛ عليّ أدهم، **المعتمد بن عبَّاد**، ص199.

2- عنان، **دول الطَّوائف**، ص109 ؛ قايد مولود، **البربر عبر التَّاريخ في اسبانيا الإسلاميَّة**، ص149.

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص63 .

4- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص 186 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص113.

5- بلغت مُدَّة حصار ألفونسو السَّادس لطليطلة حوالي سبع سنين. (انظر: الذهبي: **العِبر في خبر من غبر**، تحقيق وضبط أبو هاجر محمَّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميَّة، بيروت، د.ت، ج2، ص338).

6- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص64 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص113-114 .

7- ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، ج3، ص5 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص186 ؛ شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة**، ج3، ص51.

ألفونسو بقبول هذه الشروط وتعهَّد باحترامها وعدم النكث بها، لأجل كسب ود المسلمين ولكي يُهون عليهم أمر سقوط مدينتهم[1].

وكان دخول ألفونسو السَّادس إلى طليطلة واستيلاؤه عليها يوم 27 محرم سنة 478هـ الموافق لـ 25 ماي سنة 1085م[2]، وبذلك سقطت إحدى حواضر بلاد الأندلس الكبرى وقلاعها الحصينة، واسترجع النَّصارى عاصمة القوط القديمة[3] بعد أن حكمها المسلمون حوالي أربعة قرون[4].

وكان سقوطها نذيرًا بوقوع كامل بلاد الأندلس في أيدي النَّصارى[5]، حيث اشتدَّ الخطر على المسلمين أكثر من ذي قبل بتعاظم حركة الاسترداد، وتحمس القوى النَّصرانيَّة بقيادة ألفونسو السَّادس لطرد المسلمين نهائيًا من بلاد الأندلس[6]، كما كان لسقوطها وقعٌ كبيرٌ في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، وأدرك المسلمون أنَّ إخوانهم في الأندلس يعيشون مأساة حقيقية، وقد اجتهد الشُّعراء في وصف هذه المأساة، منهم الشَّاعر الأندلسيّ عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال بقوله:

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص114.

2- ابن الأبَّار، **التَّكملة لكتاب الصِّلة**، ص29 ؛ المقرِّي، **نفح الطِّيب**، مج4،ص352 ؛ ج.س.كولان: **الأندلس**، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلاميَّة إبراهيم خورشيد وآخرون، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1980م، ص132.

3- Ernest Lavisse et Alfred Rambaud: **Histoire Générale du IVE siècle A nos jours, tome II, L'Europe Féodale les Croisades 1095-1270**, Armand Colin et Cie, Èditeurs, Paris, 1893, p666 .

4- Jean Brignon et autres : **Histoire du Maroc**, librairie Nationale, Casablanca, 1967, p90 .

5- محمَّد الأمين بلغيث: **الحياة الفكريَّة بالأندلس في عصر المرابطين**، أطروحة دكتوراه الدَّولة في التَّاريخ الإسلاميّ، قسم التَّاريخ، جامعة الجزائر، 2003م، مج1، ص84 .

6- حسين مؤنس: **موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ – وفكر وحضارة وتراث**، ط1، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة، 1996م، ج2، ص216-217 .

يا أهلَ أندلس حُثُّوا مَطيَّكمُ   فما المقامُ بها إلَّا من الغلطِ

الثوبُ يُنسلُ من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولًا من الوسطِ

ونحن بينَ عدوٍّ لا يفارقنا   كيف الحياة مع الحيَّاتِ في سفطِ[1]

ويعتبر سقوط طليطلة من بين الأسباب التي عجلت بتدخل المرابطين لنجدة إخوانهم في بلاد الأندلس الذين استصرخوهم، ورأوا فيهم السَّبيل إلى النَّجاة[2].

2- دعوة أمراء الطَّوائف للأمير المرابطي يوسف بن تاشفين:

لم يكن سقوط طليطلة وبالًا على أهلها فحسب، بل عمَّ الوبال كافة بلاد الأندلس بتعاظم الخطر والبلاء وتفشي الرعب والخوف لدى الحاكم والمحكوم، فأدى ذلك إلى مسارعة أمراء الطَّوائف لخطب ود ألفونسو السَّادس بالمبالغة في دفع الإتاوات والهدايا[3]، ولكن هذا الأخير اغتر بنفسه وشعر أنَّه أضحى قادرًا على تحدي دول الطَّوائف جميعًا والقضاء عليها، فلم يقنع بضرائب المال[4]، بل أراد امتلاك أراضيهم ومدنهم[5]، فتطاول على الثُّغور، وقام بشنِّ الغارات على جميع بلاد

1- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج7، ص28 ؛ المقرّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص352.

2 - E .Lévi – Provençal**: Islam D'occident**, librairie Orientale et Américaine, Paris, 1948, p111.

3- من بين هؤلاء الأُمراء الذين قَدَّمُوا الهدايا لألفونسو السَّادس حسام الدَّولة يحي بن رزين صاحب شنتمريَّة، تحوي تحفًا وحُليًا يعجز عنها الوصف، فكافأه عليها ألفونسو بقردٍ شماتةً فيه، وكان من ضعف عقله أنَّه يفخر بذلك القرد على أمراء الأندلس. (انظر: شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة**، ج2، ص103).

4- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص98 .

5- كان ألفونسو السَّادس يطمح إلى الاستيلاء على مدن الأندلس الكبرى خاصة قرطبة، والدليل على ذلك ما قاله المقري بأنَّ ألفونسو عندما استولى على طليطلة قِيل له ينبغي عليك أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك، فقال "لا حتَّى نأخذ قُرطبتهم". (انظر: **نفح الطِّيب**، مج4، ص447-448). (انظر أيضًا: عادل سعيد بشتاوي: **الأمة الأندلسيَّة الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)**، دار صبح للطِّباعة، بيروت، 2000م، ط1، ص109).

الأندلس واستولى على الأراضي الواقعة على ضفتي نهر تاجة، وعلى قلعة رباح[1]، ومدينة قورية[2] وحاصر سرقسطة ورفض الأموال السَّخيَّة التي عرضها صاحبها عليه[3]، وهدَّد بطليوس وصاحبها المتوكِّل بن الأفطس الذي أرسل إليه يطلب منه أن يُسلِّمه بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الضَّريبة، فرفض المتوكِّل التهديد ورد عليه برسالة تفيض شجاعة ونبلًا، ولمَّا رأى أنَّه غير قادر على مدافعة ألفونسو ومجاراته لوحده بعث برسالة[4] إلى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين[5]

1- من عمل جيان تقع بين قرطبة وطليطلة، وهي مدينة حسنة ولها حصن حصين على نهر آنه، وهي مدينة محدثة في أيام بني أميَّة، تملَّكها النَّصارى إحدى وخمسون سنة وعشرة أشهر إلى أن استردها الموحِّدون عام وقيعة الأرك سنة591هـ/1194م. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص274 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص469) ؛ (أنظر أيضًا: **خريطة رقم4**، ص435).

2- قريبة من ماردة تقع جنوب جبل الشارة، منها إلى قُلمريَّة أربعة أيام، وهي أولية البناء واسعة الفِناء لها سور حصين من أحصن المعاقل وأحسن المنازل، ولها بواد شريفة خصيبة وضِياع طيبة عجيبة وأصناف من الفواكه كثيرة، وكانت ثغر المسلمين في مُدَّة أمراء الطَّوائف. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص270 ؛ ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، ص179؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص485) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم2**، ص433).

3- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص255 .

4- عن نص رسالة المتوكِّل بن الأفطس إلى الأمير يوسف بن تاشفين. (انظر: مجهول، **الحُلل الموشية**، ص33 وما بعدها).

5- هو يوسف بن تاشفين اللَّمتوني ولد سنة 400هـ/1009م ببلاد الصحراء في مضارب قبائل صنهاجة الجنوب، ينتسب إلى بني ورتانطق زعماء قبيلة لمتونة، تولى أمر المرابطين بعد الأمير أبي بكر بن عمر وقام ببناء مدينة مرَّاكش سنة 454هـ/1062م وجعلها عاصمة لدولته، هو أوَّل من تلقَّب بأمير المسلمين من ملوك المغرب وقد جرى هذا اللَّقب على أبنائه بعده. كان أميرًا على دولة مترامية الأطراف ضمَّت المغرب الأقصى وأجزاء من بلاد السُّودان الغربيّ والجزء الغربي من المغرب الأوسط وبلاد الأندلس. وافته المنيَّة في شهر محرم سنة 500هـ/1106م بعد أن عمَّر قرنًا كاملًا ملك أثناءه سبعًا وأربعين سنة وخطب له على حوالي ألف وتسعمائة منبر. (انظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص137 ؛ ابن خلكان، **وفياتُ الأعيان**، مج7، ص125 ؛ ابن زيدان: **إتحاف أعلام النَّاس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تقديم عبد الهادي التازي، ط2، مطابع إديال، الدَّار البيضاء، المغرب، 1990م، ج1، ص26 ؛ عبد الله كنون: **يوسف بن تاشفين**، ط2، منتدى ابن تاشفين المجتمع والمال، المحمديَّة، 2004م، ص7 وما بعدها ؛ حامد محمَّد خليفة: **يوسف بن تاشفين موحِّد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصَّليبيِّين**، ط1، دار القلم، دمشق، 2003م، ص71 وما بعدها ؛ سعدون عبَّاس نصر الله: **دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين**، ط1، دار النَّهضة العربيَّة، بيروت، 1985م، ص37 وما بعدها).

يُصوِّر له محنة الأندلس ويستنصره على عدوه ملك قشتالة[1]، وقد وعده الأمير يوسف بالجواز والإمداد على العدوِّ[2].

ولم يكتف ألفونسو السَّادس بتهديد مدن الثغور كسرقسطة وبطليوس فحسب بل قام بتهديد باقي المدن مثل قرطبة وإشبيليَّة اللَّتين يحكمهما أقوى ملوك الطَّوائف المعتمد بن عبَّاد ويبدو أنَّ ألفونسو أدرك بأنَّ الاستيلاء عليهما يمهِّد له الطَّريق لتملك كافة بلاد الأندلس فسارع للضَّغط على المعتمد بن عبَّاد بأن طلب منه أن يتخلى له عن معاقل وحصون على الحدود كان الموت عنده أولى من إعطائها[3]، وبعث له برسالة[4] فيها تهديد ووعيد إن لم يرضخ لمطالبه، فرد عليه المعتمد برسالة بيَّن فيها أنَّه لن يرضخ لأوامره وسوف يقف له بالمرصاد[5].

ويبدوا أنَّ المعتمد قد أدرك أخيرًا الخطأ الذي وقع فيه عندما لم يُقدم يد العون لنجدة طليطلة، فقد دارت الدائرة عليه بأن أصبح ألفونسو يهدِّد مُلكه بالزوال؛ كما قام بمحاولة إذلاله بأن طلب منه أن يسمح لزوجته القمطيجة دخول جامع قرطبة لكي تلد فيه[6]، وأرسل أيضًا وفدًا

1- يبدو أنَّ المتوكِّل بن الأفطس هو أوَّل من ناشد المرابطين بالقُدوم للأندلس، لأنَّ ألفونسو السَّادس بدأ حربه على بطليوس مملكة ابن الأفطس الواقعة على الحدود مع النَّصارى فمن الطبيعي أن يطلب النَّجدة قبل غيره من الأمراء لأنَّ الخطر كان محدقًا به قبلهم. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص99، هامش1).

2- مجهول، **الحُلل الموشيَّة**، ص36.

3- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص102.

4- عن نص الرِّسالة التي تحمل التَّهديد والوعيد من ألفونسو السَّادس إلى المعتمد بن عبَّاد. (انظر: **الملحق رقم 1**، ص414).

5- عن نص الرِّسالة التي تحتوي رد المعتمد بن عبَّاد على ألفونسو السَّادس. (انظر: **الملحق رقم 2**، ص415).

6- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص288 ؛ السَّلاويّ: **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدَّولتان المرابطيَّة والموحِّديَّة**، تحقيق جعفر النَّاصري ومحمَّد النَّاصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954م، ج2، ص34 ؛ نديم مرعشلي: **المعتمد بن عبَّاد بطل جسَّد مأساة الأندلس، وشاعر غنَّى مجدها المفقود**، دار الكتاب اللبناني، مطبعة الاجتهاد، د.ت، ص28.

من خمسمائة فارس برئاسة اليهودي ابن شليب لأخذ الإتاوة[1] فأذعن المعتمد للأمر، وأعطى رسول ألفونسو الأموال لكن ابن شليب رفضها بحجة أنَّ الذهب الذي أعطي إليه غير نقي[2]، وأغلظ في القول للمعتمد وهدَّد بإزالة مُلكه، فلم يتمالك الأمير نفسه وقام بقتله ومن معه[3].

ولمّا بلغ الخبر ألفونسو السَّادس ثارت ثائرته، وأقسم بآلهته لَيغزوَّن المعتمد بإشبيلية[4]، وأن يحشد من جيوش الرُّوم لقتاله عدد شعر رأسه[5]. وبالفعل نفَّذ ألفونسو تهديده، وزحف نحو إشبيلية، فخرب ودمر في طريقه حتَّى وصل إلى جزيرة طريف[6] أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً "هذا آخر بلاد الأندلس قد وطأته[7]". ومن هناك أرسل إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خطاباً[8] يتوعده فيه بالهزيمة في حالة عبوره لنجدة إخوانه بالأندلس، فأمر يوسف بن تاشفين أن يكتب إليه على ظهر كتابه "جوابك يا أذفنش ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله"، وأردف الكتاب ببيت للشاعر المشهور أبي الطيِّب أحمد المتنبي:

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص142 ؛ المقرِّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص246 ؛ يوسف فرحات: **موسوعة الحضارة العربية، العصر الأندلسيّ (الحضارة الأندلسيَّة)**، دار كلمات للنَّشر، 1995م، مج6، ص968.

2- المقرِّي، **نفح الطِّيب**، 246/4 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص35.

3- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج5، ص28 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص126 ؛ عليّ أحمد: **اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى**، منشور ضن مجلة دراسات تاريخية، تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، السنة 17، العددان 57-58، 1996م، ص174 .

4- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص288 ؛ بسَّام العسلي: **المعتمد وابن تاشفين**، ط4، دار النفائس للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 1992م، ص66.

5- المقرِّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص246.

6- سُميت الجزيرة باسم طريف وهو قائد من البربر كان أوَّل من نزل بأرض الأندلس سنة 91هـ/710م حيث بعثه مولاه موسى بن نصير في حملة استطلاعية في أربعمائة رجل ومائة فارس فكانت حملةً ناجحةً مهَّدت لعملية الفتح بعد ذلك بقيادة طارق بن زياد. وطريف مدينة صغيرة بالأندلس على البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) في أول المجاز المسمى بالزُقاق، ويتصل غربيها ببحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، عليها سور تراب ويشقها نهر صغير، بها أسواق وفنادق وحمامات، منها إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلًا. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص262 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص392) ؛ (انظر: أيضًا: **خريطة رقم2**، ص433).

7- ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج4، ص351 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص316 .

8- عن نص الخطاب الذي أرسله ألفونسو السَّادس إلى الأمير يوسف بن تاشفين. (انظر: **الملحق رقم 3**، ص416).

ولا كُتْبَ إلَّا المشْرفِيَّةُ والقَنَا[1]   وَلاَ رُسُلَ إلَّا الخَمِيسُ[2] العَرَمْرَمُ[3]

وعندما وصل كتاب الأمير يوسف لألفونسو واطلع عليه فزع فزعًا كبيرًا وأدرك أنَّه ابتلي برجل له عزم وحزم[4]، ورغم ذلك استمر ألفونسو في كبريائه وعناده بحيث عاد إلى إشبيلية وحاصرها مُدَّة ثلاثة أيام، وكتب إلى المعتمد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، فرد عليه المعتمد قائلا: "قرأت كتابك وفهمت خُيلاءك وإعجابك وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللَّمطية تُرِيحُ منك لا تُرَوِّحُ عليك إن شاء الله"[5].

ويظهر من قوله هذا أن المعتمد أراد الاستنجاد بالمرابطين في المغرب، وقد شاور في هذا الأمر خاصته، ووجوه دولته، فأشاروا عليه بمعاهدة ألفونسو وعقد السلم معه وعدم الاستنجاد بالمرابطين[6]. وقد تبنى هذا الرأي أيضاً ولده الرَّشيد أبو الحسن الذي قال لأبيه: "يا أبتِ أتُدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا مُلكنا، ويبدِّد شملنا" فأجابه المعتمد فقال: "أي بني، والله لا يسمع عني أبدًا أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنَّصارى، فتقوم علي اللَّعنة في منابر الإسلام

1- قنأَ: قنأ الشَّيءُ يقنأُ قنوءًا : اشتدَّت حُمْرَتُهُ، ويقال ضربته حتَّى قنيء يقنأُ قنوءًا، إذا ماتَ. وأقنأتُ الرَّجُلَ إقناءً: حملته على القتل. (انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مج5، ص3746).

2- الخَمِيسُ: من أيَّام الأسبوع، ويقصد به هنا الجيشُ، وقيل الجيشُ الجرَّارُ، أو الجيشُ الخَشِنُ، وسُمِّي بذلك لأنَّه خمسُ فرق: المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والسَّاقَّة، وقيل سُمِّي خميسًا لأنَّه تُخَمَّسُ فيه الغنائم. (انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، مج2، ص1264-1265).

3- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص91 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص43 ؛ ابن الخطيب: **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثَّالث من كتاب أعمال الأعلام**، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمَّد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م، ص240. (جيشٌ عَرَمْرَمٌ: كثيرٌ، وقيل هو الكثير من كل شيءٍ، وعُرامُ الجيش: حَدُّهُمْ وشِدْتُهُمْ وَكَثْرَتُهُمْ). (انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، مج4، ص2913-2914).

4- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص152-153 .

5- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص828 ؛ بسَّام العسلي، **المعتمد وابن تاشفين**، ص68.

6- **الحُلل الموشيَّة**، ص44 .

مثلما قامت على غيري"[1]. وقال أيضًا: "حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير"[2].

وحدث في تلك الأثناء اجتماع لمشايخ قرطبة للتشاور في الحالة السيئة التي تعشيها البلاد، وعرضوا الأمر على قاضي المدينة عبيد الله بن أدهم[3]، واقترحوا عليه الاستنجاد بعرب إفريقية الهلاليّين ولكن القاضي تخوَّف من تخريبهم للبلاد كما فعلوا بإفريقية، وأشار عليهم الاتصال بالمرابطين لأنهم أصلح من الهلاليّين، وأقرب إلى الأندلس[4].

وشاع في الأندلس أنَّ المعتمد بن عبَّاد يرى ضرورة الاستنجاد بالمرابطين فقام أمراء الأندلس يُحذِّرونه عاقبة ذلك وقالوا له: "الملك عقيمٌ والسيفان لا يجتمعان في غمدٍ واحدٍ". ولكن المعتمد أصرَّ على رأيه وأجاب: "إن استندتُ إلى ابن تاشفين فإنِّي أُرضي الله، وإن استندتُ إلى الأذفنش أسخطتُ الله تعالى"[5] ، وبقي متمسكًا برأيه إلى أن أقنعهم، فقام بالاتصال بكل من ابن الأفطس صاحب بطليوس، وابن بلكين صاحب غرناطة، وطلب أن يرسل كل واحد منهما قاضيًا لتشكيل بعثة تذهب إلى المغرب لمقابلة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين،وكانت هذه البعثة برئاسة

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص44-45 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص78 ؛ دوزي رينهرت: **ملوك الطَّوائف**، ترجمة كامل كيلاني، ط1، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1933م، ص281.

2- **الحُلل الموشيَّة**، ص45. (وردت مقولة ابن عبَّاد بصيغ مختلفة فقد جاءت عند ابن خلكان كما يلي "ولأن يرعى أولادنا جمالهم (يقصد جمال المرابطين) أحبُّ إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج"، وجاءت عند الحِميري بعبارة "رعي الجمال خير من رعي الخنازير" وهي العبارة المشهورة والأكثر تداولًا في المراجع الحديثة، وقد جاءت المقولة عند أشباخ مطابقة لما في الحُلل الموشيَّة كما هي مدونة في المتن. (انظر: **وفيات الأعيان**، مج7، ص115 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص288 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحَّدين**، ج1، 78).

Amar Dhina **: Grands tournants de l'histoire de L'Islam (de la bataille de badar à L'attaque d'Alger par Charles - Quint),** société nationale d'édition et de diffusion , Alger, 1978, p130.

3- كُنيته أبو بكر قاضي الجماعة بقرطبة، كان أعقل أهل زمانه، استقضاه المتعمد بن عبَّاد سنة 468هـ/1075م، وكان قبل ذلك ينظر في أحكام المظالم، توفي سنة 486هـ/1093م. (انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج5، ص28 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، 132/4).

4- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، ج10 ، ص151-152 .

5- الحميري، **الرَّوض المعطار**، ص288 ؛ سعدون نصر الله: **تاريخ العرب السِّياسي في الأندلس**، ط1، دار النَّهضة العربية للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1998م، ص220-221 ؛ بسَّام العسلي، **المعتمد وابن تاشفين**، ص69-70 .

القاضي ابن أدهم وبحضور وزير المعتمد ابن زيدون[1]، وقاضي بطليوس ابن مقانا، وقاضي غرناطة ابن القليعي[2] حملا معهما رسالة مكتوبة من المعتمد بن عبّاد إلى الأمير يوسف يستنجده فيها ويستدعيه للأندلس ليدفع عنه ألفونسو السّادس[3].

ولمّا وصلت الرُّسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم وأكرم مثواهم، وجرت بينهم محادثات ومفاوضات[4]، وكان الأمير يوسف يعدهم خيرًا، بعد أن رقَّ قلبه لحالهم وحال بلادهم، وبعد مشاورة حاشيته وافق على العبور إلى الأندلس لنصرة إخوانه في الدِّين[5].

ونخلص في الأخير للقول بأنَّ أوضاع بلاد الأندلس في عهد أمراء الطَّوائف كانت في حالة اضطراب وفوضى كبيرة جدًا، ممَّا سهَّل على الممالك المسيحيَّة التي توحَّدت تحت راية ملك قشتالة ألفونسو السَّادس على الانقضاض عليها وتهديدها بالمحوِّ والفناء، وبخاصة بعد الاستيلاء على طليطلة سنة 478هـ/1085م، حيث تعاظم الخطر على المسلمين بالأندلس أكثر من ذي قبل وازدادت حروب الاسترداد المسيحي ضراوةً وقوةً، وأصبحت أيامهم معدودة في الأندلس.

ولحسن الحظ أنَّ أمراء الطَّوائف وجدوا في المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين السند القوي، حيث استنجدوا به وطلبوا منه العبور إلى الأندلس لصدِّ حركة الاسترداد المسيحي، فوافق أمير المسلمين يوسف على طلبهم، وقرَّر العبور إلى الأندلس للقيام بهذه المهمَّة السامية المتمثلة في رفع راية الجهاد في سبيل الله.

1- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص288. (أبو بكر محمَّد بن أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون ابن الشاعر المشهور، كان وزير المعتمد بن عبَّاد، أسند له هذا الأخير في مهمته مع الفقهاء الثلاثة أن يقوم بإبرام العُقود السُّلطانية، أي صلاحية إبرام الاتفاق مع الأمير يوسف بن تاشفين). (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَراء**، 99/2).

2- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَراء**، ج2، ص98-99).

3- عن نص الرِّسالة التي بعثها المعتمد بن عبَّاد إلى الأمير يوسف بن تاشفين. (انظر: **الملحق رقم 4**، ص417).

4- وقد أسفرت هذه المحادثات على جملة من الشروط وافق عليها الطرفان تتمثل فيما يلي: أن يتعاون أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين وأمراء الطَّوائف في محاربة النَّصارى، وأن يؤمن أمراء الطَّوائف في ممالكهم، وألَّا تُحرَّض رعيتهم على شيءٍ من الفساد. (انظر: عنان، **دول الطَّوائف**، ص318).

5- مارمول كربخال: **افريقيا**، ترجمة محمَّد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنَّشر والتَّوزيع، الرِّباط، 1984م، ج1، ص305.
André Clôt: **L'Espagne musulmane**, édition Perrin, Paris, 1999, p196-197 .

الباب الأوَّل

حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصر المرابطين

479–541هـ/1086–1146م

الفصل الأوَّل:

حركة الاسترداد المسيحي في عهد الأمير يوسف بن تاشفين

أولًا– العبور الأوَّل ومعركة الزَّلاقة

ثانيًا– العبور الثَّاني ومعركة حصن لييط

ثالثًا – العبور الثَّالث وضم الأندلس للدَّولة المرابطيَّة

رابعًا– العبور الرَّابع وتنظيم شؤون الأندلس

بعد أخذ ورد قبل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين القيام بهذه المهمَّة النَّبيلة المتمثلة في العبور لبلاد الأندلس لنجدة إخوانه المستضعفين، فاستبشر أهل الأندلس بقدومه كثيرًا ورأوا فيه المخلص من هذه المحنة العظيمة والمتمثلة في زحف النَّصارى الصَّليبيِّين على بلادهم.

وأخذ يُعِّد العُدَّة للعبور إلى الأندلس، تلبيةً لنداء أهله تحدوه نزعة الجهاد في سبيل الله وقد استنفر لذلك جميع نواحي بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، وأقبلت إليه الحشود من كل مكان فاجتمع منهم خلقٌ كثير، فشرع في تجهيز السفن لعبور هذه الحشود.

أولًا- العبور الأوَّل ومعركة الزَّلاقة:

1- الإعداد للمعركة:

1-1- استعداد المسلمين:

ارتبطت موافقة الأمير يوسف بن تاشفين للعبور إلى الأندلس لإيقاف زحف الصَّليبيِّين على إخوانه بتحقيق شرط واحد اشترطه على المعتمد بن عبَّاد ألا وهو تسليمه الجزيرة الخضراء لكي يجعل فيها ثِّقاته، وجنوده، ويكون عبوره إليها متى شاء[1] ؛ وكتب في ذلك رسالة إلى المعتمد بن عبَّاد[2] الذي قام بجمع مجلسه المتمثل في القاضي و الفقهاء لاستشارتهم في الأمر

1- وكان الذي أشار على الأمير يوسف بن تاشفين بضرورة تملكه الجزيرة الخضراء قبل عبوره إلى الأندلس كاتبه عبد الرَّحمان بن أسباط الأندلسيّ، لأنَّه رأى أنَّ ذلك كفيل بضمان أمن وسلامة القوَّات المرابطيَّة عند العبور، وقد تجاوب الأمير يوسف معه بقوله: "صدقت يا عبد الرَّحمان لقد نبهتني إلى شيئ لم يخطر ببالِي". (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص49-50).

2- عن نص رسالة الأمير يوسف للمعتمد يطلب منه أن يعطيه الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقاله وأجناده. (انظر: مجهول، **الحُلل الموشيَّة**، ص50).

ولكي يُشهدهم على عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وعندما أتمَّ هذا العقد أرسله إليه كما بعث إلى ابنه يزيد بن محمَّد الراضي[1] صاحب الجزيرة الخضراء يأمره بإخلائها والانتقال عنها لتسليمها للمرابطين لكي يعسكروا بها[2].

وبعد حصول الأمير يوسف على الجزيرة الخضراء حزم أمره، وأخذ يُعِّد العُدَّة للعبور إلى الأندلس[3]، تلبيةً لنداء أهله تحدوه نزعة للجهاد ويظهر ذلك في قوله "أنا أوَّل منتدب لنصرة هذا الدِّين ولا يتوَّلى الأمر أحدٌ إلَّا أنا بنفسي"[4]، وقد استنفر لذلك جميع حشوده، وبعث في البلاد إلى جنوده الذين أقبلوا عليه من الصحراء وبلاد الزاب[5] ومن مختلف نواحي المغرب،فرحل

1- هو يزيد بن محمَّد الرَّاضي أبو خالد، كان من أهل العلم والأدب، ولاَّه والده الجزيرة الخضراء وعندما سلَّمها للمرابطين نقله إلى رندة، توفي مقتولًا في رمضان سنة 484هـ/1091م. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص71؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص110 ؛ دوزي، **ملوك الطَّوائف**، ص291).

2- **الحُلل الموشيَّة**، ص51. (غير أنَّ عبد الله بن بلكين يذكر رواية أخرى لكيفية تسليم الجزيرة الخضراء مفادها أنَّ المعتمد بن عبَّاد تريث في الأمر بإمساكه لرسل الأمير يوسف بن تاشفين في إشبيلية مدَّة طويلة، ثمَّ أرسل معهم شيوخ وفُقهاء ليقولوا ليوسف تربص في مدينة سبتة مدَّة ثلاثين يومًا حتَّى نُخلي لك الجزيرة الخضراء، ولكن الأمير يوسف خالف الأمر وعبر إلى الأندلس واستولى على الجزيرة بقيادة داود بن عائشة). (انظر: **التِّبيان**، ص102-103).

3- Eugène Guernier et G. Froment-Guieysse**: L'Encyclopédie Coloniale et maritime - Maroc**, éditions de l'empire Français, Paris, 1948, p51.

4- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص92. (ويذكر ابن بلكين بأنَّ الأمير يوسف بن تاشفين كتب أمانًا لأهل الأندلس على ألا يتعرض لأحد منهم حين عبوره لبلادهم، وأن يتعاون مع أهلها للتصدي لحركة الاسترداد المسيحي). (انظر: **التِّبيان**، ص103).

5- بلاد الزاب على أطراف الصحراء في سمت بلاد الجريد، تبعد عن القيروان بعشر مراحل، وهي مُدن كثيرة وأنظار واسعة وعمائر متصلة، فيه المياه السائحة والأنهار والعيون الكثيرة، من مدنه طُبْنَة وباغاية وتِيجِس والمسيلة ونقَاوُس وبسكرة وتهودة وميلة وغيرها. (انظر: اليعقوبي: **كتاب البُلدان**، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م، ص107-108 ؛ الرقيق القيرواني: **قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق عبد الله العليّ الزيدان، عز الدِّين عمر موسى، ط1، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1990م، ص11 ؛ مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة أفاق عربية، بغداد، د.ت، ج8، ص171 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص281-282).

بهم إلى مدينة سبتة[1]، وحشد السفن لعبور هذه القوّات[2]، وأصدر الأوامر لقواته بالعبور إلى الجزيرة الخضراء، وتوالى عبور الجيش تباعًا، وقد بلغ عدده حوالي عشرة آلاف[3]، كما أمر بعبور الجِمال التي لم يكن يعرفها أهل الأندلس ولا رأوها قط[4]، وعندما عبر جميع أفراد الجيش لحق بهم الأمير يوسف في أثرهم يوم الخميس منتصف ربيع الأوّل 479هـ الموافق ل 30 جوان 1086م[5] ولمّا وطئت قدماه ظهر السفينة رفع يديه نحو السماء ودعا ربه قائلًا: "اللّهم إن كنت تعلم أنَّ جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل علي جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبه علي حتَّى لا أجوزه[6]"، فاستجاب الله تعالى لدعائه و سهَّل عليه العبور في

1- مدينة مشهورة من قواعد بلاد المغرب تقع على أوَّل البحر الرومي تُقابلها بالأندلس شمالًا على طرف بحر الزقاق الجزيرة الخضراء، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلَّا من ناحية الغرب، وهي مدينة قديمة وحصينة فيها آثار كثيرة، بها جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة، بينها وبين مدينة فاس مسيرة عشرة أيام. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص247 وما بعدها ؛ أبو حامد الغرناطي: **تُحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، ص160 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص182-183 ؛ السبتي الأنصاري محمَّد بن القاسم: **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1983م، ص10 وما بعدها). (انظر أيضًا: **خريطة رقم1**، ص432).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص144 ؛ دوزي، **ملوك الطَّوائف**، ص289. (كان أسطول الأمير يوسف بن تاشفين في ذلك الوقت يتألف من سُفن النقل أكثر من سُفن القتال، لأن الغرض الأساسيّ كان ربط الاتصال بين المغرب والأندلس لنقل الجنود والمعدات). (انظر: السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: **تاريخ البحرية الإسلاميَّة في حوض البحر الأبيض المتوسط، البحرية الإسلاميَّة في المغرب والأندلس**، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993م، ج2، ص240).

3- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج5، ص29. (بينما يذكر المرَّاكشي بأنَّ عدد الجيوش التي جمعها الأمير يوسف من مختلف نواحي بلاد المغرب خلال عبوره الأوَّل للجهاد في الأندلس بلغت حوالي سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرَّجْل (يقصد الجنود المشاة)). (انظر: **المُعجب**، ص93).

4- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج7، ص116 ؛ المقرّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص361.

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص145 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص24. (يختلف المرَّاكشي مع ابن أبي زرع وابن الخطيب في تحديد الشهر الذي عبر فيه الأمير يوسف إلى الأندلس حيث جعله في شهر جُمادى الأوَّل). (انظر: **المُعجب**، ص93).

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص145 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص32 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص319؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص82.

أسرع ما يكون، وعند وصوله إلى الجزيرة الخضراء صلَّى بها صلاة الظهر من يومه ذلك[1]، واستقبله سكانها بالتِّرحاب وخرجوا إليه بما عندهم من الأقوات والضيافات، وامتلأت المساجد والرحبات بالمتطوعين[2].

وشرع الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء ببناء أسوارها، وترميم ما تصدع من الحُفر عليها وشحنها بالأطعمة والأسلحة، وقام باختيار نُخبةً من عسكره لحراسة الجزيرة[3]، واتجه نحو إشبيلية، وسارع المعتمد بن عبَّاد لملاقاته في مئة من فرسانه ووجوه أصحابه[4]، وأظهر من برِّه وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين، وقدَّم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك[5]، كما أنَّهما التقيا منفردين وتصافحا وتعانقا[6]، ويقول صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ ابن عباد همَّ بتقبيل يد الأمير يوسف تعظيمًا له ولكن هذا الأخير بادر لمعانقته وانبسط معه في الحديث[7] ؛ وطلب منه المعتمد دخول إشبيلية ليستريح فيها أيامًا حتَّى تزول عنه وعثاء السفر، فأبَّى عليه وقال له "إنَّما جئت ناويًا جهاد العدوِّ، فحيثما كان العدوُّ توجَّهتُ وَجهه[8]".

لم يستقر الأمير يوسف بن تاشفين غير ثلاثة أيام في إشبيليَّة ينتظر فيها التحاق الجيوش حيث بعث إلى سائر أمراء الأندلس يستنفرهم للجهاد فلبَّى الدعوة صاحب غرناطة عبد الله بن بلكين و أخوه تميم صاحب مالقة[9]، و يذكر ابن بلكين ذلك في مذكراته حيث قال " و بادرنا

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص145.

2- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص289 ؛ المقرّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص362 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص51 .

4- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص289 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص38 .

5- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص93 .

6- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص289 ؛ المقرّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص362 .

7- **الحُلل الموشيَّة**، ص51 ؛ دوزي، **ملوك الطَّوائف**، ص292 .

8- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص93 .

9- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص240-241 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص52 .

بالخروج وسررنا بذلك، وأعددنا ما استطعنا للجهاد من الأموال والرِّجال"[1].

وقد خرج ابن بلكين بنحو ثلاثمائة فارس، بينما أخوه تميم بنحو مائتي فارس[2] والتقيا بمعسكر الأمير يوسف في الطريق إلى بطليوس، هذا وقد اعتذر صاحب المريَّة ابن صمادح لكبر سنِّه، ولتربص العدوِّ النَّصرانيُّ به[3]، وأرسل فرقة من الفرسان مع ولده[4]، وسارت هذه الجموع بقيادة أمير المسلمين يوسف نحو بطليوس فاستقبلهم صاحبها المتوكِّل بن الأفطس على ثلاثة مراحل من المدينة وأكرمهم غاية الكرم[5] ومكثوا هناك أيامًا، ثمَّ تابعوا المسير حتَّى وصلوا إلى سهل الزَّلاقة[6].

1-2- استعداد المسيحيِّين:

بلغ خبر عبور يوسف وجيشه للأندلس إلى ألفونسو السَّادس و كان يحاصر سرقسطة[7]

1- **التِّبيان**، ص104 .

2- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج$_2$، ص100 ؛ دوزي، **ملوك الطَّوائف**، ص294 .

3- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص104 .

4- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج$_2$، ص100 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص146 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، 40/2 .

6- الزَّلاقة أصله من قولهم مكان زلقٌ أي دحضٌ، والزَّلَقُ معناه الزَّلَلُ، وأرضٌ مَزْلَقَةٌ هي الأرض التي لا يثبت عليها قدمٌ من شدَّة زَلَقِهَا لأنَّها ملساء لا نبات فيها ؛ وبطحاء الزَّلاقة موضعٌ صغيرٌ بغرب الأندلس يسمى اليوم (Sagrajas) على أحد نهيرات وادي آنه المسمى نهر جيريرو (Guerrero) على نحو اثني عشر كيلومترًا شمال مدينة بطليوس. (انظر: ابن منظور: **لِسَانُ العرب**، مج$_3$، ص1854-1855 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج$_3$، ص146 ؛ ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج$_2$، ص101، هامش1). (عن موقع معركة الزَّلاقة، انظر أيضًا: **خريطة رقم 2**، ص433).

7- لم يشارك المستعين بالله الثَّاني أحمد بن هود أمير سرقسطة في معركة الزَّلاقة لأنَّ مدينته كانت محاصرة من قبل ألفونسو السَّادس، وقد تقرب المستعين من الأمير يوسف بن تاشفين بعد نهاية المعركة وأبدى له عذره للتخلف عن المشاركة فيها، وقبل الأمير يوسف هذا العُذر، ونشأت علاقة ودية بين الأميرين. (انظر: ابن الخطيب: **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق وتعليق إ. ليقي بروفنسال، ط$_1$، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة، 2004م، ص173 ؛ سعدون عبَّاس نصر الله، **تاريخ العرب السِّياسي بالأندلس**، ص143).

فانحلت عزائمه[1]، وارتعدت فرائسه، واضطر لرفع الحصار عن المدينة[2]، ورحل منها إلى طليطلة[3] وأخذ يستنفر جميع القوى النَّصرانيَّة وبعث إلى سانشو راميرز (Sancho Ramirez)[4] ملك أراغون و نافارا و كان محاصرًا لمدينة طُرطوشة[5]، كما أرسل إلى قائده ألبرهانس[6] يستدعيه من بلنسيَّة[7]

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص145 .

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص92 ؛ عبد الوهاب الدباغ: **التَّحدي الصَّليبيّ للوجود الإسلاميّ في إسبانيا**، منشور ضمن كتاب **الوحدة والتَّنوع في تاريخ المسلمين بحوث في التَّاريخ والحضارة الإسلاميَّة**، ط1، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2002م، ص235 .

3- يذكر ابن الكردبوس أنَّ ألفونسو السَّادس قبل رحيله إلى طليطلة حاول انتهاز الفرصة فطلب من المستعين أن يدفع له ما أمكنه من المال ويرحل عنه، فأبى المستعين أن يعطيه درهمًا واحدًا، لأنَّه سمع بقدوم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لنجدة أهل الأندلس، كما أنَّه خاف أن يتقوى ألفونسو بهذا المال. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص92).

4- هو ملك أراغون ونافارا ولد عام 1043م وتوفي سنة 1094م، خلفه في الحكم ولده بيدرو الأوَّل، عُرف بابن رذمير أو ابن ردمير في المصادر الإسلاميَّة مثل ولده ألفونسو الأوَّل المحارب، حاصر طُرطوشة مدَّة طويلة فتضرَّر أهلها من ذلك كثيرًا، حيث افتقدوا الشعور بالأمن والاستقرار لفترة طويلة. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص100، هامش2؛ كمال السيد أبو مصطفى: **تاريخ مدينة طُرطوشة الإسلاميَّة وحضارتها في عصر دويلات الطَّوائف في القرن 5هـ/11م**، منشور ضمن كتاب **السجِّل العلميّ لندوة الأندلس قرون من التقلُّبات والعطاءات**، ط1، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامَّة، الرياض، 1996م، ص178).

5- مدينة قديمة بشرق الأندلس بينها وبين بلنسيَّة مسيرة أربعة أيام، وهي في سفح جبلٍ كثير الخير والبركة، ولها سورٌ حصينٌ وبها أسواق وعمارات وضِياع، بينها وبين البحر المتوسط) عِشرون ميلًا. (انظر: الإدريسي، **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، ص279 ؛ القزويني، **آثار البلاد**، ص544-545 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص391) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم1**، ص432).

6- (Alvarhanes) أو (Alvar Fanez) ورد اسمه باللغة العربيَّة بصيغ مختلفة منها ألبارهانس وألبرهانش وألبارفانييث، وهو من أكبر قُواد ألفونسو السَّادس، وهو ابن أخ السيد القمبيطور، شارك في العديد من المعارك ضدَّ المسلمين كالزَّلاقة وأقليش وغيرهما، كانت وفاته سنة 507هـ/1114م على يد أهل شقوبية في المعارك الدائرة بين ألفونسو المحارب صاحب أراغون، وأوراكة صاحبة ليون وقشتالة وأشتوريش. (انظر: ابن القطان: **نُظُمُ الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزَّمان**، درسه وقدَّم له وحقَّقه محمود علي مكيّ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ج6، ص64، هامش2 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص145).

7- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص92 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص145-146 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص84 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص322 .

وحشد أيضًا قوات عظيمة من جليقية، قشتالة، أشتوريش، ليون وبنبلونة[1]، وأتاه المَدَّد أيضًا من ولايات فرنسا الجنوبيَّة[2]، وإيطاليا[3]، ويذكر ابن أبي زرع أنَّه أتاه من تلك البلاد من حشود الرُّوم أُممٌ لا تحصى بلغت مئة وثمانين ألف فارس ومأتي ألف راجل[4]، وبلغت حسب صاحب الحُلل الموشيَّة حوالي ثمانين ألف فارس لابسين الدُّروع دون غيرهم[5]، ولمَّا رأى ألفونسو هذا العدد أعجبته كثرته[6] و أخذه الغرور فقال:"بهؤلاء أقاتل الجّن والإنس و ملائكة السَّماء[7]"، وقد

1- مدينة بشرق الأندلس بينها وبين سرقسطة مائة وخمسة وعشرون ميلًا، وهي بين جبال شامخة وشعاب غامضة قليلة الخيرات، أهلها فقراء لصوص يسكنون على البحر المحيط في الجوف، وأكثرهم متكلمون بالبشقيَّة وهي لغة الباسك (Basque) وخيلهم أصلب الدواب حافرًا لخشونة أرضهم. (انظر: الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص104).

2- يذكر أشباخ بأنَّ ولايات فرنسا الجنوبيَّة تتمثل في لانجدوك وجويانه وبرجونيه وبروقانس، ويضيف بأنَّ المدد جاءه أيضًا من كونت برشلونة رامون برنجير الثَّاني الذي كان يتأهب لغزو بلنسيَّة. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص84).

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص322 .

4- **روض القرطاس**، ص146 وما بعدها. (ويذكر ابن الكردبوس بأنَّ العساكر أقبلت على ألفونسو السَّادس من أقصى الرُّوميَّة (يقصد أوروبا) حتَّى ملئوا البطاح والأفضيَّة). (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص92).

5- **الحُلل الموشيَّة**، ص56 .

6- اختلفت الرِّوايات التَّاريخيَّة في تقدير حجم قُوات المسلمين والنَّصارى المشاركين في معركة الزَّلاقة، وقد ذكرت في المتن تقديرات كُلًا من ابن أبي زرع وصاحب الحُلل الموشيَّة لجيش النَّصارى، ويرى الحِميري أنَّ تعدادهم هو أربعين ألف دارع، ولابدَّ لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان، في حين أنَّ الرِّوايات النَّصرانيَّة تلتزم أغلبها الصَّمت حيال عدد الجيوش النَّصرانيَّة، وقد قدرها أشباخ بنحو مئة وثلاثون إلى مئة وخمسون ألف مقاتل، أمَّا الجيش الإسلاميّ فقدَّر عدده صاحب الحُلل الموشيَّة بحوالي خمسين ألف فارس، بينما يرى المرَّاكشي أنَّه في حدود عشرين ألف، في حين أنَّ الرِّوايات النَّصرانيَّة تبالغ في ذكر عدد جيوش المسلمين حيث يقول أشباخ بأنَّه في حدود مئة وثلاثون إلى مئة وخمسون ألف مقاتل، ورغم هذا التَّباين في الآراء إلَّا أنَّ جُلَّ الرِّوايات الإسلاميَّة تُجمع على أنَّ قوام جيوش النَّصارى كان أكبر بكثير من حجم جيوش المسلمين، ويتضح هذا أكثر بالاطلاع على وقائع المعركة ونتائجها. (انظر: **روض القرطاس**، ص146 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص56 ؛ **المُعجب**، ص94 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص289 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص84-85؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص322).

7- يذكر ابن الأثير والحِميري بأنَّ ألفونسو السَّادس حين كان يعد العدَّة لحرب المسلمين رأى في منامه وكأنَّه راكب فيل، وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه، فقصَّ رؤياه على القسِّيسين، فلم يعرفوا تأويلها، ففسرها له رجل مسلمًا عالمًا بتعبير=

ساهمت الكنِّيسة في شحذِّ الهِمَّم، وقد ذكر ابن عذارى أنَّ الرهبان والأساقفة رفعوا صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، وتقدموا الجيوش لإذكاء الحماس الدِّيني في نفوسهم[1].

كان ألفونسو حانقًا على ابن عبَّاد حليفه السَّابق، وبعث إليه وإلى حليفه الجديد الأمير يوسف بن تاشفين برسالة يتوعدهما الهزيمة السَّاحقة، وبالإقبال إلى منازلتهما أينما كانوا قائلا: "إنَّ صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاد بعيدة، وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعبًا، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم"[2]. وقال لأهل ودِّه ووزرائه بأنَّه اختار الخروج لمقاتلة أعدائه في أرضهم لكي لا تُخرِّب الحرب بلاده، فإن انهزم جيشنا نرجع إلى ديارنا، ويكتفي المسلمون بما نالوه، وإذا انتصرنا حدث ذلك في أرض أعدائنا[3]، واتجهت حشود النَّصارى بقيادة ألفونسو السَّادس نحو بطليوس، وخيَّم بجيشه في بطحاء الزَّلاقة على بعد ثلاثة أميَّال من الجيش المسلم، يفصل بينهما نهر بطليوس الذي يشرب منه المتحاربون[4].

= الرؤيا فقال تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله العزيز وهو قوله تعالى ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)) (**سورة الفيل، الآية 1**) وقوله تعالى ((فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَالِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)) (**سورة الْمدَّثِّر، الآيات 8-9-10**) وتدل الرؤيا على بلاء عظيم، وتقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص153 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص289-290).

1- **البيان المغرب**، ج4، ص134 ؛ حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص272 ؛ نجيب زبيب: **الموسوعة العامَّة لتاريخ المغرب والأندلس**، تقديم أحمد بن سودة، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995م، ج2، ص272 .

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص134 ؛ المقرِّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص363 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص39 .

3- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص289 ؛ عبد الله جمال الدِّين: **تاريخ المسلمين في الأندلس (93-97)هـ**، منشور ضمن **موسوعة سفير للتَّاريخ الإسلاميّ**، شركة سفير، القاهرة، د.ت، ص96 .

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص146 ؛ بطرس البستانيّ: **معارك العرب في الأندلس**، ط1، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1950م، ص25 ؛ فراد محمَّد أرزقي: **القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطَّوائف (القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي)**، رسالة لنيل دبلوم الدِّراسات المعمَّقة، دائرة الدَّراسات التَّاريخيَّة والأثرية، جامعة الجزائر، 1982م، ص138 .

2– وقائع المعركة:

وصلت الجيوش المتحاربة إلى بطحاء الزّلاقة، وعسكرت على مقربة من بعضها البعض، وأقاموا ثلاثة أيّام والرُّسل تختلف بينهم[1]، وعملًا بمقتضيات الشريعة الإسلاميّة كتب الأمير يوسف إلى ملك قشتالة ألفونسو السّادس كتابًا يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب[2]، فرفض الاقتراحين الأوّل والثّاني واختار الحرب.

وقبل بداية المعركة رد الأمير يوسف على رسالة ألفونسو السّادس التي هدّده فيها بالهزيمة الساحقة في عقر داره، وممّا جاء فيها "بلغنا يا أذفنش أنّك دعوت في الاجتماع بك، وتمنيت أن يكون لك فُلكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد أجزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك[3]" ((وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلاَلٍ))[4]. فلمّا وصل الكتاب إلى ألفونسو جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه وكفره وقال:"أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نغرم الإتاوة لأهل ملته منذ ثمانين سنة"[5]، وردَّ عليه بكتاب غليظ يفيض بالوعيد وقال لرسول الأمير يوسف "قل للأمير لا تُتعب نفسك أنا أصل إليك[6] "، وأقسَّم أنَّه لا يبرح من موضعه حتَّى يلقاه[7].

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص146 ؛ السّلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص40 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص323.

2- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص290 ؛ المقرِّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص364 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص53 ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج7، ص116 .

4- **سورة غافر، الأية 50** .

5- **الحُلل الموشيَّة**، ص53 ؛ فلنتيا سليمان عفانة، **مملكة اشبيلية زمن بني عبَّاد وعلاقاتها الداخليَّة والخارجيَّة 414–484هـ/1023–1069م**، رسالة ماجستير في التَّاريخ الإسلاميّ، كلية الدِّراسات العليا في جامعة النَّجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2003م، ص154 .

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص146 .

7- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 116/7 .

كانت الأحوال تُنذر بأنَّ المعركة سوف تكون حامية الوطيس، نتيجة تمسك كل طرف بإحراز النَّصر وإلحاق الهزيمة بخصمه، وكذلك لكثرة الجيوش المحتشدة من كلا المعسكرين ويصف لنا ابن خلكان ضخامة هذه الجيوش بقوله "ولم تزل الجموع تتآلف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلًا ورِجالًا من الفريقين[1]" وكان عدد جيوش النَّصارى حسب معظم المؤرخين أكبر من عدد جيوش المسلمين، ويقول المؤرخ أشباخ في هذا الشأن أنَّ جموع فرسان النَّصارى لا تدرك نهايتها الأبصار[2].

وحاول ألفونسو بمكره الشديد خِداع المسلمين في تحديد يوم المعركة، فكتب إلى الأمير يوسف يوم الخميس يقول له: "إنَّ غداً يوم الجمعة، ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنَّه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثيرون في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد ويكون اللِّقاء يوم الإثنين[3] "فأجاب الأمير يوسف بقوله أتركوا اللَّعين وما أحب"[4].

وقد تفطن المعتمد بن عبَّاد لمكيدة ألفونسو، وقال للأمير يوسف "هذه خديعة من ابن فرديناند، إنَّما يريد غدر المسلمين فلا تطمئن إليه وليكن النَّاس على استعداد له طوال يوم الجمعة على احتراس كبير[5]"، وبالفعل كانت عيون معسكر المعتمد بن عبَّاد يقظة، حيث أرسل طلائع من جيشه لرصد تحركات العدوِّ، وأثناء اللَّيل عاد فارسان يخبران المعتمد ببدأ تحرك العدوِّ

1- **وفيات الأعيان**، مج7، ص116 .

2- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص85 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص57 ؛ المقرِّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص365 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص57 .

5- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص290 .

نحوهم[1] وعند ذلك بعث ابن عبَّاد كاتبه أبا بكر بن القصيرة[2] إلى محلة الأمير يوسف يخبره بقدوم العدوِّ فقال له "قل له أني سأقرب منك إن شاء الله"[3].

ووقع الصِّدام بين قوى النَّصارى والمسلمين صباح يوم الجمعة 12 رجب سنة 479هـ الموافق ل 23 أكتوبر 1086م[4]، وكان أوَّل من تصدى لجيوش النَّصارى المعتمد بن عبَّاد لأنَّه كان في مقدمة جيوش المسلمين[5]، وكان يقود القوَّات الأندلسيَّة، ووقعت معركة ضارية بين الطرفين وكان هجوم النَّصارى عنيفًا، ويصفه صاحب الحُلل الموشيَّة بقوله "وغشيهم خيل العدوِّ كالسَّيل، وعمَّتهم كقطع اللَّيل[6]"، وأسفر هذا الهجوم على اختلال التوازن في صفوف القوَّات الأندلسيَّة، بحيث فرَّ معظمها نحو أسوار بطليوس للاحتماء بها[7]، ولم يثبت منهم سوى المعتمد

1- ويذكر الحِميري أيضًا أنَّ رُسل المعتمد بن عبَّاد أخبرته أنَّ ألفونسو كان يقول لأصحابه اقضوا على ابن عبَّاد أولًا لكونه صاحب المبادرة في إشعال الحرب وهو من استدعى هؤلاء الصحراويون، وتخلصكم منه يهون عليكم القضاء على باقي جيوش المسلمين. (انظر: الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص290).

2- هو أبو بكر محمَّد بن سليمان بن القصيرة من مدينة ولبة بالأندلس، نشأ في دولة المعتضد بن عبَّاد، أشتهر بالعفاف، وكان كاتبًا مجيدًا، بارع الخط جعله المعتمد بن عبَّاد وزيرًا وسفيرًا بينه وبين يوسف بن تاشفين، وقد استكتبه هذا الأخير واستعمله، استقر بمرَّاكش وتوفي بها سنة 508هـ/1114م. (انظر: ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص117 وما بعدها ؛ ابن الأبَّار: **إعتاب الكتاب**، تحقيق وتعليق وتقديم صالح الأشتر، ط1، مطبوعات مجمع اللُّغة العربية، دمشق، 1961م، ص222-223 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص516 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص60).

3- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص291 .

4- ابن الأبَّار، **التَّكملة لكتاب الصِّلة**، ص29 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج4 ، ص351. (في حين يرى ابن الأثير أنَّ المعركة حدثت يوم الجمعة العشر الأوَّل من رمضان سنة 479هـ الموافق ل 17 ديسمبر 1086م). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص154).

Philippe Conrad : **Histoire de la Reconquista**, isbn, 2em édition, 1999, p58.

5- كان الأمير يوسف قد قسَّم جيشه إلى خمسة أقسام، وضع المعتمد بن عبَّاد في المقدمة، والمتوكِّل بن الأفطس في الميمنة وأهل شرق الأندلس في الميسرة، وسائر أهل الأندلس في الساقة، والمرابطون وأهل العُدوة كمائن متفرقة. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص59).

6- **الحُلل الموشيَّة**، ص59 .

7- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص147 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص324 .

ابن عبَّاد وفرسان إشبيلية، ورغم إحاطة العدوّ بهم من كل صوب إلَّا أنَّهم كانوا يقاتلون كالأسود المجروحة[1]، وأبلى المعتمد بلاءً حسنًا واستطاع أن ينقذ شرف الأندلسيِّين بثباته في ميدان المعركة[2].

وإثر هذه الظروف الصعبة أرسل الأمير يوسف قائده داود بن عائشة مع فرسانه لنجدة ودعم الأندلسيِّين وقوات المعتمد التي تنفست الصعداء بمجيء هذا المدد، وصمد داود أمام هذا الهجوم وأرغم النَّصارى على الارتداد إلى خط دفاعهم الثَّاني[3] ولكن كلفه ذلك خسائر فادحة في قواته[4].

وأيقن ألفونسو ببلوغ النَّصر حينما رأى مقاومة المسلمين تضعف أمامه، وظنَّ أنَّه خاض المعركة مع قوى المسلمين جميعًا، ولم يكن يعلم بأنَّ قوَّات الأمير يوسف بن تاشفين المتوارية وراء جبل يحجبها عن أنظار النَّصارى لم تشارك بعد في المعركة[5]، فتقدم ألفونسو حتَّى صار أمام خيام المرابطين فوثب الجيش المرابطيّ بقيادة أمير المسلمين وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها العدوّ من الخلف واقتحم معسكره، وأضرم فيه النَّار وأباد حراسه[6]، وكانت طبوله تدق بعنف فاهتزت منها الأرض و تجلجلت منها أفئدة العدوّ، وارتاعت قلوبهم[7]؛ ووصلت إلى

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص88 .

2- ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص14 ؛ المقرّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص366 ؛ حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، القاهرة، 2004م، ص432 ؛ محمَّد مجيد السَّعيد: **الشعر في ظلّ بني عبَّاد**، ط1، مطبعة النعمان، العراق، 1972م، ص37 .

3- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص291 .

4- يقول صاحب الحُلل في استشهاد جنود المسلمين "استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرَّحمة وخطبتها الجنَّة". (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص59).

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص88 .

6- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص154 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص148 ؛ **دول الطَّوائف**، ص324 .

7- **الحُلل الموشيَّة**، ص60 .

ألفونسو أنباء استيلاء المرابطين على معسكره فاضطر للعودة إليه واصطدم بقوات المرابطين ووقعت بينهم معركة كبيرة مُزقت فيها قوات القشتاليِّين وألحقت بهم خسائر فادحة، وأظهر جيش المسلمين صبرًا وثباتًا كبيرًا بعد أن شحذ الأمير يوسف همَّمهم، حيث كان يصول ويجول فوق فرسه ويرغب جُنده في الجهاد كما كان يقاتل في مقدمة الصُّفوف وهو ابن التَّاسعة والسَّبعين[1] .

واشتد في نفس الوقت هجوم المرابطين بقيادة سِير بن أبي بكر على مقدمة القشتاليِّين التي يقودها البرهانس، واستردت كذلك جيوش الأندلس إقدامها وشجاعتها وقاتل الجميع في صفوف متراصة متناسقة ثابتة[2]، وأحيط بجيش النَّصارى من كل الجهات، فاضطر ألفونسو للتراجع بعد أن كثر القتل في صفوف قواته[3].

وكانت الضَّربة الأخيرة للأمير يوسف أن دفع بحرسه الخاص من السُّودان للقتال، وقوامه أربعة ألاف مقاتل، استطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ويطعنه بخنجر[4] في فخذه طعنة نافذة، فرَّ على إثرها هاربًا منهزمًا مثخنًا بالجراح[5] مع قلة من فرسانه عددهم حوالي خمسة مئة فارس، و اعتصموا بِتلٍ قريب حتَّى دخل الليل وانسلوا إلى مدينة قورية و منها اتجهوا إلى طليطلة

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص138 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج4، ص352 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص291 .

2- ابتكر المرابطون خطة جديدة في القتال تتمثل في مواجهة العدوّ في صُفوف مُتراصة مُتناسقة ثابتة، وقد أثبتت هذه الخُطة نجاعتها أمام فُرسان النَّصارى الذين لم يكن لهم عهد بمثلها، إذ كانوا مُعتادين على القتال الفردي. (انظر: عنان، **دول الطَّوائف**، ص325).

3- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص291 ؛ المقرّي، **نفح الطِّيب**، مج4، ص368 .

4- طُعن ألفونسو السَّادس بخنجر يُدعى الإطاس، وهو خنجر معقوف يستخدم ضدَّ الاصطدام المباشر، وكان ألفونسو يظن أنَّه مِنجل، ممَّا يدل على أنَّ الرُّوم لم يعرفوا هذا النوع من السِّلاح وأنَّه من ابتكار البربر. (انظر: محمَّد الأمين بلغيث: **دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**، ط1، دار التَّنوير للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 2011م، ص45).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص138 .

ودخلها ألفونسو بمائة فارس بعد أن مات الباقون في الطَّريق[1].

وأمضى المسلمون اللَّيل في ميدان الحرب يرقبون حركات النَّصارى وفي صباح اليوم التالي قام فرسانهم بمطاردة المتخلفين منهم، وعمدت قوَّات أخرى إلى جمع الأسلاب والغنائم المتمثلة في الأموال والأسلحة والدواب وغير ذلك[2].

وذاعت أنباء النَّصر في سائر بلاد الأندلس، واستبشر المسلمون به خيرًا، وبعث المعتمد بن عبَّاد برسالة إلى ولده الرَّشيد يخبره بالواقعة وبالفتح[3]، كما وصلت أخبار النَّصر إلى جميع أنحاء العالم الإسلاميّ وأرسل الأمير يوسف كتابًا إلى بلاد العُدوة يبشرهم فيه بانتصار المسلمين على أعدائهم[4]، كما كتب المتوكل بن الأفطس وعبد الله بن بلكين وكل من شاهد الحرب كتبهم إلى الأفاق[5]، وعمَّت الفرحة جميع بلاد المغرب الإسلامي والأندلس، واجتمعت كلمة الإسلام، وأخرج النَّاس الصَّدقات، وأعتقوا الرِّقاب شكرًا لله تعالى على صنعه الجميل وفضله[6].

1- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص291. (اختلفت المصادر التَّاريخيَّة في ذكر عدد الفرسان الناجين مع ألفونسو السَّادس في معركة الزَّلاقة حيث يرى ابن الأثير أنَّهم كانوا حوالي ثلاثمائة فارس، بينما يرى المرَّاكشي أنَّهم تسعة فرسان فقط؛ واختلفت الرِّوايات أيضًا في تحديد عدد القتلى في الجانبين حيث ذكر ابن أبي زرع بأنَّ عدد قتلى المسلمين كان حوالي ثلاثة آلاف رجل، في حين يذكر ابن الخطيب أنَّ قتلى النَّصارى بلغ حوالي تسعة آلاف رجل، ورغم هذا التباين في الرِّوايات فأنَّ أغلب المصادر التَّاريخيَّة تتفق على أنَّ قتلى النَّصارى يفوق بكثير قتلى المسلمين، وهو ما ذهب إليه ابن بلكين في مذكراته حين قال ولم يُفقد من المسلمين إلَّا الأقل). (انظر: **التِّبيان**، ص106 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص154 ؛ **المُعجب**، ص95 ؛ **روض القرطاس**، ص149 ؛ **أعمال الأعلام**، ص245).

2- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص154 .

3- عن نص الرِّسالة. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص139 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص291-292).

4- عن نص الرِّسالة. (انظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص150 وما بعدها).

5- **الحُلل الموشيَّة**، ص63 .

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص150 .

3- نتائج المعركة:

ترتب عن نصر الزّلاقة نتائج مهمة بالنّسبة للمسلمين الأندلسيّين منهم والمرابطين، ففيما يخص أهل الأندلس كانت من بين أهم النتائج عودة الثقة والأمل إلى نفوس أمرائها، وتحررهم من الخضوع لملك قشتالة، وتوقفوا عن دفع الإتاوة والتنازل له عن الكثير من الأراضي والحصون كما عادت روح الحماسة الدّينية لأهل الأندلس، وفرحوا كثيرا بهذا النّصر، واستعادوا به أمجاد وبطولات أسلافهم[1].

وترتب عن هذا النّصر أيضًا فك الحصار عن الكثير من مدن شرق الأندلس كبلنسيَّة وسرقسطة حيث تفرغت جيوش النّصارى واستنفرت كامل قوّاتها لمعركة الزّلاقة غرب الأندلس[2] بالإضافة إلى استيلاء المسلمين عمومًا وأهل الأندلس خصوصًا على الكثير من الغنائم والأسلاب، ويقول صاحب الحُلل الموشيَّة "أنَّ المسلمين امتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة، والسبيّ الكثير، واكتسب النَّاس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ومناطق الذَّهب والفضة ما أغناهم"[3].

غير أنَّ هذه النتائج الخاصة لا تُعد شيئًا إذا قيست بالنتائج العامَّة البعيدة المدى المتمثلة في إيقاف زحف النَّصارى الجارف على الأندلس المسلمة، بعد أن كان يُنذرها بالمحوّ والفناء العاجل وغنم الإسلام بذلك حياة جديدة في بلاد الأندلس[4].

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص362 ؛ حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص286 .

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص92 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص65-66 .

4- عنان، **دول الطَّوائف**، ص362 ؛ سيف الدِّين الكاتب، **أعلام من المغرب والأندلس**، مؤسَّسة عز الدِّين للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1982م، ص11 .

وكان للأمير يوسف بن تاشفين الدَّور الرئيسي في تحقيق هذا النَّصر الباهر، وإيقاف زحف الصَّليبيِّين على بلاد الأندلس، فذاع صيته في سائر أنحاء جزيرة الأندلس، ويذكر ذلك المرَّاكشي بقوله: "وأظهر النَّاس إعظامه، ونشأ له الود في الصدور، وكثر الدُّعاء له في المساجد وعلى المنابر[1]". وأيقن أهل الأندلس أنَّه لولا جهاد الأمير يوسف بن تاشفين لضاعت بلادهم وهذا بسبب تمزق صفوف أمرائهم، وتفرق كلمتهم، وعرفوا أيضًا أنَّ المرابطين قوم أقاموا الدِّين وتمسكوا بالسُنَّة، ونشروا العدل بين النَّاس، فأرادوا الإقتداء بهم فرفضوا منذ ذلك الحين إعطاء الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام لأمرائهم[2].

وفي المغرب ساعد نصر الزَّلاقة الأمير يوسف بن تاشفين على حل مشاكله الداخليَّة بحيث خضعت له القبائل التي ظلت متردِّدة في ولائها للمرابطين، وبعض القبائل الزنَّاتية الأخرى التي كانت تتربص بهم، فكان نصر الزَّلاقة كفيلًا بترهيبها فعادت إلى طاعتهم من جديد.

وعلى صعيد العالم الإسلاميّ عمَّت الأفراح أرجاءه وأعتقت الرقاب[3] وشُبِّه يوم الزَّلاقة بيوم اليرموك[4] والقادسية[5]، و ارتفع شأن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين وأثنى عليه العلماء

1- **المُعجب**، ص95-96 .

2- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص285-286 .

3- سعدون نصر الله، **تاريخ العرب السِّياسي في الأندلس**، ص247 .

4- وادٍ بناحية الشام يصب في نهر الأردن ثمَّ يمضي إلى البُحيرة المنتنة (البحر الميت)، وقعت على ضِفافه حرب ضروس بين المسلمين والرُّوم يوم الجمعة الرَّابع رجب 13هـ/2 سبتمبر 634م في الأيام الأولى من خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وكانت الغلبة فيها للمسلمين بقيادة الصحابي الجليل خالد بن الوليد (رضي الله عنه). (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج5، ص434 ؛ الحميري، **الرَّوض المعطار**، ص617 وما بعدها ؛ راغب السرجاني، **الموسوعة الميسرة في التَّاريخ الإسلامي**، ج1، ص91 وما بعدها).

5- مدينة صغيرة بأرض العراق من بناء حكام الفرس ذات نخيل ومياه عذبة، تبعد عن الكوفة بخمسة عشر فرسخًا وعن بغداد بواحد وستين فرسخًا، حدثت بها معركة القادسية المشهورة أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بقيادة الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) الذي ألحق هزيمة نكراء بالفرس في السَّادس عشر من شهر شعبان سنة 15هـ الموافق للثَّاني و العشرين سبتمبر سنة 636م، و كانت هذه المعركة من أعظم وقائع المسلمين و أكثرها بركة =

والفقهاء ثناءً كبيرًا، خاصة الإمام أبو حامد الغزالي الذي سُرَّ بهذا النَّصر واعتبر الأمير يوسف المسلم المثالي الذي سيعيد للإسلام سابق عزه وينقذه ممَّا تردى فيه[1]. كما تغنىَّ الشعراء بهذا النَّصر وأنشدوا فيه القصائد الغراء[2] حتَّى ظهر ما يسمى بأدب الزَّلاقة[3]، وأسهب المؤرخون في وصف هذا النَّصر واعتبروه فتحًا عظيمًا للإسلام والمسلمين، ووصفه صاحب الحُلل الموشيَّة بقوله "فيا له من فتح ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزَّلاقة ثبت قدَم الدِّين بعد زَّلاقِها، فجزا الله أمير المسلمين وناصر الدِّين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين أفضل الجزاء"[4].

وفيما يخص القوى المسيحيَّة فقد أسفرت معركة الزَّلاقة على هزيمة ساحقة لهم، حطَّمت آمالهم في الاستيلاء على الأندلس وطرد المسلمين منها، وقد قال عبد الله بن بلكين في مذكراته أنَّ الرُّوم أَشْرَبَ من تلك الوقيعة خوفًا وإنكماشًا[5].

كما حطَّمت هذه المعركة غرور ألفونسو السَّادس الذي كان يتباهى بجيوشه الضَّخمة، والعُدة والعتاد الذي كان يمتلكه، واضطر إلى طلب العون والمدد من خارج الحدود من مختلف دول أوروبا لصدِّ جيوش المرابطين، ولحماية أطراف مملكته[6].

= (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج4، ص291 وما بعدها ؛ الحميري، **الرَّوض المعطار**، ص447-448 ؛ راغب السرجاني، **الموسوعة الميسرة في التَّاريخ الإسلامي**، ج1، ص119 وما بعدها).

1- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص284 .

2- عن نص القصيدة التي تمدح الأمير يوسف وانتصار المرابطين في معركة الزَّلاقة. (انظر: **الملحق رقم 6**).

3- ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج4، ص352 ؛ ليفي بروفنسال: **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، مطبعة النجوى، بيروت، د.ت، ص21 ؛ بلغيث محمَّد الأمين، **الحياة الفكريَّة بالأندلس في عصر المرابطين**، ص85 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص66 .

5- **التبيان**، ص108 .

6- عنان، **دول الطَّوائف**، ص331 .

كما نتج عن هذه المعركة مقتل خيرة رجال ألفونسو السَّادس وجميع أَبطاله، وحُماته وقواده[1]، ولم ينج مع ملك قشتالة ألفونسو السَّادس إلَّا نفرٌ يسيرٌ من أصحابه، ولحسن حظه أنَّ الأمير يوسف فضل عدم تتبع فُلول جيشه المنهزم الذي فرَّ إلى طليطلة للتَّحصن بها[2]، وينقل المؤرخ عبد الله عنان تعليق أحد المستشرقين في وقوف الحظ إلى جانب النَّصارى بعدم استيلاء المسلمين من جديد على مدينة طليطلة جاء فيه "إنَّه كان من حُسن الطالع بالنِّسبة للنَّصارى أنَّ يوسف الظافر في الزَّلاقة قد تلقَّى عَقب نصره نبأ وفاة ولده الأمير أبي بكر واضطر أن يعود إلى مرَّاكش[3] تاركًا فكرة مطاردة الجيش المنهزم[4]، و اجتناء الثمرة التي يمكن أن تُجنى من مثل هذا

1- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام، ص**245-246 .

2- يذكر الحِميري أنَّ ابن عبَّاد كان يُحرِّض الأمير يوسف على إتباع جيش ألفونسو السَّادس لقطع دابره، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال "إن اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين فيهلِّكهم، بل نصبر بقية يومنا حتَّى يرجع إلينا أصحابنا ويجتمعون بنا، ثمَّ نرجع إليه فنحسم داءه". (انظر: **الرَّوض المعطار**، ص291).

3- من أعظم مدن المغرب وأجلِّها، اختلف المؤرخون في تحديد من قام ببنائها ومتى كان ذلك فقال بعضهم بأنَّ الأمير المرابطي أبا بكر بن عمر اللَّمتوني هو من بناها ولكن أغلبهم يقول بأنَّ الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين هو من بناها سنة 454هـ/1062م، وقيل بأنَّها كانت قبل ذلك قاعًا صفصفًا لا عمارة فيها وكانت أيضًا مكمنًا للصوص فاشترى الأمير يوسف أرضها من أهل أغمات وبنا بها عاصمةً لدولته، وازدهرت هذه المدينة أيام المرابطين وكذلك الموحِّدين الذين جعلوها بدورهم عاصمةً لدولتهم حيث بُنيت بها الفنادق والقصور والحمامات والأسواق، وكانت أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعنابًا وفواكه، وهي تقع شمال أغمات وعلى اثني عشر ميلاً منها، وجنوبها جبال درن على ثلاثة فراسخ منها، وغربها البحر المحيط (المحيط الأطلسي) وهو على مسيرة عشرة أيام منها، وشرقها الجهات التي بين سجلماسة وفاس. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص136 وما بعدها عدَّة صفحات؛ **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ج10، ص208 وما بعدها ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج5، ص94 ؛ أبو الفداء، **تقويم البلدان**، ص135؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص138-139 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص234-235).

4- اختلف المؤرخون في تحديد أسباب عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب بعد فراغه من معركة الزَّلاقة وامتناعه عن مطاردة ما تبقى من جيش ألفونسو السَّادس المتحصن في طليطلة حيث يقول كلٌ من ابن أبي زرع وصاحب الحُلل الموشيَّة بأنَّ سبب العودة هو وفاة ابنه الأكبر وولي عهده الأمير أبي بكر الذي تركه مريضًا بمدينة سبتة ؛ ويظهر هذا الاختلاف بصورة أكبر لدى المؤرخون المحدثون فعلى سبيل المثال يرى عبد الهادي التَّازي أنَّ السبب هو وفاة ابنه الأكبر وولي عهده الأمير أبي بكر، بينما يرى حسن أحمد محمود أنَّ سبب العودة هو وفاة ابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر وليس ولده أبي بكر، ويمكن استبعاد هذا الرأي على أساس أنَّ الأمير أبي بكر بن عمر توفي في شهر شعبان سنة 480هـ/1087م أي بعد عام من عودة الأمير يوسف إلى المغرب والتي كانت في رجب سنة 479هـ/1086م، وترى =

النَّصر وهي الاستيلاء على طليطلة"[1].

ثانيًا– العبور الثَّاني ومعركة حصن لييط:

1- ظروف وأسباب العبور الثَّاني:

بعد عودة الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب اضطربت أحوال الأندلس من جديد، حيث عاد أمراء الطَّوائف إلى سابق عهدهم من الاختلاف والتنازع، وافتراق الكلمة، وحتَّى الاتصال بالعدوِّ[2] ، فشجع هذا الوضع النَّصارى على محاولة النهوض من جديد والتَّخلص من آثار هزيمة معركة الزَّلاقة، فقام ألفونسو السَّادس باختيار الجبهة الأكثر ضعفاً في الأندلس، فاتجه نحو الشرق حيث إمارات بلنسيَّة، مرسيَّة، لورقة[3]، و المريَّة و قام بتشديد الخناق و شنِّ الغـارات

= عصمت عبد اللَّطيف دَندش أنَّ سبب العودة سياسي وليس عائلي يتمثل في اضطراب أحوال مملكته في الحدود الشَّرقيَّة مع بني حمَّاد الصَّنهاجيِّين، وفي الجنوب ببلاد السودان الغربي حيث أعلنت مملكة غانة استقلالها وانفصالها عن الدَّولة المرابطيَّة، وكذلك الخوف من القبائل المغربيَّة التي كانت تتربص بالمرابطين مثل الحموديِّين الأدارسة والبرغواطيِّين وغيرهم فتوجَّب بذلك على الأمير يوسف العودة إلى بلد المغرب لإخماد هذه الثورات. (انظر: **روض القرطاس**، ص152 ؛ **الحُلل المُوشيَّة**، ص66 ؛ عبد الهادي التَّازي: **تعقيب على عودة ابن تاشفين إلى المغرب بعد الزَّلاقة**، مقال منشور ضمن كتاب للدكتورة دَندش عصمت عبد اللَّطيف بعنوان **أضواء جديدة على المرابطين**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م، ص68 وما بعدها ؛ حسن أحمد محمود: **قيام دولة المرابطين**، ص286 وما بعدها ؛ دَندش عصمت عبد اللَّطيف: **أضواء جديدة على المرابطين**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م، ص57 وما بعدها).

1- **دول الطَّوائف**، ص330.

2- يبدو جليًا أنَّ أمراء الطَّوائف لم يأخذوا بنصائح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي جمعهم بعد نَّصر الزَّلاقة وأمرهم بالاتفاق والائتلاف ونبذ الفُرقة، لأنَّ الصَّليبيِّين لم يتمكنوا منهم إلَّا بعد تشتتهم وتفرق كلمتهم. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص106).

3- مدينة بشرق الأندلس قريبة من حصن لييط، بينها وبين مدينة مُرسيَّة أربعون ميلًا، وهي على ظهر جبل وبها أسواق وربض في أسفل المدينة، وبها حصن ومعقل محكم وأرضها جزُرٌ فيها عنب وفواكه كثيرة. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص288-289 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج5، ص25-26 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص512-513) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**، ص434).

عليها، وكانت هذه الغارات تنطلق من حصن لييط[1] الذي استولى عليه ألفونسو وشحنه بالخيل والرِّجال والرُماة وأمرهم أن يَشُنُّوا هجماتهم على بلاد ابن عبَّاد دون سائر بلاد الأندلس[2] فركزوا هجماتهم على مدينتي مرسيَّة ولورقة، اللَّتين تخضعان لسلطة المعتمد بن عبَّاد الأولى بالحق والثَّانية بالفعل[3] ؛ فمرسيَّة كان ابن عبَّاد يعتبرها حقًّا له وأراد أن يأخذها من حاكمها ابن رشيق ويُعطيها لابنه الرَّاضي تعويضًا له عن الجزيرة الخضراء التي تنازل عنها للمرابطين، وقد حاول المعتمد إخضاعها بالقوة فحشد حملة من جُنده ومن جند المرابطين الذين تركهم الأمير يوسف في الأندلس[4]، فضرب حولها الحصار، ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب ود المرابطين ويقنعهم بتركه في سلام، ففشلت بذلك حملة ابن عبَّاد وعاد إلى إشبيلية دون أن يحقق أي نجاح[5] ؛ أمَّا مدينة لورقة فيحكمها ابن أياس الذي بادر إلى الاعتراف بسيادة المعتمد بن عبَّاد عليه بعد أن عجز عن مقاومة قشتالي حصن لييط[6].

1- حصن لييط (Aledo) هو حصن منيع على رأس جبل شاهق بناه ألفونسو السَّادس إثر استيلائه على مدينة طليطلة سنة 478هـ/1085م، يقع بين مدينتي مرسيَّة ولورقة وهو أقرب إلى هذه الأخيرة بينه وبينها مسيرة نصف يوم، وهو يتوسط بلاد المسلمين في شرق الأندلس ممَّا سهَّل على سراياه أن تشن غاراتها على الأراضي الإسلاميَّة في تلك الأنحاء. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص67 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج4، ص352 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص137-138 عنان، **دول الطَّوائف**، ص334 وما بعدها) ؛ (عن موقع معركة حصن لييط، انظر أيضًا: **خريطة رقم2**، ص433).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص152. (يبدو أنَّ ألفونسو السَّادس أراد الانتقام من المعتمد بن عبَّاد عقابًا له على استدعائه للمرابطين إلى بلاد الأندلس).

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص334 ؛ سعدون نصر الله، **تاريخ العرب السِّياسي في الأندلس**، ص252-253 .

4- ترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في بلاد الأندلس بعد فراغه من معركة الزَّلاقة سنة 479هـ/1086م ثلاثة آلاف جندي مرابطيّ للدِّفاع عن ثغورها بقيادة سِير بن أبي بكر اللَّمتوني، وقد قام بالتَّوغل في بلاد النَّصارى وفتح بعض الحصون والمعاقل. (انظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج7، ص119 ؛ المقري، **نفحُ الطِّيب**، مج4، ص370).

5- عنان، **دول الطَّوائف**، ص334-335 .

6- سعدون نصر الله، **تاريخ العرب السِّياسي في الأندلس**، ص252-253 .

كما حاول المعتمد بن عبّاد وضع حدٍّ لغزوات النَّصارى المتحصنين بحصن لييط بقيادة غرسية خمينس[1]، فنظَّم جيشًا بقيادة أحد أبنائه يضمُّ ثلاثة آلاف فارس واتجه إلى لورقة فاعترضه جيش قشتالي وألحق به الهزيمة[2].

وبالنِّسبة لمدينة بلنسيَّة فكانت تعاني من ضغط النَّصارى، فهي خاضعة بصورة غير مباشرة لنفوذهم، فهم يسيطرون عليها عن طريق صنيعتهم القادر بن ذي النُّون الموالي "للسيد القمبيطور"[3] ، الذي ادَّعى أنَّه المدافع عن القادر، بعد أن أجبره على دفع مرتب شهري قدره عشرة آلاف دينار[4].

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص334 .

2- دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص138 .

3- هو رودريغو دياز دي بيبار (Rodrigo Diaz de Vivar) الملقَّب بالسيد القمبيطور أو الكمبيادور أو القنبيطور (Le Cid El Campeador) وهذا حسب المصادر العربيَّة، والقمبيطور معناه القائد الكبير أو المحارب الباسل، وتُسميه المصادر العربيَّة أيضًا لذريق أو رذريق، وهو من بين شخصيات العصور الوسطى في إسبانيا النَّصرانيَّة حيث يعتبرونه حسب رواياتهم بطل إسبانيا القومي، ولد في بيرقو (Burgos) تحديدًا في مدينة بيبار (Vivar) على ما يرجح في سنة 435هـ/1043م، تحالف مع ألفونسو السَّادس ملك قشتالة في حُروبه ضدَّ المسلمين ولكن ظهرت بينهما عداوة وتنافر، حيث كان السيد القمبيطور يقوم مع مجموعة من فرسانه بغارات على أراضيه، كما كان يشنُّ الغارات على أراضي المسلمين في أغلب الأوقات، شارك في حصار مدينة سرقسطة قبل معركة الزّلاقة سنة 479هـ/1086م، كما حاصر بلنسيَّة سنوات عديدة إلى أن استولى عليها سنة 487هـ/1094م، استمر في حرب المرابطين مدَّة طويلة وعلى إثر مقتل ابنه الوحيد دييغو (Diego) في معركة كنشرة (Consugra) سنة 490هـ/1097م مع المرابطين، أصيب بمرض شديد فتوفِّي غمًا وألمًا على فراق ولده سنة 492هـ/1099م. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص31 وما بعدها ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص111 وما بعدها ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص232 وما بعدها).

Pidal Menendez Ramon: **EL CID CAMPEADOR**, segunda edicion, espasa-calpe Argentina, s.a, Buenos Aires, 1951, p23 ; Charles -André Julien : **Histoire de L'Afrique du nord Tunisie- Algérie-Maroc de la Conquête Arabe à 1830**, Société National, Alger, 1975 , p84 ; Rafael Ballester : **Histoire de L'Espagne**, Payot, 1928, p66-67.

4- دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص138.

وهكذا بدت مناطق شرق الأندلس بعد الزَّلاقة مباشرةً وكأنها على شفير الهاوية والسقوط بيد النَّصارى، فاضطر أهل الأندلس للاستنجاد مرةً أخرى بالأمير يوسف بن تاشفين، وأخذت الوفود الشعبية وعلى رأسها الفقهاء تعبر إلى المغرب مستغيثةً به لإنقاذ الأندلس من جديد، فأهل بلنسيَّة كانوا يشكون له عُدوان السيد القمبيطور حامي القادر بن ذي النُّون، وسكان باقي المدن كانوا يعانون الأمرَّين من حامية حصن لييط[1].

كما أنَّ المعتمد بن عباد لمَّا ضاق ذرعًا من اعتداءات النَّصارى المتكررة على ممتلكاته عبر البحر إلى العُدوة للقاء الأمير يوسف، فلقيه بمحاذاة وادي سبو[2]، فشكا إليه ما كان يقوم به النَّصارى المتحصنين بحصن لييط من غارات ونهبٍ لممتلكات المسلمين[3].

ويذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ الأمير يوسف قابله بوجه طلق، وصدر رحب وقال له: "ما السبب الذي دعاك إلى الجواز إلينا، وهلَّا كتبت بحاجتك" فقال له: "جئتك احتسابًا وجهادًا، وانتصارًا للدِّين، وقد أجرى الله الخير على يديك، وحظَّك ممَّا جئت به الحظَّ الأوفر وقد اشتدَّ ضرر النَّصارى المستولين على حصن لييط، وعظم أذاهم بالمسلمين، ولا جهاد أعظم منه أجرًا، ولا أثقل في الميزان وزنًا[4]"، وعندما سمع أمير المسلمين كلام المعتمد عظم عليه الأمر فوعده بالجواز والوصل إليه[5].

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص67 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص138.

2- هو نهرٌ عظيم يصبُّ من نواحي جبل القلعة لابن توالة ويحاذي مدينة فاس من الجهة الشرقيَّة وعلى ستَّة أميال منها. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص148).

3- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص108 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص249 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص68 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص152 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص47 .

2- أحداث المعركة:

عبر الأمير يوسف بن تاشفين إلى بلاد الأندلس واستقر بالجزيرة الخضراء في شهر ربيع الأوَّل سنة 481هـ/1088م[1]، واستقبله المعتمد بن عبَّاد هناك بالهدايا والمؤن الوفيرة[2]، وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى أمراء الطَّوائف يستنفرهم لجهاد العدوّ في حصن لييط[3]، وكان الأمير يوسف يُريد بعد الاستيلاء على هذا الحصن أن يعمل من أجل القضاء على سلطان السيد القمبيطور في منطقة بلنسيَّة.

وقد لبَّى أمراء الطَّوائف نداء الأمير يوسف ولحقوا به إلى لييط للاشتراك في المعركة، ومن بين هؤلاء عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة، وأخوه تميم صاحب مالقة، والمعتصم بن صمادح صاحب المريَّة، و ابن رشيق صاحب مرسيَّة وأصحاب شقورة[4]، وبسطة[5] وجيَّان[6]، فلم

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص152 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص47 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1،ص95 .

2- جلب المعتمد ألف دابة تحمل الميرة والضِّيافة. (انظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص152).

3- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص108 .

4- مدينة بشرق الأندلس من أعمال جيَّان، منها إلى مدينة أُقليش ثلاث مراحل، بها حصن على رأس جبل عظيم مُتصل منيع الجهة حسن البنيَّة ويخرج من أسفله نهران أحدهما نهر قرطبة المسمى بالنَّهر الكبير والآخر هو النَّهر الأبيض الذي يمر بمرسيَّة. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص287-288 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص349) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

5- مدينة بشرق الأندلس من أعمال جيَّان وعلى ثلاث مراحل منها، وتبعد عن مدينة وادي آش بثلاثين ميلاً، وهي مدينة عامرة أهلة، لها أسوار حصينة وسوق نظيفة وديار حسنة البناء، وهي مشهورة بالمياه والبساتين. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص295-296 ؛ القزويني، **آثار البلاد وأخبار العِباد**، ص512 ؛ الحِميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص44-45) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

6- مدينة بالأندلس تقع شرق قرطبة بينهما سبعة عشر فرسخًا، وبينها وبين مدينة بيَّاسة عشرون ميلًا، بها أقاليم عِدَّة وقرى عامرة تزيد عن ثلاثة آلاف قرية، وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم والعسل، وبها بساتين وجنات و مزارع و غلات القمح و الشعير وسائر الحبوب. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص295-296 =

يتخلف غير ابن الأفطس صاحب بطليوس[1].

اتجه أمير المسلمين عبر طريق مالقة صوب شرق الأندلس، ثمَّ سار نحو المريَّة، ومنها دخل لورقة، حيث لحقت به قوّات المعتمد بن عبَّاد واتجهت جموع القوى المتحدة صوب حصن لييط، الذي يقع على مسيرة نصف يوم من مدينة لورقة[2]، وشرعوا في قتاله والتَّضيِّيق عليه، حيث ضربوا على حاميته الضَّخمة التي تضمُّ ثلاثة عشر ألف مقاتلًا حصارًا من كل ناحية، وشنُّوا عليه الحرب ليلًا ونهارًا[3] ، وكان كل أمير يهاجم بدوره ويقاتل حسب مجهوده وما تبلغ استطاعته وحيلته[4]، كما قطعوا الأقوات على المحاصَرين، وأذاقوهم البأس والشدة، واستمروا في الحصار مدَّة أربعة أشهر[5]، استبسل فيها المعتصمون بالحصن استبسالًا منقطع النَّظير، وتكبد المسلمون خسائر فادحة جراء انقضاض النَّصارى المحاصَرين عليهم بين آونة وأخرى[6].

والشيء الذي زاد الأمر تعقيدًا هو انشغال أمراء الطَّوائف بمصالحهم الذاتية، وكان معسكرهم مركزاً للمكائد والخلاف والوقيعة[7]، فكان تميم صاحب مالقة وأخوه عبد الله صاحب غرناطة يشكوا كلٌ منهما الآخر للأمير يوسف، وكان ابن عبَّاد وابن صمادح يكيد كلٌ منهما

= الحموي، **معجم البلدان**، مج2، ص195 ؛ الحِميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص70 وما بعدها) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص68-69 ؛ حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص293 .

2- **الحُلل الموشيَّة**، ص67 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص69 .

4- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص108 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص153 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ص47 .

6- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ص96 .

7- دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص139 .

بأخيه لدى أمير المسلمين[1]، وأعظم هذه الخصومات التي بين المعتمد بن عبَّاد وابن رشيق، فقد شكا ابن عبَّاد ابن رشيق لأمير المسلمين، واتَّهمه باغتصاب الولايَّة منه على مرسيَّة، وأنَّه متفاهم مع ملك قشتالة سِرًا، ويعاون حامية الحصن في الخفاء، ولم يجد الأمير يوسف بُدًا من استفتاء الفقهاء، فأفتوا بإدانة ابن رشيق[2]، فأمر بتسليمه لابن عبَّاد على شرط أن يبقي على حياته[3]، وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر في المعسكر المحاصر، حيث قام قادة مرسيَّة ومعظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله، بمغادرة المعسكر في جندهم غاضبين، وقطعوا المؤن التي كانت ترسل إلى المحاصِرين من مرسيَّة وأحوازها، فأدَّى ذلك إلى اختلال أمر المعسكر الإسلاميّ حيث لحق به الضَّيق والغلاء[4]، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أنَّ ملك قشتالة يسير في قوة كبيرة لإنجاد الحصن، فآثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليِّين في معركة غير مجدية[5].

وقدم ألفونسو إلى الحصن فلم يجد بداخله من المدافعين عنه سوى مئة فارس وألف راجلٍ[6]، ولمَّا رأى أنَّه لا فائدة من الاحتفاظ به، وأنَّه يقتضي لذلك حامية كبيرة قرَّر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه، وعاد أدراجه إلى طليطلة[7]، فاسترجع ابن عبَّاد الحصن بعد أن تركه النَّصارى أطلالاً[8].

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص336 .

2- يقول ابن بلكين في مُذكراته أنَّ المعتمد بن عبَّاد دبَّر الأمر مع الفُقهاء واصطنع لذلك القاضي القُليعيّ الذي شكا ابن رشيق عند الأمير يوسف بن تاشفين ورأى هذا الأخير أنَّه لا ينبغي عليه مُفاسدة ابن عبَّاد من أجل ابن رشيق، والأوكد له في ذلك الوقت هو استمالة ابن عبَّاد الذي يُعدُّ من أقوى أمراء الطَّوائف لكي يُساعده في مقارعة الصَّليبيِّين. (انظر: **التِّبيان**، ص110).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص153 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص69-70.

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص70 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص96 .

5- عنان، **دول الطَّوائف**، ص336 .

6- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص96 .

7- Don Rafael Altamira Y Crevea : **Histoire D'Espagne**, librairie Armand, Saint-Michel, Paris, 1931 .

8- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص153 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ص48 .

ولم يجد الأمير يوسف أمامه خيارًا آخر غير الرجوع إلى بلاد المغرب، تاركًا جيشًا مرابطيًا من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة لصدِّ غارات النَّصارى على منطقة مرسيَّة وبعث لنفس الغرض جيشاً آخر إلى مدينة بلنسيَّة بقيادة محمَّد بن تاشفين[1].

3- نتائج المعركة:

اختلف المؤرخون أيَّما اختلاف في تحديد نتائج حصار حصن لييط، حيث صوَّر بعضهم الانسحاب على أنَّه هزيمة للمرابطين وحلفائهم الأندلسيِّين ونصرٌ للجبهة النَّصرانيَّة، وصوَّره البعض الآخر على أنَّه فوزٌ وظفرٌ للمسلمين، فالذين يقولون إنَّ المسلمين انهزموا في المعركة يُرجعون ذلك إلى عدم تمكن قوات المسلمين من فتح الحصن وإخضاعه بالقوة، رغم طول مدَّة الحصار التي بلغت حوالي أربعة أشهر، ولاستبسال النَّصارى في الدفاع عليه، وإلحاقهم الأذى في بعض الأحيان بقوات المسلمين، وكذلك لانسحاب قواتهم عند مجيء ملك النَّصارى ألفونسو السَّادس بجيشه لتخليص الحصن، حيث ساد الارتباك والظنون في معسكر المسلمين، ويُصَوِّرُ عبد الله بن بلكين في مذكراته ذلك بقوله لمَّا ورد الخبر بقدوم ألفونسو إلى الحصن ساءت الظنون من أجل ذلك، ورأى أمير المسلمين أنَّ الرجوع عنها والانصراف أولى لطول مَكث النَّاس وفشلهم[2].

وأهم الأمور التي تُبين انهزام القوَّات المرابطيَّة والأندلسيَّة المتحالفة هو ذلك النزاع والشِّقاق الذي ظهر بين أمراء الطَّوائف، حيث عصفت رياح الفُرقة بينهم، بالخصوص بين المعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيليَّة و ابن رشيق صاحب مرسيَّة، هذا الأخير الذي أُتهم بموالاة

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص70 .

2- **التِّبيان**، ص113 .

النَّصارى والتَّحالف معهم سرًا، فأدى ذلك إلى نكبته من قبل المعتمد بن عبَّاد، فخلَّف ذلك اضطرابا كبيرًا بتمرد أهل ابن رشيق على القوَّات المتحالفة[1]؛ كما ظهرت منازعات بين المعتمد بن عبَّاد والمعتصم بن صمادح صاحب المريَّة، وبين ابن بلكين صاحب غرناطة وأخيه تميم صاحب مالقة[2].

كما أدت معركة حصن لييط إلى سخط الرعية على أمرائها الذين أثقلوا عليهم بطلب المزيد من المؤن والأقوَّات لإعطائها للقوَّات المحاصِرة للحصن، ويُصوِّر لنا عبد الله بن بلكين هذه الأوضاع المزرية والتي أدت إلى فشل المسلمين في إحداث النَّصر أصدق تصوير حيث يقول "وطالت تلك المحلَّة الملعونة، وأبان الطيِّب من الخبيث وكُشفت العورات، فلم يزدد الرؤساء إلَّا توحشًا ولا الرعية إلَّا تسلطًا، ولا الداخلون على مثل هذه النِّصبة إلَّا طمعًا، وحُقَّ لهم مع اختلاف كلمة الرؤساء"[3].

أمَّا الذين يرون أنَّ المسلمين حقَّقوا في معركة حصن لييط نصرًا ولو كان نسبيًا، فهم يُرجعون ذلك إلى استيلائهم على الحصن في نهاية المطاف، رغم أنَّه كان خرابًا وأصبح أطلالًا ويتحجَّجون أيضًا بذكر تلك الرَّسائل المتبادلة بين المعتمد بن عبَّاد والمعتصم بن صمادح التي تصف هذا الفوز وتُشيد به، كما أنَّ ابن حمديس الصِّقليّ وهو شاعر معاصر هنأ المعتمد بهذا الفتح، وأنشد بين يديه قصيدة تُصوِّر هذا الظفر الذي حقَّقه المسلمون[4].

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص70 .

2- وكان كلُ أميرٍ من أمراء الطَّوائف يحاول أن يُوقِعَ بالأمير الآخر عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويشتكي له ما لحقه من ضررٍ وظلمٍ، فجلب ذلك للأمير يوسف قلق كبير وحيرة، هل يقوم بفكِّ خصومات أمراء الطَّوائف أو يهتم بجهاد العدوِّ المسيحي (الصَّليبي). (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص110 وما بعدها).

3- **التِّبيان**، ص110 .

4- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص293-294 .

كما أنَّ المسلمين ألحقوا ضررًا كبيرًا في صفوف مقاتلي الحصن، حيث تمَّ القضاء على جُل النَّصارى المتحصنين هناك، فمن بين ثلاثة عشر ألف مقاتل لم ينج منهم سوى نفر قليل حوالي مئة فارس وألف راجلٍ[1].

وإنَّ النَّتيجة المهمَّة التي انبثقت عن معركة حصن لييط بغَّض النَّظر عن من المنهزم ومن المنتصر هي إدراك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين باستحالة توحيد أمراء الطَّوائف الغارقين في متاهات نزاعاتهم، واستبعد حينئذ التعويل على هؤلاء الأمراء في مواجهة العدوِّ، ومن ذلك فلا مناص من الاعتماد على نفسه إذا أراد مواصلة جهاد النَّصارى في بلاد الأندلس، ولن يتحقق له ذلك إلَّا بعد القضاء على نفوذ وسلطة هؤلاء الأمراء.

ثالثًا– العبور الثَّالث وضمِّ الأندلس للدَّولة المرابطيَّة:

1–ظروف وأسباب العبور الثَّالث:

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب بعد أن انتهى من حصار حصن لييط، وقد تغيرت نظرته تجاه أمراء الطَّوائف، الذين شغلوا وقتهم في التَّنازع والتَّباغض، وانصرفوا عن الجهاد وردِّ العدوان على بلادهم.

وأدرك الأمير يوسف استحالة إصلاح هؤلاء الأمراء المتخاذلين، وتبيَّن له أنَّ الاستمرار في إيقاف زحف النَّصارى على بلاد الأندلس لا يتحقق إلَّا بالتخلص من هؤلاء الأمراء الذين ثبتت خيانتهم للمسلمين، وموالاتهم لأهل الكفر.

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص153 .

لم يتخذ الأمير يوسف هذه الخطوة الجريئة والمتمثلة في القضاء على أمراء الطَّوائف بين عشية وضحاها بل تمت بعد تفكير طويل، ولم يكن القرار انفراديًا بل تمَّ بعد مشاورة أهل الحلِّ والعقد في دولته، وكذلك بعد صدور فتاوى فقهاء وعلماء الدِّين في بلاد المغرب والمشرق الإسلاميَّين.

في أوائل سنة 483هـ/1090م عبر الأمير يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس للمرة الثَّالثة برسم الجهاد[1]، ولم يكن عبوره هذه المرة تلبيَّةً لدعوة أو استغاثة من أمراء الأندلس كما حدث في المرتين السَّابقتين، وإنَّما لتلبيَّة دعوة فقهاء الأندلس وقضاتها الذين طالبوا بإنقاذهم من أمرائهم العاجزين على محاربة المسيحيِّين[2]، والمنغمسين في حياة التَّرف واللَّهو، وكذا النِّزاع والشِّقاق بين بعضهم البعض[3].

ولمَّا أدرك الأمير يوسف أنَّ أمراء الطَّوائف غير مخلصين في جهادهم، قرَّر العبور إلى الأندلس من أجل خلع هؤلاء الأمراء، وإنقاذ الأندلس من خطر النَّصارى[4]، وقد شجع الأمير يوسف صدور فتاوى من فقهاء الأندلس والمغرب والمشرق تقر مشروعية خلع أمراء الطَّوائف والتَّخلي عن نصرتهم وتحضه على تحقيق مبدأ العدل والتَّمسك بالخير[5]، ومن بين الفُقهاء الذين

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص153 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص48 .

2- André Clôt, **op.cit**, p197; M. EL Fasi : **Histoire generale de L'Afrique- L'Afrique du VII^e au XI^e siècle,** Unesco/NEA, France, 1990, tome 3, p381.

3- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص300 ؛ نجيب زبيب، **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس**، ج2، ص286-287 .

4- عنان، **دول الطَّوائف**، ص337 .

5- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص250 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين** ص41 وما بعدها.

أفتوا بشرعية القضاء على أمراء الطَّوائف كلٌ من أبي بكر الطُّرطوشي[1] وأبي حامد الغزالي الذي قيل عنه أنَّه أثنى على الأمير يوسف ثناءً كبيرًا، ووجَّه له رسالة تُفتيه بشرعية خلعه لأمراء الطَّوائف وتحثه على الجهاد في سبيل الله ونشر العدل والإحسان إلى الرعية[2].

وهناك عوامل أخرى شجعت أيضًا الأمير يوسف على خلع أمراء الأندلس أهمها استمرار الخلاف بين هؤلاء الأمراء بعد معركتي الزَّلاقة وحصن لييط، ممَّا جعلهم ينصرفون عن مواجهة النَّصارى المتربصين بهم، وكذلك كثرة شكاوى الرعية من الضرائب الكبيرة التي كانت تفرض عليهم من قبل أمرائهم، فاشرأبت أعناقهم حينئذ إلى الأمير يوسف بن تاشفين ودعوهُ لكي يخلِّصهم من جورهم[3].

ومن العوامل التي شجعت أيضًا الأمير يوسف على القضاء على أمراء الطوائف قيامهم بقطع الإمدادات على قوَّاته، وتعاون بعضهم مع ملك قشتالة ألفونسو السَّادس بتقديمهم له الهدايا والأموال لكي يكون حليفهم ضدَّ التدخل المرابطيّ في بلادهم[4]، فاستأنف على إثر ذلك ألفونسو السَّادس غاراته على أراضي المسلمين رغم تحالف بعض أمراء الطوائف معه مستغلاً تفكُّـك الجبهة الإسلاميَّة بعودة هؤلاء الأمراء إلى سابق عهدهم من التَّنازع و التَّخاصم

1- حامد محمَّد خليفة، **يوسف بن تاشفين موحِّد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصَّليبيِّين**، ص305.
(أرسل أبو بكر الطُّرطوشي رسالة إلى الأمير يوسف بن تاشفين ينصحه فيها بتقوى الله وإقامة العدل، ويُبيِّن له عِظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، والمتمثلة في رعاية شؤون رعيته والإحسان إليهم). (انظر: بدري إبراهيم: **نصيحة الطُّرطوشي إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين**، مقال منشور بمجلة الإصلاح، دار الفضيلة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، السنة الثالثة، العدد الخامس عشر، أوت 2009م، ص66 وما بعدها).

2- عن نص رسالة الإمام أبو حامد الغزالي إلى يوسف بن تاشفين. (انظر: **الملحق رقم 5**، ص418).

3- محمَّد سهيل طقوش، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، ص498 .

4- من بين الأُمراء الذين رضخوا لتهديدات ملك قشتالة وأمدوه بالهدايا والأموال، الأمير عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة الذي أقرَّ بذلك في مُذكراته حيث قال: "فاجتمع رأينا على إرضائه باليسير، مع مُعاقدته ألَّا يقرب لنا بلدًا". (انظر: **التِّبيان**، ص123).

بالخصوص بعد عودة أمير المسلمين يوسف إلى بلاد المغرب، فراح الملك القشتالي يهاجمهم منفردين، وأرسل قائده البرهانس إلى عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة يهدِّد ويتوعد ويطالب بالضَّريبة المتأخرة[1]، كما عاثت قوَّاته في أراضي المعتمد بن عبَّاد وراحت تهدِّد إشبيليَّة[2].

وبالعودة إلى الحديث عن أسباب عبور أمير المسلمين يوسف بن تاشفين للمرة الثَّالثة إلى الأندلس وقيامه بخلع أمراء الطوائف فهناك من المؤرخين من يرى بأنَّه كان يهدف إلى الاستيلاء على بلاد الأندلس لما تنعم به من ثراء، وكان ممَّن تبنى هذا الرأي المرَّاكشي حيث قال: وبلغني أنَّ الأمير يوسف لمَّا عاد إلى مرَّاكش إثر عبوره الأوَّل قال لبعض ثِقاته من وجوه أصحابه كنت أظن أنِّي قد ملكت شيئاً، فلمَّا رأيت تلك البلاد، صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها؟[3] غير أنَّ المرَّاكشي يناقض نفسه في هذا الشأن حينما نقل عن الأمير يوسف كلاما آخر يبين فيه أنَّ هدفه من القدوم إلى بلاد الأندلس هو تخليصها من أيدي الرُّوم بعد غفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو، حيث قال: "إنَّما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الرُّوم لمَّا رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلة ملوكهم، وإهمالهم للغزوِّ وتواكلهم، وتخاذلهم، وإيثارهم الراحة ولئن عشت لأعيدنَّ جميع البلاد التي ملكها الرُّوم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين[4]".

1- طالب رسول ألفونسو السَّادس ضريبة ثلاثة أعوام قدرها ثلاثون ألفًا لا ينقص منها شيئًا. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص125).

2- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص298 .

3- **المُعجب**، ص98 .

4- **المُعجب**، ص114-115 .

وأسرف بعض المؤرخين المستشرقين في لومِّ الأمير يوسف واتهامه بالغدر والخيانة، وأخذِ أمراء الطَّوائف على غرة منهم، بعد أن آووه وأعانوه في جهاده ووقفوا بجانبه في نضاله ضدَّ ألفونسو السَّادس، ومن بين هؤلاء المؤرخ دوزي الذي انتقد المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين فوصفه بالجهل والتَّعصب[1].

كما شكَّك المؤرخ أشباخ في نوايا الأمير المرابطيّ فيما يخص خلعه لأمراء الطَّوائف وعبوره الثَّالث لبلاد الأندلس حيث قال: "وعبر يوسف إلى إسبانيا دون أن يقف على نيَّته أحد متظاهرًا بأنَّه يعتزم محاربة النَّصارى بكلِّ ما وسع"[2].

في حين نجد المراجع المعاصرة تُشيد بموقف الأمير يوسف من أمراء الطَّوائف وترى أنَّ إقدامه على خلعهم والتَّخلُّص منهم عملٌ فريد يُسجل له بالحمد والثَّناء، وأنَّ نيَّته كانت سليمة، وكان غرضه الأساسيّ هو مقارعة النَّصارى ومحاربتهم[3].

2- حصار المرابطين لطليطلة:

كان الأمير يوسف بن تاشفين خلال عبوره الثَّالث إلى الأندلس يدرك تمام الإدراك أنَّه يجب عليه خوض معركتين عنيفتين، الأولى ضدَّ أمراء الطَّوائف الذين ثبتت خيانتهم للمسلمين

1- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص297 .

2- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص97 .

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص337 وما بعدها ؛ شعيرة محمَّد عبد الهادي: **المُرابطون تاريخهم السِّياسي (430-529)هـ**، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، 1969م، ص133 .

والثَّانية ضدَّ القوَّات المسيحيَّة[1] للقضاء على سطوتها بإيقاف زحفها المتواصل على بلاد المسلمين في الأندلس وكذا لعزلها عن الصَّراع الذي سوف يخوضه ضدَّ أمراء الطَّوائف المتهالكين.

ولهذا لم يبدأ الأمير المرابطيّ بالإطباق على أمراء الطَّوائف فور عبوره إلى الأندلس خشية تعرُّضه لهجوم نصرانيٍّ من الخلف، خاصةً بعد أن وصلته أخبار عن الاتِّفاقيات السرِّية التي كان يعقدها صاحب اشبيلية المعتمد بن عبَّاد، وصاحب بطليوس المتوكِّل بن الأفطس، وصاحب غرناطة عبد الله بن بلكين مع ألفونسو السَّادس ملك قشتالة للتَّعاون من أجل ردِّ المرابطين[2]، فتبيَّن للأمير يوسف أنَّه من الضَّروري الإسراع في السير نحو عاصمة القشتاليِّين طليطلة لحصارها واجتياحها، علَّه يستردُّ المدينة ليشفي جرح الأندلس الدامي، فيزداد تعلق أهل الأندلس به[3]، وبالفعل حاصرها حصارًا شديدًا، وعاث المرابطون في أحوازها، وشنُّوا الغارات بأطرافها، وخربوا ضِياعها، وانتسفوا زروعها[4]، ووصلت قوَّات الأمير يوسف في تقدِّمها إلى شمال طليطلة، وحاصرت قلعة رباح التي تسيطر على الطَّريق المؤدي إلى مملكة قشتالة، ولم يجرؤ ألفونسو وحليفه سانشو راميرز المتحصِّنين في طليطلة على التَّصدي لها[5]، بيد أنَّ المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية وحصانتها الفائقة بعدم جدوى المحاولة،فتركوا الحصار وارتدَّ

1- محمَّد سهيل طقوش، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، ص499 .

2- غير أنَّ ابن بلكين في مذكراته، يذكر أنَّ الأمور صُوِّرت للأمير يوسف على غير حقائقها، ويتهم القاضي القلعي والقاضي أبو بكر بن مُسكن بسعيهما عند الأمير يوسف واتهامه بمصانعة النَّصارى. (انظر: **التِّبيان**، ص127-128).

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص339 .

4- السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص48 .

5- عنان، **دول الطَّوائف**، ص340 .

الأمير يوسف بقوّاته إلى الجنوب، كل ذلك ولم يتقدَّم أحد من أمراء الأندلس لمساعدته ضدَّ عدوهم اللّدود ألفونسو السَّادس[1]، بل راحوا يُراقبون تحرُّكاته عن كثب، جزعين أشدَّ الجزع على سلامتهم[2].

3- معارك المرابطين جنوب وغرب الأندلس:

3-1- الاستيلاء على غرناطة ومالقة:

لم يتمكَّن الأمير يوسف بن تاشفين من استرجاع مدينة طليطلة، ولكنَّه تمكَّن من إدخال الرُّعب في قلوب النَّصارى وملكهم ألفونسو السَّادس، وبيَّن لهم أنَّه مازال مهتمًا بحربهم وبصدِّ عدوانهم على بلاد الأندلس، كما بيَّن لأمراء الطَّوائف المتعاونين مع النَّصارى أنَّ مصيرهم الهلاك والبوار إن استمروا في خذلانهم وخيانتهم.

ولكنَّ هؤلاء الأمراء واصلوا خيانتهم، فقرَّر أمير المسلمين يوسف القضاء عليهم بعد أن شاور في الأمر الفقهاء وأهل الرأيّ، وكسب تأييد الشرع[3]، فارتدَّ من طليطلة صوب الجنوب، وعرَّج إلى فحص غرناطة التي يحكمها عبد الله بن بلكين الزِّيري الصَّنهاجي، وكان هذا الأمير قد فاق غيره من أمراء الأندلس في الخيانة والتآمر والاتصال بالعدوِّ، وقد وردت أنباء خيانته إلى الأمير يوسف عن طريق بعض الفقهاء و بعض مواليه، ولاسيما مؤمل مولى جده باديس الذي

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص153 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص48 .

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص97 .

3- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص187 .

اتَّهمه بعقد معاهدات سرِّية مع ألفونسو السَّادس[1]، وقد اعترف الأمير عبد الله بن بلكين في مذكراته بهذا الأمر، ولكنَّه يذكر بأنَّها لم تكن سوى التزام منه بدفع الضَّريبة لألفونسو، وكان قد تعهَّد له هذا الأخير بأن لا يعترض له بلدًا، ولا يغدر به، وأنَّه كان في حالة ضرورة لا سبيل إلى سواها[2].

قبل وصول الأمير يوسف إلى غرناطة وهو في قرطبة أرسل إلى ابن بلكين كتابًا يقول فيه "أقبل إلينا ولا تتأخَّر ساعة واحدة"، فاضطرب الأمير عبد الله من الأمر، واعتذر إليه بتوجيه رسل اعتقلهم يوسف وكبَّلهم بالحديد، وقال لهم "والله إني غزوته كما نغزو ألفونسو، والذي يقدر عليه فليصنع"؛ وأرسل إلى الكُّور والحصون كتباً يدعوهم لعدم المقاومة[3]. ويذكر ابن الكردبوس أنَّه لمَّا وصلت كُتب الأمير يوسف إلى الحصون والمعاقل أطاعه أهلها وسُرَّ القوم بذلك، وقد مالت نفوسهم إليه، لما رأوا عنده من العدل والشَّهامة والإنصاف[4].

وعندما وصل أمير المسلمين إلى غرناطة تحصَّن منه صاحبها عبد الله بن بلكين وأغلق الأبواب في وجهه، وكان قد عمد إلى تشيِّيد الحصون وبناء الأسوار، وملأ بيوت السِّلاح، وجَدَّ في ضرب السِّهام استعدادًا لحصار طويل الأجل[5]، و بالفعل حاصره يوسف مُدَّة شهرين[6]، وقام

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص71 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص314 .

2- ويضيف الأمير عبد الله ابن بلكين قائلاً أنَّه لو كان يُريد الاستعانة بالنَّصارى كما قيل عنه، لم يصل المرابطون إلى سبتة إلَّا ومدينة غرناطة مملوءة منهم. (انظر: **التِّبيان**، ص123 وما بعدها).

3- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص147-148 .

4- **تاريخ الأندلس**، ص96 .

5- **الحُلل الموشيَّة**، ص71 .

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص154 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص48 .

عسكره بحراسة حصون غرناطة الخارجيَّة حتَّى لا يصله المدد من النَّصارى[1]، ولمَّا طال الحصار أرسل ابن بلكين إلى أمير المسلمين أموالًا وأعلمه أنَّه غير مخالف له وأنَّه تحت طاعته، فأرسل الأمير يوسف الفقيه ابن سعدون يقول له "لا طاعة ولا صلح إلَّا بالخروج إليه، وأنَّه بأمان في النَّفس والأهل دون المال"، كما عرض عليه أن يختار بلدًا آخر غير بلده غرناطة ليلتقيا معًا للنظر في الأمر[2].

وكانت الأحوال قد ساءت كثيرًا في المدينة المحصورة وأدرك الأمير عبد الله بن بلكين أنَّه لا سبيل للمقاومة ففتح أبواب غرناطة أمام الجيش المرابطي مستسلمًا للأمير يوسف بن تاشفين[3] في شهر رجب سنة 483هـ/1090م[4]، وحفظ يوسف عهده لابن بلكين فلم يتعرض له ولأهله بأي سوء ثمَّ أرسله إلى الجزيرة الخضراء و منها إلى سبتة فمِكناسة[5] ثمَّ مرَّاكش

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص341 .

2- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص149 .

3- اختلفت الرِّوايات في كيفية استيلاء المرابطين على غرناطة فابن الأثير وابن خلكان يقولان أنَّه كان بطريق الغدر والحيلة، وابن أبي زرع يذكر بأنَّ الأمير يوسف استولى عليها بالأمان بعد أن حاصرها مدَّة شهرين، وفي الحُلل الموشيَّة أنَّ صاحب غرناطة هو الذي سلَّمها من تلقاءِ نفسه، وابن خلدون يقول بأنَّ المرابطين استولوا عليها عُنوةً. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص155 ؛ **وفيات الأعيان**، مج7، ص29-30 **روض القرطاس**، ص154 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص71 ؛ **العِبر**، ج6، ص187).

4- الضَّبي، **بُغية الملتمس**، ج1، ص64 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج3، ص380 .

5- اختلف المؤرخون في تعريف مدينة مِكناسة فقال الإدريسي بأنَّها مدائن عدَّة وهي في طريق سلا وتبعد عن فاس في جهة المغرب بأربعين ميلًا، وذكر منهما مدينتين تُعرف الأولى بمِكناسة تاقررت وهي مدينة حسنة مرتفعة على الأرض يجري في شرقيها نهر صغير وتتصل به عمارات وجنات وزروع، والثَّانية مِكناسة بني زياد وهي مدينة عامرة لها أسواق وحمامات وديار حسنة والمياه تخترق أزقتها بينها وبين مِكناسة تاقررت نحو من رُبع ميل، ومِكناسة سُميت باسم مِكناس البربري الذي نزلها مع بنيه عند حلوله بالمغرب. وذكر صاحب الاستبصار مدينتين الأولى هي مِكناسة تازا وهي مدينة الرباط التي أنشأت سنة 568هـ/1172م، و قال بأنَّ مِكناسة قبيلة من البربر سكنوا المنطقة فسمي الموضع بهم، و الثَّانية هي =

التي استقرَّ بها حتَّى تُوفِّ[1].

بعد أن فرغ الأمير يوسف من ضمِّ غرناطة إلى دولته، وجَّه جيشه نحو مالقة وفيها تميم ابن بلكين بن باديس شقيق الأمير عبد الله فقبض عليه غدرًا وحيلةً وحُمل مكبلًا إلى العُدوة ثمَّ أرسله إلى السُّوس ومنها إلى مِكناسة التي التقى فيها بأخيه عبد الله[2]، ثمَّ نقله إلى مرَّاكش[3] ويذكر الأمير عبد الله في مذاكراته أنَّ الأمير يوسف في آخر المطاف عفا عن أخيه تميم وبالغ في إكرامه وكان معه في عافية ورغد من العيش[4].

= مِكناسة الزيتون وهي أربع مدن وقرى متصلة، منها تاقرارات وهي مدينة محدثة البناء مملوءة الثمار وأكثرها الزيتون فسميت به. وقال الحموي بأنَّ مِكناسة مدينة بالمغرب في بلاد البربر على البرِّ الأعظم بينها وبين مرَّاكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق، وهي مدينتان صغيرتان اختطَّ إحداهما أمير المرابطين يوسف بن تاشفين والأخرى قديمة وأكثر شجرها الزيتون ومنها إلى فاس مرحلة. (انظر: **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص146 ؛ **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ج9، ص186-187؛ **معجم البلدان**، مج5، ص181).

1- اختلف المؤرخون في تحديد الموضع الذي استقرَّ به الأمير عبد الله بن بلكين وأهله عندما تمَّ نفيهم من قبل الأمير يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب حيث لم يؤكد ابن بلكين في مذكراته هل تمَّ بالفعل نقله إلى مدينة مرَّاكش حيث اكتفى بذكر الوعد الذي قطعه له الأمير يوسف عندما خاطبه بكتاب وهو بمدينة مِكناسة بأنَّه سينقله معه إلى مرَّاكش ليكون بجواره، بينما يرى كلٌ من ابن الأثير وابن أبي زرع بأنَّه استقرَّ بالفعل في مدينة مرَّاكش، غير أنَّ صاحب الحُلل الموشيَّة يعتقد بأنَّه استقرَّ في مدينة أغمات، بينما يذكر ابن خلدون بأنَّه أرسل إلى المغرب دون تحديد المدينة التي استقرَّ بها. (انظر: **التِّبيان**، ص160-161 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص155 ؛ **روض القرطاس**، ص154 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص71 ؛ **العِبر**، ج6، ص187).

2- يذكر ابن بلكين في مذكراته الحالة المزرية التي وجد فيها أخيه تميم عندما التقى به في مدينة مِكناسة حيث أخبره هذا الأخير بهَوْلِ ما قاس من عذاب في أيام سجنه الأولى بالأندلس. (انظر: **التِّبيان**، ص162-163).

3- اختلف المؤرخون في تحديد الموضع الذي استقرَّ به الأمير تميم بن بلكين وأهله عندما تمَّ نفيهم إلى بلاد المغرب من طرف المرابطين حيث يرى كلٌ من ابن الأثير وابن أبي زرع بأنَّه استقرَّ بمدينة مرَّاكش، ويرى صاحب الحُلل الموشيَّة بأنَّه استقرَّ في مدينة أغمات، بينما يذكر ابن خلدون بأنَّه أرسل إلى المغرب دون تحديد المدينة التي استقرَّ بها. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص155 ؛ **روض القرطاس**، ص154 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص71؛ **العِبر**، ج6، ص187).

4- **التِّبيان**، ص163 .

وهكذا سقطت إمارة غرناطة في أيدي المرابطين، وتبعتها إمارة مالقة وكان سقوطهما نذير بسقوط جميع دول الطَّوائف بيد المرابطين.

3-2- هزيمة ألبرهانس والاستيلاء على ممتلكات المعتمد بن عبَّاد:

لمَّا تمكَّن الأمير يوسف من الاستيلاء على غرناطة ومالقة، قَدِم المعتمد بن عبَّاد والمتوكِّل بن الأفطس لتهنئته بالنَّصر، ولكنَّ أمير المسلمين أعرض عنهما واستقبلهما بجفاء[1]، فانصرفا إلى بلادهما خائبين[2]، وأدرك كل منهما أنَّ النِّهايَّة آتية لا ريب فيها، وأنَّ مصيرهما سوف يكون مثل مصير الأمير عبد الله وأخيه تميم، وقال المعتمد لحليفه المتوكِّل بن الأفطس "والله لابد له أن يسقينا من الكأس التي سقى بها عبد الله بن بلكين"[3].

وكان ابن بلكين حسب ما ورد في كتابه التِّبيان قد حذَّر أمراء الطَّوائف من مغبة المصير الذي لحق به وذلك لمَّا رفضوا نجدته ومساعدته لمقاومة المرابطين، وخاطبهم قائلًا "هذا الأمر مُنجرٌّ إليكم، اليوم بي وغداً بكم"[4].

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص71-72 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، 143/4 .

2- أدرك المعتمد بن عبَّاد النَّدم على استدعاء المرابطين للأندلس وكانت خيبة أمله كبيرة، حيث رفض الأمير يوسف بن تاشفين إعطاءه مدينة غرناطة عوضًا عن الجزيرة الخضراء وتنكَّر لوعوده التي قطعها له إثر عبوره الثَّالث للأندلس. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص164-165 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، 118/2 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص148).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص144 .

4- **التِّبيان**، ص 166 .

ولمَّا عاد المعتمد بن عبَّاد إلى بلاده سارع إلى عقد تحالف مع ملك قشتالة ألفونسو السَّادس ضدَّ الأمير يوسف بن تاشفين[1]، فاستدعاه هذا الأخير للتشاور فامتنع المعتمد عن اللِّقاء خوفًا من غدر الأمير يوسف به[2]. وحثه أيضًا على تطبيق أحكام الشَّرع، وألَّا يفرض الضَّرائب المخالفة لتعاليم الإسلام، وأن يرابط على الثُّغور للدِّفاع عن أراضي المسلمين[3]، فامتنع ابن عبَّاد عن الإجابة لهذه المطالب، فازداد الأمير يوسف إصرارًا على قتاله خاصَّة أنَّه كسب تأييد الفقهاء في هذا الأمر[4].

ولكنَّ الأمير يوسف عاد إلى المغرب في شهر رمضان سنة 483هـ/1090م واستقرَّ بمرَّاكش، وقدَّم على الأندلس قائده سِير بن أبي بكر اللَّمتوني وفوَّض إليه جميع أموره[5]، وبدأ بالاستعداد لضمِّ الأندلس كلها إلى مملكته، وكان الأمير يوسف يقول في كل مجلس من مجالسه "إنَّما كان غرضنا من مُلك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الرُّوم لمَّا رأينا استيلائهم على أكثرها و غفلة ملوكهم، و إهمالهم للغزوِّ، و تواكلهم، و تخاذلهم، و إيثارهم الرَّاحة، ولئن عشت

1- وقعت في يد الأمير يوسف بعض المراسلات السريَّة الموجهة من ابن عبَّاد إلى ملك قشتالة ألفونسو السَّادس، وورد ذلك في مذكرات ابن بلكين حيث نقل عن الأمير يوسف قوله للمعتمد "ظَفِرتُ بِكتبك إلى الرُّومي وإرسالك عنه". (انظر: **التِّبيان**، ص169).

2- لعب الوشاة دورًا كبيرًا في توتير الأجواء بين الأمير يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عبَّاد، ويذكر ذلك ابن أبي زرع قائلًا "فمشا بينهما الوشاة بالنَّمائم". (انظر: **روض القرطاس**، ص145).

3- يبدوا جليًا أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين لم يشغل نفسه بمحاربة أمراء الطَّوائف المتعاونين مع العدوِّ فحسب، بل كان شُغله الشاغل وهمَّه الأوَّل والأخير هو جهاد النَّصارى وإيقاف زحفهم على بلاد الأندلس، ويظهر ذلك في حثه للمعتمد بن عبَّاد بأن يرابط على الثُّغور مع النَّصارى للدِّفاع عن أراضي المسلمين.

4- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص169 ؛ شكيب أرسلان: **خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة**، مطبعة المنار، مصر، 1925م، ط2، ص93 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص154 .

لأعيدنَّ جميع البلاد التي ملكها الرُّوم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين"[1].

وشرع أمير المسلمين في إرسال عسكره من سبتة إلى بلاد الأندلس، وسيَّر أربعة فرق من الجيوش كل واحدة منها توجهت إلى مدينة من المدن لفتحها، فأرسل سِير بن أبي بكر لمحاصرة ابن عبَّاد في إشبيلية، ومتى فتحها يتقدَّم إلى بلاد ابن الأفطس لفتح حاضرته بطليوس، وقدَّم محمَّد بن الحاج[2] على جيش آخر وأمره بالتقدُّم نحو قرطبة حيث الفتح بن المعتمد بن عبَّاد الملَّقب بالمأمون، و قدَّم أبي زكريا بن واسينو على عسكر ثالث وأمره بمهاجمة المعتصم بن صمادح صاحب المريَّة، وقدَّم جؤدر الحشمي على عسكر رابع وأمره بمنازلة يزيد الرَّاضي بن المعتمد بن عبَّاد في رُندة[3]، وأمرهم بالتقدُّم لتحقيق الأهداف، وبقي في سبتة يترقَّب نتائج أعمال جيوشه في شبه الجزيرة الأندلسيَّة[4]. وواضح من هذه الخطَّة العسكرية أنَّ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان يرى في مملكة إشبيليَّة واسطة عقد الأندلس، و في أميرها المعتمد بن عبَّاد عميد

1- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص114-115 .

2- اختلف المؤرخون في ذكر اسمه حيث سماه صاحب مفاخر البربر أبو عبد الله محمَّد بن الحاج مرةً وسماه مرةً أخرى بن عبد الله بن الحاج وسماه ابن أبي زرع أبو عبد الله بن الحاج في موضعٍ وفي موضعٍ أخر محمَّد بن الحاج، وابن عذارى يسميه محمَّد بن الحاج، وصاحب الحُلل الموشيَّة يسميه أبا عبد الله بن الحاج واسمه الصحيح هو أبو عبد الله محمَّد بن الحاج وهو المشهور بابن الحاج، يعتبر من كبار الولاة والقادة العسكريِّين في عهد الأمير يوسف بن تاشفين وابنه علي، تولى حكم قرطبة في أواخر عهد الأمير يوسف وعندما تولى علي عزله منها و ولاه سنة 501هـ/1108م مدينة فاس وسائر أعمال المغرب مدَّة ستة أشهر، ثمَّ نقله إلى بلنسيَّة في أواخر سنة 501هـ/1108م حسب ابن أبي زرع وسنة 503هـ/1110م حسب ابن عذارى، استشهد سنة 509هـ/1115م. (انظر: **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقراق للطِّباعة والنَّشر، الرباط، 2005م، ص189 وما بعدها ؛ **روض القرطاس**، ص157 وما بعدها ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص48-49 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص72).

3- (Ronda) مدينة قديمة وحصينة بالأندلس من أعمال تاكرنَّا، بها آثار كثيرة وهي على نهر جارٍ وبها زرع واسع وضرع سابغ. (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص73 ؛ القزويني، **آثار البلاد** ؛ ص532 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص269) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم4**، ص435).

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص72 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 99/1 .

أمراء الطَّوائف[1]، فإذا سقطت في يده إشبيلية كان له ملك الأندلس[2].

وبينما كان المعتمد منهمكًا في تحصين بلاده ببناء الأسوار ومَدِّ القنطرة[3]، كان قائد المرابطين سِير بن أبي بكر يضع خططه النِّهائيَّة للانقضاض على قواعد مملكة إشبيليَّة، وقد بدأ بالاستيلاء على طريف أقصى ثغورها الجنوبية وذلك في شوال سنة 483هـ/ديسمبر 1090م وناد فيها بدعوة أمير المسلمين[4]، ثمَّ اتَّجه نحو الشمال قاصداً إشبيلية التي تحصَّن بها المعتمد بن عبَّاد[5]، فضرب عليها الحصار وجرت الحرب بين الفريقين المرابطيّ والإشبيليّ، وكانت حرب حصار لا قتال، وكان المعتمد يريد من ذلك إنهاك قوى المرابطين بحرب الحصار حتَّى تأتيه نجدة النَّصارى فيتمكَّن من القضاء عليهم، إذ لا طاقة له على مواجهتهم وحده.

ولمَّا كانت قوَّات سِير بن أبي بكر تحاصر إشبيلية، كانت بقيَّة الجيوش المرابطيَّة تخوض المعارك في جهات متعدِّدة، حيث وصلت قوَّات جؤدر الحشميّ إلى رُندة وقامت بحصارها[6] وكان يضطلع بالدِّفاع عنها يزيد الرَّاضي واضطرَّ القائد المرابطيّ أن يقنع بالحصار منتظرًا سير الحوادث[7].

1- كان المعتمد بن عبَّاد في ذلك الحين أعظم أمراء الطَّوائف شوكةً وأشهرهم نجدةً. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص101).

2- عنان، **دول الطَّوائف**، ص343 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص72 .

4- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص170 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص344 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص154 .

6- **الحُلل الموشيَّة**، ص73 .

7- عنان، **دول الطَّوائف**، ص344 .

وأمَّا مدينة جيَّان فقد زحف عليها جيش مرابطيّ بقيَّادة بطي بن إسماعيل وضرب عليها الحصار، وهنا أورد ابن الخطيب أنَّ جيشًا من القشتاليّين قدم لإنجاد مدينة جيان تنفيذًا للحلف المعقود بين ابن عبَّاد وملك قشتالة، وأنَّه نشبت بين المرابطين والمسيحيِّين موقعة هُزم فيها المرابطين ؛ غير أنَّ ابن أبي زرع يرى غير ذلك فلم يتحدَّث عن معركة نشبت بين الفريقين، وإنَّما ذكر بأنَّ قائد المرابطين دخل مدينة جيان وملكها صُلحاً[1]، وكتب القائد سِير بن أبي بكر بالفتح إلى أمير المسلمين، وأمر القائد بطي بن إسماعيل بالسَّير بقوَّاته لمساعدة جيش القائد ابن الحاج الذي كان يحاصر مدينة قرطبة وحاكمها الفتح بن المعتمد بن عبَّاد الذِّي تحصَّن بها[2] واتخذَّ كلَّ الأهبات الدِّفاعيَّة الممكنة وأرسل زوجته زائدة[3] وأولاده وأمواله تحوُّطًا إلى حصن المُدُورُ[4] بعد أن شحنه بالعُدَّة والعدَّد[5]، لكي تبقى زوجته بمأمن من الخطر و تلوذ عند الضَّرورة

1- **روض القرطاس**، ص154 .

2- كان المعتمد بن عبَّاد حذرًا جدًا وخائفًا من سقوط قرطبة، ويرجوا بقاء حاله بثبوتها، ويُوصي ابنه بالصبر، ويقول له لا تجزع فالموت أهون من الذُّل، وليس السُّلطان إلَّا من القصر إلى القبر. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص170).

3- (Zaida La Mora) أو (Ceida) ادعت الرِّوايات النَّصرانيَّة أنَّها ابنة المعتمد بن عبَّاد أمير إشبيليَّة السَّابق والتي أهداها لألفونسو السَّادس لكي يخلصه من المرابطين، وهو ادعاء غير صحيح حيث أكد ابن عذارى وغيره من المؤرخين بأنَّها الزوجة السَّابقة للفتح بن المعتمد بن عبَّاد الملقب بالمأمون حاكم قرطبة عندما استولى عليها المرابطون سنة 484هـ/1091م، وقد فرت إلى حصن المدور ثمَّ إلى قشتالة فتنصرت وتزوجت ألفونسو السَّادس وأنجبت منه ولده الوحيد سانشو (Sancho) الذي قتل في معركة أُقليش سنة 501هـ/1108م. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص50 ؛ ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص22 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص123 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص345 وما بعدها).

4- (Almoduar) بالإسبانية (Almodavar del Rio) يقع هذا الحصن جنوب غرب قرطبة على ضفَّة نهر الوادي الكبير، منه إلى مدينة فرنجولش القربية من قرطبة اثنا عشر ميلًا، كانت للمسلمين به عدَّة وقائع مشهورة. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، ص302 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج5، ص77 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص345).

5- ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص22 .

بحماية ملك قشتالة[1].

والواقع أنَّ قرطبة لم تصمد طويلًا رغم أنَّ أميرها الفتح بن المعتمد أبلى البلاء الحسن في الدِّفاع عن نفسه وعن المدينة، فقد اضطربت الأحوال داخل المدينة، إذ تآمرت جماعة من العامَّة مع المرابطين على فتح أبوابها وفق خطَّة مُحكمة[2]، فدخلها المرابطون وقتلوا حاكمها الفتح بن المعتمد خلال الهجوم رفقة الوزيرين ابن زيدون وابن بكر[3]، وكان افتتاح المرابطين لقرطبة في الثَّالث من صفر سنة 484هـ الموافق ل 26 مارس سنة 1091م[4]. وأقام القائد بطي بن إسماعيل فيها وأحكم السَّيطرة على حصونها، و بعد أن اطمأنَّ إلى أحوالها بعث إلى قلعة رباح قاصية بلاد الأندلس قائدًا من لمتونة في ألف فارس فاستولى عليها[5]، وبذلك فُتحت أمامهم طريق قشتالة، وأخذت سراياهم تُهدِّد الأراضي النَّصرانيَّة، وتابع المرابطون تقدِّمهم وفتحوا مدينتي بيَّاسة[6] و أُبدة[7]، و حصن البلاط و حصن المدُورُ، والصَّخيرة وشقورة، وتناثرت حصون

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص345 .

2- ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص22 .

3- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص170 .

4- الضبي، **بُغية الملتمس**، ج1، ص94 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص154 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص49.

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص155 .

6- مدينة مُطلَّة على النَّهر الكبير المنحدر إلى قرطبة، تبعد عن مدينة جيَّان بعشرون ميلًا وعن مدينة أُبدة في جهة الشَّرق بسبعة أميال، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر وحولها زراعات. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، ص296 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص121-122) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم3**، ص434).

7- مدينة صغيرة بالأندلس من كورة جيَّان على مقربة من النَّهر الكبير (نهر قرطبة) تبعد عن مدينة بيَّاسة بسبعة أميال، اختطها عبد الرَّحمان بن الحكم بن هشام الأمويُّ وتمَّمها ابنه، لها مزارع وغلات قمح وشعير كثير جدًا. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص296؛ الحموي، **معجم البلدان**، 64/1 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص6) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم3**، ص434).

ابن عبَّاد ودخلها المرابطون ظافرين في أقلّ من شهر[1].

وهاجم القائد سِير قرمونة واستولى عليها عنوةً يوم السَّبت 17 ربيع الأوَّل 484هـ الموافق ل 10 ماي 1091م، وبذلك اقترب المرابطون من طليطلة وهدَّدوها من جديد بعد أن أضحت على مرمى حجر منهم[2].

ثمَّ تفرَّغ سِير بن أبي بكر لمحاصرة اشبيلية بعد أن خضعت له أكثر حصون ابن عبَّاد فأطبق عليها بقوَّات ضخمة، ولكن المعتمد تأهب للدِّفاع عن مُلكه وحاضرته بكل ما وسع، واستغاث بحليفه ألفونسو السَّادس ملك قشتالة[3]، وكان هذا الأخير قد اهتزَّ لاجتياح المرابطين لمملكة إشبيلية بهذه السرعة الفائقة، وخاف أن تدور الدَّائرة على مملكته ويغزوها المرابطون ولأجل ذلك بادر من فوره بإرسال حملة قويَّة بقيادة ألبرهانس أكبر قواده وأبرعهم لإنجاد ابن عبَّاد بقوَّات بلغت عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجلٍ[4]. فلمَّا علم القائد المرابطيّ سِير بقدوم الرُّوم نحوه جهَّز حملة من عشرة آلاف فارس بقيَّادة إبراهيم بن إسحاق اللَّمتوني وأمرهم بالمسير لقتال الرُّوم، والتقى الجمعان على مقربة من حصن المدور، ونشبت بينهما معركة عنيفة، قتلت فيها جموع كبيرة من الفريقين وانتهت بنصر المرابطين وارتداد القشتاليِّين[5]، وقد أثخن قائدهم ألبرهانس جرحًا، وانهار بذلك آخر أمل كان يعلقه ابن عبَّاد على معاونة حلفائه القشتاليِّين، و قرَّر الاعتماد على سيفه، و دافع مع جنده عن حاضرتهم أقوى دفاع، ممَّا أدهش

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص154 .

2- السَّلاويّ، **الإستقصا**، 49/2 .

3- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 128/7 .

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص155 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص155 . السَّلاويّ، **الإستقصا**، 49/2 .

القائد سِير فقال "لو أنِّي أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع"[1]، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين زهاء أربعة أشهر، وقضى المعتمد على الثَّورة داخل المدينة التي افتعلها جماعة من خصومه[2]، كما استطاع أن يصدَّ دخول المرابطين من فتحة السُّور عند باب الفرج[3]، لكنَّ الأمل لم يطل كثيرًا إذ تمكن المرابطون من إحراق الأسطول الرَّاسي في الواد الكبير، فانهار بذلك خط الدِّفاع الأوَّل عن المدينة وباتت قاب قوسين أو أدنى من السُّقوط.

وفي تلك الأثناء كان سِير بن أبي بكر يحشد قوَّاته ويُنظِّم الضَّربة الأخيرة التي وقعت يوم الأحد 22 رجب 484هـ/8 سبتمبر 1091م[4]، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على المدينة وعلى القصور الملكيَّة، وأسروا المعتمد وآله، وأصدر القائد سِير أمانًا للمعتمد في النَّفس والأهل والولد[5].

لكنَّ المعارك لم تنته بسقوط العاصمة إشبيلية، واستمرَّت المقاومة بقيَّادة ولديّ المعتمد الرَّاضي في رُندة و أبي بكر المعتد في مارتلة[6]، و لكنَّهما استسلما في الأخير بعد أن تعاهدا مع

1- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص170 .

2- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص99 .

3- قام المعتمد بن عبَّاد بنفسه للدِّفاع عن المدينة ولسدِّ فتحة السُور عند باب الفرج، وقد أصابه إثر ذلك أحد الفرسان بسهمٍ استطاع أن ينجو منه وأن يقتل ذلك الفارس ويهزم تلك الجُموع. (انظر: المرَّاكشي، **المُعجب**، ص99).

4- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص170 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص155. (غير أنَّ ابن بسَّام ذكر تاريخ آخر لسقوط مدينة إشبيلية وهو 20 رجب 484هـ/6 سبتمبر 1091م). (انظر: **الذَّخيرة**، ج2، ص31).

5- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص190 .

6- وقد وردت في بعض المصادر التَّاريخيَّة بلفظ ميرتلة، وهي مدينة تقع على نهر بطليوس بغرب الأندلس، قريبة من حصن ولبة بينهما مرحلتان خفيفتان، لها حصن مشهور بالمنعة والحصانة منه إلى مدينة شِلب مسيرة أربعة أيام. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص266-267؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص521) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم3**، ص434).

المرابطين بأن لا يتعرضوا لهم بأيِّ مكروه، لكن القوّاد المرابطين تنكرُّوا للعهود التي أعطوها للمعتمد بشأن ولديه، فقد قبض القائد جؤدر الحشمي على الرَّاضي وقتله غيلةً وأخفى جسده[1]، أمَّا المعتد بالله فأبقى عليه حيًا بعد مصادرة جميع أملاكه[2].

ثمَّ قـام المرابطـون بأخذ المعتمد و أهله إلى المنفى، حيث نُقلوا على السُّفن التي سارت من إشبيلية في نهر الوادي الكبير في طريقها إلى العُدوة[3]، فأقاموا في مرَّاكش ثمَّ أمر الأمير يوسف بنقلهم إلى أغمات، أين ألقى بهم في السِّجن[4]، وبقي المعتمد سجينًا في أغمات إلى أن وافته المنية في ربيع الأوَّل 488هـ/1095م ودفن بظاهر المدينة[5].

وهكذا سقطت دولة المعتمد بن عبَّاد واسطة عقود دويلات الطَّوائف وانضوت تحت سيَّادة المرابطين.

1- ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص23 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص101 .

2- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص190 .

3- وقد اجتمع النَّاس في جموع غفيرة على ضِفَّتي النَّهر لوداع المعتمد بن عبَّاد بالبُكاء والنُوَّاح، حينما شَهدوا سيِّدهم بالأمس تُحيق به أغلال الاعتقال والذِّلة، ويغادر موطن سُلطانه وعزه إلى مصيره المجهول. (انظر: عنان، **دول الطَّوائف**، ص356).

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص155 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2، ص117 .

5- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، 190/10 ؛ ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، 31/2 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص102.

3-3- الاستيلاء على بطليوس ومدن غرب الأندلس:

شعر المتوكّل بن الأفطس صاحب بطليوس عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية، أنَّ الدَّائرة سوف تدور عليه، وتملَّكه الخوف من ضياع مملكته، فسارع لإظهار الطَّاعة للقائد المرابطيّ سِير بن أبي بكر، حيث كان يلبِّي له جميع طلباته، ولكنَّه كان يتَّصل سرًّا بألفونسو السَّادس للاستعانة به إذا داهمه خطر المرابطين[1].

أخذ القائد سِير يتدخَّل في شؤون بطليوس حيث بدأ المرابطون الإغارة على أحوازها تمهيدًا لبسط سيَّادتهم عليها، عند ذلك جاهر المتوكِّل بمحالفة ألفونسو[2]، وهو بذلك يسلك نفس طريق سلفه ابن عبَّاد من قبل، وبذل ابن الأفطس لألفونسو ثمنًا لحلفه ومعاونته، حيث تنازل له عن ثلاث مدن مهمَّة هي أشبونة[3]، شِنترة[4] وشَنترين[5].

1- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص172 .

2- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص187 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص368 .

3- مدينة قديمة بالأندلس يقال لها لشبونة تقع غرب قرطبة قريبة من البحر الأعظم (المحيط الأطلسي) متصلة بمدينة شَنترين، وهي آخر مدينة يصب فيها نهر تاجة، يوجد على ساحلها العنبر الفائق وهي كثيرة الأرزاق من الزرع والحبوب وغير ذلك، ملكها الإفرنج سنة 543هـ/1148م. (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، 195/1 ؛ الزُهري، **كتاب الجغرافية**، ص85 ؛ القزويني، **آثار البلاد**، ص555) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم2**، ص433).

4- من مدائن أشبونة بغرب الأندلس على مقربة من البحر الأعظم (المحيط الأطلسي) بينهما قدر ميل، يغشاها ضباب دائم لا ينقطع، وهي صحيحة الهواء تطول أعمار أهلها، لها حصنان في غاية المنعة، ملكها النَّصارى (الصَّليبيِّين) سنة 543هـ/1148م. (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص367 ؛ القزويني، **آثار البلاد**، ص542 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص347).

5- مدينة بغرب الأندلس من أعمال باجة قريبة من البحر الأعظم (المحيط الأطلسي) بينها وبين بطليوس أربع مراحل، لها نهر يفيض على بطائحها كفيض نيل مصر، تقع على جبل عالٍ وبها بساتين كثيرة وفواكه، ملكها الإفرنج سنة 543هـ/1148م. (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص367 ؛ القزويني، **آثار البلاد**، ص542 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص346 وما بعدها) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم2**، ص433).

وكان لهذا التَّصرف وقعٌ سيّءٌ لدى القائد المرابطيّ سِير بن أبي بكر الذي ازدادت رغبته في القضاء على ابن الأفطس[1]، وجلب له هذا العمل أيضًا سُخط الرعيَّة التي أظهرت تضامنًا مع المرابطين، ونصحته بضرورة تسليم بطليوس لهم[2].

فأرسل القائد سِير جيشاً استولى على شِلب[3] ويابُرَة[4] بعد مقاومة قصيرة[5]، وتابع سيره إلى العاصمة بطليوس، واجتاز هذا الجيش أثناء زحفه مروج بطليوس حيث بطحاء الزَّلاقة[6] واستمرَّ في المسير إلى أن وصل إلى بطليوس وضرب عليها الحصار، ولم يتمكن ملك قشتالة من

1- عنان، **دول الطوائف**، ص 368-369. (ذكر ابن بلكين أنَّ ابن الأفطس تنازل لألفونسو السَّادس على معاقل، ولكنَّه لم يذكر ما هي هذه المعاقل أو المدن التي أعطاه إياها، بينما قال عباس سعدون عبَّاس نصر الله أنَّه تنازل له على مدن أشبونة وشنترين والمدينة الثَّالثة هي شنتمرية الغرب، وليس شِنترة كما يذكر عنان). (انظر: **التِّبيان**، ص174 ؛ **دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين**، ص134).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص105-106 .

Abd Allah Laroui : **l’histoire du Maghreb un essai de synthèse**, librairie François Maspero, Paris, 1970, p155 .

3- مدينة تقع غرب الأندلس وهي قاعدة ولاية أكشونبة، البحر منها غربًا على ثلاثة أميال، بينها وبين مدينة باجة ثلاثة أيَّام وشَنترين بينهما خمسة أيَّام، وبينها وبين قرطبة عشرة أيَّام للفارس المجدِّ، وهي مدينة حسنة في بسيط من الأرض وعليها سور حصين، بديعة المباني، مرتبة الأسواق ولها غلات وجنات. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص266-267 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، 357/3 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص342-343).

4- مدينة قديمة بغرب الأندلس من كُور مدينة باجة وهي في الشمال منها، تنتهي أحواز باجة فيما حولها مائة ميل. (انظر: الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص615-616) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**، ص434).

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص105 .

6- كانت الزَّلاقة لا تزال غاصَّة بعظام النَّصارى الذين سقطوا قتلى فيها ولم يُدفنوا، ممَّا أثار الحماس في الجيش المرابطيّ الذَّاهب لإنقاذ المسلمين من خيانة ملكهم وغطرسة أعدائهم. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 105/1 ؛ سعدون عبَّاس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**، ص134).

تقديم أيَّة معونة لحليفه واضطرَّ ابن الأفطس أن يمتنع بقصبة بطليوس المنيعة، لكنَّ المرابطين اقتحموها بمساعدة أهلها النَّاقمين على ملكهم[1]، ودخلوها على الأرجَّح يوم السَّابع صفر سنة 487هـ/25 فيفري 1094م[2]، وألقوا القبض على المتوكِّل وولديه الفضل والعبَّاس واستولوا على أموالهم، ثمَّ أمر القائد سِير بإخراجهم من المدينة حيث أُعدموا جميعًا[3]، وحُمل أولاده الصِّغار إلى عاصمة المرابطين بالمغرب مرَّاكش[4]، ولم ينج من الأَسر إلَّا ابنه المنصور الذي استطاع الهرب والتحق بالنَّصارى وصار في تعداد جيوشهم يهاجم بلاد الأندلس المسلمة انتقامًا لوالده وإخوته[5].

1- يذكر ابن بلكين أنَّ أهل بطليوس اتَّفقوا مع الأمير المرابطيّ سِير بن أبي بكر وفتحوا له أبواب المدينة ليلًا. (انظر: **التِّبيان**، ص174).

2- اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ استيلاء المرابطون على بطليوس حيث يذكر المرَّاكشي أنَّه كان سنة 485هـ/1092م ؛ ويذكر ابن الأبَّار ثلاث تواريخ مختلفة ولم يذكر من هو الصَّحيح فيهم، حيث قال بأنَّهم استولوا عليها يوم 27 محرم 487هـ/15 فيفري 1094م، وقال يوم 7 صفر 487هـ/25 فيفري 1094م، وقال في شهر ربيع الأوَّل 487هـ/مارس 1094م، بينما يذكر ابن خلدون بأنَّه كان سنة 489هـ/1095م، ويرى أشباخ ومعظم المراجع الحديثة أنَّه كان في شهر صفر 487هـ/أوائل مارس 1094م. (انظر: **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص102 ؛ **المُعجب**، ص56-57 ؛ **العِبر**، ج6، ص187 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 106/1).

3- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص193 ؛ ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص102 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص187.

4- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 123/7 .

5- ابن بلكين، **التِّبيان**، ص174. (يذكر أشباخ ولدًا آخر للمتوكل بن الأفطس اسمه نعيم الدَّولة وهو أصغر إخوته وكان واليًا لمدينة شنترين، أسره المرابطين لمدة طويلة، ولكنه لم يذكر أين أسر ومتى أطلق سراحه). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 106/1).

وتابع سِير بن أبي بكر تقدمه نحو ثغر أشبونة الذي سلَّمه المتوكِّل للنَّصارى، وكانت به حامية نصرانيَّة بقيادة ريموند البرجوني[1] صِهر ألفونسو السَّادس واستطاع بعد قتال عنيف أن يستردَّ الثَّغر ويعيده إلى المسلمين وذلك عام 487هـ/1094م، وفتح كذلك شَنترين[2].

وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت في ظلِّ بني الأفطس خمسة وسبعين عامًا وبها تمَّ للمرابطين فتح غربي الأندلس كُلِّه[3].

4 – معارك المرابطين شرق الأندلس:

4-1- الاستيلاء على المريَّة ومرسيَّة:

كان إقليم شرق الأندلس موضع الشدِّ والجذب بين المسلمين والمسيحيِّين، فقد وجد المرابطون صعوبات جمَّة إثر محاولتهم الاستيلاء عليه، مقارنة بسهولة استحواذهم على أقاليم غرب الأنـدلس[4]، إذ عادت الرَّغبة لدى النَّصارى في الاستيلاء على هذا الجزء الإسلامي من

1- هو الكونت ريموند بن جيوم البرجوني، ينتسب إلى أسرة آل كابيه ملوك فرنسا، جاء إلى الأندلس رفقة الكثير من الفرسان والكونتات بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م، وقد قدَّم لألفونسو السَّادس ملك قشتالة في حروبه مع المسلمين أجلَّ الخدمات، فزوجه ابنته دونيا أوراكا وجعله حاكمًا على ولاية البرتغال سنة 486هـ/1093م، ونقله في أواخر عام 487هـ/1094م لحكم جليقية، فخلفه في ولاية البرتغال قريبه الكونت هنري البرجوني. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص250).

2- سعدون نصر الله، **تاريخ العرب السِّياسي في الأندلس**، ص284 .

3- عليّ حسين الشطشاط: **نهاية الوجود العربيّ في الأندلس**، دار قباء للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، 2001م، ص41.

4- ويرجع ذلك إلى شدَّة وطأة الضَّغط النَّصراني على شرق الأندلس حيث لم يتوقف تحرُّش النَّصارى بالمسلمين على الدوام، وعان المسلمون هناك الأمرَّين خاصة في مدن الثُّغور كسرقسطة وبلنسيَّة. (انظر: سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ** =

الجزيرة حيث اشتدَّت هجماتهم على مدن وحصون ومعاقل المسلمين خصوصا مدن المريَّة، مرسيَّة دانية[1]، بلنسيَّة وسرقسطة.

ولم يقف الأمير يوسف بن تاشفين إزاء هذه الأوضاع موقف المتفرج، بل تهيَّأ لمدافعة وصدِّ خطر النَّصارى من جهة، ومناجزة أمراء الطَّوائف المتخاذلين من جهة أخرى، فأرسل إلى المريَّة التي كان يحكمها المعتصم بن صمادح[2]، جيشًا بقيادة أبي زكريا بن واسينو لمحاصرتها وافتتاحها[3]، فحاصر أبو زكريا المدينة فلم تصمد طويلًا بالرَّغم من حصانتها فقد كان ينقصها الرِّجال المحاربون[4]، ودار القتال تحت شُرفة القصر فأصيب المعتصم وكان عليلًا يعاني مرض موته وقال كلمته المأثورة "لا إله إلَّا الله نُغص علينا كلَّ شيءٍ حتَّى الموت"[5]، ولمَّا رأى المعتصم أنَّ نهايته اقتربت أحضر ابنه مُعز الدَّولة و أوصاه بأن يلجأ إلى بني حمَّاد في بجاية إذا داهمته

= **المغرب العربي المرابطون صنهاجة الصحراء الملثمون في المغرب والسودان والأندلس**، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1995م، ج4، ص351).

1- مدينة بشرق الأندلس على البحر المتوسط عامرة حسنة لها ربض عامر وعليها سُور حصين وقصبة منيعة جدًا وهي على عمارة مُتصلة وشجرات تين كثيرة وكروم، وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير يسمى جبل قاعون، وهي دار لصناعة السُّفن ومنها كان يخرج الأسطول للغزو، منها إلى مدينة بلنسيَّة على البحر خمسة وستون ميلًا. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص281-282 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص231-232) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

2- لم تدم حالة الصفاء بين الأمير يوسف والمعتصم بن صمادح طويلًا، حيث تغيَّر أمير المسلمين عليه بعد تخلُّفه كسائر أمراء الطَّوائف أثناء حصار طليطلة، وبدا نِفاقه واضحًا. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص167).

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص72. (بينما يذكر ابن أبي زرع أنَّ القائد محمَّد بن عائشة هو من حاصر المريَّة). (انظر: **روض القرطاس**، ص155).

4- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج7، ص123.

5- ابن خاقان، **قلائد العقيان**، ص54 ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج5، ص44 .

الخطوب[1]، ومات بعد ذلك عند طلوع شمس نهار الخميس 22 ربيع الأوَّل 484هـ/13 ماي 1091م[2]، وانشغل به أهله فسلَّموا المدينة للمرابطين، ولاذ ابنه معز الدَّولة بالفرار بماله وعياله إلى بجاية حسب وصية والده ولجأ إلى المنصور بن النَّاصر الحمَّادي الذي قرَّبه وأحسن إليه ودخل المرابطون المريَّة على الأثر واحتلُّوها[3].

ولمقارعة النَّصارى في مدينة مرسيَّة والمدن المجاورة لها عيَّن الأمير يوسف ابنه محمَّد بن عائشة[4] واليًا على شرق الأندلس[5]، فاتَّجه نحو مرسيَّة والتقى بالنَّصارى وهزمهم وذلك في شوَّال سنة 484هـ/ أكتوبر سنة 1091م[6] و ملك المرابطون مدينة نبرة قبل ذلك في شهر

1- ابن بلكين، **التّبيان**، ص167-168 .

2- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج5، ص44 .

3- يذكر ابن بلكين أنَّ المنصور بن النَّاصر بن علنَّاس الحمَّادي أكرم مُعز الدَّولة غاية الكرم وآمنه في ذخائره، وخيَّره للسَّكن في أي منطقة يريد فاختار مدينة تدلس بالقرب من بجاية لأنَّها على البحر، وليغيب عن عين المرابطين خوفًا من الطَّلب، ويقول ابن الأثير أنَّ بني حمَّاد أحسنوا لمعز الدَّولة وأهله.(انظر: **التّبيان**، ص168 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص192-193).

4- هو الأمير أبو عبد الله محمَّد بن يوسف بن تاشفين، نُسب إلى أمه عائشة فأصبح يدعى محمَّد بن عائشة، وأمه امرأة حرة لهذا حمل اسمها، وكان قائدًا مظفرًا ارتبط اسمه بمقاتلة النَّصارى في الأندلس، كان واليًا على مرسيَّة إثر وفاة أبيه، وتألق نجمه كقائد محنك في عهد أخيه علي، حيث شارك في العديد من المعارك في الأندلس كمعركة أُقليش سنة 501هـ/1108م، وشارك مع محمَّد بن الحاج في غزو برشلونة سنة 508هـ/1114م وأصيب في بصره اعتل بعدها ثمَّ لم يلبث أن عمي، فاستدعاه أخوه أمير المسلمين علي إلى مرَّاكش، وعين بدلًا عنه على مرسيَّة أخاه ابراهيم بن يوسف. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص101 -102 هامش4 ؛ ابن القطان: **نُظم الجمان**، ج6، ص65 هامش2؛ عبد الحق حموش: **ابن تاشفين**، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت، ص31 ؛ الصَّلابي: **الجوهر الثَّمين بمعرفة دولة المرابطين**، ط1، مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتب التابعين، القاهرة، 2001م، ص67).

5- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص101 .

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص155 .

شعبان سنة 484هـ/1091م[1]، ثمَّ استولوا في العام التَّالي على دانية وشاطبة[2].

2-4- هزيمة السيد القمبيطور والاستيلاء على بلنسيَّة:

لمَّا تمكن محمَّد بن عائشة من الاستيلاء على مدينة مرسيَّة وأحوازها، أصبح المرابطون على مقربة من مدينة بلنسيَّة، فاستغلَّ الوضع قاضي بلنسيَّة ابن جحاف[3] وأهل الحلِّ والعقد من أعيان المدينة، وقاموا باستدعاء قائد المرابطين ابن عائشة لكي يُخلِّصهم من استبداد السيد القمبيطور وحليفه القادر بن ذي النُّون[4]، مقابل أن يُسلِّم له البلد سرًا[5].

فاستجاب ابن عائشة لدعوة القاضي ابن جحاف، وبعث سرِّيةً من الجُند المرابطين تحت إمرة القائد أبي ناصر إلى بلنسيَّة، فحاول ابن الفرج[6] القبض على القاضي ابن جحاف ومنع المرابطين من دخول المدينة، ولكنَّ العامَّة حالت دون ذلك وفتحت الأبواب للقوَّات المرابطيَّة التي تمكَّنت من القضاء على ابن الفرج و القادر بن ذي النُّون يوم الجمعة السَّابع من

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص155 .

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص103.

3- هو أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري حكم بلنسيَّة ما يقرب من عامين، وكانت نهايته مأساوية حيث أمر السيد القمبيطور بإحراقه بعد سنة من استيلائه على بلنسيَّة عام 487هـ/1094م. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص126 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص31 وما بعدها).

4- آل حكم مدينة بلنسيَّة إلى القادر بن ذي النُّون تعويضًا له على استسلامه في طليطلة، وتخليه عنها لحليفه ألفونسو السَّادس سنة 478هـ/1085م، كما كان القادر حليفاً للسيد القمبيطور الذي كان يفرض عليه إتاوة عظيمة مقدارها 120 ألف دينار سنويًا مقابل حماية بلنسيَّة. (انظر: شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة**، ج3، ص56).

5- عنان، **دول الطَّوائف**، ص241 .

6- هو أحد عُملاء السيد القمبيطور في مدينة بلنسيَّة، يعتمد عليه في ضبط أمور الحكم رُفقة القادر بن ذي النُّون. (انظر: شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة، 57/3**).

شهر رمضان سنة 485هـ/12 أكتوبر 1092م[1]، واستولى ابن جحاف على ذخائر وأموال عظيمة كان يحتفظ بها القادر في قصره[2]، وتولى الرّئاسة بعد أن بايعه أهل بلنسيَّة وحاول أن يعيد سيرة القاضي محمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد في إشبيلية، فكان يجلس مُحاطاً بالوزراء والفقهاء والزُّعماء، ويركب في موكب يتقدَّمه العبيد والجُند، فكأنه أمير جديد من أمراء الطَّوائف[3].

وعندما علم السيد القمبيطور بسقوط بلنسيَّة في يد القاضي ابن جحاف وحلفائه المرابطين ثارت ثائرته، وزحف في الحال بقوَّاته صوب بلنسيَّة، وقبل وصوله إليها امتنعت عليه بلدة سيبولة (Cebolla)[4]، فكتب إلى ابن جحاف يطلب منه أطعمته المختزنة عنده ببلنسيَّة وأقسم بأغلظ الأيمان أن لا يبرح بلنسيَّة حتَّى يظفر به ويأخذ ثأر ابن ذي النُّون منه، وشرع في حصار المدينة بعد أن انضمَّ إليه أنصار ابن ذي النُّون ووصلته الأقوَّات من سائر الحصون المجاورة[5] وبعد أن أحرق ما حول بلنسية من الضِّياع والمروج واستولى على معظم الأنحاء القريبة من المدينة[6].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، 31/4 .

2- وكان مصير القادر بن ذي النُّون القتل والتَّنكيل بجثته، حيث حُمل رأسه على عصًا وطِيف به في الشَّوارع والأسواق. (ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص32).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص32. (ويذكر ابن بسَّام أنَّ القاضي ابن جحاف كان لا يفقه في الأمور السياسيَّة الشيء الكثير، حيث قال "ودُفع ابن جحاف إلى النَّظر في أمور سُلطانية لم يتقدم قبل في غوامض حقائقها، وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها ولا بالدخول في ضنك مآزقها). (انظر: **الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عبَّاس، دار الثَّقافة، بيروت، 1417هـ/1997م، مج1، القسم الثَّالث، ص96-97).

4- شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة**، ج3، ص58 .

5- أمَّد أهل الحصون المجاورة لمدينة بلنسيَّة الأقوات للسيد القمبيطور اتقاءً لشره. (ابن عذارى، **البيان المغرب**، 32/4).

6- ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، مج1، القسم الثَّالث، ص97 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص241.

وكان ابن جحاف إذ ذَّاك يُعدُّ العُدَّة لمقاومة غارات السيد القمبيطور على أحواز المدينة، حيث أنشأ فرقةً من ثلاثمائة فارس من المرابطين وغيرهم[1]، استطاعت صدَّ هجوم النَّصارى وإكراههم على التَّراجع ولكنَّهم عاودوا الهجوم وحاصروا المدينة[2].

وممَّا زاد الأمور تعقيدًا على القاضي ابن جحاف ظهور خلاف بينه وبين قائد المرابطين أبي ناصر، فاستغلَّ السيد القمبيطور هذا الوضع وكتب إلى ابن جحاف يدعوه للتمرُّد على المرابطين، ويأمره بإخراجهم من بلنسيَّة مقابل أن يُعينه على تملكها، وأن يدافع عنه ويحميه من تطاول أعدائه[3]، فأظهر ابن جحاف الارتياح إلى ما عرضه السيد القمبيطور[4]، لكن عندما عظم البلاء على بلنسيَّة سنة 486هـ/1093م واشتدَّ الحال على أهلها، استصرخ القاضي ابن جحاف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لإيقاف زحف السيد عليها، وكعادته لبَّى أمير المسلمين نداء الاستغاثة وأمر قوَّاده وعماله في بلاد الأندلس بنصر أهل بلنسيَّة، فتلاحقت جموع المسلمين بشاطبة وقاد هذه الجموع الأمير أبو بكر بن إبراهيم، واستبشر أهل بلنسيَّة بقدوم هذه الجيوش لإنقاذهم، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان حيث تراجعت قوَّات المرابطين مطلع سنة 487هـ/1094م و امتنعت عن مواجهة العدوِّ، فتحوَّل أمل الفرج عند

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص32 .

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص103. (غير أنَّ ابن عذارى يقول أنَّ جيش النَّصارى أثخن في قُوَّات ابن جحاف وأصاب منهم القتلى والجرحى). (انظر: **البيان المغرب، 32/4**).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص33 .

4- شكيب أرسلان، **الحُلل السُّندسيَّة**، ج3، ص58 .

المحاصَرين وراء الأسوار إلى يأس[1].

واشتدَّت بذلك شوكة العدوّ، ونُكِّل بأهل المدينة المحاصَرة شرَّ تنكيلٍ، حيث هلك أكثر النَّاس جوعًا واضطرُّوا لأكل الجلود والدَّواب وغير ذلك، فلما انتهوا من الصَّبر إلى الغاية القصوى طلبوا الصُّلح مع السيد القمبيطور[2]، الذي قبله بشروط أهمُّها أن يغادر المرابطون المدينة آمنين، وأن يعطي ابن جحاف إلى السيد القمبيطور ثمن ما كان مودعًا بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر بن ذي النُّون، وأن تؤَّدى له الضَّريبة التي تمَّ الاتِّفاق عليها سابقًا، وأن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد القمبيطور، وأن يرابط جيشه في جبالة[3]، وهكذا عُقدت شروط التَّسليم، وعادت بلنسيَّة بمقتضاها بلدًا خاضعًا يؤدِّي الضَّريبة للنَّصارى مثلما كانت عليه أيام القادر بن ذي النُّون[4].

ولكنَّ السيد القمبيطور سرعان ما نقض عُهوده، وأخذ يُغِير مع جنده على أطراف المدينة، ويرهق ابن جحاف بمطالبه المالية، حيث طلب منه أن يسلم له كل موارد المدينة، وأن يقدم إليه ابنه كرهينة لضمان عدم تمرِّده، فرفض القاضي هذه المطالب و اختار القتال حتَّى الموت

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، 33/4. (خلَّف تراجع قوَّات المرابطين بقيادة الأمير أبي بكر بن إبراهيم من أحواز مدينة بلنسيَّة، وعدم مواجهتها لقوَّات العدوّ بقيادة السيد القمبيطور استغراباً كبيراً لدى المؤرخين الذين لم يجدوا سبباً مقنعاً، غير أنَّ الأستاذ سعد زغلول عبد الحميد يرى بأنَّه يرجع إلى ظهور مخاوف لدى القائد المرابطيّ في مواجهة جيوش العدوّ المنظَّمة، حيث قسَّم السيد القمبيطور جيشه إلى فرقتين حتَّى تسهُل المناورة. وأرى خلاف ذلك ويبدو لي أنَّ سبب الانسحاب يعود إلى قِلة الجيوش المجتمعة لدى القائد المرابطيّ، فرأى أنَّ الظرف غير مناسب لقتال جيوش السيد القمبيطور الكثيرة العدد والعُدَّة، فتراجع لطلب المدد ومزيدٌ من القوَّات، كما أنَّ رداءة الطقس، وكثرة الأوحال في الطُرقات والمسالك حالت دون وصول الجيوش المرابطيَّة إلى أسوار المدينة، وسيرورة الأحداث بينت في الكثير من المرات أنَّ جيوش المرابطين كانت دائماً السَّباقة لقتال العدوّ بدون خوفٍ أو وجلٍ. (انظر: سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، ج4، ص357).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص34 .

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص242 .

4- **نفسه**.

وأغلق أبواب المدينة، وكتب إلى ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به، وكذلك إلى المستعين بالله الثَّاني أحمد بن هود صاحب سرقسطة[1]، وحتَّى إلى ألفونسو السَّادس ملك قشتالة[2]. ولكن لم تصله أيَّة مساعدة، حيث لم يتمكَّن الجيش المرابطيّ من بلوغ أسوار المدينة لرداءة الطَّقس ولِتماطل ابن هود في تقديم يد العون، فخلت بذلك الأجواء للسيد القمبيطور الذي شدَّد الحصار على المدينة، فساءت أحوالها واشتدَّت الأزمة داخلها[3].

وبعد حصار دام عشرين شهرًا سُلِّمت المدينة للسيد القمبيطور في شهر جمادى الأولى سنة 487هـ/1094م[4] وأمر جنوده بعدم الاعتداء على المسلمين، ولكنَّه سرعان ما نقض ذلك حيث ألحق بهم ضررًا كبيرًا، كما نقض وعده مع ابن جحاف و اعتقله وصادر منه جميع ذخائر

1- يذكر ابن عذارى وشكيب أرسلان أنَّ أهل بلنسيَّة أرغموا القاضي ابن جحاف على مفاوضة النَّصارى، فأرسل أحد الفقهاء إلى السيد القمبيطور واتفق معه على أن يرسل أهل بلنسيَّة رُسلًا إلى أمير سرقسطة وإلى قائد المرابطين يلتمسون منهم النَّجدة، فإذا لم تردهم نجدة في مدَّة خمسة عشر يومًا يسلمون المدينة للسيد القمبيطور مع بقاء ابن جحاف آمنًا في نفسه وماله وجميع أهله، وألَّا يُقيم السيد القمبيطور بنفسه في البلدة. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص39 ؛ **الحُلل السُّندسيَّة**، ج3، ص60-61).

2- عنان، **دول الطَّوائف**، ص242-243 .

3- يذكر ابن عذارى أنَّ مدينة بلنسيَّة قبل أيَّامٍ من سُقوطها في شهر جُمادى الأولى من سنة 487هـ/1094م، عمَّها الغلاء وعظُم فيها البلاء، حيث بلغ رطل القمح ثلاثة مثاقيل، وبيضة دجاجة بثمانية دراهم. (انظر: **البيان المغرب**، 39/4).

4- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص126 ؛ ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص103 ؛ حسين مؤنس: **الثغر الأعلى الأندلسيّ في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النَّصارى سنة 512هـ/118م، مع أربع وثائق جديدة**، مكتبة الثَّقافة الدِّينية، مصر، 1413هـ/1992م، ص6.

القادر بن ذي النُّون، ثمَّ أمر بإعدامه حرقًا بالنَّار في جمادى الأولى سنة 488هـ/1095م[1] وارتفع ابن جحاف رغم مساوئه إلى مرتبة الشُّهداء الأبرار[2].

وقد أثار سقوط بلنسيَّة موجة عارمة من السُّخط قي بلاد المغرب والأندلس، وعمَّ الحزن سائر بلاد المسلمين، وعاد إلى الأذهان يوم سقوط طليطلة[3].

وكان الأمير يوسف بن تاشفين يراقب الأوضاع عن كثب، فلم يهدأ له بال حتَّى أنفذ جيشًا بقيادة ابن أخيه محمَّد بن تاشفين لاسترجاع بلنسيَّة وتخليصها من يد السيد القمبيطور واتجه هذا الجيش صوب مرسيَّة التي وصلها في شهر شعبان سنة 487هـ/1094م، و وصلت

1- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، 126/2. (يذكر المؤرِّخون بأنَّ سبب إحراق القاضي ابن جحاف يرجع إلى قيامه بإخفاء بعض الذَّخائر التي كانت للقادر بن ذي النُّون، وكان قد أقسم أنَّها ليست عنده، وعندما وجدها السيد القمبيطور عنده انتقم منه بإحراقه، وكان يريد إحراق أهله وأبنائه أيضًا، فضج لذلك المسلمون والرُّوم معاً، وتضرعوا إليه بأن يتركهم إذ لا ذنب لهم، فأسعفهم بعد جهدٍ شديدٍ. (انظر: ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، تحقيق إحسان عبَّاس، مج$_1$، القسم الثَّالث، ص98-99 ؛ المقرِّي، **نفح الطِّيب**، ج$_4$، ص455).

2- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص309. (عن عمليَّة إحراق القاضي ابن جحاف ومأساته المؤثرة). (انظر: ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، تحقيق إحسان عبَّاس، مج$_1$، القسم الثَّالث، ص99 ؛ ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج$_2$، ص126).

3- وفي حال بلنسيَّة الذي يبعث الحزن والأسى يقول أبو إسحاق ابن خفاجة في ديوانه:

عَاثَتْ بِسَاحَتِكَ العِدَا يا دَارُ ومَحَا محَاسِنَكِ البَلَى والنَّارُ

فإذا تردَّدَ في جَنَابِكِ نَاظِرٌ طَالَ اعتِبَار فِيكِ واسْتِعْبَارُ

أرضٌ تَقَاذَفَت الخُطوبُ بأهلِهَا وتَمَخَضَتْ بِخَرَابِهَا الأَقْدَارُ

كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثَانِ في عَرَصَاتِهَا لا أنتِ أنتِ ولا الدِيَارُ دِيَارُ

(انظر: ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، تحقيق إحسان عبَّاس، مج$_1$، القسم الثَّالث، ص100 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص97؛ المقرِّي، **نفح الطِّيب**، مج$_4$، 455).

أنباء قدوم الجيش المرابطيّ إلى الرُّوم، فشدَّدوا الخناق على أهل بلنسيَّة حيث كانوا يهدِّدونهم بالقتل إن وُجد عند أحدهم آلات الحديد[1].

اقترب جيش المرابطين شيئًا فشيئًا من مدينة بلنسيَّة وفي شهر رمضان سنة 487هـ/أكتوبر 1094م انضمَّ إلى جيش محمَّد بن تاشفين قوَّات أندلسيَّة من لاردة[2] بقيادة صاحبها تأيِّيد الدَّولة، ومن طرطوشة بقيادة سيِّد الدَّولة، ومن شنتمريَّة الشرق[3] بقيادة حسام الدَّولة، ومن البونت[4] بقيادة نظام الدَّولة[5]، كما انضمَّت قوَّات أخرى من باقي مناطق الأندلس، وشرعت هذه القوَّات في الهجوم على بلنسيَّة ولكنها صمدت أمام ضرباتهم لشدَّة مناعتها، فضرب محمَّد بن تاشفين عليها الحصار، و لم تمض أيَّام حتَّى خرج السيد القمبيطور

1- يُشير ابن عِذارى إلى أنَّ النَّاس تخلَّصت حتَّى من الإبر والمسامير، ووضعوها في باب القصر، كي يسلموا من بطش جُنود "السيد القمبيطور" ولا يُتَّهموا باستخدام هذه الأدوات في صنع الأسلحة. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص40).

2- مدينة قديمة بشرق الأندلس بُنيت على نهر كبير يخرج من أرض جلِّيقيَّة يُسمى شيقر، تقع شرق مدينة وشقة وتبعد عنها بسبعين ميلًا، وهي مدينة خصيبة لها بساتين وفواكه كثيرة، ولها أسوار منيعة ويُنسب إلى كورتها عدَّة مدن وحصون. (انظر: الإدريسي، **القَّارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص278-279 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج5، ص7 ؛ الحِميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص168).

3- (Santa Maria de Albarracin) مدينة بشرق الأندلس تقع قرب أحد فروع نهر إيبرو (Ebro) من الجهة الغربيَّة منه، وعلى الشرق من طليطلة، وهي أول حصون مدينة بنبلونة وأتقنها بنيانًا وأعلاها سموكًا. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص69 هامش2 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص347) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

4- هي مدينة الفنت التي يسميها الأسبان البونت (Alpuente) وهي من أعمال بلنسيَّة على مرحلتان من شنتمرية الشرق، يخرج نهر تاجة من ناحية الجبال المتصلة بها، وهي مدينة جليلة عامرة بها أسواق قائمة وعمارات متصلة دائمة، وفواكه عامة، استوطنها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أسرة بنو قطن (القواطم). (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص276-277 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص115 ؛ محمود شيت خطَّاب، **قادة فتح الأندلس**، مج1، ص91) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

5- يعلِّق ابن عذارى على هذه الألقاب التي اتخذها هؤلاء الأمراء قائلًا "وكانت أفعالهم ضدَّ ألقابهم". (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص40).

بقوَّاته على حين غفلة وفاجأ المعسكر الإسلاميّ فأوقع فيه الاضطراب والذُّعر وتمكَّن من نهب مَحلته وقتل عدد كبير من المسلمين، ثمَّ عاد وتحصَّن داخل المدينة[1].

واستمرَّ حصار المسلمين لبلنسيَّة وتجدَّدت المعارك بين المرابطين والقشتاليّين في أحوازها فكلمَّا انتهت معركة بدأت أخرى، وكان هذا دأبهم لمدَّة طويلة، وقد تلقَّى السيد القمبيطور ضربة موجعة إثر مقتل ابنه الوحيد دييغو (Diego)[2] في معركة كنشرة (Consugra) سنة 490هـ/1097م، وقد نشبت هذه المعركة بين الجيش المرابطيّ بقيادة محمَّد بن الحاج وقوَّات ألفونسو السَّادس التي تلقَّت هزيمة قاسية ارتدَّت على إثرها إلى مدينة طليطلة التي حاصرها المرابطون أيامًا عدَّة، ثمَّ انصرفوا عنها، وسُرَّ الأمير يوسف بن تاشفين بهذا النَّصر[3].

كما هُزم في نفس الوقت ألبرهانس عند أحواز مدينة قونكة[4]، وأوقع ابن عائشة بفرقة من جيش السيد القمبيطور عند جزيرة شقر[5]، فاستطاع المرابطون طوال هذه الفترة أن يحدُّوا من

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص40 .

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص108، هامش1 .

3- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص108 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص187 ؛ أحمد مختار العبادي: **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، ط1، منشأة المعارف الإسكندرية، 2000م، ص110 .

4- سماها الحموي قونكة، والإدريسي كونكة، ووردت في بعض المراجع الحديثة باسم قونقة، وهي مدينة صغيرة قديمة (أزلية) بشرق الأندلس، تقع شمال شرق أُقليش، وجنوب شنتمريَّة الشرق وشمال غرب بلنسيَّة، منها إلى مدينة جنجالة مسيرة يومين ومنها إلى حصن قلصة ثلاث مراحل شرقًا، وإلى مدينة وبذة خمسة وثلاثون مرحلة. (انظر: الإدريسي، **القَّارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص286-287؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج4، ص415 ؛ المقريزيّ، **جَنى الأزهار من الرَّوض المعطار**، تقديم وتحقيق وتعليق محمَّد زينهم، ط1، الدار الثقافيَّة للنَّشر، القاهرة، 1426هـ/2006م، ص119)؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

5- تقع شرق الأندلس على نهر شقر، تبعد عن بلنسيَّة ثمانية عشر ميلًا وعن شاطبة اثنا عشر ميلًا، وهي حسنة البِقاع كثيرة الأشجار والثمار والأنهار، وبها مساجد وفنادق وأسواق، والمدينة تسمى اليوم (Alcira). (انظر: الإدريسي، **القَّارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص281 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج3، ص354.

نشاطه في أحواز بلنسية، واستمرَّت أحوال بلنسيَّة وشرق الأندلس على هذه الحال إلى غاية وفاة السيد القمبيطور عام 492هـ/1099م[1]، فقامت زوجته شيمان بالدِّفاع عن المدينة واستطاعت أن تصمد فيها أمام هجمات المرابطين زهاء عامين آخرين[2]. ولمَّا عظم الخطب ببلنسيَّة استنجد النَّصارى بألفونسو السَّادس، الذي جاء لنجدتهم وأقام في المدينة شهراً وأنصاره يُهوِّنون عليه أمر قدوم المرابطين[3].

وكان الأمير يوسف بن تاشفين قد جهز جيشًا بقيادة الأمير مَزْدَلي[4]، وبعثه لاسترجاع بلنسيَّة من أيدي النَّصارى[5]، فنزل القائد المرابطيّ قرب المدينة وأخذ يعدُّ العُدَّة للهجوم عليها، وفي تلك الأثناء خرج ألفونسو السَّادس من بلنسيَّة واتَّجه نحو قليبيرة[6] وعاث في أحوازها، فتجهزَّ الأمير مزدلي لمواجهته، و التقى الجيشان ودارت بينهما معركة طاحنة عامَّة النَّهار، وعند المغرب

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص115 .

2- عنان، **دول الطَّوائف**، ص248 .

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص42 .

4- هو الأمير أبو محمَّد مَزْدَلي بن سلنكان حسب ما يذكره صاحب مفاخر البربر، وهو مَزْدَلي بن بوبلنكان بن حسن بن محمَّد بن تورجوت حسب ابن عذارى، ويذكره ابن الخطيب باسم مَزْدَلي بن تيولِتكان بن حمنى بن محمَّد بن ترقوت الصَّنهاجي اللَّمتوني، وهو ابن عم الأمير يوسف بن تاشفين، وأحد كبار قادته، كان بطلًا ثبتًا ومقدامًا، من مناقبه استرجاع بلنسية من أيدي الرُّوم سنة 495هـ/1102م، تولى تلمسان سنة 497هـ/1103م، وفي سنة 505هـ/(1111-1112)م عُيِّن على مختلف مناصب القيادة والولاية في قرطبة وغرناطة والمرية، قاد غزوات عديدة على طليطلة وضواحيها استشهد في إحداها يوم 17 شوال سنة 508هـ/15 مارس 1115م. (انظر: مجهول، **مفاخر البربر**، ص189 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص60 ؛ **الإحاطة**، مج3، ص274- 275 ؛ ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص74).

5- ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، تحقيق إحسان عبَّاس، مج1، القسم الثَّالث، ص101 .

6- مدينة تقع جنوب بلنسيَّة بها ميناء صغير، ولها حصن منيع على موقع نهر شقر والبحر يحدق به، منه إلى بلنسيَّة خمسة وعشرون ميلًا ومنه إلى مدينة دانية أربعون ميلًا. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص281-282).

أخذ ألفونسو في الانسحاب نحو بلنسيَّة بعد أن رأى صرامة وقوَّة وعزم الجيش المرابطيّ على تحقيق النَّصر، وأدرك عدم جدوى المقاومة فقام بإخلاء المدينة من جميع الرُّوم، وأضرم النَّار في الجامع والقصر وبعض الدُور[1]، ودخل الأمير مَزْدَلي بلنسيَّة في شهر رمضان سنة 495هـ/ماي 1102م[2] وعاد بذلك الثَّغر العظيم إلى حظيرة الإسلام، وعاد السِّلم يُخيِّم على تلك الربوع وانهار باختفاء السيد القمبيطور أكبر عامل في بثِّ الروع والاضطراب في شرق الأندلس[3]. وبالاستيلاء على بلنسيَّة انتظم أمر الأندلس جميعًا وأصبح في يد المرابطين، ولم يبق خارج سلطة الأمير يوسف بن تاشفين غير إمارة سرقسطة التي يحكمها المستعين بالله الثَّاني أحمد بن هود[4].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص42 .

2- ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، تحقيق إحسان عبَّاس، مج1، القسم الثَّالث، ص101. (لكن ابن عذارى يذكر أنَّ استرداد المرابطون لمدينة بلنسيَّة كان في شهر رجب سنة 495هـ/1102م). (انظر: **البيان المغرب**، 42/4).

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص248 .

4- نشير إلى أنَّ علاقة أمير سرقسطة المستعين بالله الثَّاني بن هود وأمير المرابطين يوسف بن تاشفين كانت في أغلب الأحيان علاقة جيدة، والأدلة على ذلك كثيرة منها اعتذار المستعين عن عدم مشاركته في معركة الزَّلاقة وقبول الأمير يوسف اعتذاره، بالإضافة إلى مسارعة المستعين للاتِّصال به وإعلان الهدنة معه عندما كان السيد يحاصر بلنسيَّة في حدود سنة 486هـ/1093م، حيث بعث إليه هديةً جليلة، وكتابًا برئاسة ابنه عماد الدَّولة أبي مروان عبد الملك إلى مُرَّاكش، قال له فيه "نحن بينكم وبين العدوِّ سدٌ لا يصل إليكم منه ضرر، منا عين تطرق، وقد قنعنا بمسالمتكم، فاقنعوا منا بها، إلى ما نُعينكم به من نفيس الذخائر". وعندما وصل عماد الدَّولة ومرافقيه إلى مُرَّاكش استقبلهم الأمير يوسف وأكرمهم غاية الإكرام، ومن جهته ردَّ الأمير يوسف برسالة إلى المستعين يعلن فيها موافقته على عقد السِّلم معه، ويحثه على التَّمسُّك بوحدة الصَّف لأجل ردِّ المسيحيِّين على أعقابهم، كما أنَّ الأمير يوسف حسب ما يذكر ابن عذارى أرسل القائد أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن فاطمة بجيش كثيف من ألف وخمسمائة فارس لحماية مدينة سرقسطة وأحوازها من تحرُّشات النَّصارى، بينما يرى كلٌ من أشباخ وعنان أنَّه أرسل ألف فارس وستة آلاف راجل. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص74-75 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص42 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة** ، ص173-174 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 109/1 ؛ **دول الطَّوائف**، ص288 ؛ سعدون عبَّاس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**، ص143 وما بعدها). (عن نص رسالة الأمير يوسف إلى المستعين بن هود والتي يحثه فيها على التَّمسك بوحدة الصَّف لرد عدوان النَّصارى). (انظر: مجهول، **الحُلل الموشيَّة**، ص75).

رابعًا– العبور الرَّابع وتنظيم شؤون الأندلس:

1– ظروف وأسباب العبور الرَّابع:

بعد أن تمكَّن المرابطون من القضاء على السيد القمبيطور والاستيلاء على بلنسيَّة وأحوازها، أصبحت بلاد الأندلس بأسرها تحت لواء واحد هو لواء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[1]، هذا الأخير أدرك يقينًا أنَّ هذه البلاد واسعة الأرجاء بحاجة إلى من يدير شؤونها أحسن إدارة لأنَّها مازالت في حالة غير مستقرّة، حيث لم تأفل بعد مخلَّفات زوال حكم أمراء الطَّوائف، وكذلك لتربص العدوِّ النَّصرانيّ بها، ولأجل ذلك، قرَّر الأمير يوسف العبور إلى الأندلس للمرَّة الرَّابعة والأخيرة سنة 496هـ/1103م[2]، كما أنَّه أراد بعبوره هذا، أن يضع أسسًا ثابتة لدولته الجديدة التي جمعت بين المغرب والأندلس[3].

1– رغم أنَّ إمارة سرقسطة لم يستولى عليها المرابطون إلَّا أنَّ أميرها المستعين بالله الثَّاني كان على وفاق مع الأمير يوسف ومتحالفًا معه، وكان يهدد به النَّصارى فيما لو حدثتهم أنفسهم بمهاجمة حدوده. (انظر: ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة**، ص173 ؛ سعدون عبَّاس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**، ص145).

2– يتفق أغلب المؤرخين بأنَّ العبور الرابع للأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس كان سنة 496هـ/1103م، بينما يرى ابن خلدون بأنَّه كان سنة 497هـ/1104م؛ وأرى بأنَّ الرأي الأوَّل هو الأقرب إلى الحقيقة وهذا بالنَّظر إلى صيرورة الأحداث أثناء تلك الفترة، حيث تذكر أغلب المصادر أنَّ الأمير يوسف أخذ البيعة لولده عليّ في قرطبة في شهر ذي الحجة سنة 496هـ/1103م. (انظر: مجهول، **الحُلل الموشيَّة**، ص77 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص156 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص521 ؛ **العِبر**، ج6، ص188).

3– حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص321 .

ويذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ الأمير يوسف عبر إلى الأندلس برسم التَّجول فيها والنَّظر في مصالحها[1]، وقد اصطحب معه ابنيه الأميرين أبي الطاهر تميم[2] وأبي الحسن عليّ[3] ولمّا جال في بلادها وتطوَّف في أقطارها شبهها بِعُقَابٍ رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رباح وصدره جيَّان ومخالبه غرناطة وجناحه الأيمن بلاد الغرب وجناحه الأيسر بلاد الشَّرق[4].

وبعد أن وقف الأمير يوسف على حسن سير الإدارة في الولايات وشكر القادة والوُلّاة على حرصهم في تنفيذ أوامره[5]، قصد إلى قرطبة لينجز المهمَّة التي قدِّم في الواقع من أجلها إلى الأندلس وهي أخذ البيعة لولده أبي الحسن عليّ[6].

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص77 .

2- هو أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، تولى حكم غرناطة بين سنتي 500هـ-503هـ/1106-1109م، ثمَّ نُقل إلى حكم تلمسان سنة 504هـ/1110م، ثمَّ تولى مرةً أخرى غرناطة فيما بين سنتي 515-516هـ/1121-1122م، وبعدها نُقل إلى إشبيلية فحكمها سنة وبضعة شهور، ثمَّ أصبح عاملًا على قرطبة وغرناطة سنة 519هـ/1125م ويبدو أنَّ أخاه عليًا قد عزله عن غرناطة بعد ذلك بقليل، وفي تاريخ وفاته خلاف والأرجح أنَّه توفي سنة 520هـ/1126م. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص114 هامش1 ؛ ابن القطان، **نُظم الجمان** ج6، ص65-66، هامش5 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص48 وما بعدها ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164).

3- هو عليّ بن يوسف بن تاشفين اللَّمتوني ولد سنة 477هـ/1084م يُكنى بأبي الحسن، تولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه سنَّة 500هـ/1106م وعمره ثلاثة وعشرون سنَّة، وكان ملكًا، فاضلًا، كريمًا سلك طريقة أبيه في أموره كلها فتح فتوحًا عظيمة في المغرب والأندلس، واستمر على ذلك إلى غاية وفاته سنَّة 537هـ/1143م. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، 48/4 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص84 ؛ الزِّركلي، **الأعلام**، مج5، ج5، ص33).

Jean Bringnon est autre, **op.cit**, p 91-92.

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص77-78. (عن حدود دولة المرابطين في الأندلس). (انظر: **خريطة رقم3**، ص434).

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص117 .

6- عنان، **دول الطَّوائف**، ص372. (يذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ الأمير يوسف اصطحب ولده علي إلى الأندلس وولاه أمر المرابطين من بعده في مدينة قرطبة، بينما يذكر ابن أبي زرع بأنَّه لم يصطحبه معه لأنَّه تركه بمدينة سبتة بالمغرب =

2- مبايعة علي بالإمارة:

جمع الأمير يوسف جميع أمراء لمتونة، وأشياخ البلاد وفقهاءها، ورؤساء الأندلس[1] في مدينة قرطبة[2]، وأخذ البيعة منهم جميعًا لولده عليّ[3]، وذلك في شهر ذي الحجَّة سنة 496هـ/سبتمبر 1103م[4]، وأمر كل هؤلاء المجتمعين بأن يؤدُّوا إليه يمين الولاء والطَّاعة باعتباره أميرًا لهم مستقبلًا [5].

= ويرجح بأنَّ يكون الرأي الأوَّل هو الصَّحيح لأنَّ أمر أخذ البيعة أمر مهم جدًا فمن الضروري أن يحضر صاحب الشأن لكي يراه النَّاس ويبايعوه). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص77 ؛ **روض القرطاس**، ص156).

1- وقد حضر البيعة من بين أمراء الأندلس عماد الدَّولة عبد الملك بن المستعين بالله الثَّاني أحمد بن هود صاحب سرقسطة، وأحضر معه هديَّةً جليلةً أرسلها والده المستعين للأمير يوسف تتمثل في أربعة عشر ربعًا من آنية الفضَّة مطرَّزة باسم جدِّه المقتدر بالله، فقبلها يوسف وأمر بضربها قراريط مرابطيَّة وفرقها ليلة عيد النحر من تلك السنة في رؤساء قومه. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص248-249 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص43 ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة**، ص**174**).

2- ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص249 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص521 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص156 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص42- 43). (يذكر المؤرخ سعدون عبَّاس نصر الله أنَّ الأمير يوسف فضَّل مدينة قرطبة على غيرها من مدن الأندلس لعقد هذا الأمر الهام لكونها عاصمة الخلافة القديمة، ولأنَّ لها قُدسية واحترام في نفوس المسلمين). (انظر: **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**، ص147).

3- أورد صاحب الحُلل الموشيَّة نص ولاية العهد وقال بأنَّ كاتبه هو الوزير الفقيه أبو محمَّد بن عبد الغفور، وأورد أيضًا ابن الخطيب هذا النَّص بصيغة مختلفة تمامًا عن ما جاء في الحُلل الموشيَّة، وقال أنَّ كاتبه هو الوزير أبو بكر بن القصيرة، ويتفق معه ابن عذارى في الرأي، وأشاطرهما الرأي على اعتبار أنَّ أبو بكر بن القصيرة يُعد من أشهر كتاب الأمير يوسف بشهادة أغلب المؤرخين، حيث وصفوه بأنَّه كان كاتبًا مجيدًا، بارع الخطِّ، اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم، أمَّا الوزير الفقيه أبو محمَّد بن عبد الغفور فلم أعثر على ترجمة له إلَّا عند ابن خاقان الذي لم يشر إلى أنَّه كتب للأمير يوسف بن تاشفين. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص78 وما بعدها ؛ **الإحاطة**، مج2، ص518 وما بعدها ؛ **البيان المغرب**، 43/4 ؛ **قلائد العقيان**، ص182 وما بعدها).

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص156 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص521 .

5- يذكر ابن الخطيب أنَّ كل الحاضرين لعقد البيعة بايعوا الأمير عليّ بالسَّمع والطَّاعة، والتزام سُنن الجماعة، وبذل النَّصيحة جُهد الاستطاعة، ومُناصفة من يناصفه، وبمحاربة من يحاربه. (انظر: **الإحاطة**، مج2، ص520).

وكان يوسف قد آثر ولده عليًا بولاية العهد لِما آنسه فيه من الورع والنَّباهة والحزم[1] ولكونه أكثر أهليَّة للاضطلاع بجليل الأمور وخطيرها ورآه أكثر اقتدارًا على تلقي أعباء الحُكم[2]، ولكن ألزمه من أجل تقديمه لولاية العهد مجموعة من الشروط من أهمُّها ترتيب سبعة عشر ألف فارس موزعة على قواعد الأندلس، يكون منها بإشبيليَّة سبعة آلاف فارس، وبقرطبة ألف فارس، وبغرناطة ألف فارس، وأربعة آلاف فارس في شرق الأندلس، وباقي العدد يوزع على ثغور المسلمين للمرابطة في الحصون المجاورة للعدوِّ[3].

كما أنفذ الأمير يوسف قبل وفاته وصية لولده عليّ بها ثلاثة بنود، الأوَّل أن لا يُهيِّج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة[4]، والثَّاني أن يهادن بني هود أمراء سرقسطة

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص372. (يذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ أبا الحسن عليّ كان أصغر إخوته سنًا، إلَّا أنَّ أباه الأمير يوسف آثره بولاية عهده، وهذا لأنَّه يتقد ذكاءً ونُبلًا، وقد قال فيه أحد الشُّعراء الأندلسيِّين كلامًا نبه فيه عن مجده وشرفه:

وإنْ كانَ في الأَسْنَانِ يُحْسَبُ ثانيًا ... عليٌّ فَفِي العَلْيَاءِ يُحْسَبُ أولاَ

كَذَلِكُمُ الأَيْدِي سَوَاء بَنَانِهَا ... وتختصُ فِيهِنَ الخَنَاصِرُ بالحُلاَ

(انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص77-78).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص118 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص80. (ويظهر جليًا أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين كان مهتمًا كثيرًا بحماية الثُّغور، وجهاد العدوِّ النَّصراني وإيقاف زحفه على بلاد الأندلس، لهذا أنفذ فرض هذا الشَّرط الهام لولده عليّ المتمثل في إعداد جيش ضخم بالأندلس وتوزيعه للمرابطة على الثُّغور في جميع أنحاء الأندلس).

4- أهل القبلة أي أهل جنوب الغرب وهو اصطلاح شامي جُلب إلى المغرب وطُبِّق فيه، ذلك أنَّ قبلة أهل الشام إلى الجنوب. (انظر: **الحُلل الموشية**، ص83، هامش 72).

وأن يجعلهم حائلًا بينه وبين النَّصارى[1]، والثَّالث أن يقبل من مُحسن أهل قرطبة ويتجاوز عن مُسيئهم[2].

وأصدر الأمير يوسف أوامره بأن يُنقش اسم ولي عهده إلى جانب اسمه على السِّكة فصدرت النُّقود تحمل في إحدى وجهيها "لا إله إلا الله، الأمير عليّ بن الأمير يوسف بن تاشفين" وظلَّ اسمه يُكتب على السِّكة إلى جانب اسم أبيه من سنة 497هـ/1104م إلى سنة 500هـ/1106م[3]، وكذلك أمر بالدَّعوة له على المنابر في خطب الجمعة[4].

3- معارك العبور الرَّابع:

عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من أجل تنظيم أمور الحكم، وتفقّد أحوال البلاد والعباد، و عقد البيعة لولده عليّ[5]، و لكنَّه لم ينس المهمَّة السامية التي كان دائمًا يحرص على القيام بها، ألا و هي حرب العدوِّ النَّصراني و إيقاف تهديده لبلاد المسلمين، فاتخذَّ

1- يُشير ابن الأثير إلى أنَّ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قال لولده عليّ بشأن بني هود "أتركهم بينك وبين العدوّ فإنَّهم شُجعان". (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص119).

2- **الحُلل الموشيَّة**، ص82-83. (ويقول المؤرخ أشباخ في هذا الشَّأن أنَّ الأمير يوسف أوصى ولده عليّ بمعاملة أهل قرطبة باللِّين والرِّفق، لكونهم معروفين بالكِبر وحب الشغب). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 119/1).

3- حسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، ص 346-347 .

4- إبراهيم حركات: **النِّظام السِّياسيّ والحربيّ في عهد المرابطين**، منشورات مكتبة الوحدة العربيَّة، الدار البيضاء، د.ت، ص81 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص156 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص518 .

جوازه هذه المرّة أيضًا طابع الجهاد[1]، فكان حريصًا أشدَّ الحرص على تجهيز الجيوش للمرابطة على الثُّغور مع العدوِّ، ومطاردة فُلوله المرتدَّة إلى معاقلها وحصونها في طليطلة وأحوازها[2].

فقد جهَّز الأمير يوسف بعد ضمِّ بلنسيَّة جيشًا اتجه نحو الحصون الواقعة شرق الأندلس، فاستولوا على مُربيطر[3]، المنارة، السَّهلة وسقطت البونت في أيديهم عام 496هـ/1103م[4].

وتابع المرابطون تقدمهم نحو الشَّمال واستولوا على مدينة شنتمريَّة الشرق في الثَّامن رجب 497هـ الموافق للخامس أفريل 1104م إثر وفاة أميرها عبد الملك بن رزين[5]، الذي أعلن قبل وفاته طاعته للأمير يوسف، ولكنَّ المرابطين خلعوا ابنه يحيى الذي خلفه في الحكم وضمُّوا شنتمريَّة الشرق لملكهم[6].

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص371 .

2- أشرنا سابقًا إلى أنَّ الأمير يوسف اشترط على ولده عليّ ترتيب جيش قوامه سبعة عشر ألف فارس وتوزيعه على مختلف مناطق وأقطار بلاد الأندلس لحراسة الثُّغور. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص80).

3- مدينة بالأندلس قريبة من طُرطوشة لها حصن على جبل والبحر بقبليّه ويظهر منه شرقاً وغرباً، بينها وبين بلنسيَّة أربعة فراسخ، ومنها إلى أول قرى بريانة تسعة عشر ميلًا ونصف ميل، وهي كثيرة الزيتون والشجر والأعناب وأصناف الثمار. (انظر: الحموي، **معجم البلدان**، مج5، ص99 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص540).

4- عنان، **دول الطَّوائف**، ص262 .

5- هو عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ذو الرِّياستين حسام الدَّولة، بربري الأصل، خلف أباه في حكم شنتمرية يوم وفاته سنة 436هـ/1044م، وطالت أيامه حيث استمرَّ في الحُكم إلى غاية وفاته سنة 497هـ/1104م. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص43 ؛ الزِّركلي، **الأعلام**، مج4، ج4، ص165-166).

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، 43/4 .

كما بعث الأمير يوسف سنة 497هـ/1104م أيضًا واليه في غرناطة القائد عليّ بن الحاج على رأس جيش إلى شرق الأندلس، فوصل الجيش في شهر صفر وأقام هناك يحرس ثغور المدينة وحصونها إلى غاية شهر رمضان حين سمع بخبر إغارة ألفونسو السَّادس على مدينة سالم[1]، فتوجَّه إليها بجيش كثيف وفي طريقه التقى بقلعة أيُّوب[2] بالقائد الأعلى أبي محمَّد عبد الله بن محمَّد بن فاطمة[3]، فقرَّر القائدان مُتابعة العدوّ نحو طليطلة لاستئصال شوكته، وفي الطَّريق حدثت معارك كثيرة بين الجيشين المرابطيّ والقشتاليّ خاصةً في مدينة طَلَبِيرَة[4] انتهت

1- مدينة بشرق الأندلس في الشمال الغربي من طليطلة، جليلة في وطاء من الأرض، كبيرة القُطر، كثيرة العمارات والبساتين والجنَّات، تبعد عن شنتمرية الشرق بأربع مراحل وعن مدينتي وادي الحجارة وقلعة أيُّوب بخمسين ميلًا شرقًا. (انظر: الإدريسي، **القَّارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص277 ؛ الحِميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص193) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

2- مدينة عظيمة من أعمال سرقسطة في الجنوب الشرقي منها، جليلة القدر، رائقة البُقعة، حصينة وشديدة المنعة، بهية الأقطار، كثيرة الأشجار والثمار، رخيصة الأسعار، لها عدَّة حصون وهي قريبة من مدينة لبلة، ومنها إلى مدينة سالم خمسون ميلًا شرقًا وإلى مدينة دَرُوقة جهة الجنوب ثمانية عشر ميلًا. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص127 هامش1 ؛ الإدريسي، **القَّارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص277 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج4، ص390 ؛ الحِميري، **صفة جزيرة الأندلس**، ص163) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

3- هو أحد مشاهير قادة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي، يُعرف في المصادر التَّاريخيَّة بابن فاطمة، ورد اسمه الكامل بصيغ مختلفة منها محمَّد بن فاطمة وأبا محمَّد بن فاطمة وأبو عبد الله محمَّد بن فاطمة، وأحيانًا يسمى عبد الله بن محمَّد بن فاطمة، وتذكره أغلب المراجع الحديثة باسم محمَّد بن فاطمة، والأرجح أنَّ اسمه الصحيح حسب المؤرخ محمود علي مكي هو أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن فاطمة، شارك في معارك عديدة بالأندلس ضدَّ النَّصارى، وتولى أمر بعض مدنه المشهورة مثل بلنسيَّة سنة 497هـ/1104م، ثم غرناطة سنة 1109/503م، ثمَّ انتقل بعد ذلك إلى فاس بالمغرب عاملًا عليها سنة 504هـ/1110م، وفي سنة 509هـ/1115م عاد إلى الأندلس عاملاً على إشبيليَّة فحكمها حتَّى توفي في رمضان سنة 511هـ/جانفي 1118م. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص112 هامش2 ؛ ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص65 هامش3 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160 ؛ **مفاخر البربر**، ص190 ؛ محمود علي مكي: **وثائق تاريخيَّة جديدة عن عصر المرابطين**، ط1، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة، 2004م، ص46 وما بعدها).

4- المقصود هنا طَلَبِيرَة دي لارينة (Talavera de la Reina) وهي مدينة كبيرة من أعمال طليطلة تقع في جهتها الغربية وعلى سبعين ميلًا منها، وهي على ضفة نهر تاجة في أقصى ثغور المسلمين وقد كانت حاجزًا بينهم وبين الإفرنج، وهي قديمة الآثار، قلعتها أرفع القلاع حصنًا و مدينتها أشرف البلاد حُسنًا، مزارعها زكية، بها أسواق جميلة الترتيب حسنة =

إحدى هذه المعارك بين الفريقين بوفاة قائد غرناطة الأمير عليّ بن الحاج[1]، فانفضّ اللِّقاء بين الفريقين وعاد جيش المرابطين إلى معاقله، وقد استطاع هذا الجيش رغم وفاة قائده من تهديد طليطلة ونشر الرُّعب في صفوف النَّصارى[2].

وفي أواخر عام 498هـ/1104م، انتشر خبر مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في كامل بلاد الأندلس، فانتهز ألفونسو السَّادس الفرصة للزَّحف من جديد على بلاد الأندلس[3] حيث جهَّز جيشًا في زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس، فتوغَّلوا في منطقة إشبيليَّة حتَّى وصلوا إلى موضع يعرف بمقاطع، فغنموا من تلك القرى الغنائم الموفورة والأسلاب الكثيرة ولكنَّ الأمير سِير بن أبي بكر كان يراقب الأوضاع عن كثب، حيث تحصَّن في أحد الحصون هناك حتَّى وصلته الإمدادات من غرناطة بقيادة ابن الحاج، فخاض جنوده معركة مع جيش ألفونسو السَّادس وألحقوا به هزيمة نكراء، وكادوا يُبيدون جميع فلول جيشه، حيث قُتل منهم ألفٌ وخمسمائة فارس وعاد البقية مهزومين إلى بلادهم[4].

= التركيب. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هناك مدينتين في الأندلس تحملان أيضًا اسم طَلَبِيرَة إحداهما قرية إلى الجنوب من طَلَبِيرَة دي لارينة يقال لها طَلَبِيرَة المرج (Talavera la Vega) والثَّانية قرية بالقرب من بطليوس بغرب الأندلس على ضفة وادي آنه. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص89 ؛ الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص274-275 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، مج4، ص37 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص254 هامش1) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم3**، ص434).

1- يذكر ابن عذارى أنَّ الأمير عليّ بن الحاج وُجد ميتًا بكامل سلاحه ودرعه لا أثر عليه لضربة واحدة، وقد دفن في تطيلة مدينة الثَّغر الأعلى. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص44).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، 44/4 ؛ سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، ج4، ص368 .

3- يُشير ابن عذارى إلى أنَّ ألفونسو السَّادس كان يعتقد أثناء مرض الأمير يوسف بأنَّ بلاد المسلمين قد اضطربت أحوالها وخلت من الرِّجال ومن الحُماة وذوي النَّجدة. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص44).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص44-45 .

وخلاصة هذا الفصل نقول بأنَّ أهل الأندلس سارعوا للاستنجاد بالمرابطين في بلاد المغرب، لمَّا تأكدوا أنَّهم غير قادرين على إيقاف زحف المسيحيِّين لوحدهم، وعلَّقوا على هؤلاء المرابطين الآمال لتخليصهم من تهديد وعدوان النَّصارى الذي ازداد شدَّةً بعد سقوط مدينة طليطلة، حيث أنذر بسقوط كافة بلاد الأندلس، ولم يُخيِّب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين آمال أهل الأندلس، فسارع بدوره لتلبية نداء الاستغاثة الذي جاءه من الفقهاء والأمراء على السواء، وعبر إلى بلاد الأندلس وأعد العُدة والعتاد لملاقاة العدوِّ للفتك به، وكان له ذلك حين التقى مع جيوش ملك قشتالة ألفونسو السَّادس في سهل الزَّلاقة قرب بطليوس يوم الجمعة الثَّاني عشر رجب سنة 479هـ/23 أكتوبر 1086م، وحدثت هناك معركة طاحنة أبلى فيها الأمير يوسف البلاء الحسن وأسفرت عن انتصار باهر للمسلمين، وقد طُعن ملك قشتالة بخنجر في فخذه طعنة نافذة، فرَّ على إثرها هاربًا منهزمًا مثخنًا بالجراح مع قلة من فرسانه عددهم حوالي خمسة مائة فارس، واعتصموا بِتلٍ قريب حتَّى دخل الليل وانسلوا إلى مدينة قورية ومنها اتجهوا إلى طليطلة، ودخلها ألفونسو بمائة فارس بعد أن مات الباقون في الطَّريق. وقد استولى المسلمون على الكثير من الغنائم المتمثلة في الأموال والأسلحة والدواب وغير ذلك.

وترتب عن نصر الزَّلاقة نتائج مهمة بالنِّسبة للمسلمين أهمها عودة الثقة والأمل إلى نفوس أمراء الطَّوائف، وتحررهم من الخضوع لملك قشتالة، وتوقفهم عن دفع الإتاوة والتنازل له عن الكثير من الأراضي والحصون، كما عادت روح الحماسة الدِّينية لأهل الأندلس، وفرحوا كثيرا بهذا النَّصر واستعادوا به أمجاد وبطولات أسلافهم. وترتب عن هذا النَّصر أيضًا فك الحصار عن الكثير من مدن شرق الأندلس كبلنسيَّة وسرقسطة حيث تفرغت جيوش النَّصارى واستنفرت كامل قوَّاتها لمعركة الزَّلاقة غرب الأندلس. غير أنَّ هذه النتائج الخاصة لا تُعد شيئًا إذا قيست بالنتائج العامَّة البعيدة المدى المتمثلة في إيقاف زحف النَّصارى الجارف على الأندلس المسلمة، بعد أن كان يُنذرها بالمحوِّ والفناء العاجل وغنم الإسلام بذلك حياة جديدة في بلاد

الأندلس. وقد ورفع النَّاس من قدر الأمير يوسف بن تاشفين لكونه صانع هذه الملحمَّة المظفرة واعتبروه حامي عُرى الدِّين في ذلك الزمان.

ولأجل ذلك أعاد أهل جزيرة الأندلس استدعاءه لنصرتهم مرةً ثانيةً، حينما تجددت اعتداءات المسيحيِّين عليهم جهة شرق الأندلس، حيث يتواجد حصن لييط المدجَّج بالجنود القشتاليِّين الذين كانوا يعتدون على مناطق مرسيَّة، لورقة، وبلنسيَّة وألحقوا أضرارًا بليغة على أهل هذه الجهات وكعادته هبَّ الأمير يوسف بن تاشفين بعد أن جاءه المعتمد بن عبَّاد بنفسه وكذلك جماعة من الفقهاء يستنصرونه، وعبر إلى الأندلس سنة 481هـ/1088م وشكَّل تحالفًا مع القوى الأندلسيَّة، وقاموا بحصار حصن لييط لمدة أربعة أشهر لمحاولة فتحه، ولكنهم لم يقدروا عليه لاستبسال جنود النَّصارى في الدِّفاع عنه، وكذلك لظهور الفُرقة، والخلافات العميقة بين أمراء الطَّوائف، وتعاون أحدهم مع النَّصارى ضدَّ المسلمين، وإثر تأزم الوضع فضلَّ الأمير يوسف الانسحاب بدل خوض معركة غير مجدية مع جيوش ألفونسو القادمة لنجدة الحصن الذي استولى عليه المسلمون في نهاية المطاف بعد أن تركه المسيحيِّين أطلالًا، فأحرز المسلمون بذلك نصرًا بلا طعم، ونتيجة لذلك عاد الأمير يوسف بن تاشفين أدراجه إلى بلاد المغرب وقد تغيرت نفسه على أمراء الطَّوائف كثيرًا، وأدرك أنَّه لا يمكن الاعتماد عليهم مُستقبلًا.

وخلال عبوره الثَّالث للأندلس سنة 483هـ/1090م استطاع القيام بمهمَّتين رئيسيتيّن الأولى تتمثَّل في القضاء على أمراء الطَّوائف الذين ثبتت خيانتهم للعيان، والثَّانية تتمثَّل في جهاد القوى المسيحيَّة التي مازالت تهدِّد بلاد الأندلس بالسقوط مُستغلِّةً الشِّقاق الذي وقع بين أمراء الطَّوائف والمرابطين، فكانت تشنُّ الغارات على أراضي المسلمين من حين إلى آخر، وقد تصدَّى الأمير يوسف لهذه الغارات وحدثت بين المرابطين والنَّصارى معارك عديدة انتهت أغلبها بانهزام النَّصارى وتراجع قواتها. وأعظم انجاز حقَّقه المرابطون آنذاك هو استرجاعهم لمدينة بلنسية في شهر رمضان سنة 495هـ/ماي 1102م، فعاد بذلك الثَّغر العظيم إلى حظيرة

الإسلام، وعاد السِّلم يُخيِّم على تلك الربوع وانهار باختفاء السيد القمبيطور أكبر عامل في بثِّ الروع والاضطراب في شرق الأندلس. وبالاستيلاء على بلنسيَّة انتظم أمر الأندلس جميعًا وأصبح في يد المرابطين، ولم يبق خارج سلطة الأمير يوسف بن تاشفين غير إمارة سرقسطة التي يحكمها بني هود.

وفي جوازه الرَّابع سنة 496هـ/1103م إلى بلاد الأندلس والتي أصبحت جزءًا من دولته قام الأمير يوسف بأعمال جليلة لا تقلُّ أهمية عن الأعمال التي قام بها خلال عبوره الثَّالث حيث قام بتفقُّد أحوال الإدارة وبتنظيم شُؤونها، كما قام بعقد البيعة لولده أبي الحسن عليّ وهذا لأجل الحفاظ على استقرار أمور الحكم بعد وفاته. كما قام في تلك الفترة بتحصين الثُّغور، وجهزَّ لذلك جيشًا كبيرًا خاض معارك عديدة مع العدوِّ المسيحي استطاع من خلالها صدِّه وإيقاف زحفه على بلاد الأندلس.

الفصل الثَّاني: حركة الاسترداد المسيحي في عهد الأمير علي بن يوسف وولده تاشفين

أولًا– العبور الأوَّل ومعركة أُقليش

ثانيًا– العبور الثَّاني وضم سرقسطة والجزائر الشَّرقيَّة للدَّولة المرابطيَّة

ثالثًا– العبور الثَّالث وسقوط سرقسطة في أيدي النَّصارى

رابعًا– العبور الرَّابع وغزوة ألفونسو المحارب الكبرى للأندلس

عهد الأمير يوسف بن تاشفين في حياته لولده علي لقيادة المرابطين من بعده في قرطبة بالأندلس سنة 496هـ/1103م لِما آنسه فيه من الورع والنَّباهة والحزم[1]، وعندما توفي الأمير يوسف في مستهل شهر محرم سنة 500هـ/1106م[2] بايعه أولًا أخوه الأكبر أبو الطاهر تميم ثمَّ قال للمرابطين قوموا فبايعوا أمير المسلمين فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وأشياخ القبائل فتمَّت له البيعة بمرَّاكش وهو ابن ثلاث وعشرين سنة[3].

وقد كتب الأمير علي إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وبلاد السودان الغربي يعلمهم بموت أبيه واستخلافه من بعده ويأمرهم بالبيعة فأتته البيعة من جميع البلاد[4] وأقبلت نحوه الوفود للتَّعزيَّة

1- عنان، **دول الطَّوائف**، ص372 .

2- اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاة الأمير يوسف بن تاشفين بدقة حيث يذكر ابن خلكان أنَّه توفي يوم الاثنين الثَّالث محرم سنة 500هـ/1106م ويذكر كلٌ من ابن عذارى وابن الخطيب أنَّه توفي يوم الاثنين مستهل محرم سنة 500هـ/1106م، وهو التَّاريخ الذي ذكره صاحب الحُلل الموشيَّة ولكنه لم يذكر اليوم، بينما يرى ابن أبي زرع أنَّه توفي يوم الأحد مستهل محرم سنة 500هـ/2 سبتمبر 1106م، ويرى المرَّاكشي أنَّه توفي في شهور عام 493هـ/1099م وهذا التَّاريخ يبقى محلَّ شك بالنَّظر لصيرورة الأحداث التَّاريخيَّة ولأنَّ المرَّاكشي ينفرد لوحده بذكر هذا التَّاريخ. (انظر: **وفيات الأعيان**، مج7، ص125 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص45 ؛ **الإحاطة**، مج4، ص353 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص83 ؛ **روض القرطاس**، ص156 ؛ **المُعجب**، ص121).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص157 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص**55-56** . (غير أنَّ أشباخ يقول بأنَّ الأمير علي عندما بويع لإمارة المرابطين لم يكن قد جاوز الثَّانيَّة والعشرين من عمره). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحَّدين**، ج1، 121).

4- أتته البيعة أيضًا من الخليفة العباسي المستظهر بالله 487-512هـ/1094-1118م وقد أورد صاحب الحُلل الموشيَّة رسالة عبارة عن جواب من الخليفة العباسي للأمير علي بعثه له عام 512هـ/1118م يُقرُّه فيه أميرًا على المرابطين واصفًا إياه بمقيم الدَّولة العباسيَّة وزعيم جيوشها المغربيَّة، وقد طلب منه الاستمرار في الجهاد في سبيل الله، والرِّسالة أوردها أيضًا حسين مؤنس وذكر أنَّها غير مؤرخة والمرجح عنده أنَّها كتبت في بداية إمارة علي في أوائل محرم 500هـ/سبتمبر 1106م جوابًا على كتاب أرسله علي طلبًا للبيعة والتَّقليد كما يفهم من النَّص. (عن نص رسالة الخليفة العباسي المستظهر إلى علي بن يوسف). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص87-88 ؛ حسين مؤنس: **سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس**، ط1، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة للنَّشر والتَّوزيع، مصر، 2000م، ص12 وما بعدها). (وعن نص رسالة علي بن يوسف إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله). (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص403-404).

والتَّهنئة[1] إلّا وفد مدينة فاس حيث لم يبايعه ابن أخيه الأمير يحي بن أبي بكر بن يوسف الذي كان أميرًا عليها بعهدٍ من جده يوسف بن تاشفين[2]. وقد بايع المرابطون الأمير علي بالإمارة لأنَّه كان يتوقد ذكاءً ونبلًا وفهمًا[3]، فملك بذلك جميع بلاد المغرب من مدينة بجاية إلى بلاد السوس الأقصى، وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذَّهب[4] من بلاد السودان الغربي وملك بلاد الأندلس والجزائر الشَّرقيَّة مَيورقة[5] ومِنورقة[6] ويابسة[7] ، وخطب له على ألفي ونيف و ثلاثة مئة

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص158 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص56 .

2- امتنع عن البيعة لأنَّه كان يرى بأنَّه أولى وأجدر بخلافة جده يوسف، ولكنه اضطر إلى الفرار من فاس عندما أدرك أنَّه لا طاقة له بحرب الأمير علي الذي اتجه نحوه بجيشٍ من مرَّاكش فدخل مدينة فاس يوم الأربعاء الثَّامن من شهر ربيع الآخر سنة 500هـ/7 ديسمبر 1106م. وهناك رواية أخرى لكيفية فرار الأمير يحي مفادها أنَّ الأمير علي عندما اقترب من فاس نزل بمدينة مغيلة وكتب لابن أخيه يحي وأشياخ البلد كتابًا يدعوهم للدخول في طاعته، ولكن يحي فرَّ إلى مَزْدَلي عامل المرابطين على تلمسان فلقيه بواد ملوية فضمن له العفو والصُلح من عمه علي، فعفا عنه وخيره السكن بجزيرة ميورقة أو الصحراء، فانصرف إلى الصحراء ثمَّ حج بيت الله الحرام ورجع إلى عمه فاستأذنه بالاستقرار بمرَّاكش فأذن له، وبعد ذلك اتهمه بالقيام عليه وبعثه إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس فبقي بها إلى أن مات. (انظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص158-159).
Coissac De Chavrebière: **Histoire du Maroc**, librairie dar al aman, Rabat, Première édition, 2012, p188 ; Gaid Mouloud : **Les Berbers dans l'histoire les Mourabitines d'hier et les Marabouts d'aujourd'hui**, édition Mimouni, Alger, tome 7, p30-31 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص84 .

4- بحثت في مختلف المصادر الجغرافيَّة والتَّاريخيَّة ولكنِّني لم أوفَّق في إيجاد تعريف له، ويظهر جليًا بأنَّه سُمِّي بهذا الاسم لأنَّه يحوي داخله الكثير من الذَّهب، وكما هو معلوم فبلاد السودان الغربي ومدنه المشهورة غانة وتكرور وأودغست معروفة بغناها بهذا المعدن النَّفيس.

5- هي جزيرة في شرق الأندلس على البحر الرومي، على الشَّرق منها توجد جزيرتا مِنورقة وسردينيا، وفي غربها جزيرة يابسة، فتحها المسلمون سنة 290هـ/902م، بها مدينة كبيرة بين جبلين يشقُّها واد صغير، وأكثر غابتها الزيتون والتِّين. (انظر: ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، ص168 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص567-568).

6- هي جزيرة صغيرة في شرق الأندلس على البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) تحدها جزيرة سردينيا شرقًا وجزيرة مَيورقة غربًا، منها إلى جزيرة سردينيا أربع مجارٍ. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبًا**، ص66 ؛ الإدريسي، **القارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص308 ؛ ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، ص168) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**، ص434).

7- هي جزيرة في شرق الأندلس على البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) كثيرة الكروم والأعناب، بها مدينة حسنة صغيرة، وقرى كثيرة وعمائر متصلة، يقال لها ولجزيرة مِنورقة بنتا جزيرة مَيورقة، بينها وبين مدينة دانية مجرى مقداره مائة ميل، في شرقيها جزيرتي مَيورقة ومِنورقة. (انظر: الإدريسي، **القارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص308 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص616) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**، ص434).

منبر، وملك من البلاد ما لم يملكه والده لأنَّه وجد البلاد هادئة والأموال وافدة والمُلك قد توطأ والأمور قد استقامت[1].

وقد شرع الأمير علي عندما استقامت له الأمور في تدبير شؤون دولته واسعة الأرجاء حيث سلك طريق أبيه في أموره كلها[2]، خاصةً فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله ورد حركة الاسترداد المسيحي للأندلس[3]، والتي تفاقم أمرها بعد وفاة والده يوسف، فبادر بالإسراع في العبور إلى الأندلس في جيش جرار لإنقاذ المسلمين من عدوان المسيحيِّين.

أولًا- العبور الأوَّل ومعركة أُقليش:

1- الإعداد للمعركة:

خصَّ الأمير علي بن يوسف بلاد الأندلس باهتمامه الشَّخصي واعتبرها أرض جهاد ذلك أنَّ موقعة الزَّلاقة التي خاضها أبوه من قبل ضدَّ المسيحيِّين في الأندلس عام 479هـ/1086م لم تضع حدًا لحركة الاسترداد المسيحي بل على عكس ذلك شكلت عاملًا رئيسيًا في استنهاض دول النَّصارى واستشعارها ضرورة توحدها للعمل يدًا واحدةً ضدَّ المرابطين[4].

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص157 .

2- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص253 .

3- يذكر المرَّاكشي بأنَّ الأمير علي بن يوسف جرى على سَنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدوّ وحماية البلاد. (انظر: **المعُجب**، ص121).

4- حمدي عبد المنعم محمَّد حسين، **التَّاريخ السِّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، دار المعرفة الجامعيَّة، 2008م، ص153 .

والواقع أنَّ الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس بلغ ذروته في عهد الأمير علي بن يوسف وتحوَّل إلى حروب ضارية اقتضت من المرابطين التَّصدي للقوى النَّصرانيَّة بحشد جميع قواتهم لإيقاف هذا المد المسيحي الجارف وهذه الحركة الصَّليبيَّة الضَّخمة[1].

ومن أجل، ذلك بادر الأمير علي بالجواز إلى الأندلس مباشرةً بعد توليه شأن المرابطين، فكان العبور الأوَّل سنة 500هـ/1106م[2]، ويذكر ابن عذارى ذلك بقوله "وتحرك أمير المسلمين علي بن يوسف من حضرة مراكش مع جيوش المرابطين والمصموديِّين والجنود والحشود وعبر مدينة سبتة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس"[3]، فبادر إليه قضاة الأندلس وفقهاؤها وزعماؤها ورؤساؤها وأدباؤها وشعراؤها فامتدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء وقضى لكل ذي أرب أربه[4].

ومن الأسباب التي جعلت الأمير علي يعبر إلى الأندلس على خلاف الجهاد ومقارعة النَّصارى هو تفقد أحوال الأندلس عامةً[5]، ولكي يُقرَّ الولاة والقضاة في مناصبهم أو يعيِّن بدلًا عن المعزولين منهم[6].

1- حمدي عبد المنعم محمَّد حسين، **التَّاريخ السِّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص153.

2- **الحُلل الموشيَّة**، ص85 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص48 .

3- **البيان المغرب**، ج4، ص48 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص85 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص48 .

5- يذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ غرض الأمير علي من العبور إلى الأندلس هو تفقد حالها وسدِّ خللها. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص85).

6- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص122 .

فولى أخاه الأكبر أبا الطاهر تميم على العاصمة الجديدة غرناطة[1] وجعله قائدًا عامًا للقوات المرابطيَّة في الأندلس، وولى أبا عبد الله محمَّد بن أبي زنغي قرطبة[2]، وولى محمَّد بن الحاج فاس ثمَّ نقله بعد ستة أشهر إلى بلنسيَّة[3].

1- بادر الأمير علي بن يوسف بعد توليه السلطة بمدة يسيرة في منتصف عام 500هـ/1106م إلى نقل عاصمة الأندلس من قرطبة إلى غرناطة لأسباب إستراتيجية وأمنية أهمها: أنَّ معظم سكان غرناطة كانوا من البربر فهم أكثر انقيادًا وتعاطفًا مع أبناء جلدتهم من الأندلسيِّين، وأنَّها من الناحيَّة العسكريَّة أقرب إلى مسرح العمليات الحربيَّة التي كانت تقوم بها القوات المرابطيَّة في شرق الأندلس، كما أنَّها أقرب إلى بلاد المغرب مصدر التَّموين والإمداد للمرابطين في الأندلس. (انظر: حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص19 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص188-189).

2- اختلف المؤرخون في ذكر اسمه حيث يسميه الأمير تميم في رسالته للأمير علي عقب فتح أُقليش أبي عبد الله محمَّد بن أبي زنغي، وجاء عند ابن القطان باسم ابن أبي رنغي في حين سماه صاحب مفاخر البربر أبي عبد الله محمَّد بن أبي زنفي، وجاء عند ابن أبي زرع باسم محمَّد بن أبي زلفى، وجاء عند المستشرق ميراندا وبعض المراجع الحديثة باسم ابن أبي رنق، واتفقوا جميعًا على أنَّه والي قرطبة بعد محمَّد بن الحاج، ولعله الأصح بالنَّظر إلى ذكر مشاركته في المعركة كوالي وقائد جيوش قرطبة، غير أنَّ ابن عذارى يخالفهم الرأي ويقول أنَّ الذي تولى قرطبة بعد ابن الحاج هو أبا عبد الله محمَّد بن أبي بكر اللَّمتوني. (انظر: **نُظم الجمان** ج6، ص65، هامش1 ؛ مجهول: **مفاخر البربر**، ص190 ؛ **روض القرطاس**، ص157-158 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص48-49 ؛ ميراندا أمبروسيو هويثي: **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، مقال منشور بمجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية، مطبعة كريماديس، تطوان، المغرب، العدد الثَّاني، 1957م، ص122 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص64). (وعن نص رسالة الأمير تميم إلى الأمير علي عقب فتح أُقليش). (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص159 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص48 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص57 .

ويظهر من خلال هذه الأعمال الإداريَّة والسِّياسيَّة التي قام بها الأمير علي بالأندلس أنَّه كان يعدُّ العُدَّة لخوض معركة فاصلة ضدَّ النَّصارى وصدِّ حركة الاسترداد التي تعاظمت بوفاة أبيه يوسف سنة 500هـ/1106م خاصةً في شرق الأندلس حيث توجد مدينة أُقليش[1]، وقد حرص من أجل تحقيق هذا الهدف على تعيين خيرة القادة الذين كانت لهم خبرة عسكرية كبيرة في المعارك والحروب وبخاصةً أخيه أبا الطاهر تميم بن يوسف.

وبعد أن اطمئن أمير المسلمين علي بن يوسف على الجبهة الأندلسيَّة بالاستعداد الجيِّد لخوض المعارك والحروب مع العدوِّ النَّصراني عاد إلى بلاد المغرب واستقرَّ بعاصمة دولته مرَّاكش[2] يتابع منها أحوال بلاد المغرب والأندلس معًا، وكان اهتمامه الكبير منصبًا على بلاد الأندلس حيث كان يراقب أحوال ولَّاتها ويتَّبع أخبارهم ويقدِّم لهم النُّصح والإرشاد والتَّوجيه.

وقد أعطى الأمير علي إشارة البدء بالجهاد لأخيه تميم ضدَّ مملكة قشتالة في شهر شعبان عام 501هـ/مارس 1108م[3]، وقد بادر لإعلان الجهاد مبكرًا لعدة اعتبارات أهمها:

1- (Uclés) مدينة لها حصن في ثغر الأندلس، تقع شمال شرق طليطلة وهي من أعمال شنتبرية، ذكرتها أغلب المصادر الإسلاميَّة باسم أُقليش في حين وردت عند كلٌ من ابن أبي زرع وابن الخطيب باسم أُقليج، ويذكر المستشرق ميراندا أنَّها كانت تدعى قديمًا سيلتيبيرية ثمَّ عُرفت باسم باغوس أوكولينسيس فتحول هذا الاسم إلى أُقليش، بينها وبين مدينة وبذة ثمانية عشر ميلًا ومنها إلى شقورة ثلاث مراحل، لها أقاليم ومزارع عامرة. ذكر الحِميري أنَّ الذي بناها من المسلمين هو الفتح بن موسى بن ذي النون وفيها كانت ثورته وظهوره سنة 160هـ/776م واتخذها دارًا وقرارًا، وهذا التَّاريخ غير صحيح لأنَّ ثورة الفتح بن موسى بن ذي النون حدثت في مستهل عهد الخليفة الأموي عبد الرَّحمان النَّاصر الذي حكم ما بين 300-350هـ/912-962م وبالتَّالي تأسيس أُقليش كان مع بداية القرن الرَّابع الهجري، واستمرت أسرة بني ذي النون في حكمها إلى أن استولى عليها ألفونسو السَّادس بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م). (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص287 ؛ **روض القرطاس**، ص159 ؛ **أعمال الأعلام**، ص253 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص51-52 ؛ **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص121-122 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**،ص61) ؛ (عن موقع معركة أُقليش، انظر: **خريطة رقم 2**، ص433).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص49 .

3- **نفسه.**

– محاولة صرف الجهود والطاقات نحو الجهاد بدلًا من أن تستغل في النِّزاعات الداخليَّة خاصةً بعد ظهور معارضة من بعض زعماء الدَّولة المرابطيَّة لتولي الأمير علي مقاليد الحُكم فقد عارضه كلٌ من يحي بن أبي بكر بن يوسف ومحمَّد بن الحاج[1]، ومن ثمَّ فمن المرجَّح أنَّ الأمير علي رأى أنَّ انصراف المرابطين للجهاد خير موحِّد للأمَّة بدلًا من الشَّحناء والبغضاء[2].

– تمزق الجبهة الداخليَّة القشتاليَّة[3]، وهذا بسبب ضعف ملكها ألفونسو السَّادس الذي لم تقم له قائمة بعد الضَّربة الموجعة التي تلقاها في معركة الزَّلاقة سنة 479هـ/1086م فرغم محاولاته المتكرِّرة غزو أراضي المسلمين إلَّا أنَّ محاولاته بآت أغلبها بالفشل الذَّريع لأنَّ المرابطين تصدوا لها ببسالة.

– رغبة الأمير علي بن يوسف الرَّد على غارات ملك قشتالة ألفونسو السَّادس الذي أخذ يعيث في أراضي المسلمين في الأندلس خاصةً بعدما شاع خبر مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عام 498هـ/1104م، ففي هذا التَّاريخ أرسل ألفونسو السَّادس حملة مكونة من ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس وصلوا في غاراتهم إلى أحواز إشبيليَّة فغنموا من القرى التي مروا منها الغنائم الموفورة والأسلاب الكثيرة[4].

1– ذكر ابن عذارى أنَّ والي قرطبة محمَّد بن الحاج عندما تولى علي بن يوسف الإمارة بعد أبيه بقي في قرطبة تحت الخمول أي أنَّه تلكأ في بيعته وأراد القيام عليه، ولكن بعد مدَّة قصيرة من محاولة تمرده قُبض عليه سنة 500هـ/1107م، ثمَّ عفا عنه وولاه علي سنة 501هـ/1108م مدينة فاس وسائر أعمال المغرب مدَّة ستة أشهر، ثمَّ نقله إلى بلنسيَّة في أواخر سنة 501هـ/1108م حسب ابن أبي زرع وسنة 503هـ/1110م حسب ابن عذارى. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص48–49 ؛ **روض القرطاس**، ص157 وما بعدها).

2– سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص189–190 .

3– سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص189 .

4– ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص44–45 .

2- وقائع المعركة:

عندما أعد الأمير تميم[1] العُدَّة والعتاد اللازمين اتَّجه بجيش ضخم[2] من غرناطة في العشر الأواخر من رمضان عام 501هـ الموافق للعشر الأوائل من ماي عام 1108م[3] لغزو أراضي قشتالة فتوجه إلى مدينة جيان وعسكر فيها أيامًا حتَّى وفدت عليه الجيوش والعساكر من قرطبة بقيادة أبي عبد الله محمَّد بن أبي زنغي[4].

ثمَّ اتجه من مدينة جيان إلى مدينة بياسة في الشمال الشرقي للأندلس، ومنها تابع مسيرته شمالًا صوب أراضي قشتالة، وفي الطريق إليها وافته حشود مرسيَّة بقيادة محمَّد بن عائشة، ثمَّ لحقت به قوات بلنسيَّة بقيادة واليها أبي محمَّد عبد الله بن محمَّد بن فاطمة[5].

1- يرى المستشرق الألماني أشباخ أنَّ هدف الأمير تميم من وراء هذه الغزوة ضدَّ النَّصارى هو إظهار مدى قدرته على تولي العرش فهو لم يكن أقل صلاحية من أخيه الأصغر علي، وأعتقد أنَّ رأيه هذا غير صحيح فقد ذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ الأمير تميم حضر في قرطبة بالأندلس في شهر ذي الحجة سنة 496هـ/سبتمبر 1103م اجتماعًا عقده والده يوسف رفقة أمراء وفقهاء المرابطين ورؤساء الأندلس لمبايعة علي بالإمارة بعد أبيه، وقد بايع تميم مع المبايعين ولم يبد أي اعتراض، كما ذكر كلٌّ من ابن أبي زرع وابن عذارى أنَّ الأمير تميم كان أوَّل من بايع أخاه علي بالإمارة عند وفاة أبيه، وأمر باقي المرابطين بمبايعته، فلم يعارض على الإطلاق أمر تولية أخيه علي العرش لأنَّه لم ير أنَّه أحق منه بالإمارة، كما أنَّه لم يخرج عليه مطلقًا وبقي يعمل تحت إمرته حتى وفاته سنة 520هـ/1126م. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص77-78 ؛ **روض القرطاس**، ص158 ؛ **البيان المغرب**، 48/4 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 122/1).

2- يتحدث الأمير تميم في رسالته إلى أمير المسلمين علي عقب فتح أُقليش عن عزيمة جيشه المتجه لقتال العدوِّ بقوله "جيشٌ تصم كواهله، وتطم كواهله، راياته خافقة، وعزماته صادقة، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة". (عن نص الرِّسالة، انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

3- ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص122 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص61. (انظر أيضًا: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، 49/4 ؛ ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص122.

5- حمدي عبد المنعم محمَّد حسين، **التَّاريخ السِّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص157 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص190.

وبعد مسيرة عشرين أو خمسة وعشرين يومًا وصلت كل تلك القوّات يوم الأربعاء الرّابع عشر من شهر شوال سنة 501هـ/27 ماي 1108م إلى مدينة أُقليش[1] وبها جمعٌ عظيمٌ من الرُّوم[2]، فحاصرت القوات المرابطيّة المدينة ثمَّ دخلتها عنوةً في اليوم الموالي[3] حيث لم يستطع النَّصارى المدافعون عنها أن يثبتوا طويلًا أمام شدَّة المهاجمين[4]، وقد لجأ المسلمون الذين كانوا يعيشون في المدينة تحت حكم النَّصارى إلى معسكر الجيش المرابطي لطلب حمايتهم، وشرحوا لإخوانهم في الدِّين أحوال المدينة وظروف المدافعين عنها[5]، بينما تحصن النَّصارى بقصبة المدينة[6] فبلغ خبرهم إلى الملك الشَّيخ ألفونسو السَّادس فاشتدَّ به الألم والحزن[7]، فاستعد للخروج لإغاثة

1- يذكر أغلب المؤرخين بأنَّ تاريخ معركة أُقليش كان في شهر شوال عام 501هـ/ماي 1108م منهم ابن الكردبوس وابن القطان وابن عذارى والمستشرق ميراندا، وهو الرأي الأصح حسب اعتقادي بالنَّظر إلى سير الأحداث التَّاريخيَّة، غير أنَّ ابن أبي زرع ذكر تاريخًا مخالفًا واعتبر أنَّ المعركة حدثت عام 502هـ/1109م. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص114 ؛ **نُظم الجمان** ج6، ص63 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص49-50 ؛ **روض القرطاس**، ص159 ؛ **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص122).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص**57** .

3- يذكر ابن عذارى أنَّ مدينة أُقليش اضطربت المحلات بإزائها وانتشرت الحروب عليها إلى أن دخلها المرابطون عنوةً. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص50).

4- يذكر المستشرق ميراندا أنَّ القوَّات المرابطيَّة لمَّا دخلت مدينة أُقليش أحرقت كنائسها وجعلت بعضها مساجد بعد أن نهبت ثرواتها، ويؤكد ذلك المؤرخ عنان حيث قال بأنَّ القوَّات المرابطيَّة قوَّضت صروح المدينة وهدَّمت كنائسها ودكَّت هياكلها. (انظر: **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص122 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص61-62).

5- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص62.

6- ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص122. (ويذكر الأمير تميم في رسالته إلى أخيه علي فرار النَّصارى إلى قصبة المدينة بقوله"وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها، كما يلج العصفور، ويقوم العثور، قد غلقوا الأبواب، وأسدلوا الحجاب" وقال أيضًا "وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة والقوم في السِّجن والحصر". (عن نص الرِّسالة، انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

7- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص122 .

قومه وبلده[1]، فأشارت عليه زوجته زائدة أن يوجه ولده الوحيد وولي العهد سانشو[2] عوضًا عنه لأنَّه كان مريضًا وشيخًا كبيرًا لا يقوى على قيادة جيشه لمحاربة أعداء دينه[3].

وكان ألفونسو السَّادس يرمي من خلال إرسال ابنه الوحيد سانشو الذي لم يتجاوز عمره إحدى عشرة سنة[4] بدلًا عنه لمقاتلة المسلمين هو إثارة حماسة جنده[5]، وكذلك ليكون مقابلًا

1- يذكر الأمير تميم في رسالته إلى أخيه علي عن استعداد ملك قشتالة لحرب المرابطين بقوله "وكان الطاغية ألفونسو السَّادس زاده الله ذُلًا قد حشد أقطاره وحشر أنصاره، وأبعد في الاستصراخ مضماره، وعبأ جيشًا قد أسرا إلى ذمر، وانطوى على غمر. (عن نص الرِّسالة. انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

2- (Sancho) سانشو أو شانجه كما تذكره المصادر الإسلاميَّة، ويسميه ميراندا "ضون شانجه"، وهو الولد الوحيد لملك قشتالة ألفونسو السَّادس من زوجته زائدة المسلمة التي كانت قد فرت إلى قشتالة وتنصرت بعد مقتل زوجها الفتح بن المعتمد بن عبَّاد الملقب بالمأمون على يد المرابطين عند دخولهم قرطبة عام 484هـ/1091م. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس،** ص114، هامش3 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب،** 50/4 ؛ **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه،** ص115 وما بعدها).

Gaid Mouloud : **Les Berbers dans l'histoire les Mourabitines d'hier et les Marabouts d'aujourd'hui**, p31 .

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس،** ص160. (يتفق أشباخ مع ابن أبي زرع في اعتبار أنَّ زوجة ألفونسو السَّادس زائدة هي التي أشارت على زوجها بأن يبعث ولده الوحيد سانشو لقتال المسلمين بدلًا عنه، ويقول أنَّ السبب وراء ذلك هو إثارة حماسة الجند، غير أنَّ ميراندا ينفي هذا الأمر ويقول بأنَّ ابن أبي زرع يوغل في ميدان الخيال عندما يقول أنَّ الأمير سانشو قد انتخب بطلب من أمه ليخلف أباه في قيادة الجيش القشتالي). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين،** ج1، ص122-123 ؛ **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه،** ص122).

4- اختلف المؤرخون في تحديد سن سانشو ولد ألفونسو السَّادس حيث ذكر أشباخ وعنان بأنَّه يبلغ من العُمر حوالي إحدى عشرة سنة، بينما يقول برنارد لوقان (Bernard Lugan) وأحمد مختار العبادي في تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس ومحمود علي مكي في تحقيقه لكتاب ابن القطان أنَّه كان في حوالي خمسة عشر سنة. (انظر: **تاريخ الأندلس،** ص114، هامش3 ؛ **نُظم الجمان،** ج6، ص64، هامش1 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين،** 123/1 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص62).

Bernard Lugan: **Histoire du Maroc Des origines à nos jours**, Critérion, Paris, 1992, p73 .

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين،** ج1، ص122-123. (يبدو أنَّ إثارة حماسة الجند تكمن في أنَّ ألفونسو السَّادس أثار عاطفة جنده بتشجيعهم على القتال بإرساله لولده الوحيد رغم صغره سنه إلى ميدان المعركة ولا يخشى فقدانه لأنَّه يدرك جيدًا بأنَّ الجند سيستميتون في الدِّفاع عنه، وقد أشار إلى ذلك عنان بقوله لكي يثير منظره الفتي حماسة الجند). (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص62).

للأمير تميم لأنَّ تميمًا ابن ملك المسلمين[1] وسانشو ابن ملك الرُّوم[2]، وقد أمر مؤدبه الكونت غرسية أرذونش[3] وألبرهانس وكذلك جميع القادة الكبار المشاركين في المعركة[4] أن يحرصوا كل الحرص على حياة ولده ورفاهته[5].

1- أخطأ ابن أبي زرع في قوله بأنَّ الأمير تميم هو ابن ملك المسلمين، والأصح أنَّ الأمير تميم آنذاك كان أخ ملك المسلمين علي بن يوسف وليس ابنه، وتميم معروف بأنَّه ابن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين السَّابق الذي توفي سنة 500هـ/1086م. (انظر: **روض القرطاس**، ص160).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160. (بالإضافة إلى عجز ألفونسو السَّادس وشيخوخته، وكذلك إثارة حماسة الجُند، فمن المرجَّح أنَّه كان هناك سبب آخر لإرسال ألفونسو السَّادس لولده الوحيد لحرب المرابطين يتمثل في مؤامرة دبرت من بعض عملاء ألفونسو المحارب الذين أقنعوا ألفونسو السَّادس بإرسال ولده للحرب ليتخلصوا منه ويخلوا الجو لألفونسو المحارب فيضمَّ قشتالة إلى ملكه، وإلَّا كيف نفسر سعي أعيان ووجهاء قشتالة بعد فترة وجيزة من وفاة ألفونسو السَّادس لزواج ابنته وولية عهده أوراكا من ألفونسو المحارب، وبعد إتمام الزواج اتحدت مملكتي قشتالة وأراغون. (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص196).

3- سماه تميم في رسالته غرسية أرذونش (Garcia Ordonez) وسماه ابن القطان غرسيا ردونس المدعو بالفم المعوج، وجاء عند أشباخ باسم جارسيا دى كبرا (قبره) بينما جاء عند المستشرق ميراندا باسم غرسيا أوردونيث وقال بأنَّه ملقب بالفم الأعور، في حين ورد عند عنان في الصفحة أربعة وستون باسم غرسيه أردوينت كونت دى قبره، وفي الصفحة المواليَّة غرسية أردونيث (أردونش) أو الكونت دى قبره، وقد كان قائدًا قشتاليًا من فرسان شانجه الثَّاني ملك ليون، ثمَّ أصبح من أتباع ألفونسو السَّادس ملك قشتالة، وكان من المدافعين عن حصن لييط حينما قام المرابطون بحصاره، ولقى مصرعه في وقعة أُقليش. (انظر: **نُظم الجمان** ج6، ص64، هامش2 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 123/1 ؛ **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص116 وما بعدها ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص64-65). (وعن نص رسالة تميم إلى أخيه علي. انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).).

4- عُرفت معركة أُقليش في الرِّوايات النَّصرانيَّة بمعركة الكونتات السَّبعة أو الأكناد السَّبعة أو الأقطاب السبعة أو القوامس (الأقماط) السَّبعة (Batalla de Los Siete Condes) لأنَّه شارك فيها سبعة من كبار فرسان النَّصارى وهلكوا فيها، فبالإضافة إلى الكونت غرسية أرذونش وألبرهانس فقد شارك أيضًا القُمط بقبدره وقادة كبار من طليطلة وصاحب قلعة النسور وقلعة عبد السَّلام. (انظر: **نُظم الجمان** ج6، ص64، هامش2 ؛ ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص123 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص536 ؛ حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص20 ؛ عبد العزيز شاكي: **التَّطور السِّياسي لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف (500-537)هـ/(1106-1143)م**، رسالة ماجستير في التَّاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، قسم التَّاريخ، 2011م، ص140-141).

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص123 .

اتجه سانشو ولد ألفونسو السَّادس في جيوش كثيرة من زعماء الرُّوم وأنجادهم[1]، بلغ تعداد هذا الجيش حسب ابن القطان نحو عشرة آلاف فارس[2] إلى إغاثة أُقليش ومدافعة المسلمين، ولمَّا علم أبو الطاهر تميم قائد جيوش المرابطين بقدوم قوَّات العدوِّ أراد أن يرفع الحصار على المدينة ولا يلقاهم، فأشار عليه ابن عائشة وابن فاطمة وغيرهما من كبار قادة المرابطين بمواجهة جيوش المسيحيِّين وعدم الرَّحيل،وشجعوه وهونوا عليه أمرهم وقالوا له لا تخف[3] فإنَّما قدموا في ثلاثة آلاف فارس وبيننا وبينهم مسافة[4].

وهناك رواية أخرى تختلف عن الرِّواية السَّابقة في تصوير موقف الأمير تميم والجيش المرابطي من قدوم الجيش القشتالي إلى أُقليش، وقد فندت ما ذهب إليه ابن أبي زرع بقوله أنَّ الأمير تميم

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص57 .

2- لم تقدم الرِّوايات التَّاريخيَّة بيانات كافية عن عدد الجيشين المتحاربين، فقد سكتت الرِّوايات النَّصرانيَّة ولم تذكر عدد الجيوش القشتاليَّة، ونملك روايتين إسلاميتين تحددان عدد جيوشهم الأولى تقدره بعشرة آلاف وهي لابن القطان والثَّانيَّة تقدره بسبعة آلاف فارس وهي لابن عذارى، ولم يذكر ابن أبي زرع عدد الجيوش قبل بداية المعركة واكتفى بذكر عدد القتلى بعد نهاية المعركة وقال بأنَّه قتل منهم أكثر من ثلاثة وعشرون ألف، وبالنِّسبة لعدد جيش المسلمين فلم تحدده المصادر التَّاريخيَّة، وقد اجتهد عنان محمَّد عبد الله باستنتاج عدده وقال أنَّهم كانوا في نحو ستة آلاف فارس. ومن المؤكد أنَّ عدد جيش النَّصارى أكبر بكثير من جيش المسلمين والدليل على ذلك إحجام تميم في البداية عن لقائه وتوجسه من تفوقه العددي. (انظر: **نُظم الجمان** ج6، ص64 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص50 ؛ **روض القرطاس**، ص160 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص63-64).

3- من المؤكد أنَّ الأمير تميم لم يكن خائفًا من مجابهة العدوِّ لأنَّه يفتقد للشَّجاعة، فهذا الأمر مُستبعد من قائد عسكري محنك كان له صولات وجولات في حرب النَّصارى في عهد والده يوسف بن تاشفين، والأكيد أنَّه كان يدرك خطورة الموقف فمن الضروري الحيطة والحذر وعدم الاستهانة بقدرات العدوِّ، ولأنَّ جيش المسلمين كان قليلًا بالمقارنة مع جيش ألفونسو السَّادس، ولأنَّ مدينة أُقليش بعيدة نسبيًا عن مواقع المسلمين ومراكز الإمداد وهي قريبة من حصون وقلاع النَّصارى، كما أنَّ جيوشهم تحاصر المرابطين من كل جانب والدليل على ذلك قول ابن أبي زرع "فلم يجد سبيلًا للفرار ولا للروغ مخلصًا" وقول أشباخ وكانت حال الجيش المرابطي مع ذلك تدعو إلى التوجس واليأس لأنَّه إذا لم يوفَّق إلى الظفر فقد سُدت في وجهه جميع سُبل الفرار. (انظر: **روض القرطاس**، ص160 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 123/1).

4- ذكر ابن أبي زرع في هذا الموضع أنَّ عدد جيوش النَّصارى هو ثلاثة آلاف فارس، ولكن هذا العدد غير صحيح إذ ذكر ذلك نقلًا عن كبار قادة المرابطين الذين تعمدوا عدم ذكر العدد الكبير للجيش القشتالي لكي يهونوا الأمر على الأمير تميم ويشجعوه على صدِّ هذه الجيوش. (انظر: **روض القرطاس**، ص160).

كان يريد فك الحصار وعدم لقاء جيش ألفونسو[1]، مفاد هذه الرّواية والتي ذكرها الأمير تميم في رسالته إلى أخيه أمير المسلمين علي بن يوسف والتي تصف الموقعة أنَّه شاور قادة قواته بالخصوص ابن عائشة وابن فاطمة لأجل التَّوصل لكيفية رد الجيش القشتالي والتَّصدي له، واتفقوا بعد هذه المشاورة على وجوب ملاقاة العدوّ ورد عدوانه[2].

ويبدو أنَّهم اتفقوا أيضًا على كيفية تنظيم القوّات المرابطيَّة في المعركة على النحو التَّالي: قوات قرطبة بقيادة ابن أبي زنغي في المقدمة، وأهل مرسيَّة وبلنسيَّة في الجناحين، والأمير تميم مع قواته الغرناطيَّة في القلب[3]، وبهذا التنظيم خرج الجيش المرابطي في فجر يوم الجمعة 16 شوال 501هـ الموافق 29 ماي 1108م لمواجهة القشتاليِّين على مسافة قريبة من أُقليش[4]. ومن محاسن الصُّدف أنَّ الجيش الإسلامي تمكن قُبيل الصِّدام المسلح أن يحصل على معلومات في غاية الخطورة عن قوّات العدوّ القادمة لقتالهم، حيث تمكن فتى مسلمًا كان أسيرًا عند القشتاليِّين من الفرار من المعسكر المسيحي وأفضى إلى المعسكر الإسلامي وأمد الأمير تميم بتفاصيل دقيقة عن نقاط الضُّعف والقوَّة لدى القشتاليِّين، وقد أورد الأمير تميم هذا الأمر في رسالته إلى أخيه علي حيث قال "وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيرًا واقتنوه أسيرًا، ولله تعالى فيه خُبَأَةٌ[5]

1- **روض القرطاس،** ص160 .

2- عن نص رسالة الأمير تميم. (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

3- ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه،** ص123 ؛ حمدي عبد المنعم محمَّد حسين، **التَّاريخ السِّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين،**، ص161 .

4- ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه،** ص123 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص64 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين،** ص193 .

Coissac De Chavrebière: **op.cit,** p189 .

5- مِنْ خَبَأَ، وخَبَأَ الشَّيءَ يَخْبُوهُ خَبْأً أَيْ سَتَرَهُ، والخَبْءُ: ما خُبِئَ، وهو كُلُّ شيءٍ غائِبٍ مَسْتُور، والعرب تقول: خُبَأَةٌ خَيْرٌ مِنْ يَفَعَةِ سَوْءٍ، أَيْ بِنْتٌ تَلْزَمُ البَيْتَ تَخْبَأُ نَفْسَهَا فِيهِ، خَيْرٌ مِنْ غُلامٍ سَوْءٍ لا خَيْرَ فِيهِ. (انظر: ابن منظور: **لسان العرب،** مج2، ص1085 ؛ الفيروز ابادي: **القاموس المحيط،** الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، مصر، 1980م، ط3، ج1، ص13).

أعدها من عنده، وبعثها من جنده، ونزع[1] الفتى إلينا من معسكرهم منبئًا بهم دالًا عليهم، وكاشفًا بهم على النبأ العظيم، ومطلعًا منهم على المقعد المقيم"[2].وعلى ضوء هذه المعلومات نظَّم المرابطون جيوشهم واستعدوا للقتال وهم على بصيرة بحقيقة عدوِّهم المندفع نحوهم[3]، وبدأ الهجوم ووقعت الصَّدمة الأولى حيث هجم النَّصارى على معسكر قرطبة الذي كان في مقدمة الجيش المرابطي، وحملوا عليه حملةً منكرةً، فانهزم عسكر قرطبة ومشت الهزيمة عليه أميالًا[4]. ويؤكد الأمير تميم في رسالته هذا الأمر حيث ذكر أنَّه في بداية المعركة انقضت قوات قشتالة على قوات قرطبة بقوله "وتقهقر قائد قرطبة أبو عبد الله محمَّد بن أبي زنغي غير مولٍ[5]، وتراجع غير مخلٍ إلى أن اشتدَّ

1- لفظ نزع مستعملٌ هنا استعمالًا خاصًا ويعني جاء أو قَدِمَ، لأنَّ النازع في الاصطلاح الأندلسي هو الجندي الذي يندس في جيش الأعداء أو يدخل معهم حصنهم متنكرًا في زيهم حتَّى يتعرف أخبارهم أو يثبط هممهم، ثمَّ ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه، وكان في الأنظمة الحربيَّة الأندلسيَّة ديوان خاص لهؤلاء يعرف بديوان النِّزاع. (انظر: حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص39، هامش4).

2- عن نص رسالة الأمير تميم. (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

3- سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص194 .

4- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص64-65. (يقصد بقوله مشت الهزيمة عليه أميالًا أنَّ جيش قرطبة اضطر للتراجع للخلف أميالًا لكي يعيد تنظيم صفوفه، ولكي يحصل على الدَّعم من قِبل باقي فرق الجيش المرابطي).

5- يعني أنَّه لم يولِّ الدُّبُرَ، ولم يتراجع إلى الخلف خوفًا من العدوِّ، بل تراجع من أجل إعادة تنظيم صفوفه، وللحصول على المدد والدَّعم، وبذلك لا يتحقق فيه حُكم التَّولِّي يوم الزَّحْفِ، فالتَّولِّي يَوْمَ الزَّحْفِ محرمٌ في الكتاب والسنة، لقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (**15**) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (**16**))). (**سورة الأنفال، الآية 15-16**) وفي الحديث هو من أكبر السَّبع الموبقات، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ الله عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ محمَّد صلى الله عليه وسلم قال: ((اجتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ))، قالوا: يَا رَسُولَ الله، وما هُنَّ ؟ قالَ: ((الشِّرْكُ بِالله، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ)). (انظر: البخاري: **صَحِيحُ البُخَارِي، باب رَمْيِ المُحْصَنَاتِ**، تحقيق محمَّد علي القطب، المكتبة العصريَّة، بيروت، 1991م، ج5، ص2139 ؛ مُسْلِم: **صَحِيحُ مُسْلِم، باب الكبائر وأكبرها**، ط1، دار المُغني للنَّشر والتَّوزيع، المملكة العربيَّة السَّعوديَّة، دار ابن حزم للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 1998م، ص60).

منا بطَّوْد[1]، وزَّحِمَ[2] من جيشنا بعود[3].

غير أنَّ بعض الرِّوايات النَّصرانيَّة لم تتحدث عن انقضاض القوَّات القشتاليَّة على قوات قرطبة في بداية المعركة وتقهقر هذه الأخيرة إلى الخلف مسافة أميال، وبالعكس تمامًا فقد تحدثت عن هجوم المسلمين بشجاعة وتقهقر قوَّات النَّصارى إلى الخلف، وقد أكَّد ذلك المستشرق أشباخ حيث قال بأنَّ المسلمين عند الفجر هجموا على القشتاليِّين في فيض من الشَّجاعة والعنف ولم يستطع النَّصارى أن يصمدوا لهجوم يحدوه اليأس، فاضطروا إلى الارتداد رغم شجاعتهم ورباطة جأشهم[4].

وبالعودة إلى الرِّوايات الإسلاميَّة والتي ذكرت بأنَّه بعدما تراجعت قوَّات قرطبة إلى الخلف بادر جناحي الجيش المرابطي المكونين من قوَّات مرسيَّة وبلنسيَّة بقيادة ابن عائشة وابن فاطمة بمهاجمة معسكر النَّصارى بعدما قاموا بعملية الالتفاف حوله فأثخنوا فيهم قتلًا[5]، فأعطى الفرصة لأهل قرطبة لإعادة تنظيم صفوفهم من جديد[6].

1- طَّوْدُ: الجَمْعُ أَطْوادٌ، والطَّادي الثَّابِتُ، طَادَ إذا ثَبَتَ، الطَّوْدُ: الجَبَلُ العَظِيمُ، والطَّودُ: الهَضَبَةُ، وصفت عائشة أباها أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنهما فقالت "ذَاكَ طَوْدٌ مُنِيفٌ، أيْ جَبَلٌ عَالٍ". (انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مج4، ص2717 ؛ الفيروز ابادي، **القاموس المحيط**، ج1، ص308 ؛ الأزهري: **مُعجم تهذيب اللغة**، تحقيق رياض زكي قاسم، ط1، دار المعرفة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2001م، مج3، ص2228-2229).

2- من الزَّحْمُ، وهو أَنْ يَزْحَمَ القَوْمُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا مِنْ كَثْرَةِ الزِّحَامِ إذا ازْدَحَمُوا، وازْدَحَمُوا وتَزَاحَمُوا: تَضَايَقُوا، وَرَجلٌ مِزْحَمٌ: كَثِيرُ الزِّحَامِ أو شَدِيدُهُ. (انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مج3، ص1819 ؛ الفيروز ابادي، **القاموس المحيط**، ج4، ص122).

3- عن نص رسالة الأمير تميم إلى أخيه علي. (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

4- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 123/1 .

5- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص65. (على عكس باقي الرِّوايات النَّصرانيَّة في هذا الشأن فقد جاءت رواية المستشرق ميراندا موافقة للرِّواية الإسلاميَّة). (انظر: **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص123).

6- ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص123 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص194 .

وفي تلك الأثناء دخلت قوّات غرناطة التي كانت في قلب الجيش المرابطي بقيادة الأمير تميم إلى ميدان المعركة، وانضمّت إليه قوّات قرطبة بعدما أعادت تنظيم وحداتها فحاصروا الجيش القشتالي والتحمت الحرب بينهم[1]، وقد كانت معركة حامية الوطيس[2] قال عنها ابن أبي زرع أنّه كانت بينهم حروب عظيمة لم يسمع مثلها فهزم الله تعالى العدوّ ونصر المسلمين[3]، وذكر ابن الكردبوس بأنَّ الجيشين تقاتلا، وتضاربا، وتجاولا، وتحاربا فنصر الله جيش المسلمين، وانهزم العدوّ اللّعين[4].

وعن هذا النّصر يذكر ابن القطان أنَّ المرابطين حقّقوا نصرًا مؤزرًا وهزموا المسيحيِّين وقتلوهم قتلًا ذريعًا[5]، ويؤكد ذلك الأمير تميم في رسالته لأخيه علي حيث قال "فما وضح النّهار ولا مَسَخَ[6] الغبار حتّى خضعت منهم الرِّقاب، وقبلت رؤوسهم التُّراب"، وقال أيضًا "ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلّا أقلّهم"[7]، ومن بين هؤلاء القتلى الولد الوحيد لألفونسو السّادس الأمير سانشو (شانجة)[8].

1- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص66 .

2- يصف لنا الأمير تميم في رسالته إلى أخيه أمير المسلمين علي بن يوسف، هول المعركة في عبارات حماسية مضطرمة حيث قال "فعند ذلك اختلطت الخيل، بل سال السيل، وأظلم اللّيل، واعتنقت الفرسان، واندقّت الخرصان، ودجا ليل القتام، وضاق مجال الجيش اللِّهام، واختلط الحسام بالأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحى الحرب تغر بنكالها، وثارت ثائرة الطَّعن والضَّرب تفتك بأبطالها. (عن نص الرّسالة. انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

3- **روض القرطاس**، ص160 .

4- **تاريخ الأندلس**، ص114. (واكتفى ابن عذارى بالقول بأنَّه وقعت بين الجيشين حروب يطول ذكرها كانت الدائرة فيها على الرُّوم). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص50).

5- **نُظم الجمان**، ج6، ص66 .

6- مَسَخَ الغُبار بمعنى انْجَلَى، والمَسْخُ هو تَحْوِيلُ صُورَةٍ إلى صُورَةٍ أَقْبَحَ مِنْهَا، أو تَحْوِيلُ خَلْقٍ إلى صُورَةٍ أُخْرَى، ويُقَالُ: وأَمْسَخَ الوَرَمُ أَيْ انْحَلَّ. (انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مج5، ص4199 ؛ الفيروز ابادي، **القاموس المحيط**، ج1، ص267-268 ؛ الأزهري، **مُعجم تهذيب اللغة**، مج4، ص3392-3393).

7- عن نص رسالة الأمير تميم. (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

8- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص114 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص50 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160 ؛ السّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص**57** .

وعن مقتل الأمير سانشو فهناك روايتان الأولى لابن القطان ذكر فيها أنَّه حاول أن يفلت من المعركة مع ثمانية من كبار قادته[1] منهم مؤدبه الكونت غرسية أرذونش والالتجاء إلى حصن بلشون[2] القريب من أُقليش فهبَّ المسلمون المتواجدون فيه عليهم وقتلوهم جميعًا[3]، فعُرف مكان مصرعهم فيما بعد باسم الكونتات السَّبعة، كما عُرفت معركة أُقليش في الرِّوايات النَّصرانيَّة بمعركة الكونتات السَّبعة[4].

والرِّواية الثَّانيَّة للمستشرق أشباخ حيث قال أنَّه من سوء الطالع أنَّ الأمير سانشو دخل إلى ميدان المعركة عندما اشتد القتال بين الطرفين، فبادر إليه الأعداء متحمسين، وتقدَّم الكونت غرسية أرذونش مؤدبه للدِّفاع عنه، فلم يغن دفاعه شيئًا وسقط الكونت ضحية واجبه، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة الأمير سانشو[5].

وهكذا تمَّت الهزيمة السَّاحقة على الجيش القشتالي وأحرز المسلمون نصرهم الباهر في ذلك اليوم المشهود[6]، وغادر الأمير تميم ساحة المعركة إلى غرناطة، وكتب إلى أخيه أمير المسلمين علي

1- لم ينجو من القادة الكبار لألفونسو السَّادس غير ألبرهانس حيث قام بالفرار مع بعض قوَّاته إلى طليطلة. (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص194).

2- ذكره ابن القطان باسم بلشون، وكذلك ميراندا، بينما ذكرته معظم المراجع الحديثة باسم بلنشون، بالإسبانيَّة يكتب (Belinchon) وهو حصن يبعد بعشرين كيلومتر غرب مدينة أُقليش. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص66 ؛ **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص123 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص65 ؛ محمَّد سهيل طقُّوش، **تاريخ المسلمين في الأندلس**، ص510).

3- **نُظم الجمان**، ج6، ص66 .

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص65 .

5- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 123/1. (يبدو أنَّ غرض المستشرق أشباخ من هذه الرِّواية هو إظهار مدى شجاعة الأمير سانشو ومؤدبه الكونت غرسية أرذونش، فقال بأنَّهما دخلا إلى ميدان المعركة وقاتلا كالأبطال، وفي الصدد يأتي رأي المستشرق ميراندا متوازنًا ومعقولًا حينما انتقد هذه الرِّواية وقال بأنَّها صوَّرت الكونت غرسية أرذونش على أنَّه رجل بلغ الغاية القصوى من النبل والفروسيَّة والشَّجاعة، بينما يصفه خصومه بالنزول إلى مستوى مخجل من العجز والجبن والحسد). (انظر: **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص120).

6- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص65 .

بن يوسف بالفتح[1]، وترك مهمة حصار قصبة أُقليش[2] إلى قوات مرسيَّة وبلنسيَّة تحت إمرة قائديها ابن عائشة وابن فاطمة[3]، فلبثا على حصارها فترةً، وعندما استعصت عليهم تظاهرا بالانسحاب وبقوا على مقربة من المدينة مختبئين عن أنظار العدوّ، ولمّا خرج النَّصارى من القصبة هاربين انقض عليهم المسلمون فقتل من قُتل وأسر الباقون، واحتلوا القصبة وبذلك تمَّ استيلاءهم على مدينة أُقليش كلها[4].

3- نتائج المعركة:

تُعد معركة أُقليش واحدة من معارك المسلمين الكبرى في الأندلس إلَّا أنَّها لم تنل نفس شُهرة معركتي الزَّلاقة والأرك[5] وإن كانت لا تقل عنهما عظمةً وشهرةً، وقد أكدَّ ذلك ابن الخطيب حينما قال عنها أنَّها ثانية الزَّلاقة"[6]، وأكدَّ ذلك أيضًا عنان حيث قال أنَّ هذا النَّصر السَّاحق للمرابطين أعاد بروعته ذكريات موقعة الزَّلاقة[7]، ويتحدث كذلك ابن عذارى عن هذا النَّصر نقلًا

1- الرِّسالة من تأليف الوزير الكاتب ابن شرف على لسان الأمير تميم والي غرناطة بعثها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف عقب انتصار المسلمين في معركة أُقليش، حيث تلخص هذه الرِّسالة وقائع المعركة، وكيف استطاع المرابطون تحقيق النَّصر. (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

2- يبدو أنَّه عندما انتهى الصِّدام العنيف بين المسلمين والمسيحيِّين، وخمدت المعركة، فرَّ بعض النَّصارى وتحصنوا بقصبة المدينة (قلعة المدينة) لكي يسلموا من القتل.

3- يذكر الأمير تميم في رسالته أنَّ القائدين ابن عائشة وابن فاطمة بقيا محاصرين للنَّصارى في قصبة المدينة حصارًا شديدًا، آخذين بمخنَّقهم، ومستولين على رمقهم. (عن نص الرِّسالة. انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

4- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص66. (حاول المستشرق ميراندا أمبروسيو هويثي أن يُنقص من قيمة النَّصر الذي أحرزه المرابطون، حيث قال بأنَّ استيلاءهم على قصبة أُقليش لم يتم إلَّا بعد أن تظاهرا المسلمين بالانسحاب، وبقوا على مقربة من المدينة مختبئين عن أنظار العدوّ، واستغلوا خروج النَّصارى من القصبة هاربين فانقضّوا عليهم، واحتلوا القصبة. وأرى بأنَّ هذه عبارة عن خطة محكمة وضعها القائدين ابن عائشة وابن فاطمة تبين حنكتهما وخبرتهما العسكريَّة وقد تمكنا من خلالها الاستيلاء على قصبة المدينة). (انظر: **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص124).

5- عن معركة الأرك. (انظر: **ما يأتي**، ص379 وما بعدها).

6- **أعمال الأعلام**، ص253 .

7- **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص65 .

عن ابن الصَّيرفي[1] بقوله "فكان ذلك دليل اليُمن والبركة بولاية علي بن يوسف في أوَّل دولته"[2]، وقال أشباخ بأنَّ انتصار المرابطين في أُقليش يمكن أن نعتبره ذروة سلطانهم في الأندلس[3].

وهذا النَّصر المؤزر للمرابطين واضح من خلال النَّتائج المترتبة عنه كمقتل الأمير شانجة الابن الوحيد لألفونسو السَّادس وولي عهده[4]، وكذلك مقتل سبعة من كبار قادته في المعركة بالإضافة إلى مقتل الكثير من جنده، حيث يذكر ابن أبي زرع أنَّه قُتل من جيش النَّصارى أزيد من ثلاثة وعشرين ألفًا[5]، بينما يقول أشباخ أنَّه قُتل منهم عشرون ألفًا[6]، ويقول الأمير تميم في رسالته إلى أخيه علي أنَّه أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النَّصارى[7] فجمعت القريبة منها وتُركت

1- هو يحي بن محمَّد بن يوسف الأنصاري يكنى بأبي بكر وهو المشهور بابن الصَّيرفي، وهو أحد علماء وكتاب وشعراء غرناطة أيام المرابطين، وكان من أهل المعرفة بالأدب والعربية والفقه والتَّاريخ، له كتاب الأنوار الجليَّة في أخبار الدَّولة المرابطيَّة وهو الآن في حكم المفقود، وقد نقل من كتابه هذا معظم المؤرخين الذين جاءوا بعده مثل صاحب الحُلل الموشيَّة وابن عذارى وابن الخطيب وغيرهم، وله أيضًا كتاب تقصِّي الأنباء في سياسة الرؤساء، توفي بغرناطة في حدود سنة 570هـ/1174م. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص93، هامش95 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص49-50 ؛ **الإحاطة**، مج4، ص407 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ عيسى بن الذيب، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دراسة اجتماعيَّة واقتصاديَّة (448-540)هـ/(1056-1145)م**، رسالة الدكتوراه في التَّاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، قسم التَّاريخ، 2009م، ص ي).

2- **البيان المغرب**، ج4، ص50 .

3- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 124/1 .

4- يذكر ابن عذارى أنَّه بعد عام وشهرين تقريبًا مات ألفونسو السَّادس همًا وحزنًا على إثر مقتل ابنه الوحيد سانشو وعلى هلاك عسكره في معركة أُقليش، وكانت وفاته بطليطلة في شهر ذي الحجة سنة 502هـ الموافق لشهر جويلية 1109م، في حين أنَّ ابن أبي زرع يقول أنَّه توفي بعد عشرين يومًا من موقعة أُقليش سنة 502هـ/1109م، وقد ذكرت سابقًا أنَّه أخطأ في تحديد تاريخ الموقعة حينما قال أنَّها حدثت سنة 502هـ/1109م والصَّحيح أنَّها حدثت قبل ذلك بعام أي سنة 501هـ/1108م. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص50 ؛ **روض القرطاس**، ص160).

5- **روض القرطاس**، ص160 .

6- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، 123/1 .

7- وصف الأمير تميم في رسالته كثرة الجُثث التي جُمعت في نهاية المعركة، بقوله "كانت كالهضب الجسيم، بل الطَّودِ العظيم". (عن نص الرِّسالة. انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

البعيدة، فكان عددها أكثر من ثلاثة آلاف رأس[1]، وقد أذن من فوقها المؤذنون يوحّدون الله ويكبرون وفقًا للتّقليد المأثور عند المسلمين[2].

أما عن خسائر المسلمين في الموقعة فلا نملك أرقام معينة لأنَّ المؤرخين لم يذكروا عدد قتلاهم بالتّحديد، ويرى عنان أنّها كانت ذات شأن[3]، واكتفى ابن أبي زرع بذكر عبارة أوردها في ختام كلامه عن المعركة يقول فيها "واستشهد جماعة من المسلمين رحمهم الله"[4]، بينما قال ابن القطان أنّه استشهد في هذه الوقيعة الإمام الجزولي وكان رجل صدق، وجماعة من الأعيان والعربان[5] رحمهم الله تعالى[6]، ولم يذكر أشباخ أيضًا عدد قتلى المسلمين ولكنه حاول أن يُنقص من

1- اختلف المؤرخون في تحديد عدد قتلى النَّصارى فيرى ابن أبي زرع أنَّه قُتل منهم أكثر من ثلاثة وعشرون ألفًا، ويرى أشباخ أنَّه قُتل منهم عشرون ألفًا وهاتين الرّوايتين الأرجّح أنّهما تجانبان الصواب، بينما يقول الأمير تميم في رسالته أنَّ عددهم كان أكثر من ثلاثة آلاف قتيل، وأرى أنَّ عدد قتلاهم يكون ما بين سبعة آلاف وعشرة آلاف قتيل، وهناك أدلة كثيرة تثبت ذلك منها أنَّ عدد الجيوش المشاركة في المعركة، حيث نملك روايتين إسلاميتين تحددان عدده الأولى تقدره بعشرة آلاف وهي لابن القطان والثّانيّة تقدره بسبعة آلاف فارس وهي لابن عذارى، وبالنَّظر لما قاله الأمير تميم في رسالته "ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلَّا أقلهم" هو دليل على أنَّه لم ينجو منهم إلَّا عدد قليل، كما أنَّ الأمير تميم عندما أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النَّصارى جُمعت القريبة من المكان الرئيسي للمعركة فقط ولم تجمع البعيدة منها فكان عددها أكثر من ثلاثة آلاف رأس، فلو جمعت كل الرؤوس لوصل العدد إلى حوالي سبعة آلاف قتيل، ويمكن أن نضيف دليل آخر وهو وجود نصارى متحصنين بقصبة المدينة قبل اندلاع المواجهة بين الجيشين، ومعلوم أنَّ المسلمين اقتحموا هذه القصبة وقتلوا عدد معتبر منهم. (أنظر: **روض القرطاس**، ص160 ؛ **نُظم الجمان** ج6، ص64 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص50 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص123). (وعن نص رسالة الأمير تميم إلى أخيه علي). (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

2- ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص123 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحّدين**، ص65. (انظر أيضًا: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

3 - **عصر المرابطين والموحّدين**، ص66 .

4- **روض القرطاس**، ص160 .

5- يبدو أنَّ طائفةً من العرب الهلاليّين الذين كانوا في المغرب إذ ذاك جازوا إلى الأندلس في أيام المرابطين برسم الجهاد، وقد شاركوا في هذه المعركة واستشهد بعضًا منهم، وقد تحدث الأمير تميم في رسالته عن أحد هؤلاء الفرسان العرب المشاركين في المعركة دون ذِكر اسمه حيث قال "فبرز فارس من العرب، فطعن فارسًا منهم فأذراه من مركبه، ورماه بين يدي موكبه". (انظر: ابن القطان، **نُظم الجمان** ج6، ص66، هامش5 ؛ حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص41، هامش2). (وعن نص رسالة الأمير تميم إلى أخيه علي). (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

6- **نُظم الجمان** ج6، ص66 .

قيمة النَّصر الذي أحرزه المرابطون عندما قال "بيد أنَّ المسلمين لم يحرزوا النَّصر دون خسارة فادحة، وهذا ما يفسر كونهم لم يتابعوا ظفرهم بالتَّوغل في ولاية طليطلة[1] ولم يستولوا إلَّا على بعض المدن القريبة من أُقليش"[2].

وبالإضافة إلى الخسائر البشريَّة الهائلة للنَّصارى في هذه المعركة، استطاع المرابطون من خلال هذا النَّصر أن يضيفوا مجدًا جديدًا إلى سلسلة أمجادهم بالأندلس[3]، وأن يحقِّقوا العديد من الأهداف أهمها:

– تمكن المسلمون من الاستحواذ على الكثير من الغنائم بعد نهاية المعركة، وقد أكدَّ الأمير تميم ذلك في رسالته إلى أخيه الأمير علي حينما قال "وملئت الأيدي بنيلٍ وافى الكيل، خيلًا وبغالًا وسلاحًا ومالًا، ودروعًا"[4].

1– أغلب المؤرخين المحدثين خاصةً المستشرقين منهم مثل أشباخ وميراندا، يعتبرون أنَّ الأمير تميم ارتكب خطأً فادحًا عندما أحجم عن التَّوغل في أعماق قشتالة لمطاردة الفلول الهاربة إلى طليطلة ومحاصرتها والاستيلاء عليها، وقالوا بأنَّ هذا الأمر يثير الاستغراب والحيرة في آنٍ واحد، وأكدُّوا أنَّ هذا الموقف لم يكن الأوَّل في تاريخ المرابطين فقد حدث مثل هذا الموقف بعد انتصارهم في الزَّلاقة في عهد يوسف بن تاشفين، وأرى بأنَّه لم يرتكب هذا الخطأ لأنَّ هناك ظروفًا وأسبابًا منعته من فعل ذلك، حيث أنَّ معركة أُقليش كانت حامية الوطيس والمرابطين أيضًا خسروا في المعركة عددًا لا يستهان به من المقاتلين، ومن غير الممكن إعادة تنظيم صفوف الجيش بسرعة فائقة والهجوم على مدينة بحجم طليطلة، لأنَّ الهجوم عليها يحتاج إلى وقت كبير لتحضير العُدَّة والعتاد اللازمين؛ وقد حدث الهجوم على طليطلة عندما توفرت السُبل فقد ذكر ابن أبي زرع ذلك إثر حديثه عن العبور الثَّاني للأمير علي بن يوسف إلى الأندلس في الخامس عشر من محرم سنة 503هـ/13 أوت 1109م. ثمَّ أنَّ عملية مطاردة الفلول الهاربة قد حدثت بالفعل لأنَّ المرابطين استولوا بعد نهاية المعركة مباشرةً على مجموعة من المدن القشتاليَّة مثل قونكة ووبذة وغيرهما وهذه المدن تبعد عن أُقليش أميالًا عديدة. (انظر: **روض القرطاس**، ص161 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص123–124؛ **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص123 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص66 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص196–197).

2– **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص123–124 .

3– ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، ص254 .

4– عن نص الرِّسالة. (انظر: **الملحق رقم 7**، ص420 وما بعدها).

– استيلاء المرابطين على الكثير من الحصون والقلاع والمدن القشتاليَّة الواقعة على مقربة من أُقليش مثل مدينتي قونكة ووبذة[1] وغيرهما[2].

– تدعيم وتثبيت سلطان المرابطين على الأندلس بعد أن تعرض للاهتزاز أواخر عصر الأمير يوسف بن تاشفين[3].

– إيقاف حركة الاسترداد المسيحي لفترة زمنية معتبرة، حيث أصبحت مملكة قشتالة في حالة اضطراب وفوضى بالخصوص بعد وفاة ألفونسو السَّادس بنحو عام من المعركة[4].

– فتح الطَّريق أمام المرابطين إلى سرقسطة ومدن الثغر الأعلى للأندلس، لأنَّ أُقليش كانت على الطريق تحول بينهم وبين القيام بأي عمل عسكري حاسم في هذه النَّاحيَّة[5].

– أسهم هذا النَّصر إسهامًا فعالًا في رفع معنويات المسلمين بالأندلس، وفي إعلاء سمعتهم العسكريَّة والدِّفاعيَّة[6]، فشَّجَّع ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف على معاودة غزو قشتالة ومحاصرة عاصمتها طليطلة[7].

1– تُسمى بالإسبانيَّة (Hueta) وهي مدينة بشرق الأندلس لها أقاليم ومزارع عامرة، تقع غرب قونكة (قونقة)، وشمال شرق طليطلة بينها وبين أُقليش ثمانية عشر ميلًا وهي إلى الشمال منها. (انظر: الإدريسي، **القَّارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص287 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص607 ؛ المقريزيّ، **جَنى الأزهار من الرَّوض المعطار**، ص119) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

2– كما استولى المرابطون على مدن أمستريجو وأوريوالة وأقونية وقونسويجرا. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص123-124).

3– حمدي عبد المنعم محمَّد حسين، **التَّاريخ السِّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص163.

4– **نفسه** .

5– سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص197 .

6 – عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص67 .

7– سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص197 .

ثانيًا– العبور الثَّاني وضم سرقسطة والجزائر الشَّرقيَّة للدَّولة المرابطيَّة:

1– فتح طلبيرة ومحاصرة طليطلة:

لقد كان انتصار أُقليش فاتحة لبرنامج منظم من الغزوات المرابطيَّة لأراضي النَّصارى، ذلك أنَّه لم يمضي عام وشهرين على موقعة أُقليش حتَّى عبر أمير المسلمين علي بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثَّانيَّة في جيوشه الجرارة، وكان عبوره من مدينة سبتة في الخامس عشر من محرم سنة 503هـ الموافق للرَّابع عشر من شهر أوت 1109م[1]، وقد عبر في تلك المرة بقصد الجهاد خاصة، ومحاولة استعادة طليطلة[2] والمدن المجاورة لها مثل مدينة طلبيرة[3] وغيرها، وهذا ما يؤكده لنا ابن عذارى بقوله "برسم الغزوّ والجهاد"[4]، وابن الكردبوس بقوله "قاصدًا الغزو، فنزل الجزيرة بجيوش غزيرة، فقصد نحو طليطلة ونزل بابها"[5]، وصاحب الحُلل الموشيَّة بقوله "برسم الجهاد، ونصر الملة

1– ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص161 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص59. (اكتفى ابن الكردبوس وابن عذارى وصاحب الحُلل الموشيَّة بذكر سنة العبور وهي 503هـ/1109م دون ذكر اليوم والشهر). (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص116؛ **البيان المغرب**، ج4، ص52 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص85).

2– يبدو أنَّ أمير المسلمين علي بن يوسف أراد استغلال فرصة وفاة ألفونسو السَّادس في ذي الحجة 502هـ/جويلية 1109م وتذبذب أركان دولته، بتولي ابنته أوراكا للحكم، والعبور بنفسه إلى الأندلس بقصد محاصرة طليطلة واستعادتها من أيدي القشتاليِّين. وأريد أن أشير إلى أنَّ بعض المراجع الحديثة أخطأت في قولها أنَّ الأمير علي أراد استغلال نشوب حرب أهلية بين ألفونسو الأوَّل المحارب ملك أراغون ونافارا، وزوجته أوراكا ملكة قشتالة وليون وأشتوريش، بقصد استعادة طليطلة، والصَّحيح أنَّه لم يتزوجا قبل محاولة استعادتها، وعبور الأمير علي إلى الأندلس الذي حدث في الخامس عشر من محرم سنة 503هـ الموافق للرَّابع عشر من شهر أوت 1109م، والزواج حدث بعد ذلك بحوالي شهر أي في صفر سنة 503هـ/سبتمبر 1109م، بالإضافة إلى أنَّ بداية الحرب الأهليَّة بينهما كانت بعد مرور عدَّة أشهر من زواجهما. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص115–116، هامش4 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص147 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص201).

3– المقصود هنا طَلَبِيرَة دي لارينة (Talavera de la Reina) وهي مدينة كبيرة من أعمال طليطلة تقع في جهتها الغربية وعلى سبعين ميلًا منها، وهي على ضفة نهر التاجة. (انظر: **ما سبق**، ص118 هامش 4).

4– **البيان المغرب**، ج4، ص52 .

5– **تاريخ الأندلس**، ص116 .

وإعزاز الكلمة، فقصد طليطلة ونزل على بابها"[1]، وابن القطان الذي قال "تحرك علي بن يوسف غازيًا في حفل عظيم من الجند والملثمين وجماعة المطوعين نحو طلبيرة"[2].

وقد عبر أمير المسلمين إلى الأندلس أولًا واستقر بغرناطة فترة وجيزة إلى غاية وصول الجيوش المغربيَّة وتأهب الجيوش الأندلسيَّة[3]، وعندما اجتمعت جميع فرق الجيش الذي يزيد على مائة ألف فارس حسب ابن أبي زرع[4]، ويزيد على مائة ألف فارس وثلاثة مائة ألف راجل حسب عنان[5]، ومائة ألف فارس وثلاثة آلاف راجل حسب أشباخ[6]، اتجه صوب قرطبة فمكث فيها شهرًا[7] يضع خططه، ويستكمل أهباته[8].

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص85 .

2- **نُظم الجمان**، ج6، ص69 .

3- **البيان المغرب**، ج4، ص52 .

4- **روض القرطاس**، ص161. (لم تحدد أغلب المصادر التَّاريخيَّة عدد الجيش الذي عبر إلى الأندلس مع الأمير المرابطي علي بن يوسف، واكتفت بالتعبير بصور مختلفة، يُفهم منها على أنَّه جيش ضخم، منهم ابن الكردبوس الذي قال "فنزل الجزيرة بجيوش غزيرة"، وابن القطان الذي قال "تحرك علي بن يوسف غازيًا في حفل عظيم من الجند والملثمين وجماعة المطوعين). (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص116 ؛ **نُظم الجمان**، ج6، ص69).

5- **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص68 .

6- نلاحظ اختلاف في تقدير عدد الجيش بين المؤرخين، ولكن هناك إجماع بينهم على أنَّ العدد حوالي مائة ألف فارس، وهو تقدير فيه مبالغة شديدة حسب رأي أشباخ وعنان. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص147؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص68).

7- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص161 ؛ السَّلاويّ، **الاستقصا**، ج2، ص59. (لم يحدد ابن عذارى عدد الأيام التي مكث فيها الأمير علي بقرطبة بدقة، واكتفى بقوله وأقام بها أيامًا). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص52).

8- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص68 .

ثمَّ تحرك منها على رأس قواته إلى مدينة طلبيرة[1]، وعبر جبل الشارات ثمَّ جبل طليطلة وانقض المرابطون كالسيل على أراضي ولاية طليطلة، فعاثوا فيها وانتسفوا زروعها، وخربوا ديارها وسبوا كثيرًا من السكان[2]، واستولوا على سبعًا وعشرين حصنًا من حصونها[3]، وهبت ريح من الرعب والروع على النَّصارى في تلك الأنحاء[4].

ولمَّا وصل المرابطون إلى طلبيرة والتي كانت محاطة بسور حسبما يذكر ابن القطان، والسور يتصل به وادٍ، فاضطر المرابطون إلى خرق الوادي وتغيير مجرى الماء، فقلَّ ماء الوادي أمام باب المدينة[5]، فاقتحمها المسلمون وفتحوها عنوةً[6] بعدما اقتتلوا مع أهلها قتالًا شديدًا[7]، وقتلوا

1- تختلف المصادر التَّاريخيَّة في تحديد المنطقة التي قصدها أمير المسلمين أولًا خلال غزوته هذه، حيث يقول ابن عذارى أنَّه قصد طلبيرة ثمَّ طليطلة، ويقول صاحب الحُلل الموشيَّة وأشباخ أنَّ العكس هو الذي حدث. وأرى أنَّ رواية ابن عذارى هي الأقرب إلى الحقيقة، لأنَّه يبدو أنَّ المرابطين كانوا يريدون الاستيلاء على طلبيرة أولًا لتضييق الحصار على طليطلة من جهة الغرب بعدما نجحوا في الاستيلاء على أُقليش من جهة الشرق، أي أنَّ محاصرة طليطلة واجتياحها لم يكن إلَّا نتيجة حتمية لسقوط طلبيرة. ويمكن أيضًا قبول رواية صاحب الحُلل الموشيَّة وأشباخ والتي مفادها أنَّ المرابطين قصدوا طليطلة أولًا لمنع وصول الإمدادات منها، إذا ما افترضنا أنَّهم قد استفادوا درسًا عمليًا من وقعة أُقليش، فقد سبق أن رأينا أنَّه عندما قصد الأمير تميم أُقليش وحاصرها، هبَّ القشتاليون من طليطلة لنجدة مدينتهم. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص52 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص85 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص147-148 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهدفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص200-201).

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص68 .

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص161 ؛ السَّلاويّ، **الإستقصا**، ج2، ص59 .

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص68

5- **نُظم الجمان**، ج6، ص69-70 .

6- **الحُلل الموشيَّة**، ص85 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148. (يذكر ابن القطان أنَّ المرابطون وصلوا طلبيرة يوم الخميس 13 محرم 503هـ/12 أوت 1109م واقتتلوا مع النَّصارى، ثمَّ واصلوا الاقتتال يوم الجمعة، وفي يوم السبت فتحوها عنوةً، ولكن المرجح أنَّه وقع الفتح بعد ذلك بحوالي شهر ونصف أو شهرين، لأنَّ هذا التَّاريخ الذي ذكره هو تاريخ عبور أمير المسلمين إلى الأندلس، ومعلوم أنَّه استقر بغرناطة أيامًا، ثمَّ مكث بقرطبة شهرًا، ثمَّ توجه نحو طلبيرة مارًا على جبل الشارات وجبل طليطلة واستولى على قلاع وحصون وأراضي تابعة لولاية طليطلة، فمن المؤكد أنَّ تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى وقت محدد ربما يصل إلى شهرين. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص69-70).

7- يقول ابن عذارى أنَّه وقع النَّهب والسبي في المدينة لمَّا دخلها المرابطون. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص52).

معظمهم، واستنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين[1]. ولجأت جماعة من النَّصارى إلى قصبة المدينة واعتصموا بها، وفي الليل رموا بأنفسهم في الوادي المحيط بسور المدينة وتسربوا بين المحلات وأفلتوا، واستولى المرابطون على القصبة والمدينة ككل[2]، وامتلأت أيديهم بالأسلحة والثياب والماشية وغيرها من المتاع، وردوا كنيستها كما كانت جامعًا، وندب لها أمير المسلمين علي بن يوسف الرِّجال والرُّماة والخيل وجعل عليهم أحد المرابطين واليًا وقائدًا[3]. وقبل أن يتجه إلى اجتياح طليطلة ومحاصرتها يذكر ابن أبي زرع[4] أنَّ أمير المسلمين فتح مدينة طلايوت[5] عنوةً، وفتح مجريط[6] ووادي الحجارة[7]. واتجه أمير المسلمين بعد ذلك بجيشه إلى طليطلة، وفي طريقه استولى على عدد كبير من القلاع والحصون الصغيرة، وانتسف الحقول، واسترق السكان[8]، وبثَّ الذعر والروع في قلوب أهلها

1- يذكر ابن القطان أنَّ قاضي الجماعة بقرطبة ابن حمدين كان أثناء المعركة يحرض النَّاس على الجد والاجتهاد في القتال. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص70).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص52. (غير أنَّ ابن القطان يذكر طريقة أخرى لفرار النَّصارى من قصبة المدينة عندما جنَّ الليل، حيث قال أنَّهم تلثموا وخرجوا على خيولهم هاربين، فتبعهم المسلمون، ثمَّ ساروا إلى حصن قنالش ودخلوه عنوةً). (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص70).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص52 .

4- **روض القرطاس**، ص161. (يذكر أشباخ وكذلك عنان نقلًا عن الرِّواية القشتاليَّة أنَّ مدن طلبيرة ومجريط ووادي الحجارة وقنالش فتحها المرابطون عنوةً وقُتل سكانها الذين اجترؤوا على المقاومة، بعد محاولة فتح طليطلة وليس قبلها). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص69).

5- بحثت في مختلف المصادر الجغرافيَّة والتَّاريخيَّة ولكنِّني لم أوفَّق لإيجاد تعريف لهذه المدينة، ويبدو أنَّ ابن أبي زرع يقصد بها مدينة طلبيرة. (انظر: **روض القرطاس**، ص161).

6- (Magerit) وهي مدينة مدريد (Madrid) عاصمة اسبانيا حاليًا، تقع شمال طليطلة، وجنوب غرب مدينة وادي الحجارة، وهي مدينة صغيرة وقلعة منيعة معمورة. (انظر: الإدريسي، **القارة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص276 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص523) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 1**، ص432).

7- تُعرف أيضًا بمدينة الفَرَج، تقع شمال طليطلة وتبعد عنها بخمسة وستون ميلًا، وجنوب غرب مدينة سالم وتبعد عنها خمسون ميلًا، وهي مدينة ذات أسوار حصينة، يجري بغربها نهر صغير ويصب في نهر تاجه الأكبر، ولها في ضفافه بساتين وجنات وكروم. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا**، ص62-63 ؛ الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص276-277 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص606) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 4**، ص435).

8- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148 .

القشتاليون[1]، ثمَّ مضى يحاصر عاصمتهم طليطلة، فحاصرها شهرًا حسب رواية ابن أبي زرع والسلاوي[2]، ومدَّة ثلاثة أيام فقط وفقًا لرواية ابن عذارى[3]، ثمَّ بدأ بفك الحصار والقفول عنها[4] إلى قرطبة[5] محملًا بالغنائم بعد أن قضى أربعين يومًا في هذه الغزوة[6].

غير أنَّ الرِّواية القشتاليَّة والتي ذكرها أشباخ ونقلها أيضًا عنان تقول بأنَّ الحصار دام سبعة أيام، وقد قام للدِّفاع عن طليطلة قائد قشتالة الأوَّل ألبرهانس في حامية قوية وبذل المرابطون جهودًا فادحة، وضربوا أسوارها بالمناجيق ضربًا شديدًا، وحاولوا حرق بعض أبراجها، ولكن جهودهم ذهبت كلها سدى[7]، واستطاع القشتاليون اعتمادًا على حصانة مدينتهم، وأسوارها المنيعة العالية، أن يردوا كل محاولات المرابطين[8]، وفي اليوم السَّابع خرج ألبرهانس واشتبك مع المرابطين في معركة شديدة، فاضطر المرابطون إلى رفع الحصار ومغادرة المدينة، بعد أن أحرقوا آلات

1- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص117 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148.

2- **روض القرطاس**، ص161 ؛ **الإستقصا**، ج2، ص59 .

3- يذكر ابن عذارى أنَّه أثناء حصار طليطلة ساءت ظنون أهلها بأنَّ مدينتهم مآلها السقوط رغم حصانتها الشديدة. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص52).

4- لم تذكر الرِّوايات الإسلاميَّة على الإطلاق الأسباب التي أدت بالأمير علي بن يوسف لرفع الحصار على طليطلة، واكتفت أغلب المصادر بذكر العودة فقط دون ذكر السبب مثل ابن الكردبوس الذي قال "فكرَّ من طليطلة إلى العدوة راجعًا، وإلى مقر ملكه مسارعًا"، وابن عذارى بقوله "وأخذت الجيوش في القفول يوم الجمعة وانقضى أمر هذه الحركة في أربعين يومًا" وابن أبي زرع الذي قال "ثمَّ قفل من طليطلة إلى قرطبة بعد أن دوخها". (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص117 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص52 ؛ **روض القرطاس**، ص161).

5- يذكر ابن أبي زرع والسلاوي أنَّه قبل فك الحصار عن طليطلة دوخ أمير المسلمين أقطارها، وقطع ثمارها، وبالغ في النكاية بقلاعها وحصونها. (انظر: **روض القرطاس**، ص161 ؛ **الإستقصا**، ج2، ص59).

6- يذكر ابن عذارى أنَّ المرابطون قضوا في فتح طلبيرة ومحاصرة طليطلة حوالي أربعين يومًا، ويبدو أنَّه بدأ يحسب لأيام الغزوة من انطلاق الجيوش من قرطبة في حدود منتصف شهر صفر 503هـ الموافق لشهر سبتمبر 1109م. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص52).

7- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص68-69 .

8- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148 .

الحصار، واتجهوا بعد ذلك شمالًا واستولوا على مدينة طلبيرة عنوةً[1]. وهناك دب الوباء في الجيش المرابطي، فاضطر علي بن يوسف إلى مغادرة أراضي العدوّ وأن يعود أدراجه إلى قرطبة[2].

وعلى العموم كانت هذه الحملة موفقة إلى حدٍ بعيد، رغم عدم استعادة المرابطين لطليطلة فلم يعهد في ذلك الوقت مثلها قوةً وظهورًا،وعدَّةً ووفورًا[3]، ونكايةً في العدوّ[4]. وقد حقَّقت العديدمن الأهداف أهمها:

– استيلاء المرابطين على مجموعة من المدن القشتاليَّة مثل طلبيرة، ومجريط ووادي الحجارة، ومجموعة من القلاع والحصون وصل عددها إلى حوالي سبعة وعشرين حصنًا[5].

– استحواذ المرابطين على الكثير من الغنائم بعد نهاية الحملة، وقد أكَّد ذلك ابن عذارى بقوله "وامتلأت أيدي المسلمين بالسَّقَط[6] والثياب والماشية والأسلحة"[7].

– بث الرعب والخوف في نفوس القشتاليِّين، حيث أصبحوا يدركون مدى القدرة العسكريَّة للمرابطين في الأندلس، وبذلك توقف تهديدهم لأراضي المسلمين[8].

1- كما فتح المرابطون أيضًا مدن مجريط ووادي الحجارة وقنالش عنوةً. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص69).

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص69 .

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص52 ؛ مجهول، **الحُلل الموشيَّة**، ص85-86 .

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص52 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص161 ؛ السلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص59 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148).

6- السَّقَطُ: هو ما أُسْقِطَ مِنَ الشَّيْءِ، أَيْ مَا تُسْقِطُهُ فَلا تَعْتَدُّ بِهِ مِنَ الجُنْدِ والقَوْمِ وَنَحْوِهِ، وهُوَ أَيْضًا: رَدِئُ المَتَاعِ وحَقِيرُهُ. (انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مج3، ص2038).

7- **البيان المغرب**، ج4، ص52 .

8- ذكر ابن الكردبوس أنَّ أهل قشتالة أصابهم أثناء حصار طليطلة الخوف والجزع وخامر قلوبهم الفزع، ويقول ابن عذارى أنَّ من أثار هذه الحملة أن بقي الرعب في قلوب القشتاليِّين. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص117 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص52).

وبتحقيق هذه الأهداف السالفة الذكر، واطمئنان أمير المسلمين علي بن يوسف على سير عمليات الفتح، ورد حركة الاسترداد المسيحي ببلاد الأندلس عاد إلى بلاد المغرب حتَّى لا يطول غيابه عن مُرَّاكش عاصمته ومركز مملكته الشاسعة[1]، ولكن الفتوحات المرابطيَّة استمرت على نشاطها وشدتها خاصةً في شرق الأندلس حيث توجد مدينة سرقسطة بالثغر الأعلى[2].

2- الاستيلاء على سرقسطة:

لمَّا استشهد صاحب سرقسطة المستعين بالله الثَّاني أحمد بن هود في ملحمة يوم الاثنين مستهل رجب سنة 503هـ/24 جانفي 1110م[3] بالقرب من مدينة تُطيلة[4]، تولى ابنه أبو مروان عبد الملك الملقب عماد الدَّولة[5] أمر سرقسطة وبايعه النَّاس بعدما اشترطوا عليه ألا يستخدم الرُّوم ولا يتلبس بشيءٍ من أمرهم[6].

وعندما سمع ابن فاطمة والي بلنسيَّة بموت المستعين بالله الثَّاني طمع في الاستيلاء على سرقسطة، فنظَّم حملةً عسكريةً بعد حوالي شهر من موت المستعين، فلمَّا اقترب من سرقسطة

1- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص117 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148 .

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص69 .

3- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص55 ؛ المقري، **نفح الطِّيب**، مج1، ص441 .

4- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص147. (غير أنَّ ابن الكردبوس يقول أنَّ المستعين استشهد بالتَّحديد بضواحي مدينة قامرة، والتي تقع حسب المصادر المسيحيَّة بالقرب من بلدة بلتيرة على ضفاف نهر الإيبرو وشمال مدينة تُطيلة وشمال غرب سرقسطة). (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص117).

5- يذكر المستشرق أشباخ أنَّ عماد الدَّولة كان أميرًا شجاعًا ولكنه لم يكن مثل أبيه ذكاءً وفطنةً، ولم يستطع مثله أن يوطِّد لنفسه نوعًا من الاستقلال في تلك الآونة العصيبة وإزاء جيرانه الأقوياء. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص147).

6- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص53 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة**، ص175 .

راسله أهلها وترجوه بعدم إشعال فتيل الحرب على عماد الدَّولة خشية أن يستعين بالرُّوم[1]، فتركه ابن فاطمة وشأنه، ولكنه نقض العهد مع رعيته والتجأ إلى الرُّوم[2]، فاستدعى أهل سرقسطة الوالي الجديد لبلنسيَّة محمَّد بن الحاج لأجل خلع عماد الدَّولة والاستيلاء على مدينتهم[3]، ولمَّا سمع أمير المسلمين علي بن يوسف وهو في مرَّاكش بهذه الأحداث استشار أهل دولته وفقهاءه، فأشاروا عليه بأن يطلب مُلك بني هود بشرق الأندلس وقالوا له "الشرع يدعوك أن تسعى في أخذ تلك البلاد منهم، لكونهم مسالمين للرُّوم"[4] فأخذ برأيهم، وبعث إلى محمَّد بن الحاج[5] يأمره بالمسير للاستيلاء على سرقسطة، ولمَّا سمع عماد الدَّولة بقدومه تحصن ببلاده، وكتب إلى أمير المسلمين علي كتابًا[6] بعثه إليه بمرَّاكش يستصرخه فيه، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة، وأنَّه لم يصدر منه في حقه أية إساءة، وأنَّه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجزًا بينه وبين النَّصارى[7]، ولمَّا وصل كتابه إلى أمير المسلمين علي بمرَّاكش، خاطب ابن الحاج وأمره بالكف عن بلاده، ولكن بعد فوات الأوان[8]، حيث دخل ابن الحاج مدينة سرقسطة صبيحة العاشر من شهر

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص53 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة**، ص175 .

2- يذكر ابن الأبَّار بأنَّ عماد الدَّولة نقض العهد مع رعيته والتجأ إلى الرُّوم عندما استشعر ميلهم إلى المرابطين. (انظر: **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248).

3- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص53-54 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة**، ص175 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص98 .

5- كل المصادر التَّاريخيَّة تذكر أنَّ والي بلنسية محمَّد بن الحاج هو من استولى على سرقسطة سنة 503هـ/1110م، ماعدا صاحب الحُلل الموشيَّة الذي يذكر أنَّ الأمير أبا بكر بن إبراهيم بن تيفلويت هو من استولى عليها بأمر من أمير المسلمين علي بن يوسف، والصَّحيح أنَّ الأمير أبا بكر بن إبراهيم بن تيفلويت تولى ولاية سرقسطة بعد استشهاد محمَّد بن الحاج في إحدى غزواته في برشلونة سنة 508هـ/1114م حسب ابن أبي زرع أو سنة 509هـ/1115م حسب ابن عذارى. (انظر: **مفاخر البربر**، ص189 وما بعدها ؛ ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248 ؛ **روض القرطاس**، ص160؛ **البيان المغرب**، ج4، ص61 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة**، ص175 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص98-99).

6- عن نص الرِّسالة التي أرسلها عماد الدَّولة إلى الأمير المرابطي علي بن يوسف. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص98-99).

7- عنان، **دول الطوائف**، ص292 .

8- **الحُلل الموشيَّة**، ص99 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص148 .

ذي القعدة سنة 503هـ/30 ماي 1110م ففتحت له الأبواب من قبل أهلها واستولى عليها[1] وكتب بالفتح إلى الأمير علي بن يوسف[2].

أمَّا عماد الدَّولة فعندما علم بمقدم ابن الحاج غادر سرقسطة في أهله وأمواله إلى حصن رُوطة[3] واستنجد بأذفونش بن رذمير المشهور بألفونسو المحارب[4] فلحق به إلى هذا الحصن، فتقدَّم هذا الأخير إلى سرقسطة بجيشه، وعندما بقي حوالي فرسخين منها أمر ابن الحاج جنوده لكي يستعدوا لملاقاة جيش ألفونسو المحارب، فقاموا بحراسة مداخل المدينة طيلة اليوم، ولكنهم ارتكبوا خطأً فادحًا في آخره حيث تركوا مراكزهم، وتسللوا إلى المدينة، فظهر الخلل والاضطراب في صفوف جيش المرابطين.

1- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص53-54 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانيَّة الإسلاميَّة**، ص175.(غير أنَّ ابن أبي زرع أخطأ في قوله بأنَّ المرابطين استولوا عل سرقسطة سنة 502هـ/1108م). (انظر: **روض القرطاس**، ص160).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160 .

3- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248. (غير أنَّ ابن عذارى يقول أنَّ عماد الدَّولة فرَّ إلى حصن تُطيلة وليس إلى حصن رُوطة). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص54).

4- هو (Alfonso Sánchez) المعروف باسم ألفونسو الأوَّل المحارب (Alfonso I el Batallador) خلف أخاه بيدرو الأوَّل على عرش أراغون ونافارا في سنة 498هـ/1104م، واستمر في الحكم إلى غاية وفاته سنة 528هـ/1134م، تسميه المصادر الإسلاميَّة ابن رذمير وهو الصيغة الأقرب إلى الصحة على ابن ردمير الذي ذكرته بعض المراجع الحديثة، وترجع التسمية إلى الصيغة الأصلية للاسم الجرماني لوالده (Rodumir) وقد حرفه الإسبان إلى راميرو أو راميرز (Ramirez). ضمَّ عقب وفاة حميه ألفونسو السَّادس إلى مملكته الأصلية أراغون ونافارا ميراث زوجته أوراكا المشتمل على ممالك ليون وقشتالة وأشتوريش، وعلى إمارتين جديدتين تؤديان له الضَّريبة هما جليقية والبرتغال، ولو ضمَّت إليه إمارة برشلونة لشمل حكمه جميع اسبانيا النَّصرانيَّة، كان له حماس ديني لا نظير له في محاربة المسلمين فترك لأجل ذلك حياة الترف والرخاء ليتفرغ لقتالهم. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص115-116، هامش4 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص145 وما بعدها؛ مؤنس حسين، **الثغر الأعلى**، ص22 وما بعدها ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص217 وما بعدها).

فانتهز ألفونسو المحارب الفرصة وقسَّم جيشه فرقتين قاتلت إحداهما ابن الحاج والأخرى ابنه أبا يحي وكانت معركةً ضاريةً، تخلى فيها الجُند عن أبا يحي وتركوه وحيدًا في المعركة فاستشهد هناك[1]، واستشهد معه عدد من المسلمين وذلك عشية يوم الأحد منتصف شهر ذي الحجة سنة 503هـ/الموافق للثَّالث جويلية 1110م[2]، ورغم ذلك لم يستطع ألفونسو المحارب الاستيلاء على سرقسطة وبقيت تحت سلطة المرابطين.

وهكذا انتهى حكم بني هود لسرقسطة، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عامًا، وهي آخر دولة من دول الطَّوائف تسقط في يد المرابطين، على أنَّ سقوطها لم يكن آخر العهد ببني هود، ذلك أنَّ عماد الدَّولة استقر بقاعدة رُوطة الحصينة[3]، وكان بنو هود قد أعدوا هذه القاعدة وحصونها، وزودوها بالأبنية الفخمة، لتكون لهم عند الضرورة ملجأً ومثوى كلما نزلت بهم نازلة[4]. ومن هناك كان عماد الدَّولة يتربص بالمرابطين رفقة حليفه ألفونسو المحارب، ففي بداية سنة 504هـ/1110م اتجه ألفونسو مع عماد الدَّولة في جيوش كثيرة[5]، فنزل على نحو فرسخ من سرقسطة وقام بمحاصرتها ومحمَّد بن الحاج يناوشه الحرب صباحًا مساءً إلى أن جاءت نجدة من قِبل والي مرسية محمَّد بن عائشة و استطاعوا فك الحصار على سرقسطة، و تبعوا جيش ألفونسو

1- تخلي أهالي سرقسطة عن ابن الحاج وابنه في هذا الموقف العصيب وهم الذين رحبوا به بالأمس القريب، وجعلوه واليًا عليهم، عملٌ ملفتٌ للانتباه ومثير للدهشة والحيرة، ولكن يبدو أنَّ السبب يرجع إلى أنَّه ما زالت هناك فئات موالية لعماد الدَّولة المطرود من سرقسطة، وقد استغلت هذه الظروف وانسحبت من المعركة لتحدث شرخًا في جيش ابن الحاج، أو أنَّه من المحتمل أن يكون الجيش المرابطي عندما دخل مدينة سرقسطة قد قام ببعض الأعمال مثل النَّهب ومحاكمة بعض العملاء ممَّا أدى إلى تغير الرعية عليهم وتخليهم عنهم في ذلك الموقف الحرج. (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص151).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص54 .

3- عنان، **دول الطَّوائف**، ص293 .

4- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص119-120 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص293 .

5- يقول ابن عذارى أنَّ ابن رذمير (ألفونسو المحارب) جاء بجيوش تعضل بها الأرض، إشارةً لكثرة عددها. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص55).

وطاردوا فلوله خارجها[1]، واستمرت الحرب بينهما سجالًا[2]، وقد أرسل محمَّد بن الحاج القائد علي بن كنفاط اللَّمتوني بعسكر من المرابطين إلى قلعة أيوب، فحاصر حصنًا من حصون عماد الدَّولة هناك حصارًا شديدًا، فاستغاث أهل الحصن به، فأغاثهم بمددٍ من الرُّوم، واستطاع أن يفك الحصار وأن يأسر القائد علي بن كنفاط الذي أخذ إلى مدينة رُوطة، وقد بقي في الأسر بعض الوقت ثمَّ أُطلق سراحه إثر إبرام صلح بين المرابطين وعماد الدَّولة[3].

ولم يدم السِّلم بينهما طويلًا حيث نظَّم عماد الدَّولة من رُوطة من جديد في سنة 505هـ/1112م حملة عسكرية، فتصدى له واليها محمَّد بن الحاج ورده على أعقابه[4].

ومن محاسن الصدف أنَّ ألفونسو المحارب حليف عماد الدَّولة كان منشغلًا بحرب زوجته دونيا أوراكا ملكة قشتالة[5]، حيث نشبت الحرب بينهما بعد أشهر قليلة من زواجهما في شهر صفر سنة 503هـ/سبتمبر 1109م[6]، فخفَّ قليلًا الخطر على سرقسطة خاصةً مع مطلع سنة

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص55 .

2- يقول ابن عذارى بأنَّ الحرب بين جيش المرابطين وجيش ابن رذمير (ألفونسو المحارب) لم تتوقف، ويصف ذلك بقوله "لا تزال الحرب بينهما متصلة والمضارب متردِّدة، وغزوات محمَّد بن الحاج متواصلة". (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص55).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص55 ؛ عنان، **دول الطَّوائف**، ص88 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص151 .

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص56 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص151 .

5- يصف أشباخ هذه الحرب بقوله أنَّها كانت حربًا ذميمةً. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص147).

6- يذكر ابن الكردبوس أنَّه منذ أن تمَّ الزواج بينهما فلا فلاح ولا نجاح، حيث وقع بعد مدَّة قصيرة بينهما شرٌ طويل، فافترقا على أشر حال، ويذكر أشباخ أنَّه حدث في مدينة برغش عام 507هـ/1113م برلمان شهده الأساقفة والقوامس وكبراء الدَّولة ونواب المدن، عرض خلاله أسقف شنت ياقب "ديجو" بطلان الزواج بينهما، فعارض الفريق المناصر للصلح الاقتراح، ثمَّ سعى أسقف طليطلة برنار عند البابا بسكال الثَّاني الذي فسخ زواجهما عام 508هـ/1114م بسبب القرابة الشديدة، فأصبح بذلك ألفونسو المحارب ملكًا على أراغون وقشتالة، وأوراكا ملكةً على ليون وجليقية. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص115-116 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص162-163 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص150).

504هـ/1110م فانتهز المرابطون تلك الفرصة فقاموا ببعض الغزوات على إمارة برشلونة[1]، فقد حاصرها والي مرسية محمَّد بن عائشة مدَّة عشرين يومًا سنة 504هـ/1110م وعاثوا فيها، وكان المرابطون يكررون هذا العيث في أراضي برشلونة وعموم أراضي المسيحيِّين كل عام تقريبًا ويعودون غالبًا بغنائم عظيمة، وكثير من الأسرى[2].

3- الاستيلاء على يابرة وإشبونة وشنترين:

عندما استولى المرابطون على قاعدة الثغر الأعلى مدينة سرقسطة في شهر ذي القعدة سنة 503هـ/30 ماي 1110م[3] وأعقبوا ذلك بسلسلة من الانتصارات على ألفونسو المحارب ملك أراغون ونافارا، ورامون برنجير الثَّالث كونت برشلونة[4]، وضمنوا بذلك نوع من الاستقرار والهدوء

1- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص88 .

2- يذكر ابن عذارى أنَّ الأمير مزدلي غزا سنة 506هـ/1113م قاعدة وادي الحجارة واكتسح ما حولها وضيَّق عليها ثمَّ عاد إلى قرطبة محملًا بالغنائم. ويذكر أشباخ أنَّ الأمير مزدلي حاصر مدينة طليطلة سنة 506هـ/1113م مدَّة ثمانية أيام، ورغم عدم تمكنه من دخولها إلَّا أنَّه استولى على مدينة قورية بمساعدة بعض النَّصارى الناقمين على ملوكهم. كما يذكر ابن الكردبوس وابن أبي زرع وابن عذارى أنَّ هذا الأمير غزا أيضًا بجيش عظيم مدينة طليطلة سنة 507هـ/1114م فدوخها واكتسح به أوديتها وأبلغ في نكايتها وعاد إلى قرطبة ظافرًا ظاهرًا على عدوه. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص56 وما بعدها؛ **تاريخ الأندلس**، ص121 ؛ **روض القرطاس**، ص162 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148-149).

3- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيَرَاء**، ج2، ص248 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص53-54.

4- (Ramón Berenguer III) المعروف بالكبير، ويلقب أيضًا بالبرشلوني، تسلم حكم برشلونة بعد سفر عمه رامون برنجير الثَّاني حاجًا إلى المشرق سنة 485هـ/1092م، تزوج ماريا ابنة السيد القمبيطور، كانت له حروب كثيرة مع المسلمين، يعتبر من أعظم أمراء آل برنجير الذي حكم إمارة قطلونية، في عهده نمت قوة قطلونية البحرية نموًا عظيمًا، وازدهرت تجارتها، وعمَّ بها اليسر والرخاء، توفي سنة 525هـ/1131م بعد أن حكم قطلونية حوالي أربعين عامًا، خلفه في إمارة قطلونية وسائر ممتلكاتها ولده رامون برنجير الرَّابع، ما عدا ولاية بروقانص فقد منحت لولده الثَّاني برنجير رامون. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص143 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص499 وما بعدها ؛ خليل إبراهيم السامرائي: **علاقات المرابطين بالممالك الإسبانيَّة بالأندلس وبالدُّول الإسلاميَّة**، منشورات وزارة الثقافة الجمهوريَّة العراقيَّة، دار الحرية للطِّباعة، بغداد، 1975م، ص235).

في شرق الأندلس[1]، اتجه اهتمامهم إلى غرب الأندلس من أجل رد حركة الاسترداد المسيحي به ولفتح عدد من مدنه وحصونه وقلاعه.

فطلب الأمير علي بن يوسف من القائد سِير بن أبي بكر أمير إشبيليَّة بالمسير إلى غرب الأندلس، حيث أراضي البرتغال[2]. ولمَّا أعد العدَّة خرج من إشبيليَّة بجيش كبير في حدود شهر ذي القعدة سنة 504هـ/ماي 1111م[3] صوب بطليوس[4]، ثمَّ زحف نحو يابرة وافتتحها، ثمَّ قصد إلى أشبونة فاستولى عليها، ثمَّ استولى على شِنترة[5]، ثمَّ تقدم ناحية الشمال الشرقي من أجل

1- الاستقرار والهدوء في شرق الأندلس تجلى بالخصوص بين سنوات 504-507هـ/1110-1113م وهذا بسبب انشغال النَّصارى بالحرب التي اندلعت بين ألفونسو المحارب وزوجته أوراكا، ولأنَّ المرابطين ملكوا سرقسطة وهي تحتل موقع استراتيجي مهم في الثغر الأعلى وقد سهَّل عليهم شن الغارات على الممالك المسيحيَّة بالخصوص مملكة قشتالة وإمارة برشلونة، بالإضافة إلى أنَّ أغلب قادة المرابطين الذين يتمتعون بالخبرة والحنكة العسكرية مازالوا على قيد الحياة خلال هذه الفترة مثل الأمير سير بن أبي بكر، الأمير مَزْدَلي، والقائد محمَّد بن الحاج، والقائد ابن فاطمة، والأمير محمَّد بن عائشة وغيرهم وقد ساهم هؤلاء مساهمة فعالة في التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي.

2- هي مملكة نصرانية جديدة ناشئة في ظل قشتالة، بدأت في ظل أميرها هنري البرجوني تنمو ويشتد ساعدها بسرعة، وكانت قاعدتها يومئذٍ مدينة قُلُمْرِيَّة، ولهذا فالرِّواية الإسلامية تعرِّف حاكمها بصاحب قُلُمْرِيَّة، وتضم هذه المملكة عدَّة مدن مثل يابرة وأشبونة وشنترين شِنترة وغيرها. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص250 وما بعدها ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص69-70) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**، ص434).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص161 .

4- يذكر ابن أبي زرع والسَّلاوي أنَّه تمَّ فتح بطليوس خلال هذه الغزوة، ولكنَّها فتحت في الواقع في عهد الأمير يوسف بن تاشفين سنة 487هـ/1094م، وبقيت في أيدي المرابطين منذ ذلك الحين. (انظر: **روض القرطاس**، ص161 ؛ **الإستقصا**، ج2، ص59 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص70).

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148 .

الاستيلاء على مدينة شنترين[1]، وعندما وصلت الجيوش المرابطيَّة إليها استعصت عليهم، فضربوا حولها الحصار، فاستسلمت في آخر المطاف، وقد قتل معظم رجالها وأسر الباقون[2].

ويذكر المرَّاكشي أنَّ مدينة شنترين لم يفتحها المرابطين بسهولة كباقي المدن، وقد أورد ذلك في رسالة الأمير سِير بن أبي بكر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بعد فتحها[3]، وممَّا جاء في الرِّسالة أنَّ شنترين كانت من أحصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاقل على المسلمين، وجاء أيضًا في الرِّسالة أنَّها كانت من أعظم قلاع غرب الأندلس وأكثرها موارد لوقوعها في بسيط وافر من الخصب[4].

1- نشير إلى أنَّ مُدن يابرة، أشبونة وشنترين فتحها المرابطون في عهد الأمير يوسف بن تاشفين سنة 487هـ/1094م خلال الحملة التي شنها الأمير سِير بن أبي بكر على بطليوس ومدن غرب الأندلس، وبقيت هذه المدن وحصونها وقلاعها بين مدٍ وجزرٍ، يفتحها المرابطون تارةً ويستولي عليها النَّصارى تارةً أخرى.

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص70 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس 468-530و.ر/1086-1147م**، ط1، منشورات جمعية الدعوة الإسلاميَّة العالميَّة، طرابلس، 1990م، ص112 .

3- الرَّسالة من تأليف الوزير أبو محمَّد عبد المجيد بن عبدون على لسان الأمير سِير بن أبي بكر وقد بعثها لأمير المسلمين علي بن يوسف بمرَّاكش، وهي تلخص أحداث فتح مدينة شنترين والصعوبة التي واجهها المرابطون في تحقيق ذلك. (عن نص الرِّسالة). (انظر: المرَّاكشي، **المُعجب**، ص116 وما بعدها).

4- عن نص الرِّسالة. (انظر: المرَّاكشي، **المُعجب**، ص116 وما بعدها).

وبعد فتح شنترين واصل الأمير سِير زحفه نحو الشمال، وهدَّد قُلُمْرِيَّة[1] عاصمة ولاية البرتغال بالسقوط[2]، حيث وصلت جيوش المرابطين إلى مقربة منها ولم تستطع القوات البرتغاليَّة بقيادة الكونت هنري البرجوني[3] دفعًا للقوات المرابطيَّة[4].

1- هي مدينة صغيرة عامرة بغرب الأندلس، كانت آنذاك قاعدة مملكة البرتغال، وردت عند البكري باسم قُلُنْبِرِيَّة، وعند ابن عذارى باسم قلمورية، وهي تبعد عن البحر (المحيط الأطلسي) اثنا عشر ميلًا، وعن شنترين ثلاث مراحل، وبينها وبين قورية أربعة أيام، تقع على رأس جبل تراب، وعلى نهر عليه أرحاء، ولها سور حصين به ثلاثة أبواب، وهي كثيرة الكروم والتفاح. (انظر: البكري، **جغرافية الأندلس وأوروبَّا** ص63 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص64 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص471) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم 3**، ص434).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص148. (يذكر ابن أبي زرع والسَّلاوي أنَّه تمَّ فتح مدينة برتقال خلال هذه الغزوة، ولكن المؤرخ عنان ينفي ذلك وأوافقه الرأي، فالمرابطين لم يصلوا في زحفهم إليها، لأنَّ برتقال التي تعني في الجغرافيَّة الأندلسيَّة ثغر بورتو تقع في أقصى شمالي البرتغال وفي شمال قُلُمْرِيَّة والتي لم تصلها الجيوش المرابطيَّة أصلًا بل اقتربت منها فحسب، فكيف تصل إلى برتقال وهي في شمالها). (انظر: **روض القرطاس**، ص161 ؛ **الإستقصا**، 59/2 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص70).

3- هو الكونت هنري البرجوني (Enrique de Borgona) تُسميه المصادر الإسلاميَّة الرنك ينتسب إلى أسرة آل كابيه ملوك فرنسا، عينه ألفونسو السَّادس حاكمًا على ولاية البرتغال أواخر عام 487هـ/1094م، وزوجه ابنته غير الشرعية تيريزا (Teresa) ابنة خليلته كمينا نونير، وكان يدفع الضَّريبة لألفونسو السَّادس، وبدأت في عهده تتشكل مملكة البرتغال التي توارثها عقبه، وقد توفي الكونت هنري يوم الأربعاء 3 ذي القعدة 505هـ/1 ماي 1112م، ولم يترك سوى طفل في نحو الثَّالثة من عمره يدعى ألفونسو هنريكيز فتولت أمه تيريزا الحكم بالوصاية عليه. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص117 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص250 وما بعدها ؛ خليل إبراهيم السامرائي، **علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية بالأندلس وبالدُّول الإسلاميَّة**، ص231).

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص70. (يبدو أنَّ المرابطين لم يتمكنوا من فتح قُلُمْرِيَّة، لأنَّ الأمير سِير بن أبي بكر لم يرد المجازفة بجيشه بالتَّوغل كثيرًا في الأراضي البرتغاليَّة، لأنَّ هذه المنطقة قريبة من الممالك النَّصرانيَّة وبعيدة نسبيًا عن مراكز الإمداد المتمثلة في المدن الكبرى للمسلمين قرطبة وإشبيليَّة وغيرهما، ومن المؤكد أيضًا أنَّ العدَّة والعتاد لم يكنا كافيان آنذاك للانقضاض على مدينة حصينة بحجم قُلُمريَّة).

وبعد تمام هذه الغزوة الموفقة عاد في شهر صفر سنة 505هـ/أوت 1111م من قشتالة المنصور بن عمر المتوكل بن الأفطس[1] إلى إشبيلية ومنها قفل إلى مرّاكش عند أمير المسلمين علي بن يوسف الذي أكرمه وأحسن إليه، وجعل له مكانة رفيعة[2].

4- الاستيلاء على الجزائر الشَّرقيَّة:

كان من أعظم الأعمال التي حقَّقها أمير المسلمين علي بن يوسف خلال جهاده بالأندلس ورده لحركة الاسترداد المسيحي هناك هو استعادته للجزائر الشَّرقيَّة (جُزر البليار) واستنقاذها من أيدي الغزاة النَّصارى[3].

ومعلوم بالضرورة أنَّ والده الأمير يوسف لم يستولي على الجزائر الشَّرقيَّة، حينما شرع في عزل أمراء الطَّوائف خلال عبوره الثَّالث إلى الأندلس سنة 483هـ/1090م، فربما يعود ذلك إلى بعدها في البحر ومتاخمتها لبلاد النَّصارى[4]، أو أنَّه تعامل مع هذه الجزر بنفس السِّياسيَّة التي اتبعها مع بني هود أمراء سرقسطة، حيث تركها حائلًا بين إمارات النَّصارى وما يليها من بلاد المسلمين ثمَّ إنَّ أمرائها لم يحالفوا النَّصارى المتاخمين لهم ضدَّ جيوش المرابطين، أي أنَّهم لم يقدموا على الخيانة والتَّقاعس الذي أقدم عليه غيرهم من أمراء الطَّوائف[5].

1- كان قد فرَّ إلى قشتالة عندما ملك المرابطون بطليوس سنة 487هـ/1094م وقتلوا والده وأخويه، وقيل أنَّه اعتنق المسيحيَّة يومئذٍ، وصار في تعداد جيوش النَّصارى يهاجم بلاد الأندلس المسلمة انتقامًا لوالده وإخوته، ولكنه عندما التحق بالمرابطين، شارك معهم في بعض حروبهم، منها مرافقته لابن فاطمة في حملة عسكريَّة بأراضي النَّصارى فعادا إلى إشبيليَّة مثقلين بالسبي والغنائم الكثيرة. (انظر: ابن بلكين، **التِّبيان**، ص172 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص64؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص70).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص56 .

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص76 .

4- عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص116 .

5- محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، ص51-52 .

وكان يحكم الجزائر الشَّرقيَّة آنذاك الأمير عبد الله المرتضى[1]، وعند وفاته سنة 486هـ/1093م، خلفه في الحكم مولاه مبشر بن سليمان الذي تلقب بناصر الدَّولة[2]، فضبط شئونها بحزمٍ وكفاية، فضلًا عن حمايته لها ضدَّ غارات المسيحيِّين[3]، وكذلك محافظته على استقلال هذه الجزر حيث لم ينضوي تحت لواء المرابطين[4]، وبقي يحكمها في عهد الأمير يوسف بن تاشفين والسنوات الأولى من حكم ابنه إلى غاية سنة 508هـ/1114م حينما داهمته الغزوة النَّصرانيَّة الكبرى[5].

1- هو الأمير عبد الله المرتضى كان في بادئ الأمر واليًا على جزر البليار من قبل الأمير إقبال الدَّولة علي بن مجاهد الصقلبي العامري أمير دانية، وعندما انتهت رئاسة هذا الأخير لدانية واستيلاء المقتدر بن هود عليها سنة 468هـ/1076م استبد عبد الله المرتضى بحكم هذه الجزر واستمر في حكمها إلى غاية وفاته سنة 486هـ/1093م. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص122 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج4، ص210-211 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص76).

2- أصله من قلعة الحَمِير من أعمال لاردة، أُسِر صغيرًا، افتداه من الأسر سفير عبد الله المرتضى، فَسُر به وقربه إليه، وكان سامي الهمم، حميد الشِّيم، كثير الفضائل والكرم، كان له صولات وجولات في حرب النَّصارى، مرض وتوفي متأثرًا بمرضه في حدود شهر رجب سنة 508هـ/ديسمبر 1114م والنَّصارى مُحاصرين مقر ملكه مدينة ميورقة. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص122-123 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج4، ص211-212).

3- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص123 ؛ ابن خلدون، **العِبر**،ج4، ص212 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص116 ؛ خليل ابراهيم السامرائي، **علاقات المرابطين بالممالك الاسبانيَّة بالأندلس وبالدُّول الإسلاميَّة**، ص201 .

4- يذكر محمود علي مكي أنَّ الأمير يوسف بن تاشفين لم يتعرض لناصر الدَّولة بسوء لأنَّه كان أكثر غيرةً من بني هود على مصالح المسلمين، وأقدر على حماية بلده من غارات النَّصارى فضلًا على أنَّه أقر العدل وأحسن الحكومة وأرضى الرعيَّة. (انظر: **وثائق تاريخيَّة جديدة عن عصر المرابطين**، ص52).

5- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص76 .

وقد تحالف في هذه الغزوة[1] على الجزائر الشَّرقيَّة التي كانت في أوائل سنة 508هـ/ 1114م[2] جمهوريتا بيزة وجنوة وإمارة قطلونية، وجاءت هذه الغزوة كرد فعل على كثرت غارات البحارة المسلمين على الشواطئ الإيطالية وشواطئ إمارة برشلونة[3].

وقد خرج من مياه جنوة أسطول الغزو[4] وقوامه ثلاثمائة سفينة، وحاصر الأسطول المشترك جزيرة يابسة أولًا واستولى عليها[5]، ثمَّ سار الأسطول فحاصر جزيرة ميورقة عاصمة الجزائر الشَّرقيَّة حصارًا محكمًا، وأبلى حاكمها ناصر الدَّولة في مقاومة المهاجمين أعظم البلاء، وعندما أحس بعدم مقدرته على صدِّ المهاجمين لوحده استنجد بأمير دانية المرابطي، يناشده إرسال عون بحري يمكِّن حامية مدينة ميورقة من التَّصدي للغزاة، وقد أجابه أمير دانية ووعده بأن يرسل له الإمدادات قبل أن ينتهي الشهر، وقد تنبه النَّصارى إلى هذه السفارة وعلموا بنتائجها بعد أن تمكنوا من أسر المركب الذي أرسله ناصر الدَّولة أثناء عودته من دانية بعد أداء مهمته[6].

1- كان البابا يشجع هذا الحلف الذي عقده النَّصارى للاستيلاء على الجزائر الشَّرقيَّة ويباركه، حيث منح المشاركين في الحملة الغفران معتبرًا إياهم كالمحاربين الصَّليبيِّين، وأرفقهم بمندوب عنه. (انظر: عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص116 ؛ خليل ابراهيم السامرائي، **علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية بالأندلس وبالدُّول الإسلاميَّة**، ص201).

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص122 ؛ ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص75 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص239 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص567 .

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص76 .

4- بالإضافة إلى أسطول جنوة وبيزة وبرشلونة، فقد شاركت في هذه الغزوة بعض الوحدات من مقاطعة بروفنسال بجنوب فرنسا متمثلة في أميري ناربون ومونبيليه. (انظر: السَّيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، **تاريخ البحريَّة الإسلاميَّة**، ص243 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص116).

5- استبسل عامل جزيرة يابسة الذي تسميه المصادر المسيحيَّة (Abunazare) أبا نصر بالدِّفاع عنها إلَّا أنَّ القوَّات المتحالفة استطاعت الاستيلاء على الجزيرة، وأقبلت بذلك على النَّهب والتَّخريب بأفظع صورة ممكنة. (انظر: محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، ص52-53).

6- عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة (التَّاريخ الإسلامي لجُزُر البليار) 89-685هـ = 708-1287م**، ط1، دار العلم للملايِّين، بيروت، 1984م، ص246 .

وقد وصلت بعض السفن البحريَّة المرابطيَّة من ثغر دانية إلَّا أنَّها لم تستطع كسر حدة الحصار الشديد الذي أطبق على مدينة ميورقة[1]، ولأجل ذلك سارع ناصر الدَّولة من جديد لعقد معاهدة صلح مع الغزاة، فأرسل سفارة إلى المعسكر الصَّليبي يعرض فيها الهدنة، فرد عليه البيزيون بإرسال سفارة إلى ميورقة، فأحسن ناصر الدَّولة استقبال هؤلاء السفراء ووعدهم بأن يعطي إلى قادة الحملة قدرًا كبيرًا من ماله الخاص ومن خراج الجزيرة، وتدعي الرِّوايات المسيحيَّة أنَّه اقترح عليهم أيضًا بأن تكون بلاده بمثابة إقطاع بابوي[2]، ولكن سرعان ما تراجع عن هذا الصلح وهذا بعد أن استشار شيوخ إمارته ورجال الرأي الذين رفضوا أن تكون مملكتهم إقطاعًا بابويًا، وأنَّه لا يجوز أن يدفع الضَّريبة لهم، فانقطعت المفاوضات[3] وعاد القتال من جديد بصورة أشد عنفًا[4].

1- **نفسه**. (يبدو لنا جليًا أنَّ السبب الرئيسي لعدم وصول الإمدادات الضَّخمة لنجدة ميورقة يرجع إلى اكتشاف العدوِّ لسفارة ناصر الدَّولة إلى دانية، وبدون أدنى شك فقد قام بالتَّضيِّيق على سواحل دانية لمنع وصول المساعدة، وبذلك وصلت قلة من السفن التي لم تكن كافية لفك الحصار).

2- ينفي المؤرخ عصام سالم سيسالم هذا الإدعاء وأوافقه الرأي، بحيث أنَّه لا يمكن لأمير مسلم مثل ناصر الدَّولة الذي شهدت الرِّوايات المسيحيَّة نفسها بصلابته واستبساله في الدِّفاع عن بلاده بإيمان وصدق وعقيدة راسخة أن يجعل بلاده إقطاعًا بابويًا. (انظر: **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص247).

3- يذكر المؤرخ عصام سالم سيسالم نقلًا عن المراجع المسيحيَّة أنَّ ناصر الدَّولة أرسل سفارة أخرى إلى المعسكر الصَّليبي للتفاوض من جديد، فأرسلوا له رئيس أساقفة بيزة "بيدرو" للتشاور معه، فانعقد بينهما اجتماعًا طويلًا، عرض فيه ناصر الدَّولة أن يسلم إليه كل أسرى النَّصارى في أرضه، ولكنه لا يعرض أكثر من ذلك، فرفض العدوّ هذا المقترح وانقطعت المفاوضات بينهما، وعاد بيدرو رئيس أساقفة بيزة إلى المعسكر الصَّليبي وقام بإلهاب مشاعر المقاتلين، وبشرهم بقرب سقوط مدينة ميورقة. (انظر: **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص248).

4- كان القتال عنيفًا جدًا على اعتبار أنَّ رجال الكنيسة أشرفوا على تنفيذه، حيث صدرت أوامر القواد من رجال الكنيسة بأن يعمل الجنود على إحراق منازل المدينة وقتل كل من يستطيعون من سكانها، ويعرضون خمس قطع فضة لكل من يقتل واحدًا من المشاة، وقطعتين ذهبيتين لكل من يقتل أحد الفرسان. (انظر: **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص248).

وعندما شعر بأنَّه لم يكن له قِبل بالاستمرار في القتال أرسل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف في مرَّاكش يستصرخه ويستنصره[1]، ووجه رسالته مع قائد مرابطي يسمى أبا عبد الله بن ميمون[2]، وفي خضمٍّ هذا الحصار الذي استمر حوالي عشرة أشهر[3] مرض ناصر الدَّولة وتوفي في حدود شهر رجب 508هـ/ديسمبر 1114م فخلفه في حكم ميورقة قريبه القائد أبو الربيع سليمان بن لبون[4] الذي قاوم الغزاة كسلفه بضراوة[5]، وحاول أن يغادر الجزيرة ليسعى في طلب النَّجدة[6] فأسره النَّصارى[7]، واقتحموا أسوار المدينة ودخلوها في 7 ذي القعدة 508هـ/3 أفريل 1115م عنوةً، وقتلوا من فيها[8]، وسبوا أهلها وخربوها[9].

1- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص123 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج4، ص212 .

2- كان يقود في ذلك الوقت سفينة شراعية صغيرة سماها ابن الكردبوس الغراب، وهي راسية في ميناء ميورقة، فخرج ابن ميمون سرًّا من الميناء دون أن تفطن إليه أساطيل المحاصرين للجزيرة، فاقتفوا أثره وتبعوه نحو عشرة أميال والظلام قد ستره، وتمكن من الفرار، فوصل بالكتاب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص123 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص77 ؛ محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، ص53).

3- ابن خلدون، **العِبر**، ج4، ص212. (وقد انتشر خلال هذه المدَّة الجوع والمرض بين السكان الذي أرهقهم الحصار الطَّويل). (انظر: عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص248).

4- تُسميه المراجع المسيحيَّة (Burabé) وهو تحريف للفظ أبو الربيع. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص123 ؛ محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، ص53).

5- حول حدَّة القتال بين الفريقين وانتشار الحرائق في مدينة ميورقة في شهري شعبان ورمضان سنة 508هـ/جانفي وفيفري 1115م. (انظر: عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص251).

6- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص77. (يذكر المؤرخ عصام سالم سيسالم نقلًا عن بعض المراجع اللاتينيَّة بأنَّ الذي أرسل إلى المرابطين رسالة يطلب فيها مددًا عاجلًا لإنقاذ ميورقة بقيادة ابن ميمون هو أبو الربيع سليمان بن لبون وليس ناصر الدَّولة، وهذا الزعم فنده ابن الكردبوس وذكر بأنَّ ناصر الدَّولة هو من أرسل إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يطلب المدد). (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص123 ؛ **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص249-250).

7- وقد حُمل أسيرًا إلى مدينة بيزة، حيث ظلوا يعرضونه هنالك في شوارع المدينة افتخارًا وزهوًا بهذه المآثر الخالدة إلى أن توفي في الأسر. (انظر: عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص268 وما بعدها).

8- يذكر أشباخ أنَّ النَّصارى وصموا نصرهم بقتل أهلها المسلمين. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص149).

9- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص75 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص239 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، تحقيق خليل شحادة، ج4، ص212 .

وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بعدما وصله صريخ ناصر الدَّولة قد جهز أسطولًا بحريًا ضخمًا قوامه ثلاثمائة سفينة[1]، وجهه إلى ميورقة بقيادة أمير البحر المرابطي ابن تاقرطاس[2] لإنقاذها من براثن الغزاة ، فلما شعر العدوّ بخروج ذلك الأسطول أخلى الجزيرة[3]، وغادروها مثقلين بالغنائم والسبي[4]، وأحرقوا المدينة وقتلوا معظم أهلها[5].

وتدعي بعض المراجع المسيحيَّة بأنَّ قوات العدوّ أنقذت من مطامر سجون ميورقة عشرين ألف مسيحي، وهو رقم مبالغ فيه إلى حدٍ كبير، فمن المستحيل على ثلاثمائة سفينة أن تحمل هذا العدد الكبير من الأسرى، بالإضافة إلى المقاتلين والبحارة والكميات الهائلة من الغنائم التي نهبوها والأعداد الكبيرة من أسرى المسلمين[6].

1- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس،** 123. (غير أنَّ ابن القطان يقول أنَّ عدد السفن التي اتجهت لنجدة جزيرة ميورقة بلغت مائة وعشرون سفينةً فقط. (انظر: **نُظم الجمان،** ج6، ص75).

2- بحثت في مختلف كتب التراجم والمصادر التَّاريخيَّة والمراجع الحديثة، ولم أوفق لإيجاد ترجمةً له، وقد ورد اسمه بصيغ مختلفة، فقد جاء عند ابن الكردبوس باسم ابن تاقرطاس وابن تافرطاس في نسخة أخرى، بينما جاء في المراجع الحديثة بألفاظ عديدة منها ابن تفرتاش، ابن تافرطاش، وابن تافرطست. (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس،** 124 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص77 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس،** ص118).

3- ابن القطان، **نُظم الجمان،** ج6، ص75 ؛ ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس،** 124 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار،** ص567. (لم تذكر المصادر الإسلاميَّة سبب انسحاب النَّصارى دون قتال المسلمين ، بينما ذكرت بعض المراجع المسيحيَّة أنَّ السبب يكمن في التَّخوف من الاشتباك في معركة غير مأمونة العواقب، وربما الخوف يكمن في فقدانهم للغنائم الكثيرة التي سلبوها من الجزيرة. (انظر: عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة،** ص268-269).

4- نهب النَّصارى من جزيرتي يابسة وميورقة فضلًا عن التُّحف الذهبيَّة والعاجيَّة والبلوريَّة والمنسوجات الثَّمينة عددًا كبيرًا من الكتب التي عثروا عليها في مكتباتها الحافلة، وزعموا أنَّهم استردوا ما سرقه مسلمو جزر البليار من ثغورهم. (انظر: عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة،** ص272 ؛ عبد الواحد شعيب، **جُزر الأندلس المنسيَّة،** ص118 هامش2).

5- يذكر ابن الكردبوس أنَّ الغزاة عندما انصرفوا إلى أوطانهم هبت عليهم ريح عاتية، فحملت أربع سفن من أسطولهم إلى ناحية مدينة دانية فطاردها قائد البحر أبو السداد، وأغرق واحدةً منها، وتمكن من الاستيلاء على البقية. (انظر: **تاريخ الأندلس،** ص124).

6- لم يسرق الغزاة الثروات الماديَّة لجزر البليار فحسب، ولكنهم سرقوا كذلك خبراتها الفنيَّة ومعارفها العلميَّة، واستخدموا الأسرى المسلمين في صناعاتهم وفي بناء كاتدرائيتهم، مثل كاتدرائية بيزة التي يختلط فيها الأسلوب الرُّوماني بالإسلامي والبيزنطي، كما سلبوا الخرائط الميورقيَّة وتعلموا منها فن الخرائط البحريَّة، كما استفادوا من مختلف أنواع الصناعات المعدنيَّة والزجاجيَّة والخزفيَّة التي كان يتقنها أهل ميورقة. (انظر: عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة،** ص271-272).

وعندما وصل أسطول المرابطين إلى جزيرة ميورقة في عام 509هـ/1116م[1] وجد المدينة خاويةً على عروشها محرقة سوداء مظلمة[2]، فشرع ابن تاقرطاس في تعميرها، وإعادة من فرَّ عنها إلى الجبال[3]، وبذلك تدخل الجزائر الشَّرقيَّة في حوزة أملاك المرابطين، وقد استمر في حكمها ابن تاقرطاس إلى مطلع عام 510هـ/1116م على وجه التَّقريب، ثمَّ تولاها أبو السداد وابنه من أوائل محرم سنة 510هـ/1116م إلى أواخر ربيع الأوَّل سنة 510هـ/أوائل أوت 1116م، ثمَّ تولاها

1- لم تحدِّد المصادر التَّاريخيَّة بدقة تاريخ استيلاء المرابطين على الجزائر الشَّرقيَّة، حيث اكتفى ابن أبي زرع بذكر السنة دون ذكر اليوم والشهر، وقال بأنَّه حدث سنة 509هـ/1116م، وبالنِّسبة للمراجع الحديثة فقد ذكر عنان أنَّه كان في أواخر سنة 509هـ/1116م. (انظر: **روض القرطاس**، ص162 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص77).

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص124. (سكتت المصادر التَّاريخيَّة عن ذكر سبب تأخر وصول الأسطول المرابطي إلى جزيرة ميورقة، بالرغم من معرفة المرابطين بالحصار الشديد المفروض عليها، وأنَّها كانت مهددة بالسقوط في أيدي الغزاة، وأعتقد أنَّ سبب التأخر يكمن أولًا في أنَّ الرسول الذي بعثه ناصر الدَّولة، وهو ابن ميمون يحتاج إلى وقت لكي يوصل الرِّسالة إلى الأمير علي بن يوسف في مرَّاكش، وتحضير العدَّة والعتاد لنجدة جُزر متناثرة في البحر بعيدةً نسبيًا عن سواحل الأندلس يحتاج إلى وقت طويل ربما يصل إلى أشهر عديدة، كما أنَّ المرابطين أرسلوا المدد لنجدة ميورقة عن طريق عاملهم في دانية، حيث بعث بعض السفن البحريَّة إلَّا أنَّها لم تستطع كسر حدة الحصار الشديد الذي فرضه المحاصِرين).

3- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص124. (يزعم المستشرق الألماني أشباخ أنَّ المرابطين عندما دخلوا ميورقة انتقموا للمسلمين بقتل جميع سكانها النَّصارى، وأعتقد أنَّ هذا الأمر غير صحيح والأرجح أنَّ ما حصل هو ملاحقة أهل الجزيرة للخونة فقط من المعاهدين النَّصارى الذين نقضوا العهد وتعاونوا مع الغزاة وأسهموا في جرائمهم الوحشيَّة بدافع من التَّعصب الدِّيني، ونشير إلى أنَّ النَّصارى المعاهدين في الأندلس تمتعوا طيلة العهود الإسلاميَّة بكافة الحقوق التي يوفرها المجتمع الإسلامي للذميِّين والمسالمين والتي تمثلت بمختلف ضروب الرِّعايَّة والتَّسامح. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص149 ؛ عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص273-274).

وانودين بن سِير مدَّة ثلاثة أشهر بنص التَّولية[1] من أمير المسلمين علي بن يوسف[2].

ثالثًا– العبور الثَّالث وسقوط سرقسطة في أيدي النَّصارى:

1- فتح قُلُمْرِيَّة:

لم يمض وقت طويل على استرداد المرابطين للجزائر الشَّرقيَّة حتَّى عبر أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الأندلس للمرة الثَّالثة وذلك في أواخر شهر محرم عام 511هـ/أواخر ماي 1117م[3] وكان جوازه هذا في فصل الصيف وهو الفصل المفضل للعبور والجهاد[4].

1- عبارة عن رسالة من إنشاء الكاتب ابن الجد أبو القاسم محمَّد بن عبد الله الفهري، أرسلها أمير المسلمين علي بن يوسف بحضرة مُلكه مرَّاكش بتاريخ 20 أو 21 ربيع الأوَّل سنة 510هـ/2 أو 3 أوت 1116م إلى شخص لم يذكر اسمه في الرِّسالة، وهذا لغرض توليته على جزيرة ميورقة، وبالعودة إلى المصادر التَّاريخيَّة والمقارنة بينها نستنتج أنَّ الشَّخص الذي بعثت له الرِّسالة هو وانودين بن سِير. (عن نص الرِّسالة. انظر: محمود علي مكي، **وثائق تاريخيَّة جديدة عن عصر المرابطين**، ص76-77).

2- اختلف المؤرخين اختلافًا كبيرًا حول من تولى حكم الجزائر الشَّرقيَّة من أمراء المرابطين، ومدَّة حكمهم، وهذا بين سنوات 509هـ و520هـ/1116م و1126م، ويرجح أنَّه تولى الحكم بعد وانودين بن سِير، أبو بكر بن تكرطات، ثمَّ يانور بن محمَّد حسب ابن عذارى و وانور بن أبي بكر اللَّمتوني حسب ابن خلدون، ثمَّ أبو بكر علي بن ورقاء، ثمَّ القائد المرابطي محمَّد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية الذي حكمها سنة 520هـ/1126م وورث الحكم عقبه من بعده. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص239 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، تحقيق خليل شحادة، ج4، ص212 ؛ محمود علي مكي، **وثائق تاريخيَّة جديدة عن عصر المرابطين**، ص54-55 ؛ عصام سالم سيسالم، **جُزر الأندلس المنسيَّة**، ص274 وما بعدها).

3- ابن عذارى، **البيان المُغرب**، ج4، ص64. (ذكر صاحب الحُلل الموشيَّة سنة العبور وهي 511هـ/1117م دون ذِكر اليوم والشهر، بينما أخطأ ابن أبي زرع حينما قال أنَّه عبر للمرة الثَّانية سنة 513هـ/1119م، وقد أكد أغلب المؤرخين مثل ابن الكردبوس وغيره أنَّ جواز الأمير علي للمرة الثَّانية إلى الأندلس كان سنة 503هـ/1109م، وجوازه الثَّالث كان سنة 511هـ/1117م). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص86 ؛ **روض القرطاس**، ص163-164 ؛ **تاريخ الأندلس**، ص116).

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص80 .

وكان عبوره هذا برسم الجهاد وإصلاح أحوال بلاد الأندلس وضبط ثغورها[1]، وقد عبر معه خلقٌ كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر[2]، وحسب رواية ابن أبي زرع فقد اتجهت هذه الجموع رفقة أمير المسلمين علي بن يوسف صوب قرطبة وعسكرت خارجها، فأتت الوفود من سائر بلاد الأندلس للسَّلام عليه، فسألهم الأمير علي عن أحوال بلادهم وثغورهم بلدًا بلدًا، فأخبروه عن ذلك[3].

أمَّا ابن عذارى فقد ذكر في روايته أنَّ الأمير علي اتجه خلال عبوره هذا إلى إشبيليَّة[4] ليستريح بها و يعد العدَّة للغزوِّ، و قد لحقت به الجيوش القادمة من بلاد المغرب، والعساكر

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163-164. (للأسف الشديد لا نملك معلومات تاريخية كثيرة عن العبور الثَّالث للأمير علي إلى الأندلس وفتحه لمدينة قُلُمْرِيَّة، فأغلب المؤرخين أوردوا إشارات طفيفة فقط مثل صاحب الحُلل الموشيَّة، ما عدا ابن عذارى وابن أبي زرع اللذين قدما لنا بعض المعلومات والتَّفاصيل، ورغم أنَّ هذا الأخير أخطأ في ذكر تاريخ العبور الثَّالث إلَّا أنَّه يفهم من النَّص أنَّه يتحدث عنه وعن فتح مدينة قُلُمْرِيَّة. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص86 ؛ **البيان المُغرب**، ج4، ص64).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164. (لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة تعداد الجيش الذي عبر مع الأمير علي، واكتفى صاحب الحُلل الموشيَّة بقوله دوَّخ بلاد الشرك بجيوش لا تحصى). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص86).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164 .

4- لا يمكن الجزم ما هي المدينة التي استقر بها الأمير علي خلال عبوره هذا، بالرغم من أنني أرجح أنَّه اتجه صوب قرطبة حسب رأي ابن أبي زرع، على اعتبار أنَّها عاصمة الخلافة القديمة، ولها قدسية واحترام لدى المسلمين، وبالنظر إلى موقعها الجغرافي المهم حيث تتوسط بلاد الأندلس تقريبًا وهذا يسهِّل انتقال الجيوش إليها من مختلف الأرجاء، كما أنَّ المرابطين كانوا دائمًا يختارونها لعقد الأمور المهمَّة، فعلى سبيل المثال فقد عقدت بيعة الأمير علي بها سنة 496هـ/1103م، واستقر بها شهرًا كاملًا يضع خططه ويستكمل أهباته وهذا خلال عبور الثَّاني إلى الأندلس سنة 503هـ/1109م. ويمكن أن نقبل أيضًا برأي ابن عذارى بأنَّه استقر بإشبيليَّة لأنَّها تُعد هي الأخرى من مدن الأندلس الكبرى، وهي قريبة نسبيًا من مدن غرب الأندلس والتي يريد الأمير علي غزوها. (انظر: **روض القرطاس**، ص164 ؛ **البيان المُغرب**، ج4، ص64).

الأندلسيَّة، وانضمَّت إليه من قرطبة ثُلةً من الفقهاء والعلماء[1] ولفيف من المجاهدين الزعماء الفرسان منهم والمشاة، وفقهاء إشبيليَّة ومجاهدوها، وكذلك جموع المتطوعة من غرناطة[2].

ولمَّا اكتملت الجموع، تحرك الأمير المرابطي علي بن يوسف من إشبيليَّة بجميع العساكر وشقَّ طريقه نحو أراضي غرب الأندلس حيث مملكة البرتغال التي كانت تحكمها آنذاك الملكة تيريزا[3]، وشرع في تهديد عاصمة مملكتها قُلُمْرِيَّة بالسقوط، فحاصرها عشرين يومًا وضيَّق عليها إلى أن فتحها[4] في حدود أوائل شهر ربيع الأوَّل سنة 511هـ/أوائل جويلية 1117م[5]، وأثخن في تلك الأنحاء تخريبًا وقتلًا وسبيًا[6]، ولم تستطع قوَّات الملكة تيريزا أن تقوم بأيَّة أعمال دفاعية ذات

1- شارك الفقهاء والعلماء بالأندلس في العديد من المعارك التي خاضها المرابطون ضدَّ أعدائهم، واستشهد الكثير منهم، كما كان لهم دور في وعظ النَّاس وحثهم على الجهاد دفاعًا عن الإسلام. (انظر: عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص119).

2- ابن عذارى، **البيان المُغرب**، ج4، ص64 .

3- (Teresa) هي الابنة غير الشَّرعيَّة لألفونسو السَّادس، ابنة خليلته كمينا نونير، وهي فيما يرجح ابنة نونيو مننديز الذي قتل في موقعة برتاليني، زوَّجها ألفونسو السَّادس بالكونت هنري البرجوني وجعله حاكمًا على ولاية البرتغال أواخر عام 487هـ/1094م، وعندما توفي سنة 505هـ/1112م تولت حكم البرتغال بالوصاية على ولدها ألفونسو هنريكيز الذي كان عمره نحو ثلاث سنوات، واستمر نفوذها في الحكم إلى غاية وفاتها سنة 524هـ/1130م. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص250 وما بعدها عدة صفحات ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص119-120).

4- يقول صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ الأمير علي فتح قُلمريَّة، أمَّا ابن عذارى يقول بأنَّه لم يفتحها، بل ضيَّق عليها فحسب، ثمَّ انصرف عنها إلى إشبيليَّة. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص86 ؛ **البيان المُغرب**، ج4، ص64).

5- يقول عنان نقلًا عن الرِّواية النَّصرانيَّة أنَّ المرابطين فتحوا قُلُمْرِيَّة يوم 18 صفر 511هـ/22 جوان 1117م، وأرى أنَّ هذا التَّاريخ غير صحيح، وبالعودة لرواية ابن عذارى يتبين لنا ذلك، حيث ذكر أنَّ عبور الأمير علي للأندلس كان في أواخر محرم 511هـ/أواخر ماي 1117م، فمن المؤكد أنَّ العبور والوصول إلى إشبيليَّة أو إلى قرطبة حسب ابن أبي زرع والانتظار بها لتصل الجيوش المغربيَّة والأندلسيَّة، وتستعد للمعركة، ثمَّ مسير هذه الجيوش للوصول إلى قُلُمْرِيَّة والتي تقع في شمال مملكة البرتغال، يحتاج كل هذا إلى ثلاثة أسابيع على الأقل، كما أنَّ ابن عذارى ذكر أنَّ الحصار دام عشرين يومًا، وبأخذ جميع هذه الأمور في الحسبان يتبين لنا أنَّها فتحت في حدود أوائل شهر ربيع الأوَّل سنة 511هـ/أوائل جويلية 1117م. (انظر: **البيان المُغرب**، ج4، ص64 ؛ **روض القرطاس**، ص164 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص81).

6- ذكر ابن أبي زرع أنَّ الأمير علي فتح خلال هذه الغزوة مدينة شنتمريَّة عنوةً، ثمَّ سار فيها غازيًا يقتل في بلاد الغرب (يقصد غرب الأندلس) ويسبي ويقطع الثمار، ويخرب القرى والدِّيار، حتَّى دوخها، وفرَّ أمامه الرُّوم وتحصنوا بالمعاقل المنيعة. وأعتقد بأنَّه يقصد هنا مدينة قُلُمْرِيَّة، لأنَّ مدينة شنتمريَّة الغرب الموجودة على البحر الأعظم (المحيط الأطلسي) والقريبة نسبيًا من إشبيليَّة كانت آنذاك ملكًا للمرابطين، وليست ملكًا للنَّصارى. (انظر: **روض القرطاس**، ص164).

شأن لكي توقف جيش المرابطين[1]، ولكن الأمير علي لم يحتفظ بمدينة قُلُمْرِيَّة وتركها في الحين وعاد إلى إشبيليَّة[2]، ويذكر المؤرخ عنان محمَّد عبد الله أنَّه تخلى عنها لسببين رئيسيين وهما موقعها النائي وصعوبة الاحتفاظ بها في منطقة يحيط بها النَّصارى من كل حدب وصوب[3].

ويذكر ابن عذارى أنَّه بعد انصراف أمير المسلمين علي بن يوسف إلى إشبيليَّة[4]، قام واليها أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن فاطمة، والمنصور بن عمر المتوكل بن الأفطس بحملة عسكريَّة على أراضي الرُّوم[5] ثمَّ عادا إلى إشبيليَّة مثقلين بالسبي والغنائم الكثيرة[6].

1- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص81 .

2- ابن عذارى، **البيان المُغرب**، ج4، ص64 .

3- **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص81 .

4- لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة على الإطلاق إلى أين ذهب الأمير علي بعد وصوله إلى إشبيليَّة وما هي الأمور التي قام بها في بلاد الأندلس، والمؤكد أنَّه عاد إلى بلاد المغرب واستقر بمرَّاكش ينظِّم فيها أمور دولته المتراميَّة الأطراف.

5- **البيان المُغرب**، ج4، ص64.(لم يحدِّد ابن عذارى من هي المدن التي شملتها هذه الغزوة، واكتفى بقوله أنَّها كانت ببلاد الرُّوم، ويبدوا أنَّها كانت بنواحي مملكة البرتغال بغرب الأندلس).

6- **البيان المُغرب**، ج4، ص64 .

2- سقوط سرقسطة:

كانت مدينة سرقسطة على الدوام هدفًا لأطماع مملكتي قشتالة وأراغون معًا، فقد حاول ملك قشتالة ألفونسو السَّادس الاستيلاء عليها أكثر من مرة في عهد بني هود[1]، وعندما خَفَتَ نجم قشتالة بوفاة ملكها ألفونسو السَّادس عام 502هـ/1109م[2]، ظهرت مملكة أراغون[3] بقيادة ألفونسو المحارب من بين أكثر الممالك المسيحيَّة خطرًا على سرقسطة، فقد حاول مررًا وتكررًا الاستيلاء عليها بالخصوص بعد أن سكنت الحرب الأهليَّة نسبيًا بينه وبين زوجته أوراكا بضعة أعوام ابتدءًا من سنة 508هـ/1114م[4]، وكذلك بعد استشهاد أوَّل الولاة المرابطين عليها محمَّد بن الحاج أثناء عودته إلى سرقسطة من غزوة قام بها في برشلونة سنة 508هـ/1114م[5].

1- يذكر ابن الكردبوس وابن أبي زرع أنَّ ألفونسو السَّادس حاصر سرقسطة حصارًا شديدًا وكاد يستولي عليها سنة 479هـ/1086م، ولم يتركها إلَّا عندما انصرف لحرب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في سهل الزَّلاقة ببطليوس بغرب الأندلس. ويذكر المؤرخ عنان أنَّ النَّصارى قد أنشئوا منذ سنة 484هـ/1091م على ضفة نهر إيبرو اليُسرى شمال سرقسطة حصنًا قويًا، يقع على قيد أربعة فراسخ فقط منها، واتخذوه قاعدة للضَّغط عليها وإرهاقها من آنٍ لآخر. (انظر: ابن **تاريخ الأندلس**، ص92 ؛ **روض القرطاس**، ص145 ؛ **عصر المرابطين والموحّدين**، ص88).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص142 .

3- يذكر أشباخ أنَّ تهديد ملوك أراغون لسرقسطة سبق عهد ألفونسو المحارب، ففي عهد أخيه بيدرو الأوَّل الذي حكم عشرة سنوات 488هـ-498هـ/1094-1104م تم التَّمهيد للاستيلاء على سرقسطة حينما استولى على حصني بربشتر ووشقة المنيعين، كما أنَّه حاصرها سنة 495هـ/1101م لمدة قصيرة واضطروا لرفعه، لأنَّ الفرصة لم تكن سانحة للاستيلاء عليها لأنَّ المرابطين استعادوا بلنسيَّة بعد ذلك بقليل، وغدو في مركز يسمح لهم بمعاونة بني هود. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص145-146).

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص162-163 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص150).

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160. (أعتقد أنَّ وفاة محمَّد بن الحاج الذي يُعد من خيرة قادة المرابطين، بداية النِّهاية لإمارة سرقسطة حيث تعاظم الخطر عليها أكثر من ذي قبل، على اعتبار أنَّه قام بدور فعال في إيقاف جماح حركة الاسترداد المسيحي عليها، كما نظَّم العديد من الحملات العسكريَّة على قشتالة وأراغون وبرشلونة تكللت معظمها بالنجاح).

ولمّا آل حكم سرقسطة للأمير أبا بكر بن إبراهيم بن تيفلويت[1] بأمرٍ من أمير المسلمين علي بن يوسف، نظَّم في بداية ولايته أمور الإمارة بحزم وعزم[2]، وقاد بشجاعةٍ بعض المعارك الدِّفاعيَّة على أراضي العدوِّ[3]، إلَّا أنَّه انصرف بعد ذلك إلى حياة اللهو والترف وانغمس في اللَّذات، واستمر على هذا الحال إلى غاية وفاته سنة 510هـ/1116م[4]، فتعاظم الخطر على سرقسطة أكثر من ذي قبل.

والغريب في الأمر أنَّ الأمير علي بن يوسف لم يسارع في تلك الآونة العصيبة إلى تعيين والي جديد على سرقسطة يخلف على الفور واليها المتوفي أبا بكر بن إبراهيم بن تيفلويت، رغم أنَّه كان ببلاد الأندلس عقب جوازه الثَّالث إليها سنة 511هـ/1117م[5]، ولحسن الحظ أنَّ والي مرسيَّة الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف أخ أمير المسلمين علي أقبل إليها عند سماعه بوفاة

1- مشهور في المصادر التَّاريخيَّة باسم أبا بكر بن تيفلويت، وتافلوت حسب ابن أبي زرع، وجاء عند ابن عذارى باسم أبي بكر بن أبي يحي إبراهيم، وهو ابن عم الأمير علي بن يوسف وزوج أخته، يعد من خيرة أمراء الدَّولة المرابطيَّة كرمًا وجودًا وشجاعةً، تولى أمر غرناطة ثمَّ مرسيَّة، ثمَّ بلنسيَّة وطُرطوشة، وسرقسطة سنة 508هـ/1114م والتي أقام بها بلاطًا فخمًا كبلاط الملوك، وخاض حياة باذخة فخمة، توفي سنة 510هـ/1116م وقيل سنة 511هـ/1117م. (انظر: **مفاخر البربر**، ص92، هامش3 ؛ **روض القرطاس**، ص161 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص61-62 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص98-99 ؛ حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص26 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص89).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص61-62 .

3- من بين هذه المعارك الدِّفاعيَّة نذكر تحركه لغزو حصن رُوطة سنة 510هـ/1116م فأحرق وبالغ في النِّكاية، وغزوه أيضًا مدينة برجة التي كان بها عماد الدَّولة بن هود، فضيَّق عليها تضيِّقًا شديدًا حتَّى صالحه أهلها فانصرف عنها. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص62).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص61، هامش2 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص89 .

5- يتعجب المؤرخ عنان من إقدام الأمير علي خلال عبوره الثَّالث للأندلس سنة عام 511هـ/1117م على القيام بغزوات عقيمةً في أراضي البرتغال يستولي خلالها على مدينة قُلُمْرِيَّة ثمَّ يتركها عقب افتتاحها، فالأولى حسبه هو الاتجاه بجيوشه إلى موطن الخطر حيث مدينة سرقسطة. ولا أوافقه الرأي تمامًا لأنَّه لا يمكن أن نصف غزواته بأراضي البرتغال على أنَّها عقيمة، وهي التي كللت بالنجاح وغنم المرابطون فيها غنائم كثيرة، واستطاعوا إيقاف جماح حركة الاسترداد المسيحي بتلك الناحيَّة، وفيما يخص قوله بأنَّه فتح مدينة قُلُمْرِيَّة وتخلى عنها فقد ذكر بنفسه سببين موضوعيين وهما موقعها النائي، وصعوبة الاحتفاظ بها في منطقة يحيط بها النَّصارى من كل صوب، كما أنَّه أخطأ حسب اعتقادي بجعل موطن الخطر محصورًا في منطقة الثغر الأعلى حيث مدينة سرقسطة مطالبًا بتوجيه الجيوش إليها، فكل الأندلس معرضة آنذاك للخطر. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص89-90).

واليها، وقام بالنَّظر في شئونها وبضبط أحوالها[1]، وبعد أن اطمأن على أحوالها عاد إلى مقر ولايته، فبقيت سرقسطة دون والٍ[2].

وكان ألفونسو المحارب ووفقًا لهذه الظروف يرى أمنيته في الاستيلاء على سرقسطة تدنو شيئًا فشيئًا[3]، وتضاعفت حظوظه في تحقيق أمنيته أكثر فأكثر باستشهاد كبار قادة المرابطين[4] واستشهدت أيضًا زهرة رجالهم في ميادين الجهاد جماعة بعد جماعة[5]، فأسرع بمحاصرتها والتَّضيِّيق عليها في أواخر عام 511هـ/1117م[6].

وفي تلك الأثناء عيَّن أمير المسلمين، والي غرناطة عبد الله بن مَزدلي[7] لولاية بلنسيَّة وسرقسطة، فسار إلى هذه الأخيرة، فوصل إليها في أواخر عام 511هـ/1117م فوجد ألفونسو المحارب كما أسلفنا الذكر محاصرًا لها، ويذكر ابن أبي زرع بأنَّه أذاق أهلها شرًا، وكانت بينهما حروب عظيمة انتهت بهزيمة ألفونسو المحارب وإنهاء الحصار على سرقسطة[8].

1- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص89 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص152. (لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة المدَّة التي بقي فيها والي مرسيَّة الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف ينظِّم فيها شؤون سرقسطة، ولكن المؤكد أنَّه لولا نجدته لها لسقطت آنذاك بيد ألفونسو المحارب).

2- سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص152-153 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص121 .

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص150 .

4- من بين هؤلاء القادة الكبار الذين استشهدوا نذكر الأمير سِير بن أبي بكر اللَّمتوني استشهد سنة 507هـ/1113م، القائد محمَّد بن الحاج استشهد سنة 508هـ/1114م، الأمير محمَّد بن عائشة أصيب في بصره سنة 508هـ/1114م وعمي فيما بعد، الأمير مَزْدَلِي استشهد في شوال 508هـ/مارس 1115م، الأمير أبا بكر بن إبراهيم بن تيفلويت استشهد سنة 510هـ/1116م، القائد أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد بن فاطمة استشهد في رمضان 511هـ/جانفي 1118م.

5- حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص26 .

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص162 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص153.

7- أخطأت بعض المراجع الحديثة في ذكر اسمه، حيث سماه أشباخ أبو محمَّد عبد الله بن مَزدلي، وورد عند حسين مؤنس باسم محمَّد بن عبد الله مَزدلي. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص150 ؛ حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص26).

8- **روض القرطاس**، ص162. (هذه عبارة عن جولة أولى في معركة الاستيلاء على سرقسطة، وكانت فيها الغلبة للمرابطين حيث أحبط فيها واليها عبد الله بن مَزدلي خُطط ألفونسو المحارب).

واستمرت المناوشات العسكريَّة بين الطرفين في منطقة الثغر الأعلى بالتَّحديد في مدينة لاردة، وقد ذكر ابن أبي زرع أنَّ ألفونسو المحارب[1] حاصرها وضيَّق عليها[2]، ولمَّا سمع أمير المسلمين علي بن يوسف بذلك كتب إلى أمراء غرب الأندلس وأمرهم بضرورة الذهاب عند أخيه الأمير تميم بن يوسف والي شرق الأندلس، ليسيروا معه لنجدة مدينة لاردة، ودرء الخطر على سرقسطة، وإيقاف حركة الاسترداد المسيحي بشرق الأندلس بشكل عام، ولقد خرج الأمير تميم من بلنسيَّة مع أمراء لمتونة ولحق به أبو يحي بن تاشفين صاحب قرطبة، وانضمَّت إليه قوات سرقسطة بقيادة واليها عبد الله بن مَزدلي[3]، واتجهت هذه الجموع نحو لاردة، فوقع بها قتال شديد بين الجيشين انتهى بفك الحصار على لاردة، وانهزام ألفونسو المحارب الذي خسر ما يزيد عن عشرة آلاف فارس، وبنهاية القتال عاد تميم إلى بلنسيَّة[4].

ولذلك رأى ألفونسو المحارب أن يستغيث بأهل ملته النَّصارى لكي يمدوا له يد العون للاستيلاء على سرقسطة، فطبع بذلك حربه على المرابطين بطابع صليبي بحت[5]، ولقد لاقت

1- قال ابن أبي زرع أنَّ ألفونسو المحارب عندما حاصر لاردة أتى معه أيضًا الفنش، وقد أخطأ في ذلك لأنَّ ألفونسو المحارب والفنش هما شخص واحد. (انظر: **روض القرطاس**، ص162).

2- لم يذكر ابن أبي زرع متى تمَّ بالتَّحديد حصار لاردة، ويبدو أنَّه حدث أواخر سنة 511هـ/1117م وهذا بالنَّظر لسير الأحداث التَّاريخيَّة.

3- وقع ابن أبي زرع في تناقض عندما قال أنَّ والي سرقسطة عبد الله بن مَزدلي شارك في فك الحصار على لاردة رفقة الأمير تميم، ولكنه قبل سرده لهذه الواقعة قال أنَّ عبد الله بن مَزدلي قد مات وبقيت سرقسطة دون والٍ. (انظر: **روض القرطاس**، ص162-163).

4- **روض القرطاس**، ص162-163. (يذكر حسين مؤنس أنَّ الأمير تميم لم يبقى في لاردة وعاد إلى بلنسيَّة ومنها رجع إلى مرَّاكش لأنَّ أمور المرابطين اضطربت هناك). (انظر: **الثغر الأعلى**، ص27).

5- من المؤكد أنَّ ألفونسو المحارب أدرك أنَّه عاد إلى أوروبا من المشرق الإسلامي فئات كبيرة من الفرسان، شاركت في الحملة الصَّليبيَّة الأولى 489-492هـ/1096-1099م واكتسبت خلالها خبرات عسكريَّة جيدة خاصةً في مجال الحصار، فلا بد من الاستنجاد بها لاستغلال خبراتها في حرب المرابطين. (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص153).

دعوته لهذه الحرب الصَّليبيَّة أذانًا صاغية في أوروبا، وقد أكد ذلك ابن أبي زرع حينما قال أنَّ ألفونسو المحارب بعث إلى طوائف الإفرنج يستنصرهم على سرقسطة فأتوا في أمم كالنَّمل والجراد[1].

ولقد جاءته في سنة 511هـ/1117م مجموعة كبيرة من الفرسان من فرنسا (بلاد الغال) قَدِمت في طلب الغنيمة والكسب[2]، ومن هؤلاء الكونت جاستون دي بيارن[3] وأخيه سانتولو[4] كما بارك رجال الدِّين المسيحي في مؤتمرهم المنعقد في مدينة طولوشة (تولوز) جنوب فرنسا عام 512هـ/1118م[5] الحماس الدِّيني الذي لاقته دعوة ألفونسو المحارب لحرب صليبيَّة جديدة في الأندلس وقرروا أن يرسلوا قوات عسكريَّة يقودها الكونت دى تولوز للمشاركة في هذه الحملة[6] كما شارك فيها أيضًا كثير من الأساقفة ورجال الدِّين[7].

1- **روض القرطاس**، ص163 .

2- أشباخ، ج1، ص151 .

3- يذكر أشباخ وعنان أنَّ ألفونسو المحارب عندما استولى على سرقسطة بصفة نهائية كافئ الكونت جاستون دى بيارن الذي أعانه كثيرًا لتحقيق نصره هذا على المرابطين، وأعطاه حي سرقسطة الذي يقطنه النَّصارى المعاهدون من قبل، وأنعم عليه بلقب سيد سرقسطة، وعهد إليه بالإشراف على توزيع الغنائم على الجند. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص151 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص101).

4- كانا قد اشتركا بالمشرق الإسلامي في الحرب الصَّليبيَّة الأولى وبالتأكيد أنَّهم اكتسبوا خبرة جيدة في فنون الحرب. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص90).

5- وقد حضر هذا المؤتمر أساقفة مدن آرل وأوش ولاسكار وبنبلونة وبربشتر وباين، وقد تقرَّر فيه رفع مرتبة الحملة ضدَّ سرقسطة إلى حملة صليبية. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص90 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص121).

6- وقد شارك أيضًا في الحملة قوَّات كبيرة من البشكنس وقطلونيَّة وأورقلة (ربما هي نفسها مدينة أُوقة التي ذكرها البكري) تحت إمرة سادة هذه المناطق. (انظر: **جغرافيَّة الأندلس وأوروبَّا**، ص62 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص90 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص153-154).

7- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص90. (كما أعلن البابا كاليكستوس (Calixtus) الثَّاني منح صكوك الغفران للمشاركين في هذه الحملة الصَّليبيَّة). (انظر: عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص121).

ولمّا اجتمعت هذه الجيوش المسيحيَّة المتحدة من الأراغونيِّين والإفرنج[1] اتجهوا صوب سرقسطة وشرعوا في حصارها في مستهل شهر صفر سنة 512هـ/22 ماي 1118م[2]، وكانت سرقسطة فضلًا عن خصائصها الطبيعيَّة، تعتمد في الدِّفاع على أسوارها العالية القويَّة التي ترجع إلى أصل روماني، وعلى قلعتها المنيعة[3]. وعندما وصل المحاصِرين إليها[4] احتلوا أولًا قصر الجعفريَّة[5]، ثمَّ شرعوا في حصار قلعتها و قد جلبوا معهم أبراج خشبية عالية تجري على بكرات لكي يستطيع

1- سكتت أغلب المصادر التَّاريخيَّة عن ذكر عدد الجيوش المسيحيَّة المشاركة في حصار سرقسطة، وقال الحِميري خرج إليها الإفرنج في خمسين ألف فارس، وألفونسو المحارب في جملةٍ أخرى. (انظر: **الرَّوض المعطار**، ص317).

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص92 .

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص94. (وممَّا زاد في أهميتها انتشار القلاع والحصون على طول البلاد وعرضها والتي ساعدتها عل الصمود فترة طويلة أمام المسيحيِّين الطامعين في الاستيلاء عليها). (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص277-278 ؛ مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص127 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص137).

4- بدأ الجيش الإفرنجي الذي يقوده جاستون دي بيارن الحصار أولًا، وبعد ذلك لحق به ألفونسو المحارب في قوّاته من قشتالة. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص92).

5- (Pulacio Aljaferia) يعتبر قصر الجعفريَّة من الآثار الإسلاميَّة البارزة في الأندلس، قام ببنائه الأمير أبو جعفر أحمد بن سليمان المقتدر بالله بن هود، وسمى بالجعفريَّة نسبةً إلى كنيته أبي جعفر، اشتهر باسم دار السرور وسماه المقتدر بمجلس الذهب، وهو يقع غربي سرقسطة، وخارج أسوارها بنحو ميل منها وعلى مقربة من نهر إيبرو (Ebro). (انظر: المقري، **نفح الطِّيب**، مج1، ص441-442 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص94-95 ؛ فايزة بنت عبد الله الحسَّاني: **تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأمويَّة حتَّى سقوطها 316-512هـ/928-1118م، دراسة سياسية وحضارية**، رسالة ماجستير في التَّاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، قسم الدِّراسات العليا التَّاريخيَّة والحضاريَّة، 2008م، ص138 وما بعدها ؛ بلقاسم بوشراية: **مملكة بني هود في الثغر الأعلى أيام الطوائف والمرابطين بالأندلس 431هـ-1039م/524هـ-1131م – دراسة في الأحوال السِّياسيَّة**– رسالة ماجستير في التَّاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، قسم التَّاريخ، 2011م، ص126 وما بعدها).

المهاجمون بها محاذاة الأسوار العالية لينصبوا فوقها العرادات[1] وجلبوا معهم أيضًا عشرين منجنيقًا لدك الأسوار[2].

واستمر حصار الصَّليبيِّين لسرقسطة حوالي سبعة أشهر[3]، وأذاقوا أهلها ويلًا وثبورًا[4]، وقد فنيت الأقوات وهلك أكثر النَّاس جوعًا داخل المدينة المحصورة[5]، وبالمقابل كان الجيش الصَّليبي يعاني هو الأخر من نقص المؤن بسبب طول مدَّة الحصار، حتَّى فكر قادته في رفعه، لولا أنَّ شجعهم أسقف وشقة وزملائه ووضعوا تحت تصرفهم ذخائر كنائسهم من أجل شراء الأقوات[6].

وفي داخل المدينة المحصورة ساءت أحوال المحصورين أكثر من ذي قبل، خاصةً لأنَّهم لم يتمكنوا من جني محاصيلهم الزراعيَّة لتبكير النَّصارى في فرض الحصار، وكذلك لم تصلهم أية مؤن من خارجها لإحكام النَّصارى الحصار حولها من ناحية النَّهر والبر معًا[7]، وممَّا زاد الأمر سوءًا وفاة

1- وردت عند ابن أبي زرع والسَّلاوي باسم الرعادات، ولكن الأرجَّح هو العرادات، وهي آلة حربيَّة تشبه المنجنيق، لكنها أصغر منه حجمًا، تُرمى بواسطتها الحجارة على أبعاد طويلة لهدم أسوار الحصون، كما تُستخدم في رمي السِّهام دفعةً واحدةً ولمسافات بعيدة، لا تصل إليها رميات الأقواس والمناجيق، وبمرور الوقت أُطلق اسم عرادة على عربة المدفع. (انظر: ابن أرنْبَغا الزَّرْدَكَاش: **الأنيق في المناجيق**، تحقيق إحسان هنيدي، دار الكتب الوطنيَّة، أبو ظبي، الإمارات العربيَّة المتحدة، 2013م، ص22 ؛ **روض القرطاس**، ص163 ؛ **الإستقصا**، ج2، ص60 ؛ فتحي زغروت: **الجيوش الإسلاميَّة وحركة التَّغيِّير في دولتي المرابطين والموحِّدين (المغرب والأندلس)**، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة، القاهرة، مصر، ط1، 2005م، ص169-170).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ السَّلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص60. (وكان الذي يشرف على استعمال آلات الحصار طائفة من أهل بيارن ممَّن اشتركوا في حصار بيت المقدس، وتمرسوا في استعمالها. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص95 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص154).

3- لم يذكر ابن أبي زرع مدَّة الحصار، واكتفى ابن الكردبوس بقوله حوصرت شهورًا، في حين قال الحِميري بأنَّها حوصرت تسعة أشهر، والصَّحيح أنَّها حوصرت سبعة أشهر وهذا باحتساب بداية الحصار في صفر سنة 512هـ/ماي 1118م ونهايته في رمضان سنة 512هـ/ديسمبر 1118م. (انظر: **روض القرطاس**، ص163 ؛ **تاريخ الأندلس**، ص117-118 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص317).

4- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص118 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ السَّلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص60 .

6- خليل إبراهيم السامرائي، **علاقات المرابطين بالممالك الإسبانيَّة**، ص245 .

7- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص95 .

واليها عبد الله بن مَزدلي في أوائل جمادى الآخرة سنة 512هـ/سبتمبر 1118م[1] فأصبح الأمر فوضى في المدينة لأنَّه لم يخلفه أحد في الرِّياسة[2].

واستمر حال المدينة على هذا النحو من الاضطراب والفوضى خلال شهري جمادى الآخرة ورجب سنة 512هـ/سبتمبر وأكتوبر 1118م، وفي حدود منتصف شهر شعبان (أوائل ديسمبر) من نفس السنة وصل إلى مقربة من سرقسطة جيشًا مرابطيًا بقيادة الأمير تميم بن يوسف لمحاولة إنقاذها[3]، واستغل بعض أعيان وعلماء سرقسطة منهم الفقيه علي بن مسعود الخولاني[4] فرصة تواجده هناك وخرجوا إليه، وحدثوه باسم أهلها عن الظروف الصعبة التي يعانون منها ووجوب مناجزة العدوِّ[5]، كما وصلته رسالة مؤثرة كتبت يوم الثلاثاء 17 شعبان 512هـ/3 ديسمبر 1118م[6] بعثها قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله وجماعةً من أعيانها يتضرعون إليه أن يتقدم لإنجاد سرقسطة وإنقاذ أهلها، وفيها يصف الكاتب معانات أهل المدينة من أهوال الحصار

1- قال ابن أبي زرع أنَّ عبد الله بن مَزدلي توفي سنة 512هـ/1118م دون ذكر اليوم والشهر، في حين قال عنان أنَّه توفي بالتَّحديد في أوائل شهر جمادى الآخرة سنة 512هـ/سبتمبر 1118م. (انظر: **روض القرطاس،** ص162 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص95).

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص95 ؛ خليل إبراهيم السامرائي، **علاقات المرابطين بالممالك الإسبانيَّة،** ص245 .

3- وصل الأمير تميم بجيشه إلى غاية حصن سانتا ماريا الواقع على بعد ثمانية عشر كيلومترًا من سرقسطة. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص98).

4- هو الفقيه القاضي أبو الحسن علي بن مسعود بن علي بن مسعود بن إسحاق بن إبراهيم بن عصام الخولاني السرقسطي، كان فقيهًا مشاورًا، بارعًا في الوثائق، وله حظ وافر من الأدب، ولي قضاء ميورقة، وتوفي سنة 518هـ/1124م. (انظر: ابن عبد الملك المرَّاكشي: **الذَّيل والتَّكملة لكتابي الموصول والصِّلة،** السفر الخامس، القسم الأوَّل، تحقيق إحسان عبَّاس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، 1965م، ص408-409).

5- ابن عبد الملك المرَّاكشي، **الذَّيل والتَّكملة لكتابي الموصول والصِّلة،** السفر الخامس، القسم الأوَّل، ص408 .

6- يقول المؤرخ حسين مؤنس أنَّ الرِّسالة كتبت سنة 523هـ/1129م، وقد أخطأ في تقديره هذا لأنَّ نص الرِّسالة يوضح جليًا بأنَّها كتبت وقت حصار سرقسطة وقُبيل سقوطها بقليل في يوم الثلاثاء 17 شعبان 512هـ/3 ديسمبر 1118م، فضلًا على أنَّ الأمير تميم الذي وجهت له الرِّسالة قد توفي سنة 520هـ/1126م. (انظر: ابن القطان، **نُظم الجمان** ج6، ص65-66، هامش5 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس،** ص164 ؛ **الثغر الأعلى،** ص43).

والجوع، ويلوم الأمير تميم على إحجامه عن لقاء النَّصارى، ويشير فيها إلى أهمية سرقسطة الدِّفاعيَّة وعواقب سقوطها الوخيمة على مركز المرابطين في شبه الجزيرة[1].

ولكن رغم هذه الرِّسالة المؤثرة، وطلب المساعدة التي وجهها أعيان وعلماء سرقسطة للأمير تميم إلَّا أنَّه أحجم عن ملاقاة العدوِّ والاشتباك معه وعاد أدراجه ولم يبذل محاولةً لإنقاذها[2].

ولكن الرِّوايات النَّصرانيَّة تقول أنَّه حدثت معركة ضارية بين الفريقين، فاضطر الأمير تميم للانسحاب والعودة إلى بلنسيَّة، وقد ذكرها المستشرق أشباخ حيث قال أنَّ الأمير الشجاع تميم بن يوسف سار بجيش ضخم لنجدة سرقسطة، وعندما اقترب منها أخبر حرس الحدود في الوقت المناسب ألفونسو المحارب باقتراب وصول تميم بجيشه الضَّخم إلى سرقسطة فرأى ألفونسو بضرورة خوض المعركة معه رغم كثرة جيشه، فحدثت معركة عنيفة بينهما[3]، انتهت بهزيمة الأمير تميم[4] فعاد

1- عن نص الرِّسالة. (انظر: حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص44 وما بعدها ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص538 وما بعدها).

2- ابن عبد الملك المرَّاكشي، **الذَّيل والتَّكملة لكتابي الموصول والصِّلة**، السفر الخامس، القسم الأوَّل، ص408 .

3- لم يذكر أشباخ تاريخ حدوث المعركة، ولكن المؤرخ عنان يقول أنَّها حدثت يوم 20 شعبان 512هـ/6 ديسمبر 1118م. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص151 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص96).

4- يزعم أشباخ أنَّ مهارة القيادة لدى ألفونسو المحارب كانت السبب في انتصاره على الأمير تميم بالرغم من ضخامة جيشه. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص151).

أدراجه صوب بلنسيَّة في عشرة آلاف من جنده[1] تاركًا المحاصَرين لمصيرهم الميئوس[2].

وعندما يئس المحاصَرين داخل المدينة من نجدة إخوانهم المرابطين راسلوا ملك أراغون ألفونسو المحارب وطلبوا منه أن يرفع عنهم القتال إلى أجل معين[3]، فإن لم يأتهم من يُنجدهم وينصرهم أخلوا له المدينة وأسلموها إليه، فعاهدهم على ذلك، ثمَّ مضى هذا الأجل دون أن يتلقى

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص151. (رغم اختلاف الرِّوايتين الإسلاميَّة والنَّصرانيَّة في الكثير من التفاصيل إلَّا أنَّهما وصلا إلى نفس النَّتيجة وهي انسحاب الأمير تميم إلى بلنسيَّة وعدم إنقاذه لسرقسطة).

2- ذكر المؤرخ عنان أنَّ الموقف السلبي للأمير تميم والمتمثل في عودته إلى بلنسيَّة وعدم إنقاذه لسرقسطة يرجع إلى عدَّة أسباب منها تفوق النَّصارى في عدد الجيوش فخشي تميم الدخول في معركة غير مأمونة العواقب، بُعد سرقسطة عن مراكز تموين وإمداد الجيش المرابطي في بلنسيَّة ومرسيَّة وقرطبة، ونظرًا لاستشهاد معظم القادة الكبار للجيش المرابطي مثل سِير بن أبي بكر ومحمَّد بن الحاج وغيرهم، والسبب الحقيقي حسبه هو شعور المرابطين بأنَّ الاحتفاظ بهذه المنطقة النائيَّة في الثغر الأعلى من الأندلس يلقي عليهم مسؤوليات عظيمة لوقوعها بين أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار، بالإضافة إلى أنَّ أهل سرقسطة ليسوا كثيري الولاء لهم، وأوافقه الرأي إلى حدٍ بعيد في هذه الأسباب التي ذكرها، ولكنني لا أوافقه الرأي حينما ذكر سببًا أخر يتمثل في كون الأمير تميم لم يكن من أكابر القادة المرابطين، وإنَّما كان يقود الجيش بصفته الأميريَّة، وحاول من أجل تبرير رأيه أن يذكرنا أنَّ انتصاره في معركة أُقليش لا يرجع إلى مقدرته وصفاته الخاصة، وإنَّما كان راجعًا بالأخص إلى شجاعة قائديه المجربين ابن عائشة وابن فاطمة ولولاهما لمَّا اشتبك في المعركة ولآثر الارتداد، وأرى بأنَّ هذا الرأي غير صحيح لأنَّ الأمير تميم ربما لم يصل في حنكته العسكريَّة إلى مستوى القادة الكبار أمثال سِير بن أبي بكر محمَّد بن الحاج وابن عائشة وابن فاطمة إلَّا أنَّه يعتبر من بين القادة اللذين أثبتوا جدارة واستحقاق كبير، ومعروف أنَّه شارك في معارك كثيرة بالمغرب والأندلس في عهد والده يوسف وأخيه علي اكتسب خلالها خبرةً ودراية كبيرة بفنون الحرب، وفيما يخص معركة أُقليش فقد ذكرنا فيما سبق العديد من الأدلة التي تثبت أنَّ الأمير تميم لم يكن خائفًا من مجابهة العدوِّ لأنَّه يفتقد للشَّجاعة، وإنَّما لأنَّه كان يدرك خطورة الموقف فمن الضروري الحيطة والحذر وعدم الاستهانة بقدرات العدوِّ. وهناك سبب أخر أعتقد بأنَّه من الأسباب الرئيسيَّة في تخلي الأمير تميم عن إنقاذ سرقسطة هو هزيمته في المعركة الضارية التي حدثت بالقرب من سرقسطة مع قوَّات ألفونسو المحارب، وقد وصفه أشباخ رغم هزيمته في هذه المعركة بالأمير الشجاع. ويرى حسين مؤنس أنَّ الأمير تميم لم يستطع الاستمرار في القتال لتحرير سرقسطة لأنَّ أمور المرابطين اضطربت في مرَّاكش فاضطر للعودة إلى بلنسيَّة ومنها إلى مرَّكش، ويبدو أنَّ هذه الاضطرابات كان يثيرها بالأساس ابن تومرت الداعية الجديد الذي أخذ يبث أفكاره ومبادئه في مرَّاكش. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص151 ؛ **عصر المرابطين والموحّدين**، ص99-100 ؛ **الثغر الأعلى**، ص27 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص156-157).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163. (لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة بالتَّحديد مدَّة الأجل أو الهدنة، ويبدوا أنَّها لم تتجاوز خمسة عشر يومًا).

المحصورون أية معونة[1]، فسلموا له سرقسطة صلحًا[2] يوم الأربعاء الرَّابع من شهر رمضان سنة 512هـ/18 ديسمبر 1118م[3]، وذكر ابن الكردبوس أنَّهم اشترطوا عليه لقاء ذلك شروط عديدة وهي "من أحبَّ من أهلها الإقامة على أداء ضريبة خاصة أقام، ومن أحبَّ أن يرحل بما عنده إلى حيث شاء من البلاد فله الأمان التام إلى أن يصل إلى بلاد الإسلام، وعلى أن يسكن الرُّوم المدينة والمسلمون ربض الدَّباغين[4]، وعلى أنَّ كل أسير من المسلمين يفلت للرُّوم من المدينة فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض له عليه[5].

وقد أورد هذه الشروط أيضًا أشباخ باختصار مع بعض الاختلافات الطفيفة عن ما جاء عند ابن الكردبوس حيث قال: وأُتفق على أن يؤمن أهل سرقسطة في النَّفس والمال، وأن يكونوا أحرارًا في مزاولة شعائر دينهم، والاحتكام إلى قضاتهم وشرائعهم، وأن يترك لهم الخيار في البقاء أو الهجرة بأموالهم[6].

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ السَّلاوي، **الإستقصا**، ج2، ص60. (ويلخص أشباخ هذه الوقائع في بضعة أسطر حيث يقول أنَّ أهل سرقسطة قاوموا في البداية مقاومة عنيفة، ولكنهم ما لبثوا أن شعروا بنقص وسائلهم واهباتهم، إذ نفذت المؤن والأقوات بسرعة، ولم يكن ثمة أمل في الغوث والإنقاذ، ولم يكن أمامهم سوى قتال يأس لا طائل منه، عندئذٍ عولوا على المفاوضة وقَبِل ألفونسو المحارب أن يفاوضهم لكي يعجل بالاستيلاء على المدينة الهامَّة). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص151).

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص118 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص316 ؛ السَّلاوي، **الإستقصا**، ص60 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص151-152. (يذكر ابن الأبَّار أنَّه جرت قصص طويلة أفضت إلى تغلب الرُّوم على سرقسطة، والظاهر أنَّه يقصد أنَّه تمَّ الاستيلاء عليها بالقوة وليس عن طريق الصُلح كما تذكر جُلَّ المصادر التَّاريخيَّة). (انظر: **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص248).

3- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص248 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152. (اكتفى ابن أبي زرع وابن خلدون والمقري بذكر سنة السقوط وهي 512هـ/1118م دون ذكر اليوم والشهر). (انظر: **روض القرطاس**، ص163 ؛ **العِبر**، ج4، ص210 ؛ **نفح الطِّيب**، مج1، ص**441**).

4- كان ربض الدباغين من أحياء سرقسطة المتطرفة (الخارجيَّة) ويقع على ضفة النهر اليمنى، وكانت سياسة ملوك النَّصارى أن يسمح للمسلمين البقاء في منازلهم داخل المدينة لمدة سنة أو نحوها ثمَّ يلزمون بعد ذلك بالانتقال إلى الأرباض وهي الأحياء المتطرفة أو الضواحي. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص100).

5- **تاريخ الأندلس**، ص118.

6- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152 .

وعندما دخل ألفونسو المحارب وحلفائه سرقسطة واستقروا بها[1]، أخذ أكثر المسلمين في الرَّحيل والفرار إلى مرسيَّة وبلنسيَّة[2] مؤثرين مغادرة سرقسطة حيث كانت وطأة النَّصارى تشتد عليهم يومًا بعد يوم[3]، وقد خرج منها نحوًا من خمسين ألف ما بين صغير وكبير ونساء ورجال[4] ولمَّا ساروا من المدينة مسافة قليلة لحق بهم ألفونسو وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم، فرأى أموالًا لا تُحصى كثرةً[5]، ولكنه سمح لهم بالاحتفاظ بها، وأرسل معهم من رجاله من يرافقهم إلى أخر أعماله، ولم يأخذ منهم سوى مثقال عن كل واحدٍ من الرِّجال والنِّساء والأطفال[6].

كما سمح للمسلمين في فترة قصيرة باستبقاء قاضيهم ابن حفصيل وبالاحتكام إلى شريعتهم، ولكنه قام بعد ذلك بتحويل المسجد الجامع لسرقسطة منذ 23 رمضان 512هـ/6 جانفي 1119م إلى كنيسة وسميت كنيسة لاسيو (La Seo) أي الكنيسة العظمى، وفي رواية أخرى لم يحوله إلى كنيسة إلَّا بعد حوالي ثلاث أعوام في جويلية 515هـ/أكتوبر 1121م وسميت هذه الكنيسة باسم سان سالبادور (San Salvador) [7].

1- يذكر ابن أبي زرع أنَّ النَّصارى لمَّا دخلوا سرقسطة وصل من المغرب جيش من عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين علي بن يوسف لاستنقاذها، فوجدوها قد سقطت في أيدي أعدائهم. (انظر: **روض القرطاس**، ص163).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ السَّلاوي، **الإستقصا**، ج2، ص60 .

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152 .

4- يذكر عنان أنَّ المسلمين الذين خرجوا من سرقسطة كثيرون، ولكن خمسين ألف مبالغ فيه، وأنَّ ملك أراغون لمَّا رأى كثرة المهاجرين من المسلمين فيما بعد، وخشي أن ينهار عمران المدينة أصدر أمره بمنع هجرة المسلمين إلَّا بإذنٍ خاص. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102).

5- يقول ابن الكردبوس أنَّ ألفونسو المحارب لم يكن يتمنى أن يرى في حياته ولو جزءًا من هذه الأموال. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص119).

6- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص119 .

7- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص101 .

وهكذا سقطت سرقسطة بعد أن حكمها المسلمون منذ الفتح أكثر من أربعة قرون[1] حكم منها المرابطون تسعة أعوام[2]، وبعد أن لعبت في تاريخ الثغر الأعلى الأندلسي أعظم دور سواءً من الناحية العسكريَّة[3] أو السِّياسيَّة أو الحضاريَّة[4].

وكان سقوطها بعد سقوط طليطلة ضربة جديدة قاصمة للأندلس، وكان نذيرًا بسقوط باقي قواعد الثغر الأعلى في يد ملك أراغون ألفونسو المحارب الذي أمنَّ باستيلائه على سرقسطة حدود مملكته، وسيطر على طريق الملاحة في نهر إيبرو (Ebro)[5] وأفقد المرابطين خطًّا دفاعيًا من أهم خطوطهم الدِّفاعيَّة، ورفع هذا النَّصر من معنويات المسيحيِّين[6] الذي تشجعوا أكثر من ذي قبل في الاندفاع نحو الأراضي الإسلاميَّة لالتهام المزيد منها[7] فتعاظمت بذلك حركة الاسترداد

1- يتحسر ابن الكردبوس تحسرًا كبيرًا لسقوط سرقسطة في قوله: فيا له من مصابٍ قطَّع الأكباد واذهب الجَلد. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص118).

2- يذكر ابن الكردبوس وابن خلدون والمقري، أنَّ ألفونسو المحارب استولى على سرقسطة وأخذها من عماد الدَّولة بن المستعين بالله الثَّاني أحمد بن هود سنة 512هـ/1118م، وهذا خطأ لأنَّ ألفونسو المحارب انتزع في هذا التَّاريخ سرقسطة من أيدي المرابطين حسبما يذكر كلٌ من ابن الأبَّار وابن عذارى وابن أبي زرع وابن الخطيب، وأنَّ عماد الدَّولة أخرجه المرابطون من سرقسطة في العاشر من شهر ذي القعدة سنة 503هـ/30 ماي 1110م ولم يعد إليها على الإطلاق، فقد فرَّ إلى مدينة رُوطة وامتلكها بمساعدة النَّصارى، وكانت له معارك كثيرة مع المرابطين إلى أن مات بها في شهر شعبان سنة 524هـ/جويلية 1130م فخلفه في حكمها ولده سيف الدَّولة المستنصر بالله. (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص119-120 ؛ **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص248-249 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص55-56 ؛ **روض القرطاس**، ص163 ؛ **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص175-176 ؛ **العِبر**، ج4، ص210 ؛ **نفح الطِّيب**، مج1، ص441).

3- كانت سرقسطة حصنًا منيعًا للإسلام في أقصى شمال الأندلس، وحالت دون تقدم لحركة الاسترداد المسيحي إلى الجنوب من نهر إيبرو (Ebro). (انظر: عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص126).

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص101 .

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص150 .

6- كان الجنود المسيحيون يقاتلون بروح معنوية عالية وحماس ديني منقطع النظير تذكيه وتؤججه مشاركة الأساقفة ورجال الدِّين في هذه المعارك الفاصلة مع المسلمين. (انظر: سعد بن عبد الله البشري: **جماعات الفرسان الدِّينيَّة الإسبانيَّة وحروبها مع المسلمين في الأندلس**، مقال منشور بمجلة جامعة أم القرى، السنة الخامسة، العدد السَّابع، 1413هـ/1992-1993م، ص188-189 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص158 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص126-127).

7- سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص158 .

بشمـال شرق الأندلس، وأصبحت بلنسيَّة والمدن القريبـة منها تواجه خطر العدوان الصَّليبي المبـاشر من الشمال كما كانت تواجهه من غرب الأندلس[1].

وانعكس سقوط سرقسطة في يد النَّصارى على المرابطين، فخسروا الأرض، وأصيبت هيبتهم العسكريَّة بتصدع وانهيار، وكانت أوَّل ضربة حقيقية هزت من أركان دولتهم في الأندلس، كما خسروا ثقة الرَّعيَّة الأندلسيَّة فيهم والتي أخذت تتمرد على سلطانهم كلما سنحت لهم الفرصة وتهيأت لهم الظروف لأجل إخراجهم من الأندلس[2].

3- معركة كتندة:

اتخذ ملك أراغون ألفونسو المحارب سرقسطة عاصمةً لملكه، ومضى قُدمًا بعد أن نظَّم شؤونها في حرب المسلمين الذين ما زالوا يملكون على مقربة من سرقسطة عدة مدن هامَّة تجعل مواقعها الجبليَّة الوعرة وحصونها القويَّة من الصَّعب حصارها[3]، وقد انتهز ألفونسو فرصة الروع الذي بثه سقوط سرقسطة واعتزم أن يتابع ظفره بافتتاح ما بقي من هذه القواعد والمدن والحصون فسار في قوَّاته نحو طرسونة الواقعة جنوبي غربي تطيلة[4] واستولى عليها وأعاد بها مركز الأسقفيَّة

1- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102 .

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص158 .

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152 .

4- كانت مدينة تطيلة قد سقطت في يد ألفونسو المحارب قُبيل سقوط سرقسطة بنحو عام في سنة 511هـ/1117م. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102).

القديمة[1]، ثمَّ سار منها إلى برجة الواقعة في جنوبي تطيلة واستولى عليها، وافتتح عدَّة حصون ومدن في تلك المنطقة[2].

ثمَّ عبر ألفونسو جبال سيرا مولينا التي تفصل بين أراغون وقشتالة، وكان للمسلمين بها عدَّة نقاط دفاعيَّة منيعة واستولى عليها[3]، ثمَّ زحف على قلعة أيوب التي ليس في الثغر الأعلى للأندلس أمنع منها فاستولى عليها[4]، وقد تمَّت هذا الفتوح كلها في سنة 513هـ/1120م[5].

وقد وصلت إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بمرَّاكش[6] أنباء سقوط هذه المدن والقلاع الحصينة بالثغر الأعلى، فكتب إلى أخيه الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف والي إشبيليَّة آنذاك بتجهيز الجيوش والمبادرة لقتال ألفونسو المحارب (ابن رذمير) ووضع حدٍ لعدوانه، وكتب أيضًا إلى القادة ورؤساء الأندلس أن يلتحقوا بقوَّات أخيه وأن يكونوا تحت إمرته، فاستنفر الأمير إبراهيم

1- يذكر أشباخ أنَّ ألفونسو المحارب استولى خلال ثلاثة أعوام من سقوط سرقسطة على مجموعة من المدن منها مدينة طركونة وقد أخطأ في ذلك حيث استولى على طرسونة وليست طركونة تحديدًا بعد عام فقط من سقوط سرقسطة في سنة 513هـ/1120م. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152 ؛ حمدي عبد المنعم محمَّد حسين، **التَّاريخ السِّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص190).

2- ومن بين المدن التي استولى عليها: ألاجون، مالن، مجايون، وأبيلا (Epila) وغيرها. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152 .

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ السَّلاوي، **الإستقصا**، ج2، ص61. (لم يحدد أشباخ تاريخ استيلاء ألفونسو المحارب على قلعة أيوب بدقة، حيث اكتفى بالقول أنَّه استولى عليها خلال ثلاثة أعوام من سقوط سرقسطة مع مجموعة من القلاع والمدن، والحقيقة أنَّه استولى عليها بالتَّحديد بعد عام فقط من سقوط سرقسطة في سنة 513هـ/1120م). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152).

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ السَّلاوي، **الإستقصا**، ج2، ص61 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102-103 .

6- أخطأ ابن أبي زرع حينما قال أنَّ الأمير علي بن يوسف عندما وصلته أنباء سقوط هذه المدن والقلاع سنة 513هـ/1120م جاز إلى الأندلس للمرة الثَّانيَّة برسم الجهاد وإصلاح أحوالها، وقد أكد أغلب المؤرخين مثل ابن الكردبوس وابن عذارى وصاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ جواز الأمير علي للمرة الثَّانية إلى الأندلس كان سنة **503**هـ/**1109**م، وجوازه الثَّالث كان سنة **511**هـ/**1117**م. (انظر: **روض القرطاس**، ص163-164 ؛ **تاريخ الأندلس**، ص**116** ؛ **البيان المُغرب**، ج4، ص64 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص86).

قوَّاته وانضمَّت إليه قوَّات قرطبة وغرناطة ومرسيَّة بقيادة ولاتها[1]، والتحقت به أيضًا طائفة من علماء الأندلس وقضاتها بالإضافة إلى جموع كبيرة من المتطوعة، فاتجه بهذه الجموع إلى قلعة دروقة المنيعة لاستنقاذها من ألفونسو المحارب[2]، وتمَّ الاشتباك مع الجيش الأراغوني الذي بلغ تعداده زهاء اثنا عشر ألف فارس غير المشاة والرماة وهم جموع غفيرة لا تحصى[3]، في ظاهر بلدة صغيرة تسمى كتندة على مقربة من دروقة، وذلك في الرَّابع والعشرين من شهر ربيع الأوَّل وقيل في ربيع الآخر سنة 514هـ/جوان أو جويلية 1120م[4]، وكانت معركة عنيفة اقتتل فيها الفريقان أشد القتال، انتهت بهزيمة المرَّابطين هزيمة منكرة، استشهد من المسلمين فيها خلقٌ كثير[5]، ويذكر المقَّري أنَّه استشهد فيها من المتطوعة نحو من عشرين ألفًا[6] ولم يُقتل فيها من العسكر أحد[7]، وقد استشهد فيها بعض الفقهاء الكبار منهم القاضي الشهير أبو علي الصدفي[8] وأبو عبد الله بن الفراء قاضي

1- كانت قوَّات قرطبة بقيادة واليها ابن زيادة، وقوَّات غرناطة بقيادة واليها الأمير محمَّد بن تينغمر اللَّمتوني، وقوَّات مرسيَّة بقيادة أبي يعقوب ينتان بن علي. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص103).

2- يذكر أشباخ أنَّ ألفونسو المحارب استولى على قلعة دروقة قبل خوضه معركة كتندة ضدَّ المرابطين، بينما يذكر عنان وهو الرأي الصَّحيح حسب اعتقادي أنَّه استولى عليها بعد انتصاره على المرابطين في معركة كتندة سنة 514هـ/1120م. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص104).

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص103 .

4- اكتفى ابن الأثير والمقَّري بذكر سنة المعركة وهي 514هـ/1120م دون ذكر اليوم والشهر، بينما ذكر أشباخ أنَّها حدثت في شهر ربيع الآخر سنة 514هـ/جويلية 1120م، وبالنِّسبة لعنان فقد قال أنَّها حدثت في الرَّابع والعشرين من شهر ربيع الأوَّل وقيل في ربيع الآخر سنة 514هـ/جوان أو جويلية 1120م. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، مج9، ص206 ؛ **نفح الطِّيب**، مج4، ص460-461 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص153 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص103).

5- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص206 .

6- **نفح الطِّيب**، مج4، ص461 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص153 .

7- قول المقَّري بأنَّه لم يقتل من العسكر أحد، يدعوا للحيرة والاستغراب، وكأنَّ جيش الأمير إبراهيم بن يوسف بقي متفرجًا أثناء المعركة ولم يشارك فيها، وترك العلماء والمتطوعة في ميدان المعركة إلى أن قتل منهم النَّصارى عشرين ألفًا، وهذا القول لا يصدقه عاقل، والصحيح أنَّه استشهد خلقٌ من جميع الفئات المشاركة، وربما كانت فئة المتطوعة ولقلة خبرتها في الحروب أكثر الفئات التي استشهد منها خلقٌ كثير. (انظر: **نفح الطِّيب**، مج4، ص461).

8- المقَّري، **نفح الطِّيب**، مج4، ص461 .

المرية[1]، ونجا من القتل القاضي أبا بكر بن العربي[2]، أمَّا قائد المرابطين الأمير إبراهيم بن يوسف[3] فقد انسحب في فلول جيشه إلى بلنسيَّة[4].

وكانت هزيمة المرابطين في معركة كتندة هذه من النتائج المباشرة لسقوط سرقسطة، فلو لم تسقط هذه الأخيرة لما تجرأ ألفونسو المحارب على عبور جبال سيرا مولينا (الشارات) بجيشه واحتلال طرسونة وقلعة أيوب وغيرهما، كما كانت هذه الهزيمة نكبة جديدة ساحقة لمسلمي الأندلس، ولهيبة المرابطين العسكريَّة[5].

وعلى إثر هذه الهزيمة القاسية التي لحقت بالمرابطين استولى ألفونسو المحارب على قلعة دروقة، وأنشأ على مقربةً منها محلة جديدة محصنة سميت قلعة مونريال (Monreal) سنة 514هـ/1120م لتكون حاجزًا لصد الجيوش الإسلاميَّة التي تنساب من طرف مرسيَّة وبلنسيَّة ولتكون في نفس الوقت منزلًا لجمعية دينية من الفرسان أسست لحماية الدِّين[6]، عرفت فيما بعد

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص206 .

2- يذكر المقَّري أنَّ القاضي أبا بكر بن العربي شارك في المعركة، وسئل عندما انتهت عن حاله، فقال حال من ترك الخباء والعباء، وهذا مثل عند المغاربة معروف، يقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه، بمعنى أنَّه ذهب جميع ما لديه. (انظر: **نفح الطِّيب**، مج4، ص461).

3- يذكر ابن الأثير أنَّ أمير المسلمين علي بن يوسف عندما حاصر ألفونسو المحارب (ابن رذمير) كتندة سنة 514هـ/1120م كان بقرطبة، وهو الذي قاد الجيش المرَّابطي في معركة كتندة، في حين يذكر أشباخ أنَّ الأمير تميم بن يوسف هو الذي قاد هذا الجيش، في حين تذكر أغلب المصادر التَّاريخيَّة أنَّ الأمير علي كان بمرَّاكش آنذاك، لأنَّ عبوره الثَّالث للأندلس كان سنة **511**هـ/**1117**م، وعبوره الرَّابع كان سنة **515**هـ/**1121**م، ويذكر المقَّري والكثير من المراجع الحديثة أنَّ والي إشبيليَّة الأمير إبراهيم بن يوسف هو الذي قاد الجيش المرابطي في معركة كتندة بأمرٍ من أخيه الأمير علي. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، مج9، ص206 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص86 ؛ **نفح الطِّيب**، مج4، ص460-461 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص152-153 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص103-104).

4- المقَّري، **نفح الطِّيب**، مج4، ص461 .

5- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص104 .

6- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص153 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص104 .

باسم الفرسان الدَّاوية[1]، وقد أظهر هؤلاء الفرسان حماسًا بالغًا في أداء المهام الموكلة إليهم في الدِّفاع عن مملكة أراغون، وفي حشد القوى والطاقات لحرب المسلمين وإخراجهم من الأندلس[2].

رابعًا– العبور الرَّابع وغزوة ألفونسو المحارب الكبرى للأندلس:

1– غزوة ألفونسو المحارب الكبرى للأندلس:

عبر أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الأندلس للمرة الرَّابعة والأخيرة في أوائل سنة 515هـ/ربيع 1121م[3] في جيش عظيم لم يجتمع مثله للمرابطين من قبل، وقد ضمَّ هذا الجيش قبائل صنهاجة وزناتة ومصمودة وغيرها من قبائل البربر[4]، وقد اختلفت الرِّوايات في أسباب عبوره هذا، فهناك من يقول أنَّه عبر لإخماد الثورة التي اندلعت في قرطبة على الأمير المرابطي ابن روادة[5]

1– فرسان الداوية أو فرسان المعبد (Les Templiers) أسس هذه الفرقة جماعة من الفرسان الفرنسيِّين الذين قدموا إلى بيت المقدس في الحرب الصَّليبيَّة الأولى، وأبدا هؤلاء الفرسان مهارة قتالية في حروبهم في بلاد الشام. صدر قانون يضبط أنظمة ومبادئ هذه الفرقة سنة 512هـ/1118م، وقام ألفونسو المحارب بإنشاء فرع لهم في أراغون، وعندما لمس مدى أهمية الدور الذي اضطلعوا به في حماية المناطق النَّصرانيَّة، أقدم في وصيته على تخصيص ثلث مملكته لهم، ونظرًا للنجاح الذي أحرزه هؤلاء الفرسان في مملكة أراغون، فقد قام أمراء قشتالة والبرتغال وقطلونية بجلب أعداد كبيرة منهم إلى بلدانهم، وعهدوا إليهم بالدِّفاع عن الحصون والقلاع المتاخمة للمسلمين مقابل حصولهم على نصيب وافر من الأراضي، والكثير من الأملاك والحقوق والمزايا. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص184 ؛ محمَّد العمروسي المطوي، **الحروب الصَّليبيَّة في المشرق والمغرب**، ص95-96 ؛ سعد بن عبد الله البشري، **جماعات الفرسان الدِّينيَّة الإسبانيَّة**، ص190 وما بعدها).

2– سعد بن عبد الله البشري، **جماعات الفرسان الدِّينيَّة الإسبانيَّة**، ص191 ؛ عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص126-127 .

3– ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص86 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص81 .

4– **الحُلل الموشيَّة**، ص86 .

5– ورد اسمه بصيغ مختلفة، فسماه ابن الأثير أبا بكر يحي بن رواد، وابن عذارى سماه أبو يحي بن روادة، وصاحب الحُلل الموشيَّة سماه أبو يحي بن رواد، وقال صاحب مفاخر البربر أنَّه أبو عبد الله بن روادة. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، ج9، ص187 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص66 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص86 ؛ **مفاخر البربر**، ص190).

سنة 514هـ/1120م[1]، وهناك من قال أنَّ الأمير علي اهتز لما بلغه من توالي المحن على جيوشه في الأندلس، فعبر لتدارك الموقف وإصلاح الأمور والعمل على توطيد سمعة الجيوش المرابطيَّة[2].

وقد قام بتولية أخيه الأمير تميم على جميع بلاد الأندلس[3] لتأدية هذه المهمَّة المتمثلة في الأساس في إدارة البلاد[4] والتَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي التي استفحل أمرها وتعاظم شأنها

1- اندلعت ثورة قرطبة ضدَّ سياسة واليها الأمير أبي يحي بن روادة، وقال ابن الأثير أنَّ السبب المباشر يكمن في إمساك عبد من عبيد الأمير أبي يحي، بيد امرأة كانت مع الجمع الذي خرج في قرطبة للاحتفال بعيد الأضحى من سنة 514هـ/1120م فاستغاثت بالنَّاس فأغاثوها، ونشب القتال بين عبيد الأمير أبي يحي وأهل قرطبة حتَّى دخل الليل، وفي الغد استمر القتال بين الطرفين بسبب رفض أبي يحي الامتثال لنصائح الفقهاء المتمثلة في عقد الصلح مع أهل قرطبة، فدارت الدائرة عليه وفرَّ من قصره، فنهبوه وأحرقوا جميع ديار المرابطين وأخرجوهم من المدينة، وعندما وصل الخبر لأمير المسلمين عبر إلى الأندلس بجيش ضخم لأجل إخماد هذه الفتنة، وعسكر خارج قرطبة التي تحصن أهلها بها واستعدوا لقتاله، وعندما طال الحصار عليهم، جاء إلى الأمير علي أعيانها ووجهاؤها منهم القاضي أبو الوليد بن رشد الجد وذكروه بوصية أبيه "أن يقبل من محسن أهل قرطبة، ويتجاوز عن مسيئهم" فوقع الاتفاق على إيقاف القتال بين الفريقين، وأن يؤدي أهل قرطبة له مالًا عوضًا عما نهب للمرابطين. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص187-188 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص86-87 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص66؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص153 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص168 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص82 وما بعدها).

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص82 .

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164. (لم يمكث أمير المسلمين علي بن يوسف طويلًا في الأندلس، فعندما أخمد بنفسه ثورة قرطبة، وقام بتولية أخيه الأمير تميم على جميع بلاد الأندلس، عاد في نفس السنة أي 515هـ/1121م إلى بلاد المغرب لمحاولة إخماد الثورة التي قادها الموحّدين بقيادة زعيمهم الروحي محمَّد بن تومرت في السوس الأقصى وقد استغرقت هذه الثورة كل اهتمامه وقواه، لأنَّها كانت أخطر وأبعد أثرًا من ثورة قرطبة). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص87 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص153 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص167 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص85).

4- كانت بلاد الأندلس الواسعة الأرجاء بحاجة إلى من يدير شؤونها أحسن إدارة، لأنَّها أصبحت في تلك الآونة في حالة غير مستقرة، فاختار أمير المسلمين أخيه الأمير تميم الذي كان يتمتع بخبرة عالية في إدارة شؤون الحكم وفي التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي، واليًا على عاصمة الأندلس غرناطة وعلى جميع هذه البلاد.

بالخصوص بعد سقوط سرقسطة سنة 512هـ/1118م بيد ملك أراغون ألفونسو المحارب[1] وكذلك هزيمة المرابطين الساحقة في معركة كتندة سنة 514هـ/1120م[2].

ولمَّا سقطت سرقسطة في أيدي النَّصارى، وتوالت انتصارات ألفونسو المحارب على المرابطين، وظهر التَّخاذل على الجيوش المرابطيَّة[3]، بالإضافة إلى انشغال المرابطين بحروبهم في بلاد المغرب ضدَّ الموحِّدين[4]، كل هذه العوامل حفزت النَّصارى المعاهدين[5] وبعثت في قلوبهم الأمل في طرد المرابطين من الأندلس، فقاموا بتحريض ملك أراغون ألفونسو المحارب بإشعال فتيل الحرب عليهم في جميع بلاد الأندلس[6]، واتفقوا معه بإمداده بما وسعوا من ضروب الإمداد والعون[7].

1- ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص248 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص163 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج4، ص210 ؛ المقَّري، **نفح الطِّيب**، مج1، ص441 .

2- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص206 ؛ المقَّري، **نفح الطِّيب**، مج4، ص460-461 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص153.

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص106 .

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص154 .

5- النَّصارى المعاهدون أو المعاهدون فقط، هم نصارى الأندلس الذين يعيشون في الأراضي الإسلاميَّة، ويخضعون للحكم الإسلامي، ويُسمون بالإسبانيَّة (Los Mozarabes) بالاشتقاق من كلمة مستعربين على ما يظهر، وسموا بذلك بسبب المعاهدات التي عقدها المسلمون الفاتحون معهم، وسمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم وشرائعهم نظير دفع الجزية، وهم ينتشرون في كافة مدن الأندلس بالخصوص غرناطة، وقد عاش هؤلاء في أمن وسلام في ظل الحكومات الإسلاميَّة المتعاقبة من فتح الأندلس إلى عهد المرابطين، ورغم ذلك ظهرت من هؤلاء أعمال الخيانة والغدر والتآمر على المسلمين. وقد حاول المستشرقون خاصةً دوزي التَّحامل على المرابطين وفقهائهم الذين اتهموهم باضطهاد النَّصارى المعاهدين، وممارسة كل أنواع الظلم والتَّضيِّيق عليهم، ونرد عليهم بما قاله زميلهم المستشرق أشباخ حيث ذكر أنَّ النَّصارى المعاهدون كان لهم مركز لا بأس به في المجتمع الأندلسي، وكانوا أحرارًا في إقامة شعائرهم الدِّينيَّة والاحتكام إلى قضاتهم وفقًا للشرائع القوطيَّة. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص90 وما بعدها ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص106 وما بعدها ؛ **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص162-163 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص153- 154 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص105 وما بعدها).

6- يذكر أشباخ أنَّ النَّصارى المعاهدين لم يكن في وسعهم أن يقوموا بحرب المسلمين دون معاونة من أبناء ملتهم، ذلك أنَّ القلاع كلها كانت في يد المسلمين، هذا فضلًا عن تفرقهم في مختلف الأنحاء، ولم يكن في وسعهم أن يتحدوا إلَّا إذا شغل المسلمون بحروبهم الدَّاخليَّة. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص154).

7- **الحُلل الموشيَّة**، ص91 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص106 .

وكان أشد طوائف المعاهدين نشاطًا في تدبير هذه المؤامرة الكبرى على مسلمي الأندلس نصارى مدينة غرناطة، وكانوا من أكبر طوائف المعاهدين عددًا[1]، وأغناهم مالًا، وأكثرهم ازدهارًا ومقدرةً ونفوذًا[2]، وكانوا بذلك السباقين لطلب العون من ألفونسو المحارب في سنة 519هـ/ 1125م وهذا لتنفيذ مخططهم للاستيلاء على غرناطة وطرد المسلمين منها ومن سائر بلاد الأندلس[3]، وقد راسلوه وتوالت عليه كتبهم[4]، ولكنه ترددا في قبول المشروع نظرًا لبعد غرناطة عن مملكة أراغون فالطريق إليها محفوف بالمخاطر لأنَّه يمر على العديد من المدن والحصون والقلاع المرابطيَّة، وكذلك لعدم اطمئنانه إلى الوعود التي قطعها له نصارى غرناطة والمتمثلة في أنَّهم يجعلونه سيدهم ومليكهم، وأنَّه سوف يغنم بافتتاح غرناطة والأندلس أجمل وأخصب وأسعد البقاع[5] فكرروا السعي والرجاء ووجهوا له كتابًا يشتمل على اثنا عشر ألفًا من أسماء الجنود المستعدين لمؤزرته في حربه هذه على المرابطين، وأخبروه أنَّ هناك أعدادًا أخرى من الجند مستعدةً للالتحاق به عند ظهوره وشروعه في الحرب[6].

كما تعهدوا أن يعاونوه بالنُّصح والعمل كمرشدين ومحاربين، وشرحوا له أحوال قلاع ومدن الأندلس شرحًا وافيًا[7]، بالخصوص مدينة غرناطة حيث ذكروا له أوصافها وما تحويه من ثروات

1- كان النَّصارى المعاهدون في كثير من الجهات ببلاد الأندلس لا يزيدون عن فئات صغيرة لكنهم كانوا يؤلفون جمهرةً كبيرة عن سكان غرناطة. (انظر: **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص162).

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص106 .

3- يدعي المستشرق دوزي أنَّ الفقهاء المرابطين كبدوا النَّصارى المعاهدين المشاق البالغة، ممَّا دفعهم في النَّهاية للتوسل إلى ملك أراغون بالمجيء لتخليصهم من نير التعصب الذي يواجهونه، فاستجاب لتوسلاتهم. (انظر: **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص162).

4- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص109 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص69 .

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص154 .

6- **الحُلل الموشيَّة**، ص91 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص109 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص69 .

7- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص154 .

ومحاصيل زراعية هامَّة، مثل القمح والشعير والكروم والزيتون وغيرها، ووصفوا له عيونها وأنهارها الغزيرة، وما تمتاز به من حسن الموقع، وروعة العمارة، وكونها عاصمة الأندلس[1].

فغلبت كل هذه الإغراءات نفس ألفونسو المحارب، ونسي ما كان يتصوره من صعوبة في تنفيذ هذا المشروع وما يحفه من دروب المغامرة، ومضى في القيام به دون أن يفكر في أنَّ القلاع الإسلاميَّة المتعددة في ولايتي بلنسيَّة ومرسيَّة سوف تقدم حتمًا على طعنة من الوراء متى دخل ولاية غرناطة[2].

وعلى العموم شعر ألفونسو أنَّ الظروف ممهدة لاختراق الأندلس وتحقيق الغاية المنشودة فخرج من سرقسطة في أول شعبان 519هـ/1 سبتمبر 1125م[3] في أربعة آلاف فارس أراغوني مع أتباعهم من الرَّجالة والرُّماة[4]، وقيل في خمسة ألاف فارس وخمسة عشر ألف راجل[5]، وكان معه الكونت جاستون دى بيارن الذي اشترك في حملة سرقسطة، وفي ركبه عدد من رجال الدِّين في مقدمتهم أسقفا سرقسطة ووشقة[6]، وقد تعاقدوا وتحالفوا جميعًا بالإنجيل أنَّه لا يفر أحد منهم عن صاحبه[7]، وأقسموا أن ينتصروا أو يموتوا[8]، وهكذا كانت للحملة طابعها الصَّليبي الذي طبع سائر الغزوات والحملات المسيحيَّة منذ حصار سرقسطة[9].

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص91 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص109 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص69 .

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص155 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص91 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص69 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص155 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص163. (أخطأ ابن الخطيب حينما قال أنَّ ألفونسو المحارب بدأ غزوته في أول شعبان عام 515هـ/14 أكتوبر 1121م). (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص109).

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص91 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص163.

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص69. (اكتفى ابن الأثير بقوله خرج ألفونسو المحارب في عساكر كثيرة). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، ج9، ص235).

6- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص108 .

7- **الحُلل الموشيَّة**، ص91 ؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص163 .

8- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص155 .

9- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص108 .

وسار ألفونسو بجيشه الضَّخم إلى شرق الأندلس، واخترق أراضي لاردة وإفراغة[1] وعاث فيها، ثمَّ انحرف جنوبًا ودخل أراضي بلنسيَّة يوم الثلاثاء 20 رمضان 519هـ/20 أكتوبر 1125م وهو ينسف الزروع ويحرق القرى[2]، وقاومته قوة مرابطية بقيادة أبو عبد الله يدر بن ورقاء[3]، وكان من الصعب أن تجتمع القوَّات المرابطيَّة للوقوف في وجهه لأنَّه حرص على إخفاء وجهته الحقيقية ولبث طول الوقت متحركًا في قواته لكي لا تترصده الأعين[4].

وفي تلك الأثناء وصلت إلى جيش ألفونسو أعداد كبيرة من النَّصارى المعاهدين، وكانوا يدلونه على الطريق، ويكشفون له مواطن الضعف لدى المسلمين[5]، وعندما غادر بلنسيَّة اتجه إلى جزيرة شقر فقاتلها أيامًا ولم يستطع الاستيلاء عليها، ثمَّ رحل منها إلى دانية وقاتلها ليلة عيد الفطر سنة 519هـ/1125م، واستمر في مسيره مخترقًا شرق الأندلس مرحلةً مرحلةً، ومنزلةً منزلةً، يشن الغارات على كل قطر يمر به[6]، وقد مرَّ على شاطبة ووصل إلى مرسيَّة، ثمَّ اجتاز إلى المنصورة

1- مدينة تقع أقصى شرق الأندلس، من أعمال لاردة وهي بالغرب منها، بينهما ثمانية عشر ميلًا، لها حصن منيع، وهي حسنة البناء وكثيرة الزيتون والبساتين التي لا نظير لها. (أنظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص261 ؛ الحموي، **معجم البلدان**، 227/1 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص48-49) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم4**، ص435).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص69-70 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص108. (يذكر أشباخ أنَّ ألفونسو المحارب لم يقف لحصار بلنسيَّة، بل اخترق الولايات الإسلاميَّة القريبة منها والمؤدية لها وهو يثخن فيها وينتسف حقولها). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص155).

3- اختلفت تسميته لدى المؤرخين، فقد جاء عند ابن القطان باسم يدر بن ورقاء، وعند صاحب مفاخر البربر باسم أبو عبد الله يدر بن ورقاء، وعند ابن الخطيب باسم يدِّير بن ورقا، وسماه صاحب الحُلل الموشيَّة الشَّيخ أبو محمَّد بدر بن ورقاء، وابن عذارى محمَّد بن يوسف يدر؛ كان واليًا على بلنسيَّة في سنة 519هـ/1125م حينما مرت بالقرب منها جيوش ألفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى على الأندلس، ويبدو أنَّ عمل مرسيَّة أضيف إليه بعد ذلك، ويذكر ابن عذارى أنَّه توفي سنة 524هـ/1129م وهو على عمل بلنسيَّة. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص152-153 ؛ **مفاخر البربر**، ص192 ؛ **الإحاطة**، مج4، ص344 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص91 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص81).

4- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص109 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص69 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص108 .

5- **الحُلل الموشيَّة**، ص91-92 .

6- **الحُلل الموشيَّة**، ص92. (يقول أشباخ أنَّ ألفونسو كان يغدو على المسلمين أشد نكاية وضرًا). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص155).

ثمَّ بُرْشانة[1]، ثمَّ حلَّ بوادي تاجلة[2] ثمانية أيام، ثمَّ اتجه إلى مدينة بسطة وحاول الاستيلاء عليها لكونها في بسيط من الأرض، ولضعف تحصينها، ولكنه لم ينجح في إحكام السيطرة عليها، ثمَّ توجه إلى مدينة وادي آش ووصل إليها في اليوم الأوَّل من شهر ذي القعدة سنة 519هـ/28 نوفمبر 1125م[3] وقاتلها أيامًا[4] ولكنه لم ينل منها مأربًا[5].

ثمَّ اتجه ملك أراغون ألفونسو المحارب صوب غرناطة[6] بجيشه الضَّخم الذي بلغ خمسون ألفًا[7]، ولمَّا اقترب منها افتضح أمر النَّصارى المعاهدين على أنَّهم قاموا باستدعائه للاستيلاء على غرناطة، وقد همَّ الأمير تميم باعتقالهم ولكنه لم يتمكن من ذلك[8]، حيث تسلل المعاهدون من كل

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص92. (يذكر عنان أنَّ جيش ألفونسو قبل وصوله إلى مرسيَّة مرَّ على مدينتي ألش وأوريولة، ويذكر ابن الخطيب أنَّه قبل وصوله للمنصورة مرَّ على مدينة بيرة). (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص109 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص108).

2- ورد عند ابن الخطيب بلفظ وادي ناطلة، ولم نعثر على تعريف له. (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص109).

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص93. (غير أنَّ ابن عذارى يقول أنَّ جيش ألفونسو المحارب وصل إلى مدينة وادي آش في يوم 20 شوال سنة 519هـ/18 نوفمبر 1125م). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص70).

4- يذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ ألفونسو المحارب توجه بجيشه من وادي آش إلى السند ومكث بها يومًا يكمن فيها الكمائن، ثمَّ نزل بقرية فنيانة الواقعة جنوب شرق وادي آش وقاتلها من جهة الغرب، وأقام عليها نحو شهرين. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص93).

5- يقول ابن الخطيب وابن عذارى أنَّ ألفونسو المحارب نزل بالقرية المعروفة بالقصر (Alcazar) والتي تبعد عن وادي آش بفرسخ وأقام بها شهرًا، حاول خلاله الاستيلاء على مدينة وادي آش ولكن دون جدوى. (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص109-110 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص70).

6- ينقل لنا صاحب الحُلل الموشيَّة وابن الخطيب هذه المعلومات الهامَّة عن بقية هذه الغزوة من كتاب الأنوار الجليَّة في أخبار الدَّولة المرابطيَّة، لأبي بكر بن الصَّيرفي كاتب الدَّولة المرابطيَّة ومؤرخها، وهو كتاب مفقود للأسف الشديد. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص93 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ **الإحاطة**، مج1، ص110 وما بعدها عدَّة صفحات).

7- **الحُلل الموشيَّة**، ص94. (يذكر أشباخ أنَّه أثناء هذه الغزوة كان جيش ألفونسو المحارب يزداد يومًا بعد يوم بانضمام النَّصارى المعاهدين إليه، حتَّى أصبح زهاء خمسين ألف مقاتل). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص155).

8- **الحُلل الموشيَّة**، ص93 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص110 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص70. (بالرغم من عدم تمكن الأمير تميم من اعتقال نصارى غرناطة المعاهدين الذين ثبتت خيانتهم، إلَّا أنَّ أشباخ يُشيد بذكائه في تعامله معهم، حيث قال بأنَّه كان رجلًا وافر العزم فاستطاع بالرغم من صغر حاميته أن يرهبهم، ويشدد الرقابة عليهم، ويحول دون ثورتهم داخل المدينة). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص155).

صوبٍ إلى محلة الغزاة الذين عسكروا في قرية دِجمة التي تقع بين مدينة وادي آش وغرناطة[1].

وكان الأمير تميم على أهبة الاستعداد حيث حشد سائر قوَّاته، والتحقت به قوَّات من مرسيَّة وبلنسيَّة[2]، وأمده أمير المسلمين من المغرب بجيش وافر، وقد أحاطت هذه الجيوش المرابطيَّة بغرناطة حتى صارت كالدائرة، وصارت المدينة في وسطها كالنقطة[3]، وانتظرت هذه الجيوش التي صلت صلاة الخوف يوم عيد الأضحى سنة 519هـ/جانفي 1125م[4]، مقدم جيش ألفونسو المحارب الذي كان معسكرًا بالقرب من غرناطة[5] فارضًا حولها الحصار شاعرًا بقوته وتفوقه[6].

1- سماها صاحب الحُلل الموشيَّة وابن الخطيب قرية دِجمة (Diezma) أو رثمة، وجاءت عند ابن عذارى باسم بربيطة، وقال أنَّ ألفونسو المحارب عسكر بها يوم عيد الأضحى. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص93-94 ؛ **الإحاطة**، مج$_1$، ص**110** ؛ **البيان المغرب**، ج$_4$، ص**70**).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_4$، ص**70**. (غير أنَّ عنان يقول أنَّ القوَّات التي التحقت بمعسكر الأمير تميم هي قوَّات مرسيَّة وإشبيليَّة). (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص110).

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص93 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج$_1$، ص**110** .

4- انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص94 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج$_1$، ص**110** ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_4$، ص**70**.

5- يذكر صاحب الحُلل الموشيَّة نقلًا عن كتاب الأنوار الجليَّة في أخبار الدَّولة المرابطيَّة لابن الصَّيرفي، العديد من القرى التي انتقل إليها جيش ألفونسو المحارب قبل وصوله لغرناطة حيث قال تحرك من وادي آش، فنزل بقرية دِجمة ثمَّ نزل بوادي فردش (عله يقصد قرية فرتونة) في يوم عيد الأضحى، وأقلع منها إلى المزوقة (المزونة) ومنها برز إلى غرناطة، ونزل بقرية النبيل (Navac) وبها أقام عشر ليالي ينتظر توقف المطر والجليد. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص94).

6- أشباخ، **المرجع السَّابق**، ج$_1$، ص155.

وعندما تقدَّم جيش ألفونسو صوب غرناطة، وعلى فرسخين منها نشب القتال بينه وبين جيش المرابطين، ولكن رداءة الطقس وما اقترن بها من أمطار وعواصف ثلجية حالت دون مواصلة القتال[1]، فبقي ألفونسو محاصرًا لغرناطة حوالي عشرة ليالي دون قتال بسبب الأمطار والجليد[2] وكانت خيول المسلمين تروحوا وتغدوا عليه دون مناوشة[3]، وكان النَّصارى المعاهدون يمدونه بالأقوات والمؤن[4]، ورغم ذلك قام بإلقاء اللوم عليهم واتهمهم بالتَّقاعس وعدم الوفاء بما التزموه من عهود، وكان يلقي اللوم بالخصوص على زعيمهم ابن القلَّاس، فرد عليه اللوم، واحتج ببطئه في المجيء إلى غرناطة حتَّى تلاحقت الجيوش المرابطيَّة، وأنَّهم قد أضحوا عرضةً للهلاك على يد المسلمين[5].

1- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج$_1$، ص110 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص94. (يصف ابن عذارى الحالة السيئة لأهل غرناطة آنذاك، حيث قال "وانقطعت السابلة والواردة، وقلت المرافق وتزاحم النَّاس في المدينة، وسكنوا المساجد والمصاطب والرحاب والخراب، وكثر الجزع والإرجاف والموَّجان بالليل والنَّهار، وتوالت الأمطار وسالت الطرق وضاقت النفوس أشد ضيقة). (انظر: **البيان المغرب**، ج$_4$، ص70-71).

2- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج$_1$، ص110 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص94 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_4$، ص71. (يقول أشباخ أنَّ جيش ألفونسو وبسبب رداءة الطقس اضطر أثناء حصاره لغرناطة إلى إضاعة بضعة أسابيع لم يوفق فيها إلى شيء). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص155-156).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_4$، ص71 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص94 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_4$، ص71 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج$_1$، ص110 .

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_4$، ص71 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج$_1$، ص110 .

ثمَّ أقلع ألفونسو عن غرناطة في يوم 26 ذي الحجة عام 519هـ/29 جانفي 1126م[1] لِما لمسه من كثرة الجيوش المدافعة عنها بقيادة الأمير تميم[2] ، واتجه صوب قرية مرسانة[3] ، ثمَّ مرَّ بالعديد من القرى[4]، وكانت الجيوش المرابطيَّة تلاحقه وتناوشه في معارك صغيرة[5]، إلى أن وصل إلى فحص أرنيسول[6]، وكانت قوَّات إشبيليَّة بقيادة واليها الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف قد وصلت إلى غرناطة وأقامت بها يومًا[7]، ثمَّ تحركت مع الجيوش الملاحقة لقوَّات ألفونسو المحارب في فحص أرنيسول، وقد وقعت هناك معركة ضارية بين الفريقين في 13 صفر 520هـ/9 مارس 1126م[8] كان فيها الظهور في البداية للمسلمين ثمَّ انهزموا في نهاية المعركة[9]، وتختلف الرِّوايات

1- يذكر ابن الخطيب أنَّ ألفونسو المحارب أقلع عن غرناطة يوم 26 ذي الحجة عام 520هـ/21 جانفي 1127م، وأعتقد بأنَّه أخطأ في التَّاريخ بزيادة سنة، وبالعودة إلى ابن عذارى، وبالنَّظر إلى سيروة الأحداث نستنتج أنَّه أقلع عن غرناطة في يوم 26 ذي الحجة عام 519هـ/29 جانفي 1126م. (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص111 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص70-71).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص156 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص111 .

3- جاءت عند ابن الخطيب وصاحب الحُلل الموشيَّة باسم مرسانة (Maracena) بينما سماها البكري والإدريسي مرشانة (Merchena) وهي قرية تابعة لمدينة بجانة القريبة من غرناطة والتي تقع في الشرق منها. (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص110 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص94 ؛ **جغرافية الأندلس وأوروبا**، ص64 ؛ **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص258).

4- مرَّ ألفونسو المحارب بجيشه من قرية مرسانة إلى فحص أرنيسول بالعديد من القرى، أوردها كلٌ من ابن الخطيب وصاحب الحُلل الموشيَّة مع بعض الاختلافات بينهما في تسمية هذه القرى. (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص111 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص94-95).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص71 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص111 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص111 .

6- يذكره ابن الأثير وابن عذارى على أنَّه حصن أرنيسول، وسماه صاحب الحُلل الموشيَّة أرنيسول، بينما قال عنه ابن الخطيب أنَّه فحص وليس حصن وهو يسمى الرَّنيسول، وجاء عند دوزي باسم أرنزول، وهو موضع يقع جنوبي غرناطة يعرف حديثًا باسم (Arensol) أو (Aranzuel). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص235 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص71 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص95 ؛ **الإحاطة**، مج1، ص111 ؛ **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص163).

7- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص71 .

8- **نفسه** .

9- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص235 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص95 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص111؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص71 .

الإسلاميَّة والنَّصرانيَّة في سرد وقائع المعركة وكيفية انهزام المسلمين، ففيما يخص الرِّواية الإسلاميَّة فإنَّها تذكر أنَّه عندما بدأت تغرب الشمس وبدأ الليل يرخي سدوله، أمر الأمير تميم أن ينقل خبائه (خيمته) من مكان منخفض إلى ربوة مرتفعة[1]، فاختل الأمر وظنَّ الجيش أنَّه ينوي الانسحاب فأخذوا في الفرار، فكشف النَّصارى وقوع هذا الاضطراب، وفي الغد هجم جيش ألفونسو على محلة المسلمين واستولوا عليها ووقعت الهزيمة عليهم[2].

وهناك رواية أخرى لصاحب الحُلل الموشيَّة حيث ذكر أنَّ جيش ألفونسو انهزم في أول النهار، وفي وقت الظهر لبس ألفونسو درعه وعبأ جيشه واستعد للقتال، حيث عقد أربعة ألوية، وقسمهم على أربعة فرق، فحملوا على المسلمين وهزموهم هزيمةً شنيعةً[3].

أمَّا الرِّواية النصرانيَّة فهي تختلف في سرد وقائع المعركة، حيث يذكر أشباخ أنَّ المسلمين استطاعوا تحقيق النَّصر في البداية، حيث انقضوا على مقدمة النَّصارى وألجئوها إلى الفرار واعتقدوا أنَّهم بذلك هزموا الجيش النَّصراني كله، وبينما شغلوا باقتسام الغنائم الثَّمينة، إذ انقض ألفونسو على صفوف المسلمين الناهبة، انقضاض النِّسر من الجو ومزقها تمزيقًا، واسترد الغنائم المفقودة، واحتوى على أسلابهم وطاردهم حتَّى حلول الظلام[4].

ثمَّ اتجه ألفونسو بعد انتصاره هذا بقوَّاته نحو الجنوب الشرقي للأندلس دون أن يزعجه أحد[5]، واخترق جبال سييرًا نيقادا[6]، وانحدر إلى الشاطئ نحو وادي شلوبانية العميق[7]، ثمَّ سار غربًا نحو مدينة بلِّش بمالقة، وأنشأ مركبًا صغيرًا يصيد له حوتًا، وأخذ يتلهى بصيد السمك على

1- يبدوا أنَّ غرض الأمير تميم من نقل خبائه من موضع منخفض إلى مكان عالٍ هو مراقبة جيش العدوِّ الذي مازال بالقرب من غرناطة، يتحين الفرص للانقضاض على المسلمين.

2- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص**111** ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص**71-72** .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص95 .

4- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص156. (يلاحظ اختلاف في وقائع المعركة بين هذه الرِّوايات ولكنها تتفق في كون المسلمين انتصروا في بداية المعركة وانهزموا في آخرها).

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص156.

6- يسميه عنان جبل الثلج. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص112).

7- يذكر ابن الخطيب أنَّ ألفونسو المحارب عندما وصل إلى وادي شلوبانية العميق، نظر فيه وقال بلغته "أيُّ قَبْرٍ هذا لو ألفينا من يَصُبُّ علينا التراب". (انظر: **الإحاطة**، مج1، ص**112**).

مبلغ ما حقق من نذره[1]، ويبدو أنَّ ألفونسو أراد أن يخلد عنه هذا الفعل ويروي فيما بعد أنَّ ملكًا من ملوك أراغون خرج من سرقسطة وترك وراءه كثيرًا من أراضي المسلمين، وقام بصيد السمك على الشاطئ المقابل لبلاد المغرب كما يفعل في بلاده[2].

ومن هناك عاد ألفونسو أدراجه إلى غرناطة وانضم إلى جيشه الكثير من النَّصارى المعاهدين، بلغ تعدادهم اثنا عشر ألفًا[3]، وقد فرَّ هؤلاء من مواطنهم خوفًا من انتقام المسلمين منهم بسبب خيانتهم[4]، ووقعت بالقرب من غرناطة معركة شديدة بينه وبين المسلمين[5]، ولمَّا أدرك أنَّه لا يستطيع أخذ المدينة المحصنة دون حصار طويل، وأنَّ قوَّات المسلمين تزداد يومًا بعد يوم اتجه صوب مدينة وادي آش[6]، وقد أصيب كثير من عسكره بجراح بليغة خلال المناوشات العديدة التي وقعت بينه وبين المسلمين[7]، كما أصابه أيضًا الوهن والتعب جراء قسوة الطقس، والسير الشاق فوق الربى العالية، وكذلك تفشي الأمراض الوبائية[8]، ومن وادي آش عاد الجيش الأراغوني مخترقًا

1- يذكر صاحب الحُلل الموشيَّة وابن الخطيب أنَّ ألفونسو المحارب عندما قام باصطياد السمك في البحر الرُّومي (البحر الأبيض المتوسط) وكأنَّه حقَّق بهذا العمل نَذْرٌ كان عليه، وفَّى به، أو حديثٌ أراد أن يُخَلَّد عنه. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص96 ؛ **الإحاطة**، مج1، ص112).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص156.

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص156. (غير أنَّ دوزي يقول أنَّ عدد النَّصارى المعاهدين الذين التحقوا بقوَّات ألفونسو هو عشرة آلاف، حيث هربوا حسب زعمه من الغضب الجنوني للمرابطين، وطلبوا من ألفونسو أن يأذن لهم بالإقامة في رحاب مملكته فاستجاب لهم). (انظر: **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص163).

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص157 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص112 .

5- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص112 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص72 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص96 .

6- قبل وصول ألفونسو المحارب إلى مدينة وادي آش مرَّ عبر العديد من القرى والمدن. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص96 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص112-113). (ويذكر أشباخ أن ألفونسو المحارب ترك على مقربة من مدينة وادي آش قسمًا من جيشه في إحدى القلاع لكي يحمي خط رجعته). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص157).

7- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص112. (يقول ابن عذارى أنَّ حامية مرابطية اشتبكت مع قوَّات ألفونسو المحارب بالقرب من مدينة وادي آش فألحقت به الهزيمة، وقد فقد خلالها عددًا كثيرًا من جنده، وأصيب له زعيم كبير). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص72).

8- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص157 .

مرسيَّة وشاطبة وبلنسيَّة إلى بلاده، وفرسان المرابطين تلاحقه باستمرار[1]، وتنقض عليه في معارك صغيرة[2]، وقد وصل إلى بلاده مفلولًا وقد حطمه وجنده الوباء والوهن[3]، بعد أن غاب عنها زهاء تسعة أشهر وقيل أكثر[4].

وبذلك تنتهي غزوة ألفونسو المحارب الكبرى والشاملة لأقطار الأندلس الشَّرقيَّة والجنوبيَّة حيث يذكر صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ ألفونسو المحارب كان يفخر بما ناله في غزوته من المسلمين وفتكه في بلادهم، وكثرة ما أسر وغنم، مع أنَّه لم يستول على مكانًا مسورًا صغيرًا ولا كبيرًا، إلَّا أنَّه أخلى ديار بادية الأندلس[5].

1- يقول ابن الخطيب وصاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ قوات ألفونسو المحارب خلال عودتها هذه إلى أراغون، كان الوبال يسرع إليها. (انظر: **الإحاطة**، مج$_1$، ص113 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص96).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص157. (يذكر ابن عذارى أنَّ عساكر المرابطين كانت تلاحق ألفونسو وتطأ أذياله وتناوشه وتصيب منه، وكان يترك في كل منزل هلكى ومرضى حتى لحق بلاده مخترم الجمع مفلولًا. (انظر: **البيان المغرب**، ج$_4$، ص72).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_4$، ص72 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص112 .

4- يقول صاحب الحُلل الموشيَّة أنَّ مدَّة هذه الغزوة كانت سنة وثلاثة أشهر، بينما يقول دوزي أنَّ مدتها كانت أكثر من عام، في حين يرى أشباخ أنَّ مدتها كانت ستة أشهر فقط، وأعتقد أنَّ مدتها كانت حوالي تسعة أشهر، وهذا بالنظر إلى الوقائع والأحداث التي وقعت بهذه الغزوة. حيث بدأت عند خروج ألفونسو المحارب بجيشه من سرقسطة في أول شعبان 519هـ/1 سبتمبر 1125م، وقد وصل إلى غرناطة بعد حوالي ستة أشهر ونصف، واشتبك مع المرابطين في فحص أرنيسول في 13 صفر 520هـ/9 مارس 1126م، ثمَّ اتجه جنوبًا ووصل إلى البحر الرُّومي (البحر الأبيض المتوسط) واصطاد به، ثمَّ عاد إلى غرناطة واشتبك هناك مع المرابطين، ثمَّ عاد أدراجه إلى بلاده مارًا على مدن شرق الأندلس. هذه الوقائع الأخيرة استغرقت حوالي ثلاثة أشهر فقط، لأنَّ طريقه من غرناطة إلى البحر لم تستغرق وقتًا طويلًا لأنَّها كانت آمنة، ولم يعترض سبيله أي جيش مرابطي، وكذلك عودته إلى غرناطة، على اعتبار أنَّ الجيش المرابطي كان معسكرًا في غرناطة يدافع عنها، كما أنَّ عودته من غرناطة إلى عاصمة مملكته سرقسطة تمت بسرعة فائقة رغم ما أصاب جيشه من وهن وتعب، لأنَّ الجيش المرابطي كان يلاحقه باستمرار ويشتبك معه في معارك صغيرة، وبوضع جميع هذه الوقائع والأدلة في الحسبان يُرجح أنَّ هذه الغزوة كانت مدتها حوالي تسعة أشهر). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص97 ؛ **المسلمون في الأندلس**، ج$_3$، ص163 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص157).

5- **الحُلل الموشيَّة**، ص96-97 .

ويرى أشباخ أنَّها كانت حملة ناجحةً، بالرغم من عدم استيلاء ألفونسو على أية مدينة من مدن المسلمين، إلَّا أنَّ النَّصارى أوقعوا بالمسلمين أضرارًا فادحة، وبثوا بينهم الذعر والروع، وحصلوا منهم على غنائم عظيمة[1].

ويضيف أشباخ أنَّه لو تلقى ألفونسو المحارب ملك أراغون تأييد القشتاليِّين والليونيون في حملته هذه بتوجيه جندهم ضدَّ بلنسيَّة وقرطبة، وتأيِّيد البرتغاليون والجليقيون بتوجيه جندهم ضدَّ إشبيليَّة، ومع معونة النَّصارى المعاهدين وقلة الإمداد التي عان منها المرابطون بانشغالهم بثورة الموحِّدين، لكان من المحقق بوجه عام أن تغرب دولة الإسلام في الأندلس في تلك الآونة[2].

وقد بالغ أشباخ في التباهي بهذه الغزوة، حيث قال أنَّه بوسعنا مقارنة هذه الغزوة التي قام بها ألفونسو المحارب بجيشه القليل، واخترق به عدَّة مدن إسلاميَّة، بسير الإغريق في عشرة آلاف مقاتل فقط إلى مملكة الفرس، وإذا كان ثمة فرق في المسافة فإن الجرأة في المشروعين واحدة حسب زعمه[3].

ويرى دوزي أنَّ هذه الغزوة بالرغم من أنَّها ظلت تعيث فسادًا وتخريبًا في الأندلس مدَّة طويلة، وأنَّها تقدمت حتَّى طرقت أبواب قرطبة، وأنَّها انتصرت في فحص أرنيسول انتصارًا رائعًا لكنها مع ذلك كله لم تحقق الهدف المنشود الذي سطرته، وهو الاستيلاء على غرناطة[4].

وأوافق رأي المؤرخ عنان حينما قال أنَّ ملك أراغون لم يحقق من وراء هذه الغزوة أية نتيجة عملية، حيث انتهت أغلب المعارك والمناوشات مع المرابطين إلى فشل مطبق[5]. ويرى المؤرخ سلامة محمَّد سلمان الهرفي أنَّ ألفونسو المحارب استفاد فائدة كبيرة من هذه الغزوة، فقد تعرَّف على معاقل ومدن الأندلس عن قرب، وعرف أماكن القوة والضعف فيها، واستطاع أن يوجد له عملاء دائمين من المعاهدين، وأن يكتسب أعدادًا منهم انضموا إلى جيشه، كما توصل إلى حقيقة هامَّة وهي أنَّ

1- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص157.

2- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص158 .

3- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص157 .

4- **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص163 .

5- **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص112 .

أفضل طريقة لطرد المسلمين من الأندلس هي إجلاؤهم على مراحل بانتزاع معاقلهم الواحد بعد الآخر[1].

وقد كشفت هذه الغزوة مخططات النَّصارى المعاهدين المليئة بالأحقاد والغدر والخيانة ومحاولتهم للقضاء على تواجد المسلمين بالأندلس، حيث قابلوا إحسان المسلمين بالإساءة وبالتالي يجب أن تتخذ في حقهم إجراءات رادعة، تكفل قمع دسائسهم وعدوانهم بصورة خاصة، وقد قام القاضي أبو الوليد بن رشد الجد بالتَّكفل بهذه القضية[2]، حيث عبر البحر إلى المغرب في اليوم الأوَّل من شهر ربيع الأوَّل سنة 520هـ/26 مارس 1126م وقصد أمير المسلمين علي بن يوسف بمرَّاكش[3]، وأخبره على غدر هؤلاء ونقضهم للعهد وخروجهم عن الذِّمة، وأفتى بوجوب إجلائهم عن أوطانهم، وهو أخف ما يؤخذ به في عقابهم، فأخذ أمير المسلمين بهذه الفتوى وكتب بها إلى جميع بلاد الأندلس، فنفيت منهم في شهر رمضان 520هـ/أكتوبر 1126م[4] جموع غفيرة إلى مكناسة وسلا[5] وغيرهما من مدن بلاد المغرب[6]، وقد هلك كثير منهم[7]، حيث أنكرتهم الأهواء

1- **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص232 .

2- اقترح القاضي ابن رشد الجد أيضًا خلال تواجده بالمغرب على الأمير علي ضرورة بناء سور مدينة مرَّاكش، لأجل التَّحصين على نفسه وعلى النَّاس الساكنين معه، من خطر الموحِّدين الذي بدأ يستفحل أمرهم بقيادة ابن تومرت. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص73 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص90).

3- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص113 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص230. (وقد استقبل الأمير علي بن يوسف، القاضي ابن رشد بحفاوة بالغة، وأكرمه غاية الإكرام). (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص72 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص90).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص72-73 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص113-114 .

5- يبدو أنَّ الدَّولة المرابطيَّة فكرت في الاستفادة من النَّصارى المعاهدين بإسكان قسم منهم في بعض المناطق الزراعيَّة بمدينتي مكناسة وسلا، لاستغلالها. (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص231-232).

6- **الحُلل الموشيَّة**، ص90-91. (يذكر المؤرخ عنان أنَّ التغريب لم يكن شاملًا، فقد بقيت جماعات من النَّصارى المعاهدين في غرناطة وقرطبة وغيرهما من مدن الأندلس، لأسباب مختلفة، ولكي تنمو وتزدهر مرةً أخرى، وقد زعم المستشرق دوزي أنَّ من بقي منهم في غرناطة صودرت أملاكهم، ولاقوا أسوأ ضروب المعاملة، فزَّج بالبعض منهم في السجون، ولقى الآخرون مصيرهم قتلًا). (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص114 ؛ **المسلمون في الأندلس**، ج3، ص163).

7- يرى أشباخ أنَّ سبب هلاك أكثرهم كان من جراء الطقس المتغير والماء الآسن، وتغير وسائل التغذية. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص157).

وأكلتهم الطرق[1] ونسفتهم الأسفار ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شذر مذر[2] وأحلَّ بهم عاقبة مكرهم وأذاقهم وبال أمرهم ولا يحيق الأمر إلَّا بأهله[3]؛ وضمَّ أمير المسلمين منهم عددًا إلى حرسه الخاص، امتازوا فيما بعد بالإخلاص والبراعة[4].

كما كشفت هذه الغزوة حقيقة هامَّة تتمثل في أنَّ نظم الدِّفاع عن الأندلس لم تكن يومئذ وفق ما يجب من المتانة والإحكام، وأنَّ خطط القيادة المرابطيَّة منذ نكبة سرقسطة لم تكن كفيلة بردع عدوان الممالك المسيحيَّة، ولم يكن أدل على هذه الحقيقة من أنَّ ملكًا من ملوك النَّصارى استطاع أن يخترق الأندلس من الثغر الأعلى حتَّى شاطئ البحر المقابل لبلاد المغرب، دون أن تستطيع قوة إسلاميَّة مرابطيَّة أو غيرها أن تقف في سبيله[5].

2– موقعة القِلاعة:

واصل ألفونسو المحارب نشاطه ضدَّ المرابطين في الثغر الأعلى للأندلس[6]، وكان المرابطون مازالوا يسيطرون آنذاك على الأراضي الواقعة إلى الشرق من سرقسطة، وأهم قواعدها لاردة وإفراغة وطرطوشة، بالإضافة إلى المنطقة الممتدة على طول نهر إيبرو (إبرة) حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة[7] وكان ألفونسو يستهدف إجلاء المسلمين عن هذه المنطقة، لكي يحقق لمملكته هدف مهم جدًا

1– ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص73 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص114 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص91 .

2– ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص114 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص73 .

3– ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص73 .

4– عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص114. (ويقول أشباخ في هذا الشأن أنَّ أسعد هؤلاء النَّصارى المنفيون إلى بلاد المغرب حظًا أولئك الذين ضمهم الأمير علي إلى حرسه الخاص، فقد استطاعوا بإخلاصهم الفائق أن يغتنموا وافر عطفه وثقته. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص157).

5– عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص113 .

6– لم يمضي على غزوته الكبرى للأندلس حوالي عامين ونصف، حتَّى خرج في قوَّاته من حاضرته سرقسطة وزحف على قواعد الثغر الأعلى لمحاولة الاستيلاء عليها وطرد المرابطين منها.

7– عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص116 .

وهو أن يصل بينها وبين البحر الأبيض المتوسط، عن طريق ثغر طرطوشة الهام، وأن يكفل لها سلامة الملاحة في نهر إيبرو[1].

وكان ثغر طركونة قد سقط في أيدي القطلانيّين[2]، ولم يبقى من ثغور مملكة سرقسطة القديمة سوى ثغر طرطوشة، وازدادت رغبة ألفونسو المحارب في انتزاع هذا الثغر، ولكن تحقيق هذا الهدف لم يكن بالأمر اليسير إذ لابد أولًا من الاستيلاء على لاردة وإفراغة، وأن يخوض في سبيل ذلك عدَّة معارك مع المرابطين[3].

ومن أجل ذلك خرج ألفونسو المحارب من عاصمة سرقسطة عام 523هـ/1129م وزحف بقوَّاته نحو إفراغة ولاردة، ثمَّ توجه جنوبًا إلى بلنسية[4]، ويبدو أنَّه فضَّل أن يقضي على قوَّات المرابطين في جنوب الثغر ببلنسية، لكي يقطع الإمدادات على منطقتي إفراغة ولاردة، ويتفرغ لهما فيما بعد.

وفي تلك الأثناء وصلت أنباء غزو أراضي المسلمين من قِبل ألفونسو المحارب إلى الأمير علي بن يوسف بحاضرته مرَّاكش عن طريق عُماله في بلنسية، فخشي أن تكون غزوته هذه كالتي كانت سنة 519هـ/1125م أي غزوته الكبرى للأندلس[5].

1- أشباح، **تاريخ الأندلس في عصري المرابطين والموحّدين**، ج2، ص172 .

2- سقطت طركونة في يد كونت قطلونية رامون برنجير الثَّاني سنة 483هـ/1090م، وقد استغل هذا الكونت وفاة أميرها المنذر بن هود سنة 483هـ/1090م وقاد بحملة صليبية باركها البابا أوربان الثَّاني، تمكن من خلالها من الاستيلاء عليها لضعف وسائلها الدِّفاعيَّة، وتخلي المستعين بن هود صاحب سرقسطة عن إنجادها، ولأنَّ الجيوش المرابطيَّة لم تكن قد وصلت يومئذٍ في زحفها نحو الشمال إلى الثغر الأعلى. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحّدين**، ص 116-117)

3- سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص 232.

4- كانت منطقة لاردة وإفراغه منذ سقوط سرقسطة مسرحًا للصراع المستمر بين المسلمين والنَّصارى، وكانت للمرابطين فيما يبدو حاميات قوية في تلك القواعد، وتصلها أيضًا إمدادات من بلنسية كلما حدث عدوان عليها. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحّدين**، ص117).

5- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص152.

وقد أمر المسلمين علي بن يوسف بحشد قوَّاته من السود تتكفل بنفقاتها مختلف المدن، كل وفق طاقتها[1]، وقد جمع من عند أهل فاس لوحدهم ثلاثمائة غلام من السود برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم، ثمَّ أرسلت هذه الحشود إلى مرسيَّة تعزيزًا للجيوش المرابطيَّة المتمركزة هناك بقيادة واليها يدر بن وقاء[2]، وانضمت جميع هذه الجيوش إلى قائدها العام أبو محمَّد بن أبي بكر بن سِير اللَّمتوني[3].

ولمَّا استعدت الجيوش المرابطيَّة أتمَّ الاستعداد، اتجهت إلى بلدة القِلاعة[4] أو القُلَيْعَة القريبة من جزيرة شقر[5]، والتي تبعد بدورها عن بلنسية بثمانية عشر ميلًا[6]، وقد وجدت جيش ألفونسو المحارب معسكرًا بالقِلاعة، فالتقى الجمعان هناك، وحدثت معركة ضارية، انتهت بهزيمة فادحة

1- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص117.

2- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص152.

3- ورد في الرِّسالة التي بعثها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى أبو محمَّد بن أبي بكر بن سِير اللَّمتوني بأنَّه هو القائد العام للجيوش المرابطيَّة خلال هذه الموقعة وهو الأرجَّح لدى المؤرخين المحدثين، وهو ابن أخت أمير المسلمين ويُعرف بابن قنونة باسم أمه، بينما يذكر ابن القطان أنَّ القائد العام للمرابطين هو ابن مجوز، والذي قالت عنه بعض المراجع الحديثة أنَّه أبا زكريا يحي بن علي بن الحاج، وأنَّ اسم مجوز ومكور ومقوز ليست إلَّا صيغًا بربرية لكلمة حاج العربية. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص152-153 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص118). (عن نص رسالة الأمير علي بن يوسف إلى القائد أبي محمَّد بن أبي بكر عقب هزيمة القِلاعة). (انظر: **الملحق رقم 8**، ص423-424).

4- يُسميها ابن القطان القُلَيْعَة، وابن الأبَّار القلعة، وجاءت في المراجع الحديثة باسم القِلاعة أو القلعة (Alcolea) ويرى ابن القطان أنَّها قرية صغيرة تقع شرق جزيرة شقر، وعلى بضع كيلومترات منها، وهي ساحل البحر الأبيض المتوسط، بينما يذكر عنان أن نقلًا الرِّوايَّة النَّصرانيَّة أنَّ القِلاعة هي بلدة صغيرة محصنة تقع على الضفة اليسرى لنهر سِنكا أحد أفرع نهر إيبرو (أبرة) على مقربة من إفراغة. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص153 ؛ **التَّكلمة لكتاب الصِّلة**، ص174 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص118).

5- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص153.

6- الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص281. (يذكر عنان نقلًا عن الرِّوايَّة النَّصرانيَّة أنَّ ألفونسو المحارب قد حاصر بلنسيَّة في أوائل سنة 523هـ/1129م، وهو ما يُعزز قول رواية ابن القطان في أنَّ موقعة القِلاعة قد نشبت بين الأراغونيِّين والمرابطين في أراضي بلنسيَّة وليست على مقربة من إفراغة. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص152-153 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص118).

للمرابطين[1]، إذ فقدوا فيها ما يزيد عن اثنا عشر ألفًا بين قتيل وأسير، فضلًا عن استيلاء العدوّ على أسلابهم وأمتعتهم ودوابهم[2]، وقد حدثت هذه الموقعة حسب ابن الأبَّار يوم الجمعة السَّابع من رجب سنة 523هـ/28 جوان 1129[3].

وفي نهاية المعركة استولى ألفونسو المحارب على بلدة القِلاعة، وحصَّنها ثمَّ أقطعها لأحد أكبر رجاله ممَّن أبلوا في خدمته[4].

وعندما وصلت أخبار هذه الهزيمة إلى أسماع أمير المسلمين علي بن يوسف غضب لذلك غضبًا شديدًا[5]، وبادر بإرسال رسالة توبيخ وعتاب إلى قائده أبي محمَّد بن أبي بكر وسائر جنده ينوه فيها بتقصيرهم وخذلانهم في عبارات لاذعة، محملًا إياهم عبء الهزيمة بالرغم من كثرة أعدادهم بالمقارنة مع عدوهم، وهذه الرِّسالة مؤرخة في السَّابع من شهر شعبان سنة 523هـ/28 جويلية 1129م[6]، وجاءت ردًا على كتاب أرسله القائد أبي محمَّد بن أبي بكر إلى أمير المسلمين يُنبئه فيه بخبر الموقعة ويعتذر عن هزيمته أمام النَّصارى[7].

كما أرسل أمير المسلمين علي بن يوسف من حضرة مرَّاكش رسالة أخرى موجهة إلى قادة الجيش المرابطي الذين هزموا في هذه الموقعة، وهي مؤرخة في الحادي عشر من شهر شعبان 523هـ/2 أوت 1129م، ردًا على كتابهم في وصف المعركة، وملخصها أنَّ الأمير علي أكدَّ لهم

1- يذكر ابن القطان أنَّ النَّصارى عندما هزموا المرابطين تبعوا فلولهم، وبالتأكيد أنَّهم فروا إلى بلنسيَّة ومرسيَّة وغيرهما من مدن شرق الأندلس. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص154).

2- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص154.

3- **التَّكلمة لكتاب الصِّلة**، ص174. (اكتفى ابن القطان بالقول بأنَّ المعركة حدثت عام 523هـ/1129م دون ذكر اليوم والشهر). (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص152).

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص118.

5- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج6، ص154.

6- الرِّسالة من إنشاء كاتب الأندلس وإمام النثر بها يومئذ ابن أبي الخصال على لسان أمير المسلمين علي بن يوسف. (انظر: ابن القطان ، **نُظم الجمان**، ج6، ص 154). (وعن نص الرِّسالة. انظر: **الملحق رقم8**، ص423-424).

7- من نص الرِّسالة يتبين لنا أنَّ قائد المرابطين في الموقعة أبي محمَّد بن أبي بكر كان قد كتب إلى أمير المسلمين كتابًا يعتذر فيه عن الهزيمة. (وعن نص الرِّسالة. انظر: **الملحق رقم8**، ص423-424).

أنَّه لم يدخر جهدًا في العمل لإعلاء كلمة الإسلام، وبذل الأموال وحشد الرِّجال لمقاومة النَّصارى وصدِّ عدوانهم على بلاد المسلمين، كما أكدَّ لهم أنَّه لو استطاع أن يكون حاضرًا بنفسه معهم لفعل، لكي يدافع عنهم ويرد كيد الأعداء، وكانت هذه الرِّسالة بخلاف رسالته الأولى ليس فيها تعنيفًا في القول، وقد أرجع الأمير علي سبب الهزيمة إلى قضاء الله وقدره[1].

ونستطيع على ضوء هاتين الرِّسالتين التي وصلتا إلى قادة الشرق الأندلسي من قبل أمير المسلمين خاصة الرِّسالة الموجهة إلى القائد أبي محمَّد بن أبي بكر، أن نتعرف على أسباب هزيمة المسلمين في القِلاعة على الرغم من كثرة عددهم، فيتضح أنَّه لم يكن هناك تنسيق بين القوَّات النِّظاميَّة والمتطوعة، فقد ترك النِّظاميون المتطوعة وهربوا عندما اشتدت المعركة مع العدوِّ، ويتضح ذلك من رسالة الأمير علي إلى قائد الجيش المرابطي أبي محمَّد بن أبي بكر حيث قال "فشغله عنكم من غررتموه من الرِّجْلِ الذي أسلتموه للقتل وفررتم، ونصبتموه دريئة للرِّماح ثمَّ طرتم"[2].

كما يتَّضح من خلال هذه الرِّسالة أيضًا أنَّ الجيش المرابطي كان يعاني من الانقسام في صفوفه قبل المعركة، على اعتبار أنَّ أمير المسلمين ركز في رسائله كثيرًا على وحدة الصَّف، وهذا في قوله "فكونوا بعد هذه الهناة لداعي الرشد بين مطيع وسامع، ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع[3].

ومن الأسباب المهمَّة أيضًا لهذه الهزيمة إهمال قادة شرق الأندلس وعدم استعدادهم وتأهبهم لمواجهة أي طارئ يجدُ من قبل العدوِّ، فمعرفة المعلومات الوافيَّة عن العدوِّ قبل هجومه أو أثناء تقدمه تتيح الفرصة للقادة المسلمين لوضع الخُطط الكفيلة لصدِّ هجومه[4]، وقد أدرك الأمير

1- الرِّسالة من إنشاء كاتب الأندلس ابن أبي الخصال على لسان أمير المسلمين علي بن يوسف، وهي موجهة إلى قادة جيش المرابطي عقب هزيمته في موقعة القِلاعة. (عن نص الرِّسالة. انظر: حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص54-55 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص544).

2- عن نص الرِّسالة. (انظر: **الملحق رقم 8**، ص423-424).

3- عن نص الرِّسالة. (انظر: **الملحق رقم 8**، ص423-424).

4- سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص234.

علي بن يوسف هذا الأمر ونبه إليه في رسالته إلى القائد أبي محمَّد بن أبي بكر حيث قال "فلتضعوا على مسالكه عيونًا تكلأ ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ فإن كان له مدد كما ذُكر قطعتم به السبيل دون لحاقه، وأقمتم الحزم على ساقه"[1].

وهناك أسباب أخرى يمكن إدراجها من بين الأسباب العامَّة التي أدت إلى هزيمة المرابطين منها طريقة الهجوم، فقد كان المرابطون يندفعون على الأعداء في الساعات الأولى من المعركة بحماس منقطع النَّظير فيدفعون العدوِّ أمامهم، وبعد أن يمتص العدوِّ قوة الصدمة الأولى يبدأ ميزان القوة يُرجَّح لصالحه لأنَّ صفوف المسلمين تكون قد تخلخلت لكثرة من سقط منهم، على اعتبار أنَّ القوَّات المتمركزة تكون خسائرها في الأغلب أقل من خسائر القوَّات المهاجمة في بداية المعركة كما أنَّ المرابطين يحاربون بدون دروع ثقيلة، أمَّا النَّصارى كانوا لا يدخلون أية معركة دون أن يلبسوا الدروع الثقيلة والتي تقيهم من ضربات الرِّماح والسيوف[2].

ويمكن إدراج سبب عدم تجانس القوَّات الإسلاميَّة والمتمثلة في عناصر عديدة منها السود القادم من بلاد العُدوة، وجيوش مرابطية من لمتونة وسائر قبائل البربر، إضافةً إلى العناصر الأندلسيَّة[3]، فقد جُمعت هذه العناصر على عجل، ودُفعت لخوض معركة دون سابق تخطيط، مع عدوٍّ له خبرة حربية فائقة، سيكون مصيره الهزيمة حتمًا[4]. هذا فضلًا عن القلاقل داخل دولة المرابطين بالمغرب بعد ظهور الموحِّدين واستفحال أمرهم، فقد حال دون إرسال إمدادات كثيرة إلى شرق الأندلس لإيقاف حركة الاسترداد المسيحي[5].

1- عن نص الرِّسالة. (انظر: **الملحق رقم 8**، ص423-424).

2- حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص53 .

3- وكانت هذه العناصر الأندلسيَّة قد تزعزعت ثقتها بالمرابطين الذين توالت هزائمهم بالخصوص بعد سقوط سرقسطة سنة 512هـ/1118م، وهزيمتهم في معركة كتندة عام 514هـ/1120م لذلك كان الأندلسيون يقاتلون بمعنويات منخفضة جدًا ممَّا قلَّل من حماسهم للقتال في هذه المعركة. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102، سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص235).

4- سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص 235.

5- عبد الواحد شعيب، **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس**، ص139.

ونشير إلى أنَّ ألفونسو المحارب بعد انتصاره على المرابطين في موقعة القِلاعة قد سار بقوَّاته شمالًا مخترقًا أراضي بلنسيَّة[1]، ووصل إلى مقربة منها وقام بحصارها[2]، وقد وجه على إثر ذلك قاضي بلنسيَّة الخطيب أبو الحسن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف رسالة استغاثة، وردَّ عليه أمير المسلمين من حضرة مرَّاكش برسالة مؤرخة في السَّابع من شعبان 523هـ/28 جويلية 1129م[3] في نفس اليوم الذي أرخت فيه الرِّسالة الموجهة إلى القائد أبو محمَّد بن أبي بكر السالفة الذكر.

وعن مضمون الرِّسالة الموجهة إلى القاضي أبي الحسن وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والكافة ببلنسيَّة عند محاصرة ألفونسو المحارب لها، فقد أشار أمير المسلمين إلى هزيمة جنده في القِلاعة بسبب تخاذلهم وعدم اعتبارهم بمواعظه ثمَّ يؤكد لأهل بلنسيَّة بأنَّه لن يتركهم وحدهم في مواجهة العدوِّ، وأنَّه أرسل إلى جميع ولاة الأندلس لجلب الأقوَّات لهم، ويختتم الرِّسالة بالدعاء لأهل بلنسيَّة بالخير والفلاح والظهور على العدوِّ[4]. والظاهر أنَّ ألفونسو المحارب قد اكتفى في زحفه بأعمال العيث والتَّخريب، ولم يحاول مهاجمة بلنسيَّة ذاتها[5].

1- يذكر ابن القطان أنَّ ألفونسو المحارب بعد أن انتصر في القِلاعة أغار على غليرة (قلييرة) (Galera) واكتسح الأراضي المحيطة بها، وهذه المدينة تقع على البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) على مقربة من جنوبي بلنسيَّة. (انظر: **نُظم الجمان**، ج6، ص154.

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص119-120 .

3- عن نص الرِّسالة. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص 543).

4- عن نص الرِّسالة. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص543).

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص120.

3- موقعة إفراغة:

لما انتهت الحرب بين ألفونسو المحارب ملك أراغون، وألفونسو ريمونديز[1] ملك قشتالة بعقد الهدنة بينهما في سنة 524هـ/1130م[2]، حوَّل ألفونسو المحارب شهوة الحرب إلى وجهة أخرى وهي محاربة المسلمين[3].

وكان أهم ما يشغله هو الاستيلاء على ما بقي من قواعد الثغر الأعلى، وإجلاء المسلمين عنها، وكانت هذه القواعد تنحصر بالخصوص في إفراغة ولاردة ومكناسة وطرطوشة، واستيلاءه على هذه الأخيرة يضمن له كما أسلفنا سابقًا سلامة الملاحة في نهر إيبرو، ويصل ما بين مملكته وبين البحر، بيد أنَّه كان يتعين عليه قبل البدء بمحاصرة طُرطوشة الاستيلاء على عدَّة مدن مرابطية تقع في الداخل[4].

وبدأ ألفونسو بالزَّحف على مدينة مكناسة في أواخر سنة 527هـ/جويلية 1133م واستولى عليها عنوةً[5]، حيث هجم عليها النَّصارى بشدة واضطرت إلى التَّسليم بعد مقاومة عنيفة

3- هو ابن أوراكا بنت ألفونسو السَّادس من زوجها الأوَّل الكونت ريمونديز البرجوني، يُدعى أيضًا ألفونسو السَّابع، ويلقب بالسُلَيْطين، تصغيرًا للقب السلطان، لأنَّه تولى الحكم منذ طفولته، وقضى طيلة حكمه التي امتدت من 520هـ/1126م إلى 552هـ/1157م في محاربة المسلمين وأبناء ملته دون انقطاع، يعرف في الرِّوايَّة الإسلاميَّة بألفنش بن رمند أي ألفونسو بن ريموند أو ريمونديز، وهو اسم والده. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص86 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص168 وما بعدها ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحّدين**، ص502 وبعدها).

2- استمرت الحرب بين ألفونسو المحارب وألفونسو ريمونديز (السُلَيْطين) ثلاثة أعوام سجالًا في معارك محلية بين الفريقين، ولم تتوقف الحرب بينهما إلَّا بتدخل الأحبار الذين بذلوا جهود كبيرة، فعقدت الهدنة بين الطرفين سنة 524هـ/1130م وتخلى كل طرف على بعض الامتيازات التي كان يملكها، وتفرغوا جميعًا لحرب المسلمين. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس من عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص168 وبعدها).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس من عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص170 .

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس من عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص172 .

5- **نفسه.**

ولم يكن الدِّفاع عنها ميسورًا لوقوعها في السَّهل المكشوف عند ملتقى نهري سجرو (سجرى) وإيبرو[1].

ولقد سارع المرابطون إلى محاولة تدارك الموقف، وصدِّ تحركات ألفونسو المحارب الذي يرمي إلى الاستيلاء على جميع مدن الثغر الأعلى، وقاموا بتكثيف الجهود وتسخير كل الطاقات لمنعه من تحقيق هدفه المنشود.

ولكي يتفرغوا لحرب ألفونسو المحارب وحتَّى يؤمنوا من عدوان كونت برشلونة رامون برنجير الرَّابع[2]، ولكي لا يضطروا للقتال في أكثر من جبهة، فقد عقد أمير المسلمين علي بن يوسف مع هذا الكونت معاهدة صلح من أهم بنودها، أن يدفع المرابطون ضريبة سنوية مقدارها اثنا عشر ألف دينار، ولمَّا علم ألفونسو المحارب بأخبار هذه المعاهدة غضب غضبًا شديدًا[3]، وأقسم بأيمان مغلظة أنَّه سوف ينتقم من كونت برشلونة ويستولي على بلاده حيث قال "لأنزلن على تلك البلاد التي يؤدون عليها الإتاوة، فأصيرها في ملكي، وأقطع منفعتها عن كونت برشلونة، حتَّى يعلم أهل الأرض أني قهرتهم في كل وجه[4].

1- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص121.

2- يُسميه ابن القطان البرشلوني، وهذا اللقب أطلق على الكونت رامون برنجير الثالث، وتذكر المراجع الحديثة أنَّه هو الذي وقَّع مع المرابطين المعاهدة دون ذكر تاريخها، وقد ذكر ابن القطان هذه المعاهدة في معرض حديثة عن موقعه إفراغة التي حدثت سنة 528هـ/1134م، والمرجَّح أنَّ هذه المعاهدة وقِّعت قبل الموقعة بقليل، أي بعد استيلاء ألفونسو المحارب على مكناسة أواخر عام 527هـ/جويلية 1133م، وكونت برشلونة آنذاك هو رامون برنجير الرَّابع وليس والده الكونت رامون برنجير الثالث الذي توفي سنة 525هـ/1131م. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص244 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص122 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص236-237).

3- يذكر ابن القطان أنَّ ألفونسو المحارب عندما اشتد غضبه من هذه المعاهدة قال "هؤلاء الفعال الصناع (يقصد المسلمين) يؤدون الإتاوة للصانع الفاعل (يقصد كونت برشلونة) ولو أعطوني درهمًا واحدًا لأخذته، ويعلم أني قهرتهم وغلبتهم. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص244-245).

4- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص245 .

بادر ألفونسو المحارب بالزَّحف على مدينتي إفراغة ولاردة، وبدأ الزَّحف على إفراغة التي تقع الضِّفة اليمنى لنهر سِنكا (أو أنجا) وتقع أيضًا على آكام (ربوة) عالية منيعة جدًا[1]، في نهاية منحدر وعر ضيق، تصعب مهاجمته ويسهل الدِّفاع عنه[2]، وبها أيضًا حصن منيع لا يُرام[3].

وعندما وصل ألفونسو المحارب إلى إفراغة بجيشه الضَّخم الذي بلغ اثنا عشر ألف فارس[4] ضرب عليها الحصار، وأقسم على نفسه ألَّا يبرح إفراغة حتَّى يأخذها عنوةً[5]، وكان بها وقتذاك القائد سعد بن مردنيش[6] الذي استغاث بالمسلمين[7]، لأنَّ المدينة أشرفت على السقوط، وعلى هلاك أهلها[8].

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص 173 .

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص121 .

3- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص48. (يذكر ابن القطان أنَّ إفراغة كانت أمنع تلك المدن وأحصنها، وأهلها أُسْدَ ذلك الصقع). (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص 245).

4- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 .

5- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص245 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص48.

6- هو سعد بن محمَّد بن أحمد بن مردنيش الجذامي، وقال بعضهم أنَّه ينتمي إلى تجيب. (انظر ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص121).

7- يذكر ابن القطان أنَّ أهل إفراغة، لمَّا طال بهم الحصار، وضاقت بهم السُبل طلبوا النجدة بدورهم من يحي بن غانية أمير بلنسيَّة ومرسيَّة وبعثوا له كتابًا يطلبون منه فيه إرسال الأقوات لهم، وإلَّا يخضعون لألفونسو المحارب ويسلمون له المدينة، وعندما قرأ يحي بن غانية كتابهم جهز لهم الأقوات والمؤن وقدَّم العطايا لأهل عسكره، وأعتق بعض إمائه وعبيده، وكتب وصيته، وتجهز لحرب عدوِّه، فقال له بعض خاصته تغزو بهذا العسكر وليست للمسلمين عسكر بالأندلس سواه ؟ فكيف تلقى علي بن يوسف بعد اليوم وقد انهزمت ؟ قال فليصنع بي ما شاء إلَّا أن فتح الله تعالى للمسلمين في هذا الغزوِّ. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص 246).

8- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص254. (يذكر عنان أنَّ سعد بن مردنيش قاوم ألفونسو المحارب مقاومة شديدة وأرغمه على رفع الحصار غير مرة، ثمَّ يعود إليه، وحملته هذه المقاومة على مضاعفة جهوده في التَّضيِّيق على المدنية المحصورة. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص122).

وقد لبى نداء الزبير بن عمرو اللَّمتوني[1]، قائد قرطبة ومعه ألف فارس، و يحي بن غانية[2] أمير بلسنيَّة ومرسيَّة في خمسمائة فارس، وكذلك أمير لاردة عبد الله بن عياض في مائتي فارس، وقد حملوا معهم مؤن وأقوات وفيرة[3]، من جملتها ألف بغل تحمل الدَّقيق وغير ذلك من المرافق وعُدَدُ القتال وأدوات الحرب[4]، وعسكروا بالقرب من إفراغة مقابل الجيوش الأراغونيَّة المحاصرة لها[5].

ويبدوا أنَّ المرابطين عملوا على استدراج قوَّات ألفونسو المحارب للاشتباك معه في معركة محدودة حتَّى يتمكنوا من إيصال المؤن للمدينة المحاصرة[6]، وقد تقدم القائد عبد الله بن عياض صاحب لاردة صفوف الجيش المرابطي، وخلفه يحي بن غانية والزبير بن عمرو اللَّمتوني وأمامه الميرة (المؤن) وقد ظهرت هذه الميرة لألفونسو المحارب، فقال لأصحابه اخرجوا واستولوا على هذه الهدية

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287. (وجاء عند ابن الخطيب باسم الزبير بن عمر). (انظر: **أعمال الأعلام**، ص 254).

2- هو أبو زكريا يحي بن علي بن غانية المسوفي الصَّنهاجي، يُعرف هو وأخوة محمَّد بابني غانية وهي أمَّهما، وهو من القادة المشاهير للمرابطين ولاه علي بن يوسف بلنسيَّة ومرسيَّة وكذلك قرطبة، كان رجلًا صالحًا شديد الخوف لله عزَّ وجل، مع علوِّ قدم في الفقه واتساع رواية الحديث، كان له صولات وجولات في حرب النَّصارى بالأندلس، وفي إخماد ثورات أهل الأندلس والموحّدين على المرابطين، يُرجَّح أنَّه توفي في 14 شعبان 543هـ/ديسمبر 1148م بغرناطة. (انظر: ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص245، هامش4 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص189-190).

3- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 .

4- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص254-255 .

5- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار صادر، مج9، ص287. (يورد ابن القطان قصة طريقة لراهب كان في جيش ألفونسو المحارب جاء إليه قبل بداية المعركة، وقال له "أنا أدعوا على المسلمين، فينهدم حصنهم وتدخل عليهم عنوةً، فوافقه ألفونسو في ذلك فصعد الراهب ربوة قريبة من سور إفراغة، وأخذ يدعوا على المسلمين فلما رآه المسلمون المحصورين داخل المدينة، أعدوا منجنيقًا وضربوه به، فأصابه حجر المنجنيق فشطره إلى نصفين، وعندما رأى ألفونسو جثته وكان يتهيأ للهجوم على إفراغة أصابه خوفًا شديدًا، وانصرف إلى محلته مهين النَّفس خائب الأمل. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص247).

6- سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص 238 .

يقصد المؤن مستخفًا بقوات المسلمين[1]، التي تقدر بحوالي ثلاثة آلاف فارس حسب الرِّوايَّة الإسلاميَّة[2].

وتبالغ الرِّوايَّة النَّصرانيَّة في تقديره، حيث يرى أشباخ أنَّه يتألف من جيش ضخم من أهل بلنسيَّة ومرسيَّة وعشرة آلاف مقاتل انضموا إلى تعداد الجيش المرابطي، قادمين من جنوب الأندلس[3].

بالعودة إلى وقائع المعركة، التي بدأت بإعطاء ألفونسو المحارب الأمر لفرقة كبيرة من جيشه بالتَّقدم نحو الجيش المرابطي للانقضاض عليه[4]، فبادر ابن عياض بقوَّاته للهجوم عليها، فتمكن من هزيمتها، ولمَّا رأى ألفونسو المحارب هزيمة رجاله اندفع بقواته الرئيسيَّة التي اغترت بكثرتها وشجاعتها نحو فرقة ابن عياض، والتي انضمَّت إليه فرقة ابن غانية، فالتحم الفريقان في معركة حامية الوطيس عظم فيها القتل، حيث قتل خلقٌ كثير من النَّصارى[5].

وأثناء المعركة وصلت قافلة الميرة إلى مدينة إفراغة، فارتفعت معنويات أهلها[6]، وخرجوا جميعًا ذكرهم وأنثاهم، صغيرهم وكبيرهم إلى خيام العدوِّ[7]، وصمموا على قتالهم، قتال الموت[8]

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 .

2- أحصى ابن الأثير قوات المسلمين، وقال بأنَّها تبلغ ألف وسبعمائة فارس، ألف من قرطبة وخمسمائة من بلنسيَّة ومرسيَّة ومائتين من لاردة، ولم يحصي باقي الجيش الذي يشارك في المعركة فربما التحقت من باقي مدن شرق الأندلس أعداد أخرى كما يمكن أن يحوي متطوعة، واعتبرت بعض المراجع الحديثة أنَّ عدد الجيش الإسلامي يبلغ حوالي ثلاثة آلاف فارس، ويرى عنان أنَّ هذا العدد لا يتفق حسب تقديره مع ضخامة المعركة ونتائجها. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص123).

3- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص172-173. (أعتقد بأنَّ أشباخ بالغ في تقدير عدد الجيش المرابطي، وهذه عادة المستشرقين حيث يقومون بتضخيم أعداد الجيش الإسلامي والسكوت على أعداد الجيش النَّصراني).

4- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287. (يذكر ابن القطان أنَّ ألفونسو المحارب كان موقنًا بالظفر والغلبة على عادته، فانعكس عليه الأمر، وكانت الدائرة عليه. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص247).

5- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287.

6- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص 255.

7- ابن الأثير ، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287.

8- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص255 .

فاشتعل الرِّجال بقتل من وجدوا من جند النَّصارى، واشتغلت النِّساء بأخذ جميع ما وجوده في خيامهم إلى المدينة من قوت وآلات وسلاح وغير ذلك[1].

وانضمَّت إلى المعركة أيضًا قوات قرطبة بقيادة الزبير بن عمرو اللَّمتوني، فأثخنت في العدوِّ الذي تشتت جمعه، وقُتل منه خلق كثير، ولم يسلم منهم إلَّا القليل، وقد فرُوا[2] مع ألفونسو المحارب إلى سرقسطة[3]، وخلال فراره هذا كانت جيوش المرابطين تتبعه بعزمٍ وتنقض على جنده وقد أوى إل حصن خَرِبٍ على رأس جبل شاهق مع بعض الناجين من جنده، وبات المسلمون تلك الليلة يراقبون ذلك الحصن ولمَّا أيقن ألفونسو المحارب أنَّه محاصر قرَّر الهرب في ظلمة الليل من ذلك الحصن ونجح في ذلك، فانصرف المسلمون أيضًا من الحصن مغتبطين بانتصارهم على العدوِّ[4].

وقد أبلى جميع القادة المشاركين في الموقعة التي حدثت في 23 رمضان 528هـ/17 جويلية 1134م[5] البلاء الحسن خاصةً أمير بلنسيَّة ومرسيَّة يحي بن غانية، الذي أثنت عليه المصادر التَّاريخيَّة، ونسبت له الفضل في تحقيق هذا النَّصر، لكونه لبى نداء الجهاد في سبيل الله من

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 ؛ ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص247. (يذكر أشباخ أنَّ أهل إفراغة كانوا شجعانًا وقاوموا النَّصارى مقاومةً شديدةً. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص172).

2- يذكر ابن القطان حادثة غريبة، حدثت لطائفة من النَّصارى الفارين الذين لجأوا إلى كهف ظنوا أنَّه ينجدهم، فسقط عليهم، فلم ينجو منهم أحد، آيةً من الله عزَّ وجل. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص247).

3- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287. (يذكر ابن القطان أنَّ ألفونسو المحارب لحق بسرقسطة، وهو والِه العقل، مخبول الذهن، وقام بالإساءة للمسلمين الذين ما زالوا يعيشون بها. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص247).

4- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص49 .

5- اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ المعركة، حيث يذكر الحِميري أنَّها حدثت في رمضان سنة 528هـ/جويلية 1134م وهو التَّاريخ الذي ذكره أشباخ مع تحديد اليوم وهو الثالث والعشرون من رمضان 528هـ/17 جويلية 1134م وهو الأرجَّح حسب اعتقادي، في حين اكتفى ابن عذارى بذكر السنة وهي 528هـ/1134م دون ذكر اليوم والشهر، ويذكر ابن القطان تاريخين حيث قال في الأوَّل أنَّها حدثت سنة 528هـ/1134م، وفي الثَّاني قال أنَّها وقعت سنة 529هـ/1135م، ويقول ابن الأثير أنَّها حدثت سنة 529هـ/1135م، ولم يحدِّد ابن الخطيب التَّاريخ بدقة، حيث اكتفى بالقول أنَّها وقعت زمن الأمير علي بن يوسف. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 ؛ **نُظم الجمان**، ج9، ص235 وما بعدها ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص93 ؛ **أعمال الأعلام**، ص245-255 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص48 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص173-174).

أجل إنقاذ إخوانه بإفراغة[1]، وقد أثنى عليه شاعر الشرق أبو جعفر بن وضاح المرسي في قصيدة يمدحه بها[2].

ونشير إلى أنَّ الرِّوايَّة النَّصرانيَّة تختلف قليلًا عن الرِّوايَّة الإسلاميَّة في سرد وقائع المعركة حيث يذكر أشباخ أنَّ ألفونسو المحارب عندما حاصر إفراغة أقسم علنًا، كما أقسم أبوه سانشو راميراز أمام مدينة وشقة قبل ذلك بأربعين عامًا، أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها، وأقسم مثله عشرون من أتباه ثمَّ أمر ألفونسو لكي يُذكي حماس الجيش الأراغوني أن يؤدي برفات القديسين إلى المعسكر وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوةً بالقوامس[3].

وعلى إثر ذلك اشتبك النَّصارى مع المسلمين القادمين لنجدة المدينة في معركتين وهُزم المسلمون ولجئوا إلى الفرار، فأراد أهل إفراغة تسليم المدينة لألفونسو بشروط يسيرة، ولكنه رفض واعتزم فتح المدينة عنوةً[4].

ويذكر أشباخ أنَّ ألفونسو المحارب لم يُهزم إلَّا بعد لجأ الجيش المرابطي إلى الخديعة، حيث دبروا كمينًا جذبوا إليه الأراغونيِّين إلى قافلة المؤن والغنائم التي كانت عند المسلمين، وهناك انقضت عليهم نخبة من المجاهدين الشجعان وهزموهم شرَّ هزيمة[5].

وقد كان لنصر المرابطين في إفراغة صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس وفي البلاد النَّصرانيَّة بنوع خاص، وعادت سمعة المرابطين العسكريَّة إلى سابق مكانتها في شبه الجزيرة[6]، ويذكر

1- ابن القطان، **نُظم الجمان**،ج9، ص245-246 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص121 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص93 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص48-49 .

2- عن نص القصيدة. (انظر: الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص49).

3- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص173 .

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص173 .

5- هلك من جيش أراغون جمهرة من الفرسان الفرنسيِّين والقوامس وأسقفا رُوطة ووشقة، وقسم كبير من الجيش. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص173).

6- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص125.

ابن الخطيب أنَّ هذه الهزيمة الشهيرة للنَّصارى حفظت رمق الأندلس مدةً من الزمن[1]، حيث انقشع الخطر مدى حين عما بقي بأيدي المسلمين من أراضي الثغر الأعلى وعن شرق الأندلس[2].

وأعظم انجاز حقَّقه المرابطين في هذه الموقعة، هو وفاة ألفونسو المحارب أثناء المعركة أو بعد ذلك بقليل[3]، وقد كان أشد ملوك النَّصارى بأسًا، وأكثرهم تجردًا لحرب المسلمين، وأعظمهم صبرًا[4] وقد تخلص المسلمين بوفاته من غزواته المدمِّرة على سائر بلاد الأندلس[5].

كما ساهم هذا النَّصر في رفع معنويات الجيش المرابطي الذي أخذ ينتهز الفرص للانقضاض على معاقل النَّصارى، وقد تجلى ذلك في سلسلة الغزوات التي شنها هذا الجيش في سائر بلاد الأندلس، ومنها بالخصوص تلك التي حدثت عام 530هـ/1135م حيث خرج ابن مردنيش صاحب إفراغة وابن غانية صاحب بلنسيَّة واستنفروا قوَّات الثغر الأعلى، لمداهمة مكناسة التي كانت تُعاني من نقص المؤن، وقد تمكن المرابطون من الاستيلاء عليها بعدما تخاذل الجيش الأراغوني وفراره من جيش المسلمين[6].

1- **أعمال الأعلام**، ص 255.

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص125.

3- اختلفت الرِّوايات التَّاريخيَّة اختلافًا كبيرًا حول كيفية وفاة ألفونسو المحارب، ومعظم الرِّوايات المسيحيَّة والتي نقلها أشباخ تقول أنَّه سقط خلال الموقعة يوم 23 رمضان 528هـ/17 جويلية 1134م، ولكن جثته لم توجد بين الموتى بالرغم من الجهود التي بذلت للبحث عنها، وهناك رواية أخرى من مؤرخ قطلوني معاصر، يقول فيها أنَّ ألفونسو فرَّ مع فارسين ولجأ إلى دير القديس خوان دي لابنيا في سرقسطة، وهناك توفي غمًا بعد ثمانية أيام من الموقعة، وهناك رواية أخرى تقول أنَّه توفي في معركة مع المسلمين يوم 14 شوال 528هـ/7 سبتمبر 1134م، وبالنِّسبة للرِّوايات الإسلاميَّة فقد ذكر ابن الأثير أنَّه فرَّ إلى سرقسطة، وقد مات بسبب مقتل معظم جيشه بعد عشرين يومًا من الهزيمة بإفراغة سنة 529هـ/1135م، ويقول ابن القطان أنَّه فرَّ إلى سرقسطة، ثمَّ خرج إلى وشقة فأقام بها ومات بعد أشهر قليلة من سنة 529هـ/1135م، ويذكر ابن عذارى أنَّه بقي أيامًا بعد الهزيمة ومات من مرض أصابه سنة 528هـ/1134م، ويذكر في موضوع آخر أنَّه توفي سنة 529هـ/1135م. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 ؛ **نُظم الجمان**، ج9، ص247-248 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص93-94 ؛ **تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص173-174).

4- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 .

5- خليل إبراهيم السامرائي، **علاقات المرابطين بالممالك الاسبانيَّة بالأندلس**، ص265 .

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص95-96 .

يرى المؤرخ عنان أنَّ المرابطين ارتكبوا خطأً عسكريًا خطيرًا، يتمثل في عدم الاستفادة من نصرهم بالزَّحف على سرقسطة ومحاولة استردادها، وقد كانت على مقربة من ساحة نصرهم، كما أنَّ الجيش الأراغوني سُحق في هذه المعركة، وهلك ملكهم ألفونسو المحارب ممَّا يُشجع على الاضطلاع بمثل هذه المحاولة، ولكن المرابطين قنعوا في ذلك الموطن بالنَّصر، وانصرفوا إلى قواعدهم على غرار ما حدث عقب نصر الزّلاقة، حيث أحجم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عن انتهاز فرصة انهيار الجيش القشتالي لمحاولة استرداد طليطلة سنة 479هـ/1086م[1].

ولا أوافق في هذا المقام رأي المؤرخ عنان وأعتقد بأنَّ خوض معركة كبيرة بحجم معركة إفراغة يحتاج إلى فترة زمنية معينة لإعادة ترتيب صفوف الجيش، وتجهيزه من جديد كما أنَّ الهجوم على مدينة بحجم سرقسطة وهي عاصمة لمملكة أراغون يحتاج إلى عدَّة وعتاد كبيرين، وإلى تخطيط مسبق ومحكم، وعقد المقارنة مع معركة الزَّلاقة التي لم يقم فيها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بعد انتصاره بها، بمحاولة استرداد طليطلة، ليس بالأمر الصائب حسب اعتقادي لأنَّ كل معركة لها ظروفها ونتائجها الخاصة بها.

1- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص126 .

4- معارك الأمير تاشفين بن علي:

4-1 – موقعة قرب الزَّلاقة:

منذ أن تولى الأمير تاشفين بن علي[1] أمر الأندلس بعهدٍ من أبيه أمير المسلمين علي بن يوسف سنة 520هـ/1126م[2]، وهو يقود سلسلة من الغزوات في أراضي قشتالة وسائر بلاد النَّصارى[3]، وقد ظهرت له بارقة النَّصر على النَّصارى في أكثر الأوقات فشاع ذكره وذاع صيته في أمر الغزوّ والجهاد[4].

1- هو الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين اللَّمتوني الصَّنهاجي، يُكنى أبو المعز، وقيل أبو عمرو، وقيل أبو محمَّد وأمه رومية اسمها ضوء الصباح، كان أميرًا شجاعًا فاضلًا، تولى أمر المرابطين بعد وفاة أبيه علي، وبعهدٍ منه في الثامن رجب 537هـ/27 جانفي 1143م، توفي يوم الجمعة 27 رمضان 539هـ/23 مارس 1145م. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص79-80 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص165-166 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص121 ؛ ابن خطيب **أعمال الأعلام**، ص 256-257 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص251-252).

2- اختلف المؤرخون في تاريخ تولية الأمير تاشفين لشؤون الأندلس، فيقول ابن أبي زرع أنَّ التَّولية كانت سنة 520هـ/1126م، بينما يذكر ابن عذارى تاريخين حيث قال في الأوَّل أنَّه تولى أمر غرناطة والمرية سنة 522هـ/1128م وقال في الثَّاني أنَّه تولى غرناطة فوافاها في السَّابع والعشرون من ذي الحجة سن 523هـ/10 ديسمبر 1129م. (انظر: **روض القرطاس**، ص164 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص79-80).

3- قاد الأمير تاشفين بن علي العديد من الغزوات والمعارك مع النَّصارى، منها اجتياحه لطليطلة خلال عبوره إلى الأندلس سنة 520هـ/1126م في جيش من خمسة آلاف فارس، وقد هتك أحوازها. وهزم النَّصارى أيضًا في نفس السنة بموضع يعرف بفحص الضَّباب، وفي سنة 524هـ/1130م بادر تاشفين بالهجوم على القوَّات القشتاليَّة التي انحدرت جنوبًا حتَّى أصبحت على مقربة من قرطبة، ففرت أمام جيوش المرابطين وعادت أدراجها إلى بلادها. وفي ربيع الأوَّل سنة 526هـ/جانفي 1132م خرج القشتاليون من طليطلة وأغاروا على قرطبة وما جاورها، فبادر الأمير تميم للقائهم، وقد حدثت بين الفريقين معركة عنيفة، هُزم فيها القشتاليون وقتل منهم عدد كبير. (انظر: ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج8، ص226 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص79 وما بعدها ، ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164 وما بعدها ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص133 وما بعدها).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص79 .

وقد أشادت المصادر التَّاريخيَّة كثيرًا بشجاعته وبطولته فيذكر صاحب الحُلل الموشيَّة وابن عذارى أنَّه قوى الحصون بالأندلس، وسدَّ الثغور، وأذكى العيون على العدوِّ، كما أنَّه هزم الجيوش وافتتح الحصون، فلم ينهض إلَّا ظاهرًا ولا صدر إلَّا ظافرًا[1].

ومن بين أشهر المعارك التي قادها الأمير تاشفين معركة قرب الزَّلاقة بغرب الأندلس والتي حدثت في جمادى الأولى سنة 528هـ/مارس 1134م[2].

وقد قامت هذه المعركة بسبب الغزوات المتكرِّرة التي كان يشنها ألفونسو ريمونديز (ألفونسو السَّابع) على أراضي المسلمين منها الغزوة التي شنها سنة 527هـ/1133م[3] رفقه سيف الدَّولة أحمد المستنصر بن هود صاحب رُوطة[4]، حيث وصلا في غزوتهما إلى إشبيليَّة واقتحماها[5]، ثمَّ وصل إلى شريش القريبة منها[6]، فخلوها وقتلوا من وجدوا فيها، واستباحوا وبالغوا في نكاية المسلمين[7]، ثمَّ رجعوا إلى بلادهم دون أن يعترضهم أحد من المسلمين[8].

1- أثنى صاحب الحُلل الموشيَّة وابن عذارى وابن الخطيب كثيرًا على الأمير تاشفين بن علي، وذكروا العديد من الخصال التي تميزه عن غيره، خاصةً فيما يتعلق بشجاعته وحبه للجهاد. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص121 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص80؛ **أعمال الأعلام**، ص 256-257).

2- يذكر ابن عذارى أنَّ الموقعة حدثت في شهر جمادى الأولى سنة 528هـ/مارس 1134م وهو الأرجَّح لدى الكثير من المؤرخين المحدثين. ويتفق معه صاحب الحُلل الموشيَّة في السنة، لكنه لم يذكر الشهر، بينما يرى ابن الخطيب أنَّها حدثت سنة 257هـ/1133م، ويرى ابن القطان أنَّها حدثت في سنة 526هـ/1132م. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص88-89 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص122 ؛ **أعمال الأعلام** ، ص257-258 ؛ **نُظم الجمان**، ج8، ص227-228).

3- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج8، ص229 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88 .

4- انفرد ابن القطان بالقول بأنَّ سيف الدَّولة بن هود اشتراك في هذه الغزوة مع ألفونسو السَّابع. (انظر: **نُظم الجمان**، ج8، ص229).

5- يقول ابن القطان أنَّ النَّصارى هبطوا إلى إشبيليَّة، وانبسطت خيلهم، واقتحمت ما وجدت. (انظر: **نُظم الجمان**، ج8، ص229).

6- يذكر ابن عذارى أنَّهم وصلوا إلى شريش والبحيرة. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص88).

7- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج8، ص229 .

8- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88 .

وقد تشجع ألفونسو السَّابع بعد غزوته هذه مع ابن هود، فقام في جمادى الأولى سنة 528هـ/1134م مع عظماء وزعماء الرُّوم بتجهيز جيش ضخم[1]، وقصدوا به غرب الأندلس[2] وعاثوا في ناحية بطليوس[3]، وباجة ويابرة والمدن المجاورة لهن[4]، وغنموا جميع ما وجدوه في طريقهم[5] ووصلوا إلى أماكن ومواضع ما كان يصل إليها عدوٌّ من قبل[6]، لبعدها ومنعتها وتعذر الوصول إليها وعاثوا فيها، واخترقوها طولًا وعرضًا[7].

وعندما علم الأمير تاشفين بن علي بأمر هذه الغزوة المروعة، بدأ بإعداد العدَّة والعتاد للقاء العدوّ والتَّصدي له، وإيقاف زحفه الجارف[8]، فقام بإرسال الطلائع والعيون من إشبيليَّة لرصد خط سيره رجاءً في لحاقه[9]، وفي نفس الوقت أعد جيشًا ضخمًا، يقول عنه ابن عذارى أنَّ تعداده

1- لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة تعداد الجيش النَّصراني، حيث اكتفى ابن عذارى وصاحب الحُلل الموشيَّة بالقول تألف لهم جيش يحتوي على الآلاف من زعمائهم ومشاهير أبطالهم. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص88 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص 122).

2- يذكر أشباخ في معرض حديثه عن هذه الموقعة أنَّ أهل مدينة شلمنقة تشجعوا بانتصار رودريك دي لارا حاكم طليطلة على المسلمين حينما غزا بطليوس وإشبيليَّة، فنظموا هذه العزوة على أراضي غرب الأندلس، حيث انطلقوا إلى بطليوس دون تحوط، أملًا في تحصيل الغنائم. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص181).

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص 122 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص257 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88.

4- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص257 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88 .

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88 .

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88. (يذكر ابن الخطيب أنَّ الجيش المسيحي دوَّخ بلادًا كانت لا تُراع (أي بلادًا لم يصلها عدوًا قط) فجاسوا خلالها. (انظر: **أعمال الأعلام** ، ص257).

7- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88 .

8- يذكر ابن القطان أنَّ والي قرطبة الأمير أبو محمَّد عبد الله بن جنونة، ابن عم أمير المسلمين علي بن يوسف، والذي يُسميه ابن قنونة، شارك في هذه الموقعة. (انظر: **نُظم الجمان**، ج8، ص227).

9- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص258 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88 .

بلغ ضعف جيش العدوّ[1]، وسار به على عجل متعقبًا آثار العدوّ حتَّى ظفر به على مقربة من سهل الزَّلاقة [2]، وقد ملأت جموعه وغنائمه السهل، فتأهب المرابطون للقائه بحماسة وتوثب[3].

وقد نظَّم الجيش الإسلامي قوَّاته في وحدات متناسقة، فكان في القلب الأمير تاشفين مع وجوه المرابطين وأصحاب الطاعات، تتقدمهم البنود البيض الباسقات مكتوبة بالآيات، وفي الجانبين كفاة الدَّولة وحماة الدعوة من أبطال الأندلس تتقدمهم الرايات الحمراء بالصور الهائلات وفي الجناحين أهل الثغور، وذووا الجلادة والصبر، وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم أهل الغرائم الماضية والبصائر الثابتة، بالرايات المطيفة والأعلام المنفية[4].

كما نظَّم الجيش النَّصراني صفوفه أيضًا[5]، والتقى الجمعان في معركة حامية الوطيس، دارت فيها الدائرة على القتشاليِّين وهُزموا شرَّ هزيمة[6]، حيث انقض الجيش المرابطي على العدوِّ انقضاض الصاعقة[7]، وتمكن من تخليص أسرى المسلمين من قبضتهم[8] والاستيلاء على الغنائم التي أخذت

1- **البيان المغرب**، ج4، ص88 .

2- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص258 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص88 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص122. (يقول أشباخ أنَّ معركة الزَّلاقة الشهيرة تُثير في نفوس النَّصارى ذكريات محزنة). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص181).

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص136 .

4- ورد هذا الترتيب لفرق الجيش عند كل من ابن عذارى وابن الخطيب وصاحب الحُلل الموشيَّة، مع اختلافات بسيطة بينهما. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص89 ؛ **أعمال الأعلام**، ص258 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص122).

5- لا نعلم كيف نظَّم النَّصارى صفوفهم، وقياسًا بمعاركهم السَّابقة، فإنَّهم كانوا يُقسِّمون جيشهم إلى قسمين، يقود كل قسم قائد مشهور من قوادهم معتمدين في قتالهم على الشجاعة الفردية، عكس المرابطين الذين كانوا يعتمدون في قتالهم على أساس جماعي، كل فئة تقاتل تحت راية خاصة بها. (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص211).

6- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص258 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص122 ؛ ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج8، ص228 .

7- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص181 .

8- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص258 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص89 .

من المسلمين وقد قتل وأسر منهم جموع كبيرة[1]، و لجأ الباقين إلى الفرار[2] فتبدد بذلك شمل النَّصارى وكان يومًا مشهودًا للإسلام[3].

وقفل الأمير تاشفين في قوَّاته إلى قرطبة عزيزًا ظافرًا[4]، ثمَّ سار منها إلى غرناطة وذلك في جمادى الأولى سنة 528هـ/مارس 1134م[5] فاستقبل استقبالًا حافلًا، فأنشده الشعراء مهنئين بانتصاره هذا، فمن ذلك قصيدة طويلة للفقيه الكاتب أبو بكر بن الصيرفي يمجد فيها هذا الانتصار، ويشيد ببطولة الأمير تاشفين وجيشه[6].

1- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج8، ص228 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص89. (يذكر أشباح أنَّ المسلمون طوقوا القشتاليِّين طوال الليل، ثمَّ أمعنوا فيهم قتلًا انتقامًا لإخوانهم المقتولين. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص181).

2- يقول صاحب الحُلل الموشيَّة، أنَّه عندما اشتد القتال ولى الكفرة الأدبار، وأمعنوا في الفرار، فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص 122).

3- سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص211. (يقول أشباخ أنَّ هذه النَّكبة حزَّت في نفس ألفونسو السَّابع، فلم يشأ أن يتركها دون انتقام، فقام بتجهيزات حربية عظيمة في أراضي قشتالة استعدادًا لغزوِّ الأندلس. وأرى أنَّ هذا دليل قطعي على الروح الصَّليبيَّة المتجذرة لدى ملوك النَّصارى. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص181 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص122 .

5- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص258 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص89 .

6- قال ابن عذارى عنها بأنَّها قصيدة طويلة، أورد منها اثنا عشر بيتًا شعريًا فقط، عشرة واضحة واثنين منقوصين، وقد أخذها من كتاب تقصِّي الأنباء في سياسة الرؤساء لابن الصيرفي وهو كتاب مفقود، بينما أورد ابن الخطيب بيتين فقط. (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص89-90 ؛ **أعمال الأعلام**، ص258).

4-2- موقعة فحص البَكار:

في النِّصف الأوَّل من شهر ذي الحجة من عام 528هـ/أكتوبر 1134م[1] اكتسح القشتاليون ناحية قرطبة وعاثوا فيها[2]، فخرج الأمير تاشفين بعد عيد النحر بقوَّات غرناطة وقرطبة ولفيف من المجاهدين خيلًا ورجلًا لملاقاة العدوِّ والتَّصدي له، وقد استنفر أهل الأندلس، فلبى دعوته والي إشبيليَّة ينتان بن علي فخرج بجيشه ولحق به في موضع يُعرف بفحص الريحانة[3]، كما لحقت به عساكر يابرة[4].

ولمَّا اكتمل تعداد الجيش، قام الأمير تاشفين بتعقب العدوِّ، فعسكر في موضع يُعرف بفحص البَكار[5]، وهو الطريق الذي يسلكه العدوِّ بالضرورة عند عودته إلى قشتالة[6]، ويذكر ابن عذارى أنَّ القشتاليِّين لمَّا شعروا أنَّ الأمير تاشفين يتعقبهم بجيشه أصابهم الذعر والجزع[7]، وقد تقابل الجمعان في هذا الفحص، فعزم العدوِّ على المكر والخديعة، حيث اختار أربعة آلاف مقاتل

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90. (يورد ابن القطان هذه الموقعة في حوادث سنة 529هـ/1135م، ويذكرها أيضًا ابن الخطيب ولكن دون تحديد تاريخ وقوعها، فقد ذكرها بعد حديثه عن نهاية موقعة قرب الزَّلاقة، وعودة الأمير تاشفين إلى غرناطة في جمادى الأولى سنة 528هـ/مارس 1134م، وذكرها صاحب الحُلل الموشيَّة باختصار شديد، دون تحديد تاريخها. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص241-242 ؛ **أعمال الأعلام**، ص258 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ الحلل الموشيَّة، ص123).

2- يبدو أنَّ ملك قشتالة ألفونسو السَّابع (السُليطين) أراد الانتقام من هزيمته في موقعة قرب الزَّلاقة، لهذا قام بتنظيم هذه الغزوة على أراضي الأندلس بناحية قرطبة، وقد ذكر أشباخ أنَّه قام بعد هذه الهزيمة بتجهيزات حربية عظيمة في أراضي قشتالة استعدادً لغزوِّ أراضي المسلمين. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص181).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90 .

4- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص241 .

5- سماه ابن القطان وابن عذارى البَكار، بينما سماه ابن الخطيب فحص البَكار (Albacar) وهو الموضع الذي يسمى الآن البَكار على بعد شرين كيلومترًا إلى الشمال من قرطبة، وقيل لعله "عَقبة البقر" الذي يسمى الآن (Castilo dél Vacar) ويقع في شمال قرطبة في منطقة فحص البلوط، وهي بدروش (Pedroches) حاليًا. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص241 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص90 ؛ **أعمال الأعلام**، ص259 .

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90. (كان هذا الفحص يحتل موقعًا استراتيجيًا ممتازًا لأنَّه يقع في طريق وادي آنه المؤدي إلى بطليوس). (انظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259، هامش1).

7- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90 .

ألفان من الفرسان ومثلهم من الرجالة، وهجموا على معسكر المرابطين عند دخول الظلام[1] واقتحموه في عدَّة مواضع، فدبَّ الخلل في الجيش المرابطي، وعلا الصياح بين المسلمين، ونفرت الدواب، وقطَّعت قيودها، فوقعت على الأخبيَّة فهدمتها، وكثر النَّهب في أمتعتهم وقُتل خلق كثير منهم[2]، وفرَّ البقية عن أميرهم تاشفين[3].

وقصدت القوَّات المسيحيَّة إلى خيمة الأمير تاشفين لمحاولة التَّخلص منه، فأشار إليه بعض خاصته بأن يبادر بالفرار، وجلبوا له فرسه لينجوا عليه، فانتهر من أشار عليه بهذه المشورة، فأبى الفرار، وقال "لا أسْلَمُ وأُسَلِّمُ الأمَّة ! ولا أَبْرحُ أو تنجلي عما انجلت هذه الغمرة"[4]، فأحدق به رجال من أهل الأندلس، وأفذاذ من المرابطين، وهم دون الأربعين وحالوا بينه وبين العدوِّ[5]، ووقعت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، عظم فيها الخطب، وكان الأمير تاشفين قائم بسيفه ودِرقته بين يديه، فلم يرَّ أربط جأشًا ولا أشهم نفسًا منه، ولا تحدث عن أحد قبله بما ظهر منه في مطلع ذلك الهول[6].

1- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص241 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90. (لجأ النَّصارى إلى المكر والخديعة، وانتظروا بداية دخول الظلام، حيث كان الجيش الإسلامي يركن للرَّاحة، فقاموا بالهجوم عليه، وقد خالفوا بذلك التَّقليد المعمول به في العصور الوسطى، والمتمثل في تحريم القتال في الليل. (انظر: سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص212).

2- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص241 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90 .

3- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص241 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259 ؛ **الحلل الموشيَّة**، ص124 .

4- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259. (عند ابن عذارى وردت العبارة في نهايتها كالأتي: عما انجلت هذه الكرة). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص90).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص90 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259. (لم يذكر ابن القطان عدد الذين بقوا مع الأمير تاشفين، واكتفى بالقول ثبت النَّفر اليسير). (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص241).

6- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259. (أورد هذه المقولة أيضًا صاحب الحُلل الموشيَّة وابن عذارى، مع اختلافات بسيطة بينهما). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص123 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص90).

وتفاقم الأمر على المرابطين[1]، إلى أن تمكن أحد الجُند العبيد أن يغيِّر من مجرى المعركة بطعنة نافذة وجهها إلى قائد الجيش القشتالي فأرداه قتيلًا[2]، فوقع الاضطراب في جيش النَّصارى وعندما انجلى الظلام، وبان الفجر دارت الدائرة عليهم[3]، ونكصوا على أعقابهم[4]، وقد أسفرت المعركة في النِّهاية عن جرحى، وأعداد هائلة من القتلى من الجانبين[5].

وقد رجع ما بقي من جيش العدوِّ إلى معسكره، فأقام به إلى الضُحى[6]، ثمَّ عاد إلى بلاده خائبًا[7]، أمَّا الأمير تاشفين فقد غادر موضع المعركة في صباح الغدِّ، وسار في قوَّاته إلى حصن قشرش[8] ثم غادره عائدا إلى قرطبة[9].

1- يقول ابن عذارى أنَّه عندما تفاقم الأمر على الرابطين، هُتكت خباؤهم بالطعن، وجذَّب أواخيها بالضَّرب، فعانقت الأرض. ويقول ابن الخطيب في هذا الشأن أيضًا: تفاقم الأمر وقد هُتكت خيوله بالطعن، وجدت أواصيها بالضرب). (انظر: **البيان المغرب**، ج4، ص90-91 ؛ **أعمال الأعلام**، ص259).

2- طعنه بالرمح، وأخرجه من وراء ظهره، وأسقطه من على سرجه. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص91 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص91 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259-260 .

4- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص241 .

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص91 .

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص91 .

7- بالرغم من هزيمة النَّصارى في هذه الموقعة في آخر المطاف، إلَّا أنَّ ابن القطان يقول بأنَّهم عادوا إلى بلادهم بغنائمهم، ويبدو أنَّ معسكر النَّصارى لم يتضرر لأنَّهم هم الذين بادروا بالهجوم على المسلمين في الظلام، فدارت المعركة في معسكر المسلمين واكتفى المسلمين بصدهم فقط، دون الهجوم عليهم في معسكرهم لاستعادة الغنائم المسلوبة منهم خلال هذه الحملة. (انظر، **نُظم الجمان**، ج9، ص242).

8- جاء عند ابن القطان باسم قصرش، وهو حصن يقع جنوبي نهر التاجة، وشمالي شرق بطليوس. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص242 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص91 ؛ سلامة محمَّد سلمان الهرفي، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص212).

9- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص242 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص91. (يذكر المؤرخون عنان أنَّ الرِّواية القشتاليَّة لهذه المعركة جاءت موجزة جدًا، بحيث لا توضح مكان وقوعها توضيحًا كافيًا، ولا تاريخ وقوعها، والظاهر أنَّها جعلت تاريخها قبل موقعة إفراغة). (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص140).

وعند وصوله إلى إليها أنشده الشعراء بقصائد تتغنى ببطولته[1]، وأبرز ما قدم قصيدة لكاتبه أبو بكر يحي بن الصَّيرفي، وهي قصيدة طويلة يمدحه فيها ويهنئه بالسَّلامة، ويحذره من خُدع الحرب وحيلها، ويسدي إليه بعض النَّصائح فيما يجب أن يكون عليه القتال، ويعاتب القبائل التي تخلت عن نصرته يوم المعركة[2].

وقد أورد هذه القصيدة صاحب الحُلل الموشيَّة، وذكر منها ستة وخمسون بيتًا، في حين ذكر منها ابن الخطيب اثنان وخمسون بيتًا، بينما أورد ابن عذارى عجز البيت الأوَّل فقط، وهو لا يتطابق مع ما جاء في المصدرين السَّابقين[3]. والقصيدة كما ذكرت طويلة، اقتطفت منها الأبيات الثلاثة الأولى:

يَا أَيُّهَا الملأُ الَّذِي يَتَقَنَّعُ   مَنْ مِنكُمُ البَطَلُ الهُمَامُ الأَرْوَعُ

وَمَنْ الَّذِي غَدَرَ العَدُوُّ بِهِ دُجًا   فَانْفَضَّ كُلٌّ وَهُو لا يَتَزَعْزَعُ

تَمْضِي الفَوَارِسُ والطِّعَانُ تَصُدُهَا   عَنْهُ وَيَدْعُّوهَا الوَفَاءُ فَتَرْجِعُ[4]

نشير إلى أنَّ الأمير تاشفين بن علي قاد بالإضافة إلى معركتي قرب الزَّلاقة وفحص البَكار[5] العديد من المعارك ضدَّ القوى النَّصرانيَّة بالخصوص مملكة قشتالة، وقد استطاع تحقيق الانتصار في

1- يُثني ابن الخطيب وابن عذارى عن الأمير تاشفين وثباته في هذا الموقف العصيب بقولهم "ولو لا قدر الله بثبوت الأمير الأجل تاشفين لكانت الفضيحة والآزفة التي ليست لها كاذبة (كاشفة). (انظر، **أعمال الأعلام**، ص260 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص91).

2- **الحُلل الموشيَّة**، ص124 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص91 ؛ **أعمال الأعلام**، ص260 .

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص124 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ **أعمال الأعلام**، ص260 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص91 .

4- **الحُلل الموشيَّة**، ص124 ؛ **أعمال الأعلام**، ص260 .

5- خلال فترة إمارته للأندلس خاض الأمير تاشفين العديد من المعارك من أجل صدِّ حركة الاسترداد المسيحي، وكانت معركتي قرب الزَّلاقة وفحص البَكار أشهر معاركه، حيث حقَّق فيهما نصرًا مؤزرا على النَّصارى.

أغلب هذه المعارك، ويذكر صاحب الحُلل الموشيَّة في هذا الصدد أنَّ الأمير تاشفين كانت له في الأندلس غزوات كثيرة، وكانت جيوشه موفورة، وراياته منصورة[1].

ومن بين هذه المعارك معركة جبل القصر التي حدثت في شعبان سنة 530هـ/ماي 1136م[2]، فحواها أنَّ الرُّوم اجتمعوا في جيوش وافرة، فاكتسحوا بلاد الأندلس، فبادر الأمير تاشفين بالهجوم عليهم، ففروا إلى موضع يُعرف بجبل القصر، فلحق بهم المرابطون واستأصلوا شوكتهم وألحقوا بهم الهزيمة، فعاد الأمير تاشفين وجيشه إلى قرطبة ظافرًا[3].

وفي سنة 530هـ/1136م التقى الأمير تاشفين بالقشتاليِّين في مكان يعرف بفحص عطية[4] فهزمهم وقتل منهم جموعًا غفيرة[5]، واستولى على ذخائرهم وغنائمهم[6]، وغزا أيضًا أرض قشتالة، وخاض مع القشتاليِّين في بلدة كركي[7] معركة سُميت بمعركة كركي سنة 531هـ/1136م واستطاع اقتحامها، وقد أورد ابن الخطيب أبياتًا نظَّمها الكاتب ابن أبي الخصال يمتدح فيها الأمير تاشفين، ويُشير إلى موقعة كركي[8].

1- **الحُلل الموشيَّة**، ص130 .

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص94. (لم يحدِّد صاحب الحُلل الموشيَّة تاريخ لها). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص122).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص94 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص122-123 .

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164. (يُسميه ابن القطان قصر عطية). (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص251).

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164 .

6- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص251 .

7- هي بلدة حصينة تقع على مقربة من قلعة رباح جنوبي نهر وادي آنة. (انظر: ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2، ص393، هامش1).

8- ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج2، ص393 .

وفي سنة 532هـ/1137م قصد الأمير تاشفين مدينة أشكونية[1]، فدخلها المسلمون عنوةً وقتلوا كل من بها، وامتلأت أيديهم بالغنائم ومنها عدَّة من النواقيس العظيمة، وقد حمل الأمير تاشفين منها إلى بلاد المغرب ستة آلاف سبية وكان يومًا مشهودًا[2].

وآخر غزوة للأمير تاشفين بالأندلس، كانت حينما أراد العبور إلى العدوة سنة 532هـ/1137م[3]، حيث بلغه قيام النَّصارى بالغزوِّ بالقرب من مدينة جيان وأحوازها في جيش عرمرم، ووصلوا إلى بياسة وأبدة، وعاثوا فيهما، وحاولوا عبور الوادي الكبير، لكن الأمطار التي استمرت في الهطول عشرين يومًا حالت دون عبورهم، أمَّا الأمير تاشفين فإنَّه استعد للقائهم وبادر بالمسير إليهم، ولكن الأمطار حالت دون لقاء الطرفين، فعاد النَّصارى أدراجهم إلى بلادهم[4] وعاد تاشفين إلى قرطبة، ومنها اتجه إلى بلاد المغرب، وعبر البحر في شهر جمادى الأولى، ودخل مرَّاكش في أوَّل رجب سنة 532هـ/14 مارس 1138م[5]، وهذا بعد أن استدعاه أمير المسلمين علي بن يوسف[6].

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164. (وردت عند ابن القطان باسم أشكلونة (Escalona) ويرى عنان أنَّها بلدة ألاركون وهي من أعمال مقاطعة قونقة الواقعة على الحدود مع النَّصارى. (انظر: نُظم الجمان، ج9، ص251 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص142-143).

2- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص251-252 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164.

3- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص256. (بينما يرى ابن أبي زرع أنَّ آخر غزوة للأمير تاشفين قبل عبوره إلى بلاد المغرب كانت غزوة أشكونية). (انظر: **روض القرطاس**، ص164).

4- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص256 .

5- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص256. (يوافق ابن أبي زرع قول ابن القطان في كون الأمير تاشفين عبر إلى المغرب سنة 532هـ/1138م، ولكنه لم يكن دقيقًا في تحديد التَّاريخ، حيث اكتفى بذكر السنة دون اليوم والشهر، بينما يرى ابن عذارى أنَّه عاد إلى المغرب سنة 531هـ/1137م وهذا التَّاريخ غير صحيح بالنَّظر إلى صيرورة الوقائع والأحداث التَّاريخيَّة). (انظر: **روض القرطاس**، ص164 ؛ **البيان المغرب**، ج4، ص96).

6- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص256 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164 .

وقد مكث الأمير تاشفين بن علي بالأندلس حوالي اثنا عشر سنة[1]، تمكن خلالها من مقارعة النَّصارى والتَّصدي لزحفهم الجارف على الأندلس، حيث أوقف حركة استردادهم بخوضه للعديد من المعارك الخالدة، والتي حقَّق في أغلبها انتصارات مدوية.

وعندما أصبح تاشفين أميرًا على المرابطين خلفًا لوالده علي بن يوسف، منذ سنة 537هـ/1142م[2] لم يعبر إلى بلاد الأندلس لحرب النَّصارى بسبب اشتغاله بحرب الموحِّدين بالمغرب الذين استفحل أمرهم وعظمت شوكتهم[3].

وخلاصة هذا الفصل نقول بأنَّ أمير المسلمين علي بن يوسف اهتم كثيرًا بشؤون الأندلس حيث اعتبرها أرض جهاد، واستطاع بالرغم من هزيمته في بعض المعارك مع الممالك المسيحيَّة التَّصدي لحركة الاسترداد طيلة مدة حكمه، ويكبح جماحها بتحقيقه للعديد من الانتصارات الخالدة على المسيحيِّين.

فخلال عبوره الأوَّل حقَّق انتصارًا عظيمًا على القشتاليِّين في معركة أُقليش سنة 501هـ/1108م، والتي تُعد واحدة من معارك المسلمين الكبرى بالأندلس وهذا بالنظر إلى النتائج المترتبة عنها كمقتل الأمير شانجة الابن الوحيد لملك قشتالة ألفونسو السَّادس، ومقتل سبعة من كبار قادته، وأكثر من سبعة آلاف جندي، وتمكن المسلمون من الاستحواذ على الكثير من الغنائم في نهاية المعركة، والاستيلاء على الكثير من الحصون والقلاع والمدن القشتالية الواقعة على مقربة من أُقليش مثل مدينتي قونكة ووبذة وغيرهما. كما تمكن المرابطون من خلال هذا النَّصر من تدعيم وتثبيت سلطانهم بالأندلس بعد أن تعرض للاهتزاز أواخر عهد الأمير يوسف بن تاشفين

1- تولى إمارة الأندلس في حدود سنة 520هـ/1126م، وتخلى عنها سنة 532هـ/1138م. (انظر: ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص256 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164).

2- تولى إمارة المرابطين مدَّة سنتين من سنة 537هـ/1142م إلى غاية سنة 539هـ/1144م. (انظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص263-264 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص165-166).

3- **الحُلل الموشيَّة**، ص121 .

وتمكنوا أيضًا من إيقاف حركة الاسترداد المسيحي لفترة زمنية معتبرة، حيث أصبحت مملكة قشتالة في حالة اضطراب وفوضى بالخصوص بعد وفاة ألفونسو السَّادس بنحو عام من المعركة.

وفي عبوره الثَّاني للأندلس عام 503هـ/1109م قاد الأمير علي سلسلة من الغارات على أراضي طليطلة والمدن المجاورة لها، وتمكن من فتح مدينة طلبيرة، وقتل معظم النَّصارى المتواجدين بها، وإنقاذ من كان بها من أسرى المسلمين، وامتلأت أيدي المسلمين خلال هذا الفتح بالأسلحة والثياب والماشية وغيرها من المتاع، كما فتحوا خلال ذلك مدينة طلايوت ومجريط ووادي الحجارة. ثمَّ اتجهت الجيوش المرابطيَّة لحصار طليطلة، وفي الطريق إليها استولت على عدد كبير من القلاع والحصون الصغيرة وانتسفت الحقول واسترقت السكان، وبعد حصار دام أربعين يومًا عادت إلى قرطبة محملة بالغنائم.

وبعد اطمئنان أمير المسلمين علي بن يوسف على سير عمليات الفتح بالأندلس ورد حركة الاسترداد المسيحي، عاد إلى بلاد المغرب ولكن الفتوحات المرابطيَّة استمرت على نشاطها وشدتها خاصةً في شمال شرق الأندلس حيث توجد مدينة سرقسطة بالثغر الأعلى، وقد تمكن المرابطون من الاستيلاء عليها سنة 503هـ/1110م والقضاء على حكم بني هود بها وعلى أطماع ملك أراغون ألفونسو المحارب الذي تحالف معهم، وقد انتهز المرابطون فرصة استيلاءهم على سرقسطة وقاموا ببعض الغزوات على إمارة برشلونة سنة 504هـ/1110م وعاثوا في أحوازها، كما عاثوا أيضًا في أراضي قشتالة وكانوا يعودون في كل عام تقريبًا إلى أراضيهم بالكثير من الأسرى والغنائم العظيمة.

ولم يقتصر في تلك الآونة اهتمام المرابطين بالغزوِّ والجهاد في شرق الأندلس، بل اجتاحوا غرب الأندلس أيضًا، وتمكنوا من الاستيلاء في شهر ذي القعدة سنة 504هـ/ماي 1111م على العديد من مدنه مثل يابرة وإشبونة وشِنترة، وشنترين التي استعصت عليهم في البداية لشدة حصانتها، ثمَّ استولوا عليها في آخر المطاف وتمكن المرابطون من قتل معظم رجالها وأسر البقية.

ومن أعظم الأعمال التي حقَّقها أمير المسلمين علي بن يوسف خلال عبوره الثَّاني للأندلس، بالإضافة إلى استيلاءه على سرقسطة هو استيلاءه عام 509هـ/1116م على الجزائر الشَّرقيَّة (جُزر البليار) واستنقاذها من أيدي الغزاة القطلونيِّين والجنويِّين والبيزيِّين الذين احتلوا أكبر جزرها ميورقة سنة 508هـ/1115م وقتلوا فيها وسبوا أهلها وخربوها ثمَّ أحرقوها، وتدعي بعض المراجع المسيحيَّة أنَّ القوَّات المسيحيَّة أنقذت من مطامر سجون ميورقة عشرين ألف مسيحي، وهو رقم مبالغ فيه إلى حد كبير.

وفي عبوره الثالث إلى الأندلس سنة 511هـ/1117م تمكن الأمير علي بجيشه الضَّخم من الاستيلاء على قُلُمْرِيَّة عاصمة مملكة البرتغال بغرب الأندلس بعد أن حاصرها عشرين يومًا وفتحها في شهر ربيع الأوَّل 511هـ/جويلية 1117م وأثخن في تلك الأنحاء تخريبًا وقتلًا وسبيًا، ولكنه لم يحتفظ بقُلُمْرِيَّة لموقعها النائي وإحاطة النَّصارى بها من كل حدب وصوب.

وخلال هذا العبور تعرض المرابطون لضربة موجعة بسقوط سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى في يد ملك أراغون ألفونسو المحارب سنة 512هـ/1118م بعد حصار دام حوالي سبعة أشهر، وقد هلك الكثير من المسلمين جوعًا داخل المدينة المحصورة، فاضطر البقية إلى لتسليم سرقسطة صُلحًا لملك أراغون، مقابل شروط عديدة أهمها أن يؤمن المسلمين في النَّفس والمال، ولكنهم اضطروا للهجرة فيما بعد، حيث كانت وطأة النَّصارى تشتد عليهم يومًا بعد يوم، وقد خرج منها نحوًا من خمسين ألف ما بين صغير وكبير ونساء ورجال. وكان سقوطها بعد سقوط طليطلة ضربة جديدة قاصمة للأندلس، وكان نذيرًا بسقوط باقي قواعد الثغر الأعلى في يد ملك أراغون ألفونسو المحارب، وقد تعاظمت حركة الاسترداد بشمال شرق الأندلس، وتمكن النَّصارى من الاستيلاء على طرسونة وبرجة وعلى عدَّة حصون ومدن في تلك المنطقة، وتمكنوا من هزيمة المرابطين في موقعة كتندة سنة 514هـ/1120م، وقتل حوالي عشرين ألفًا من المسلمين، وبعض كبار الفقهاء والقضاة، وكانت بذلك هذه الهزيمة نكبةً جديدة ساحقة لمسلمي الأندلس ولهيبة المرابطين العسكريَّة.

وعلى إثر هذه الهزيمة عبر الأمير علي بن يوسف للمرة الرَّابعة للأندلس سنة 515هـ/1121م في جيش عظيم للتَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي ولإصلاح الأمور والعمل على توطيد سمعة الجيوش المرابطيَّة، فهدأت الحرب بين المرابطين والمسيحيِّين، ولكنها عادت من جديد لمَّا قام ملك أراغون ألفونسو المحارب سنة 519هـ/1125م بغزوته الكبرى على الأندلس لمحاولة الاستيلاء على غرناطة وطرد المسلمين نهائيًا من الأندلس، وقد شملت هذه الغزوة أقطار الأندلس الشَّرقيَّة والجنوبية، وبالرغم من عدم استيلاء ألفونسو في هذه الغزوة على أية مدينة من مدن المسلمين إلَّا أنَّ قواته أوقعت بالمسلمين أضرارًا فادحة، وبثت بينهم الذعر والروع ، وحصلت على غنائم عظيمة، وقد أعانه في غزوته هذه النَّصارى المعاهدون الذين قابلوا إحسان المسلمين بالإساءة، ولمَّا انتهت هذه الغزوة نفى المرابطون جموع غفيرة منهم إلى مكناسة وسلا وغيرهما من مدن بلاد المغرب، وقد هلك كثير منهم بسبب الوباء والإرهاق، وضمَّ أمير المسلمين عددًا منهم إلى حرسه الخاص.

ولم يكتف ملك أراغون ألفونسو المحارب عن حرب المسلمين، واستطاع سنة 523هـ/ 1129م من إلحاق هزيمة قاسية بالمرابطين في موقعة القِلاعة بالثغر الأعلى، إذ فقدوا ما يزيد عم اثنا عشر ألفًا بين قتيل وأسير، فضلًا عن استيلاء العدوِّ على أسلابهم وأمتعتهم ودوابهم، واستولى ألفونسو على بلدة القِلاعة وحصنها ثمَّ أقطعها لأحد أكبر رجاله ممَّن أبلوا في خدمته.

ولم يتمكن المرابطون من الثأر لهذه الهزيمة إلَّا في سنة 528هـ/1134م حيث هزموا النَّصارى شرَّ هزيمة في موقع إفراغة، وهذا بفضل ذكاء الأمير علي الذي عقد مع كونت برشلونة رامون برنجير الرَّابع معاهدة صلح لكي يتفرغ لحرب ملك أراغون ألفونسو المحارب، الذي لقي حتفه أثناء المعركة أو بعد ذلك بقليل، فتخلص المسلمون بوفاته من غزواته المدمِّرة على سائر بلاد الأندلس، وقد قتل من جنده خلق كثير، واستولى المسلمون على غنائم عظيمة، وأعاد المرابطون بهذا النَّصر سمعتهم العسكريَّة، وانقشع الخطر مدى حين عما بقي بأيدي المسلمين من أراضي الثغر الأعلى وعن شرق الأندلس.

وبقي أن نشير إلى أنَّ الأمير تاشفين بن علي عندما تولى أمر الأندلس سنة 520هـ/1126م قام هو الأخر بسلسلة من الغزوات في أراضي قشتالة وسائر بلاد النَّصارى وقد ظهرت له بارقة النَّصر عليهم في أكثر الأوقات فشاع ذكره وذاع صيته في أمر الغزوِّ والجهاد، ومن أشهر معاركه مع النَّصارى، موقعة قُرب الزَّلاقة بغرب الأندلس التي حدثت في شهر جمادى الأولى سنة 528هـ/مارس 1134م وقد هُزم فيها القشتاليون، وقُتل وأُسر منهم جموع كبيرة، وتمكن المرابطون من تخليص أسر المسلمين من قبضتهم واستعادة الغنائم التي أخذت منهم.

كما قاد الأمير تاشفين في شهر ذي الحجة 528هـ/أكتوبر 1134م موقعة أخرى ضدَّ النَّصارى عُرفت باسم موقعة فحص البَكار، وقد انهزم المرابطين في بداية الموقعة وقُتل خلق كثير منهم وفرَّ بعضهم، وكثر النَّهب في أمتعتهم، ولكن الأمير تاشفين لم يفر من ميدان المعركة بل قاتل بشجاعة مع من بقي حوله، فدارت الدائرة على النَّصارى ونكصوا على أعقابهم، وقد أسفرت المعركة في النَّهاية عن جرح وأعداد هائلة من القتلى من الجانبين.

وقد مكث الأمير تاشفين بن علي بالأندلس حوالي اثنا عشر سنة، تمكن خلالها من مقارعة النَّصارى والتَّصدي لزحفهم الجارف على بلاد الأندلس، ولمَّا أصبح أميرًا على المرابطين سنة 537هـ/1142م لم يعبر إلى بلاد الأندلس لحرب المسيحيِّين بسبب اشتغاله بحرب الموحِّدين بالمغرب.

الباب الثاني: حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصر الموحِّدين

541–591هـ/1146–1195م

الفصل الأوَّل: حركة الاسترداد المسيحي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي

أولًا - أوضاع بلاد الأندلس في نهاية حكم المرابطين وبداية الموحِّدين

ثانيًا - عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي

كانت بلاد الأندلس في نهاية حكم المرابطين تمر بأشد الفترات التَّاريخيَّة الحرجة، حيث أصبحت هذه البلاد في حالة فوضى واضطراب كبيرة جدًا، وقد أطلق عليها المؤرخون المحدثون اسم عصر الطَّوائف الثَّاني[1]، لأنَّ الفترة شبيهة إلى حد كبير مع فترة عصر الطَّوائف الأولى والتي ظهرت مباشرة بعد سقوط الخلافة الأمويَّة سنة 422هـ/1031م[2]، وهذا الشبه مقرون بالخصوص بالحالة السِّياسيَّة المضطربة بظهور العديد من الثورات على السلطة الحاكمة آنذاك.

ويصف المرَّاكشي أحوال بلاد الأندلس في أواخر عهد الأمير علي بن يوسف بقوله واختلت أحوال جزيرة الأندلس اختلالًا مفرطًا، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم، وميلهم إلى الدِّعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النِّساء[3]، فهانوا على أهل الجزيرة، وقلُّوا في أعينهم واجترأ عليهم العدوِّ، واستولى النَّصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم[4].

1- عصمت عبد اللَّطيف دندش: **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين، عصر الطَّوائف الثَّاني 510هـ-546هـ/1116م-1151م**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص9. (غير أنَّ المستشرق مونتغمري وات يقول أنَّ تسمية هذه المرحلة بعصر الطَّوائف الثَّاني غير موفق تمامًا، فرغم حصول بعض التَّفكك إلى دويلات بزعامة حكام صغار، لكن هؤلاء لم يكونوا يمثلون طوائف كما كانت الحال بالنِّسبة إلى حكام الدويلات التي ظهرت عندما انهارت الخلافة الأمويَّة، فقد أصبح بعض حكام هذه الدويلات بعد سنة 539هـ/1145م تابعين للموحِّدين، والبعض الآخر تابعًا لعدد من الملوك النَّصارى). (انظر: **في تاريخ اسبانيا الإسلاميَّة**، ص113).

2- ابن الوردي، **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ج1، ص319.

3- **المُعجب**، ص146. (لم ترد هذه الاتهامات والادعاءات بكون المرابطين بالغوا في طاعة نساءهم، وسلَّموا مقاليد الحكم لهنَّ إلَّا في كتاب المُعجب، وعبد الواحد المرَّاكشي نشأ وخدم في البلاط الموحِّدي، فلا يخفي ما لهذه الاتهامات من أغراض دعائية لصالح الموحِّدين. وبالنِّسبة لكتب التراجم والتَّاريخ، ودواوين الشعر فلم تذكر هذا الأمر، بل ذكرت بعض المصادر نساء المرابطين بالخير والفضل مثل زينب النَّفزاويَّة، وزينب بنت إبراهيم بن تيفلويت زوجة الأمير تميم، وحواء بنت تاشفين وغيرهن. (انظر: دندش، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص28-29).

4- **المُعجب**، ص146. (وقد تحامل ابن الكردبوس أيضًا على المرابطين كثيرًا، ومعروف عنه أيضًا أنَّه من المؤرخين المعاصرين لقيام دولة الموحِّدين، وكان متعاطفًا معهم كثيرًا، حيث قام بوصف المرابطين بأبشع الصِّفات منها قوله "ولم يراقبوا الله في عباده كثيرًا ولا قليلًا، وصاروا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا، إلى أن جاء الله تعالى بالإمام المعصوم المهدي رحمه الله فأوضح من الدِّين معالمه وجدَّد منه مراسمه، وأظهر آياته). (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص124).

ويصفها هذه الأحوال أيضًا ابن الخطيب بقوله اضطرب أمر المرابطين بالأندلس، وضعفوا وكثُرت الفتن والثوّار، واغتنم العدوُّ ذلك، فاستولى على البلاد، واشتهر ظهور الدَّولة الموحِّديَّة بالمغرب، فتعلقت أمال المسلمين بهم، واستصرخهم النَّاس، وثاروا بمن ببلادهم من المرابطين[1].

أولًا- أوضاع بلاد الأندلس في نهاية حكم المرابطين وبداية الموحِّدين:

1- أوضاع الأندلس الإسلاميَّة:

1-1- أسباب سقوط دولة المرابطين:

تعددت الأسباب التي أدت في آخر المطاف إلى نهاية حكم المرابطين لبلاد الأندلس وظهور ما يُعرف بعصر الطَّوائف الثَّاني، ثمَّ ظهور الموحِّدين واستيلائهم على هذه البلاد، ومن بين هذه الأسباب نذكر:

- اضطراب الأمور في الأندلس خاصةً بعد استدعاء الأمير تاشفين بن علي إلى المغرب سنة 532هـ/1138م[2]، وسحب عدد كبير من القوَّات المرابطيَّة معه إلى المغرب لمحاربة الموحِّدين الذين استفحل أمرهم كثيرًا[3]، وقد استغل النَّصارى في الأندلس هذه الأوضاع فقاموا بالهجوم

1- **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص265 .

2- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص256 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص164 .

3- يذكر ابن سماك العاملي أنَّ أهل الأندلس ثاروا على المرابطين لكونهم أخلوها من حُماتها وأسلحتها. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص203).

على المدن والقلاع والحصون المجاورة لبلادهم واستولوا عليها[1]، بالخصوص بعد وفاة الأمير تاشفين سنة 539هـ/1144م[2].

– اندلاع الثورات والفتن الدَّاخليَّة بالأندلس وأخطرها على الإطلاق ثورة المريدين[3] التي ظهرت بالأندلس بزعامة أبو القاسم بن قسي[4]، ثمَّ شملت جميع شبه الجزيرة الأندلسيَّة، وكان ظهورها حينما بدأت الدَّولة المرابطيَّة في المغرب بالانهيار، وذلك بمقتل أمير المسلمين تاشفين بن علي في موقعة وهران في 27 رمضان سنة 539هـ/23 مارس 1145م[5]، واستفحل أمر هذه الثورة

1- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص265 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص146 .

2- يقول ابن الخطيب أنَّ الأندلس آنذاك لفحت بها جُدُرَ الثوَّار، وأصبحت دار البوار، ويردف هذا القول ببيتين شعريين يصوِّر الوضع المزري نظرًا لغياب الأمير تاشفين بن علي عن حكم هذه البلاد:

إذا غابَ الهِزَبْرُ الوَرْدُ يومًا — أخُو الفتكات والنَّفس البئيسَةْ

ولم يحمِ الفريسةَ مُسْتَطِيلًا — تزاحمت الذيابُ على الفريسَةْ

(انظر: **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص248).

3- يُطلق اسم المريدون في ذلك العصر على أتباع شيوخ الجماعات الصوفيَّة التي كثرت آنذاك بجميع بلاد الأندلس، ومن أشهر زعماء المريدين وشيوخها أبي العباس بن العريف، وأبي القاسم بن قسي، وأبي الحكم بن برَّجان وغيرهم، ولم يكتف المريدون بالزهد والعبادة، بل تحولت بعض فرقهم إلى جماعات من المحاربين الذين يطلبون الملك، فحاربوا بذلك المرابطين وتمكنوا من الاستيلاء على الكثير من مدن الأندلس، ولم يتجه أحد منهم إلى الجهاد ضدَّ النَّصارى مع اتساع ميدانه إذ ذاك، وكانت نهايتهم بقضاء الموحِّدين عليهم. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص204 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص248، وما بعدها).

4- هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي، يرجع نسبه إلى أصل نصراني، فهو من المولَدين، نشأ في أحواز مدينة شِلب واشتغل فيها بداية أمره مشرفًا على الأعمال المخزنيَّة (المالية أو الحكوميَّة) ثمَّ اعتنق طرائق الصوفيَّة، وتبحر فيها حتَّى غدا من شيوخها، له كتاب "خلع النَّعلين"، قتله أهل شِلب في جمادى الأولى سنة 546هـ/أوت 1151م. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص197 وما بعدها ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص248 وما بعدها).

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص166 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص248 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص205.

العارمة بالأندلس ولم يتمكن المرابطين من إخضاعها، وقد استطاع الكثير من شيوخ المريدين وزعمائهم الاستيلاء على الكثير من مدن بلاد الأندلس[1].

ومن أخطر الثورات التي أحدثت بالأندلس ضدَّ المرابطين أيضًا ثورة القضاة[2]، وكان أخطرها على الإطلاق ثورة القاضي أبي جعفر بن حمدين الذي بايعه النَّاس في الخامس من شهر رمضان عام 539هـ/1 مارس 1145م[3] بالإمارة، فسكن قصر الإمارة بقرطبة وتلَّقب بأمير المسلمين وناصر الدِّين[4] والمنصور بالله[5]، وقد استمرت أيامه إحدى عشر شهرًا إلى أن قضى عليه والي المرابطين يحي بن غانية[6].

ومن بين القضاة الذين ثاروا على المرابطين واستولوا على مجموعة من المدن وأعلنوا أنفسهم أمراء عليها، القاضي أبو الحكم بن حسون بمالقة الذي أعلن الثورة على المرابطين والدعوة لنفسه في 13 رمضان 539هـ/9 مارس 1145م فاستولى عليها، وكان له صولات وجولات مع المرابطين، وعندما اشتد عليه الأمر استنجد بالقشتاليِّين، فثارت عليه الرعيَّة وتآمروا

1- عن ثورة ابن قسي وباقي شيوخ المريدين. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص197 وما بعدها ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص248 وما بعدها ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص307 وما بعدها ؛ دندش عصمت بن اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص47 وما بعدها).

2- الملفت للنَّظر أنَّ قادة الثورة ضدَّ المرابطين، لم يكونوا من قادة الجند أو زعمائهم، وإنَّما كان جُلهم أو معظمهم من القضاة والفقهاء، ويبدو أنَّ السبب الرئيسي في ذلك هو المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها هؤلاء القضاة والفقهاء زمن المرابطين، حيث اهتم زعماء هذه الدَّولة بهم وأعطوهم سلطةً ونفوذًا كبيرًا. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص318-319 ؛ دندش عصمت بن اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص95 وما بعدها).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص171 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص253 .

4- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص253 .

5- دندش عصمت عبد اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص77 .

6- وقد استعان ابن حمدين بالنَّصارى، وكذلك الموحِّدين إلى أن توفي بمالقة في 19 رجب 546هـ/1 نوفمبر 1151م، ولمَّا استولى الموحِّدون على مالقة نبشوا قبرة وأخرجوا جثمانه وصلبوه. (انظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص253-254).

عليه وحاصروه في قصبة المدينة، وانتهى أمره بانتحاره في يوم السبت 11 ربيع الأوَّل عام 547هـ/15 جوان 1152م[1].

وثار قضاة آخرون في مدن كثيرة بالأندلس منهم القاضي أبو مروان عبد المالك بن عبد العزيز ببلنسيَّة، والقاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر الخُشني بمرسيَّة، والقاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى بغرناطة وغيرهم، وقد عان المرابطين كثيرًا من ثورة هؤلاء القضاة خاصةً بعد أن لجأ أكثرهم إلى النَّصارى لمعاونتهم في الاستيلاء على المدن التي ثاروا بها، وقد عُرف هذا العهد كما أسلفنا الذكر بعصر الطَّوائف الثَّاني والذي يُعد من أكثر العهود اضطرابًا وفوضى بالأندلس[2].

بالإضافة إلى الأسباب السالفة الذكر، فإنَّ هناك أسباب أخرى ساهمت مساهمة فعالة في انهيار دولة المرابطين بالأندلس وكذلك ببلاد المغرب، وبالرغم من أنَّ هذه الأسباب تبدو أنَّها ثانوية إلَّا أنَّها مهدت لظهور الأسباب الرئيسيَّة[3] لسقوط دولة المرابطين بالأندلس والمغرب، ومن بين هذه الأسباب:

- اضطراب أحوال الإدارة بوفاة الأمير علي بن يوسف وتولية ابنه الأمير تاشفين، حيث ظهر خلل كبير في إصدار الأوامر إلى الجند أو الرعيَّة ويؤكد ابن سماك العاملي ذلك حينما قال

1- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص254-255 .

2- عن ثورة القضاة بالأندلس زمن المرابطين. (انظر: ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص252 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص312 وما بعدها ؛ دندش عصمت عبد اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص76 وما بعدها).

3- ذكرنا سابقًا هذه الأسباب الرئيسية، وتتمثل حسب اعتقادي في استفحال أمر الموحِّدين بالمغرب، وتعاظم حركة الاسترداد بالأندلس بانقضاض النَّصارى على مدن وقلاع وحصون المسلمين والاستيلاء عليها، وكذلك الثورات الداخليَّة على المرابطين وأخطرها على الإطلاق ثورتي المريدين والقضاة.

"والفساد الأكبر على المرابطين نسخ الأمر بأمر غيره، فكانوا يكتبون اليوم شيئًا وغدًا ينسخونه بغيره فيسخر منهم جنودهم ورعاياهم"[1].

– فساد بعض عمال المرابطين بالأندلس بانصرافهم إلى حياة اللَّهو والتَّرف[2]، وتعاملهم بالرشوة واستيلاءهم على أموال النَّاس بالباطل، وكذلك فرضهم للضرائب الباهظة على الرعية[3]، وقد أدى هذا إلى سخط الرعية من ولاة المرابطين، فاتبعوا بذلك أي ثائر يثور عليهم وساندوه للتَّخلص من جبروتهم[4]، وخير ذلك على ذلك مساندة الرعية لثورتي المريدين والقضاة.

– انحراف بعض الفقهاء والقضاة عن الجادة وطريق الحق، وفشلهم في أن يكونوا قدوةً حسنةً حيث ظهر للعيان طمعهم للسلطان والأموال والجاه، مستغلين مساندة أمراء المرابطين لهم، وقد ثارت الرعية كثيرًا عليهم، فعمَّت الفوضى والاضطرابات بسبب ذلك في الأندلس، ومن أمثلة سخط الرعية على القضاة، قتل أحد العوام لقاضي قرطبة أحمد بن خلف التَّجيبي في صلاة الجمعة سنة 529هـ/1134م، وفي نفس السنة ثارت العامَّة على قاضي إشبيلية أبي بكر بن العربي وهذا عندما أحدث عقوبات جديدة على الجناة، وكذلك ثورة أهل قرطبة على القاضي أبو الوليد بن رشد في حدود سنة 535هـ/1140م[5].

– إحراق كتاب إحياء علوم الدِّين، لأبي حامد الغزالي سنة 503هـ/1109م، بعد أن أفتى فقهاء قرطبة وعلى رأسهم ابن حمدين بضرورة إحراقه[6]، وقد استغل ابن تومرت هذا الأمر وقام

1- ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص203 .

2- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص146.

3- دندش عصمت عبد اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص45.

4- يصف ابن الكردبوس تلك الأوضاع الصعبة بقوله "وسما المنكر بنفسه، وأناخ الجور بكلكله، وضرب الباطل بجرَّانه". (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص124).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص93-94 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص252-253 ؛ دَندش عصمت عبد اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص35 .

6- ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص70 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص172.

بتأجيج الرعية على المرابطين واتهمهم بالتَّعصب الشديد للمذهب المالكي، وبالضَّيق الفكري، وبتعطيل باب الاجتهاد، ويذكر ابن القطان أنَّ إحراق كتاب الغزالي كان سببًا في نهاية حكم المرابطين الذين وصفهم بالجهل، حيث قال "وقد كان إحراق هؤلاء الجهلة[1] لهذا الكتاب العظيم الذي ما أُلِّف مثله سببًا لزوال ملكهم، وانتثار سلكهم، واستئصال شأفتهم على يد الأمير العزيز القائم بالحق (يقصد ابن تومرت)[2].

– ظهور الفكرة القوميَّة لدى فريق كبير من أبناء الأمَّة الأندلسيَّة، وكان هذا الفريق يرى في المرابطين بعد أن تبددت آثار المديح والإعجاب الأولى التي تلت نصر الزَّلاقة، ثمَّ نصر أُقليش وإفراغة أنَّهم أجانب متغلبين يستظلون بفكرة الجهاد[3]، ليبسطوا سلطانهم على الأمَّة الأندلسيَّة التي لم تنس أنَّها فقدت استقلالها وحريتها، وكانت ثورة قرطبة على الأمير المرابطي ابن روادة

1- وصف المرابطين بالجهلة، يدل على تحامل ابن القطان مؤرخ الموحِّدين على المرابطين، وقد لقي هذا التَّحامل معارضة من قبل المؤرخين المحدثين منهم دندش عصمت عبد اللَّطيف، التي ترى بأنَّ حرق كتاب الإحياء أوجد خلافًا في الرأي بين الفقهاء وهو أمر طبيعي، فكل عمل علمي له مؤيدوه ومعارضوه، ولكن وصف المرابطين ونعتهم بالجهل أمر غير طبيعي وغير مقبول. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص71 ؛ **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص38).

2- **نُظم الجمان**، ج3، ص71-72 .

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص305. (لا أوافق رأي المؤرخ عنان حينما ادعى بأنَّ المرابطين يستظلون بفكرة الجهاد ليبسطوا سلطانهم على الأمَّة الأندلسيَّة، وأرى أنَّ المرابطين جاهدوا في الله حقَّ جهاده واستطاعوا طيلة تواجدهم بالأندلس التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي، وقد حقَّقوا انتصارات مدوية على النَّصارى، وفقدوا أعزَّ وأفضل رجالهم وقادتهم خلال جهادهم هذا، فلم يكن في واقع الأمر جهادهم من أجل دنيا يصيبونها، والأدلة على ذلك كثيرة جدًا، لا يسعنا في هذا المقام ذكرها جميعًا، ومن بينها دعاء الأمير يوسف بن تاشفين خلال عبوره الأوَّل للأندلس لخوض معركة الزَّلاقة سنة 479هـ/1086م، فقد ذكر ابن أبي زرع أنَّ الأمير يوسف عندما وطئت قدماه ظهر السفينة رفع يديه نحو السماء وقال "اللهم إن كنت تعلم أنَّ في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل علي جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه علي حتَّى لا أجوزه" فسهَّل الله عليه الجواز في أسرع ما يكون، وهذا دليل على صدق نيته، كما أنَّ الأمير يوسف خلال انتصاره في معركة الزَّلاقة لم يسارع للقضاء على أمراء الطوائف طمعًا في الاستيلاء على الأندلس، بل قضى عليهم بعد أن ثبتت للعيان خيانتهم وتعاونهم مع النَّصارى، وكذلك صدور فتوى العلماء بجواز خلعهم). (انظر: **روض القرطاس**، ص145).

سنة 514هـ/1120م[1]، أوّل تعبير مادي لهذا الشعور القومي ضدَّ عسف الحكم المرابطي، ثمَّ تعاظم هذا الشعور بالخصوص في أواخر عهد الأمير علي بن يوسف[2].

– سياسة التَّسامح والعطف التي انتهجها أمراء المرابطين بالأندلس سواءً مع النَّصارى أو مع أهل الأندلس، فالبِّنسبة للنَّصارى فقد تمَّ إدماجهم في الجيوش المرابطيَّة، وإعطائهم مراكز التَّفوق والقيادة، فأدى إلى سخط أهل الأندلس على المرابطين[3]، أمَّا الأندلسيِّين فقد تساهل الأمير علي وولده تاشفين مع مثيري الفتن والفوضى منهم بالخصوص المريدين، فلم يُعرف عن المرابطين أنَّهم أمروا بقتل مشاغب إلَّا في حالات نادرة، وكان أقصى عقاب هو النَّفي والاعتقال الطَّويل[4]، مثل ما حدث للمعتمد بن عبَّاد أمير إشبيلية وعبد الله بن بلكين أمير غرناطة، حيث تمَّ نفيهما إلى بلاد المغرب وأسرهما حتَّى وفاتهما، كما نلمس سياسة التَّسامح في وصية الأمير يوسف بن تاشفين لولده علي عندما قربت وفاته، حيث أوصاه ثلاثة وصايا منها "أن يقبل من محسن أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم[5]، ونلمس سياسة التَّسامح أيضًا في عهد الأمير علي بن يوسف من خلال رسائله إلى عماله بالأندلس منها رسالته إلى والي اشبيلية ابن فاطمة سنة 510هـ/1117م حيث دعاه إلى التزام الرِّفق بالرعية وإقامة العدل، وممَّا جاء فيها قوله "رأينا والله ولي التَّوفيق، والهادي إلى سواء الطَّريق، أن نجد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق وإيثار أسباب الرِّفق لما نرجوه من ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والأجل والله تعالى يُيَسِّر" وقوله أيضًا ووطِّئ للرعية –حاطها الله– أكنافك وابذل لها إنصافك، واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها"[6]، ورسالة أخرى للأمير علي تدل على سياسة

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص187-188 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص86-87 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص66.

2- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص305 .

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص306 .

4- دندش عصمت عبد اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص35.

5- **الحُلل الموشيَّة**، ص82-83.

6- عن نص الرِّسالة. (انظر: محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، ص74-75).

التَّسامح، وهذه الرِّسالة بعثها إلى أمير غرناطة مَزْدَلِي عندما ثار أهلها عليه، وهي مؤرخة في يوم الجمعة 19 رمضان سنة 507هـ/27 فيفري 1114م، وليس في الرِّسالة غير النُّصح والإرشاد لأهل غرناطة بضرورة التزام الهدوء والطَّاعة، والصلح بينهم وبين الأمير مَزْدَلِي، ويظهر ذلك في قوله "لقد آن لحركتكم فيه أن تهدأ وللنائرة بينكم أن تطفأ، ولذات بينكم أن تنصلح"[1]، وهذه السِّياسة أدت بطبيعة الحال إلى تمرد الرعية في كثير من الأحيان على المرابطين.

- الأزمة الاقتصاديَّة الحادة، نتيجة لانحباس المطر عدَّة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدَّة الأزمة أنَّ أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد[2]، ممَّا هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بيت كثير من السكان ووقعت هذه الأزمة في الفترة الممتدة ما بين أعوام 524هـ/1129م و 530هـ/1135م[3].

- عجز المرابطين في آخر أيامهم عن الجهاد في الأندلس، بالخصوص بعد وفاة القادة الكبار للجيوش المرابطيَّة مثل ابن فاطمة وابن عائشة وسِير بن أبي بكر اللَّمتوني والأمير مَزْدَلِي ومحمَّد بن الحاج وغيرهم، فلم يستطع المرابطين أن يخلفوا جيل جديد له مبادئ وقيم هؤلاء القادة الكبار في حب الجهاد والتَّضحية في سبيل الله[4].

1- عن نص الرِّسالة. (انظر: محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، ص75-76).

2- يتحدث ابن القطان عن الجراد الذي أصاب حقول الأندلس في سنة 529هـ/1134م، ويذكر بأنَّه محا ما على الأرض من زرع وكلأ، وقد أُمر النَّاس بالخروج إليه فساقوا منه خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثين عدلًا، وما غاب عن العيون أكثر، وقد مدنا ابن القطان معلومات في مواضع متفرقة من كتابه حول فتك الجراد بحقول الأندلس فيما بين سنتي 527هـ/1132م و531هـ/1136م ويبدو أنَّ تلك الأضرار قد أصبحت من مشاغل الدَّولة المرابطيَّة التي أولت إليها اهتمامًا خاصًا، كما نرى في الرِّسالة التي كتبها عن علي بن يوسف الكاتب أبو بكر بن القَبْطُرْنة، يحض على قتل الجراد. (انظر: **نُظم الجمان**، ج9، ص242-243). (وعن نص الرِّسالة. انظر: محمود علي مكي، **وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين**، ص77-78).

3- علي محمَّد الصَّلابي: **تاريخ دولتي المرابطين والموحِّدين في الشمال الإفريقي**، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2009م، ص235.

4- علي محمَّد الصَّلابي، **تاريخ دولتي المرابطين والموحِّدين في الشمال الإفريقي**، ص235-236.

كل هذه الأسباب مجتمعةً أدت إلى سقوط دولة المرابطين بالأندلس، ثمَّ ظهور ما يُعرف بعصر الطَّوائف الثَّاني[1]، أعقبه استيلاء الموحِّدين على هذه البلاد، والتهام الممالك المسيحيَّة للكثير من المدن والقلاع والحصون الإسلاميَّة بكافة بلاد الأندلس بالخصوص بالثغر الأعلى.

1-2- استيلاء الموحِّدين على الأندلس:

استولى الموحِّدون على مدن الأندلس تبعًا، حيث بدئوا يتدخلون في شؤون هذه البلاد عندما استفحلت الثورات الداخليَّة على المرابطين خاصة ثورتي المريدين والقُضاة، وقد تنبه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى ضرورة النَّظر في شؤون الأندلس عندما بدأ زعماء ثورتي المريدين والقضاة يلجئون إليه ويتصلون به، وكان أوَّل من اتصل به هو زعيم حركة المريدين أبو القاسم بن قسي، حيث بعث له رسالة حملها له أبا بكر بن حبيس[2] وقد لقب نفسه فيها بالإمام المهدي، ولم يحقِّق هذا الاتصال الغرض المطلوب لتجاهل عبد المؤمن لهذه الرِّسالة[3]، خوفًا من تأثير مهدويته على مهدوية ابن تومرت إمام الموحِّدين وعزوف النَّاس عنها[4]، ويبدو أنَّ ابن قسي لم يكن يؤمن بدعوة الموحِّدين عندما اتصل بالخليفة عبد المؤمن، ولكن القصد

1- ظهر العديد من الأمراء الثائرين على المرابطين، وقد استقل كل واحد منهم بمدينة من المدن، وجعل نفسه أميرًا عليها، منهم لبيد بن عبد الله صاحب شنترين، أبي القمر بن عزُّوز صاحب شريش، وعلي بن عيسى بن ميمون صاحب جزيرة قادس، ومحمَّد بن عليٍّ بن الحجَّام صاحب بطليوس وغيرهم. (انظر: ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص248).

2- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312 .

3- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص251، ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص 312.

4- معمر الهادي محمَّد القرطوطي: **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس (541هـ-629هـ/1146م-1233م)**، دار هومة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 2005م، ص73.

من استنجاده هذا هي إعانته على استعادة نفوذه في شِلب ومارتلة اللّتين استولى عليهما منه سيد راي بن وزير[1] صاحب بطليوس وباجة[2].

ولكن عاد ابن قسي واعتذر من عبد المؤمن وجاز إلى بلاد المغرب للقائه في ربيع الآخر عام 540هـ/أكتوبر 1145م[3]، فاستقبله عبد المؤمن استقبالًا حارًا وأكرم وفادته، وأمده بعسكر وهو أوّل جيش يعبر إلى الأندلس من الموحّدين[4]، وكان عبوره في شهر محرم سنة 541هـ/جوان 1146م، وقد فتح هذا الجيش طريف والجزيرة الخضراء[5].

1- ورد عند ابن صاحب الصلاة باسم سيد راي بن وزير، وقال بأنَّه يكنى أبا محمَّد، ويُسيميه ابن عذارى سدراي بن وزير، بينما ذكره ابن خلدون باسم سدَّراتي بن وزير، وفي نسخة أخرى باسم سدراي بن وزير، واكتفى ابن الخطيب بتسميته بابن وزير. (انظر: **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحّدين)**، تحقيق عبد الهادي التازي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م، ص67، هامش3 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص35 ؛ **العِبر**، ج6، ص312، هامش3 ؛ **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص251).

2- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312 ؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص89.

3- ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص199 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص251 .

4- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص251. (غير أنَّ ابن أبي زرع يذكر أنَّ أوَّل جيش موحدي يعبر إلى الأندلس كان بعد فتح تلمسان سنة 539هـ/1144م، وكان تعداده عشرة آلاف فارس، وقام بفتح مدينة شريش صُلحًا، وكانت أوَّل مدينة يفتحونها بالأندلس ويأخذونها من المرابطين يوم الجمعة أوَّل ذي الحجة سنة 539هـ/25 ماي 1145م، وكان الموحّدون يُسمون أهل شريش بالسَّابقين الأوَّلين، وإذا قدمت وفود الأندلس للسَّلام في كل سنة، فيدخلون على أمير المؤمنين أهل شريش أولًا، فتُقضى حاجاتهم فينصرفون، فحينئذٍ يدخل غيرهم. وأوافق رأي بعض المؤرخين المحدثين الذين قالوا أنَّ إرسال الموحّدين جيشًا إلى الأندلس في هذا الوقت المبكر مستبعد، لأنَّهم كانوا آنذاك بأمس الحاجة لأعداد كبيرة من العساكر لكونهم لم يقضوا على المرابطين قضاءً كاملًا. (انظر: **روض القرطاس**، ص188؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص91-92).

5- ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص199 .

غير أنَّ ابن خلدون يقول أنَّ أوَّل المتصلين بأمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي كان قائد الأسطول المرابطي علي بن عيسى بن ميمون صاحب جزيرة قادس[1]، وقد قَدِم على عبد المؤمن أثناء حصاره لمدينة فاس أوائل عام 540هـ/1145م[2]، وقدَّم إليه طاعته وعاد إلى الأندلس، وخطب للموحِّدين بجامع جزيرة قادس، فكانت أوَّل خطبة للموحِّدين بالأندلس[3].

وأثناء حصار الموحِّدين مرَّاكش في محرم سنة 541هـ/جوان 1146م[4] وفد على عبد المؤمن عدد من زعماء الأندلس الثائرين به، منهم القاضي ابن حمدين، ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي يحكمونها، لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحِّدين، وقد قبل عبد المؤمن منهم هذه البيعة وشكرهم عليها[5].

1- جزيرة قادس (Cadiz) بالأندلس تقع بالقرب من مدينة طالقة من مدن إشبيليَّة، تبعد عن مدينة شلطيش مائة ميل، وعن جزيرة طريف ثلاثة وستون ميلًا، بها مزارع كثيرة الريع، وأكثر مواشيها الماعز. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص265 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص448-449) ؛ (انظر أيضًا: **خريطة رقم2**، ص433).

2- اختلف المؤرخون في تحديد أوَّل من اتصل من أهل الأندلس بالموحِّدين، والظاهر أنَّ ابن قسي كان أوَّل المتصلين عن طريق إرسال رسالة إلى الخليفة عبد المؤمن، وقد سبق الحديث عن هذه الرِّسالة، ولكن يبدو أنَّ صاحب جزيرة قادس علي بن عيسى بن ميمون هو الذي التقى بالأمير عبد المؤمن أولًا، أوائل عام 540هـ/1145م، ثمَّ التقى به ابن قسي في ربيع الآخر عام 540هـ/أكتوبر 1145م. (انظر: ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص251 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص 34-35).

René Millet: **LES ALMOHADES histoire d'une dynastie berbère**, société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, Paris, 1923,p48.

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص 34 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312. (لا شك أنَّ انضمام قائد الأسطول المرابطي علي بن عيسى بن ميمون صاحب جزيرة قادس إلى الموحِّدين، يُعد من أهم الأحداث التي خدمت الموحِّدين وأعانتهم على عبورهم إلى الأندلس). (انظر: دندش عصمت عبد اللَّطيف، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين**، ص104).

4- ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص208 .

5- ابن الأثير ، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص342-343 .

وفي شهر ذي الحجة 541هـ/ماي 1147م[1] وعقب افتتاح الموحِّدين مرَّاكش[2] وفد على الخليفة عبد المؤمن وفد آخر من مدينة إشبيليَّة على رأسه القاضي أبي بكر بن العربي[3] ووجوه بارزة من إشبيليَّة[4] يحملون إليه بيعة أهلها[5]، فأذن لهم بالسَّلام عليه[6]، وتقدَّم القاضي أبو بكر بن العربي وخطب خطبةً بليغةً استحسنها الخليفة عبد المؤمن، ثمَّ تلاه الفقيه أبو بكر بن الجد بخطبة ثانية فأحسن وأجاد، ودفعوا إليه بيعة أهل إشبيليَّة مشهودة بخطوطهم، فقبلها

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص33. (غير أنَّ ابن أبي زرع يذكر بأنَّ الوفد جاء لعبد المؤمن سنة 542هـ/1147م واكتفى ابن سماك العاملي بالقول أنَّ الوفد قَدِم عند عبد المؤمن لمَّا استولى على جميع بلاد المغرب). (انظر: **روض القرطاس**، ص190 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص222-223).

2- استولى الموحِّدين على مرَّاكش يوم السبت الثَّامن عشر شوال 541هـ/22 مارس 1147م. (انظر: ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص210).

3- يعتبر ابن سماك العاملي أنَّ هذا الوفد من أهل إشبيليَّة كان أوَّل الوفود التي وفدت على عبد المؤمن، لكن الصَّحيح أنَّ الوفد الذي كان به القاضي ابن حمدين قد سبق هذا الوفد، وكان لقاؤه بعبد المؤمن أثناء حصار مرَّاكش في محرم سنة 541هـ/جوان 1146م حسب ما يذكر ابن الأثير. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص223 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص342-343).

4- ذكر هذه الوجوه البارزة والمتمثلة في مجموعة من الأعيان والعلماء والقضاة، كلٌ من ابن سماك العاملي وابن عذارى مع اختلافات بسيطة في ذكر أسمائهم، وهي: الخطيب أبو عمرو بن الحجاج، والكاتب أبو بكر بن الجد، وأبو الحسن الزهري، والمؤرخ أبو الحسن بن صاحب الصلاة، وأبو بكر بن شجرة، وولد الباجي، وأبو الحسين الهوزني، ومحمَّد بن القاضي شريح، وعبد العزيز الصَّدفي، وابن السيد ومحمَّد بن الزاهد وعلي بن طالب وغير هؤلاء. (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص223-224 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص33).

5- جاء هذا الوفد بعد حوالي أربعة أشهر من افتتاح الموحِّدين لإشبيليَّة في شعبان سنة 541هـ/جانفي 1147م. (انظر: ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص200 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص33).

6- يذكر ابن عذارى أنَّ لقاءهم بالخليفة عبد المؤمن وسلامهم عليه كان يوم عيد الأضحى من سنة 541هـ/ماي 1147م بينما يذكر ابن أبي زرع أنَّ الوفد وصل إلى مرَّاكش سنة 542هـ/1148م، وبقي ينتظر هناك نحو سنة ونصف للقاء عبد المؤمن، فلم يلتقوا به إلَّا يوم عيد الأضحى سنة 543هـ/أفريل 1149م، وأعتقد أنَّ رأي ابن عذارى هو الأصح، لأنَّ مكوث هذا الوفد ببلاد المغرب مدَّة سنة أمرٌ مستبعد، فكيف يتركون بلادهم الأندلس هذه المدة الطويلة، وهي آنذاك في حالة فوضى واضطراب، ومهدَّدة من قبل النَّصارى، كما أنَّ القاضي أبو بكر بن العربي تذكر أغلب المصادر التَّاريخيَّة أنَّه توفي في الطريق أثناء عودة الوفد إلى الأندلس، وكانت وفاته في مدينة فاس في شهر جمادى الآخرة سنة 542هـ/نوفمبر 1147م. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص33-34 ؛ **روض القرطاس**، ص190 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص224-225).

منهم واستحسن فعلهم[1] وأكرمهم[2]، ثمَّ إنَّ الخليفة سأل ابن العربي عن ابن تومرت هل رآه ولقيه في مجلس أبي حامد الغزالي أم لا ؟ فقال له "لم ألقه، وإنَّما سمعت به، وأنَّ الشَّيخ كان يقول لابدَّ من ظهوره[3]، ثمَّ انصرف الوفد[4] في شهر جمادى الآخرة سنة 542هـ/نوفمبر 1147م[5]، وتوفي القاضي ابن العربي في طريق عودته في نفس الشهر في مدينة فاس ودُفن بها، وهو ابن خمسة وسبعين سنة[6].

وبعد حديثنا عن زعماء الأندلس وثوارها الذين اتصلوا بالخليفة الموحِّدي عبد المؤمن بن علي، وكذلك الوفود التي قدمت من هذه البلاد إلى المغرب لإعلان الولاء والطاعة للموحِّدين والتي كان لها دور فعال في تشجيعهم للقيام بأعمال عسكرية بالأندلس، نتحدث عن كيفية استيلائهم على هذه البلاد.

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص33-34 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص190 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص224 .

2- قال ابن أبي زرع أنَّ الخليفة عبد المؤمن كتب لهم منشورًا بتحرير أملاكهم في إشبيليَّة، ويذكر ابن عذارى أنَّهم انصرفوا من عنده بخير كثير وإنعام كبير، ويقول ابن خلدون والزركشي أنَّ جميع الوفد انصرف بالجوائز والهدايا. (انظر: **روض القرطاس**، ص190 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص33 ؛ **العِبر**، ج6، ص313 ؛ **تاريخ الدَّولتين الموحِّديَّة والحفصيَّة**، تحقيق وتعليق محمَّد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، ط2، 1966م، ص9).

3- ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص244 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص33؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص190 .

4- يذكر ابن عذارى حادثة مروعة حدثت للوفد وهو بمرَّاكش، حيث وشى واشٍ إلى الخليفة عبد المؤمن أن إشبيليَّة والتي فتحها الموحِّدون سنة 541هـ/1147م ارتدت بمن فيها عن الموحِّدين، فهجم الموحِّدون على الدار التي كان بها الوفد وحاصروها ثلاثة أيام، إلى أن وصل الحق ببراءة أهل إشبيليَّة بكتاب الشَّيخ أبي يعقوب بن سليمان من إشبيليَّة، فأطلق سراحهم، ووجه إليهم الخليفة أبا إسحاق بن جامع وعبد الله سليمان معتذرين لهم، وأمر لهم بالزاد الوافر، فأعطى القاضي ابن العربي مائة مثقال ذهبية، ولابن حجاج الخطيب بمثل ذلك، ولسائر الوفد على قدر منازلهم. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص34).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص34. (بينما يقول ابن أبي زرع أنَّ انصرافهم كان في جمادى الآخرة سنة 543هـ/أكتوبر 1148م والأرجَّح قول ابن عذارى). (انظر: **روض القرطاس**، ص190).

6- ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص224-225 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص34 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص313 ؛ الزركشي، **تاريخ الدَّولتين الموحِّديَّة والحفصيَّة**، ص9.

وسبقت الإشارة إلى أنَّ الرِّوايات التَّاريخيَّة تختلف في تحديد تاريخ تدخل الموحِّدين بالأندلس فيذكر ابن الأبَّار وابن عذارى وابن خلدون أنَّه كان سنة 540هـ/1145م[1]، أمَّا تدخلهم العسكري فيرجِّح أنَّه كان في محرم سنة 541هـ/جوان 1146م[2] عندما أرسل عبد المؤمن بن علي جيشًا بقيادة برَّاز بن محمَّد المسوفي[3]، ثمَّ أمد بجيشٍ آخر بقيادة موسى بن سعيد، ثمَّ جيشٍ ثالث بقيادة عمر بن صالح الصَّنهاجي[4]، وكانت مهمة الموحِّدين في شبه الجزيرة أن يقاتلوا المرابطين والثوار المتحالفين مع النَّصارى[5].

لمَّا وصلت هذه الجموع إلى الأندلس استولت أولًا على طريف والجزيرة الخضراء[6]، ثمَّ سارت إلى مدينة شريش[7]، حيث انضم إليهم صاحبها الغمر بن عزون وولده[8]، ثمَّ سار الجيش إلى مدينة لبلة، فأعلن صاحبها يوسف بن أحمد البطروجي الطاعة، وقصد الموحِّدون بعد ذلك

1- ذكر ابن الأبَّار ذهاب ابن قسي في ربيع الآخر عام 540هـ/أكتوبر 1145م إلى المغرب للقاء عبد المؤمن، أمَّا ابن عذارى وابن خلدون فقد ذكروا مقدم قائد الأسطول المرابطي علي بن عيسى بن ميمون صاحب جزيرة قادس في أوائل عام 540هـ/1145م إلى المغرب لمبايعة عبد المؤمن. (انظر: **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص199 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص34-35؛ **العِبر**، ج6، ص312).

2- ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص199 .

3 - يُسميه ابن الخطيب إبراهيم بن برَّاز المسوفي، وقال بأنَّ الخليفة عبد المؤمن بعثه لقتال المرابطين بالأندلس في شعبان سنة 541هـ/جانفي 1147م. (انظر: **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص256).

4- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312. (يذكر ابن عذارى أنَّ ابن قسي زعيم المريدين، عاد إلى الأندلس مع أوَّل جيش أُرسل إليها، والذي كان بقيادة براز بن محمَّد المسوفي، وهذا ما يؤكده ابن الخطيب حينما قال ثمَّ انصرف إلى الأندلس بعسكر الموحِّدين، وهو أوَّل عساكرهم وباكورة تغلبهم. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص35 ؛ **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص251).

5- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص327 .

6- ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص199 . (غير أنَّ ابن عذارى يقول أنَّ الجيش قصد مدينة شريش أولًا وكانت تحت الطاعة). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص35).

7- ذكرنا في السَّابق أنَّ ابن أبي زرع يذكر بأنَّ شريش فتحت سنة 539هـ/1144م صُلحًا، وقلنا بأنَّ فتحها آنذاك مُستبعد. (انظر: **روض القرطاس**، ص188).

8- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص38. (ورد عند ابن خلدون باسم أبو الغمر بن عزرون). (انظر: **العِبر**، ج6، ص312-313).

مدينة مارتلة فاستولوا عليها[1]، ثمَّ قصدوا إلى شِلب وفتوحها وجعلوا ابن قسي واليًا عليها[2]، وساروا بعد ذلك إلى باجة وبطليوس فأطاعهم صاحبها سيد راي بن وزير[3]، فاستولى بذلك الموحَّدون بعد بضعة أشهر على قواعد غرب الأندلس التي كانت بأيدي المريدين[4].

ثمَّ جهز الموحِّدون قوَّاتهم وتوجهوا إلى إشبيليَّة للاستيلاء عليها، وانظم إلى قوَّاتهم زعماء المريدين، ابن قسي وسيد راي بن وزير ويوسف البطروجي وبزَّار بن محمَّد المسوفي كلٌ في قوَّاته[5] واستولت هذه الجموع في طريقها صُلحًا على طلياطة[6]، وحصن القصر[7]، ثمَّ ضربوا الحصار حول إشبيليَّة برًا وبحرًا[8]، ولم يطل أمد الحصار، إذ لم يكن باشبيليَّة سوى حامية مرابطية ضعيفة تدافع في ظروف دقيقة ومن حولها شعب خصيم متربص[9]، وسرعان ما اقتحم الموحِّدون المدينة ودخلوها في يوم الثَّاني عشر من شعبان سنة 541هـ/18 جانفي 1147م[10] وقتلوا من فيها

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص35 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312 .

2- ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص200 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312 .

3- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص312 .

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص328.

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص35.

6- مدينة تقع بغرب الأندلس، جنوبي لبلة، بينها وبين إشبيليَّة عشرين ميلًا، وهي نفس المسافة التي تفصلها عن لبلة. (انظر: الحميري، **الرَّوض المعطار**، ص395).

7- حصن القصر هو معقل من معاقل إقليم الشرف الذي يقع ما بين إشبيليَّة ولبلة والبحر المظلم (المحيط الأطلسي). (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص257).

8- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص343 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص35 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص313 .

9- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص328.

10- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص33 وما بعدها. (غير أنَّ ابن الأبَّار يقول أنَّ افتتاحها كان يوم الثَّالث عشر من شعبان 541هـ/19 جانفي 1147م، في حين اكتفى ابن خلدون بذكر الشهر والسنة وقال فتحت في شهر شعبان 541هـ/جانفي 1147م، واكتفى ابن الأثير بذكر السنة فحسب وقال فُتحت سنة 541هـ/1147م، بينما يرى ابن أبي زرع أنَّه فتحت سنة 540هـ/1146م، وهذا التَّاريخ مُستبعد. (انظر: **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص200 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص342-343 ؛ **العِبر**، ج6، ص313 ؛ **روض القرطاس**، ص189).

من المرابطين، وفرَّ البقية منهم إلى مدينة قرمونة[1]، وكان من بين القتلى عبد الله بن القاضي أبي بكر بن العربي. وكُتب بالفتح إلى عبد المؤمن بالمغرب[2]، ثمَّ قدِّم وفد إشبيليَّة برئاسة القاضي ابن العربي بعد حوالي أربعة أشهر من افتتاحها إلى مرَّاكش يحمل إليه بيعة أهلها في شهر ذي الحجة 541هـ/ماي 1147م[3].

ولكن سرعان ما نقض زعماء هذه المدن التي فُتحت العهد مع الموحِّدين في سنة 542هـ/1148م وثاروا عليهم[4]، فلم يبقى في طاعتهم غير ابن عزون صاحب شريش ورندة[5] فانتهز يحي بن غانية فرصة هذا الاضطراب الذي رتب عن سوء تصرف الموحِّدين، وسخط زعماء غرب الأندلس على حكمهم فبعث قوة من المرابطين تغلبت على الجزيرة الخضراء، واستولت عليها مدَّة من الزمن إلى أن هجم عليها ابن عزون وأخوي ابن تومرت عيسى وعبد العزيز[6]، وابن عمهما يصليتن وافتتحوها وقتلوا من كان بها من لمتونة[7].

وفي خضم هذه الأحداث بادر الخليفة عبد المؤمن إلى بعث جيش من الموحِّدين إلى شبه الجزيرة بقيادة يوسف بن سليمان، وسار إلى لبلة وأخضع في طريقه مدينة طلياطة، ثمَّ

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص35 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص313 .

2- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص313 .

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص33 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص190 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص222-223.

4- تزامن خروج أهل الأندلس على الموحِّدين سنة 542هـ/1148م مع ثورة خطيرة كانت ببلاد المغرب بإقليم تامسنا وأكثر بلاد المصامدة بزعامة الماسي، وهو محمَّد بن هود بن عبد الله، وقيل بأنَّه تسمى بالهادي، وكانت له مع الموحِّدين حروب عظيمة كادت تعصف بدولتهم، ولكن في آخر المطاف هُزم في شهر ذي الحجة عام 542هـ/ماي 1148م. (انظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص190).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص38 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص313 .

6- قام أخويّ ابن تومرت عيسى وعبد العزيز عندما افتتح الموحِّدين إشبيليَّة بأعمال شنيعة، فقد سفكوا الدِّماء ونهبوا أموال النَّاس، وغدت المدينة في ظلمها مسرحًا للفوضى، لهذا ثار أهلها على سياستهم وأعلنوا الثورة على الموحِّدين. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص38).

7- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص313.

استولى على لبلة، ثمَّ انتقل إلى جهة الغرب وأغار على طبيرة ونظرها، وأعلن صاحبها الطاعة[1]، وأعلن علي بن عيسى بن ميمون صاحب شنتمريَّة الغرب وقادس كذلك عودته إلى طاعة الموحَّدين، وحذا حذوه محمَّد بن علي بن الحجام صاحب بطليوس، وأرسل هدايا إلى الخليفة عبد المؤمن فقبلها منه واستحسن منه هذا الفعل[2].

وبعدما استعاد الموحِّدين مدن غرب الأندلس، اتجهت أنظارهم إلى قرطبة التي كانت تحت سيطرة يحي بن غانية، الذي تحالف مع ملك قشتالة ألفونسو السَّابع أوائل سنة 541هـ/1146م[3]، وقد بالغ هذا الأخير في التَّسلط على ابن غانية لقاء حمايته من الموحِّدين حيث طلب أن يسلمه مدينتي بياسة ورندة، فاضطر ابن غانية إلى التَّخلي عنهما، ثمَّ عاد ملك قشتالة فطالبه أن يسلمه قرطبة أو مضاعفة الإتاوة المفروضة عليه[4]، وقال له "إنَّما أنت عاملي عليها وأنا ملَّكتك إياها يوم إخراجي ابن حمدين عنها[5]".

فرفض ابن غانية عرض ألفونسو السَّابع واتصل سرًا بعامل الموحِّدين على إشبيليَّة براز بن محمَّد واجتمعا بمدينة استجة[6]، واتفقا على أن يقوم ابن غانية بتسليم قرطبة وقرمونة

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص39.

2- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص314.

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص332.

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص40 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص314.

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص40.

6- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص314.

للموحّدين[1] ويحتفظ ابن غانية بمدينة جيان، وقد وصله كتاب الخليفة عبد المؤمن بعد هذا الاتفاق فابتهج لذلك وزاده سروره، وقوى في ذات الله عزمه وظهوره[2].

فغادر ابن غانية قرطبة باتجاه غرناطة[3]، فاستغل ألفونسو السَّابع هذه الظروف فهجم على قرطبة فامتلكها من الموحّدين في حدود شهر رجب سنة 543هـ/نوفمبر أو ديسمبر 1448م، غير أنَّه كان احتلالًا قصير الأمد حيث بعث عبد المؤمن جيشًا موحّديًا من المغرب بقيادة أبي زكرياء يحي يومور واجتمع رفقه الجيوش الأندلسيَّة، وقاموا بالزَّحف على قرطبة، ففرَّ ملك قشتالة خوفًا من هذه الجيوش وترك قرطبة فامتلكها الموحّدون في حدود شهر رجب أو شعبان سنة 543هـ/نوفمبر أو ديسمبر 1148م[4].

ولم تمض أشهر قلائل حتَّى احتل الموحّدون مدينة جيان سنة 543هـ/1449م[5]، ثمَّ استولوا على بياسة وأبدة من النَّصارى، وبذلك امتد سلطان الموحّدين إلى أواسط الأندلس، ولم يبق بيد المرابطين سوى مدينة غرناطة التي استطاعوا أن يحتفظوا بها بضعة أعوام أخرى[6]،

1- يبدو أنَّ تسليم قرطبة وقرمونة للموحّدين كان في أوائل سنة 543هـ/1148م وهذا بالنظر إلى صيرورة الأحداث، فالمصادر التَّاريخيَّة لم تذكر تاريخ تنازل ابن غانية عليهما للموحّدين، حيث اكتفت بذكر السنة فقط، وهي 543هـ/1148م. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص41 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص191 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص314).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص41 .

3- غادر ابن غانية إلى غرناطة وهي آخر معاقل المرابطين بالأندلس، في جمادى الآخرة سنة 543هـ/أكتوبر أو نوفمبر 1448م لكي يخبر من بقي بها من المرابطين، ويوضّح لهم اتفاقه مع الموحّدين، ولكنه ما لبث أن توفي بعد شهرين من وصوله وذلك يوم 14 شعبان 543هـ/28 ديسمبر 1148م حسب ابن عذارى، بينما يرى ابن أبي زرع أنَّه توفي يوم الجمعة 24 شعبان 543هـ/7 جانفي 1149م. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص41-42 ؛ **روض القرطاس**، ص191 ؛ ابن خلدون، **العبر**، ج6، ص 314).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص42-43 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص314-315.

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص191. (غير أنَّ أشباخ يقول أنَّ استيلاء الموحّدين على مدينة جيان كان سنة 544هـ/1149م). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص239).

6- عنان، **عصر المرابطين والموحّدين**، ص234-235.

وكذلك مدن شرق الأندلس بلسنيَّة ومرسيَّة التي أصبحت بيد محمَّد بن سعد بن مردنيش[1]، والتي كانت له مواقع وحروب طاحنة مع الموحِّدين[2].

وعملًا على تثبيت حكم الموحِّدين بالأندلس بدعائم قوية، عمد الخليفة عبد المؤمن بن علي في سنة 545هـ/1151م إلى استدعاء شيوخ الأندلس وولاتها لملاقاته بمدينة سلا[3]، وقد اجتمعت هذه الوفود في إشبيليَّة وتحركوا منها في 15 ذي الحجة سنة 545هـ/4 أفريل 1151م وجازوا البحر، ووصلوا إلى مدينة سلا[4]، وكان عددهم حوالي خمسمائة فارس من الخطباء والفقهاء والقضاة والأشياخ والقواد، فاستقبلهم وزراء الموحِّدين استقبالًا جيدًا[5]، ثمَّ دخلوا على الخليفة عبد المؤمن بعد ثلاثة أيام من وصولهم في يوم الجمعة أوَّل محرم سنة

1- هو أبو عبد الله محمَّد بن سعد الجُذامي بن مردنيش، أو مرذنيش، وهو المشهور بابن مردنيش، تنسبه الرِّوايات الإسلاميَّة إلى قبيلة جُذام العربية، وتقول أنَّ والده سعد كان أميرًا على إفراغة في عهد المرابطين، أمَّا بعض الباحثين المحدثين فينسبونه إلى أصل رومي (بيزنطي) ويقولون أنَّ اسم جده مردنيش ليس اسمًا عربيًا ممَّا ينفي نسبه إلى جُذام، وقد يكون مردنيش دخل في ولاء بعض الجُذاميِّين وانتسب إليهم، واقترحوا أن يكون أصل الاسم (Martinas) أو (Mardonius). وقد كان محمَّد بن سعد بن مردنيش في هيئته ولباسه وسلاحه أقرب إلى النَّصارى، وعلاقته مع ملوكهم كانت جيدة. ثار بشرق الأندلس وامتلك مرسيَّة وبلنسيَّة وأحوازها، ويعتبر من أخطر وأكبر الثائرين على الموحِّدين بالأندلس، فلم يتمكنوا من القضاء عليه إلَّا بشق الأنفس في عهد الخليفة الثَّاني أبا يعقوب يوسف، حينما حاصروه في مرسيَّة، فتوفي تحت الحصار في العاشر رجب عام 567هـ/6 مارس 1172م وله ثمانية وأربعون عامًا. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص65 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232-233، هامش1 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص259 وما بعدها ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص146-147 ؛ سيمون الحايك: **ابن مَردنيش أو المُوَحِّدُون**، الطبعة البوليسيَّة، لبنان، 1993م، ص33 وما بعدها).

2- ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص259

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص 192 ؛ بن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص43 .

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص43.

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص192.

546هـ/20 أفريل 1151م وبايعوه على الولاء والطاعة وأظهروا حسن نواياهم في نصرة الموحِّدين[1].

وقد تخلف عن البيعة ابن قسي وشيوخ بلده شِلب، ولم يحضر من ينوب عنه، **ممَّا** أفسد العلاقة بين الطرفين، وقد التجأ ابن قسي إلى النَّصارى، وبعث إلى ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز يناشده التَّحالف والمعاونة، وعندما علم أهل شِلب بهذا الأمر سخطوا عليه وقتلوه في جمادى الأولى سنة 546هـ/سبتمبر 1151م ونصبوا مكانه لرئاستهم أبا الوليد بن منذر فأعلن ولائه بعد مدَّة إلى الموحِّدين[2].

2- أوضاع الممالك المسيحيَّة:

بعد وفاة ألفونسو المحارب ملك أراغون إثر هزيمته في موقعة إفراغة سنة 528هـ/ 1134م[3]، تحولت زعامة الممالك المسيحيَّة بالأندلس إلى ملك قشتالة ألفونسو ريمونديز (ألفونسو السَّابع) الذي لُقب بلقب "القيصر" في اجتماع عُقد في مدينة ليون في 27 أوت 529هـ/10 جوان 1135م، وقد حضر هذا الاجتماع أكابر الأشراف ورجال الدِّين من جميع أنحاء قشتالة وملك نافارا وسُفراء قطلونية وأراغون والبرتغال[4].

1- ابن عذارى **البيان المغرب**، ج5، ص44-45 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص192.

2- ابن الخطيب، **تاريخ اسبانية الإسلاميَّة** ، ص251-252.

3- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص287 ؛ ابن القطان، **نُظم الجمان**، ج9، ص247-248 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج4، ص93-94 .

4- قاد أشراف المملكة القيصر ألفونسو السَّابع من القصر الملكي إلى الكنيسة الكبرى، حيث كان رئيس الكنيسة الإسبانيَّة ريموند مطران طليطلة وجميع الأحبار في انتظاره، وهناك وضع التاج في رأسه، والصولجان في يده. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص185).

وقد اشتهر هذا الاجتماع بما صدر فيه من قرارات، وكان أهمها تطبيق القوانين والحقوق البلدية في جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها، وترتب عن هذا القرار إلغاء بعض الامتيازات التي انتزعها بعض الأشراف لأنفسهم دون حق، كذلك أعيد إلى الكنائس والأديار ما نزع منها خلال الحرب الأهلية من الامتيازات، كما تقرَّر إصلاح الأماكن المخربة، وأهم قرار يخص حركة الاسترداد المسيحي بالأندلس هو إنشاء نوع من الجند الاحتياطي من سكان الحدود مع المسلمين بحيث يحشد فيه كل رجل قادر على حمل السّلاح وذلك للعمل على ردِّ غارات المسلمين على بلادهم[1].

وقد جنح أمراء النَّصارى في الأعوام الأولى لتتويج ألفونسو السَّابع قيصرًا على اسبانيا إلى الخضوع والطاعة، ولكنهم لمَّا آنسوا قوتهم، وأجمعوا أمرهم أخذوا يحاولون تحطيم نير التَّبعيَّة الثقيل إلى قشتالة، وتحقيق استقلالهم من جديد، ولم يبق على ولائه منهم سوى أمير قطلونية رامون برنجير الثَّالث نظرًا لمصاهرته للقيصر ألفونسو السَّابع[2]، وهو مع ذلك يأمل أن يكون أكثر هؤلاء الأمراء حصولًا على الامتيازات والنفوذ عند ألفونسو السَّابع[3].

ومن حسن حظ ألفونسو السَّابع أنَّ ملك أراغون راميرو الثَّاني[4]، الذي كان من رجال الدِّين، لم يصطدم معه في حروب طاحنة، وهذا رغم العداء الشديد والتَّقليدي بين مملكتي

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين،** ج1، ص185-186 .

2- علاقة المصاهرة كانت بزواج ألفونسو السَّابع من الأميرة برنجيلا ابنة أمير قطلونية، رامون برنجير الثَّالث سنة 522هـ/1128م. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين،** ص501).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين،** ج1، ص186-187 .

4- هو أخ ألفونسو المحارب، عيَّنه رجال الدِّين والأشراف ونواب الرعية ملكًا على أراغون، لمَّا توفي أخوه سنة 528هـ/1134م ولم يترك ولدًا بعده، وكان راميرو الثَّاني انتظم في سلك الكهنوت قبل ذلك بأكثر من أربعين عامًا، وعاش راهبًا ثمَّ أسقفًا، فلم تكن لديه خبرة في شؤون الحكم، فرفض أهل نافارا حكمه، فعينوا غارسيا راميرايز حفيد الملك سانشو ملكًا عليهم، فانقسمت بذلك مملكة أراغون ودبَّ الضعف فيها، والأرجَّح أنَّ راميرو الثَّاني توفي سنة 542هـ/1147م وقيل 550هـ/1155م. (انظر:أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين،** ج1، ص176 وما بعدها).

أراغون وقشتالة، لكونه لجأ إلى سكون الدّير واعتزال شؤون الحكم سنة 531هـ/1137م، حيث سلَّم حكم أراغون إلى خطيب ابنته بترونيلا، كونت قطلونية رامون برنجير الرَّابع، وقد تمَّ اختياره كزوج مستقبلي لابنته بترونيلا التي لم تتجاوز الثَّانيَّة من عمرها في اجتماع عُقد في بربشتر، لما اتصف به من رفيع المواهب والخلال[1].

وعلى اعتبار أنَّ رامون برنجير الرَّابع هو صهر ألفونسو السَّابع[2]، فقد كانت العلاقة بينهما طيبة تميل إلى الموادعة والسِّلم[3]، فبذلك ضمن ألفونسو السَّابع، السَّلام مع إمارة قطلونية ومملكة أراغون معًا.

فتفرغ ألفونسو السَّابع لحرب ملك نافارا غارسيا الرَّابع وأمير البرتغال ألفونسو هنريكيز اللَّذين أبديا منذ البداية معارضةً شديدةً لتوليه زعامة اسبانيا المسيحيَّة رغم تظاهرهما في البداية بالموافقة على زعامته هذه، وقد عقد غارسيا الرَّابع وألفونسو هنريكيز حلفًا، وشهرا الحرب معًا على القيصر ألفونسو السَّابع سنة 531هـ/1136م[4]، ففتحت بذلك الحرب على مصراعيها على ألفونسو السَّابع، فقد كان يقاتل ملك نافارا وأمير البرتغال معًا.

فبالنِّسبة إلى مملكة البرتغال بغرب الأندلس والتي يحكمها الأمير ألفونسو هنريكيز، فمنذ أن عقد الحلف مع ملك نافارا غارسيا الرَّابع سنة 531هـ/1136م وهو يحاب ملك قشتالة

1- اشترط في الخطبة أنَّه إذا توفيت بترونيلا قبل عقد الزواج، فإنَّ خطيبها يرث عرش أراغون بعد وفاة راميرو الثَّاني. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص188).

2- ذكرنا سابقًا أنَّ ألفونسو السَّابع تزوج مع الأميرة برنجيلا، أخت رامون برنجير الرَّابع سنة 522هـ/1128م، وهما ولدا رامون برنجير الثَّالث أمير قطلونية. (انظر: عنان، **عصر المرابطين والموحّدين**، ص501).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص189.

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد الرابطين والموحّدين**، ج1، ص254.

القيصر ألفونسو السَّابع، وقد استغل مسير هذا الأخير لحرب مملكة نافارا، وقام بالزَّحف على جليقيَّة وافتتح مدينة "توى" وعدَّة مواضع أخرى وهذا في أوائل سنة 531هـ/1137م[1].

ثمَّ جمع الجليقيون قوَّاتهم واصطدموا مع البرتغاليّين في موضع يُسمى "سرنيزا" ورغم أنَّ الجليقيّين قاتلوا بمنتهى الشَّجاعة، وضرب قادتهم أروع الأمثال في الجرأة والبسالة، إلَّا أنَّهم انهزموا في آخر المطاف، وأحرز ألفونسو هنريكيز نصرًا باهرًا، غير أنَّه لم يستطع أن يجني ثمرة نصره، حيث وصلته الأنباء بأنَّ المسلمين عاثوا في مناطق الحدود وافتتحوا مدينة ليريني، وقتلوا قسمًا من حاميتها، فارتد مسرعًا إلى قلمرية لمحاربة المسلمين، ولكن المسلمين كانوا قد انصرفوا إلى أراضيهم واكتفوا بما حازوه من غنائم[2].

وعاد ألفونسو هنريكيز بسرعة إلى جليقيَّة، ولكن جيوش القيصر ألفونسو السَّابع كانت قد جمعت صفوفها واستطاعت ردَّه على أعقابه، فعاد أدراجه إلى بلاده، ولكن الحرب استمرت بينهما سجالًا، حيث اتجه ألفونسو السَّابع بنفسه لغزوِّ أراضي البرتغال ووضع حد لعدوان ملكها وعندما اقترب جيشه من حدود البرتغال حدثت معارك ومناوشات كثيرة بين الجيشين المتحاربين وقد هلك خلالها الكثير من الفرسان من الفريقين، فبدأ التَّفكير في عقد تسوية للخلاف بالحسنى حيث بعث ألفونسو هنريكيز رسله إلى القيصر يطلب الصلح، فقبل هذا الأخير الصلح[3]، وأقسم الأشراف من الفريقين على مراعاة شروط الصلح، والتي تتمثل في تبادل

1- عاونه على الاستيلاء على مدينة توى الكونت جومز نونيز، والكونت رودريك بيريز الثائران على القيصر ألفونسو السَّابع واللَّذين أقسما يمين الطاعة لملك البرتغال ألفونسو هنريكيز. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص254 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص502).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص254-255.

3- يذكر أشباخ أنَّ الدافع من وراء الصلح هو الخوف من أنَّ طول الحرب بينهما يُمكِّن المسلمين من القيام بغزوات ناجحة في أراضي قشتالة والبرتغال، بينما يرى عنان أنَّ ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز سارع لعقد الصلح لأنَّه كان يعاني يومئذٍ من اشتداد ضغط المسلمين على أراضيه، وتوالي غزواتهم المخربة فيها، أمَّا ألفونسو السَّابع فقد عقد الصلح كضرورة مؤقتة أملتها الظروف القاهرة، وأنَّه سوف ينقضه عاجلًا أو آجلًا. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_1$، ص255-256 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص504).

الأسرى بين الجانبين وعلى إعادة الحدود بين المملكتين كما كانت في آخر عام من حكم الملكة تيريزا أم ألفونسو هنريكيز[1] ويذكر عنان أنَّه من شروط الصلح، تعهد ألفونسو هنريكيز أن يكون صديقًا مخلصًا للقيصر ألفونسو السَّابع، وأن يحترم أراضي إمبراطوريته، وأن يعاونه في غزواته سواءً ضدَّ المسلمين أو النَّصارى، ويؤكد بأنَّ نصوص هذا الصلح تبين أنَّ البرتغال أضحت تحت حماية قشتالة[2].

ويذكر أشباخ أنَّ ألفونسو السَّابع وألفونسو هنريكيز اجتمعا معًا في خيمة واحدة، وقبَّل كل منهما الآخر، وأكلا وشربا معًا، ثمَّ عاد كل منهما إلى عاصمته في أمن وسلام، وهكذا انتهت الحرب بين قشتالة والبرتغال وذلك سنة 532هـ/1138م[3].

ولكن عندما تلقَّب أمير البرتغال ألفونسو هنريكيز في حدود عام 533هـ/1139م بقلب ملك البرتغال[4] عاد النِّزاع بينه وبين ألفونسو السَّابع، هذا الأخير رفض أن يعترف به ملكًا على البرتغال، ولكنه لم يحاول إخضاعه بالسَّيف لأنَّه كان مشغولًا بحرب المسلمين والنافارين، وقد اكتفى بإرسال رسولًا إلى البابا أنوسان الثَّاني يخطره بأنَّه لا يوافق على اتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك، فبعث البابا رسولًا إلى اسبانيا النَّصرانيَّة ليبحث موضوع النِّزاع، واستغرقت المفاوضات في هذا الشأن أعوامًا، لكن بدون نتيجة تذكر، رغم اقتراح السفير على

1- أشباخ ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص256.

2- **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص504. (بينما يرى أشباخ أنَّ الطرفان لم يتفقا على نقطة الخلاف الجوهريَّة التي أثارت هذا النِّزاع وهي مسألة سيادة قشتالة على البرتغال). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص256).

3- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص265. (غير أنَّ عنان يقول أنَّ الصلح وقع بين الطرفين في مدينة توى في أكتوبر 531هـ/جويلية 1137م. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص504).

4- يذكر أشباخ أنَّه تلقب بهذا اللَّقب عقب انتصاره في معركة أوريك على المسلمين يوم 20 نوفمبر 533هـ/25 جويلية 1139م. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص257 وما بعدها).

ألفونسو السَّابع أن يعترف بالبرتغال كمملكة، على أن يعترف ألفونسو هنريكيز مقابل ذلك بخضوعه لسيادة قشتالة كتابع لها[1].

وقد سمح البابا لألفونسو هنريكيز أن يتسمى بالملك، ولكنه لم يصادق على استقلال مملكته، أمَّا القيصر ألفونسو السَّابع فقد رفض كلا الأمرين واستمر في تهديد البرتغال بالحرب ولكن ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز لم ينتظر موافقة البابا والقيصر على مشروعه للحصول على استقلال مملكته، بل وضع الاتفاق مع شعبه ممثلًا في الطبقات الثلاث، في المجلس الذي عُقد في لاميجو[2] سنة 537هـ/1143م، لائحةً اتخذت من ذلك الحين أساسًا لدستور البرتغال، وقد نصت على العديد من القوانين أهمها استقلال البرتغال عن قشتالة، وإعلان ألفونسو هنريكيز تلقبه بلقب ملك البرتغال، وبذلك حصلت البرتغال على استقلالها، وتخلصت من التبعية إلى قشتالة[3] وتفرغ ملكها لحرب المسلمين من أجل الاستيلاء على مدنهم وحصونهم وقلاعهم المتاخمة لبلاده.

وبالنِّسبة لحرب ألفونسو السَّابع مع مملكة نافارا، فقد سار بنفسه في جيش ضخم لمحاربة الملك غارسيا راميريز وقد ساعده في ذلك صهره أمير قطلونية وأراغون رامون برنجير الرَّابع الذي كان يشدِّد الخناق على نافارا من الجنوب، وقد استطاع ألفونسو السَّابع أن يخترق نافارا ظافرًا سنة 534هـ/1139م[4]، وأن يصل إلى عاصمتها بنبلونة دون كبير مقاومة، وأن يضرب

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص259-260.

2- لاميجو: يعني البرلمان (cortes). (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص260).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص260، وما بعدها عدَّة صفحات).

4- نُشير إلى أنَّ الحرب بدأت بين ملك قشتالة ألفونسو السَّابع وملك نافارا غارسيا راميريز منذ سنة 531هـ/1136م وكانت الحرب بينهما سجالًا، فقد أثخن ألفونسو السَّابع في أحواز مملكة نافارا في سنة 531هـ/1136م وحاصر القلاع وبدا كأنَّ النَّصر يحالفه، ولكنه لم يغنم شيئًا لأنَّه لم يفتتح الحصون، واضطر إلى ترك نافارا لأنَّ القوَّات البرتغاليَّة كانت تتقدم نحو جليقية، كما أنَّ ملك نافارا أبدى همةً وحزمًا كبيرًا في حرب ألفونسو السَّابع وحليفه رامون برنجير الرَّابع، واستفاد من وعورة تضاريس أرضه. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص187-188 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص505).

حولها الحصار في الحال، وقد انتظر ألفونسو السَّابع قدوم قوَّات حليفه رامون برنجير الرَّابع لكي تُساعده في الاستيلاء على بنبلونة، ولكن خُطط الملك غارسيا البارعة منعت جيش رامون برنجير الرَّابع من الوصول إلى بنبلونة حيث وقَّعوا به هزيمة شديدة، فاضطر الحليفان إلى فك الحصار على مملكة نافارا عند دخول فصل الشتاء من سنة 534هـ/1139م[1].

وعندما همَّت الحرب أن تندلع بين الطرفين في سنة 534هـ/1140م سعى ملك نافارا غارسيا لدى رجال الدِّين للتدخل في عقد الصلح بينهما، واستطاع هؤلاء أن يحملوا القيصر ألفونسو السَّابع على وقف الحرب وإعلان السَّلام بينهما، ولتوطيده أكثر تمَّ عقد مصاهرة بين المملكتين، حيث تمَّ عقد زواج أكبر أولاد القيصر وولي عهده سانشو مع الدونا سانشا ولية عهد نافارا وهكذا سوى النِّزاع بين قشتالة ونافارا[2].

ولكن سرعان ما دبَّت الحرب بين مملكة أراغون[3] حليفة القيصر ألفونسو السَّابع ومملكة نافارا، وكانت حربًا ضروسًا مالت فيها الكفة في آخر المطاف إلى غارسيا ملك نافارا حيث استولى على مدينة طركونة سنة 538هـ/1143م، فاضطر القيصر ألفونسو السَّابع وحليفة رامون برنجير الرَّابع للتدخل لقتال العدوِّ المشترك، وهنا تذرَّع غارسيا بالحكمة وبادر بالتَّسليم والخضوع للقيصر وأوقف الحرب على أراغون وأعاد إليها الأماكن التي استولى عليها، وقد توطَّد

1- انسحب الحليفان ألفونسو السَّابع ورامون برنجير الرَّابع من حصار مملكة نافارا وعاصمتها بنبلونة، في خجل شديد، وهما يعتزمان محو عار هذه الحملة الفاشلة في العام التالي بإحراز نصر باهر على عدوِّهم. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص189-190).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص189-190 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص506.

3- يذكر أشباخ أنَّ مملكة أراغون التي كانت تحت وصاية أمير قطلونية رامون برنجير الرَّابع لم ترض بهذا الصلح، حيث نقم الأراغونيِّين على القيصر أنَّه لم يحسب لهم حسابًا وعقد الصلح بمفرده مع العدوِّ المشترك، كما أنَّهم مازالوا يتطلعون إلى القضاء على مملكة نافارا والاستيلاء عليها بالسَّيف. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص 190).

الصلح أكثر فأكثر بين الطرفين وذلك بزواج غارسيا من الدونا أوراكا ابنة القيصر غير الشَّرعيَّة، واحتفل بعقد الزواج في ليون يوم 14 ديسمبر 538هـ/24 جون 1144م في منتهى البذخ[1].

وبذلك تنتهي الحرب بين مملكتي قشتالة ونافارا فأخذ القيصر ألفونسو السَّابع وحلفائه في التَّفكير وبشكل جدي في حرب المسلمين بالأندلس، هذه الحرب التي لم تهدأ حتَّى في خضم هذه الحروب الطاحنة بين الممالك المسيحيَّة.

وتعاظمت في تلك الأثناء حروب الاسترداد المسيحي بالأندلس وكثرت الهجمات على بلاد المسلمين، خاصةً من قِبل ملك قشتالة القيصر ألفونسو السَّابع، وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، وقد استغلوا فترة ضعف دولة المرابطين بالأندلس، وظهور الثورات الداخليَّة على الحكم المرابطي وهي الفترة التي عُرفت بعصر الطَّوائف الثَّاني.

فقد شنَّ ألفونسو السَّابع سلسلةً من الغزوات على أراضي المسلمين، محاولًا انتزاع ما يمكن انتزاعه من قواعد الحدود، ومن بين هذه الغزوات تلك التي حدثت بعد استيلاء المرابطين بقيادة والي إشبيليَّة الزبير بن عمر على قلعة مورة المنيعة الواقعة جنوبي طليطلة وذلك في سنة 533هـ/1139م[2]، فقد حشد ألفونسو السَّابع جيشًا ضخمًا وحاصر بنفسه قلعة قورية مدى شهرين حتَّى سقطت في يده في نوفمبر 536هـ/جوان 1142م وذلك بعد أن رد عنها جيشًا من المسلمين قدم لإنجادها[3]، وبعد أن يئست حاميتها المسلمة من تلقي أية نجدة[4]. وتذكر

1- حضر حفل الزواج القيصر ألفونسو السَّابع وأعضاء الأسرة الملكية وأشراف قشتالة ونافارا، وقد ضمَّ الحفل جميع ضروب اللَّهو التي كانت معروفة في ذلك العصر، من موسيقى ومبارزات ومصارعات وغيرها. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص190-191 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص506).

2- ابن القطان، نُظم الجمان، ج10، ص266. (غير أنَّ أشباخ وعنان يقولان أنَّ استيلاء المرابطين على قلعة مورة كان سنة 534هـ/1140م). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص192 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص506).

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص192.

4- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص506-507.

بعض الرِّوايات أنَّ النَّصارى ساقوا خلالها عشرة آلاف من أسرى المسلمين إلى طليطلة، كما أرسل ألفونسو السَّابع في نفس الوقت حاكم طليطلة رودريك فرنانديز على رأس جيش إلى وادي يانة فعاث في أحواز قرطبة وطليطلة[1].

وفي عام 537هـ/1143م قام حاكم قلعة مورة السَّابق، مونيو ألفونسيز[2] بغزو أراضي الأندلس ناحية قرطبة وأحرز نصرًا باهرًا على قوَّات إشبيليَّة وقرطبة، وسقط واليهما شهيدان، كما استشهد عدد كبير من المسلمين، واستولى القشتاليون على كثير من الغنائم والأسرى[3]، وعادوا إلى بلادهم، فاستقبل مونيو ألفونسيز استقبال الفاتحين الرُّومان، ورُفع رأسا واليا قرطبة وإشبيليَّة على رمحين وطيف بهما في شوارع طليطلة، ثمَّ عُلقا أمام القصر الملكي وفقًا للتَّقاليد الشَّرقيَّة[4].

وقد أثارت هذه الهزيمة جزعًا كبيرًا في قلوب المسلمين فعزموا على الردِّ عليها، وانتهزوا فرصة قدوم القيصر ألفونسو السَّابع بجيشه إلى قلب الأندلس لغزو قرمونة وإشبيليَّة، فاتجه جيش من المسلمين بقيادة والي قلعة رباح ناحية قشتالة، فعاثوا في نواحيها، فتقدَّم مونيو ألفونسيز

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص192 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص506.

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص192. (يُسميه عنان، نونيو ألفونسو). (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص507).

3- لم تذكر المصادر الإسلاميَّة هذه الموقعة، بل ذكرتها المصادر والمراجع النَّصرانيَّة، ونقلتها المراجع الحديثة. (انظر: أشباخ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص192 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص507).

4- يذكر أشباخ أنَّ القيصرة برنجاريا زوجة القيصر ألفونسو السَّابع، لم تُطق المنظر المروع عندما عُلق رأس القائدين المسلمين في القصر الملكي، فأمرت بغسل الرأسين ووضعهما في حرزين ثمينين وإرسالهما إلى زوجتي القائدين ليدفنا بالتَّكريم اللائق، ويبدو أنَّه لم يتم إرسالهما كما أمرت، لأنَّ أشباخ يذكر أن المرابطين انتصروا بعد هذه الموقعة بقليل على القشتاليِّين فأرسلوا جثة مونيو ألفونسيز إلى القشتاليِّين لكي يسلموا بالمقابل رأسي القائدين المسلمين. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص192-193).

بجرأة ودون تحوط لقتال هذا الجيش الذي يفوقه عددًا، فلقي مصرعه وهزم جيشه[1]، ففصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده، وأرسلت إلى قرطبة وإشبيليَّة لكي تُعرض على أرملتي الواليين القتيلين تعزيةً لهما، ثمَّ أرسلت بعد ذلك إلى أمير المسلمين تاشفين بن علي في مرَّاكش[2]، دليلًا على تنفيذ أوامره، والانتقام من هزيمة المسلمين السَّابقة، وباقي الجثة أرسلت إلى القشتاليِّين مقابل إرسال رأسي الواليين المسلمين نزولًا على تقاليد الفروسيَّة، وعُلِّقت رؤوس أكابر النَّصارى فوق أرفع أبراج قلعة رباح عنوانًا بالنَّصر المبين[3].

وقد حزن ألفونسو السَّابع حزنًا بليغًا لفقد قائده الباسل مونيو ألفونسيز، فأقسَّم بأن ينتقم لموته، فسار في قوَّاته إلى الأندلس في العام التَّالي 538هـ/1144م وأثخن في أحواز قرطبة وإشبيليَّة وانتسف الزروع، وأحرق القرى، ووصل في سيره المخرب حتَّى أراضي قرمونة وغرناطة والمريَّة، والتجأ المسلمون اللَّذين استطاعوا النجاة إلى الحصون، وعاد القيصر مثقلًا بالغنائم والأسرى[4].

1- يذكر عنان أنَّ مونيو ألفونسيز قُتل فوق تلٍ قريب يُسمى صخرة الوعل. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**،ص507).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص193 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص507 .

3- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص193 .

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص193-194 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص507.

واستمرت غزوات ألفونسو السَّابع لبلاد المسلمين في الأندلس، وكان أعظم إنجاز حقَّقه في تلك الفترة هو الاستيلاء على مدينة المريَّة[1]، وكان ذلك بعد أن نظَّم حملة صليبية ضخمة، شاركت فيها معظم ممالك إسبانيا المسيحيَّة والمتمثلة في مملكة قشتالة وأشتوريش ونافارا وأراغون وقطلونية وجليقيَّة، كما شاركت فيها جمهوريتي جنوة وبيزة، وكذلك صاحب مونبلييه[2].

وقد بدأت هذه الجيوش الصَّليبيَّة الضَّخمة بمحاصرة المريَّة برًا وبحرًا في حدود شهر ربيع الأوَّل سنة 542هـ/أوائل شهر أوت 1147م، ودام حصارها حوالي ثلاثة أشهر، وعظم الخطب بأهلها، حيث لم يُنجدهم الموحِّدين ولا حتَّى ابن مردنيش والي مرسيَّة وبلسنيَّة، فاستولى عليها النَّصارى في آخر المطاف عنوةً، في حدود شهر جمادى الأولى سنة 542هـ/أكتوبر 1147م[3].

ثمَّ استولى النَّصارى على ما بقي من مدن الثغر الأعلى، فقد قام الكونت رامون برنجير الرَّابع أمير قطلونية وحليف القيصر ألفونسو السَّابع بتجهيز حملة صليبيَّة من جنود قطلونيَّة وأراغون وبيزة وجنوة، واتجه صوب طُرطوشة وأطبق عليها الحصار مدَّة ستة أشهر، حيث بدأ الحصار في شهر صفر 543هـ/جويلية 1148م، وانتهى بسقوطها في 16 شعبان

1- يذكر المرَّاكشي أنَّ أهل المريَّة ثاروا على المرابطين وأخرجوهم من المريَّة، فقدَّموا على أنفسهم رجلًا منهم، اسمه عبد الله بن محمَّد، المعروف بابن الرميمي فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النَّصارى، بينما تذكر بعض المراجع العربية الحديثة أنَّ المريَّة كانت تحت حكم ابن مردنيش والي بلنسيَّة ومرسيَّة، غير أنَّ أشباخ يقول أنَّ المريَّة لم تكن تحت سلطة ابن مردنيش بل كانت تحت حكم جماعة من القرصان المسلمين اللَّذين أسَّسوا بها إمارة مستقلة. (انظر: **المُعجب**، ص147 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ص234 ؛ معمر الهدي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص82).

2- يذكر أشباخ أنَّ ألفونسو السَّابع قدَّم إلى الجنويِّين والبيزيِّين ثلاثين ألف قطعة من الذهب لتجهيز السفن لمحاصرة المريَّة بحرا. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المربطين والموحِّدين**، ص234).

3- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، ص347-348 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المربطين والموحِّدين**، ج1، ص234-235 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص508. (يذكر المرَّاكشي أنَّ النَّصارى لما دخلوا المريَّة قتلوا أهلها وسبوا نسائهم وبنيهم ونهبوا أموالهم). (انظر: **المُعجب**، ص147).

543هـ/31 ديسمبر 1148م[1]، وقد اضطر أهلها للتَّسليم بعد أن فقدوا كل أمل في المدد من قِبل ابن مردنيش أمير بلنسيَّة ومرسيَّة[2].

واستولى أيضًا أمير قطلونية رامون برنجير الرَّابع على باقي المدن التي بيد المسلمين على ضفاف نهر إيبرو، ففي حدود شهر جمادى الأولى 544هـ/أكتوبر 1149م استولى على لاردة وإفراغة[3]، ويذكر ابن الأثير أنَّه لم يبقى في تلك الجهات من مدينة أو حصن أو قلعة إلَّا واستولى عليها النَّصارى[4]، وبالتالي فقد استولوا أيضًا على مكناسة وحصن أُقليش وغيرها من القلاع والحصون المجاورة لهما، وبذلك تنتهي سيادة المسلمين في الثغر الأعلى[5].

وبالنِّسبة إلى غرب الأندلس فقد كان لملك البرتغال ألفونسو هنريكيز غزوات عديدة على بلاد المسلمين مستغلًا بدوره، انقسام المسلمين بظهور الثورات على دولة المرابطين، وكذلك لعدم تمكن الموحِّدين آنذاك من ترسيخ أقدامهم بشكل جيد بهذه البلاد، كما استغل

1- اكتفى ابن الأثير وابن الخطيب وابن خلدون بذكر سنة سقوط طُرطوشة بيد النَّصارى وهي 543هـ/1148م، دون ذكر تفاصيل أخرى عن كيفية سقوطها، أمَّا أشباخ فقد تحدث بشيء من التَّفصيل عنها. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص357 ؛ **الإحاطة**، مج2، ص126 ؛ **العِبر**، ج6، ص314 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص236-237 ؛ **العِبر**، ج6، ص314).

2- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص86-87.

3- يذكر ابن الأثير أنَّ استيلاء النَّصارى على لاردة وإفراغة كان سنة 543هـ/1148م، في حين يذكر ابن خلدون أنَّهما سقطتا سنة 542هـ/1147م، بينما تذكر المراجع المسيحيَّة وكذلك المراجع العربيَّة الحديثة أنَّها سقطت بيد النَّصارى في جمادى الأولى سنة 544هـ/أكتوبر 1149م. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص357 ؛ **العِبر**، ج6، ص314 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص237 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص508).

4- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص357.

5- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص126 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص508.

فرصة السِّلم والصلح مع ملك قشتالة ألفونسو السَّابع[1]، وإعلان استقلال البرتغال بعد سنة 537هـ/1143م وأخذ يشن غارةً تلوى الأخرى على مدن غرب الأندلس.

وقد استغل ألفونسو هنريكيز اشتغال الموحِّدين في الاستيلاء على إشبيليَّة أواخر سنة 541هـ/أوائل عام 1147م، واشتغال ملك قشتالة ألفونسو السَّابع وباقي الممالك النَّصرانيَّة بمهاجمة مدينة المريَّة في ربيع الأوَّل سنة 542هـ/أوت 1147م، وجهز حملة عسكريَّة وهاجم شنترين بمساعدة فرسان الدَّاويَّة واستولى عليها في شوال 541هـ/15 مارس 1147م[2].

وقد مهَّد الاستيلاء على شنترين لألفونسو هنريكيز السبيل لمهاجمة أشبونة، والتي كان يهددها مررًا وتكرارًا ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها لأنَّه لا يملك أسطولًا يطوقها من ناحية البحر، وكان من حسن طالع ألفونسو هنريكيز أن رست في ذلك الوقت بالذات عند مصب نهر دويره، زهاء مائتي سفينة من سفن الصَّليبيِّين[3] لتتزود بالمياه العذبة، ثمَّ أرغمتهم الظروف الجويَّة على البقاء في أماكنهم، ففاوضهم ألفونسو، ووافقوا على مساعدته، رغبة منهم في الحصول على الغنائم الضَّخمة، وتلبيةً لنداء دينهم في مقاتلة المسلمين وما يقترن به من ثواب[4].

وتمَّ بذلك محاصرة المدينة برًا وبحرًا، حيث حاصرت سفن الصَّليبيِّين أشبونة من البحر لمنع وصول الإمدادات إليها، وحاصرها ملك البرتغال بجيشه برًا، وبدأ حصار المدينة في 22 محرم 542هـ/28 جوان 1147م واستمر الحصار أربعة أشهر دافع خلالها المسلمون دفاع

1- شغلت الأوضاع الداخليَّة للممالك النَّصرانيَّة خاصةً ما يتعلق بعقد المصاهرات والحفلات الملوكية المتواليَّة وكذلك الحروب بين مملكة قشتالة وأراغون ونافارا، القيصر ألفونسو السَّابع فترة قصيرة عن متابعة غزواته لأراضي المسلمين بالأندلس، فهو منذ أن قام سنة 546هـ/1151م بغزوِّ مدينة جيان ونهبها وقد كانت يومئذٍ بيد الموحِّدين، لم يعد إلى مهاجمة المسلمين إلَّا في سنة 550هـ/1155م وذلك حينما نجح في الاستيلاء على أندوجر وحصن البطروج. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص511).

2- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص84.

3- كان الصَّليبيون ما بين انجليز وهولنديون وألمان. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص236).

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص235-236 .

الأبطال لكن المدينة نبضت مواردها[1]، فاقتحمها الأعداء في 19 جمادى الأولى 542هـ/21 أكتوبر 1147م وكان سقوطها بعد أيام قلائل من سقوط المريَّة[2].

كان سقوط أشبونة في يد ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز فتحًا عظيم الأهميَّة لمملكته حيث استطاعت أن تنتزع من المسلمين مفتاح نهر التاجة، ومن ضفافه كانت تشن الغزوات على أراضي المسلمين، فتعاظمت في تلك الفترة حروب الاسترداد المسيحي على بلاد الأندلس.

ثانيًا- عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي:

1- استيلاء الموحّدين على المريَّة:

بعد أن أحكمت القوَّات الموحِّديَّة سيطرتها على مدن غرب ووسط وجنوب الأندلس وبالخصوص بعد استيلائهم على غرناطة سنة 551هـ/1156م[3]، أصرَّت على استرجاع المريَّة من أيدي النَّصارى، لكونهم كانوا يهدِّدون البحريَّة الإسلاميَّة التي كانت تجوب شواطئ المغرب

1- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص85.

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص236. (اكتفى ابن خلدون بذكر تاريخ استيلاء النَّصارى على أشبونة وقال في سنة 542هـ/1147م ولكن دون ذكر أية تفاصيل عن كيفية استيلائهم عليها). (انظر: **العِبر**، ج6، ص314).

3- استولى الموحّدين على غرناطة وهي آخر معاقل المرابطين بالأندلس، وهذا بعدما تنازل واليها المرابطي ميمون بن بدر اللَّمتوني عنها للموحّدين سنة 551هـ/1156م وطلب العفو، فحصل على الأمان من الخليفة عبد المؤمن فأصبح بذلك ابنه أبا سعيد عثمان، واليًا على غرناطة ومالقة وسبتة والجزيرة الخضراء. (انظر: ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص416 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص196 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص317 ؛ عبد الحميد حسين أحمد السامرائي، **تاريخ الجهاد الإسلامي في الأندلس**، دار شموع الثقافة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، 2003م، ط1، ص204).

الأوسط والأقصى وجنوب الأندلس، ووجد الموحِّدون الفرصة سانحةً بعد استيلائهم على غرناطة للقضاء على هذا الخطر[1].

ولأجل ذلك أمر الخليفة عبد المؤمن ابنه أبو سعيد عثمان والي غرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء بالمسير إلى المريَّة وحصارها برًا وبحرًا فتقدَّم أبو سعيد بجيشه لمحاصرة المريَّة برًا، يُدعمه أسطول سبتة بقيادة عبد الله بن سليمان من ناحية البحر[2]، فحوصرت المدينة من البر والبحر وأطبق عليها الخناق، ويذكر ابن عذارى أنَّ الموحِّدين في بداية الحصار أغاروا على باب المريَّة وقتلوا من النَّصارى عددًا كثيرًا ورجعوا من غارتهم إلى حصن برجة (Berja) القريب من المريَّة[3]، وعسكروا فيه، وفرَّ النَّصارى إلى داخل المدينة وتحصنوا بقصابتها[4].

فاستمر الموحِّدون في حصار المدينة، وضربوها بالمناجيق[5]، ويذكر ابن الأثير أنَّ الموحِّدين عسكروا على الجبل المشرف على مدينة المرية، وقاموا ببناء سور يمتد من الجبل إلى البحر، وحُفر أمامه خندقًا، فصارت بذلك المدينة محصورة بالسور والخندق، ولا يمكن لمن يريد نجدتها الوصول إليها[6].

1- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص101 .

2- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص416.

3- وقد بادر أهل حصن برجة للقاء الموحِّدين، وقالوا لهم إنَّ النَّصارى بقصبة المريَّة في عدد قليل، فعسكر عبد المؤمن بهذا الحصن يجمع فيه الجيوش ويستكمل الاستعدادات. ويبدوا أنَّ هذه المعلومات المهمَّة التي أعطاها أهل حصن برجة شجعت الموحِّدين على مواصلة الحصار. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص55-56).

4- عبد الحميد حسن أحمد السمارائي، **تاريخ الجهاد الإسلامي في الأندلس**، ص205.

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص56 .

6- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص416 .

ولمَّا ساءت أحوال المُحاصَرين داخل المدينة استغاثوا بملكهم ألفونسو السَّابع الذي لبى النِّداء، وأقبل باثني عشر ألف فارس، وانضم إليه حليفه محمَّد بن سعد بن مردنيش والي مرسيَّة وبلنسيَّة بستة آلاف فارس[1] من المسلمين[2].

فاضطر أبو سعيد عثمان إلى طلب الإمدادات من والده الخليفة عبد المؤمن فبعث إليه الوزير الكاتب أبي جعفر أحمد بن عطية[3]، مع ابنه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[4]، الذي ندبه لولاية إشبيليَّة[5]، فأصبح جيش الموحِّدين ضخمًا، فلم يستطع ألفونسو السَّابع وابن مردنيش دخول المريَّة وفك الحصار عليها، فاضطرا إلى الرَّحيل عنها خائبين[6]، لعدم قدرتهما على مواجهة الجيوش الموحِّديَّة، وتركا المدينة لمصيرها المحتوم، ولقد توفي ألفونسو السَّابع في طريق عودته وقبل أن يصل إلى طليطلة سنة 552هـ/1157م[7].

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص416-417. (لم يذكر ابن عذارى وابن خلدون عدد هذه الجيوش التي جاءت لنجدة المريَّة). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص56 ؛ **العِبر**، ج6، ص317).

2- كان لوقوف ابن مردنيش ضدَّ أبناء ملته ودينه حافزًا للنَّصارى لمواجهة المسلمين، حيث يستطيعون بذلك ضرب قوة المسلمين ببعضها، وتكون الخسارة في صفوفهم أضعاف ما يتكبده النَّصارى. (انظر: معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص101).

3- جاء عن ابن خلدون باسم الوزير أبو حفص بن عطية. (انظر: **العِبر**، ج6، ص317).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص56 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص317.

5- يذكر ابن عذارى كيفية تولية أبي يعقوب يوسف لإشبيليَّة حيث قال أنَّ أشياخ إشبيليَّة عندما جاءوا إلى مرَّاكش لملاقاة عبد المؤمن سنة 551هـ/1156م رغبوا في سيد يرجع معهم إليها ويستندون إليه في مصالحها، فطلب ابن الجد أن يسند الأمر إلى أبي يعقوب يوسف، فقال لهم عبد المؤمن أنَّه صغير، فقالوا بل هو كبير، فأسعفهم في ذلك، وبعثه معهم أميرًا على إشبيليَّة. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص56).

6- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص417 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص56 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص244.

7- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص417. (بينما يذكر ابن عذارى أنَّ الأمر عظم على ألفونسو السَّابع لعدم قدرته على إنقاذ المريَّة من الموحِّدين فتوفي متأثرًا بذلك سنة 551هـ/1157م، ويقول أشباخ أنَّه هدمته الشيخوخة والإعياء فاضطر أن يعود إلى وطنه صفر اليدين، وأنَّه توفي أثناء عودته في مضيق مورادال على حدود طليطلة متأثرًا فيما يظهر بحزنه لما أصابه من الفشل وكانت وفاته في السَّابع رجب 552هـ/21 أوت 1157م وهو في الثَّالثة والخمسين). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص56 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص244).

أمَّا الموحِّدين فقد استمروا في حصار المريَّة، وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحصار استسلم أهلها بعدما ضاقت بهم السُبل، حيث طلبوا الأمان من الوالي أبو سعيد عثمان، فأمنهم وتسلَّم المدينة في ذي الحجة سنة 552هـ/جانفي 1158م، بعد عشر سنوات من احتلال النَّصارى لها[1].

وبعد الانتهاء من فتح المريَّة عاد ابن عطية الذي كان له فضل كبير في إقناع نصارى المريَّة لعقد الصلح مع الموحِّدين[2]، رفقة أبي يعقوب يوسف إلى إشبيليَّة وقاما بغزوٍّ مدينة طبيرة بغرب الأندلس، حيث حاصرها الموحِّدون برًا وبحرًا مدَّة شهرين وفي آخر المطاف اتفقا مع صاحبها ابن الوهيبي على الصلح، بحيث يحتفظ هذا الأخير بالمدينة، مقابل أن يذكر اسم الخليفة عبد المؤمن في الخطبة، واستولى الموحِّدون خلال هذه الغزوة على شِلب ومارتلة، وباجة وأحوازها[3].

وبذلك أعلن الموحِّدون للأمم المسيحيَّة وغيرها نشوء دولتهم الفتيَّة، ليحسب لها ألف حساب، فقد كان لتدخلهم في الأندلس مِثل الأثر الذي كان لتدخل المرابطين فيها، حيث بدئوا يضطلعون بدورهم في التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي[4].

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص416-417. (غير أنَّ ابن عذارى وابن خلدون يقولان أنَّ استرجاع الموحِّدين لمدينة المريَّة كان سنة 551هـ/1157م، بينما يقول ابن أبي زرع أنَّ استرجاعها كان سنة 546هـ/1151م وهو تاريخ مستبعد جدًا وقول ابن الأثير هو الأرجَّح). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص55-56 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص31 ؛ **روض القرطاس**، ص194).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص194 .

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص56-57 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص317.

4- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص102.

2- عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس:

2-1- ظروف وأسباب العبور:

لمّا تمكن الخليفة عبد المؤمن من الاستيلاء على كامل بلاد المغرب الإسلامي، وهذا بإسقاط دولة بني حماد سنة 547هـ/1152م[1] بالمغرب الأوسط وبإجلاء النورمان من المغرب الأدنى سنة 555هـ/1160م[2]، وأصبحت دولة الموحّدين بذلك تمتد من حدود برقة شرقًا حتّى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) غربًا، بالإضافة إلى بلاد الأندلس الإسلاميَّة، شرع في الإعداد للمشروع العسكر الضَّخم الذي كان ينوي تنفيذه، وهو الدخول إلى بلاد الأندلس والقضاء على الممالك المسيحيَّة[3].

وقبل جوازه للأندلس لغرض الجهاد وصدِّ حركة الاسترداد المسيحي، طلب الخليفة عبد المؤمن بناء مدينة جبل طارق وتحصينها[4]، لكي تكون معسكرًا موحّديًا في الأندلس تنطلق منه الجيوش، وقد شرع في بناءها في التَّاسع ربيع الأوَّل سنة 555هـ/19 مارس 1160م، وكمَّل بناءها في شهر ذي القعدة 555هـ/نوفمبر 1160م[5].

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص194 .

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص64 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص232-233 ؛ البيذق: **أخبار المهدي بن تومرت**، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، ط2، 1986م، ص115-116.

3- عبد الحميد حسين أحمد السامرائي، **تاريخ الجهاد الإسلامي في الأندلس**، ص205-206 .

4- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ الخليفة عبد المؤمن طلب من ابنيه أبا يعقوب يوسف والي إشبيليَّة وأبا سعيد عثمان والي غرناطة بتنفيذ مشروع البناء، بينما يذكر ابن سماك العاملي أنَّ الخليفة عبد المؤمن أمر ببناء حصن في جبل طارق، وقد اختط رسمه بيده، وتولى بناءه أبو سعيد عثمان والي غرناطة والحاج يعيش المهندس، وقد صنع بأعلى الجبل رحى تطحن الأقوات. (انظر: **المن بالإمامة**، ص92 وما بعدها ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص234).

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص199.

وعندما تمَّ بناء مدينة جبل الفتح، شرع عبد المؤمن في العبور إلى الأندلس وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة 555هـ/ نوفمبر 1160م[1]، وقد كان جوازه بعد أن فرغ من غزوته لإفريقيَّة وفتحه للمهديَّة[2]، وقد انتقل من افريقية إلى طنجة[3]، ثمَّ عبر إلى الأندلس في جموع عظيمة، وكان عبوره هذا يومًا مذكورًا مشهورًا، احتشد فيه جمع هائل من النَّاس لا يحصيهم إلَّا خالقهم[4] لرؤية موكب الخليفة وجيشه، ويصف ابن صاحب الصلاة ذلك بقوله "وكان يومًا مذكورًا مشهورًا ظهر فيه من فخامة الملك والأمر، ما لم يتقدم في سالف الأزمان ولا تخيل مرآه في الأذهان[5]".

وعند نزوله جبل طارق أتته وفود الأندلس من كل جهة ومكان[6]، يتقدم هذه الوفود ولداه أبو يعقوب يوسف والي إشبيليَّة، وأبو سعيد عثمان والي غرناطة، معهم أعيان الأندلس ووجهائها وقضاتها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من جميع مدن الأندلس التي بحوزة الموحِّدين آنذاك[7].

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص92 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص69 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص265. (اكتفى ابن سماك العاملي بذكر سنة العبور وهي 555هـ/1160م دون ذكر الشهر، بينما يذكر ابن أبي زرع أنَّ عبوره كان في شهر ذي الحجة سنة 555هـ/ديسمبر 1160م، وينفرد المرَّاكشي بالقول بأنَّ العبور كان سنة 538هـ/1144م وهو تاريخ مستبعد جدًا، والأرجَّح ما أثبتاه في المتن). (انظر: **الحُلل الموشيَّة**، ص234 ؛ **روض القرطاس**، ص200 ؛ **المُعجب**، ص159).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص92 .

3- يذكر ابن أبي زرع أنَّ الخليفة جاز إلى الأندلس من طنجة، بينما يذكر المرَّاكشي أنَّ جوازه كان من سبتة. (انظر: **روض القرطاس**، ص200 ؛ **المُعجب**، ص149).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص92 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص69 .

5- **المن بالإمامة**، ص92.

6- ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص234.

7- يذكر المرَّاكشي أنَّه اجتمع في حضرة الخليفة بجبل الفتح من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العُدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله، ويذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذارى بعض القضاة والعلماء منهم قاضي إشبيليَّة أبي بكر الغافقي والشَّيخ الحافظ أبي بكر بن الجد وغيرهما. (انظر: **المُعجب**، ص149 ؛ **المن بالإمامة**، ص93-94 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص69).

وقد ندب الخليفة ولده الوزير أبو حفص عمر[1] لكي يتولى أمر الوفود، ويقودها إلى مجلسه للسَّلام عليه وتجديد البيعة، وتقبيل اليد المباركة[2]، فدخلوا على ترتيب وتأديب، وأدوا التَّحية للخليفة الموحِّدي، وأكدوا له البيعة والطاعة، وقد خطب بعض القضاة في حضرة الخليفة خطبًا تدور كلها حول وجوب البيعة والطاعة لولي الأمر[3].

ثمَّ أمر الخليفة عبد المؤمن باستدعاء الشعراء[4]، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك، إنَّما كانوا يستأذنون فَيُؤْذَنُ لهم[5]، وقد أنشده الكثير من شعراء المغرب والأندلس بقصائد بليغة، فيها الكثير من المدح والثناء على الخليفة عبد المؤمن وأولاده، فكان أوَّل من أنشده الشاعر محمَّد بن حبوس الفاسي[6] في قصيدة أجاد فيها، أورد المرَّاكشي منها بيتين وهما:

بلغ الزمانُ بِهَدْيكُم ما أَمَّلا وتعلَّمتْ أيَّامُه أن تعدلا

وبحسبهِ أن كان شيئًا قابلًا وَجَدَ الهدايةَ صورةً فتشَكَّلا[7]

1- هو عمر بن عبد المؤمن بن علي الكومي، شقيق يوسف، استوزره والده بعد قتل وزيره عبد السَّلام بن محمَّد الكومي وبقي في هذا المنصب إلى غاية وفاة والده، ثمَّ تولى الحجابة لأخيه يوسف وقاد له الجيوش أيضًا، وكانت وفاته سنة 575هـ/1179م. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص116 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص216، هامش1).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص94.

3- ومن بين هؤلاء الخطباء، الخطيب أبو الحسين بن الإشبيلي، وأبو محمَّد بن جبل، وأبو محمَّد المالقي. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص94-95).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص95 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص69 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص149 .

5- المراكشي، **المُعجب**، ص 149.

6- هو أبو عبد الله محمَّد بن حبُّوس من أهل مدينة فاس، كانت طريقته في الشعر على نحو طريقة محمَّد بن هاني الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة، إلَّا أنَّ محمَّد بن هاني كان أجود منه طبعًا وأحلى مَهْيَعًا، وكان زمن المرابطين مقدَّمًا في الشعراء، وعندما تغير عنه المرابطين فرَّ إلى الأندلس مستخفيًا عنهم ينتقل من بلد إلى آخر، ولمَّا قامت دولة الموحِّدين، لازم الخليفة عبد المؤمن وولده أبي يعقوب يوسف ونال منهما ثروةً وجاهًا. (انظر: المرَّاكشي، **المُعجب**، ص149).

7- **المُعجب**، ص193.

كما أنشده رجلٌ من أهل إشبيليَّة يُعرف بابن سيِّد ويُلقب باللصِّ، بقصيدة خير ما مَدَح به، أورد المرَّاكشي منها بيتين وهما:

غَمِّضْ عن الشمس واستقْصِر مَدَى زُحَلِ   وانظُر إلى الجبلِ الراسي على جَبَلِ

أَنَّ استَقرَّ بـه، أَنَّ استقـلَّ بـه   أَنَّ رأى شخصَه العالي، فلم يَزُلِ[1]

كما أنشده العديد من الشعراء بقصائد كثيرة أوردها ابن صاحب الصلاة، وابن عذارى والمرَّاكشي وابن سماك العاملي وابن الخطيب[2].

وقد سمى الخليفة عبد المؤمن جبل طارق، جبل الفتح[3] وأقام به شهرين[4] ابتنى به قصورًا عظيمةً[5]، أحدهم للخليفة، وابتنى به جامع، ودور لأبنائه وحاشيته، وغُرست الحدائق على طول المدينة محاذيةً للبحر، وجُلب إليها الماء العذب، وجُدِّد الحصن والأسوار القديمة، وعنى بتحصين الصخرة أكمل عناية[6].

1- يذكر المرَّاكشي أنَّ ابن سيِّد عندما أنشد قصيدته على عبد المؤمن قال له "لقد ثقَّلْتَنا يا رجُل، فأمر به فأُجلس. (انظر: **المُعجب**، ص151).

2- عن هذه القصائد. (انظر: **المن بالإمامة**، ص95 وما بعدها ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص69 وما بعدها ؛ **المُعجب**، ص149 وما بعدها ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص234-235 ؛ **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص265 وما بعدها).

3- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص149 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص234 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص200.

Kenza Homman Loudiyi, Abdellah El Ghazouani: **AL-ANDALUS ombres et lumière**, Afrique Orient, Maroc, 2014, p172.

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص200. (غير أنَّ المرَّاكشي يذكر أنَّ الخليفة عبد المؤمن أقام بجبل الفتح أشهرًا، دون تحديد عددها بدقة). (انظر: **المُعجب**، ص149).

5- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص149 .

6- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص381 .

وبالعودة للحديث عن أسباب هذا العبور، والذي يتمثل أساسًا في الجهاد في سبيل الله وصدِّ حركة الاسترداد المسيحي بالأندلس، خصوصًا وأنَّ دولة الموحِّدين كانت فتيةً ولم تُحكم قبضتها بالأندلس، فأراد عبد المؤمن أن يوطِّد دعائم دولته بالقضاء على خطر النَّصارى، وكذلك ثورات أهل الأندلس خاصةً ابن مردنيش وصهره ابن هَمُشْكُ[1] حليفا النَّصارى بشرق الأندلس.

ويدعي المستشرق ميراندا بأنَّ عبد المؤمن خلال هذا العبور لم يكن مدفوعًا بنية الجهاد، ذلك لأنَّ حملته على إفريقيَّة كانت طويلةً وشاقةً، كما كان على دراية بشجاعة وإمكانيات أعدائه في شبه الجزيرة، لذا انتقاله إلى الأندلس في ذلك الوقت بالذات حسب ادعائه لسببين، أولهما تدارس الخطة التي يجب إتباعها ضدَّ الأعداء في الأندلس والإمكانيات اللازمة لنجاحها، وثانيهما الإطلاع على أعمال البناء في جبل طارق[2].

وأرى أنَّ رأي ميراندا يجانب الصواب، وكانت نية الجهاد ومحاربة النَّصارى موجودة عند عبد المؤمن منذ البداية، والدَّليل على ذلك أنَّ الخليفة عبد المؤمن اصطحب معه خلال عبوره

1- هو إبراهيم بن محمَّد بن مفرَّج بن هَمُشْكُ، وهو المعروف بابن هَمُشْكُ، نسبةً إلى جده ذي الأصل الرومي، الذي أسلم على يد أحد ملوك بني هود بسرقسطة، وكان مقطوع الأذنين، وكان معروف بالشجاعة إذا رآه النَّصارى في الحرب عرفوه، وقالوا هَمُشْكُ، أو ها مُشْكُ، وتكتب بالإسبانيَّة (Hamusco) وأصلها بالقشتاليَّة (He mochico) ومعناها ها هو المقطوع أو المصاب، وأمَّا مقطوع الأذن فهي بالقشتاليَّة (El desorejado). وقد كان إبراهيم دليلًا بالأرض وفارسًا نجدًا، وجبَّارًا، قاسيًا، فضًّا، غليظًا، عظيم الجرأة والعبث بالخلق، يُحَرِّقُهم بالنار ويطرحهم من الشواهق، خدم النَّصارى، وتقرب إلى ابن غانية بقرطبة، وسافر رسولًا بين ابن حمدين وبين ملك قشتالة، ثمَّ اتصل بصهره ابن مردنيش وتحالف معه فعظم شأنُّه بالأندلس. أخرجه الموحِّدون من غرناطة وأعطوه الأمان، وأخذوه إلى مرَّاكش أوائل عام 571هـ/1175م ثمَّ أُسكن مدينة مِكناسة وقد هلك بها بعد مدَّة قصيرة. (انظر: ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج$_1$، ص296 وما بعدها).

2- **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات الزمن، المغرب، ط$_2$، 2015م، ص188-189. (أرى أنَّ الإطلاع على أعمال البناء في جبل طارق هي من الأسباب الثانويَّة لعبور عبد المؤمن إلى الأندلس).

هذا جموعًا عظيمةً من عساكره[1] فمّن المستحيل أن يذهب إلى بلاد الأندلس دون جيش كونها مهدَّدة من النَّصارى والمتحالفين معهم من ثوار المسلمين، كما أنَّ الخليفة بعث خلال تواجده بجبل الفتح ثمانية عشر ألف فارس من عسكره إلى أرض العدوّ[2].

كما يذكر ابن أبي زرع أنَّ الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما كان بجبل الفتح أمر بغزوّ بلاد غرب الأندلس، فخرج إليها الشَّيخ عبد الله بن أبي حفص من قرطبة في جيش كثيف من الموحِّدين، ففتح حصن أطرانكش من أحواز بطليوس، وقتل جميع من كان به من النَّصارى، وجاء ألفونسو هنريكيز[3] ملك البرتغال لإغاثته فوجده قد فُتح، فقصد الموّحدون لقتاله فهُزم وقُتل من عسكره ستة آلاف رجل، وساق المسلمون السبي إلى قرطبة وإشبيليَّة[4].

كما يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّه أثناء إقامة الخليفة عبد المؤمن في جبل الفتح، وصلت من جهة جيان سرية من النَّصارى لتستطلع الأخبار، فأمر الخليفة بالهجوم عليهم، فعزوهم الموحِّدون وسبوهم، فزادت الخيرات والمسرَّات في معسكر الموحِّدين[5].

ويذكر ابن عذارى أنَّ أمير المؤمنين عبد المؤمن بعث عسكرًا جرارًا إلى بلاد العدوِّ برسم الغزوّ، وقدَّم على أهل المغرب ابن الشَّرقي وعلى الأندلسيِّين ابن صناديد فوصلوا إلى فحص

1- ذكر المرَّاكشي أنَّه جمع جموعًا عظيمةً خلال عبوره دون أن يوضح نوعية هذه الجموع، ولكن المؤكد أنَّ أكثرها كانت عساكر وجنود. (انظر: **المُعجب**، ص149).

2- ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص234، (لم يذكر ابن سماك العاملي وجهة هذه العساكر).

3- يُسميه ابن أبي زرع ألفنش، وهذا اللَّقب كما هو معروف لُقِّب به ألفونسو السَّابع (ريموندیز) ملك قشتالة ولكن آنذاك كان ألفونسو السَّابع قد توفي منذ ثلاث سنوات في عام 552هـ/1157م حسب ما يذكر ابن الأثير وابن عذارى وأشباخ وقد قسمت مملكته بين ولديه، وقد شغلتهم حروبهم فيما بينهم على حرب المسلمين، وأرى أنَّ ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال هو الذي جاء لردِّ هذه الغزوة التي كانت سنة 555هـ/1160م على اعتبار أنَّ حصن أطرانكش الذي يقع بأحواز بطليوس وهي بغرب الأندلس كان بحوزته ملك البرتغال، الذي امتلك الكثير من حصون وقلاع ومدن المسلمين المتاخمة لمملكته. (انظر: **روض القرطاس**، ص200 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، مج9، ص417 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص56 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص244).

4- **روض القرطاس**، ص200.

5- **المن بالإمامة**، ص111.

بلقون[1] فوجدوا طاغية الرُّوم[2]، قد استعد للقائهم فالتقى معهم فكان بين الفريقين حرب ضروس نصر الله فيه المسلمين على أعدائهم، وكانت هزيمة للنَّصارى لم يعهد مثلها. وعندما عاد العسكر إلى جبل الفتح وجدوا الخليفة قد عاد إلى بلاد المغرب[3].

ويذكر أيضًا ابن صاحب الصلاة وابن عذارى أنَّ عبد المؤمن خلال عبوره هذا كان يريد أن ينظر كيف يكون غزو الرُّوم والمحاربين في نواحيها[4]، وهذا دليل آخر على وجود نية الجهاد عند الخليفة عبد المؤمن.

وهناك أسباب أخرى لعبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس، وتتمثل في تنظيم شؤونها وإصلاح أحوالها وتعيين الولاة في أقاليمها، وقد أكدَّ ذلك المرَّاكشي حينما قال "وأقام عبد المؤمن بجبل الفتح مرتبًا للأمور، ممَّهدًا للمكلة، وأعيان البلاد يفيدون عليه في كل يومٍ إلى أن تمَّ له ما أراده من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس[5]. كما يذكر ابن الخطيب أهم الأعمال التي قام بها عبد المؤمن خلال عبوره هذا حيث قال "قام الخليفة بإصلاح أحوال الأندلس والنَّظر في مُهمَّاتها وحَسْمِ عِلَّاتها، وقدَّم أولاده بقواعد الأندلس[6]. وقد أقرَّ على إشبيليَّة ولده أبي يعقوب يوسف وترك معه بها من أشياخ الموحِّدين وذوي الرأي والتَّحصيل

1- جاء في حاشية كتاب ابن عذارى نقلًا عن ميراندا أنَّ هذا الفحص غير معروف. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص70، هامش141).

2- لم يذكر ابن عذارى من يقصد من ملوك النَّصارى بقوله طاغية الرُّوم. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص70).

3- **البيان المغرب**، ج5، ص70 .

4- **المن بالإمامة**، ص92 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص69.

5- **المُعجب**، ص156 .

6- **تاريخ اسبانية الإسلاميَّة**، ص268 .

منهم من يرجع إليه في أموره ويعوِّل عليه فيما ينويه، كما أقرَّ ولده أبو سعيد عثمان على غرناطة، وولى قرطبة وأعمالها وزيره وولده أبو حفص عمر[1].

وبعد فراغه من هذه الأعمال عاد الخليفة عبد المؤمن إلى المغرب بعد أن مكث بجبل الفتح شهرين[2]، وكانت عودته في شهر محرم سنة 556هـ/جانفي 1161م[3]، ووصل مرَّاكش عاصمة دولته في شهر ربيع الأوَّل سنة 556هـ/مارس 1161م[4].

وقد ترك قبل عودته إلى بلاد العُدوة، بالأندلس عساكر كثيرة[5] لكي تغزو النَّصارى وتتصدى لزحفهم الجارف على بلاد المسلمين، ويؤكد ذلك المرَّاكشي في قوله ثمَّ كرَّ عبد المؤمن راجعًا إلى مرَّاكش بعدما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلًا ورجالًا من المصامدة والعرب[6] وغيرهم من أصناف الجند[7].

1- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص156-157. (غير أنَّ ميراندا يقول أنَّ ولده أبو حفص عمر عيَّنه إلى جانب أخيه أبو سعيد عثمان والي غرناطة، بحكم أنَّها كانت أكثر تعرضًا للخطر من إشبيليَّة. (انظر: **التاريخ السِّياسي للإمراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص189.

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص200.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص111.

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص73.

5- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص111.

6- يذكر ابن صاحب الصلاة والمرَّاكشي أنَّ الخليفة عبد المؤمن حينما أراد العبور استنفر أهل المغرب عامَّةً، فكان فيمن استنفرهم العرب، لكي يكونوا من جملة أجناده وأعوانه، فاستجاب له منهم جمع ضخم، وقد شاركوا في غزوِّ النَّصارى بالأندلس، وحينما عاد إلى المغرب ترك بعضهم في قرطبة وبعضهم في نواحي إشبيليَّة لكي يستعين ولاتهم بهم. (انظر: **المن بالإمامة**، ص111- 112 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص175 وما بعدها).

7- **المُعجب**، ص157.

2-2- الصراع بين الموحِّدين وابن مردنيش حليف النَّصارى:

استولى الموحِّدون على بلاد الأندلس بأسرها ما عدا الإقليم الشرقي منه، حيث عارض أمراء هذا الإقليم فكرة الوحدة مع المغرب وأعلنوا استقلالهم بإماراتهم، وأهمهم محمَّد بن مردنيش[1] الذي استولى على حكم مرسيَّة وبلنسيَّة والمدن لمجاورة لهما، ودخل في صراع شديد مع الموحِّدين مستعينًا عليهم بالنَّصارى الذين أقام معهم علاقات حسنة[2].

وكان استيلاء ابن مردنيش على مرسيَّة وبلنسيَّة بعد مقتل واليهما عبد الرَّحمان بن عياض[3] حيث استشهد بسهم رُمي به في بعض حروبه مع النَّصارى يوم الجمعة 22 ربيع الأوَّل سنة 542هـ/21 أوت 1147م[4]، وقد عهد بالإمارة قبل وفاته لصهره ابن مردنيش الذي كان آنذاك واليًا على بلنسيَّة بعهدٍ منه[5]، فملك بذلك ابن مردنيش مرسيَّة في أواسط شهر جمادى

1- توفيق مزاري عبد الصَّمد: **النَّشاط البحري بالمغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحِّدين**، منشورات دار الثقافة حسن الحسني، شيكو للطِّباعة والنَّشر، المدية الجزائر، 2010م، ص109.

2- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص260.

3- كان من صُلحاء أمه محمَّد صلى الله عليه وسلم وخيارهم، وكان مجاب الدعوة، وأرقَّ النَّاس قلبًا وأسرعهم دمعًا، حفظ في مدته شرق الأندلس من عدوان النَّصارى، حيث انتشر له من الهيبة في صدورهم ماردَّهم عن البلاد، وكانوا يَعُدُّونَهُ وحده بمائة فارس، إذ رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض، هذه مائة فارس. (انظر: المراكشي، **المُعجب**، ص146-147).

4- ابن الأبار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232.

5- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص121. (يذكر المرَّاكشي أنَّ ابن عياض لمَّا حضرته الوفاة، اجتمع عليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له إلى من تُسند أمورنا وبمن تشير علينا ؟ وكان له ولد، فأشاروا به عليه، فقال إنَّه لا يصلح لأنِّي سمعت أنَّه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة، فإن كان ولا بُدَّ فقدِّموا عليكم هذا، وأشار إلى محمَّد بن سعد بن مردنيش فإنَّه ظاهر النجدة كثير الغَناء، ولعلَّ الله أن ينفع به المسلمين. ولم يجزم ابن الأبَّار بأمر العهد بالإمارة لابن مردنيش، فيذكر أنَّ أهل مرسيَّة علموا بعهد ابن عياض له فبايعوه، وقيل بأنَّه نصَّبه أهلها دون عهد). (انظر: **المُعجب**، ص147 ؛ **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232).

الأولى سنة 542هـ/ أكتوبر 1147م، وكذلك بلنسيَّة وإقليم شرق الأندلس، فعظم أمره، وذاع صيته واستقامت له الأمور بهذا الإقليم[1].

وأقام ابن مردنيش علاقات حميمة مع الممالك النَّصرانيَّة فاستقوى بها على الموحِّدين أبناء ملته، ففي أوت 543هـ/جانفي 1149م عقد اتفاقًا مع جمهورية جنوة اقتضت أن يدفع لها عشرة آلاف دينار مرابطي كل عامين، كما كان يدفع إتاوة لجمهورية بيزا في بعض السنين[2]، وإتاوة إلى كونت برشلونة رامون برنجير الرَّابع مقدارها مائة مثقال حَشميَّة خلال أربعة سنوات[3]، وإتاوة أخرى إلى ملك قشتالة ألفونسو السَّابع حيث كان يُقدِّم له في كل سنة خمسين ألف مثقال من الذَّهب[4]، نظير تحالفهم معه ضدَّ الموحِّدين، وكانت بينه وبين هنري الثَّاني ملك انجلترا مراسلات ومهاداة[5]، وعلى ضوء هذه العلاقات الجيدة مع ملوك النَّصارى لقَّبه البابا بلقب صاحب الذكر الحميد[6].

والملفت للنظر أنَّ هذه العلاقات الحميمة مع ملوك النَّصارى لم تشفع لابن مردنيش بأن يكون في سلام تام معهم، حيث كان هؤلاء يتحينون الفرص للاستيلاء على حصونه وقلاعه ومدنه المتاخمة لحدودهم، والدَّليل على ذلك استيلاء كونت برشلونة رامون برنجير الرَّابع

1- ابن الخطيب، **تاريخ اسبانية الإسلاميَّة**، ص260 ؛ ابن الأبار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232-233.

2- ابن الأبار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232-233، هامش1، معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص103.

3- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص260. (وأورد ابن الخطيب أيضًا بأنَّ ابن مردنيش كان يدفع لصاحب برشلونة الكونت رامون برنجير الرَّابع في كل سنة خمسين ألف مثقال، بينما يورد حسين مؤنس في حاشية كتاب الحُلة السِّيراء لإبن الأبَّار أنَّه كان يدفع لكونت برشلونة إتاوة مقدارها مئة مثقال من الذهب، وعندما توفي هذا الكونت سنة 563هـ/1168م تعهَّد ابن مردنيش بأن يدفع لخلفه ألفونسو الثَّاني ملك أراغون خمسة وعشرين ألف دينار مرابطي في السنة). (انظر: **الإحاطة**، مج2، ص124 ؛ **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232-233، هامش1).

4- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص124. (وفي حاشية كتاب ابن الأبَّار يذكر حسين مؤنس أنَّه كان يدفع لألفونسو السَّابع إتاوة مقدارها مئة مثقال من الذهب). (انظر: **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232-233، هامش1).

5- ابن الأبَّار، **الحُلة السِّيراء**، ج2، ص232-233، هامش1 .

6- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص103.

على مدن الثغر الأعلى، فقد استولى على مدينة طُرطوشة سنة 543هـ/1148م ومدينتي لاردة وإفراغة سنة 544هـ/1149م[1]، ولم يبق آنذاك في تلك الجهات من مدينة أو حصن أو قلعة إلّا استولى عليها النّصارى[2].

أدرك الموحّدون منذ البداية خطورة هذا التّحالف الذي عقده ابن مردنيش مع ملوك النّصارى، ورغم أنّهم لم يحاربوا ابن مردنيش في بداية أمرهم لاشتغالهم باستكمال إخضاع بلاد المغرب وإفريقية، وكذلك إخماد الثورات والتّمردات الداخلية بوسط وغرب الأندلس، إلّا أنّهم كانوا يُعدون العُدة والعتاد لحرب ابن مردنيش في المستقبل القريب[3].

وقبل هجوم الموحّدين عليه، سارع ابن مردنيش ولأهداف إستراتجية الفوز بالسّبق فأخذ بغزو بلاد الأندلس التابعة للموحّدين بُغية الاستيلاء عليها[4]، فهجم مع حلفائه النّصارى على مدينة جيان وامتلكها سنة 554هـ/1159م، وأعلن صاحبها محمَّد بن علي الكومي الطاعة لابن مردنيش[5]، كما استولى على أبدة، ودانت له بياسة بالطاعة[6]، ثمَّ طمع ابن مردنيش في الاستيلاء على قرطبة، حيث قام بحصارها وانتساف زروعها معتقدا أنَّ مصيرها سيكون

1- ابن الأثير، **الكامل في التّاريخ**، دار صادر، مج9، ص357 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص126 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص314 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج1، ص237 .

2- ابن الأثير، **الكامل في التّاريخ**، دار صادر، مج9، ص357 .

3- ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص126؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص104.

4- توفيق مزاري عبد الصّمد، **النّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحّدين**، ص111 .

5- استغلَّ ابن مردنيش فرصة انشغال الخليفة عبد المؤمن بغزواته في بلاد المغرب، وقام بالهجوم على جيان والاستيلاء عليها. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص65-66 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص63 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص318).

6- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص261 .

الاستسلام مثل مصير جيان، ولكن واليها أبو زيد عبد الرَّحمان بن تيجيت[1] دافع بلا هوادة عليها، وقاتل ابن مردنيش أشدَّ قتال ومع استمرار الحصار اهتدى واليها رفقة قاضيها أخيل بن إدريس إلى حيلة ذكية، وهي تحرير رسالة مزورة حملت خاتم سيد راي بن وزير بإشبيليَّة وقاموا بإرسالها إلى ابن مردنيش، تنصحه الرِّسالة برفع الحصار عن قرطبة والانتقال مباشرة إلى إشبيليَّة بحجة أنَّها بغير دفاع، وأنَّه يضمن له دخولها، وقد بادر ابن مردنيش فور وصول الرِّسالة بالمسير إلى إشبيليَّة ونزل على ميل منها بالموضع المعروف بألفونت، وحاصرها ثلاثة أيام دون جدوى، فعلم ابن مردنيش بالخدعة فأقلع منها خاسرًا[2].

وكرَّر ابن مردنيش هجومه على قرطبة سنة 555هـ/1160م وكلف صهره إبراهيم بن أحمد بن مفرَّج بن هَمُشْكُ المشهور بابن هَمُشْكُ بالقيام بهذه المهمَّة، فاجتاح أحواز قرطبة ودمَّر زروعها، وقد خرج واليها ابن تيجيت لمقاتلته، فلقي حتفه[3] في كمين وضعه له ابن هَمُشْكُ بقرية أطابة (Ataba) بالمكان المعروف باسم الدارَّات[4]، إلَّا أنَّ الموحِّدين الذين نجوا من الكمين تحصنوا بداخلها وأحسنوا الدِّفاع عنها[5].

1- عينه الخليفة عبد المؤمن واليًا على قرطبة سنة 550هـ/1155م، سماه ابن صاحب الصلاة، ابن تيجيت، وابن عذارى ابن يخيت وجاء عند ابن خلدون باسم ابن بكيت، وتيجيت كلمة بربرية معناها شجرة صغيرة. (انظر: **المن بالإمامة**، ص66، هامش5 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص63-64 ؛ **العِبر**، ج6، ص318).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص66 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**،ج5، ص63-64.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص75 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص318.

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص75. (غير أنَّ ميراندا يُسمي هذه القرية باسم ألبة وقال بأنَّ سكانها كانوا قد هجروها). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص185).

5- توفيق مزاري عبد الصَّمد، **النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحِّدين**، ص112.

وسارع والي إشبيليَّة آنذاك أبي يعقوب يوسف لطلب المدَّد من والده الخليفة عبد المؤمن حيث كتب له رسالةً يحثه على استعجال المدَّد لصدِّ هجمات ابن مردنيش وصهره ابن هَمُشْكُ وحلفائهم النَّصارى[1].

ولم تتوقف هجمات ابن هَمُشْكُ على المدن الموحِّديَّة عند هذا الحد بل تمادى في غيِّه وهجم على مدينة إستجَّة واستولى عليها[2]، ثمَّ اتجه بقوَّاته إلى قرمونة وأطبق عليها الحصار، واستطاع الاستيلاء عليها بمساعدة رجل من أهلها يدعى عبد الله بن شراحيل، وكان استيلاءه عليها يوم الخامس عشر من ربيع الأوَّل 555هـ/ 22 مارس 1160م[3]، ما عدا قصبة المدينة فقد تحصن بها الموحِّدين وامتنعوا بها[4].

وفي غضون ذلك عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس في شهر ذي القعدة سنة 555هـ/ نوفمبر 1160م واستقرَّ بجبل طارق (جبل الفتح) وقد ذكرنا سابقًا هذا العبور، وأشرنا إلى أنَّ الخليفة مكث به شهرين، وخلال مكوثه هذا قام بالعديد من الأمور أهمها على الإطلاق تجهيز الجيوش لحرب النَّصارى وحلفائهم الثائرين كإبن مردنيش وابن هَمُشْكُ.

وقد تجلى ذلك عندما انصرف الخليفة من جبل الفتح إلى بلاد المغرب، وانصرف أولاده أبي سعيد عثمان إلى غرناطة وأبي يعقوب يوسف إلى إشبيليَّة، وقد اتجه هذا الأخير مباشرة

1- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّه حينما عاث ابن هَمُشْكُ بأحواز قرطبة وقام بقتل واليها ابن تيجيت، وصلت إلى إشبيليَّة رسالة من الخليفة عبد المؤمن في شهر صفر سنة 555هـ/فيفري 1160م تُبشرهم بفتح مدينة المهديَّة وطرد النورمان منها. (انظر: **المن بالإمامة**، ص70 وما بعدها عدَّة صفحات).

2- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص261 .

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص90-91 .

4- يرى ابن صاحب الصلاة أنَّ ابن هَمْشُكُ لم يستولي على قصبة قرمونة وأنَّ الموحِّدين تحصنوا بها، أمَّا ابن الخطيب وابن خلدون يقولان بأنَّه عذر بقرمونة وتملكها دون توضيح أمر امتناع قصبتها عنه من عدمه. (انظر: **المن بالإمامة**، ص91 ؛ **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص261 ؛ **العِبر**، ص318).

لتحرير قرمونة من يد ابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى وذلك في شهر محرم سنة 556هـ/جانفي 1161م[1].

وقد جهز جيشًا ضخمًا وحاصر قرمونة وأثناء حصارها أمسك الموحِّدون عبد الله بن شراحيل الذي غدر بهم في السَّابق وساعد ابن هَمُشْكُ على الاستيلاء على قرمونة، وقد أحضروه مكبولًا إلى والي إشبيليَّة أبي يعقوب يوسف فقتله وقتل أتباعه وأشياعه[2]، وأثناء الحصار وصل الشَّيخ يوسف بن سليمان[3] بعسكر ضخم إلى إشبيليَّة، وقد بعثه الخليفة عبد المؤمن حين وصوله إلى مرَّاكش[4]، فتعزَّز بذلك جيش إشبيليَّة وقويت عزائم أهلها، ومضى هذا الجيش إلى قرطبة وزود أهلها بالميرة والأقوات والآلات[5].

وبعد أن اطمئن أبي يعقوب يوسف على أحوال إشبيليَّة، توجه إلى مرَّاكش لزيارة أبيه للتَّداول بشأن الحملة الكبرى التي قرَّر الخليفة عبد المؤمن توجيهها إلى الأندلس[6]، وقد ترك الشَّيخ أبو محمَّد عبد الله أبي حفص بن علي لحصار ابن هَمُشْكُ بقرمونة رفقة الشَّيخ أبو العلاء بن عزون في قوة من الجند الأندلسيِّين، و قد عسكر هذا الأخير في قلعة جابر[7]، و أخذ يشن

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص119.

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص119-120 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص73 .

3- هو أبو يعقوب يوسف بن سليمان من جماعة الخمسين أصحاب ابن تومرت، وهو من قبيلة تينملل، استعان به الخليفة عبد المؤمن في إدارة شؤون الحكم وفي جهاد أعدائه. (انظر: البيذق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطِّباعة والوراقة، الرباط، 1971م، ص32-33 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص190).

4- يذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذارى أنَّه لمَّا دخلت جيوش يوسف بن سليمان إلى إشبيليَّة، اتصلت أمال النَّاس عند وصولهم، واتصلت المسرات بحلولهم وقويت بهم إشبيليَّة. (انظر: **المن بالإمامة**، ص120 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص73).

5- ابن صاحب الصلاة، **المن الإمامة**، ص120 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص73 .

6- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص120 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص190.

7- تقع جنوب قرمونة على بعد أميال منها. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص121، هامش1).

الهجوم على قرمونة كل يوم، ويشدِّد الخناق عليها أكثر فأكثر، وقد انتقل من قلعة جابر إلى حصن ابن سلام[1] القريب أكثر من سور المدينة، وكان إبراهيم بن هَمُشْكُ خلال بداية الحصار قد غادر قرمونة إلى جيان ومن المؤكد أنَّه أدرك بعدم قدرته على مواجهة جيش الموحِّدين[2]، أمَّا المحاصَرين داخل قرمونة فقد ساءت أحوالهم ويئسوا من نصرة ابن مردنيش وابن هَمُشْكُ، وفي تلك الآونة قام رجل اسمه شراحيل[3] من داخل قرمونة بالاتفاق سرًا مع الموحِّدين، على أن يفتح لهم أحد أبواب المدينة مقابل أن يمنحوه الأمان لنفسه وماله ورعية بلده، فتمَّ ذلك ودخل الموحِّدون المدينة ليلًا، من البرج المعروف بقرن المعزة[4]، وذلك يوم الجمعة العاشر من محرم عام 557هـ/30 ديسمبر 1161م[5] وتمَّ القبض على القائد الشرقي ابن أبي جعفر الذي كان متحصنًا بقصبة مدينة قرمونة،ونُقل إلى سجن إشبيليَّة، ثمَّ أمر بصلبه في الميدان العام تحت قصر

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص121. (وجاء عند ميراندا باسم حصن ابن سلامة). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص190).

2- يذكر عنان أنَّ ابن هَمُشْكُ غادر إلى جيان ولم يعبأ بأمر قرمونة، وأرى أنَّ انصرافه إلى جيان كان مجبرًا وهذا خوفًا من مواجهة جيوش الموحِّدين الضَّخمة. (انظر: **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص386).

3- ليس هو عبد الله بن شراحيل الذي غدر بالموحِّدين وسلَّم قرمونة لابن هَمُشْكُ، ولا نسب بينه وبين شراحيل هذا الذي ساعد الموحِّدون على دخول قرمونة، إلَّا اسم اتفق فيهما، وهو ليس من أهل قرمونة. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص121).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ص121 وما بعدها. (لم يذكر ابن عذارى اسم الباب الذي دخل منه الموحِّدون عندما تمَّ فتح قرمونة، وقال عنان أنَّهم دخلوا من باب البرج الأكبر، والأرجَّح ما ذكره ابن صاحب الصلاة لأنَّه معاصر للحدث وكان حاضرًا في هذه المعركة، حيث ذكر قيامه بتهنئة الشَّيخ أبو محمَّد بن أبي حفص بن علي، بالفتح بمسجد قرمونة). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص73 ؛ **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص386).

5- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص122. (غير أنَّ ابن عذارى يقول بأنَّها فتحت يوم الجمعة الخامس عشر محرم سنة 557هـ/4 جانفي 1161م، والأرجَّح ما ذكره ابن صاحب الصلاة وأثبتناه في المتن). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص73-74).

ابن عبَّاد بإشبيليَّة[1]. وهكذا عادت قرمونة إلى الموحِّدين بعد حصارها مدَّة سنة[2]، وبعد أن ملكها ابن هَمُشْكُ حوالي عامين.

استولى الموحِّدون على قرمونة وأرغموا ابن هَمُشْكُ على الانسحاب إلى مدينة جيان، ولكن هذا الأخير بقي متربصًا بهم، ويتحين الفرص للانتقام منهم، وعندما أصبحت الجبهة الموحِّديَّة في إشبيليَّة وقرطبة قوية وأضحى من العسير مهاجمتها[3]، وجَّه ابن هَمُشْكُ أنظاره صوب غرناطة، وقد ساعدته العديد من العوامل على التَّفكير في الهجوم والاستيلاء عليها، منها قربها من قاعدة حكمه جيان[4]، وغياب حامية قوية تدافع عنها[5]، وكذلك غياب واليها أبو سعيد عثمان، فقد كان بمرَّاكش يتباحث مع أبيه الخليفة عبد المؤمن كيفية توجيه حملته الكبرى لغزوِّ الممالك النَّصرانيَّة بالأندلس وإيقاف زحفها الجارف على بلاد المسلمين[6].

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص122.

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص73 .

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص387 .

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص74 .

5- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص387 .

6- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص124 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص300.

ويذكر ميراندا أنَّ ابن هَمُشْكُ استولى بشكلٍ مباغت على غرناطة[1]، وكان الذي وجهه للاستيلاء عليها صهره ابن مردنيش أمير مرسيَّة وبلنسيَّة[2]، فقد دخل في اتصالات سرية مع يهود غرناطة الذين أُجبروا على اعتناق الإسلام[3]، وحليفهم المسمى ابن دهري[4]، وقد اتفقوا معه بأن يسهِّلوا له دخول المدينة، وفي ليلة من ليالي شهر جمادى الأولى سنة 557هـ/ أفريل 1162م[5] دخل ابن هَمُشْكُ غرناطة بجيشه، وهذا بعد أن كسر اليهود بإيعاز من ابن دهري باب الربض بغرناطة[6]، ولمَّا دخلوا تنادوا بالصِّياح يا للأصحاب[7]، وفرَّ أنصار وجند الموحِّدين إلى القصبة وتحصنوا بها، وعندما رأى ابن هَمُشْكُ حصانتها استنجد بصهره ابن مردنيش بمرسيَّة، يُمنِّيه في الاستيلاء عليها فحشد ابن مردنيش قوة من جنده بلغت ألفي فارس ورجالة كثيرة[8]

1- **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص190. (قوله أنَّه استولى على غرناطة بشكلٍ مباغت، صحيح على اعتبار أنَّه كان عملًا مفاجئًا بالنِّسبة للموحِّدين، فلم يكن باعتقادهم أنَّ ابن هَمُشْكُ وابن مردنيش لديهما الجرأة لمهاجمة مدينة بحجم غرناطة).

2- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص261.

3- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص190 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص387. (أعتقد أنَّ قولهم بأنَّ اليهود أُجبروا على اعتناق الإسلام غير صحيح على اعتبار أنَّ المرابطين والموحِّدين كانت لهم سياسة التَّسامح الدِّيني مع أهل الكتاب اليهود والنَّصارى، فقد تركوهم يمارسون شعائرهم الدِّينيَّة بكل حرية. ونشير إلى أنَّ هذه الاتهامات لم ترد في المصادر التَّاريخيَّة الإسلاميَّة فقد وردت عند المستشرقين وبعض المؤرخين المحدثين الذين نقلوا منهم دون نقد أو تمحيص).

4- ابن دهري كان صهر مشرف غرناطة ابن زيد، والمشرف هو بمثابة المفتش العام للجمارك في وقتنا الحالي). (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص124، هامش4).

5- ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص261.

6- أحد أبواب غرناطة، ويقصد دون شك ربض البيازين (Albaicin) والذي يقع في شمال المدينة في العُدوة الغربية منها. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص124، هامش5).

7- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص125 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص74.

8- ابن صاحب الصلاة **المن بالإمامة**، ص127-128 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص75. (بينما يقول ابن الأثير أنَّه حشد ألفي فارس فقط). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص 456).

وانضمت إليهم فرقة من الجند النَّصارى المرتزقة بقيادة ألبارو رودريكيز الملقَّب بالأقرع[1]، وانطلق صوب غرناطة[2].

وكان ابن هَمُشْكُ قد نزل بالقلعة الحمراء فوق تل السبيكة في مواجهة القصبة التي احتمى بها الأهالي، وشرع في إطباق الحصار عليها، حيث ضربها بالمناجيق التي لم يكن يحشوها بالحجارة فقط، وإنَّما بالأسرى الموحِّدين كذلك[3].

وقد كانت للموحِّدين مؤن وافرة، فصمدوا دخل القصبة، وأرسلوا في طلب النَّجدة من الخليفة عبد المؤمن فكلَّف هذا الأخير ولده أبو سعيد عثمان بالعبور إلى الأندلس بسرعة فائقة لإنجاد غرناطة، فعبر البحر واستقرَّ بمالقة وبعث منها يستدعي الشَّيخ أبا محمَّد بن عبد الله بن أبي حفص القائم على ولاية إشبيليَّة، فلبى طلبه وأقبل بقوَّاته فاجتمعا معًا في فحص غرناطة[4] وتقدمت جموعهم حتَّى الموضع المسمى مرج الرُّقاد[5] الذي يبعد أربعة أميال من غرناطة، فخرج إليهم ابن هَمُشْكُ في قوَّاته وقوَّات ابن مردنيش وقوَّات النَّصارى، وكان جيشًا ضخمًا، فلم يكن يعتقد أبو سعيد عثمان أنَّه بهذه الضخامة، لأنَّه لم يعلم بوجود قوَّات ابن مردنيش وقوَّات

1- (Alvaro Rodriguer) عُرف في المصادر الإسلاميَّة بالأقرع أو الأصلع وهو حفيد القائد الشهير ألبارهانس (Alvar Fanez) (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص127-128 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص191).

2- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص191.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص125-126 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص75 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص300.

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص126 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص 75 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص261 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص319.

5- (Merrojal أو Majorrocal) كان اسم مرج الرُّقاد يُطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد أربعة أميال منها، وعلى بعد بضعة كيلومترات من قرية الطرف (Atarfe) في سفح جبل البيرة (Sierra de Elvira) على مقربة من نهر شنيل. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص129، هامش1 ؛ ابن الخطيب، **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، مج1، ص301، هامش2).

النَّصارى المرتزقة فخارت قواهم وانهارت معنوياتهم[1]، وعندما التحم الفريقان دارت الدائرة على الموحِّدين، وخسروا الكثير من جندهم، ولم يستطع باقي الجند الفرار لكثرة السواقي بالمنطقة والتي أعاقت حركتهم فغرق عدد جم منهم فيها[2].

وكان من بين القتلى عدد من أشياخ الموحِّدين، وأكابر الأندلسيِّين منهم الشَّيخ أبو محمَّد عبد الله بن أبي حفص والي إشبيليَّة، واستطاع أبو سعيد عثمان الفرار في نفرٍ من صحبه إلى مالقة، وارتد ابن هَمُشْكُ في قوَّاته إلى القصبة الحمراء التي قام فيها بتعذيب وقتل الأسرى الموحِّدين على مرأى ومسمع من إخوانهم المحاصَرين في القصبة القديمة[3] .

وقد علم الخليفة عبد المؤمن بهذه النكبة البالغة الخطورة، وهو إذ ذاك برباط الفتح قبالة سلا، فجهز جيشًا بلغ تعداده زهاء عشرين ألف مقاتل[4]، فيهم جماعة من أشياخ الموحِّدين وجعل أبا يعقوب يوسف قائدًا عليهم، والشَّيخ يوسف بن سليمان زعيم مشايخ الموحِّدين ومستشار الخليفة عبد المؤمن لكي يعين ولده يوسف بحنكتة ودهائه[5].

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص129 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص75 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة** ص191-192.

2- يذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذارى أنَّ من أقوى أسباب انهزام الموحِّدين اعتراض السواقي الجارية بالماء في موضع مرج الرُّقاد، حيث سقط فيها الجند بخيلهم عندما أرادوا الفرار، وقُتل الكثير منهم. (انظر: **المن بالإمامة**، ص129 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص75).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص129 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص75-76 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص301.

4- ابن الأثير **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص456. (يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ هؤلاء العساكر عاهدوا الله تعالى، وبايعوا الخليفة عبد المؤمن على مناجزة الأعداء الأشقياء والرُّوم الكافرين، حمايةً لدين الله تعالى وعونًا لإخوانهم الموحِّدين الصابرين المحصورين بقصبة غرناطة). (انظر: **المن بالإمامة**، ص130).

5- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص130 ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج1، ص301.

ولمّا اكتملت الجموع عبر هذا الجيش البحر إلى الجزيرة الخضراء ثمَّ توجه إلى مالقة، حيث انضمَّت إليه قوَّات أبو سعيد عثمان، وسار الجيش كله صوب غرناطة[1]، وكان ابن مردنيش قد علم بوصول هذه الإمدادات من العُدوة فجهزَّ قوَّاته التي كانت تساندها فرقة من النَّصارى قدرت بثمانية آلاف فارس بقيادة البارو رودريكيز[2]، ونزل في الجبل المتصل بقصبة غرناطة، وبعث فرقة النَّصارى بقيادة البارو رودريكيز لكي تعسكر مع قوَّات ابن هَمُشْكُ بجبل السبيكة بالقصبة الحمراء بينهما وادي حدارّة[3] المتصل بغرناطة وقصبتها، وكانت هذه العساكر تنتظر قدوم جيش الموحِّدين[4].

وكان هذا الجيش يتقدم بروية نحو غرناطة، حيث وصلوا إلى قرية دِلر[5] على مقربة منها، ثمَّ صعدوا إلى الجبل المطل على وادي شنيل قبالة جبل السبيكة والقصبة الحمراء، وفي يوم الخميس السَّابع والعشرين من رجب سنة 557هـ/ 12 جويلية 1162م جمع يوسف بن سليمان الجند ووعظهم، ورغبهم في الجهاد في سبيل الله، وأكد لهم أنَّ الجنة مضمونة لهم عند الله إذا صدقوا ووفوا بما بايعوا به ونطقوا[6].

1- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص456 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص76.

2- حدَّد ابن صاحب الصلاة وابن عذارى عدد قوَّات النَّصارى، ولكنهم لم يذكروا عدد قوَّات ابن مردنيش واكتفوا بالقول أنَّها أكثر من ثمانية آلاف فارس. (انظر: **المن بالإمامة**، ص132 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص76).

3- واحدي حدارّة (Darro) يخترق مدينة غرناطة، وهو فرع صغير من وادي شنيل. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص132، هامش2).

4 - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص132. (يذكر ميراندا أنَّ ابن مردنيش كان يراقب من بعيد تقدم القوَّات الموحِّديَّة، وكان متأكدًا من تحقيق انتصار ثانٍ عليها خصوصًا مع تفوقه العددي). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص192).

5- (Dilar) قرية تقع جنوبي غرناطة على مقربة من قرية البذول. (انظر ابن الخطيب، **الإحاطة**، مج2، ص301، هامش9).

6- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص132-133.

وفي مساء ذلك اليوم وبعد صلاة العشاء قرَّر الموحِّدون المسير، وصعدوا قمَّة الجبل المطل على وادي شنيل، وقد سهَّل الله تعالى عليهم الطَّريق حيث كانت اللَّيلة نيِّرةً، وعند الفجر من يوم الجمعة الثامن والعشرين من رجب سنة 557هـ/13 جويلية 1162م نزلوا بالقرب من موقع ابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى[1]، فبادر جيش الموحِّدين بمباغتتهم[2]، ووقعت معركة ضارية بين الفريقين استطاع من خلالها الموحِّدون بعدما أبدوا شجاعة فائقة من إلحاق الهزيمة بابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى الذين شتت صفوفهم وقُتل معظم قادتهم، منهم قائدهم ألبارو رودريكيز وقد حُزَّ رأسه وأُخذ بعد أيام من الهزيمة إلى قرطبة وعُلق بباب القنطرة، كما قُتل معظم قادة ابن هَمُشْك منهم ابن عُبيد صهر ابن مردنيش[3].

وقد كان موقف ابن مردنيش في هذه الموقعة موقفًا مخزيًا، حيث بقي يراوح مكانه في الضِّفة الأخرى لنهر حدارَّة مع قوَّاته عاجزًا عن التَّدخل لإنقاذ ابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى حتَّى أبيدت قوَّاتهم[4].

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص133 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص76 .

2- يذكر ابن الأثير أنَّ الموحِّدين باغتوا جيش ابن هَمُشْكُ بإرسالهم سريةً تتكون من أربعة ألاف فارس، وهاجمت العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء فقتلوهم عن آخرهم ثمَّ لحق عسكر الموحِّدين كله، ودخل في معركة حامية الوطيس مع باقي جيش ابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص456).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص133-134 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص76-77 .

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص134 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص77 .

وحقَّق بذلك الموحِّدون انتصارًا ساحقًا على ابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى وتمكنوا من الاستيلاء على غرناطة ودخلوها في منتصف النَّهار يوم الجمعة الثامن والعشرين رجب سنة 557هـ/13 جويلية 1162م[1]، وتُعرف هذه الموقعة بموقعة السبيكة[2].

وعند دخول جيش الموحِّدين غرناطة ظافرًا خرج الموحِّدون المحصورون في القصبة وقتلوا المتحالفين مع ابن هَمُشْكُ من أهالي غرناطة، أمَّا ابن هَمُشْكُ فقد فرَّ إلى مدينة جيان في فلوله والموحِّدون في أثره، إلى أن وصلوا إلى مدينة جيان فحاصروها فامتنعت عليهم فعادوا إلى قواعدهم وبالنِّسبة إلى ابن مردنيش فقد انصرف هو الآخر من محلته مع قوَّاته خائبًا إلى مرسيَّة تاركًا خيامه ومتاعه[3].

وبعد هذا النَّصر سارعت سائر القبائل التي تمردت على الموحِّدين وناصرت ابن هَمُشْكُ إلى إعلان الولاء والطاعة من جديد للموحِّدين، كما قام أبا يعقوب يوسف والشَّيخ يوسف بن سليمان بإصلاح شؤون غرناطة وتجديد بنائها، وبعث بأخبار الفتح والنَّصر إلى الخليفة عبد المؤمن الذي كان آنذاك برباط الفتح قبالة سلا، فسرَّ بها أيَّما سرور، وصدرت أوامره بأن تجعل

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص133-134. (بينما يذكر ابن عذارى أنَّ دخول الموحِّدين غرناطة وانتصارهم على ابن هَمُشْكُ وابن مردنيش كان يوم الجمعة 26 رجب سنة 557هـ/11 جويلية 1162م، وهذا التَّاريخ لا يوافق يوم الجمعة بل يوافق يوم الأربعاء، بينما اكتفى ابن الأثير بذكر السنة دون الشهر، حيث قال أنَّ انتصارهم كان سنة 557هـ/1162م. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص76-77 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص456).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص62، هامش1).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص134-135 ؛ البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، ص118 ؛ ابن الأثير **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص456 ؛ ابن الخطيب **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص262 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص77 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص319. (يذكر أشباخ أنَّ ابن مردنيش وابن هَمُشْكُ وحلفائهم النَّصارى اضطروا للانسحاب بعد أن تكبدوا أفدح الخسائر). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المربطين والموحِّدين**، ج2، ص62).

غرناطة وقصبتها مركز دفاع قوي وأن تُشحن بالعتاد والأقوّات، وأن ينقل مركز الحكم الموحّدي بالأندلس من إشبيليَّة إلى قرطبة[1].

3- استعداد الخليفة للعبور الثَّاني إلى الأندلس لغزوّ الممالك المسيحيَّة:

اعتزم الخليفة عبد المؤمن بعد تحقيق هذا النَّصر على ابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى في موقعة السبيكة أن يغزو الرُّوم بالأندلس في البر والبحر، فأمر بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل بلاده سنة 557هـ/1162م[2] فأنشأ منها أربعمائة قطعة[3]، منها في مرسى حلق المعمورة[4]، عند مصب نهر سبو مئة وعشرون قطعة، و منها في طنجـة وسبتة وبَادِس[5] ومراسي الريف مئة قطعة

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص136 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص77-78.

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص147 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص200-201 ؛ السَّلاوي، **الإستقصا**، ج2، ص128. (وعن دور الأساطيل الموحّديَّة في الجهاد البحري بالأندلس). (انظر: توفيق مزاري عبد الصَّمد، **النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهد المرابطين والموحّدين**، ص87 وما بعدها).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص201. (غير أنَّ ابن صاحب الصلاة يقول أنَّهم أنشئو زهاء مائتي قطعة، أُعد منها في مرسى المعمورة مائة وعشرون قطعة، وباقي العدد أُعد في أرياف العُدوة والأندلس). (انظر: **المن بالإمامة**، ص147).

4- المعمورة تُعرف اليوم بالمهديَّة، وهي تقع على الضِّفة اليسرى لمصب نهر سبو شمال سلا على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً منها على خط مستقيم، والغابة المجاورة للمهدية مازالت تُسمى غابة المعمورة. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص147، هامش2 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص201، هامش122).

5- مدينة على شاطئ البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) تقع غربي مدينة الحسيمة، منها إلى مرسى بوركوز الذي يبعد عن الحسيمة عشرة كيلومترات، وهي مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات قلائل. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص252 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص201، هامش123 ؛ الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمَّد حجي، محمَّد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ط2، ج1، ص325 وما بعدها).

ومنها ببلاد افريقية ووهران ومرسى هنين[1] مئة قطعة، ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة[2]، كما أمر عبد المؤمن باستجلاب الخيل للجهاد من كامل بلاد المغرب، والاستكثار من أنواع السِّلاح من السُّيوف والرِّماح والدُّروع والسِّهام إلى غير ذلك من معدات القتال[3]. ويذكر ابن أبي زرع أنَّ الخليفة عبد المؤمن أمر بضرب السِّهام في جميع البلاد التي يحكمها، فكان يضرب له كل يوم منها عشرة قناطير، فجمع منها ما لا يحصى[4]، وأمر بإرسال الكتب إلى سائر الجهات والقبائل لاستنفار النَّاس وحثهم على الجهاد في سبيل الله، وأمر بإعداد الوفير من القمح والشَّعير والأعلاف فأعد منها أكداس هائلة في وادي سبو[5].

وأقام عبد المؤمن بمرَّاكش فترة زمنية طويلة حتَّى أول عام سنة 558هـ/1662م[6] وهو يتابع بعناية الاستعدادات الضَّخمة للجهاد في الأندلس، ثمَّ خرج لزيارة قبر ابن تومرت في تينملل ثمَّ عاد إلى حاضرته مرَّاكش ليستأنف الجهاد[7].

1- مدينة حسنة صغيرة على البحر المتوسط، تبعد عن تلمسان في البرِّ أربعون ميلًا، وبينهما مدينة ندرومة وهي عامرة، عليها سور متقن وأسواق وخارجها زراعات كثيرة وعمارات متصلة. (انظر: الإدريسي **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص254 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص597).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص201.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص148 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص201.

4- **روض القرطاس**، ص201.

5- يذكر ابن صاحب الصلاة بأنَّه رأى في وادي سبو بالمعمورة ما أُعِدَّ من القمح والشعير والمؤن و الأعلاف مكدسًا كالجبال، بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال، وبقي في ذلك الموضع معدًا من عام 557هـ/1162م إلى سنة 562هـ/1167م حتَّى فني في أكداسه وعاد ترابًا ورمادًا باحتراقه بعضه من بعض، وإفساد الزمان له فسادًا. (انظر: **المن بالإمامة**، ص148).

6- في الوقت الذي كانت فيه الاستعدادات جارية على قدم وساق قام مسيحيو شنترين بغزوِّ مدينة باجة بغرب الأندلس في يوم السبت 22 ذي الحجة 557هـ/1 ديسمبر 1162م، وقد احتفظوا بها أربعة أشهر وثمانية أيام ولم يغادروها إلَّا بعد أن قاموا بتخريبها، فزاد عزم الموحِّدين على الجهاد. (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص197 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص392-393).

7- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص149-150.

وفي يوم الخميس الخامس عشر من شهر ربيع الأوَّل سنة 558هـ/21 فيفري 1163م[1] خرج الخليفة عبد المؤمن من مرَّاكش متوجهًا إلى الأندلس لجهاد النَّصارى، وقد كتب إلى جميع بلاد المغرب والقِبلة وإفريقية والسوس وجميع القبائل يستنفرهم للجهاد، فأجابه خلق كثير[2].

وعندما وصل بقوَّاته إلى رباط الفتح وجد هذه الجموع في انتظاره فضاقت بهم الأرض وانتشرت محلاتهم في أرض سلا من عين غبولة[3] إلى عين خميس[4]، واستدارت راجعةً إلى خلق المعمورة[5]، وقد بلغت هذه الحشود حسب ما يذكر ابن صاحب الصلاة أكثر من مائة ألف فارس ومائة ألف راجل[6]، ويقدرها ابن أبي زرع بأكثر من ثلاثمائة ألف فارس من قبائل زناتة والموحِّدين والمرتزقة من قبائل المغرب، وثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل من المتطوعة[7] ويذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ جميع هذه العساكر عمَّها الإحسان وتمَّ لهم الإنعام والامتنان[8].

ولمَّا تأكد الخليفة عبد المؤمن باستعداد جيشه وجاهزيته، قام بجمع أشياخ الموحِّدين وأشياخ العرب وأهل الرأي وأكابر القوَّاد، لكي يستشيرهم في أمر هذا الغزوِّ العظيم، وقد قال

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص151 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج9، ص179. (بينما يقول ابن أبي زرع يقول أنَّ خروجه هذا كان يوم الخميس الخامس ربيع الأوَّل سنة 558هـ/11 فيفري 1163م، وهذا التَّاريخ غير صحيح والأرجَّح ما أثبتاه في المتن، كما أنَّ هذا التاريخ لا يوافق يوم الخميس بل يوافق يوم الاثنين). (انظر: **روض القرطاس**، ص202).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص202.

3- تقع عين غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بعد تسعة عشر كيلومترا منها. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص151، هامش4).

4- هي نفسها أرض بندغل التي ذكرها ابن صاحب الصلاة، ويفترض أن يكون موقع عين خميس في الشَّمال الشرقي من عين غبولة. (انظر، **المن بالإمامة**، ص152، هامش1 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص202).

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص202.

6- **المن بالإمامة**، ص152.

7- **روض القرطاس**، ص202.

8- **المن بالإمامة**، ص152.

لهم الخليفة عبد المؤمن "أشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلام الرُّوم فقد عزمنا عليها برًا و بحرًا، وسرحنا بها إعلانًا وجهرًا"، وقال أيضًا "إنَّ العساكر والحمد لله وحده على ما ترون من وفور الأعداد وظهور الاستعداد، وطريق واحد لا يسعهم ولا يحملهم، فقولوا رأيكم" فقال له أشياخ الموحِّدين يا سيدنا يا أمير المؤمنين الرأي السعيد المنصور السَّديد هو رأيكم[1]، فأشار الخليفة على سيد راي بن وزير صاحب باجة وبطليوس السَّابق والذي دخل في طاعة الموحِّدين كما أسلفنا الذكر، بإعطاء رأيه، فشرح للخليفة أحوال الأندلس، واقترح أن تُقسَّم الحملة الكبرى إلى أربعة جيوش، يسير أولها إلى غرب الأندلس لمقاتلة ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، والثَّاني يسير إلى مملكة ليون لمقاتلة ملكها فرناندو الثَّاني[2] ولد القيصر ألفونسو السَّابع، والجيش الثَّالث يتجه إلى قشتالة لمقاتلة ملكها يومئذٍ ألفونسو الثَّامن وهو طفل تحت الوصاية، والجيش الرَّابع يسير صوب مملكة برشلونة وأراغون لمقاتلة ملكها ألفونسو الثَّاني[3]. فقبل الخليفة عبد المؤمن رأي ابن وزير، وقال له أحسنت يا أبا محمَّد، كما وافق جميع الأشياخ والقادة الحاضرين في هذا الاجتماع الحربي رأي ابن وزير واستبشروا به خيرا[4].

1- **نفسه** .

2- (Fernande II de Leon) تُسميه المصادر الإسلامية الببوج أو البيبوج (EL Baboso) وهو لقب معناها الكثير اللعاب أو الأبله، وتقول عنه بأنَّه صاحب السبطاط وأبلة وليون وسمورة، منحه والده القيصر ألفونسو السَّابع قبل وفاته مملكة ليون وجليقية وأشتوريش وجزءًا من الفتوح الجديدة في أراضي أسترامادوره، وكذلك دعوى السيادة على مملكة البرتغال، وباقي مملكته أعطاها لولده الأكبر سانشو وقد دخلا في حروب طاحنة بينهما عند وفاة أبيهما. توفي فرناندو يوم 21 ذي القعدة 583هـ/28 جانفي 1188م بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص153، هامش3 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص106 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص3 وما بعدها).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص152-153.

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص153-154.

ولكن حدث ما لا يُحمد عقباه فبعد هذا الاجتماع الهام والاستعدادات الضَّخمة مرض الخليفة عبد المؤمن مرضًا شديدًا لم يستطع الأطباء مداواته[1]، وعندما أحسَّ بدنوِّ أجله، عمد إلى إسقاط ولده محمَّد من ولاية العهد وذلك يوم الجمعة الثَّاني من شهر جمادى الآخرة سنة 558هـ/7 ماي 1163م[2]، وتولية ولده أبا يعقوب يوسف باعتباره أصلح من يتولى الخلافة، وقد أوصى سائر أشياخ الموحِّدين بتنفيذ وصيته هذه[3]، خاصةً الشَّيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني، وولده أبو حفص عمر[4]، وفي ليلة الخميس 10 جمادى الآخرة 558هـ/16 ماي 1163م توفي الخليفة بسلا،وكان له من العمر حين توفي ثلاثة وستون سنة، وقيل أربعة وستون

1- لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة نوعية مرض الخليفة عبد المؤمن، حيث اكتفى ابن صاحب الصلاة وابن عذارى بالقول بأنَّ المرض دام به أيامًا، والنَّاس ينتظرون شفاءه، والأطباء كل يوم يدخلون عليه، ولكنهم لم يستطيعوا مداواته، ويذكر ابن أبي زرع أن مرضه تمادى، واشتد ألمه ووجعه، ويذكر المرَّاكشي أنَّه أثقله الجرح واشتدَّ عليه، ويبدو أنَّ الخليفة كان مجروحًا. (انظر: **المن بالإمامة**، ص154-155 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص79، **روض القرطاس**، ص202 ؛ **المُعجب**، ص184).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص154-155. (يذكر ابن عذارى أنَّ الخليفة عبد المؤمن عزل ولده محمَّد عن ولاية العهد، عندما أدرك أنَّه يشرب الخمر، وقد تقيأ يومًا على ثيابه وهو راكب على فرسه على مرأى من أشياخ الموحِّدين وعامة النَّاس، ويذكر المرَّاكشي أنَّه كان مُدمن خمر، وعُرف عنه اختلال الرأي وكثرة الطَّيش وجبن النَّفس، ويقال أنَّه كان مصابًا بالجذام). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص78-79 ؛ **المعجب**، ص166).

3- يذكر ابن الأثير أنَّ الخليفة عبد المؤمن عندما جمع أشياخ الموحِّدين قال لهم قد جربت إلي محمَّدًا، فلم أراه يصلح لهذا الأمر، وإنَّما يصلح له ابني يوسف. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص461).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص154-155 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ص79.

ودفن في تينملل بجانب قبر ابن تومرت[1].

وبوفاته تتوقف هذه الحملة الكبرى لغزوِّ الممالك النَّصرانيَّة بالأندلس ولولا هذا القدر المحتوم لاستطاع عبد المؤمن بدون أدنى شك أن يحقِّق انتصارات باهرة على الممالك النَّصرانيَّة التي كانت تعاني من التَّمزق والتَّشرذم بسبب الحروب الدَّاخليَّة[2]، وأكد أشباخ هذا الأمر حينما قال "ولاح عندئذٍ أنَّ اسبانيا النَّصرانيَّة التي شُطرت يومئذٍ إلى خمس ممالك تمزقها الحروب الدَّاخليَّة قد قضى عليها بالهلاك، وأنَّها ستغدو فريسةً هيِّنةً للفاتح الإفريقي، لولا أن توفي عبد المؤمن عندئذٍ فجأة بعد مرض شديدٍ أودى بحياته في الوقت الذي كان ينقل فيه الجند إلى الأندلس، وبذلك أُنقذت إسبانيا النَّصرانيَّة من نير المسلمين مرة أخرى"[3].

وخلاصة هذا الفصل نقول بأنَّ الخليفة الموحِّدي عبد المؤمن بن علي لم يعلن الثورة على المرابطين في بلاد المغرب فحسب، بل حاربهم أيضًا في بلاد الأندلس، وقد كانت هذه

1- تتفق المصادر التَّاريخيَّة في كون الخليفة عبد المؤمن توفي في شهر جمادى الآخرة سنة 558هـ/ماي 1163م، ولكنها تختلف في تحديد اليوم، فيذكر ابن صاحب الصلاة أنَّه توفي ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة، ولكن يوم العاشر هو الخميس وليس الجمعة، وقد وفِّق ابن الخطيب في قوله أنَّه توفي ليلة الخميس العاشر من جمادى الآخرة، وهو الأرجَّح لانطباقها مع تسلسل الأيام والتواريخ، ويذكر ابن أبي زرع أنَّه توفي عند الفجر من يوم العاشر من جمادى الآخرة ولكنه أخطأ في تحديد اليوم فجعله الثلاثاء بدلًا من الخميس، ويذكر ابن عذارى أنَّه توفي يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الآخرة، بينما يذكر ابن الأثير أنَّه توفي في العشرين من جمادى الآخرة، والمرَّاكشي قال في السَّابع والعشرين جمادى الآخرة، في حين أنَّ ابن خلدون لم يذكر اليوم وقال في جمادى الآخرة، واكتفى ابن السماك بذكر السنة فقط، فقال توفي عام 558هـ/1163م. (انظر: **المن بالإمامة**، ص163 ؛ **ابن الخطيب**، ص269 ؛ **روض القرطاس**، ص202 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص79-80 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص461 ؛ **المُعجب**، ص166 ؛ **العِبر**، ج6، ص319 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص236).

2- نشير إلى أنَّ مصير هذه الحملة والجيوش المجتمعة برباط الفتح، أنَّ الأمير يوسف طلب من تلك الجيوش أن تنصرف بلادها، ريثما يستتب له الأمر وتكتمل بيعته، ويأذن الله لها بالجهاد. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص164).

3- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص62.

البلاد في نهاية حكم المرابطين تمر بأشد الفترات التَّاريخيَّة الحرجة، حيث أصبحت في حالة فوضى واضطراب كبيرة جدًا، وهي الفترة التي عُرفت باسم عصر الطَّوائف الثَّاني.

وقد تعددت الأسباب التي أدت إلى نهاية حكم المرابطين لبلاد الأندلس وظهور ما يُعرف بعصر الطَّوائف الثَّاني، ثمَّ ظهور الموحِّدين واستيلائهم على هذه البلاد، ومن بين هذه الأسباب اضطراب الأمور في الأندلس خاصةً بعد استدعاء الأمير تاشفين بن علي إلى المغرب سنة 532هـ/1138م، وسحب عدد كبير من القوَّات المرابطيَّة معه إلى المغرب لمحاربة الموحِّدين فاستغل النَّصارى هذه الأوضاع فقاموا بالهجوم على بلاد المسلمين. وكذلك اندلا ع الثورات والفتن الدَّاخليَّة بالأندلس وأخطرها على الإطلاق ثورتي المريدين والقضاة بزعامة الفقهاء والقضاة وشيوخ الصوفية مثل ابن قسي وابن حمدين وغيرهم، وقد شملت هذه الثورات جميع شبه الجزيرة الأندلسيَّة، واستطاع الكثير من زعمائها الاستيلاء على الكثير من مدن بلاد الأندلس.

بالإضافة إلى اضطراب أحوال الإدارة بوفاة الأمير علي بن يوسف وتولية ابنه الأمير تاشفين، حيث ظهر خلل كبير في إصدار الأوامر إلى الجند أو الرعيَّة. وكذلك فساد بعض عمال المرابطين بالأندلس بانصرافهم إلى حياة اللَّهو والتَّرف، وتعاملهم بالرشوة واستيلاءهم على أموال النَّاس بالباطل، وكذلك فرضهم للضرائب الباهظة على الرعية. بالإضافة إلى انحراف بعض الفقهاء والقضاة عن الجادة وطريق الحق، وفشلهم في أن يكونوا قدوةً حسنةً حيث ظهر للعيان طمعهم للسلطان والأموال والجاه، مستغلين مساندة أمراء المرابطين لهم، وقد ثارت الرعية كثيرًا عليهم، فعمَّت الفوضى والاضطرابات بسبب ذلك في الأندلس.

ومن الأسباب أيضًا ظهور الفكرة القوميَّة لدى فريق كبير من أبناء الأمَّة الأندلسيَّة وكان هذا الفريق يرى في المرابطين بعد أن تبددت آثار المديح والإعجاب الأولى التي تلت نصر

الزَّلاقة، ثمَّ نصر أُقليش وإفراغة أنَّهم أجانب متغلبين يستظلون بفكرة الجهاد، ليبسطوا سلطانهم على الأمَّة الأندلسيَّة التي لم تنس أنَّها فقدت استقلالها وحريتها.

كما ساهمت سياسة التَّسامح والعطف التي انتهجها أمراء المرابطين بالأندلس سواءً مع النَّصارى أو مع أهل الأندلس في سقوط دولتهم فالبنِّسبة للنَّصارى فقد تمَّ إدماجهم في الجيوش المرابطيَّة، وإعطائهم مراكز التَّفوق والقيادة، فأدى إلى سخط أهل الأندلس على المرابطين، أمَّا الأندلسيِّين فقد تساهل الأمير علي وولده تاشفين مع مثيري الفتن والفوضى منهم بالخصوص المريدين.

ومن بين أهم الأسباب، عجز المرابطين في آخر أيامهم عن الجهاد في الأندلس بالخصوص بعد وفاة القادة الكبار للجيوش المرابطيَّة مثل ابن فاطمة وابن عائشة وسِير بن أبي بكر اللَّمتوني والأمير مَزْدَلِي ومحمَّد بن الحاج وغيرهم، فلم يستطع المرابطين أن يخلفوا جيل جديد له مبادئ وقيم هؤلاء القادة الكبار في حب الجهاد والتَّضحية في سبيل الله.

كل هذه الأسباب مجتمعةً أدت إلى سقوط دولة المرابطين بالأندلس، ثمَّ ظهور ما يُعرف بعصر الطَّوائف الثَّاني، أعقبه استيلاء الموحِّدين على هذه البلاد، والتهام الممالك المسيحيَّة للكثير من المدن والقلاع والحصون الإسلاميَّة بكافة بلاد الأندلس بالخصوص بالثغر الأعلى.

ففيما يخص الموحِّدين فقد استولوا على مدن الأندلس تبعًا، حيث بدأ الخليفة عبد المؤمن يتدخل في شؤون هذه البلاد عندما استفحلت الثورات الداخليَّة على المرابطين خاصة ثورتي المريدين والقُضاة، ولجوء زعماء هاتين الثورتين إليه، فجاءه إلى المغرب ابن قسي وابن حمدين والقاضي أبو بكر بن العربي مع وفد مدينة إشبيليَّة وغيرهم وأعلنوا ولائهم له، فتشجع بذلك الخليفة عبد المؤمن للقيام بأعمال عسكرية بالأندلس، فأرسل جيوشه واستطاع بعد بضع سنوات من إخضاع جميع هذه البلاد والقضاء على المرابطين، كما قضى على التَّمردات

والثورات التي ظهرت ضدَّ الموحِّدين بالخصوص ثورة بني غانية، ولم يبقى خارج سلطة الموحِّدين غير مدن شرق الأندلس بلسنيَّة ومرسيَّة وأحوازهما التي بقيت بيد ابن مردنيش حليف النَّصارى.

وقام الخليفة عبد المؤمن في نفس الوقت بمقارعة المسيحيِّين خاصةً ملك قشتالة ألفونسو السَّابع الذي تزعم الممالك المسيحيَّة بعد وفاة ملك أراغون ألفونسو المحارب، وبالرغم من دخول ملوك النَّصارى في حروب طاحنة بينهم خاصة بين ملك قشتالة ألفونسو السَّابع وعدوَّيه اللَّدودين ملك نافارا غارسيا الرَّابع وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، إلَّا أنَّهم لم ينسوا حرب المسلمين وابتلاع أراضيهم لمَّا تتاح لهم أدنى فرصة.

وقد أُتيحت لهؤلاء الملوك الكثير من الفرص عندما كانت تتوقف الحروب بينهم من فترة زمنية إلى أخرى، ويتم عقد الصلح بينهم، فيعمل كل واحد منهم بالهجوم على أراضي المسلمين القريبة من مملكته.

فتعاظمت بذلك مع نهاية دولة المرابطين وبداية دولة الموحِّدين حروب الاسترداد المسيحي للأندلس وكثرت الهجمات على بلاد المسلمين، خاصةً من قِبل ملك قشتالة ألفونسو السَّابع، وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز.

فقد شنَّ ألفونسو السَّابع سلسلةً من الغزوات على أراضي المسلمين، محاولًا انتزاع ما يمكن انتزاعه من قواعد الحدود، فقد حشد جيشًا ضخمًا وحاصر بنفسه قلعة قورية مدى شهرين حتَّى سقطت في يده في نوفمبر 536هـ/جوان 1142م وساق خلالها عشرة آلاف من أسرى المسلمين إلى طليطلة.

وفي عام 537هـ/1143م قام حاكم قلعة مورة السَّابق، مونيو ألفونسيز بغزو أراضي الأندلس ناحية قرطبة وأحرز نصرًا باهرًا على قوَّات إشبيليَّة وقرطبة، وسقط واليهما شهيدان كما استشهد عدد كبير من المسلمين، واستولى القشتاليون على كثير من الغنائم والأسرى.

وقد أثارت هذه الهزيمة جزعًا كبيرًا في قلوب المسلمين فعزموا على الردِّ عليها، فاتجه جيش منهم بقيادة والي قلعة رباح ناحية قشتالة، فعاثوا في نواحيها، فتقدَّم مونيو ألفونسيز بجرأة ودون تحوط لقتال هذا الجيش الذي يفوقه عددًا، فلقي مصرعه وهزم جيشه، وعُلقت رؤوس أكابر النَّصارى فوق أرفع أبراج قلعة رباح عنوانًا بالنَّصر المبين.

وقد حزن ألفونسو السَّابع حزنًا بليغًا لفقد قائده الباسل مونيو ألفونسيز، فأقسَّم بأن ينتقم لموته، فسار في قوَّاته إلى الأندلس في العام التَّالي 538هـ/1144م وأثخن في أحواز قرطبة وإشبيليَّة وانتسف الزروع، وأحرق القرى، ووصل في سيره المخرب حتَّى أراضي قرمونة وغرناطة والمريَّة، والتجأ المسلمون الذين استطاعوا النجاة إلى الحصون، وعاد ألفونسو إلى بلاده مثقلًا بالغنائم والأسرى.

واستمرت غزوات ألفونسو السَّابع لبلاد المسلمين في الأندلس، وكان أعظم إنجاز حقَّقه في تلك الفترة هو الاستيلاء على مدينة المريَّة سنة 542هـ/1147م، ثمَّ استولى النَّصارى على ما بقي من مدن الثغر الأعلى كطُرطوشة عام 543هـ/1148م، واستولى أيضًا أمير قطلونية رامون برنجير الرَّابع سنة 544هـ/1149م على لاردة وإفراغة، ومكناسة وحصن أُقليش وغيرها من القلاع والحصون المجاورة لهما، وبذلك تنتهي سيادة المسلمين في الثغر الأعلى.

وبالنِّسبة إلى غرب الأندلس فقد كان لملك البرتغال ألفونسو هنريكيز غزوات عديدة على بلاد المسلمين مستغلًا بدوره، انقسام المسلمين بظهور الثورات على دولة المرابطين وكذلك لعدم تمكن الموحِّدين آنذاك من ترسيخ أقدامهم بشكل جيد بهذه البلاد، كما استغل فرصة السِّلم والصلح مع ملك قشتالة ألفونسو السَّابع، فاستولى على شنترين بمساعدة فرسان الدَّاويَّة عام 541هـ/1147م وعلى أشبونة سنة 542هـ/1147م. وبسقوط هذه الأخيرة تمكنت مملكة البرتغال من انتزاع مفتاح نهر التاجة من المسلمين، ومن ضفافه كانت تشن الغزوات على أراضيهم فتعاظمت في تلك الفترة حروب الاسترداد المسيحي على بلاد الأندلس.

لم يبق الخليفة عبد المؤمن مكتوف الأيدي إزاء اعتداءات الممالك المسيحيَّة وغاراتهم المتواصلة على مدن المسلمين بالأندلس، فبعد أن أحكمت القوَّات الموحِّديَّة سيطرتها على مدن غرب ووسط وجنوب الأندلس وخاصةً بعد استيلائهم على غرناطة سنة 551هـ/ 1156م أصرَّت على استرجاع المريَّة من أيدي النَّصارى، فقاموا بحصارها برًا وبحرًا، فلم يستطع ألفونسو السَّابع وحليفه ابن مردنيش بجيوشهما الضخمة إنقاذها، وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحصار استسلم أهلها بعدما ضاقت بهم السُبل في ذي الحجة سنة 552هـ/جانفي 1158م. وشكل هذا الانتصار إعلانًا عن نشوء دولتهم الفتيَّة، ليحسب لها ألف حساب، فقد كان لتدخلهم في الأندلس مِثل الأثر الذي أعقب تدخل المرابطين فيها، حيث بدئوا يضطلعون بدورهم للتَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي.

وقد عبر الخليفة عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس في شهر ذي القعدة سنة 555هـ/نوفمبر 1160م لأجل التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي، وأمر بغزوِّ بلاد غرب الأندلس، فخرج إليها الشَّيخ عبد الله بن أبي حفص من قرطبة في جيش كثيف من الموحِّدين ففتح حصن أطرانكش من أحواز بطليوس، وقتل جميع من كان به من النَّصارى، وجاء ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال لإغاثته فوجده قد فُتح، فقصد الموِّحدون لقتاله فهُزم وقُتل من عسكره ستة آلاف رجل، وساق المسلمون السبي إلى قرطبة وإشبيليَّة.

كما قام الخليفة عبد المؤمن خلال عبوره هذا بتنظيم شؤون الأندلس وإصلاح أحوالها وتعيين الولاة في أقاليمها، وبعد فراغه من هذه الأعمال عاد إلى المغرب بعد أن مكث بجبل الفتح شهرين، وقد ترك قبل عودته بالأندلس عساكر كثيرة لكي تغزو الممالك المسيحيَّة وتتصدى لزحفها الجارف على بلاد المسلمين، ولكي تحارب الثائر ابن مردنيش بشرق الأندلس وصهره ابن هَمُشْكُ اللَّذين استعانا بالمسيحيِّين وأقاما معهم علاقات حسنة.

وكان ابن مردنيش قبل عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس قد استولى على جيان وأبدة وبياسة، ثمَّ هاجم مع صهره ابن هَمُشْكُ على قرطبة وأحوازها ودمَّر زروعها، واستولى أيضًا على مدينة إستجَّة وقرمونة يوم الخامس عشر من ربيع الأوَّل 555هـ/22 مارس 1160م.

وقد أرسل الخليفة عبد المؤمن والي إشبيليَّة ولده أبي يعقوب يوسف لتحرير قرمونة من يد ابن هَمُشْكُ وحلفائه النَّصارى وذلك في شهر محرم سنة 556هـ/جانفي 1161م، وبعد حصار طويل تمكن الموحِّدون من الاستيلاء عليها يوم الجمعة العاشر من محرم عام 557هـ/30 ديسمبر 1161م.

ولكن ابن هَمُشْكُ استولى بشكلٍ مباغت على غرناطة، بمساعدة من اليهود القاطنين بها في شهر جمادى الأولى سنة 557هـ/أفريل 1162م، ولمَّا حاول الموحِّدون استرجاعها تلقوا هزيمة قاسية على يد ابن هَمُشْكُ وابن مردنيش وعدد كبير من الجيوش المسيحيَّة، في معركة مرج الرُّقاد وخسروا الكثير من جندهم وعدد من أشياخ الموحِّدين وأكابر الأندلسيِّين، أمَّا الأسرى فقد قام ابن هَمُشْكُ بتعذيبهم وقتل بعضهم على مرأى ومسمع من إخوانهم المحاصَرين في قصبة غرناطة القديمة.

ولكن الموحِّدين عادوا من جديد وحقَّقوا انتصارًا ساحقًا على ابن هَمُشْكُ وحلفائه المسيحيِّين بموقعة السبيكة، وتمكنوا من الاستيلاء على غرناطة ودخلوها في الثامن والعشرين رجب سنة 557هـ/13 جويلية 1162م، وقد تمَّ خلالها إبادة القوَّات المسيحيَّة وقتل قائدهم ألبارو رودريكيز وقد حُزَّ رأسه وأُخذ بعد أيام من الهزيمة إلى قرطبة وعُلق بباب القنطرة، كما قُتل معظم قادة ابن هَمُشْك منهم ابن عُبيد صهر ابن مردنيش.

وبعد تحقيق هذا النَّصر على ابن هَمُشْكُ وابن مردنيش وحلفائهم المسيحيِّين في موقعة السبيكة، اعتزم الخليفة عبد المؤمن العبور إلى الأندلس للمرة الثَّانية وتجهيز حملة كبرى لغزوِّ الممالك المسيحيَّة في البر والبحر، فأمر لأجل تحقيق هذا الهدف بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل بلاده، وباستجلاب الخيل من كامل بلاد المغرب، والاستكثار من أنواع السِّلاح من السُّيوف والرِّماح والدُّروع والسِّهام إلى غير ذلك من معدات القتال، كما أمر بإرسال الكتب إلى سائر الجهات والقبائل لاستنفار النَّاس وحثهم على الجهاد في سبيل الله.

وقد اجتمع له جيش كبير بلغ عدده أكثر من مائة ألف فارس ومائة ألف راجل، وقيل أكثر من ثلاثمائة ألف فارس من قبائل زناتة والموحِّدين والمرتزقة من قبائل المغرب، وثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل من المتطوعة، وتمَّ تقسيم هذا الجيش إلى أربع فرق، تسير الفرقة الأولى منه إلى غرب الأندلس لمقاتلة ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، والثَّانية تسير إلى مملكة ليون لمقاتلة ملكها فرناندو الثَّاني ولد القيصر ألفونسو السَّابع، والثَّالثة تتجه إلى قشتالة لمقاتلة ملكها يومئذٍ ألفونسو الثَّامن وهو طفل تحت الوصاية، والفرقة الرَّابعة تسير صوب مملكة برشلونة وأراغون لمقاتلة ملكها ألفونسو الثَّاني.

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان فبعد هذه الاستعدادات الضَّخمة مرض الخليفة عبد المؤمن مرضًا شديدًا لم يستطع الأطباء مداواته، وعندما أحسَّ بدنوِّ أجله، عمد إلى إسقاط ولده محمَّد من ولاية العهد وتولية ولده أبي يعقوب يوسف باعتباره أصلح من يتولى الخلافة.

وبوفاته تتوقف هذه الحملة الكبرى لغزوِّ الممالك المسيحيَّة بالأندلس ولولا هذا القدر المحتوم لاستطاع عبد المؤمن دون شك أن يحقِّق انتصارات باهرة على الممالك المسيحيَّة التي كانت تعاني من الفوضى والاضطراب بسبب الحروب الدَّاخليَّة.

الفصل الثاني: حركة الاسترداد المسيحي في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ويعقوب المنصور

أولًا – عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

ثانيًا – عهد الخليفة يعقوب المنصور

كانت سياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن استمرارًا لسياسة والده الجهاديَّة في بلاد الأندلس[1]، فتابع مجاهده الثوار وحلفائهم النَّصارى بالخصوص بشرق الأندلس حيث يوجد الثائر ابن مردنيش بمرسيَّة وبلنسيَّة، هذا الثائر الذي لم يتوقف عن تنظيم غاراته على مدن الموحِّدين وقلاعهم وحصونهم بمساعدة النَّصارى رغم هزيمته في موقعة السبيكة رفقة حليفه ابن هَمُشْكُ في رجب 557هـ/13 جويلية 1162م[2]. وقد كرَّس الخليفة يوسف حياته كلها في الجهاد في سبيل الله بالأندلس، وخاض معارك عديدة ضدَّ المسيحيِّين وحلفاءهم المسلمين إلى أن استتبت له الأمور وقضى على جميع ثوار هذه البلاد.

أولًا– عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن:

1– موقعة فحص الجلَّاب:

أدرك الخليفة يوسف خطورة ابن مردنيش، فتجهَّز لحربه وحرب حلفائه النَّصارى، فقد أرسل قوة من أربعمائة ألف فارس برفقة أخيه أبي حفص عمر عندما جاز إلى الأندلس لمقابلة أخيه أبي سعيد عثمان والي قرطبة[3]، فعند وصول أبي حفص عمر إلى إشبيليَّة أرسل منها خمسمائة

1– يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ الخليفة يوسف خصَّ جزيرة الأندلس في إمارته وخلافته ببعوثه لها بالغزوِّ فقمعوا عاصيها وعدوها، وإفترعوا بالفتح قاصيها من الأرض ودنيها، وأحسن لأجنادها وسبلَّ عليهم الخيل لغزوِّ الكفرة في إمدادها بالمئات والآلاف في إعدادها. (انظر: **المن بالإمامة**، ص165).

2– ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**،ص133–134 ؛ ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج9، ص456).

3– كان من أثر لقاء الأخوين أبو حفص عمر وأبو سعيد عثمان والي قرطبة، أن قبل هذا الأخير مبايعة أخيه يوسف بن عبد المؤمن، فتمَّت بذلك ليوسف البيعة العامَّة في الثامن ربيع الأوَّل سنة 560هـ/22 جانفي 1165م، وحمل بذلك لقب أمير المؤمنين، ونشير إلى أنَّ يوسف بن عبد المؤمن تلقب في البداية بلقب الأمير فقط، لأنَّه بويع بيعةً جزئيةً عندما توفي والده مباشرة في العاشر من جمادى الآخرة سنة 558هـ/16 ماي 1163م، حيث رفض البعض من مشايخ الموحِّدين مبايعته بالإضافة إلى أخويه والي بجاية أبو محمَّد عبد الله، ووالي قرطبة أبو سعيد عثمان، فلم يستتب له الأمر وأصبح خليفةً إلَّا بعد وفاة أخيه والي بجاية في حدود عام 560هـ/1164م، وقبول والي قرطبة مبايعته. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص163 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص83 وما بعدها ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص208–209 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص319–320 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص209 وما بعدها).

فارس إلى مدينة بطليوس لحمايتها من غزوات ملك البرتغال، وقد التقت هذه الفرقة شرذمة كبيرة من النَّصارى من أهل شنترين فهزمهم المسلمون وغنموا ما عندهم، واستأصلوهم قتلًا وسبيًا[1].

وأرسل بقية الجيش مع أبي سعيد يخلف بن الحسين وأبا عبد الله بن يوسف من إشبيليَّة إلى قرطبة، ومنها اتجها بعسكرهما إلى شرق الأندلس نحو ابن مردنيش، وحدثت المواجهة الأولى بينهما في حصن لك[2] في شعبان سنة 560هـ/جوان 1165م ولم تُسفر هذه المواجهة العنيفة التي استمرت يومًا كاملًا على غالب ولا مغلوب وكانت متعادلة، فاضطر قادة الموحِّدين إلى طلب الإمدادات من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بمرَّاكش، فوصل كتابهم إليه أول يوم من شهر رمضان عام 560هـ/11 جويلية 1165م[3]، فأرسل الخليفة أخويه أبي حفص عمر وأبي سعيد عثمان بجيش من الموحِّدين ونخبةً من الفرسان العرب من زغبة ورياح والأثبج[4]، وخرجوا من مرَّاكش في العشر الأوائل من رمضان 560هـ/ جويلية 1165م، وعندما وصلوا إلى إشبيليَّة تشاوروا واتفقوا وخرجوا في أول ذي القعدة من نفس العام لقتال ابن مردنيش، فاستولوا على مدينة أندوجر[5] وقدمت الحصون المجاورة لها، الطاعة للموحِّدين وبعد استيلائهم على غنائم كثيرة أكملوا طريقهم نحو بلاد ابن مردنيش[6].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص88.

2- يقع جنوب غرناطة وعلى مقربة منها. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص196، هامش2).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص196 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص88.

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص196 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ص320.

5- بلدة من مقاطعة جيان، تقع شمال شرقي قرطبة، مشيَّدة بشط الوادي الكبير، يعبر لها على قنطرة في غاية العلو. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص197 هامش2).

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص89.

ولمَّا سمع ابن مردنيش بقدوم جيش الموحِّدين نحوه، قام بحشد جميع قوَّاته بشرق الأندلس واستدعى حلفائه النَّصارى من طليطلة وأحوازها فلبى نداءه جمع كبير[1]، بلغ ثلاثة عشر ألفًا من القشتاليِّين والأراغونيِّين[2]، فانطلق بجميع قوَّاته لملاقاة جيش الموحِّدين الذي كان آنذاك بمدينة لورقة وعندما وصل ابن مردنيش ناحية لورقة اعترض طريقه الموحِّدين، لكن الموحِّدين عدلوا عن طريقه وغيروا وجهتهم حيث سلكوا طريق مغايرًا أوصلهم إلى سهل الفندون[3] ومنه توجهوا إلى مرسيَّة[4].

وعاد ابن مردنيش وقوَّاته المسيحيَّة أدراجهم صوب مرسيَّة وفي يوم الجمعة السَّابع من ذي الحجة عام 560هـ/15 أكتوبر 1165م[5] التقى الجمعان في سهل مرسيَّة وبالضبط في المكان المعروف بفحص الجلَّاب[6]، وخاضا معركة ضارية أبلت فيها الجيوش الموحِّديَّة بلاءً حسنًا واستطاعت أن تهزم ابن مردنيش وحلفائه النَّصارى، ويذكر ابن أبي زرع أنَّه قُتل جميع من كان معه من الرُّوم[7]، ويقول المرَّاكشي وقتل من أعيان الرُّوم جملة[8]، ويقول ابن صاحب الصلاة وابن عذارى

1- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ ابن مردنيش استدعى حلفائه النَّصارى من طليطلة وأنظارها، والعُصاة والجُناة من أقطارها فوصلوا إليه بجمع كبير ذميم حقير عند الله، وتسابقوا لإجابته وحماية غوايته. (انظر: **المن بالإمامة**، ص198).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص210 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص66. (يذكر المرَّاكشي بأنَّ ابن مردنيش أقبل لمنازلة الموحِّدين في جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج). (انظر: **المُعجب**، ص176).

3- يحاذي هذا السهل الخصب نهر سانكرونيرا (Sangronera) ويمتد على مسافة خمسة وعشرين ميل بالمنطقة التي تفصل لورقة وقرطاجنة. (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص215، هامش25).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص198 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص89.

5- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص198 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص89 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص216. (يجعل المرَّاكشي تاريخ موقعة فحص الجلَّاب في سنة 567هـ/1172م، وهذا خطأ والصَّحيح ما أثبتناه في المتن، ويبدو أنَّه أخلط بين تاريخ وفاة ابن مردنيش في عام 567هـ/1172م، وبين تاريخ موقعة فحص الجلَّاب). (انظر: **المُعجب**، ص176-177).

6- فحص يبعد عن مرسيَّة عشرة أميال، وقد سماه أيضًا ابن صاحب الصلاة بحامة بلقواد أو بلقوار. (انظر: **المن بالإمامة**، ص198، هامش3 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص89 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص210). (غير أنَّ المرَّاكشي يقول بأنَّه يبعد أربعة أميال من مرسيَّة). (انظر: **المُعجب**، ص177).

7- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص210 .

8- يقصد بأنَّه قُتل عدد من قادة وأعيان ووجهاء الرُّوم المشاركين في المعركة إلى جانب ابن مردنيش. (انظر: **المُعجب**، ص177).

وولى الكفرة مدبرين فقتلوا قتلًا ذريعًا، وخرَّ أكثرهم صريعًا[1]، ويذكر البيذق أنَّه قُتل جميع من كان مع ابن مردنيش حتَّى لم يبقى إلَّا خيل قليلة[2]، كما قُتل شيوخ العرب السبعة[3].

وبالنِّسبة إلى ابن مردنيش فقد فرَّ إلى جبل قريب من موقع المعركة، وفي الليل أكمل طريقه إلى مرسيَّة خائبًا ذليلًا، فتبعه الموحِّدون ودخلوا مرسيَّة وعاثوا فيها وفي أحوازها واستولوا على غنائم كثيرة[4]، ومن هناك بعث أبو حفص عمر وأبو سعيد عثمان رسالة إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن يخبرونه بالنَّصر في معركة فحص الجلَّاب على خصمهم ابن مردنيش وحلفائه النَّصارى والرِّسالة مؤرخة في العشر الأوسط من ذي الحجة عام 560هـ/أواخر أكتوبر 1165م[5]، وقد وصلت هذه الرِّسالة إلى مرَّاكش صبيحة الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة عام 560هـ/31 أكتوبر 1165م[6].

1- **المن بالإمامة**، ص199 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص89.

2- **أخبار المهدي بن تومرت**، ص129.

3- يبدو أنَّه يقصد القادة العرب المشاركين في هذه المعركة مع الجيش الموحِّدي. (انظر: **أخبار المهدي بن تومرت**، ص129).

4- يذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذارى أنَّ جيش الموحِّدين، عيَّد عيد الأضحى بأحواز مرسيَّة محاصرًا لها. (انظر: **المن بالإمامة**، ص200 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص90).

5- الرِّسالة من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش، وقد بعثها أبو حفص عمر وأبو سعيد عثمان إلى الخليفة يوسف بمرَّاكش، وكذلك إلى الطلبة والأشياخ والأعيان وعموم النَّاس بإشبيليَّة، وقد خُتمت الرِّسالة بقصيدة شعرية تمدح هذا النَّصر. (وعن نص الرِّسالة. انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص201 وما بعدها عدَّة صفحات).

6- يذكر ابن صاحب الصلاة، قصة طريفة حدثت له صبيحة اليوم الذي وصلت فيها الرِّسالة إلى مرَّاكش، حيث يذكر أنَّه بكرَّ كعادته إلى قصر الخليفة والتقى هناك بأشياخ الأندلس والطلبة يتطلَّعون الأخبار، وفجأة رأى قطًا على سقف دار الخليفة يمشى وفي فمه فرخ حمام قد افترسه، فقلت لمن كان معي من أشياخ الأندلس، الله أكبر هُزم والله ابن مردنيش، فقالوا له لماذا ؟ فقلت لهم هذا القط يُشبه الأسد، والأسد عُدوي، والحمام عجمي فقد غلب الموحِّدين العجم، وافترسوهم كافتراس هذا القط الفرخ، فما كان مقدار ما أكملنا الكلام في هذا الفال، ودخل الفرسان القادمين من الأندلس بالرِّسالة التي تحمل بُشرى النَّصر على ابن مردنيش. (انظر: **المن بالإمامة**، ص200-201).

وبعد أيام من دخول مرسيَّة والعيث في أحوازها عاد الموحِّدون أدراجهم منها[1]، واكتفوا بقطع دابر ابن مردنيش واحتلال أندوجر وقلاع أخرى على درجة من الأهمية دون أن يحتلوا بسطة ولورقة[2].

وقد قضت هذه الحملة على هيمنة ابن مردنيش في الأندلس، وأبرزت عدم ولاء أهل المنطقة له[3]، وأدت إلى تشتيت جبهة ابن مردنيش مع حلفائه النَّصارى، وقد فقد ابن مردنيش خلالها عساكر كثيرة خاصة النَّصارى المرتزقة منهم الذين أبيدوا عن آخرهم[4]، كما نبَّهت الموحِّدين إلى ضرورة القضاء على نفوذ ابن مردنيش بصفة نهائية والاستيلاء على المنطقة لما تتميز به من أهمية عسكرية واقتصادية[5].

1- غادر أبو حفص عمر وأبو سعيد عثمان مع قواتهما المنطقة، واتجه أبو سعيد عثمان إلى قرطبة، في حين عاد أبو حفص عمر عبر إشبيليَّة إلى مرَّاكش التي وصلها في الحادي عشر ربيع الآخر 561هـ/14 فيفري 1166م، حيث خرج لاستقباله الخليفة يوسف ونظمَّت بالمناسبة احتفالات كبرى، أقيمت خلالها الولائم ومنحت الهبات لمن شارك في الحملة، فحصل أعيان الموحِّدين والعرب كل واحد مائة دينار، ولكل فارس عشرين دينار، وهذا حسب قول صاحب الصلاة، أمَّا ابن خلدون فيقول أنَّ أبو سعيد عثمان ذهب رفقة أبو حفص عمر إلى مرَّاكش وليس إلى قرطبة سنة 561هـ/1166م. (انظر: **المن بالإمامة**، ص213 وما بعدها ؛ **العِبر**، ج6، ص320 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص217).

2- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص216 .

3- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص136. (ويذكر أشباخ أنَّ ابن مردنيش وحلفائه النَّصارى والثوار الأندلسيِّين يُلقون تبعة هذا الفشل كلٌ على الأخر، واشتد بينهم الخلاف وانتهى الأمر بأن انسحب بعض الزعماء الأندلسيِّين سرًا ثمَّ علانيةً وانضموا إلى الموحِّدين). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص66).

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص210.

5- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص136.

2- هزيمة ألفونسو هنريكيز واسترجاع بطليوس:

ظهر في غرب الأندلس رجل برتغالي مغامر اسمه جيرالدو سمبافور[1] في حدود سنة 560هـ/1165م، تزعم هذا الرَّجل عصابة من عصابات قطاع الطرق وجهت اهتماماتها لمحاربة المسلمين ومفاجأة مدنهم وقلاعهم للاستيلاء عليها، وبيعها لملوك وأمراء النَّصارى، وكان جيرالدو سمبافور في أغلب أوقاته يعمل لحساب ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز[2].

وقد استغل جيرالدو فرصة انشغال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالقضاء على ثورات المغرب الأقصى خاصةً تمرد غمارة، وبمحاربة ابن مردنيش وحلفائه النَّصارى بشرق الأندلس وكذلك انشغاله بمحاولة إقناع أخويه عاملي قرطبة وبجاية لكي يعترفوا به خليفةً للموحِّدين، كما استغل فرصة انتهاء النِّزاع بين البرتغال وليون بتوقيع معاهدة ليريث (Lérez) في بونتيبيدرا (Pentevedra) يوم 10 جمادى الآخرة 560هـ/30 أفريل 1165م[3]، وقام بسلسلة من الغزوات على مدن غرب

1- (Giraldo Sen Pavor) تُسمية الرِّوايات الإسلاميَّة جراندة الجليقي أو العلج جيراند الجليقي، وتلقبه الرِّوايات النَّصرانيَّة بالباسل، سماه ميراندا، خيراردو سام بابور، وهو مغامر برتغالي ورئيس عصابة من العصابات التي تحارب المسلمين، فقد استولى على مجموعة من مدنهم وباعها لملوك النَّصارى، وهناك من يُسميه بالسيد القمبيطور البرتغالي، تشبيهًا بالسيد القمبيطور القشتالي الذي تسميه الرِّوايات الإسلامية لذريق. لجأ جيرالدو في آخر حياته بعد أن وجد نفسه فقيرًا إلى الموحِّدين بمرَّاكش، وكانت نهايته القتل بعد أن اكتشف الخليفة يوسف اتصالًا سريًا بينه وبين حليفه السَّابق ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز في حدود عام 571هـ/1176م. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص274-275 ؛ البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، ص131، هامش4 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص104 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص321 ؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص220، هامش34 ؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص142-143).

2- مراجع عقيلة الغناي: **سقوط دولة الموحِّدين**، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط2، 2008م، ص102.

3- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص221، هامش37.

الأندلس[1]، وقد أعانه في ذلك ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز عندما لمس نجدته ويقضته، فأمدَّه برجاله وسلَّطه على المسلمين[2].

وقد استولى جيرالدو على مدينة ترجالة[3] في جمادى الآخرة سنة 560هـ/أفريل 1165م ثمَّ على مدينة يابرة في ذي القعدة 560هـ/سيتمر 1165م فباعهما للنَّصارى[4]، وفي شهر صفر عام 561هـ/ديسمبر 1165م استولى على مدينة قاصرش[5] ثمَّ استولى في جمادى الأولى عام 561هـ/مارس 1166م على حصن منتانجش (Montanchez) الواقع إلى الجنوب الشرقي من ترجالة وكذلك حصن شيربة (Serpa) وأعقب ذلك الاستيلاء على حصن جلمانية (Jurumenia) الذي يقع جنوب بطليوس وشمال يابرة في سنة 562هـ/1667م، وسكنه مع قوَّاته وأخذ يشن سلسلة من الغارات على بطليوس ويضيِّق عليها الخناق[6].

1- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص221 ؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص142.

2- يذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذارى كيفية استيلاء جيرالدو سمبافور على مدن المسلمين، أنَّه كان يتسلل في الليالي الحالكة والمظلمة وشديدة المطر، ويستغل نوم الحراس المسلمين، ويرمي بالسلالم إلى جانب البرج، ويصعد عليها أولًا ويقبض على الحارس ويهدِّده، ثمَّ يقول تكلم على عادتك لئلا يشعر النَّاس بنا، فإذا استوفى طلوع أفراد عصابته في أعلى سور المدينة صاحوا صيحةً واحدةً ودخلوا المدينة وقتلوا من وجدوه وأخذوا من فيها سبيًا وافيًا. (انظر: **المن بالإمامة**، ص288-289 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص104).

3- مدينة بغرب الأندلس تقع شمال ماردة، منها إلى حصن قاصرش مرحلتان خفيفتان، وهي مدينة كبيرة لها أسوار منيعة، وبها أسواق عامرة وخيل ورجال يقطعون أعمارهم في الغارات على بلاد الرُّوم، والأغلب عليهم اللُّصوصيَّة والخداع. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص274 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص133).

4- لم يحدِّد ابن صاحب الصلاة وابن عذارى اسم ملك النَّصارى الذي اشترى المدينتين، والمرجَّح أنَّه ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال الذي كان يخطط للاستيلاء على هذه المدن وانتزاعها من الموحِّدين. (انظر: **المن بالإمامة**، ص289 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص104 ؛ مراجع عقلية الغناي، **سقوط دولة الموحِّدين**، ص162).

5- مدينة تقع شمال بطليوس، بها حصن منيع فيه خيل ورجال يغارون في بلاد الرُّوم. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص274 ؛ ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص289، هامش4).

6- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص289-290 ؛ البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، ص131، هامش4 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص104.

وكان الاستيلاء على هذا الحصن وكذلك الحصون والمدن التي ذكرناها مقدمة لاستيلاء ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز على بطليوس، فقد قام حليفه جيرالدو بتهيئة الأجواء والظروف لكي يستولي عليها.

وقد تمكن جيرالدو من مفاجأة بطليوس والاستيلاء عليها[1]، ولجأ الموحِّدون مع واليهم أبي علي بن عمر بن تمصليت إلى القصبة للاحتماء بها، وضرب النَّصارى عليها الحصار، وأقبل إليها ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز واستولى على المدينة في شهر رجب سنة 564هـ/أفريل 1169م[2].

ولم يكن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بغافل عن الأحداث التي وقعت في غرب الأندلس وما نتج عنها من سقوط بعض المدن والحصون في أيدي النَّصارى مثل مدينة ترجالة ويابرة وقاصرش وحصن منتانجش وحصن شيربة وجلمانية، ثمَّ مدينة بطليوس وقد شغلته الثورات والفتن التي وقعت في المغرب، فحالت دون اتخاذ أي إجراء لإنجاد هذه المدن والحصون[3].

وانتظر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حتَّى هدأت الأمور في بلاد المغرب في أوائل عام 564هـ/1169م[4]، وبدأ يُعد العدّة للعبور إلى الأندلس بنفسه، رفقة جيش ضخم لإنجاد بطليوس ومدن غرب الأندلس، فأمر الخليفة يوسف في حدود شهر ربيع الآخر سنة 564هـ/جانفي

1- لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة تاريخ استيلاء جيرالدو سمبافور على بطليوس، ويبدو أنَّه استولى عليها قبل شهر ربيع الآخر سنة 564هـ/جانفي 1169م، لأنَّ ابن صاحب الصلاة يذكر بأنَّه وصلت أنباء للخليفة يوسف بمرَّاكش بامتلاك جيرالدو لبطليوس، فأرسل بذلك حملة عسكرية إلى الأندلس لإنجادها بقيادة الشَّيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني، فتحرك الجيش في ربيع الآخر 564هـ/جانفي 1169م. (انظر: **المن بالإمامة**، ص291-292).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص291 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص105 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص29.

3- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص147.

4- يصف كلا من ابن صاحب الصلاة وابن عذارى أحوال بلاد المغرب مع مطلع عام 564هـ/1169م بقولهما "هدأت الفتن في العُدوة وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب ورخصت الأسعار، ودانت الأقطار، وانقطعت فتنة الضلَّال الجهَّال، أهل الجبال، وتابوا وأنابُوا، ودُعوا للجهاد فأجابوا. (انظر: **المن بالإمامة**، ص290 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص104).

1169م بضرب الطبول وخروج الجيش لغزوّ النَّصارى بالأندلس[1]، وقد خرج مع هذا الجيش من مرَّاكش ونزل بمحاذاة نهر تانسيفت[2] فأقام به ثلاثة أيام ولمَّا سمع باستيلاء جيرالدو سمبافور على مدينة بطليوس اجتمع رأي أشياخ الموحِّدين على التَّعجيل في إرسال الجيش إلى الأندلس رفقة الشَّيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني، فانطلق في شهر ربيع الآخر 564هـ/جانفي 1169م أمَّا الخليفة فقد عاد إلى عاصمة دولته مرَّاكش يُتابع منها الأوضاع عن كثب[3]، وقد أرسل الخليفة رسالة من إنشاء أبي الحسن بن عياش مؤرخة في الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر عام 564هـ/21 جانفي 1169م إلى ولاة الأندلس أوضح فيها الظروف التي منعته الجواز بنفسه إلى الأندلس، وأكد فيها أنَّه مازال مهتمًا بنصرتهم على أعدائهم، وأنَّه وجه إليهم طليعة عسكرية من الموحِّدين صُحبة الشَّيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني لمحاربة المسيحيِّين في انتظار جوازه[4].

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص291-232 ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص105-106 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص321.

2- تانسيفت أو تنسيفت، يقول عنه ابن عذارى أنَّه وادي وسماه تنسيفت، بينما ورد عند ابن صاحب الصلاة باسم تانسفت، وجاء عند الحِميري باسم تانسيفت، وقال بأنَّه نهر على ثلاثة أميال من مرَّاكش، ليس كبيرًا ولكنه دائم الجريان، وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يُبقي ولا يذر، وتصب في هذا النهر مياه منبعثة من جبل درن، وقيل أنَّ طوله يبلغ نحو 250 كلم. (انظر: **المن بالإمامة**، ص291 هامش1 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص105 ؛ **الروض المعطار**، ص127).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص291-292 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص105-106. (يذكر ميراندا أنَّه بسبب مظاهر العظمة والأبهَّة التي كانت تحيط بمواكب الخلفاء الموحِّدين، فقد كان هذا الموكب مجبرًا على السير بإيقاع بطيء، لذلك وُجِّه الشَّيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني إلى الأندلس على جناح السرعة من أجل إنقاذ بطليوس أو على الأقل قصبتها). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص227).

4 - عن نص الرِّسالة. (انظر: **الملحق رقم 9**، ص425-426).

ولمّا وصل جيش الشّيخ أبي حفص عمر إلى الأندلس واستقرَّ بإشبيليّة، وهمَّ بالخروج إلى بطليوس لتحريرها من أيدي البرتغاليّين وإنقاذ الموحّدين المحصورين بقصبة المدينة، حتّى وصلت أخبار بوصول النّجدة للمسلمين المحصورين ببطليوس من فرناندو الثّاني ملك ليون حليف الموحّدين[1]، وعندما اقترب بجيشه من بطليوس أرسل رسوله إلى واليها الموحّدي أبي علي عمر بن تمصليت المحصور بقصبتها ومن معه من الموحّدين يعلمهم بقدومه، ويشجعهم على الثبات ويطلب منهم مساعدته في دخول المدينة لإنقاذهم، فأمر ابن تمصليت رجاله بنقب سور القصبة من موضع لا يراه منه جند ألفونسو هنريكيز، ولمّا تأكد ابن تمصليت وأتباعه من وصول جيش ملك ليون فرناندو الثّاني وبداية المعركة مع الجيش البرتغالي[2]، فتحوا النّقب وخرجوا جميعًا مسرعين إلى باب قريب من أبواب المدينة ففتحوه، ودخل جيش فرناندو وقاتلوا معه جيش ألفونسو هنريكيز قتالًا شرسًا أظهرو فيه شجاعة كبيرة، ولمّا رأى ألفونسو هنريكيز هزيمة جيشه فرَّ خائبًا منهزمًا وأثناء خروجه من باب المدينة وهو في حالة فزع شديد اصطدم بعمود الباب فانكسرت فخده

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص106. (عقد الخليفة الموحّدي يوسف بن عبد المؤمن تحالفًا مع ملك ليون فرناندو الثّاني في سنة 563هـ/1168م، وقد بدأ هذا التّحالف عندما استقبلت العاصمة الموحّديّة مرّاكش لعدد من السفارات التي تحمل النّفائس الثّمينة والتُّحف، ومن أبرز هذه السفارات تلك التي ترأسها الزعيم القشتالي فرناندو رودريكيز صهر الملك فرناندو الثّاني، حيث قَدِم برفقة أخويه إلى إشبيليّة في رمضان 563هـ/ماي 1168م راغبًا في التّحالف مع الموحّدين، فأذن له الذهاب إلى مرّاكش، وقد استقبله الخليفة يوسف بحفاوة بالغة، ومكث بالعاصمة مرّاكش خمسة أشهر، وقد عاهد الخليفة بأن يكون حليفًا للموحّدين ضدَّ أعدائهم، ومن ثمرة هذا التّحالف إرسال الموحّدين جيشًا سنة 563هـ/1168م لمساعدته في حربه ضدَّ أعدائه آل لارا الذين كانوا يسيطرون على ابن أخيه ألفونسو الثّامن، واستطاعت القوّات المتحالفة الانتصار على أعداء فرناندو واجتياح منطقة قشتالة التي استمرت غاراته عليها مدّة خمسة أشهر، وللتّعبير عن امتنانه للموحّدين أقام معهم حلف دفاع وهجوم مُشترك، أقسم على الوفاء به في كاتدرائية بلاطه، ونجده يوفي بعهده أثناء استيلاء ملك البرتغال على بطليوس). (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص284 وما بعدها ؛ ميراندا، **التّاريخ السّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص226).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص295-296 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص106. (يذكر أشباخ أنَّ الموحّدين الذين كانوا محصورين داخل قصبة بطليوس أتيحت لهم الفرصة لمشاهدة منظرًا غريبًا، وهو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين من أجل الاستيلاء على المدينة). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص29).

اليمنى، وسقط مغشيًا عليه[1] فحمله أصحابه إلى قاية[2]، وتبعه رجال فرناندو وعادوا به أسيرًا، فقيَّده فرناندو في الحديد ثمَّ أطلقه برغبة من النَّصارى وسرَّحه إلى قُلُمْرِيَّة بلده مهزومًا ذميمًا[3] بعد أن تعهَّد برد الأماكن والأراضي التي انتزعها من جليقية والتَّنازل عن كل دعوى بشأنها[4].

وقد تمكن بذلك فرناندو أن يضرب خلال هذه الغزوة عصفورين بحجرٍ واحد، حيث بين للموحِّدين أنَّه وفى بعهده معهم وساعدهم في حرب عدوهم، ومن جهة أخرى استطاع هزم عدوه ألفونسو هنريكيز وتأديبه، لأنَّه كان يرى أنَّه إذا كان هناك ملك مسيحي من حقه استرداد بطليوس من المسلمين فذلك الملك لا يجب أن يكون غيره[5].

1- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز عندما انكسرت فخذه اليمنى، لم يستطع منذ ذلك اليوم أن يركب فرسًا إلى أن مات. (انظر: **المن بالإمامة**، ص296).

2- موضع قريب من بطليوس، وهو بالغرب منها. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص296، هامش1).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص296 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص106.

4- يذكر أشباخ أنَّ ملك ليون فرناندو الثَّاني أبدى شهامةً وكرمًا إزاء محنة عدوِّه ألفونسو هنريكيز، فأمر أطباءه بأن يعالجوه بمنتهى العناية وعامله بكل ما يعامل به الملوك من صنوف التَّكريم والرعاية، وكان يُجلسه إلى جانبه، وقد كان ألفونسو على وشك الخضوع له وأداء الضريبة افتداءً لحريته. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص29).

5- عقد ملك ليون فرناندو الثَّاني مع ملك قشتالة سانشو الثالث اتفاقية ساكون (Sahagun) يوم 23 ماي 1158م وتقضي بأن يتم تقسيم الأندلس بينهما بعد استردادها من يد المسلمين، وتمَّ تقسيمها بأن يحصل ملك ليون على المنطقة الممتدة بين لبلة ولشبونه والتي تضم بالإضافة إلى المدينتين كلًا من ميرتولة ويابرة وبطليوس وميريدة ومونتانشس وشِلب، كما يحصل على نصف إشبيليَّة وعلى كل القلاع التي توجد بينهما وبين لبلة، مقابل ذلك يحصل ملك قشتالة على كل ما تبقى من الأندلس خصوصًا المنطقة الممتدة بين الوادي الكبير وغرناطة. (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص227، هامش51).

وعلى العموم فقد حرِّرت بطليوس من أيدي البرتغاليِّين في الثَّاني والعشرين من شعبان 564هـ/21 ماي 1169م[1]، وسلَّم ملك ليون فرناندو الثَّاني المدينة للموحِّدين ووفى بعهده[2] وانصرف إلى بلاده سالمًا بأجناده موصوفًا عند المسلمين والنَّصارى بالوفاء[3] وأصبح واليها ابن تمصليت حاكمًا عليها[4]، وكتب الشَّيخ أبو حفص عمر إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن رسالةً يصف هذا الفتح فسرَّ بذلك أمير المؤمنين سرورًا كبيرًا وشكر الله فيه على صنعه الأجمل ولطفه الأكمل، وقد أنشده الشعراء ومدحوه بقصائد كثيرة، منها قصيدة طويلة للشاعر أبو عمر حربون التي يمدح فيها الخليفة ويهنئه على هذا النَّصر، ونورد منها أربعة أبيات:

بِسَعْدِكَ أَضْحَى الدِّين جَذْلَانَ بَاسِمًا وبِاسْمِكَ أَمْسَى الشِّرْكُ للشِّرك هادمًا

أَلَا إنَّها فيما وُعدتَ لآيةٌ يَدِينُ بِهَا من كان باللهِ عالمًا

براهينَ صدقٍ ما تَزَالُ وَلَمْ تَزَلْ تُثَبِّتُ يَقْظَانًا وتُوقِظُ نَائِمًا

أَلَيْسَ من الآياتِ أَنْ بِتَّ وَادِعًا وقَيْصَرُ قَدْ أَمْسَى لِأَمْرِكَ خَادِمًا[5]

وعلى اثر سيطرة الموحِّدين على بطليوس، اتجه الشَّيخ أبو حفص عمر بن يحي الهنتاني بجيشه الذي لم يشارك في تحرير بطليوس إلى قرطبة، فعمَّى السرور بمقدمه، وألقي الرعب في قلوب

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص297.

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص297. (غير أنَّ أشباخ يذكر أنَّ فرناندو لم يسلم بطليوس للمسلمين إلَّا بعد أن قطعوا عهد الخضوع، فأقرَّ بذلك ابن تمصليت حاكمًا عليها وعاد إلى بلاده). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص29-30).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص298 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص107 .

4- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ ابن تمصليت طلب من فرناندو الثَّاني أن يدخل قصبة بطليوس ويراها، فرفض دخولها وقال إنَّما هي دار أمير المؤمنين ولا أدخلها إلَّا بأمره، وقد عملت ما أوجب عهدي وربطي وودي. (انظر: **المن بالإمامة**، ص297).

5- أورد هذه القصيدة كاملةً ابن صاحب الصلاة، بينما أورد ابن عذارى منها الأبيات الثلاثة الأولى. (انظر: **المن بالإمامة**، ص299 وما بعدها ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص108).

النَّصارى والثائرين المسلمين بشرق الأندلس عندما علموا بوصول هذا الجيش إليها، وتوجه ابنه أبو يحي إلى بطليوس ليقوم بولايتها تنفيذًا لأوامر الخليفة يوسف[1].

وقد دخل والي بطليوس الجديد أبو يحي في حرب ضروس مع جيرالدو سمبافور الذي فرَّ عند استيلاء الموحِّدين على بطليوس، واستقرَّ بحصن جلمانية، وخاض معارك كثيرة مع المسلمين إلى أن دخل في طاعة الموحِّدين في أوائل سنة 569هـ/1174م[2].

3 – العبور الأوَّل وغزو وبذة وطلبيرة وطليطلة:

3-1- ظروف وأسباب العبور الأوَّل:

لم يكتف الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بإرسال الجيوش إلى بلاد الأندلس لدحر أعدائه النَّصارى، وكذلك الثائرين عليه من المسلمين، بل كان ينوي في الكثير من المرات العبور بنفسه إلى الأندلس، لكي ينظم شؤونها المختلفة خاصةً ما يتعلق بالغزوِّ والجهاد لإيقاف حركة الاسترداد المسيحي التي تعاظم شأنها بعد وفاة والده عبد المؤمن.

وقد ذكرنا سابقًا عزم الخليفة يوسف العبور إلى الأندلس بنفسه في شهر ربيع الآخر سنة 564هـ/جانفي 1169م وخرج من مرَّاكش وعسكر في نهر تانسيفت ثلاثة أيام، ولكنه عندما سمع باستيلاء جيرالدو سمبافور على مدينة بطليوس اضطر إلى إرسال جزء من الجيش على جناح السرعة لإنقاذها بقيادة الشَّيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاني، والعودة إلى مرَّاكش ليتابع مستجدات الأوضاع[3]، وقد أرسل الخليفة رسالةً إلى أشياخ الموحِّدين وأهل الأندلس من إنشاء أبي

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص302 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص108-109.

2- البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، ص131-132، هامش4 ؛ ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص305-306 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص108-109.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص291 -292 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص105-106.

الحسن بن عياش مؤرخة في الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر عام 564هـ/21 جانفي 1169م أوضح فيها الظروف التي منعته من العبور إلى الأندلس، ووعدهم بالنَّجدة والنُّصرة على أعدائهم[1].

ورغم المرض الشديد الذي ألمَّ بالخليفة يوسف عام 565هـ/1169م والذي عان منه مدَّة طويلة بلغت أربعة عشرًا شهرًا وخمسة عشر يومًا[2]، إلَّا أنَّه كان يُعد العدَّة للجواز إلى الأندلس لمقارعة الممالك المسيحيَّة، فخلال مرضه هذا قام باستدعاء العرب من إفريقية وبلاد الزاب وترغيبهم للمشاركة في الجهاد[3]، بعد أن وصلته من أخيه أبي حفص أنباء الاستغاثة والتَّرغيب في غزوِّ النَّصارى بالأندلس[4].

وقد سُرَّ الخليفة يوسف سرورًا كبيرًا باستجابة العرب لندائه، ومجيئهم رفقة أخيه والي بجاية أبي زكريا يحي بن عبد المؤمن ومعهم أموالهم وجملة كبيرة من الخيل العربية المدربة، وكان آنذاك الخليفة قد شُفي من مرضه الطَّويل، فاستقبل أشياخ العرب الوافدين وعامتهم للمبايعة يوم الاثنين الرَّابع من ربيع الآخر سنة 566هـ/15 ديسمبر 1170م واستمرت الوفود في المبايعة إلى غاية يوم الأربعاء عشرين ربيع الآخر من نفس السنة، وقد استقبلهم الخليفة استقبالًا حارًا وأجزل لهم الأعطيات والهبات[5].

1- عن نص الرِّسالة. (انظر: **الملحق رقم 9**، ص425-426).

2- بدأه المرض في بداية عام 565هـ/1169م، فلم يخرج من قصره للصلاة بالنَّاس إلَّا بعد مضي أربعة عشر شهرًا وخمسة عشر يومًا، وكان خروجه للصلاة يوم الجمعة السَّادس عشر من شهر ربيع الأوَّل عام 566هـ/27 نوفمبر 1170م. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص323 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص114).

3- خاطب الخليفة يوسف العرب للجهاد في الأندلس بقصيدة من قول أبو بكر بن طُفيل، وهنا يظهر دور الشعراء في حث النَّاس على الجهاد ورفع معنوياتهم. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص325 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص114).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص324 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص114.

5- ابن صاحب الصلاة ، **المن بالإمامة**، ص330 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص116 وما بعدها ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص322.

واستمر الخليفة يوسف في تحضير الجيوش حيث صدرت الأوامر في غرة جمادى الآخرة سنة 566هـ/9 فيفري 1171م إلى جميع الجند الموحّدين بالاستعداد واستكمال الزي والهيئة وفرَّق عليهم الخيل وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرِّماح والدُّروع والسُّيوف والكسى والأعلام وغير ذلك من الآلات والأسلحة، وقام بتوزيع الأموال على الجند فأعطى للفارس الموحِّدي الكامل منهم عشر دنانير ولغير الكامل ثمانية دنانير وللراجل الكامل خمسة دنانير ولغير الكامل ثلاثة دنانير، وأعطى للفارس من العرب الكامل منهم خمسة وعشرون دينارًا ولغير الكامل خمسة عشر دينارًا والراجل سبعة دنانير، وأعطى لأشياخ وزعماء العرب لكل واحد منهم خمسون دينارًا، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار، وكسى جميعهم بالقباطي[1] وغيره من أنواع الألبسة فعمَّى الاغتباط والسرور جميع الجيش، وتضاعفت معنوياتهم في خوض غمار الجهاد بالأندلس[2].

وفي يوم السبت الرَّابع رجب 566هـ/13 مارس 1171م خرج الخليفة يوسف من مرَّاكش قاصدًا بلاد الأندلس[3] في حشوده من الموحِّدين والعرب، وقد بلغ عسكر الموحِّدين عشرة آلاف فارس ونفس العدد من العرب، بخلاف المتطوعة من النَّاس والمجاهدين[4]، وقد استخلف على

1- القبطية هي الثوب الرقيق من الكتان. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص215، هامش4).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص348-349. (يظهر من خلال هذه الأموال والأعطيات التي قدمها الخليفة يوسف لأشياخ وجند الموحِّدين والعرب، أنَّه أعطى للعرب الأموال أكثر من الموحِّدين، ويبدو أنَّ غرض الخليفة من ذلك هو تشجيعهم أكثر على الجهاد في سبيل الله، كما أنَّ الخليفة أدرك الجهد والمشقة التي عانى منها هؤلاء، إثر قدومهم من إفريقية وبلاد الزاب ومسيرهم لمسافات بعيدة للوصول إلى مرَّاكش، كما أنَّ الخليفة من خلال الاعتماد عليهم للجهاد في الأندلس يتخلص من تهديدهم وثوراتهم المتكرِّرة على ولاة الموحِّدين في إفريقية).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص349 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص118 .

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص361 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص118. (غير أنَّ ابن خلكان والسَّلاوي يقولان أنَّ عدد الجيش الذي عبر مع الخليفة بلغ مائة ألف فارس من العرب والموحِّدين، ويبدو أنَّهما احتسبا جميع الجيوش التي عبرت إلى الأندلس، فقد عبر الشَّيخ أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي بعسكر من الموحِّدين في شهر ربيع الأخر سنة 564هـ/جانفي 1169، وعبر أبو حفص عمر أخُ الخليفة في الأوَّل من شهر ذي القعدة 565هـ/17 جويلية 1170م بجيش آخر قدَّره ابن أبي زرع بعشرين ألف فارس، وباحتساب هذه الجيوش الثلاثة فإنَّه من المحتمل أن يصل العدد إلى مائة ألف فارس). (انظر: **وفيات الأعيان**، ج7، ص131 ؛ **روض القرطاس**، ص211 ؛ **الإستقصا**، ج2، ص134).

مرَّاكش أخاه أبا عمران وخرج من باب دُكَّالة، وأتت جموع النَّاس لرؤية موكبه الفخم، وانتقل الخليفة بعسكره من موضع إلى آخر[1]، إلى أن حلَّ برباط الفتح في العشرين رجب سنة 566هـ/29 مارس 1171م[2].

وعندما اكتملت الترتيبات انتقل إلى مدينة سلا وعبر النَّهر فوق الجسر الحديد الذي ابتناه وذلك في الخامس عشر شعبان 566هـ/23 أفريل 1771م، وواصل السير إلى قصر مصمودة الذي يقع غرب مدينة سبتة على نحو اثني عشر ميلًا منها، وبدأ عبور الجند إلى الأندلس عن طريق ثغر طريف في مستهل رمضان 566هـ/8 ماي 1171م واستمر عبور الجيش أكثر من أسبوعين وفي اليوم السَّابع والعشرين من رمضان 566هـ/3 جوان 1171م عبر الخليفة في خاصته، واستقبله في طريف زعماء الأندلس وأكابرها من سائر القواعد، ثمَّ تحرك إلى إشبيليَّة ودخلها في يوم الجمعة الثَّاني عشر شوال 566هـ/18 جوان 1171م، وبقي فيها عشرة أيام ثمَّ سار إلى قرطبة في الثَّاني والعشرين من شوال فوصل إليها في غرة ذي القعدة 566هـ/6 جويلية 1171م فشرع مباشرةً في إرسال الجند لغزوِّ الممالك المسيحيَّة[3].

1- عن الأماكن التي مرَّ بها الخليفة يوسف من يوم خروجه من مرَّاكش إلى غاية وصوله إلى رباط الفتح بالقرب من سلا، والتي سماها الخليفة عبد المؤمن، المهدية. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص349 وما بعدها).

2- عندما حلَّ الخليفة يوسف برباط الفتح قام بمجموعة من الأعمال أهمها بناء جسر جديد يربط بين الرباط وسلا على نهر أبي رقراق لكي يعبر منه الجيش، وغيرها من أعمال البناء والتَّشييد. (عن هذه الأعمال. انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص355 وما بعدها).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص360 وما بعدها. (ومن بين الغزوات التي أمر الخليفة بالقيام بها آنذاك، غزوة قادها أبا محمَّد عبد الله بن أبي حفص بن تفريجين بعسكر به بعض أشياخ الموحِّدين تمكنت من الإغارة على طليطلة بعد عبورها نهر التاجة، وعادت بالغنائم إلى قرطبة). (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص239).

وكان غزوٌّ الممالك المسيحيَّة وإيقاف زحفها الجارف على بلاد المسلمين من الأسباب الرئيسيَّة لعبور الخليفة يوسف بنفسه مع هذا الجيش الضَّخم، بالإضافة إلى محاربة ابن مردنيش بشرق الأندلس والقضاء عليه بصفة نهائية، ونلمس هذا في قول ابن صاحب الصلاة بأنَّ الخليفة يوسف عبوره كان أخذًا بالحزم واستطالةً على المنافقين من آل مردنيش والنصارى الكافرين"[1].

كما أنَّ هناك دوافع أخرى تتمثل في تسيِّير شؤونها الإداريَّة، وتفقد أحوالها بصفة عامَّة وقد ذكر ابن خلكان أنَّ السبب في عبوره هذا كان لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها[2]، وهو ما ذهب إليه ابن أبي زرع في قوله "جاز أمير المؤمنين يوسف إلى الأندلس لينظر في ضبط ثغورها وإصلاح أحوالها ولم شعتها"[3]، ويلخص السَّلاوي سبب عبوره هذا بأكثر دقة، حيث يقول أنَّه لمَّا سمع الخليفة يوسف باستيلاء الموحِّدين على أغلب بلاد ابن مردنيش وقيام بعض ملوك النَّصارى بشنِّ الغارات على أطراف بلاد المسلمين، تاقت نفسه للعبور إلى الأندلس بقصد إصلاح حالها وجهاد العدوِّ بها[4].

3-2- غزوة وبذة:

لمَّا كلِّلت حملة مرسيَّة بالنَّجاح وتوفي ابن مردنيش وانتهت مملكة الشرق بقدوم هلال بن مردنيش وقادة الشرق إلى إشبيليَّة[5] في مستهل شهر رمضان 567هـ/28 أفريل 1172م وقدَّموا

1- **المن بالإمامة**، ص349.

2- **وفيات الأعيان**، ج7، ص131.

3- **روض القرطاس**، ص211.

4- **الاستقصا**، ج2، ص134.

5- مكث الخليفة يوسف شهرين بقرطبة ثمَّ انتقل إلى إشبيليَّة في الثَّاني محرم سنة 567هـ/5 سبتمبر 1171م وجعلها مقرًا دائمًا له بالأندلس التي بقي فيها حوالي خمسة سنوات. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص370 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص119).

Joseph Burlot: La civilisation ISLAMIQUE, Hachette, Paris, 1982, p139.

خضوعهم وطاعتهم للخليفة يوسف بن عبد المؤمن[1]، اقترح هؤلاء القادة على الخليفة أن يقوم بغزوٍّ أراضي النَّصارى من جهة بلادهم، واقترحوا عليه بالذات مدينة وبذة هدفًا لهذا الغزوِّ، وبينو أنَّها أيسر البلاد للفتح، إذ هي حديثة البنيان قريبة الإسكان، وأنَّ سورها غير ممتنع، وإنَّها دون باب ولا حجاب[2] كما أنَّها قريبة إلى الأراضي الخاضعة للسلطة الموحِّديَّة، وهو ما يجعل مشكل تموين الجنود أثناء الحصار غير مطروح[3].

وقد اقتنع الخليفة باقتراحهم هذا، وقرَّر توجيه الحملة إليها وأمرهم بالاستعداد للمشاركة فيها بعتادهم ورجالهم بعد انقضاء شهر رمضان من سنة 567هـ/26 ماي 1162م[4].

وفي يوم الاثنين الحادي عشر شوال سنة 567هـ/6 جوان 1172 م خرج من إشبيليَّة بقوَّاته فوصل قرطبة في السَّابع عشر من نفس الشهر، وأقام في جبل فحص السرادق[5]، وفي اليوم التالي دخل قصر قرطبة العتيق وأقام فيه مرتبًا لأحوال هذه الغزوة، وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين من شوال 567هـ/20 جوان 1172م خرج منها، وسار في قوَّاته صوب مدينة القصير[6]، ثمَّ أندوجر ثمَّ اتجه نحو الشرق حتَّى صار على مقربة من مدينة بياسة، وهناك لحق إبراهيم

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص380-381. (يذكر أشباخ أنَّ أبناء ابن مردنيش لمَّا رأوا أنَّ غارات النَّصارى والموحِّدين تلاحقهم بلا انقطاع، وأنَّهم لا يستطيعون الثبات أمام هذه الجمهرة من الأعداء، عقدوا مع الخليفة يوسف معاهدة يتنازلون بمقتضاها عن جميع أراضيهم مشتملة على بلنسيَّة ومرسيَّة ومربيطر وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة وغيرها، وعلى الأراضي الواقعة بين مصب نهر إيبرو ومدينة قرطاجنة، وأن يعوضهم عن ذلك بمناصب يتقلدونها وأراضي تُقطع لهم في مملكته. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج$_2$، ص68).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص381.

3- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص245.

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص382 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص245.

5- سهل يقع في شرق قرطبة، وفي شمال نهر الوادي الكبير، وكان مركز تجمع الجيوش الإسلاميَّة في عهد الخلافة الأمويَّة عند توجه حملاتهم إلى الشمال. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص399، هامش2).

6- مدينة تقع في الشمال الشَّرقي لإشبيليَّة. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص400، هامش1).

بن هَمُشْكُ[1] الذي كان محاصرًا لحصن بلج[2]، وقد اقترح ابن هَمُشْكُ على الخليفة يوسف أن يمضي إلى الحصن لحصاره والاستيلاء عليه، فاستجاب الخليفة لدعوته[3]، واتجهت القوَّات الموحِّديَّة صوب الحصن، وشرعوا في حصاره وقد عاينوا عن كثب منعته وضخامته، أمَّا النَّصارى المتواجدين به فقد عاينوا بدورهم كثرة الجيوش الموحِّديَّة، فاستدعوا ابن هَمُشْكُ لكي يأخذ لهم الأمان من الخليفة يوسف، فأعطاهم الأمان واستولى على الحصن يوم السبت ثلاثين شوال 567هـ/25 جوان 1172م[4].

ثمَّ رحل الخليفة بجيشه بعد يومين من امتلاك هذا الحصن متوجهًا إلى حصن الكَرَس[5] فاستولى عليه يوم الجمعة السَّادس ذي القعدة 567هـ/1 جويلية 1172م بعد طلب أهله الأمان، فصرف الخليفة أمره كذلك لابن هَمُشْكُ[6]، ثمَّ اتجه في اليوم الموالي إلى موضع يُعرف ببلاط الصوف بجوار مدينة جنجالة التي كانت الحد الفاصل بين المسلمين وقشتالة، ثمَّ اتجه إلى مرج البسيط، ثمَّ إلى وادي شُقر، فاستراح فيه الجيش وارتوى النَّاس والدواب من ماء النَّهر[7].

1- نُشير إلى أنَّ ابن هَمُشْكُ دخل في طاعة الموحِّدين سنة 564هـ/1169م، بعدما فسدت علاقاته مع صهره ابن مردنيش وقد خدم الموحِّدين وشارك معهم في حروبهم ضد النَّصارى. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص302 وما بعدها؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص108-109 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص321).

2- كان هذا الحصن ملكًا لابن هَمُشْكُ، فلما وقع الخلاف بينه وبين صهره ابن مردنيش استولى عليه هذا الأخير، ووضع به حاميته من جنده النَّصارى المرتزقة، ويقول ابن صاحب الصلاة عن هذا الحصن القريب من مدينة بياسة أنَّه عظيم الامتناع والشأن. (انظر: **المن بالإمامة**، ص400 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص75).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص400.

4- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ الخليفة دخل إلى حصن بلج فأعجبه ما عاين فيه من المنعة الغريبة. وقد صرف أمره إلى ابن هَمُشْكُ بعد أن ترك به حامية موحِّديَّة للدِّفاع عنه. (انظر: **المن بالإمامة**، ص400-401).

5- كان هذا الحصن مرتفعًا على بِطاح كثير المنافع، كثير المياة لسقي المزارع، وكان ابن مردنيش قد سلَّمه إلى حامية من النَّصارى. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص401 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص75).

6- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص401.

7- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص401-402 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص246-247.

وفي يوم الخميس الثَّاني عشر من ذي القعدة 567هـ/6 جويلية 1172م أمر الخليفة أخاه أبا سعيد أن يسير من وادي شُقر مع اثني عشر ألف فارس من الموحِّدين والعرب ومعهم قوة من الرَّجالة والرُّماة لغزو أراضي قشتالة بجهة مدينة وبذة، وكان في صحبته أبو العلاء بن عزون وإبراهيم بن هَمُشْكُ، ووصل هذا الجيش صبيحة اليوم التَّالي أي يوم الجمعة إلى بلاد قشتالة بموضع يُسمى مرج خمل[1]، وفيه حصن يحتله النَّصارى فاقتحموه وقتلوا وسبو حاميته وهدَّموه، وفي الغدِّ وصل الجيش الموحِّدي إلى مدينة وبذة، فخرج إليهم القشتاليون فنشبت بينهما معركة، ظهر فيها تخاذل من بعض الجند العرب حيث لم يستميتوا في القتال وأظهروا رخاوة وضعف همَّة كان سببًا في مقتلهم أثناء المواجهة، وبالتالي فشل المسلمين في تحقيق الانتصار[2].

فاضطر أبو سعيد إلى الانسحاب مع قوَّاته اثر ذلك، وعسكر على التلِّ المشرف على المدينة في انتظار قدوم باقي قوَّات الموحِّدين وفي يوم الثلاثاء السَّابع عشر ذي القعدة عام 567هـ/11 جويلية 1172م وصل الخليفة في قوَّاته، وأمر باستعداد جميع الجيش[3]، وعلى الفور بدأت المعركة بين الموحِّدين والقشتاليِّين، استولى خلالها الموحِّدون على الأرباض المجاورة للسور وأحرقوا ديارهم فاضطر القشتاليون إلى التَّراجع إلى داخل المدينة تاركين المجال لنزول قوَّات الموحِّدين بخيولهم إلى الجنات والكروم المتَّصلة بالمدينة ومنعوا عن النصارى ماء الوادي[4].

1- يُسميه ابن صاحب الصلاة مرج خمل، وميراندا يُسميه مرج الجمل، وعنان برج جمل، وهو مكان غير معروف اليوم. (انظر: **المن بالإمامة**، ص402 ؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص247، هامش96 ؛ **عصر الموحِّدين**، ص76).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص402-403 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص247.

3- أمر الخليفة يوسف الموحِّدين والعرب وجميع القبائل بالتأهب للحرب، فانحاز كل قبيل إلى قبيلته و تميَّز النَّاس على رتبهم وتقدمهم، وحضر الجميع فأمروا بالمشي والصعود إلى الجبل المطل على مدينة وبذة، حيث نزل أبو سعيد بقوَّاته ليكون جميع الجيش واحدًا. (انظر: **المن بالإمامة**، ص403).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص404 .

إثر ذلك عقد الخليفة مجلسًا حربيًا في مساء ذلك اليوم مع أشياخ الموحِّدين وبعث معهم خطة الهجوم على المدينة، وفي المقابل كان النَّصارى يحفرون خندقًا حول ربض مدينتهم، وقاموا بتسيِّيجه بالخشب الذي أخذوه من أبواب منازلهم[1].

وفي صباح الغد أخذ الجيش الموحِّدي في الاستعداد والتأهب للقتال، وامتطى الخليفة جواده ومعه أكابر أشياخ الموحِّدين ومعه جملةً من العلماء والقضاة منهم أبا بكر بن الجد وأبا الوليد بن رشد الحفيد وغيرهم[2]، وبايعه الجميع على الثبات على الجهاد، ثمَّ قُرعت الطبول إيذانًا ببدأ القتال، فهجم الموحِّدون على القشتاليِّين ودارت بينهم معركة ضارية، ارتد فيها القشتاليون إلى المدينة وتحصنوا داخل القصبة، ما عدا الجهة الغربيَّة من المدينة فلم يتمكن أبو العلاء بن عزون وقوَّاته عن ردهم، فاستنجد بالخليفة لكي يرسل له المدد ولكن الخليفة أعرض عنه لانشغاله مع الطلبة في المذاكرة[3]، فانسحب ابن عزون مع قوَّاته بعدما تأكد لهم استحالة حسم المواجهة لوحدهم[4].

وقد هدم الموحِّدون خلال هذا الهجوم كنيسة المدينة وأخذوا نواقيسها التِّسعة[5]، وقتلوا النَّصارى المدافعين عنها، إلَّا أنَّهم أوقفوا القتال في آخر المطاف بعد ظُهر ذلك اليوم دون تحقيق النَّصر على القشتاليِّين رغم ضخامة جيشهم الذي قدره ابن صاحب الصلاة بنحو مائة ألف بين فارس وراجل[6].

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص404-405 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص249.

2- كما حضر هذه الغزوة من العلماء والقضاة، الفقيه أبا محمَّد المالقي، والقاضي أبو موسى عيسى بن عمران، والقاضي أبا محمَّد بن الصفار. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص405).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص406 وما بعدها.

4- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص249 .

5- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص406-407. (وقد أخذوا هذه النَّواقيس وحولوها إلى ثُريات أهديت للمساجد الإسلاميَّة في الشرق والغرب). (انظر: معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص156).

6- **المن بالإمامة**، ص408 .

ولكنهم استمروا في حصار المدينة، ومنعوا عنها الماء واجتمع الخليفة وأشياخ الموحّدين والقادة للتّشاور في يوم الخميس فأمر الخليفة أن يخرج ربع الجيش للعمل بالزراعة لتوفير الأقوات والأعلاف للاستمرار في حصار المدينة، كما أمر الخليفة بصنع السلالم والأبراج الخشبية لمقاتلة النّصارى في جوانب المدينة، وفي تلك الأثناء أقبل رسول من القشتاليّين راغبًا في تسليم المدينة بالأمان، فَقُبل طلبه بالرفض وعاد مساء نفس اليوم فصرف بغير طائل[1].

وفي صبيحة يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة عام 567هـ/14 جويلية 1172م هبت ريح صيفية عاصفة، فأوقعت الاضطراب بمعسكر الموحّدين، وحطمت القدور والأخبية[2]، وفي صباح اليوم التالي وصل الشّيخ أبو حفص عمر الهنتاني في قوّاته من أهل الشرق قادمًا من بلنسيّة مع أبو الحجاج بن مردنيش فسرَّ الخليفة لمقدمهم، وأمر أبا الحجاج بن مردنيس بالنزول بأهل الشرق بالجبل المجاور لوبذة، و ضيَّق الموحّدون أكثر فأكثر على المدينة، فاضطر النّصارى بعدما رأوا وصول الإمدادات إلى طلب الأمان مرةً أخرى، فقوبل طلبهم بالرفض أيضًا[3].

وفي يوم الأحد هبت رياح عاصفة مرةً أخرى، وكانت أشد من سابقتها، حيث مزقت خيام الموحّدين أكثر من تمزيقها قبل، وتبع هذه الرياح هطول أمطار غزيرة، ورعد قاصف وبرق

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص408-409. (أوافق رأي ميراندا حينما قال أنَّ سبب عدم رغبة الموحّدين في تلبية طلب رسول القشتاليّين بتسليم المدينة مقابل الاستسلام، يكمن في تأكدهم من أنَّ الاستسلام اللامشروط أصبح أمرًا مؤكدًا، إمَّا عن طريق الهجوم بالقوة أو عن طريق الحصار الذي سيجعل المحاصَرين يعانون من العطش ونقص المؤن، ويقول المؤرخ معمر الهادي محمّد القرقوطي أنَّ الموحّدين دفعهم إلى ذلك خبرتهم بفنون الحصار وغرورهم بقوتهم). (انظر: **التّاريخ السّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص250 ؛ **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص156).

2- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ السعر رخص في تلك الليلة العاصفة، فأصبح سعر مُدان ونصف بدرهم، والقمح خمسة أمداد بدرهم. ولم يذكر سبب تخفيض هذه الأسعار، ومن المحتمل أن يكون الخليفة يوسف هو من أمر بتخفيض الأسعار على وقع تلك الظروف الصعبة. (انظر: **المن بالإمامة**، ص409).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص409-410 ؛ عنان، **عصر الموحّدين**، ص78 .

خافق[1]، فاستفاد النَّصارى من هذه الأمطار وارتووا منها، وارتوت مواشيهم وفي صباح يوم الاثنين هاجم الموحِّدون القشتاليِّين، ولكنهم ما كادوا يبدؤون القتال حتَّى عادت الأمطار للهطول بشدة[2]، فابتلت أثواب الجند وعجزوا عن القتال رغم كثرة عددهم[3]، ففزع الجند ورغبوا في التوبة إلى الله تعالى، وارتد الخليفة و الجيش، وعند الظهر أشرقت الشمس وتوفق المطر فعاد الموحِّدون للقتال، ودام القتال عشية ذلك اليوم ولكن دون جدوى، وتوقف القتال يوم الثلاثاء واكتفى الموحِّدون بالحصار، ولمَّا كان ليلة الأربعاء الخامس والعشرون من الشهر هاجم القشتاليون وبشكلٍ مفاجئ على محلة قبيلة هسكورة، ففروا منه وأدبروا منهزمين فلما علم الخليفة في صباح الغد أمر بضربهم بالسِّياط عقابًا لهم على فرارهم[4].

وفي صباح يوم الخميس أمر الخليفة بخروج ثُلث كل فرقة من فرق الجيش للبحث عن الأقوَّات والأعلاف، واجتمعت هذه الفرق تحت إمرة القائدين ابن أبي تفريجين وابن هَمُشْكُ ولكنهم فشلوا في مهمتهم ولم يجمعوا شيئًا من المؤن والأعلاف، فارتفعت الأسعار في المعسكر الموحِّدي بشكل كبير، وكادت أن تنعدم فيه المؤونة[5].

1- يستغرب ابن صاحب الصلاة وابن عذارى من وقوع هذه العواصف الهوجاء وهطول المطر بغزارة شديدة، بالرغم من الحرِّ الشديد، لأنَّ الموسم كان صيفًا، والشهر كان شهر جويلية. (انظر: **المن بالإمامة**، ص410 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص123).

2- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ السماء جاءت بماء كأفواه القِرب. (انظر: **المن بالإمامة**، ص410).

3- يصف ابن عذارى أعداد الجيش الموحِّدي الكثيرة بقوله "وركب العساكر كالبحر الزاخر لا أوَّل لها ولا آخر". (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص123).

4- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص410-411 .

5- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص411. (يرى ميراندا أنَّ السبب في نقص التَّموين في المخيَّم، مرده أنَّ الموحِّدين اعتادوا عدم حمل المؤونة الكافية خلال الحملات التي يعتقدون أنَّهم سوف يحقِّقون خلالها انتصارات سريعة، على اعتبار أنَّ تلك المؤونة سيحصلون عليها بنفس المكان بعد حسم المواجهة. واعتقد أنَّ رأيه غير صحيح، وكأنَّه يقول بأنَّ الموحِّدين يتعمَّدون عدم حمل المؤونة الكافية ويجازفون في ذلك على اعتبار أنَّهم سيحققون انتصارات سريعة، وأعتقد أنَّهم يضطرون إلى عدم أخذ مؤونة كافية إذا كانت الغزوة منظمة بشكل سريع لأجل رد العدوان مثلًا، كما أنَّ الحملة عندما يشارك فيها جيش ضخم مثلما عليه الحال في هذه الغزوة التي شارك فيها حوالي مائة ألف مقاتل، فإنَّه رغم توفير مؤونة كثيرة فإنَّ مآلها النَّفاذ بالخصوص عندما يستمر الحصار مدَّة طويلة). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص251).

وفي خضمِّ هذه الأحداث الصَّعبة، قام الشَّيخ أبا محمَّد عبد الواحد بن عمر في يوم الجمعة خطيبًا في النَّاس تارةً بالعربيَّة وتارةً أخرى بالبربريَّة يعظهم ويُرغبهم في الجهاد في سبيل الله[1]، كما أرسل الخليفة عبد الرَّحمان بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي إلى القشتاليِّين للتَّفاوض معهم بشأن تسليم المدينة، لكن قائد وبذة الكونت مانريكي دي لارا رفض التَّسليم، وكرَّر المسعى مرتين في نفس اليوم، فرفض قائد وبذة مرةً أخرى، وقال لست أمشي معك فإنَّ النَّصارى والأمير أذفونش الصغير (ألفونسو الثامن) قد خاطبوني باجتماعهم واحتشادهم ووصولهم إلي وليرفعوكم أو يُقابلوكم[2].

ولمَّا علم الخليفة بنوايا القشتاليِّين استدعى سائر الأشياخ، الموحِّدين والأندلسيِّين والعرب في نفس الليلة للتَّشاور، وأمر بحرق البرج المصنوع لقتال النَّصارى وسائر الآلات التي صنعت منه وأمر مُقدم الدواب بشحن النواقيس التي أخذت من كنيسة وبذة[3].

وفي الصباح من يوم الأحد التَّاسع والعشرين من ذي القعدة عام 567هـ/23 جويلية 1172م قُرعت طبول الرَّحيل، وبدأ الموحِّدون في الانسحاب، وعندما علم القشتاليون بذلك خرجوا في قوَّاتهم ونزلوا إلى الوادي وهاجموا الموحِّدين وأشعلوا النار في البيوت والخيام، ودار القتال بين الطرفين وقتل القشتاليون من تخلف من المرضى والمنهكين فأمر الخليفة بتوقف الجيش حتَّى ترفع

1- وقال لهم باللِّسان العربي "قد كنتم بمرَّاكش تقولون لو كنا غزونا النَّصارى لجاهدنا الله عزَّ وجلَّ واجتهدنا، فلمَّا حضرتم معهم قصَّرتم وجنبتم الله عزَّ وجلَّ، ونكلتم وما نصحتم، ما أنتم بمؤمنين ولا بموحِّدين إن تسمعوا النَّواقيس تُضرب وتعاينوا الكفر ولا تدفعوا المنكر، إن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى من الجهاد، على كثرتكم من الأعداد، ثمَّ توَّبهم فقالوا: تبنا، ويذكر ابن عذارى أنَّ النَّاس بكوا عند ذلك وتابوا. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص411 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص123).

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص412.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص412-413.

الأخيبة، فلمَّا رُفعت وقفت قوة ترد المهاجمين حتَّى يتم الانسحاب[1]، وقد تمَّ الانسحاب بانتظام فحال دون استفادة القشتاليِّين من الوضع رغم المحاولات التي قاموا بها[2].

وسار الجيش المنسجب نحو قونكة، ونزل بعد ثلاثة أميال من مسيرهم من وبذة على فحص ماء، ولحقت به مؤخرة الجيش التي كانت تقاتل النَّصارى وقد تمكنت من قتل ستون رجلًا منهم وأسر عشرة آخرين، ويذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ المسلمين ظهورا في ذلك اليوم بنصر الله لهم[3]، وبات الجيش في ذلك الموضع على حذر، وفي الصباح أكمل طريقه وعاثوا في المواضع التي مروا بها، وحصدوا زروعها وجمعوا غلاتها، وامتلأت أيديهم بالقمح والشعير، وفي يوم الثلاثاء أول ذي الحجة وصل الجيش إلى وادي شُقر على نحو ميلين من مدينة قونكة، وقام بالإغارة على الأراضي التي زرعها النَّصارى هناك[4]، ثمَّ سار إلى مدينة قونكة حيث استقبل أهلها الخليفة يوسف بحفاوة بالغة، وقد أصابهم الضُّعف بسبب محاصرة النَّصارى لمدينتهم قبل ذلك بخمسة أشهر، ولم يتركهم النَّصارى إلَّا حينما علموا باقتراب الموحِّدين إليهم، وقد أحسن الخليفة لهم وقدَّم لهم الأعطيات والهبات[5].

وفي اليوم التالي أمر الخليفة النَّاس بالخروج لحصد المحاصيل الزراعيَّة القريبة من قونكة والتي كان يملكها النَّصارى، فالتقوا بحامية نصرانية اعتقدوا بأنَّها جيش ألفونسو الثَّامن ملك قشتالة فرجعوا وأخبروا الخليفة، فأمر بالانسحاب من ذلك الموضع، فأصاب النَّاس الخوف والجزع كالذي

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص413-414 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص123-124.

2- ميرندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص252.

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص414.

4- كان النَّصارى يملكون هذه الأراضي بالقرب من وادي شُقر منحها لهم ابن مردنيش بعد أن انتزعها من أبناء ملته المسلمين، لقاء جزية يدفعونها له. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص414 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص252).

5- أمر الخليفة يوسف بإحصاء وكتابة أسماء جميع رجال ونساء وصبيان أهل قونكة، فكان عددهم سبعة مائة، فأمر للفارس منهم اثني عشر مثقالًا، وللرَّاجل ثمانية مثاقيل، وللمرأة أربعة مثاقيل، وللطفل أربعة مثاقيل وأعطاهم سبعين بقرة فلم يكن عنده في محلته هذه سواها، وأمر أشياخ الموحِّدين وعامتهم بالتَّصدق عليهم، فبادر النَّاس إلى ذلك. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص416).

حدث لهم عندما غادروا وبذة، وعبر الجيش الموحّدي وادي شُقر ونزل بالجبل المتصل بمدينة قونكة لحصانته، وفي تلك الأثناء وصلت قوّات النّصارى وعسكرت في جبل تونبس[1] في الناحيَّة المقابلة للوادي، وبات الموحّدون ليلتهم محترسين من مكر العدوّ، وعند الصباح اجتمع الخليفة بأشياخ الموحّدين واتفقوا على ضرورة قتال العدوّ يوم غد الجمعة، أمَّا العرب اعترضوا وجبنوا عن اللِّقاء واحتجوا بضيق ساحة القتال[2]، فلما رأى الموحّدون والأندلسيون جبن العرب ورفضهم القتال زادت عزائمهم وهممهم، وباتوا على هذه النية من الرغبة في الجهاد، وفي الصباح انطلقت فرقة من المسلمين بقيادة أبو العلاء بن عزون ووصلت إلى محلَّة النَّصارى ودخلت معهم في مناوشات ومدافعات، ورجع ابن عزون عشية النَّهار سالمًا ظاهرًا[3].

وفي صباح يوم السبت الخامس من ذي الحجة عام 567هـ/29 جويلية 1172م، خرج أبو العلاء بن عزون في الفجر ليستطلع أخبار العدوَّ، فوجد النَّصارى قد انقلبوا منصرفين إلى بلادهم، عند ذلك استأنف الجيش الموحّدي المسير، وقد وصل مرسيَّة يوم الخميس الرَّابع والعشرين من ذي الحجة 567هـ/17 أوت 1172م، وفور وصوله إليها أمر الخليفة بإصلاح معاقلها وتحصينها[4]، وجعل على ولاية بلنسية أبا الحجاج يوسف بن مردنيش، وقفل راجعًا إلى إشبيليَّة

1- جبل تونبس، ربما كانت هذه الكلمة تحريفًا للكلمة الاسبانية (Tumbas أو Tumbos) ويعتقد أنَّ الموضع المقصود هو طورقاس (Torcas) الذي كان يُسمى قديمًا (Monte de Palancares). (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة،** ص417، هامش6 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحّديَّة**، ص253، هامش107).

2- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ العرب قالوا إنَّ النَّصارى قد نزلوا في جبل وعر، ويقول ميراندا أنَّ العرب متعودين على القتال في المجالات المفتوحة اعتمادًا على خطة الكرِّ والفرِّ. (انظر: **المن بالإمامة**، ص418 ؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحّديَّة**، ص253).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص418 .

4- مرَّ الجيش الموحّدي في طريقه من قونكة إلى مرسيَّة بمجموعة من المواضع والقرى والمدن، وقد حدثت له أثناءها بعض الأحداث والأزمات منها غلاء الأسعار، ومعاناة الجيش من نُقص المؤن، واشتداد التَّعب والجوع بالنَّاس، وهلاك بعضهم بسبب ذلك. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص419 وما بعدها).

ووصل إليها في الثَّامن ربيع الأوَّل عام 568هـ/28 أكتوبر 1172 م وقد استغرق في غزوته هذه حوالي خمسة أشهر[1]، ولم يجنِّ الموحِّدون ما كان يُنتظر من وراء هذه الغزوة من النَّصر.

ويرجع المؤرخ عنان سبب إخفاق الموحِّدين في هذه الغزوة بالرغم من كثرة جيوشهم إلى عجز القيادة الموحِّديَّة، ذلك أنَّه لم يكن بين أولئك الإخوة والأشياخ الذي يلتفون حول الخليفة يوسف، ويدبرون دفة الغزوة هيئة قيادة مقتدرة، ويضيف عنان قائلًا بأنَّه لم يكن بينهم قادة أكفاء بالمعنى الصَّحيح، وكان مجلس القيادة يتخذ في معظم الأحيان صورة اجتماع عائلي تغلب فيه الآراء الفطيرة والقرارات المرتجلة. وقام عنان بمقارنة القيادة الموحِّديَّة مع القيادة المرابطيَّة وقال بأنَّ القادة المرابطون يمتازون بالبراعة والحنكة العسكريَّة العالية، وهي التي مكنتهم من أن يحرزوا بجيوشهم القليلة العدد، انتصاراتهم الباهرة في مواقع أُقليش وإفراغة[2].

ويرى المؤرخ معمر الهادي محمَّد القرقوطي أنَّ رأي عنان مبالغ فيه، فهؤلاء الإخوة والأشياخ الموحِّدين هم الذين استطاعوا القضاء على ثورة ابن مردنيش، وهم الذين هابهم فرناندو الثَّاني ملك ليون فعقد معهم تحالفًا وعرض خدماته عليهم، وهم أنفسهم الذين كانوا يقودون الجيوش في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، فكيف يفقدون مقدرتهم على قيادة الجيوش الموحِّديَّة في غزوة وبذة ؟ خاصة وأنَّهم يضمون في صفوفهم قادة أكفاء من أهل الأندلس مثل أبي العلاء بن عزون وغيره[3].

1- استغرقت هذه الغزوة حوالي خمسة أشهر وهذا باحتساب يوم خروج الخليفة من إشبيليَّة، الاثنين الحادي عشر شوال 567هـ/6 جوان 1172م هو بداية الشروع في الغزوة، ونهايتها لمَّا دخل إلى إشبيليَّة يوم السبت الثَّامن ربيع الأوَّل 568هـ/28 أكتوبر 1172م. بينما يرى عنان أنَّ الغزوة لم يطل أمدها أكثر من شهرين، وأعتقد بأنَّه احتسب المدة من يوم خروج الخليفة من إشبيليَّة، إلى غاية الانسحاب من أسوار وبذة يوم الأحد 29 ذي القعدة 567هـ/23 جويلية 1172م ولكن هذه المدَّة تساوي بالتَّحديد سبعة وأربعون يومًا أي حوالي شهر ونصف الشهر، وليس أكثر من شهرين، وإن احتسبنا المدَّة من وصول الجيش الموحِّدي إلى وبذة بقيادة أبو سعيد أخ الخليفة تاريخًا لبداية الغزوة فقد كان وصوله يوم السبت الرَّابع عشر من ذي القعدة 567هـ/8 جويلية 1172م، وتاريخ الانسحاب من أسوار وبذة هو تاريخ نهاية الغزوة، فمدتها بالتَّحديد هي خمسة عشر يومًا. (انظر: **عصر الموحِّدين**، ص84).

2- **عصر الموحِّدين**، ص84-85.

3- **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص158-159.

وبالنِّسبة لعقد المقارنة مع قادة المرابطين والقول بأنَّهم يمتازون بالبراعة والحنكة العسكرية فأعتقد بأنَّ هذا الأمر صحيح، ولكن لا ننسى بأنَّهم تعرضوا بدورهم لهزائم على يد النَّصارى مثل هزيمة كتندة عام 514هـ/1120م، والقِلاعة عام 523هـ/1129م فالحرب سجال يومٌ لك ويوم عليك. وعلى العموم فإنَّ أسباب هزيمة الموحِّدين في هذه الغزوة كثيرة منها:

- انشغال الخليفة الموحِّدي يوسف عن النزول لميدان المعركة بنفسه، أو حث الجند على التَّفاني في القتال[1]، فقد كان يلزم خيمته في أغلب الأوقات ولا يخرج منها، فمثلًا عندما جاء القائد أبو العلاء بن عزون يطلب المدد والعون منه، حينما لم يستطع بقوَّاته دخول مدينة وبذة من الجهة الغربية، وجده في خيمته يناقش طلبة الموحِّدين في بعض المسائل الفقهيَّة، وانشغل عنه ولم يكترث له، بالرغم من أنَّ المعركة مع النَّصارى كانت مشتعلةً، ويذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ ابن عزون قال في هذا الموقف أنَّ الخليفة لم يجاوبني، واشتغل عني بما كان فيه، ولا جاوبني السيد الأعلى أبو حفص، فعلمت أنَّ النية في الجهاد قد فسدت وإنَّ الغزوة قد تنكدت، ورجعت يائسًا من النَّصر[2].

- الغرور الذي أصاب الخليفة يوسف عندما قدم إليه النَّصارى طالبين الأمان لأنفسهم مقابل تسليم المدينة، فلم يلتفت إليهم مستندًا في ذلك إلى خبرته بفنون الحصار، وضخامة الجيش الموحِّدي، متناسيًا أنَّ النَّصر يتحقق للمسلمين بالإيمان القوي والتَّفاني في بذل النَّفس في سبيل الله وليس بضخامة الجيوش والعساكر[3]، وهذا مصداقًا لقوله تعالى: «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ»[4].

- انعدام التَّناسق بين مختلف العناصر التي تتكون منها العساكر الموحِّديَّة، وقد كان العرب الذين يرافقون الجيش الموحِّدي يحملون أكبر قسط من تبعة هذا التَّفكك، فقد رأيناهم يُحجمون عن

1- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص85.

2- **المن بالإمامة**، ص408.

3- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص159.

4- **سورة البقرة، الآية 249** .

القتال في الساعات الحرجة، وكان هذا الإحجام يشل حركة الجيش الموحّدي، وينال من مقدرته وقواه المعنوية[1].

- سوء تنظيم تموين الجيش الموحّدي، وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوّات والأعلاف وغلاء الأسعار، وما كان يصيب الجند من جراء ذلك من الضَّيق والحرمان وانهيار القوى المعنوية[2].

- الظروف المناخية الصَّعبة والمتمثلة في سقوط الأمطار بغزارة شديدة، وهبوب رياح عنيفة بالرغم من أنَّ الفصل كان صيفًا، فأدت هذه الظروف إلى حدوث اضطراب كبير في صفوف الجيش الموحَّدي، وقد ذكر ابن صاحب الصلاة وابن عذارى أنَّ هذه الرياح العاتية والأمطار مزقت الأخبية، وثياب الجند، وأفزعت الجيش الموحّدي، واستفاد منها القشتاليون حيث شربوا من مياه الأمطار وشربت مواشيهم، بعدما كان الموحّدون قد منعوهم من الماء عندما حبسوا مياه الوادي من الجريان إلى داخل المدينة[3].

- تفاني القشتاليون المحاصَرين داخل قصبة مدينة وبذة في الدِّفاع عنها.

- ومن انعكاسات هذه الغزوة السلبيَّة على الموحّدين قيام ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز رفقة المغامر جيرالدو سمبافور بمهاجمة مدينة باجة بغرب الأندلس ليلة الأوَّل من محرم 568هـ/23 أوت 1172م[4]، مستغلين غياب الخليفة يوسف والجيش الموحّدي في هذه الغزوة، وكذلك سوء أحوال مدينة باجة باستبداد واليها عمر بن سحنون[5] وظلمه الشديد لرعيته، وقد هاجم البرتغاليون المدينة

1- عنان، **عصر الموحّدين**، ص85.

2- **نفسه** .

3- **المن بالإمامة**، ص409-410 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص123.

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص129.

5- هو طالب من طلبة الموحّدين، بربري الأصل يقول عنه ابن عذارى أنَّه سخيف العقل، قصير القامَّة، صغير الهامَّة، أعرج لا يفهم، اتخذ رجلًا بدويًا وزيرًا لنفسه وكان سفاكًا للدماء، ظلومًا، وأعانه على ذلك قاضي المدينة عمر بن زرقاج، وقد عان النَّاس في باجة في عهده معاناة كبيرة. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص128-129).

ليلًا واستولوا عليها بكل سهولة، لأنَّ الحراسة بأبراج المدينة كانت مهملة، وكان الحراس لا يلازمون الحراسة لأنَّ الوالي ابن سحنون كان يحبس رواتبهم ولا يدفعها لهم.

وقد قتل النَّصارى عند دخولهم مدينة باجة الكثير من النَّاس، وجماعة من أعيانها واستولوا على مقادير عظيمة من الأموال والغنائم[1]، وبعد حوالي خمسة أشهر غادروا المدينة، وذلك في يوم الخامس عشر جمادى الآخرة 568هـ/1 جانفي 1173م لصعوبة الدِّفاع عنها[2]، وقد عملوا على تهديم أسوارها، وحرق ربوعها، وتركها قاعًا صفصفًا، وحملوا معهم كثيرًا من الأسرى المسلمين، وقد أُنقذ معظم هؤلاء فيما بعد بالفداء، وهاجر كثير منهم بعد خراب مدينتهم إلى مرَّاكش[3].

ويظهر من خلال احتلال مدينة باجة الرُّوح الصَّليبيَّة الحاقدة على الإسلام والمسلمين، وأنَّ حركة الاسترداد لم ولن تتوقف، فكما أتيحت الفرصة للصَّليبيِّين تراهم يهجمون على مدن المسلمين ويستولون عليها ويدمرونها ويقتلون أهلها ويبيدونهم عن آخرهم.

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص127-128 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص256-257.

2- يقول ابن عذارى أنَّ ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال عندما دخل مدينة باجة أدرك بأنَّه لا يمكن الدِّفاع عنها بسبب كِبر مساحتها، ويرى ميراندا أنَّ هناك سببًا آخر وهو بعدها عن مملكة البرتغال وبالتالي صعوبة وصول الإمدادات إليها. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص129 ؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص257).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص129-130.

والملفت للنَّظر أنَّ الموحِّدين لم يتحركوا لسقوط مدينة باجة، ولم يوجهوا جيوشهم لمحاولة إنقاذها من أيدي البرتغاليِّين، وشغل الخليفة يوسف نفسه منذ وصوله إلى إشبيليَّة في الثَّامن ربيع الأول 568هـ/28 أكتوبر 1172م[1] بالعمل على استكمال بناء المسجد الجامع والقصور والبساتين[2]، وكذلك باستقبال وفود أهل إفريقية[3].

3-3- غزو مدينتي طلبيرة وطليطلة:

لمَّا كان الخليفة يوسف بإشبيليَّة منشغلًا بأعمال البناء والتَّشيِّيد، خرجت حملة قشتالية من مدينة آبلة بقيادة حاكمها الكونت خيمينو[4] مخترقةً أراضي الأندلس ناحية الجنوب، وذلك في أوائل شهر شعبان سنة 568هـ/مارس 1173م، وقد وصلت هذه الحملة إلى الوادي الكبير

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص425.

2- نُشير إلى أنَّ الخليفة يوسف عندما جاز إلى الأندلس واستقرَّ بإشبيليَّة يوم الأحد الثَّاني محرم سنة 567هـ/5 سبتمبر 1171م قام بمجموعة من أعمال البناء، منها بناء قنطرة وادي إشبيليَّة، وبناء مجموعة من المنازل والقصور المعروفة بالبحيرة خارج باب جَهْوَرْ بإشبيليَّة، وكذلك غِراسة الأرض المجاورة للقصور بالزيتون والأعناب والفواكه، وقام بإجراء الماء إليها لسقيها وفي شهر رمضان من نفس السنة أمر ببناء المسجد الجامع أو الجامع الكبير الجديد بإشبيليَّة وهو أهم المعالم التي قام بتشيِّيدها وعند الفراغ من غزوة وبذة أمر الخليفة باستكمال بناء هذه المعالم العمرانيَّة. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص370 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص121 وما بعدها ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص211).
Robert Cornevin: **HISTOIRE DE L'AFRIQUE**, Tome I, des origines au XVI^{e}, siècle, payot, Paris, 1967, p330.

3- وصل إلى إشبيليَّة وفد أهل القيروان وفقهاء مدينة تونس وإفريقية في سنة 568هـ/1172م لتهنئة الخليفة يوسف على غزوة وبذة، وكان معهم الفقيه عمر بن عبد السَّلام، فرحب بهم الخليفة وأنزلهم وأكرمهم حتَّى انصرفوا إلى مواضعهم مسرورين. (انظر: ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص427 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص124).

4- سماه ابن صاحب الصلاة، شان منوس ولقَّبه بالأحدب عظيم النَّصارى بمدينة آبلة، وسماه ابن أبي زرع شانشو خيمينو وقال بأنَّه معروف بأبي برذعة، وورد عند ابن خلدون باسم القَوْمِس الأحدب، وقد كان بالفعل أحدبًا، وعُرف بأبي برذعة لأنَّه كان يركب على برذعة من الحرير منسوجة بالذهب مكلَّلة بأصناف الجواهر. شنَّ هذا الكونت العديد من الغارات المخربة في ربوع الأندلس، وقد وصل في بعض منها إلى طريف والجزيرة الخضراء، وأصاب المسلمين من عدوانه وعيثه بلاء كبير. (انظر: **المن بالإمامة**، ص428 وما بعدها ؛ **روض القرطاس**، ص212 ؛ **العِبر**، ج6، ص322 ؛ عنان، **عصر الموحدين**، ص87-88).

بقرطبة وعاثت في تلك النَّواحي قتلًا وسبيًا، وقد أسر القشتاليون أكثر من مئة وخمسين رجلًا وأخذوا من الماشية نحو خمسين ألفًا ومن البقر نحو مائتين[1].

وفي خضمِّ هذه الأحداث أمر الخليفة يوسف عندما وصلت أنباء هذه الحملة بالاستعداد لمحاربة القشتاليِّين، وجهَّز جيشًا بقيادة ولده أبي زكرياء يحي ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل[2]، وأمره بالتَّوجه لصدِّ هذه الحملة المدمرة، وقد خرج هذا الجيش من إشبيليَّة يوم الخميس الثالث عشر شعبان 568هـ/29 مارس 1173م وعبر الوادي الكبير، ووصل إلى قرطبة بعد ثلاثة أيام من خروجه من إشبيليَّة، واجتمع قادة الجيش مع الشَّيخ أبا حفص عمر بن يحي الهنتاني واتفقوا على ضرورة اللحاق النَّصارى الذين كانوا آنذاك منصرفين إلى بلادهم وتوقفوا بفحص كركوي على مقربة من قلعة رباح، وقد أرسل الجيش الموحِّدي أمامهم حملة استطلاعية بقيادة الحافظ أبا عمرن موسى بن حمو الصَّنهاجي صاحب يابرة، وعاد إليهم يوم الأربعاء التَّاسع عشر شعبان 568هـ/4 أفريل 1173م بأخبار تُعلمهم بتباطؤ الكونت خيمينو وجيشه في الرَّحيل، فتوجهوا إلى المكان المذكور لقتالهم فاستعجل النَّصارى مغادرة المكان، فتبعهم الموحِّدون واشتبكوا معهم في معركة عنيفة انهزم فيها النَّصارى وقَتل الموحِّدون قائدهم خيمينو وجميع من كان معه، إلَّا قليل قُدِّروا بنحو مائتي فارس تمكنوا من الفرار، وهذا حسب رواية ابن صاحب الصلاة[3]، بينما يذكر ابن أبي زرع أنَّه قُتل جميع الجيش ولم يفلت منهم أحد وكان عددهم ستة وثلاثين ألفًا[4]،واسترد الموحِّدون الغنائم من

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص428-429. (لا شك أنَّ المتأمل في هذه الأرقام يلاحظ فيها مبالغة كبيرة تبعث عن الاعتقاد بأنَّها مجرد تقدير لهذه الغنائم، وليست إحصائيات رسمية نستدل بها على كثرة الغنائم التي تحصل عليها الكون خيمينو). (انظر: معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحدين في بلاد الأندلس**، ص160).

2- شارك في تعداد هذا الجيش عدد من أشياخ الموحِّدين منهم الحافظ المرحوم أبي عبد الله بن الشَّيخ المرحوم أبي إبراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن الشَّيخ المرحوم أبي إبراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت وغيرهم، بالإضافة إلى أشياخ العرب بنخبة قبائلهم وأنجاد فرسانهم ورجالهم. (انظر: **المن بالإمامة**، ص429).

3- **المن بالإمامة**، ص429 وما بعدها.

4- **روض القرطاس**، ص212. (بينما يذكر أشباخ نقلًا عن الرِّوايات الإسلاميَّة أنَّه لم ينج من جيش النَّصارى البالغ عدده ثلاثين ألفًا أي أحد تقريبًا، وكان الأمير شانشو خيمينو من بين القتلى، أمَّا الرِّوايات النَّصرانيَّة فيذكر بأنَّها لم تحدثنا بشيء عن هذه الغزوة. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص69-70، هامش1).

أبقار وأغنام، وأُنقذ الأسرى المسلمون، وقد حُمل رأس الكونت خيمينو إلى الخليفة يوسف بإشبيليَّة، وقد فرح بهذا النَّصر، وكان يومًا سعيدًا مباركًا. وعندما وصل الجيش إلى إشبيلية يوم السبت الثَّاني والعشرين شعبان 568هـ/7 أفريل 1173م خطب الخطباء في حضرة الخليفة، وأنشد الشعراء أشعارهم المخلدة لهذا النَّصر، وبمقابل ذلك كان النَّصارى في بلادهم في روع وفزع شديد بعدما وصلهم نبأ مقتل خيمينو وأغلب جنوده[1].

وعلى إثر هذا النَّصر الذي تلا فشل حملة وبذة، تشجَّع الموحِّدون أكثر من ذي قبل في الاضطلاع بغزوِّ أراضي قشتالة وباقي الممالك النَّصرانيَّة، فقام الخليفة يوسف بتجهيز حملة عسكرية قوامها أربعة آلاف فارس من الموحِّدين والأندلسيِّين والعرب بقيادة أبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله تيجيت، وعبد الله بن أبي إسحاق بن جامع، وكُلفت هذه الحملة قبل اتجاهها إلى أراضي قشتالة لقتال العدوِّ، أن تتجه لحمل المؤونة إلى بطليوس بغرب الأندلس، فوصلوا إلى بطليوس على ثلاثة آلاف دابة من القمح والشَّعير والدقيق والزيت والملح والآلات وباقي المرافق وسلمت إلى قائدها أبي غالب بن أبي الحسين بن الموصلي[2].

وبعد تسليم هذه المؤونة اتجهت هذه الحملة العسكريَّة نحو الشمال الشرقي الأندلس باتجاه مدينة طلبيرة، ولمَّا وصلوا إليها قاموا بالإغارة عليها وعلى بسائطها، واستولوا على ثلاثين ألفًا من البقر والغنم، وكل ما وجدوه من سبي وامتلأت أيديهم من ذلك، وقتلوا رجال النَّصارى وأسروا بعضهم وعادوا سالمين إلى اشبيلية[3].

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص432 وما بعدها.

2- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص435. (غير أنَّ ميراندا يقول أنَّ هذه الحملة المتجهة لبطليوس لحمل المؤونة لأهلها رافقها فيلق من أربعمائة فارس، والصَّحيح ما أثبتناه في المتن وهو أربعة آلاف فارس. (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص261).

3- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص436.

ثمَّ خرجت حملة أخرى وسارت إلى أراضي طليطلة، وعاثت فيها وفي أحوازها واستولى الموحِّدون خلالها على غنائم كثيرة، وأذاقوا النَّصارى ويلًا وثبورًا[1] ولم تجد هذه الحملة أية مقاومة من قبل القشتاليِّين مثل سابقتها[2].

وعلى إثر هاتين الغزوتين سارع ملوك النَّصارى إلى عقد الصلح مع الموحِّدين[3]، بعدما أدركوا أنَّ موجة الغزوِّ الموحِّدي قد تشتد وتصبح أكثر دموية، فجنحوا إلى المسالمة وطلب المهادنة[4]، وكان أوَّل من طلب الهدنة والصلح مع الموحِّدين حاكم طليطلة الكونت نونيو دي لارا ثمَّ ألفونسو الثَّامن ملك قشتالة الذي بعث رسالة إلى الخليفة يوسف، وحذا حذوهما ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز وأرسل بدوره رسالة يطلب الهدنة، وقد حلت البعثتات بإشبيليَّة في شهر ذي الحجة سنة 568هـ/جويلية 1173م وبعد مفاوضات استمرت شهرين كاملين، تكللت بقبول الخليفة يوسف توقيع الهدنة مع هؤلاء الملوك[5]، وكانت مدة الهدنة مع ألفونسو هنريكيز خمس سنوات[6].

وكان لكل واحدٍ من هؤلاء أهداف من خلال توقيع هذه الهدنة، فالبنِّسبة للخليفة الموحِّدي فقد أبرزت هذه الهدنة على عبقريته السِّياسيَّة، فلولا مهادنة هؤلاء الملوك لدفعتهم الحاجة إلى التَّقارب والتَّحالف مع بعضهم البعض للوقوف في وجه الموحِّدين بصلابة[7]، كما أنَّه كان يريد الاستعداد لأي هجوم مباغت يمكن أن يشنه المغامر جيرالدو سمبافور انطلاقًا من المناطق الحدوديَّة

1- يصف ابن صاحب الصلاة ما قام به الجيش الموحِّدي خلال هذه الحملة بقوله "استاقوا منها الغنائم وأذاقوا الكفار شرًا، وسقوهم من الغنيمة والإسار كأسًا مرًا. (انظر: **المن بالإمامة**، ص436).

2- ميرندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص261. (في الواقع هناك استغراب كبير لعدم تصدي القشتاليِّين للجيوش الموحِّديَة التي عاثت في أحواز عاصمة مملكتهم طليطلة، ويبدو أنَّهم كانوا يفكرون في عقد الصلح معهم).

3- يذكر ابن صاحب الصلاة أنَّ ملوك النَّصارى تراموا بإرسالهم إلى السِّلم جانحين، ولأبواب الصلح فاتحين، وللمهادنة طالبين، ولأسبابها راغبين. (انظر: **المن بالإمامة**، ص436).

4- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص89.

5- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص436-437 .

6- ميرندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص262.

7- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص162 .

جهة غرب الأندلس، بالإضافة إلى رغبة الخليفة يوسف التَّفرغ لأعمال البناء والتَّعمير، بالخصوص في المناطق التي خرجت من جراء العدوان والغزوِّ النَّصراني مثل مدينة باجة وغيرها[1].

ومن جهتهم فإنَّ القشتاليِّين الذي أقاموا تحالفًا مع أراغون حرصوا على توقيع الهدنة مع الموحِّدين حتَّى يتسنى لهم التَّهيؤ للهجوم الكاسح الذي كانوا ينوون القيام به في حدود صيف 1173م/568هـ على نبرة، وقد وقع الهجوم وتمَّ هزم ملك نبرة في معركة حامية الوطيس، وفيما يخص ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز فقد عقد الهدنة مع الموحِّدين لأنَّه كان يتخوف أن يوجه الموحِّدون كل ثقلهم ضده رغبةً منهم في الانتقام منه لكونه احتل مدينة باجة حوالي خمسة أشهر وعاث فيها وخرَّبها، وقتل عدد من أهلها وأسر البقية، واستولى على غنائم كثيرة[2].

وإثر هذه الأوضاع سارع المغامر جيرالدو سمبافور بدوره لعقد تحالف مع الموحِّدين لأنَّه شعر بأنَّه فقد مكانته وأغلقت في وجهه فرص المغامرة[3]، على اعتبار أنَّ توقيع الموحِّدين للهدنتين مع قشتالة والبرتغال جعل قيامه بأية غارة باسم أحد الملكين على الحدود الإسلاميَّة أمرًا متعذرًا وبما أنَّه كان واعيًا أنَّ جنوده لن يحافظوا على وفائهم له لأنَّه لم يكن يمتلك الإقطاعات التي يمكن أن يغريهم بها[4]، فاضطر إلى الدخول في طاعة الخليفة الموحِّدي، فسار في صحبة رجاله الثلاثمائة والخمسين[5] إلى إشبيليَّة سنة 569هـ/1174م والتمس قبوله عبدًا وخادمًا للخليفة لكي يضمن قوت يومه[6]، فقبل الخليفة التماسه، وأحسن إليه وأكرمه، وأخذه معه إلى مرَّاكش سنة 571هـ/1176م وأسكنه السوس، وعندما ثبتت خيانته باتصاله سرًا مع ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، وضُبطت بعض المراسلات بينهما، أهمها اقتراح جيرالدو بأن يجهِّز ملك البرتغال أسطولًا حربيًا لكي يستولي على ساحل السوس وينشئ بذلك مستعمرة برتغالية على الساحل المغربي، وقام

1- ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص436 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص90.

2- ميراندا، **التاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص261-262 .

3- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص90.

4- ميرندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص262.

5- البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، ص132.

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص130.

الخليفة باستدعائه من السوس إلى مرَّاكش، ثمَّ وجهه إلى درعة وأمر واليها أن يفرِّقه وأصحابه بين مختلف القبائل ثمَّ يقتلوهم[1]، فنفذت أوامر الخليفة وتمَّت تصفيته مع أصحابه جميعًا[2].

وبعد توقيع هذه المعاهدات مع ملوك النَّصارى، مكث الخليفة يوسف عامين آخرين في الأندلس، وكانت أهم الحوادث في تلك الفترة تتلخص في الاهتمام بتعمير قواعد غرب الأندلس وفي تجدد الحرب مع ملك ليون[3].

ويوم الخميس الرَّابع عشر من شهر شعبان سنة 571هـ/27 فيفري 1176م[4] غادر الخليفة يوسف إشبيليَّة متجهًا نحو مرَّاكش، فوصل إليها في منتصف شهر رمضان عام 571هـ/28 مارس 1176م[5] وقد مكث الخليفة بالأندلس حوالي خمس سنوات[6].

1- البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، ص132-133. (وهناك رواية أخرى لكيفية مقتله أوردها ابن عذارى مفادها أنَّ الخليفة اكتشف أمر المراسلات بينه وبين ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز فقبض عليه وأصحابة، وأرسلوا إلى سجلماسة، واعتقلوا هناك تحت رقابة شديدة، ثمَّ حاول جيرالدو الفرار من معتقله، فقبض عليه وقُتل وأحتز رأسه. والرِّواية المثبتة في المتن للبيذق هي الأرجَّح على اعتبار أنَّه معاصر للحدث). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص130).

2- يذكر البيذق أنَّه قُتل عام 565هـ/1169م، وقد أخطأ في تحديد تاريخ مقتله، والأرجَّح أنَّه قُتل في سنة مقدمه إلى مرَّاكش مع الخليفة يوسف عام 571هـ/1176م. (انظر: **أخبار المهدي بن تومرت**، ص132).

3- قام فرناندو الثَّاني ملك ليون في أواخر عام 569هـ/1174م بغزوِّ أراضي الموحِّدين بالأندلس، فنقض بذلك العهد الذي كان يربطه بالموحِّدين منذ سنة 563هـ/1168م، فقرَّر الخليفة غزوه في عقد داره، فأرسل حملة بقيادة أخيه أبي حفص خرجت من إشبيليَّة في الثَّالث صفر عام 570هـ/3 سبتمبر 1174م، واتجهت إلى مدينة ثيوداد رودريكو (مدينة رودريق) والتي تُعرف في المصادر العربية باسم السبطاط وهي قاعدة مملكة ليون، وقد رافق الموحِّدون في هذه الحملة حليفهم القشتالي فرناندو رودريكيز، واستولى الموحِّدون خلالها على مدينتي القنطرة وناضوش، وعادت قوَّاتهم إلى إشبيليَّة سالمةً. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص131 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّدية**، ص263).

4- لم يجزم ابن عذارى حول تاريخ انصراف الخليفة من إشبيليَّة عائدًا إلى مرَّاكش، فقال كان يوم الخميس الرَّابع عشر رمضان عام 571هـ/27 مارس 1176م ثمَّ أردفه بقوله وقيل في شعبان، وهو الصَّحيح على اعتبارا أنَّه قال في مناسبة أخرى بأنَّه وصل إلى مرَّاكش في منتصف رمضان من عام 571هـ/28 مارس 1176م. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص135-136).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص136. (غير أنَّ ابن أبي زرع يقول أنَّ الخليفة دخل مرَّاكش في شهر شعبان سنة 571هـ/فيفري 1176م، والأرجَّح ما أثبتناه في المتن. (انظر: **روض القرطاس**، ص212).

6- يذكر ابن عذارى أنَّ مكوث الخليفة يوسف بالأندلس كان بالتَّحديد أربعة أعوام وعشرة أشهر ونصف. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص136).

وقد استغل ملوك النَّصارى عودة الخليفة يوسف إلى المغرب وتأزم الأوضاع به، بظهور الوباء بمرَّاكش في شهر ذي القعدة سنة 571هـ/ماي 1176م[1]، ووقوع ثورة محلية بين عشائر صنهاجة في أواخر سنة 572هـ/أوائل 1177م[2]، فقاموا بنقض العهد مع الموحِّدين، ففي سنة 572هـ/1177م قام ملك قشتالة ألفونسو الثَّامن بتجهيز حملة صليبيَّة شارك فيها ملك أراغون والكونت نونيو دي لارا حاكم طليطلة، وعدد كبير من جماعة الفرسان الذين أعطوا نفس جديد للمالك المسيحيَّة في تنشيط حركة الاسترداد، واتجهت هذه الحملة ناحية مدينة قونكة وحاصروها تسعة أشهر، إلى أن استسلمت حاميتها في يوم 19 مارس 573هـ/21 سبتمبر 1177م[3].

وكرد فعل على ذلك قام الموحِّدون بالإغارة من جديد على مدينتي طلبيرة وطليطلة حينما كان القشتاليون يحاصرون مدينة قونكة، من أجل إجبارهم على رفع الحصار عنها، فخرج والي إشبيليَّة أبو علي الحسين بن الخليفة يوسف بجيش قوامه أربعة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل وسار شمالًا باتجاه طلبيرة وأحوازها، فغنم كثيرًا من السبي والغنائم وأغار أيضًا على ضفة نهر التاجة ثمَّ انصرف إلى إشبيليَّة بالغنائم والأسرى سالمًا غانمًا[4]، وخرج أيضًا أخاه أبو الحسن علي والي قرطبة

1- كان وباءً شديدًا جدًا، فقد مرض الخليفة يوسف وأخاه أبو حفص وأشرفا على الهلاك، وتوفي أربعة من إخوة الخليفة ومات بعض كبار مشايخ الموحِّدين منهم أبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي، وكان يموت نحو مائتي شخص كل يوم، وقد ظلَّ الوباء مدَّة سنة كاملة، وانتشر أيضًا بالأندلس غير أنَّه لم يكن بالصورة الشديدة التي كان عليها في المغرب. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص136 ؛ ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص238 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص94-95).

2- ولم تعد هذه العشائر إلى الطاعة إلَّا بعد خروج الخليفة يوسف بنفسه لغزوها في الرَّابع من شهر ذي القعدة عام 572هـ/4 ماي 1177م. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص137).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص137-138 ؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص164-165.

4- يذكر ابن عذارى أنَّ والي إشبيليَّة أبا علي الحسين كان قد أقسم أن يعبر نهر التاجة نكايةً بالنَّصارى، وجاز في أثناء هذه الحملة النهر بقاربٍ كان قد حمله معه من إشبيليَّة على أكتاف الرِّجال. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص138).

يوم السَّادس شوال 572هـ/7 أفريل 1177م وأغار على أراضي طليطلة وأثخن فيها وارتد بغنائمه سالمًا إلى قرطبة[1].

واستمرت المعارك والمناوشات المتفرقة بين الموحِّدين والممالك النَّصرانيَّة في جميع أرجاء بلاد الأندلس إلى غاية سنة 579هـ/1183م، وكان الموحِّدون يقومون في كل عام تقريبًا بالغزوِّ في أراضي النَّصارى، ويقوم ملوك قشتالة وليون وأراغون والبرتغال من جهة أخرى بغزوِّ أراضي المسلمين، وكانت هذه المعارك سجالًا بين الفريقين دون أن تُسفر عن نتائج حاسمة أو حوادث ذات شأن[2].

ثمَّ اتخذت الحرب بين الفريقين وجهة أخرى، وامتدت إلى مناطق كانت حتَّى ذلك الحين خارجة عن ميادين القتال، ذلك أنَّ الموحِّدين، وكذلك مملكة البرتغال وإمارة قطلونية وهما الدَّولتان البحريتان، قد جهزوا الأساطيل، واصطدموا في عدَّة معارك بحرية بمياه الجزائر الشَّرقيَّة شرق الأندلس وشواطئ غرب الأندلس عند مصب نهر التاجة، بيد أنَّها ومثل المعارك البرية السابقة لم تُسفر عن أية نتائج عسكرية ذات قيمة وتأثير ملحوظين.[3].

ولكن عندما تمادت الغزوات البريَّة والبحريَّة للمالك النَّصرانيَّة وبخاصة في اتجاه غرب الأندلس حيث مملكة البرتغال، قرَّر الخليفة يوسف التَّصدي لها للذود عن الأراضي الإسلامية، فاستعد عندئذ بنفسه للعبور إلى الأندلس للمرة الثَّانية منذ توليه الخلافة.

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص138.

2- عن هذه المعارك والمناوشات. (انظر: انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص138 وما بعدها ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص71 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص97 وما بعدها).

3- عن المواجهات البحريَّة بين الموحِّدين والبرتغاليِّين خلال هذه الفترة. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص140 وما بعدها ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص71 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص270-271 ؛ توفيق مزاري عبد الصَّمد، **النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحِّدين**، ص143 وما بعدها).

4- العبور الثَّاني واستشهاد أمير المؤمنين:

4-1- ظروف وأسباب العبور الثَّاني:

بدأ الخليفة الاستعداد للعبور إلى الأندلس للتَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي بها، في منتصف عام 579هـ/1183م[1]، وقد أدرك أنَّه في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة التي سبقت هذا التَّاريخ، قد اشتدت وتفاقمت الغزوات النَّصرانيَّة على أراضي المسلمين بالأندلس، فقد كان ملك قشتالة يهدِّد مدن قرطبة وإشبيليَّة بغزواته المتكرِّرة، وقد وصل بقوَّاته جنوبًا حتَّى غرناطة ومالقة ورندة[2]، كما أنَّ غزوات البرتغاليِّين لم تتوقف وكانت أكثر شدة، وأحرزوا بعض الانتصارات على الموحِّدين في البرِّ والبحر[3].

كما أدرك الخليفة يوسف وتيقن من ضعف الجبهة الدِّفاعيَّة الموحِّديَّة بالأندلس، وقصورها عن ردِّ عدوان النَّصارى المتكرر بالخصوص عام 579هـ/1183م فقرَّر العبور بنفسه وتنظيم حملة عسكرية ضخمة ضدِّ الممالك النَّصرانيَّة، بالخصوص على مملكة البرتغال[4].

وقد شرع الخليفة يوسف في الخامس جمادى الآخرة سنة 579هـ/25 سبتمبر 1183م بتمييز أجناد الموحِّدين والعرب وجميع القبائل استعدادًا للغزوِّ، وأمر بصنع عشرة مناجيق، وأن يرمي بها الجند أمامه في منطقة البحيرة خارج مرَّاكش، وقد استمر تمييز الجند طوال شهر جمادى الآخرة[5].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص155.

2- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص324 .

3- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص113-114 .

4- يذكر ميراندا أنَّ الخليفة يوسف قرَّر في البداية حصر المساعدة في إرسال المؤونة، حيث جُهزت لتلك الغاية قافلة من أربعة آلاف دابة محملة بالمؤن التي غنمها المسلمون من حملة ابن وانودين على يابرة في أواخر محرم 577هـ/جوان 1181م، وأرسلت إلى الأندلس لتلبية احتياجات أهلها. (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص281).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص155.

وتمهيدًا لحركة الغزوّ قام الخليفة بتولية أبنائه الأربعة على قواعد الأندلس وهذا يوم الحادي والعشرين شعبان عام 579هـ/29 نوفمبر 1183م فجعل أبو إسحاق على ولاية إشبيليّة، وأبو زكرياء يحي على ولاية قرطبة، وأبو زيد لولاية غرناطة، وأبو عبد الله لولاية مرسيَّة، كما ولى مجموعة من القضاة على مدن الأندلس[1]، وأمر الجميع بالجواز إلى الأندلس في السَّابع والعشرين شعبان من نفس السنة[2].

وفي الخامس عشر من شهر رمضان من نفس السنة جمع الجيش وقسَّم السِّلاح والعتاد بينهم، وعندما اكتملت التَّحضيرات خرج الخليفة بموكبه من باب دُكالة بمرَّاكش يوم السبت الخامس والعشرين شوال 579هـ/11 فيفري 1184م[3]، ووصل إلى رباط الفتح قرب مدينة سلا يوم الاثنين الثَّالث عشر ذي القعدة من نفس السنة (28 فيفري 1184م) وبعد أسبوع من مكوثه هناك وصل أبو محمَّد بن أبي إسحاق بن جامع قادمًا من افريقية بعدد من الفرسان، وقد سأله الخليفة عن أحوال العرب في افريقية فأخبره أنَّهم فرُّو من البلاد بأهلهم حينما سمعوا بحركة الغزوّ، وقد حلَّ الأمن بربوع افريقية[4].

1- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص324. (ولى قضاء إشبيليَّة أبو المكارم بن الحسين المصري، وقضاء قرطبة أبو الوليد بن رشد، وقضاء غرناطة أبو عبد الله الصقر). (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص156).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص156.

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص213 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص156.

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص157 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص213 ؛ السلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص138.

ثمَّ عقد الخليفة اجتماعًا تشاوريًا مع شيوخ الموحِّدين والعرب وكبار القادة، وسألهم عن أمر توجيه هذه الحملة، هل توجه إلى افريقية أو توجه إلى الأندلس، فاجتمع رأيهم بأن توجه إلى الأندلس لغزوِّ النَّصارى والجهاد في سبيل الله[1]، فأبد الخليفة ارتياحه لهذا الرأي[2].

وفي يوم الثَّامن والعشرين من ذي القعدة بدأت العساكر في الجواز على قنطرة سلا، وبعد يومين غادر الخليفة إلى مكناسة وقضى بها عيد الأضحى، ثمَّ غادرها إلى فاس لتأديب عمالها ورد الأموال التي استولوا عليها، وفي يوم الثَّامن عشر من ذي الحجة أمر الخليفة بأن يتقدم العسكر قبيلتا هنتانة وتينملل برسم الجواز إلى الأندلس، وبأن يتقدم ولده أبو حفص على طوائف العرب وأن يشرف على جوازهم إلى الأندلس، وقدَّم أيضًا على بعض قبائل الموحِّدين بعض السادات من الأبناء والإخوة، وكتب إلى ولاة الأندلس أن يستعدوا للجهاد، ولاستقبال هذا الجمع الكبير من الجند[3].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص157. (لم يذكر ابن أبي زرع هذه الاستشارة، وقال بأنَّ الخليفة يوسف عندما علم بحلول الأمن في افريقية صرف الغزوة مباشرةً إلى الأندلس). (انظر: **روض القرطاس**، ص213)

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص157. (يرى عنان أنَّ الخليفة يوسف لم يكن لديه حين خروجه من مرَّاكش رأي حاسم في شأن هذه الغزوة، لأنَّه عمد إلى استشارة كبار القادة والمشايخ عن وجهتها، وهذا في ذاته يكشف لنا جانبًا من ضعف الخطط العسكريَّة الموحِّديَّة. ورأى أنَّ عنان جانب بعض الحقيقة في حكمه هذا على اعتبار أنَّ الخليفة أبدا ارتياحًا وسرورًا عندما اختار هؤلاء القادة والأشياخ بأن توجه الغزوة إلى الأندلس، ويظهر جليًا أنَّه كان ينوي التَّوجه للجهاد في الأندلس، واستشارتهم كان عملًا بروتوكوليًا فحسب، أمَّا عن استفساره عن أحوال افريقية فمن الطبيعي أن يسأل عن أحوال دولته في هذه المنطقة الشديدة الاضطراب، وقد استغل فرصة مجيء أبو محمَّد بن أبي إسحاق بن جامع من تلك المنطقة لكي يخبره عن أحوال العرب بها). (انظر: **عصر الموحِّدين**، ص115).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص158 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص213 .

وفي يوم الثلاثاء الرَّابع من شهر محرم 580هـ/16 أفريل 1184م تحرك الخليفة بموكبه من فاس، ووصل إلى سبتة فأقام بها طيلة شهر محرم[1]، ثمَّ عبر البحر إلى الأندلس يوم الخميس الخامس صفر سنة 580هـ/17 ماي 1184م بعدما عبر جميع الجيش قبله[2]، وقد نزل بجبل طارق ثمَّ ارتحل منه إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى إشبيليَّة التي وصلها يوم الجمعة الثَّالث عشر صفر 580هـ/25 ماي 1184م وخرج الجميع لاستقباله بكل حفاوة وترحاب منهم القاضي أبا بكر بن الجد[3].

ونظرًا لحرص الخليفة يوسف على جهاد الممالك المسيحيَّة، وتنفيذ خطة الغزوّ بسرعة فائقة، فقد أمر في اليوم الثَّاني من وصوله إلي إشبيليَّة بتميِّيز العساكر وترتيبها وتوزيع السلاح والعتاد عليهم، وقد وزع ألف فرس على أشياخ الموحِّدين والعرب وكبار الجند، وكانت آنذاك تتلاحق عساكر الأندلس من مختلف مدنها وقواعدها[4]، ويذكر الحِميري أنَّ عدد الجيش الذي اجتمع في إشبيليَّة كان أربعون ألفًا من أنجاد العرب الفرسان، ومن الموحِّدين والجنود والمتطوعة وفرسان الأندلس وأجنادها ما يزيد عن مائة ألف فارس[5]. ويذكر أشباخ نقلًا عن بعض الرِّوايات النَّصرانيَّة أنَّ هذه الجيوش المجتمعة كانت تفوق في الكثرة أي جيش آخر قاده ملوك افريقية إلى

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص159 ، ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص213 .

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص159. (يذكر ابن أبي زرع بأنَّ الجيش الموحِّدي عبر إلى الأندلس تبعًا، فقد جازت قبائل العرب أولًا ثمَّ قبائل زناتة، ثمَّ قبائل المصامدة، ثمَّ قبائل غمارة وصنهاجة وأوربة وباقي أصناف البربر، ثمَّ جازت جيوش الموحِّدين والأغزاز والرُّماة، ولمَّا كملت هذه القبائل الجواز، عبر الخليفة يوسف في أثرهم مع حاشيته وعبيده. (انظر: **روض القرطاس**، ص213-214).

3- يذكر ابن عذارى أنَّ الخليفة يوسف من تواضعه وشرفه واعتنائه بالعلم أنَّه لمَّا أبصر القاضي أبا بكر بن الجد مقبلًا إليه ليسلِّم عليه، ترجلَّ عن فرسه وتلاقيا، فترامى ابن الجد على يد الخليفة وقبلها، ومسح بها وجهه وقال الحمد لله الذي جمعني بك يا حبيبي وحبيب النَّاس، فتبسم الخليفة من قوله. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص159).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص159.

5- **الرَّوض المعطار**، ص346 .

الأندلس، وهو يزيد بمقدار ثمانية وسبعين ألف مقاتل عن أعظم جيش قاده المسلمون من إفريقية إلى الأندلس منذ عهد طارق بن زياد[1].

وأقام أمير المؤمنين يوسف بإشبيليَّة حوالي أسبوعين وهو يستكمل التَّحضيرات والتَّجهيزات فقد أمر قائد الأسطول أبو العباس الصقلي بإعداد سفن الغزوّ وآلات الحرب ومعداتها[2]، ويذكر أشباخ أنَّه بالإضافة إلى الجيش البري فقد اجتمع للمسلمين أسطول عظيم من سفن القتال وسفن النقل، مشحونة بالسِّلاح وآلات الحصار والمؤن، عند مصب نهري الوادي الكبير ووادي آنة، وهي على أهبة لأن تؤيد من البحر جهود الجيش البري[3].

ولمَّا اكتملت الاستعدادات استقرَّ الرأي بأن تكون وجهة الغزوّ ناحية غرب الأندلس بالتَّحديد مدينة شنترين البرتغالية[4]، وقد تمَّ اختيار هذه المدينة لعدة أسباب مادية ومعنوية فقد كانت البرتغال من الممالك النَّصرانيَّة الأكثر شدةً ووطأةً في غزوّ أراضي الموحِّدين، وهي السباقة من بين الممالك النَّصرانيَّة في العدوان على الموحِّدين لمَّا دخلوا الأندلس، وهي الأكثر إزعاجًا لهم بحيث كانوا يشنون الغارات على أراضي الموحِّدين انطلاقًا من حصن شنترين بقيادة ملكها ألفونسو هنريكيز، ورجاله الأُجراء أمثال جيرالدو سمبافور[5]، بالإضافة إلى أنَّ مملكة البرتغال تعتبر أضعف الممالك المسيحيَّة[6].

1- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص72.

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص159.

3- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص72.

4- نُشير إلى أنَّ مدينة شنترين احتلها ألفونسو هنريكيز في شوال 541هـ/مارس 1147م. (انظر: معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص84).

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص71 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص295 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص116-117).

6- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص295. (بالرغم من أنَّ مملكة البرتغال كانت أشد وطأةً في غزواتهم على الموحِّدين إلَّا أنَّها بالمقارنة مع باقي الممالك النَّصرانيَّة، فهي أضعف هذه الممالك على اعتبار أنَّها كانت تابعة لمملكة قشتالة في عهد القيصر ألفونسو السَّابع، وكانت تدفع لها الضَّريبة، وعند وفاته أصبحت تابعة لملك ليون فرناندو الثَّاني، وقد ناضل ملكها ألفونسو هنريكيز سنوات طويلة من أجل الحصول على استقلاله).

وقد اعتزم الخليفة يوسف أن يهاجم في البداية مملكة البرتغال من البر والبحر، ويتوغل في هجومه حتَّى ضفاف نهر دويره، ثمَّ الزَّحف من على ضفاف نهر التاجة ودويره إلى قلب مملكتي قشتالة وليون، بينما تشغل قوَّات النَّصارى جيوش إسلامية أخرى تزحف من الجنوب[1].

4-2- غزوة شنترين واستشهاد أمير المؤمنين:

تحرك الخليفة يوسف بجيشه الجرار عندما اكتملت جاهزيته من إشبيليَّة صبيحة يوم الخميس السَّادس والعشرين صفر 580هـ/7 جوان 1184م[2] متجهًا نحو مدينة شنترين بغرب الأندلس[3] وكانت هذه المدينة آنذاك من أمنع المدن[4]، وقد بادر الخليفة يوسف إلى الخروج من إشبيليَّة لغزوٍّ شنترين على جناح السرعة[5] لكي لا يترك للنَّصارى وقتًا للتسلح و إصلاح القلاع وتزويدها

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في هد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص72.

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص160 .

3- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص126 ؛ المراكشي، **المُعجب**، ص182 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص160 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص214 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص325 ؛ الزركشي، تاريخ الدَّولتين الموحِّديَّة والحفصيَّة، ص14. (غير أنَّ أشباخ يخالف المصادر الإسلاميَّة ويقول أنَّ الخليفة يوسف كان متجهًا إلى بطليوس معتزمًا محاصرة أشبونة، بيد أنَّه كان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح أن يستولي على قلعة شنترين. وقد وافقه عنان الرأي وقال بأنَّ الهدف الرئيسي للحملة كان الاستيلاء على ثغر أشبونة، لكن الاستيلاء على شنترين أولًا ضروري لكي تؤمن مؤخرة الجيش الموحِّدي ضدَّ أي هجوم يقوم به النَّصارى من الشمال. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص72 ؛ **عصر الموحِّدين**، ص120).

4- المراكشي، **المُعجب**، ص182. (يذكر ابن خلكان بأنَّ شنترين كانت في غاية المنعة والحصانة). (انظر: **وفيات الأعيان**، ج7، ص135).

5- لم يمكث الخليفة في إشبيليَّة غير ثلاثة عشر يومًا، حيث وصلها يوم الجمعة الثَّالث عشر صفر سنة 580هـ/25 ماي 1184م وغادر يوم الخميس السَّادس والعشرين من نفس الشهر، فهي مدَّة قصيرة نوعًا ما للاستراحة وانتظار وصول العساكر الأندلسيَّة، وترتيب هذه الجيوش الضَّخمة وتجهيزها. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص159-160).

بحاميات كبيرة ومقادير احتياطية من المؤن، والنزول إلى ميدان الحرب بجيشٍ حسن الأهبة[1].

ولكن الجيوش الموحِّديَّة سارت من إشبيليَّة في روية وأُبهة[2] حتَّى وصلت إلى بطليوس بعد حوالي عشرة أيام، فأمر الخليفة يوسف بالنزول بها لاستكمال الاستعدادات، بتمييِّز الجند ولبس السِّلاح وجلب ما ينقص من المؤمن والميرة، وفي يوم الخميس العاشر ربيع الأوّل 580هـ/21 جوان 1184م رحل الجيش الموحِّدي من بطليوس مخترقًا نهر التاجة، فوصل شنترين يوم الأربعاء السَّادس عشر ربيع الأوَّل 580هـ/27 جوان 1184م[3]، فعسكر الجيش بالجبل المطل على المدينة[4] من ناحيتها الشرقيَّة والجنوبيَّة[5]، وشرع في حصارها والتَّضييِّق عليها[6].

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص72. (بالفعل بادر الخليفة بالخروج من إشبيليَّة لغزوِّ شنترين على جناح السرعة، ولكن مسير الجيوش إليها كان بإيقاع بطيء فقد وصل إليها بعد عشرين يومًا من خروجه، وقد وفرَّ هذا البطء للبرتغاليِّين الوقت الكافي لتهيئة الحماية اللازمة، وكذا المؤونة الضرورية لحصن شنترين تحسبًا لحصار قد يطول أمده). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص295).

2- يذكر ابن عذارى أنَّ الجيش الموحِّدي لبس أحسن الألبسة، وتبختر في المشي، وتوشح بالسُّيوف الهندية والدرق اللَّمطيَّة وغيرها من صنوف الأسلحة. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص160).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص160. (غير أنَّ ابن أبي زرع يقول أنَّ وصول الجيش الموحِّدي إلى شنترين كان يوم السَّابع ربيع الأوَّل سنة 580هـ/18 جوان 1184م، بينما ينقل ميراندا عن المصادر المسيحيَّة والتي اختلفت هي الأخرى في تاريخ وصول الجيش الموحِّدي إلى شنترين وبداية حصارها، حيث نقل عن مؤرخ عاصر الحدث هو الراهب الانجليزي راوول ديسيتو (Raul de Diceto) الذي قال أنَّ وصوله كان يوم 13 ربيع الأوَّل 580هـ/24 جوان 1184م وهو يوم عيد القديس يوحنا، وفي رواية أخرى أنَّه وصل يوم 17 ربيع الأوَّل 580هـ/28 جوان 1184م. (انظر: **روض القرطاس**، ص214 ؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص289 وما بعدها).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص160. (يرى ميراندا أنَّه لا يوجد جبل عالي مطل على مدينة شنترين، وأنَّه لا يوجد أي مكان أكثر ارتفاعًا من القصبة التي يصل علوها إلى 180 مترًا والتي يليها من حيث الارتفاع المكان الذي توجد فيه المقبرة في الوقت الحاضر والذي يصل علوه إلى 103 أمتار، وبينهما توجد الهوة السَّحيقة التي كانت تُعرف باسم الحنشة. (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص292، هامش158).

5- يذكر ابن عذارى أنَّه في يوم وصول الجيش الموحِّدي إلى شنترين وقت الظهر، لم يشغل أحد بقتال، ولا رمي بنبال، إنَّما كان الغرض في رؤية أسوارها وفهم حال كفارها. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص160).

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص214 .

وفي نفس الوقت الذي كان الجيش الموحّدي يحاصر شنترين برًا، كان أسطولهم يحاصر مدينة أشبونة من البحر بقيادة القائد أبو العباس الصقلي وقد حاصرها مدَّة عشرين يومًا[1] وللأسف الشديد فالمصادر التَّاريخيَّة لم تذكر وقائع هذا الحصار ونتائجه، واكتفى أشباخ بالقول أنَّ الأسطول الإسلامي الذي وصل إلى أشبونة مشحونًا بآلات الحصار والتَّخريب بادر إلى الفرار حينما علم بنبأ الهزيمة التي حلت بالموحّدين في شنترين[2].

وبالعودة للحديث عن حصار شنترين، فقد بات الخليفة يوسف بعسكره يوم وصوله مكتفيًا بالحصار والتَّضيِّيق على المدينة، ويذكر المراكشي أنَّه قام أيضًا بقطع ثمارها وإفساد زروعها وشنِّ الغازات على نواحيها[3]، وكان البرتغاليون آنذاك قد تحصنوا بالمدينة وقد ملئت قلوبهم ذعرًا وحسرةً[4]، وقد جاء ملكهم ألفونسو هنريكيز رفقة قوَّاده وسائر أتباعه إلى المدينة وملأها أقواتًا وسلاحًا وجميع ما يحتاج إليه، وكان واثقًا من حصانة شنترين وشدة منعتها[5].

وفي يوم الخميس أمر الخليفة يوسف أن يتقدم الجند حتَّى أبواب المدينة، فتقدم هؤلاء واقتحموا الربض الخارجي للمدينة، وأوقدت النيران فيه، وبات الجند في تلك الليلة على أحسن حال، وفي الغد من يوم الجمعة، عندما صلى النَّاس الصبح أمر الخليفة بالتأهب للقتال، فوقع القتال بين الطرفين وسيطر المسلمون خلاله وبصفة كاملة على الربض الخارجي للمدينة، وهزم من

1- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص346 .

2- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص75 .

3- **المُعجب**، ص182 .

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص160.

5- ينفرد المرَّاكشي من بين المصادر الإسلاميَّة بالقول أنَّ الملك البرتغالي ألفونسو هنريكيز جاء بنفسه مع قوَّاته لنجدة شنترين والدِّفاع عنها، ويوافقه في الرأي دوارتي كالباو مؤلف (Duarte Galvao) كتاب التَّاريخ البرتغالي لألفونسو هنريكيز، وقد نقل لنا روايته ميراندا، والأرجَّح أنَّه لم يقدم لنجدتها بل بعث إليها إمدادات فحسب. (انظر: **المُعجب**، ص182 ؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحّديَّة**، ص291-292).

خرج من جيش النَّصارى من قصبة المدينة، وقتل الكثير منهم، وهدمت الكنيستان اللتين به وهدمَّت أحياءه المتصلة بالسور، وارتد من نجا من المدافعين إلى داخل القصبة[1].

وفي صبيحة يوم السبت تجدَّد القتال بين الطرفين، واستمر إلى غاية يوم الاثنين الحادي والعشرين ربيع الأوَّل 580هـ/2 جويلية 1184م وكانت المعارك بينهما ضارية[2]. وفي ذلك اليوم أمر الخليفة يوسف أن يتوقف القتال وأن يغير الجيش موضع نزوله إلى موضوع آخر، أي الانتقال من الجهة الشرقيَّة إلى الجهة الغربيَّة من مدينة شنترين[3]، فأحدث هذا الموقف من الخليفة دهشة وحيرة لدى الجيش الموحِّدي، وأنكروا عليه ذلك ولم يعرفوا له سببًا[4]، فظهر الخلل في صفوف الجيش الموحِّدي وانقطعت لديهم الآمال[5]، وقد اعترض بعض القادة على هذا القرار خوفًا من تعرض الجيش الموحِّدي إلى خطر التَّطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة الخليفة هي التي نُفذت دون سواها[6].

1- يذكر ابن عذارى أنَّ جند النَّصارى كانوا يترجلون عن خيولهم، ويساعدهم إخوانهم بمدِّ الحبال من أعلى سور القصبة لكي يصعدوا ويفروا من ميدان القتال، ويقول أيضًا أنَّ الكفار عاينوا في ذلك اليوم ما أذهلهم وهالهم، وقرَّت أعين الإسلام بما نالهم (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص160-161).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص161 .

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص161. (غير أنَّ ابن أبي زرع يقول أنَّ انتقال الجيش كان يوم الثلاثاء الثَّاني والعشرين ربيع الأوَّل سنة 580هـ/3 جويلية 1184م. (انظر: **روض القرطاس**، ص214).

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص214. (يزعم أشباخ أنَّ الخليفة يوسف كان يتولى القيادة بنفسه، معتبرًا القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يثير في نفوس أولئك القادة المجربين مرارة شديدة. وأرى أنَّ كلامه غير صحيح فقد رأينا سابقًا أنَّ الخليفة يوسف عندما كان برباط الفتح استشار مشايخ الموحِّدين والعرب وجميع القادة عن وجهة هذه الغزوة هل تتجه لإفريقية أو إلى الأندلس، فلم يكن الخليفة يتخذ قراراته بصفة فردية في أغلب الأوقات). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص73).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص168.

6- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص73.

ويذكر ابن أبي زرع أنَّه في ليلة ذلك اليوم[1]، أمر الخليفة ولده أبي إسحاق والي إشبيليَّة بالرحيل يوم غد لغزوِّ مدينة أشبونة، وشنِّ الغارات على أنحائها، وأن يسير إليها بجيوش الأندلس خاصةً ويكون رحيله نهارًا، فأساء والي إشبيليَّة الفهم، وظنَّ أنَّ والده أمره بالرَّحيل في جوف الليل فانتشر الخبر بين النَّاس، وتأهبوا للرَّحيل، فرحل منهم طائفة بالليل[2]، فلما اقترب فجر الغد، ارتحل والي إشبيليَّة أبو إسحاق وتتابع النَّاس بالرَّحيل في حين كان الخليفة يوسف يراوح مكانه في خيمته لا علم له بذلك[3].

ولمَّا طلع النَّهار لم يجد الخليفة حوله أحد، إلَّا اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله، وقواد الأندلس لأنَّهم كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته، فاستغل النَّصارى المحَاصرين هذا الوضع، وفتحوا أبواب المدينة وخرجوا جميعًا، وهجموا على معسكر الموحِّدين وكانوا ينادون بالاتجاه ناحية الخليفة يوسف لقتله، وبالفعل اقتحموا خباءه فقاتلهم بسيفه حتَّى قتل منهم ستة رجال، ولكنهم طعنوه طعنة نافدة، ولكن استطاع جند الموحِّدين أن ينقذوا الخليفة، بعد قتال شديد استمر لمدة ساعة ودارت الدائرة في الأخير على النَّصارى فاضطروا للجوء

1- يقول ابن عذارى أنَّه حدث في ذلك اليوم والذي يوافق يوم الاثنين 21 ربيع الأوَّل 580هـ/2 جويلية 1184م على عسكر أهل مرسية حدث مروع، وذلك أنَّهم خرجوا للإغارة في بسائط النَّصارى، فخرجوا عليهم وهزموهم بعد حروب شديدة فعادوا إلى معسكرهم مهزومين، وأخذت من دواب المسلمين خمسون دابة، خرجت برسم العلف، وبات النَّاس في المعسكر على حذر، ومن الوجل في ألم وضرر. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص161-162).

2- يذكر المرَّاكشي أنَّ أول من شرع في الرَّحيل هو الخطيب أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرَّحمان المعروف بالمالقي فلما رأوه النَّاس يجمع خباءه حذوا حذوه ثقةً به لمكانته ورفعة شأنه، فعبر في تلك العشية أكثر العسكر نهر التاجة، ولمَّا سأل الخليفة عن السبب في عبور النَّاس، أُخبر بما فعله أبو الحسن المالقي، فتوعده الخليفة بالعقاب، فلمَّا سمع المالقي بذلك فرَّ إلى شنترين والتجأ إلى ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز، فأحسن إليه وأجرى عليه رزقًا واسعًا، ولكن عندما اكتشف فحوى الرِّسالة التي اعتزم إرسالها للموحِّدين يستعطفهم فيها لكي يشفعوا له، ويبين لهم ضعف شنترين ويكشف بعض عوراتها، قام ألفونسو هنريكيز بمشاورة قساوسته، فأشاروا عليه بإحراقه فأحرقوه. وأورد ابن عذارى هذه القصة، ولكن دون ذكر الاسم، واكتفى بالقول أنَّ خطيب الجماعة لدى الموحِّدين اختل عقله عند رؤية شدة الحرب فالتجأ إلى النَّصارى مستجيرًا بهم، وعند وصوله إليهم عرفوه وفهموا مذهبه واتهموه وقتلوه. (انظر: **المُعجب**، ص183-184 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص162).

3- **روض القرطاس**، ص214.

إلى مدينة شنترين للتَّحصن بها، وقد قتل المسلمون منهم عشرة آلاف رجل، واستشهد من المسلمين جماعة، وارتد البقية بعد أن قُرِعت الطبول إلى إشبيليَّة وهذا حسب رواية ابن أبي زرع[1].

وتختلف رواية بن عذارى قليلًا عن رواية ابن أبي زرع حيث يذكر أنَّ الخليفة يوسف أمر الجيش بالارتحال عن شنترين ليلًا بعدما أدرك صعوبة فتحها[2]، فوقع اضطراب وخلل كبير أثناء عملية الرَّحيل، حيث اعتقد النَّاس أنَّ الخليفة بادر بالرَّحيل عند السُحور وسبقهم في ذلك، فسارع الجميع للحاق به في اضطراب كبير، ولكن عند بزوغ الفجر وانقشاع الظلام كان الخليفة جاثمًا في مكانه، ولم يجد حوله أحد ماعدا قلة قليلة منهم ولده يعقوب المنصور فطلب منهم الرَّحيل، فلحق بهم جيش النَّصارى المتحصن بالمدينة فقتلوا جملة من أعيان الموحِّدين ورؤساء الأندلس[3].

وقد أغار الموحِّدون في طريق رحيلهم إلى إشبيليَّة على كل موضع مروا به، منها حصن طُرَّش[4] الذي استقوا منه غنائم كثيرة، وكان آنذاك الخليفة يوسف طريح الفراش بسبب إصابة تلقاها عندما هجتم النَّصارى على ملحقة الموحِّدين، و قد توفي في الطَّريق إلى إشبيليَّة يوم السبت

1- **روض القرطاس**، ص214-215. (تتفق رواية المرَّاكشي مع رواية ابن أبي زرع في وصف نهاية المعركة بانهزام النَّصارى وفرارهم للتَّحصن بمدينة شنترين، غير أنَّه لم يذكر بأنَّ الخليفة يوسف قتل ستة رجال، وبأنَّ المسلمين قتلوا عشرة آلاف رجل من النَّصارى). (انظر: **المُعجب**، ص183).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص163. (غير أنَّ المرَّاكشي وابن خلكان يقولان أنَّ كبار القادة والأشياخ هم الذين أشاروا على الخليفة بضرورة فك الحصار والعودة إلى إشبيليَّة خوفًا من قدوم فصل الشتاء والبرد، لأنَّهم في آخر فصل الخريف خافوا أن ينقطع عنهم المدد بفيضان نهر التاجة، وصوَّروا له بأنَّ شنترين سيتم افتتاحها في المستقبل القريب، فوافقهم الخليفة في ذلك وقال نحن راحلون غدًا إن شاء الله، ويتضح لنا جليًا أنَّ رأيهما خطأ على اعتبار أنَّ الغزوة كانت في فصل الصيف وليست في آخر فصل الخريف، فالخوف من قدوم فصل الشتاء والبرد غير وارد. (انظر: **المُعجب**، ص182-183 ؛ **وفيات الأعيان**، ج7، ص153).

3- **البيان المغرب**، ج5، ص163-164.

4- (Torres) يقع هذا الحصن أو القلعة شمال شنترين، وهو حصن شاهق الارتفاع تحيط به خنادق يصعب تجاوزها، كان البرتغاليون يعتبرون هذا الحصن بمثابة المفتاح أو بالأحرى المزلاج الذي يحول دون اختراق بلادهم. (ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص335 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص177).

الثّامن عشر ربيع الآخر 580هـ/29 جويلية 1184م[1]، وحمل إلى المغرب ودفن في تينملل بجوار والده عبد المؤمن وابن تومرت[2].

وبالرغم من اختلاف هذه الرّوايات فيما بينها إلّا أنّها تتفق على هزيمة الموحّدين في آخر المطاف، وعدم تمكنهم من فتح شنترين، وانسحابهم إلى إشبيليّة بعد أن فقدوا خليفتهم الذي توفي متأثرا بجراحه.

وبالنّسبة للرّوايات النّصرانيّة فهي تختلف كثيرًا مع الرّوايات الإسلاميّة في سرد وقائع هذه المعركة، وتختلف هي الأخرى فيما بينها، وقال عنها ميراندا أنّها تروي أمورًا لا يمكن أن يقبل بها العقل البشري، وهناك روايات تمزج وقائع الحملة بالخيال، مثلما هو الشأن بالنّسبة لرّواية الراهب راوول ديسيتو[3] التي أوردها المؤرخ ميراندا والذي يرى بأنّ حصار شنترين بدأ يوم الثّالث عشر ربيع الأوّل سنة 580هـ/24 جوان 1184م والذي يوافق يوم عيد القديس يوحنا، وقد شرع الفريقان

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص164. (يتفق ابن أبي زرع مع ابن عذارى في تاريخ الوفاة، غير أنّه يقول بأنّه توفي بقرب الجزيرة الخضراء وكان قاصدًا العبور إلى المغرب، بينما يرى ابن الأثير أنّه توفي لمرض ألم به أثناء حصار شنترين في شهر ربيع الأوّل 580هـ/جوان 1184م، ويتفق معه الحِميري غير أنّه اكتفى بذكر سنة الوفاة وهي 580هـ/1184م دون ذكر اليوم والشهر، ويرى المرّاكشي وابن خلكان أنّه توفي بعدما اشتد به الجرح في طريق عودته إلى إشبيليّة بعدما سار ليلتين أو ثلاث ليالي وكانت وفاته يوم السبت السّابع رجب 580هـ/14 أكتوبر 1184م، ويقول ابن الخطيب أنّه توفي بمحلّة غزاته بشنترين ليلة الثّامن والعشرين ربيع الآخر 580هـ/8 أوت 1184م، وبالنّسبة إلى أشباخ فهو لم يجزم حول مكان وفاته، فقال أنّه توفي متأثرًا بجراحه حين عودته إلى إشبيليّة أو وصوله إلى الجزيرة الخضراء أو مرّاكش في يوم الثّاني عشر ربيع الآخر 580هـ/23 جويلية 1184م، والأرجح ما أثبتناه في المتن). (انظر: **روض القرطاس**، ص215 ؛ **الكامل في التّاريخ**، دار صادر، مج10، ص126 ؛ **المُعجب**، ص184-185؛ **وفيات الأعيان**، ج7، ص136 ؛ **الرّوض المعطار**، ص346 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص75-76).

2- المرّاكشي، **المُعجب**، ص185 ؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج7، ص136 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص215. (غير أنّ الزركشي يقول بأنّه دفن برباط الفتح، والأرجَّح ما أثبتناه في المتن). (انظر: **تاريخ الدّولتين الموحّديّة والحفصيّة**، ص14).

3- (Raul de Diceto) هذا الراهب كان يقيم في انجلترا وكان معاصرًا للحدث، ولكنه لم يكن شاهد عيان، وقد نقل أخبار هذه الغزوة عن طريق شخص انجليزي سمعها من شخص برتغالي كان ضمن موكب الأميرة تيريزا (Teresa) ابنة ألفونسو هنريكيز التي انتقلت إلى انجلترا بعد عقد قرانها مع كونت فلاندرا قريب ملك انجلترا، ولهذا تقتضي الحكمة الأخذ بهذه الرواية بكثير من الحيطة والتّحفظ. (انظر: ميراندا، **التّاريخ السّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص289).

في القتال في ذلك اليوم، ودام القتال ثلاثة أيام بلياليها، تمكن خلالها الموحِّدون من دخول المدينة عبر ثغرة أحدثوها في سورها، لكن في اليوم الموالي وصلت قوَّات برتغالية جديدة كان على رأسها مطران مدينة أوبورتو وابن ملك البرتغال ووالي عهده سانشو الأوَّل، تمكنت من قتل خمسة عشر ألفًا من جنود الموحِّدين[1].

وفي اليوم الموالي حضر مطران شنت ياقب (Santiago) ومعه عشرون ألف رجل تمكن بواسطتهم من قتل ثلاثين ألف مسلم في فجر نفس اليوم[2]، ولا يذكر المصدر أي شيء عن الأحداث منذ اليوم المذكور إلى غاية التاسع من شهر ربيع الثَّاني 580هـ/20 جويلية 1184م حيث يقول أنَّ الموحِّدين قاموا بذبح عشرة آلاف من النِّساء والأطفال المسيحيِّين في منطقة القصبة الواقعة على مسافة مئة كلم من شنترين[3]، كما قاموا بإبادة ثلاثة ملوك مسيحيِّين مع جيوشهم[4].

1- يذكر أشباخ أنَّ ابن ملك البرتغال سانشو الأوَّل وصل إلى شنترين بجيشه الذي يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل، بينما يقول ميراندا أنَّه وصل بقوَّاته إلى شنترين فقتل خمسة عشر ألفًا من جنود الموحِّدين، ونلاحظ تناقض في الرِّوايتين والأرجَّح هنا هو ما ذكره أشباخ. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص73 ؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص289).

2- انفرد الراهب ديسيتو بذكر هذه الرِّواية، وبمقارنتها مع باقي الرِّوايات النَّصرانيَّة والإسلاميَّة يظهر جليًا أنَّ هذا العدد من الضحايا المسلمين بعيد عن الصحة والصواب. (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص289).

3- بمقارنة هذه الرِّواية مع رواية ابن أبي زرع الذي يذكر أنَّ الموحِّدين قتلوا عشرة آلاف رجل برتغالي عندما اشتبك الفريقان أمام خِباء الخليفة يوسف حينما همَّ بالرَّحيل، ودارت الدائرة حينها على البرتغاليِّين، نلاحظ أنَّ كلام ابن أبي زرع منطقي وأقرب إلى الحقيقة، على اعتبار أنَّ الموحِّدين قتلوا الجنود، أمَّا قتل النِّساء والأطفال كما يدعي ديسيتو وقتل الأسرى كما يذكر أشباخ فهذا أمر غير معقول، والمصادر الإسلاميَّة لم تذكر على الإطلاق أنَّ الموحِّدين قتلوا النِّساء والأطفال أو كان لهم أسرى خلال هذه الغزوة. (انظر: **روض القرطاس**، ص214-215 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص73 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص289).

4- لم يذكر الراهب ديسيتو من هم هؤلاء الملوك الذين أبادهم الموحِّدون مع جيوشهم. وأرى أنَّ كلامه غير صحيح وينافي المنطق، فلو قتل الموحِّدون ثلاثة ملوك مسيحيِّين مع جيوشهم فبدون أدنى شك كانوا سيحقِّقون انتصارًا مدويًا ويفتحون مدينة شنترين). (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص289).

ويوغل الراهب ديسيتو في الخيال عندما يقول بأنَّ ملك ليون فرناندو الثَّاني توجه ناحية شنترين يوم الثَّالث عشر ربيع الثَّاني 580هـ/24 جويلية 1184م[1] يدفعه التَّحدي والرغبة في الدخول في مبارزة شخصية مع الخليفة الموحِّدي يوسف بن عبد المؤمن، وقد علم هذا الأخير بقدومه فقبل منازلته وأخذ يستعد لها، لكن قبل حدوث هذه المنازلة سقط الخليفة من صهوة جواده ثلاث مرات متتالية كانت الأخيرة سببًا في وفاته، وقد لاذ جنوده بالفرار تاركين وراءهم عتادهم وأمتعتهم التي ظفر بها عدوُّهم[2].

ويورد ميراندا روايتين أخريين عن هذه الحملة للمؤرخ دوارتي كلباو (Duarte Galvao) وقال عنه بأنَّه اعتمد على مصادر موثوق بها، وأخرى تفتقد لكل مصداقية دون أن يقوم بتمحيصها بشكل يزيح عنها غبار المبالغة والأخطاء، ولعل أبلغ دليل على ذلك خلطه بين هذه الحملة، وحملة قام بها الخليفة يعقوب المنصور عام 586هـ/1190م[3] وقد حاول ميراندا المقارنة بين مختلف الرِّوايات واستخلاص استنتاجات واقعية عن أحداث هذه الغزوة[4].

1- لم تذكر المصادر الإسلاميَّة على الإطلاق قدوم ملك ليون فرناندو الثَّاني لنجدة شنترين، بينما تجعلها المصادر والمراجع النَّصرانيَّة سببًا رئيسيًا في انسحاب الجيش الموحِّدي من حصار شنترين. والمؤكد في الأمر أنَّ ملك ليون قد نقض رفقة ملك قشتالة ألفونسو الثامن العهد مع الموحِّدين، وقد وقع الملكين النَّصرانيَّين اتفاقية فريسنو- لاباندبرا (Fresno-Lavandera) السلمية، تعهد فيها الطرفين بأن يلتزما معاداة الموحِّدين وألا يعودوا إلى محالفتهم قط، وقد حاصر فرناندو مدينة قاصرش واضعًا بذلك حدًا لسنوات من التعايش السلمي بين مملكته والموحِّدين. (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص289 وما بعدها).

2- يُعلق ميراندا على ما يذكره الراهب ديسيتو بقوله "إنَّ هذا الراهب ذا الخيال الخصب، وبقتله للخليفة يوسف بهذه الطريقة وقبل أن تبدأ المبارزة مع ملك ليون يحرمنا من الاستمتاع بمشهد فريد من نوعه". وينقل لنا تعليق آخر من دوزي، بشأن المبارزة بين الملكين حيث قال بأنَّها ضرب من الرُّومانسيَّة التي من الخطأ القبول بها. (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص289).

3- هذه الحملة قام بها الخليفة يعقوب المنصور سنة 586هـ/1190م أثناء محاولته استرجاع مدينة شِلب، وخلال مسيره إليها قام باختراق وسط بلاد البرتغال وانتساف المزارع الموجودة شمال شنترين وتخريب ضياعها، والاستيلاء على حصن طُرَّش ومحاصرة حصن طمان، وقد عُرفت هذه الحملة في المراجع الحديثة بحملة حصن طُرَّش وطمان. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص206 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص177 ؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص190).

4- **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص291 وما بعدها.

وعلى العموم فقد مني الموحّدون بهزيمة ساحقة في هذه الغزوة، وكانت خسائرهم فادحة أعظمها وفاة خليفتهم يوسف بن عبد المؤمن وبعض أشياخ الموحّدين وكبار القادة والكثير من العساكر، وقد ارتكب الموحّدون في هذه الغزوة نفس الهفوات والأخطاء التي ارتكبوها في غزوة وبذة قبل ذلك بثلاثة عشر سنة.

وبالرغم من ضخامة الجيش الموحّدي ووفرة عُدته إلّا أنَّه كان مفككًا وغير متناسق الصفوف، حيث أضحت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط على سلامتها وترقب أوَّل فرصة للانسحاب[1]، وقد ظهر ذلك جليًا عندما بدأ الجيش بالانسحاب، حيث ذكر ابن عذارى أنَّه اضطرب إقلاع النَّاس اضطرابًا شنيعًا وكثر الضَّجيج واختلاط الأصوات وتهولت المحلات، وأخذ العموم على شتى المسالك فلا ترى سميعًا ولا مطيعًا[2].

ومن أسباب هذه الهزيمة أيضًا قرار الخليفة يوسف المفاجئ بتغير موضع المعسكر الموحّدي فأدى إلى حدوث اضطراب كبير في صفوف الجيش، كما قُبل هذا القرار بالرفض، وكذا الاستغراب والدَّهشة من قبل جُند الموحّدين، ونستدل ذلك من قول ابن أبي زرع "فانتقل من موضع نزوله بجوف شنترين إلى غربيها فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سببًا[3].

1- عنان، **عصر الموحّدين**، ص129-130.

2- **البيان المغرب**، ج5، ص163.

3- **روض القرطاس**، ص214.

وأعتقد أنَّ السبب الرئيسي لهذه الهزيمة هو صدور قرار الانسحاب المفاجئ من قبل الخليفة يوسف، وما تبعه من اضطراب وفوضى أثناء هذا الانسحاب، وخروج النَّصارى للهجوم على معسكر المسلمين واقتحامهم لمحلة الخليفة وإصابته بجراح بليغة كلفته حياته[1].

بالإضافة إلى معاناة الجيش من نقص المؤونة، فقد اضطر خلال انسحابه إلى شنِّ الغارات على الأراضي التي يخترقها للحصول على المؤن[2]. وغياب الخطة المناسبة والتي يتم بها تحقيق النَّصر[3]، والتَّسرع في اتخاذ قرار غزوِّ شنترين دون معرفة جيدة بأحوال المدينة هل هي شديدة الحصانة أم لا ؟ ومعرفة طبيعة سكنها وحاميتها المدافعة عنها، فقد ظهر جليًا أنَّه لإخضاع شنترين يجب أن يضرب عليها حصار طويل الأمد وخوض قتال دموي لم يكن الجيش الموحِّدي مهيئًا له بشكل جيد[4]، كما أنَّ هذا الجيش يعتمد في حشد قوَّاته على التَّفوق العددي دون سواه[5].

وخلاصة القول نستنتج بأنَّ نزعة الجهاد ميزة تميَّز بها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، وبرزت هذه النَّزعة من خلال حشده للجيوش العظيمة وتمويلها، وقيادة هذه الجيوش بنفسه[6]، وكانت حملتي وبذة وشنترين، ورغم إخفاقه فيهما إلَّا أنَّه بين للأمم المسيحيَّة أنَّه سيكون لهم بالمرصاد، ولن يُدخر جهدًا في التَّصدي لزحفهم الجارف على بلاد الأندلس، ورأينا كيف كلفه حبه للجهاد حياته واستشهد متأثرا بجراحه في غزوة شنترين.

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص163 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص214-215. (يدعي ميراندا استنادًا إلى هذه القرارات التي اتخذها الخليفة يوسف، أنَّه لم يكن له من المواهب ما يسمح بقيادة حملة ثانية أصعب من حملة وبذة والتي بينت وبشكل لا يقبل النِّقاش تواضع مواهبه القيادية، وغياب الروح القتالية لرجاله. وأرى أنَّ هذا هجاء مبالغ فيه، فالبرغم من أخطاءه فقد كان الخليفة يوسف عظيم الشجاعة والفروسية، فلم يلزم بلاطه وخرج للجهاد بنفسه، وقد هابه ملوك النَّصارى وسارعوا لعقد الهدنة معه، ولم تكن في عهده حروب الاسترداد مستعرة كثيرًا، حيث مكث بالأندلس خلال عبوره الأوَّل حوالي خمس سنوات تصدى خلالها لغزوات النَّصارى بكل ضراوة. (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص299).

2- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص130 .

3- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص174 .

4- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص299.

5- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص130.

6- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص134 ؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص174 .

وقد استطاع الخليفة يوسف أن يبث الرعب في قلوب ملوك النَّصارى، فقد سارع ملك ليون فرناندو الثَّاني وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز لخطب وده وإعلان الهدنة معه، كما تمكن الخليفة يوسف من إخضاع شرق الأندلس والتَّخلص من استقلال ابن مردنيش به.

ثانيًا- عهد الخليفة يعقوب المنصور:

1- العبور الأوَّل واسترجاع مدينة شِلب:

1-1- ظروف وأسباب العبور الأوَّل:

تمَّت مبايعة يعقوب المنصور بالخلافة[1] عشية وفاة والده يوم السبت الثامن عشر ربيع الآخر سنة 580هـ/29 جويلية 1184م[2]، وقد كانت بيعته بيعةً خاصة شملت إخوته وكبار مشايخ الموحِّدين، وحدثت هذه البيعة عند انسحاب الجيش الموحِّدي من حصار شنترين، وقد كُتمت وفاة الخليفة يوسف، وعندما وصل الجيش إلى إشبيليَّة تمَّت مبايعته مبايعةً عامَّة وذلك يوم الجمعة غرة جمادى الأولى 580هـ/10 أوت 1184[3].

1- اختلف المؤرخون في مسألة مبايعة يعقوب المنصور بالخلافة في حياة أبيه وبعهد منه من عدمها، فيرى المرَّاكشي أنَّ أبيه عهد له في حياته لكنه لم يذكر أين ومتى تمَّت مبايعته، ولم يجزم ابن خلكان بالأمر فقال بويع في حياة أبيه، وقيل أنَّ أشياخ الدَّولة اتفقوا على تقديمه بعد وفاة أبيه، بينما ينفي ابن الأثير مسألة مبايعته في حياة أبيه وقال أنَّ الخليفة يوسف مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده، فاتفق رأي قادة الموحِّدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك يعقوب المنصور، ويرى ابن عذارى وابن أبي زرع وابن خلدون والزركشي أنَّه بويع بعد وفاة أبيه بيعةً خاصة ثمَّ بيعةً عامَّة بإشبيليَّة. (انظر: **المُعجب**، ص185 ؛ **وفيات الأعيان**، ج7، ص136 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص127 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص171 ؛ **روض القرطاس**، ص216-217 ؛ **العِبر**، ج6، ص325 ؛ **تاريخ الدَّولتين الموحِّديَّة والحفصيَّة**، ص15).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص171. (غير أنَّ ابن أبي زرع يقول أنَّ البيعة الخاصة كانت في الغد من يوم وفاة والده، أي يوم الأحد التَّاسع عشر ربيع الآخر 580هـ/30 جويلية 1184م). (انظر: **روض القرطاس**، ص217).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص171. (بينما يقول ابن أبي زرع أنَّ البيعة العامَّة كانت يوم السبت الثَّاني جمادى الأولى 580هـ/11 أوت 1184م). (انظر: **روض القرطاس**، ص217).

وعندما تمَّت له البيعة واستقرَّ بحاضرة مملكته مرَّاكش[1]، شرع الخليفة يعقوب المنصور بتنظيم شؤون دولته المترامية الأطراف، وكان أوَّل عمل قام به هو اكتساب محبة الرعية، وهذا بإخراج مقادير كبيرة من أموال الدَّولة وتوزيعها على الفقراء[2]، ويذكر ابن أبي زرع أنَّه أخرج مئة ألف دينار ذهبًا من بيت المال، ففرقها على الضعفاء والفقراء من أهل المغرب، وكتب إلى جميع ولاة دولته بإطلاق المساجين ورد المظالم التي فعلها الولاة في عهد أبيه[3]، كما أمر بإسقاط المكوس التي لم يتم أداؤها[4]، وأكرم الفقهاء والقضاة والصلحاء والفضلاء وأنفق عليهم الأموال من بيت المال، وأوصى ولاته وعماله بالرجوع إلى أحكام القضاة، وتفقد أحوال بلاده ورعيته بنفسه، وحارب الفساد واللَّهو والدِّعة وأقام العدل[5].

كما قام بضبط الثغور وشحنها بالخيل والرِّجال، وأعطى للجند الموحِّدين ولسائر الأجناد أموالًا كثيرة[6]. وأعماله هذه في واقع الأمر لم تقتصر على بلاد المغرب بل شملت أيضًا بلاد الأندلس، خاصةً الشق المتعلق بضبط الثغور.

ونشير إلى أنَّ الخليفة الجديد يعقوب المنصور أنفق خمس سنوات قبل أن يستطيع استئناف الجهاد في الأندلس[7]، فخلال هذه المدة اشتغل بالخصوص بقمع ثورة بني غانية في بجاية وعموم

1- رحل يعقوب المنصور من إشبيليَّة عائدًا إلى بلاد المغرب يوم الأحد الرَّابع والعشرين من جمادى الأولى 580هـ/2سبتمبر 1184م، وعندما وصل إلى رباط الفتح تسمى بلقب أمير المؤمنين، وكان منذ بيعته يكتفي بلقب الأمير يعقوب، وكتب في الحال بذلك إلى بلاد الأندلس، ومن رباط الفتح عاد إلى مرَّاكش ولم يذكر ابن عذارى متى كان وصوله لها، والأرجح أنَّه وصل إليها في أواخر شهر جمادى الآخرة 580هـ/أكتوبر 1184م. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص171-172).

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص77.

3- **روض القرطاس**، ص217.

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص77.

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص217 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج2، ص172 وما بعدها. (ويذكر ابن الكردبوس أنَّ يعقوب المنصور أقام الحق أكمل قيام، وأحكمه أحسن إحكام، وأتقنه وأبرمه أي إبرام). (انظر: **تاريخ الأندلس**، ص125).

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص217.

7- توفيق مزاري عبد الصَّمد، **النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحِّدين**، ص149.

المغرب الأوسط وإفريقية، حيث كانت هذه الثورة من أخطر الثورات التي كادت أن تقوّض من صرح دولة الموحّدين[1]، كما اشتغل بتفقد أحوال بلاد المغرب وتنظيم شؤونها[2].

وما كاد الخليفة يعقوب المنصور يعيد السكينة إلى بلاد المغرب[3]، حتَّى فكر في أمر الجهاد ضدَّ الممالك النَّصرانيَّة بالأندلس، وبدأ في الاستعداد للعبور بنفسه إليها، وقد قرَّر العبور إلى الأندلس لعدة أسباب منها:

تفاقم هجمات النَّصارى على بلاد المسلمين في الأندلس، حيث استطاعوا خلال فترة انشغال الموحّدين بالثورات في إفريقية وتنظيم شؤون الحكم والتَّخلص من بعض مؤامرات البيت

1- تخلى بنو غانية حكام الجزائر الشَّرقيَّة (جزر البليار) عن مهادنة الموحّدين إثر وفاة الخليفة يوسف، وقد خرجوا في أسطولهم نحو المغرب الأوسط واستولوا على بجاية في السَّادس شعبان 580هـ/12 نوفمبر 1184م، ثمَّ استولوا على العديد من مدن المغرب الأوسط كالجزائر ومليانة ومازونة وأشير وقلعة بني حماد، وقد استولوا على هذه المدن بسهولة مستغلين قلة الجيوش الموحّديَّة المتواجدة بالمغرب الأوسط، لأنَّ معظم الجيوش الموحّديَّة كانت تجاهد بالأندلس، وقد دخل الموحّدون مع بني غانية في صراع بري لمحاولة استرجاع نفوذهم في المغرب الأوسط، وصراع بحري للسيطرة على الجزائر الشَّرقيَّة، وقد استولوا على جزيرة ميورقة عام 581هـ/1185م غير أنَّ نفوذهم فيها لم يدم طويلًا، ثمَّ انتقل الصراع إلى افريقية وامتلك بنو غانية سنة 582هـ/1186م جميع بلاد افريقية ما عدا المهدية وتونس بمساعدة رجال صلاح الدِّين الأيوبي خاصة شرف الدِّين قراقوش وبعض القبائل العربية، وقد استغل الخليفة يعقوب المنصور كل طاقاته لمحاربة بني غانية وقاد الجيش بنفسه للقضاء عليهم في شوال 582هـ/ديسمبر 1186م، فتمكن من استعادة الكثير من المناطق في إفريقية وهزيمة علي بن غانية والعودة إلى مرَّاكش عام سنة 584هـ/1188م، لكن حركة بني غانية لم تنتهي حيث استمر يحي بن غانية الحرب على الموحّدين واستولى عام 591هـ/1195م على مدينة طرابلس وقابس واستطاع بسط نفوذه على سائر إفريقية، ولم يستطع الخليفة يعقوب المنصور القضاء عليهم رغم محاولاته المتكررة، وقد كان يحضر لغزوٍ قاعدتهم ميورقة إلَّا أنَّ الوفاة أدركته. (انظر: ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج$_{10}$، ص128-129 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص189 وما بعدها ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج$_{5}$، ص175 وما بعدها ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج$_{6}$، ص325 وما بعدها). (وحول الصراع البحري الموحّدي مع بني غانية). (انظر: توفيق مزاري عبد الصَّمد، **النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحّدين**، ص117 وما بعدها).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص217.

3- تمكن الخليفة يعقوب المنصور عندما قاد الجيش الموحّدي بنفسه سنة 582هـ/1186م من هزيمة علي بن غانية يوم الأربعاء التاسع شعبان 583هـ/15 أكتوبر 1187م، فكسر بذلك شوكة بني غانية ولو بشكل مؤقت، وأعاد تنظيم شؤون افريقية من جديد وعاد إلى مرَّاكش سنة 584هـ/1188م. (انظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص218 ؛ عنان، **عصر الموحّدين**، ص159 وما بعدها ؛ توفيق مزاري عبد الصَّمد، **النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحّدين**، ص128-129).

الموحّدي على الخليفة المنصور، القيام بالعديد من الغارات على أراضي المسلمين بالخصوص في غرب الأندلس ووسطه، ففي غرب الأندلس قام الملك الجديد للبرتغال سانشو الأوّل[1] بعدما خصّص السنوات الثلاثة الأولى من عهده ابتداءً من عام 581هـ/1185م في إعادة تعمير وتنظيم المراكز والقلاع التي أصابها الخراب من جراء الحروب[2]، بمهاجمة أراضي المسلمين فاستولى بمساعدة الأسطول الصّليبيّ المتجه إلى المشرق الإسلامي[3] على قصر أبي دانس، ومدينة شلب يوم الاثنين العشرين من رجب 585هـ/3 سبتمبر 1189م[4]، وقد كان لسقوط هذه الأخيرة وقعٌ كبير وضربة موجعة للموحّدين بالأندلس لأنّها كانت بمثابة قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط للغزوّ[5] كما أنّ الموحّدين فقدوا بسقوطها آخر معاقلهم في تلك المنطقة الحساسة، والجدير بالذكر أنّ ملك البرتغال قد أرسل جيشًا إلى باجة ويابرة فاستولى عليهما[6]، ففتح له الطّريق لتهديد بقية ولايات غرب الأندلس مثل ولبة ولبلة وإشبيليّة[7].

1- تولى حكم البرتغال بعد وفاة والد ألفونسو هنريكيز في الحادي عشر رمضان 581هـ/6 ديسمبر 1185م. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص33 ؛ عنان، **عصر الموحّدين**، ص170).

2- يذكر ميراندا بأنّ سانشو الأوّل ملك البرتغال اهتم كثيرا بالبناء والتّعمير فجعله ذلك يستحق لقب المعمر (Povoador) الذي اشتهر به. (انظر: **التّاريخ السّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص330).

3- قدم أسطول صليبي من ستين سفينة تحمل جيشًا قوامه عشرة آلاف مقاتل من ولايات الرين الألمانية واللورين وفريزلاند إلى شواطئ جليقية في طريقهم إلى المشرق الإسلامي، ورسى على مقربة من شنت ياقب، وفي نفس الوقت قدم أسطول آخر من الصّليبيّين من انجلترا والفلاندر ورسى قُبالة أشبونة، ولمّا كان الوقت متأخرًا وقد دنا فصل الشتاء، فقد استطاع سانشو الأوّل ملك البرتغال أن يقنع الأسطولين على المشاركة في حرب المسلمين بالأندلس، وأمدهم بثلاثين سفينة أخرى، واتفق معهم على حصولهم على الغنائم والأسلاب مقابل احتفاظه على مدينة شِلب، وقد استولى عليها بعد ثلاث أشهر من الحصار، وأبدى أهالي المدينة شجاعة نادرة في مقاومة الحصار، ونجد الرّواية النّصرانيّة تقول أنّه لم ينجو من القتل والسبي سوى ثلاثة عشر ألفًا من مجموع ستين ألفًا من سكان شِلب. (انظر: المرّاكشي، **المُعجب**، ص199 ؛ الحِميري، **الرّوض المعطار**، ص342-343 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص79-80 ؛ ميراندا، **التّاريخ السّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص330-331 ؛ عنان، **عصر الموحّدين**، ص171 وما بعدها).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص205 ؛ الحِميري، **الرّوض المعطار**، ص342. (غير أنّ ابن أبي زرع يقول أنّ النّصارى استولوا على مدينة شِلب سنة 586هـ/1190م، والأرجح ما أثبتناه في المتن). (انظر: **روض القرطاس**، ص219).

5- معمر الهادي محمّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص188 .

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص219.

7- عنان، **عصر الموحّدين**، ص174.

كما استغل ألفونسو الثامن نفس الظروف فشنَّ الغارات على أراضي الموحِّدين بالأندلس ففي نفس الوقت الذي سارت فيه القوَّات البرتغاليَّة والصَّليبيَّة لافتتاح شِلب، خرج ألفونسو الثامن في قوَّاته نحو منطقة قرطبة، ثمَّ اكتسح البسائط شرقًا نحو إشبيليَّة وهو يعيث فيها قتلًا وسلبًا واستولى على حصن المنار[1]، ومدينة ربينة التي قتل معظم سكانها وأسر الباقين، واستمر في حملته حتَّى قلعة جابر ثمَّ حصن شلير[2] وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة 585هـ/أوت 1189م[3].

ومن الأسباب التي ساهمت في اقتناع الخليفة يعقوب المنصور للعبور إلى الأندلس وصول نداء الاستغاثة من أهلها، فقد بعث أبو يوسف يعقوب بن أبي حفص والي إشبيليَّة إليه، يخبره باعتداءات النَّصارى وغزواتهم على أراضي المسلمين، ويطلب منه المدَّد للتَّصدي لهذا العدوان[4].

ولمَّا وصل إلى الخليفة يعقوب المنصور نداء الاستغاثة، بدأ في التأهب للعبور إلى الأندلس واستئناف الجهاد، وقد أرسل في طلب الحشود والمتطوعة من كافة بلاد المغرب، فأتاه خلق كثير من مختلف الأقطار[5]، واجتمع بمرَّاكش أقوام من شتى اللغات والألوان[6]، وكان قبل ذلك قدَّم على

1- حصن بالأندلس قريب من مدينة لكة، وهو على ضفة البحر المحيط من الغرب والجوف. (انظر: الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص202).

2- شلير هو جبل الثلج المشهور بالأندلس، وهو جبل البيرة، وهو متصل بالبحر المتوسط وفي غاية الارتفاع، والثلج به دائمًا في الشتاء والصيف، وفي حضيض هذا الجبل حصون كثيرة منها حصن فريرة، وحصن دلر. (انظر: الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص294 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص343).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص202-203 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص332-333.

4- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص329 ؛ معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص189.

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص201. (لم تذكر المصادر التَّاريخيَّة عدد الجيوش التي اجتمعت للعبور إلى الأندلس واكتفى ابن الأثير بالقول أنَّه تجهَّز من العساكر الكثير، وقال المرَّاكشي وتجهَّز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص200 ؛ **المُعجب**، ص199).

6- يذكر ابن عذارى أنَّ أناسٌ كثيرون من حبش غانة أتوا للمشاركة في الغزوِّ، فاجتمع بمرَّاكش من الأحمر والأسود وشتى اللغات من الحشود والمتطوعة وعموم الأعراب من الجنود من معدود وغير معدود، ما ضاق بهم رحيب الفضاء وتكاثر عن العدِّ والإحصاء، وقد قدمت هذه الجيوش بشكل اختياري على سبيل التطوع وليس الوجوب. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص201).

إشبيليَّة ابن عمه أبو حفص يعقوب لكي يتولى أمرها ويعد العدة والعتاد لغزوِّ النَّصارى والتَّصدى لعدوانهم[1].

ولمَّا اكتملت الاستعدادات بالمغرب خرج الخليفة من مرَّاكش في الرَّابع عشر من ذي الحجة سنة 585هـ/23 جانفي 1190م، وقد أرسل قبل خروجه كتبه إلى إشبيليَّة وسائر مدن الأندلس يأمر ولاتها بالاستعداد لاستقبال هذه الجيوش والحشود، ويعدهم بالنُّصرة على عدوهم. وسار إلى رباط الفتح وبقي أربعين يومًا حتَّى وصلت باقي الحشود والقبائل[2].

وفي أواخر شهر محرم من سنة 586هـ/أوائل مارس 1190م تحرك المنصور بقوَّاته من رباط الفتح إلى قصر مصمودة[3]، وجدَّد منه كتبه إلى إشبيليَّة متضمنةً قرب وصوله، وبقي في القصر حوالي شهرين، وأمر الجيش ببدأ الجواز إلى الأندلس في الخامس عشر من ربيع الأوَّل، وبعد عبور جميع قوَّاته، عبر المنصور البحر في يوم الأحد الثَّالث والعشرين ربيع الأوَّل 586هـ/1 ماي 1190م[4] ونزل بجزيرة طريف، وهناك أقبلت وفود بعض البلاد المجاورة للسَّلام عليه ورفع المظالم والشكاية على ولاة أمورهم، فأعرض المنصور عن شكايتهم، وقال إنَّما نبدأ بغزوِّ المفترين والمشغبين

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص201.

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص203 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص333. (غير أنَّ الحِميري يقول أنَّ الخليفة بقي ثلاثين يومًا برباط الفتح). (انظر: **الرَّوض المعطار**، ص342).

3- يُسمى أيضًا قصر المجاز أو القصر الصغير، يقع في قرية صغيرة بإقليم تطوان بتراب قبيلة أنجرة، بين مدينتي سبتة وطنجة بمضيق جبل طارق، ويُسمى بقصر المجاز لجواز جيوش المغرب منه إلى الأندلس أيام الحكم الإسلامي. (انظر: **روض القرطاس**، ص218، هامش136).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص203 وما بعدها. (اختلف المؤرخون في تاريخ الجواز الأوَّل للخليفة يعقوب المنصور إلى الأندلس، فقد وافق ابن الأثير وابن خلدون رواية ابن عذارى وقالا أنَّ الجواز كان سنة 586هـ/1190م ولكنهما لم يذكرا التَّاريخ بالتَّحديد، ويقول الحِميري أنَّه كان في الثَّاني والعشرين ربيع الأوَّل 586هـ/30 أفريل 1190م، بينما يرى المرَّاكشي أنَّ جوازه كان سنة 585هـ/1189م ويقول ابن أبي زرع أنَّه جاز يوم الخميس الثَّالث ربيع الأوَّل 585هـ/11 أفريل 1189م، والأرجَّح ما أثبتناه في المتن من راوية ابن عذارى. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص199-200؛ **العِبر**، ج6، ص329 ؛ **الرَّوض المعطار**، 342 ؛ **المُعجب**، ص199 ؛ **روض القرطاس**، ص218).

من أطراف الأنام[1]. ثمَّ تحرك بجيشه من جزيرة طريف في غرة جمادى الأولى سنة 586هـ/8 جوان 1190م شمالًا إلى أركش، ومنها إلى قرطبة[2].

1-2- استرجاع مدينة شِلب:

لمَّا وصل الخليفة يعقوب المنصور إلى قرطبة، بعث إلى أبو يوسف يعقوب بن أبي حفص يأمره بأن يجمع عساكره وسائر الحشود والمتطوعة من البربر والعرب من غرناطة وغيرها، وكذلك من تأخر من قبائل صنهاجة وهسكورة ويتجه بها إلى شِلب، فتحرك والي إشبيليَّة بجموعه هذه في غرة جمادى الأولى عام 586هـ/6 جوان 1190م من إشبيليَّة وسار حتَّى وصل إلى مدينة شِلب وعسكر بظاهرها[3].

وفي الثلاثين من شهر جمادى الأولى 586هـ/5 جويلية 1190م وصلت السفن الموحِّديَّة إلى شاطئ مدينة شِلب وحاصروها برًا وبحرًا، حيث نصبوا عليها المناجيق والآلات الحربيَّة، وضيقوا عليها الحصار[4] ورغم ضربها بالمناجيق إلَّا أنَّهم لم يتمكنوا من افتتاحها[5].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص204. (يقصد الخليفة المنصور حينما قال إنَّما نبدأ بغزوِّ المفترين والمشغبين من أطراف الأنام، أنَّه يريد غزوِّ النَّصارى أولًا لإيقاف زحفهم الجارف على بلاد المسلمين، ثمَّ التَّفرغ لشكاوى أهل الأندلس على ولاتهم، ورد المظالم وتنظيم شؤونها العامَّة).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص204-205. (غير أنَّ الحِميري يقول أنَّ الخليفة المنصور تحرك من جزيرة طريف في غرة ربيع الآخر سنة 586هـ/9 ماي 1190م). (انظر: **الرَّوض المعطار**، ص342).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص204-205.

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص205.

5- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص333-334 .

أمَّا الخليفة يعقوب المنصور فقد كان بقرطبة يستقبل رُسل الممالك المسيحيَّة[1]، فقد وصل رسول من ملك قشتالة ألفونسو الثامن إلى قرطبة للتَّفاوض من أجل توقيع الهدنة مع الموحِّدين فاستجاب الخليفة لمطلبه، وارتاح لهذا الانقسام في صفوف العدوِّ، ووقَّع الهدنة مع ملك قشتالة[2] كما جدَّد الهدنة مع مملكة ليون[3]، وبهذه الطريقة تمكن من عزل البرتغاليِّين الذين أصبحوا وجهًا لوجه أمام الموحِّدين، وهو ما أجبرهم على التَّحصن داخل قلاعهم[4].

والجدير بالذكر أنَّ هناك مجموعة من الأمور خدمت الموحِّدين خلال حملتهم هذه، فقد ضمن الخليفة يعقوب المنصور الهدنة مع مملكتي قشتالة وليون وتخلص من تهديدهم ونجدتهم لأبناء ملتهم البرتغاليِّين[5]، بالإضافة إلى تفوق الجيش الموحِّدي في العدد وكذلك شجاعة الخليفة وحنكته السِّياسيَّة وخبرته في تنظيم الحملات العسكريَّة[6].

وبعد توقيع هذه المعاهدات أمر الخليفة المنصور من أبا زكريا بن أبي حفص أن يسير إلى إشبيليَّة بقوَّاته من العرب وزناتة وأهل تلمسان ومن يليهم، ويُعد العدة هناك ليلتحق بإخوته في طريق الغزوِّ. وكان آنذاك الخليفة المنصور بقرطبة يقوم بتميِّيز قوَّاته المرتزقة، والحشود الواصلة من

1- كانت رُسل قشتالة قد وفدت إلى إشبيليَّة قبل جواز الخليفة يعقوب المنصور إلى الأندلس، أي عندما كان يقصر مصمودة بالمغرب، وقد تعهَّد ألفونسو الثامن ملك قشتالة بإعلان ولائه ليعقوب المنصور والتَّحالف معه ضدَّ الملوك المسيحيِّين. (انظر: ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص334 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص176).

2- يذكر ابن الأثير أنَّ ملك قشتالة وقَّع مع الموحِّدين هدنةً مدتها خمس سنوات. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص200.

3- عقد ملك ليون الجديد ألفونسو التَّاسع الحلف مع الموحِّدين، ولم يأبه بالحلف القديم الذي كان عقده والده فرناندو الثَّاني مع ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز أيام موقعة شنترين سنة 580هـ/1184م. (انظر: عنان، **عصر الموحِّدين**، ص176).

4- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص334 .

5- اتبع الخليفة يعقوب المنصور نفس سياسة والده يوسف في مهادنة النَّصارى حتَّى لا تدفعهم الحاجة إلى التَّقارب مع بعضهم البعض، لأنَّ مصلحة المسلمين تكمن في افتراق كلمة أعدائهم. (انظر: معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص189-190).

6- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص334 .

المغرب، وعندما استكمل الاستعدادات خرج بقوّاته من قرطبة متجهًا نحو الشمال الغربي إلى نهر التاجة، وهنالك لحقته قوّات أبا زكريا بن أبي حفص[1].

وقد اختار الخليفة يعقوب المنصور التوجه لمهاجمة وسط بلاد البرتغال أي ناحية نهر التاجة، وعدم الذهاب إلى شِلب لمساعدة الجيش الموحّدي المحاصر لها، لتفادي مجيء سانشو الأوّل ملك البرتغال لإنجاد المحاصَرين بمدينة شِلب فيخفّف بذلك الضّغط على القوّات الموحّديّة المحاصرة لها، ولا تتكرر بذلك مأساة والده يوسف في حصار شنترين[2].

وقد تحرك الخليفة المنصور بقوّاته وعبر نهر التاجة وقام أثناءها بانتساف المزارع الموجودة شمال شنترين، وبتخريب ضياعها ثمّ سار ناحية حصن طُرّش فقام بحصارها، وخلال أيام طلب أهل النّصارى الأمان من الخليفة فأجابهم إلى ذلك وغادروا الحصن[3]، فدخله الموحّدون وقاموا بتدميره عن آخره[4]، ثمّ هاجم الموحّدون حصن طمان[5] الذي تحميه حامية من فرسان المعبد (الداوية) وقد أتلفوا خلال تقدمهم كل المحاصيل الفلاحيّة الموجودة بحقول المنطقة، وشرعوا في حصار حصن طمان وقد دام الحصار أكثر من ستة أيام ولم يستطع الموحّدون فتحه لمناعة أسواره وشجاعة فرسان المعبد الذين استبسلوا في الدِّفاع عنه، وجعلوا احتلاله أمرًا متعذرًا دون حصار طويل الأمد[6].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص205-206 .

2- ميراندا، **التّاريخ السِّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص334 ؛ عنان، **عصر الموحدين**، ص176-177 .

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص206 ؛ المرّاكشي، **المُعجب**، ص199 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص329. (يذكر ميراندا أنّ قائد الحصن طُرّش اضطر للاستسلام بعد عشرة أيام من المقاومة، وبعد أن أذن له ملك البرتغال سانشو الأوّل). (انظر: **التّاريخ السِّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص335).

4- ميراندا **التّاريخ السِّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص335 ؛ عنان، **عصر الموحدين**، ص177 .

5- يُسميه ابن عذارى وميراندا حصن طمان، بينما جاء عند عنان باسم مدينة طومار (Tomar) وقال أنّها تقع شمال حصن طُرّش، وهي قاعدة منيعة تقع في بسيط مخصب زاهر. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص206 ؛ **التّاريخ السِّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص335 وما بعدها ؛ عنان، **عصر الموحدين**، ص177).

6- ميراندا، **التّاريخ السِّياسي للإمبراطوريّة الموحّديّة**، ص337.

ويذكر ابن عذارى أنَّه أثناء الحصار أرسل ملك البرتغال رسله لطلب المهادنة والسِّلم، فأمر الخليفة بوقف القتال والانتهاء من الغزوِّ وأمر الجيش المحاصر لشِلب بمغادرة المدينة فغادرت قوَّات الموحِّدين إلى إشبيليَّة، ووصلت إليها في الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة سنة 586هـ/17 جويلية 1190م[1]، ولم تُسفر هذه الغزوة التي استغرقت حوالي شهر ونصف عن نتائج تذكر، ولم تحقق أهدافها المرجوة باسترجاع مدينة شِلب[2].

وعن سبب انسحاب الجيش الموحِّدي وعودته إلى إشبيليَّة، فيذكر ابن عذارى أنَّ الخليفة يعقوب المنصور كان يريد أن يغزو بلاد ملك البرتغال، ويزحف إلى غاية أحواز عاصمته قُلمريَّة لكنه شعر بتوعك تمادى أمره[3]، ورأى أنَّ جيشه قد أثرَّ فيه الغلاء وأنهكه[4]، حيث اختلت شؤون تموين الجيش وأخذت المؤن والعلوفات تنضب، وقد كانت تُحمل إليهم على خط تموين طويل يمتد من قرطبة، بعكس البرتغاليون الذين استطاعوا قبل الغزوِّ أن يحصدوا معظم زروعهم، وأن يختزنوا المؤن الكافية[5]، وربما يمكن إضافة سبب آخر لانسحاب الجيش الموحِّدي واختتام هذه الغزوة وهو الخوف من تعرض جيش الموحِّدي لمثل المأساة التي تعرض لها في غزوة شنترين في عهد الخليفة يوسف[6].

وهناك رواية أخرى لابن أبي زرع مفادها أنَّ الخليفة يعقوب المنصور جاز إلى الأندلس يوم الخميس الثَّالث من ربيع الأوَّل سنة 585هـ/20 أفريل 1189م ونزل بالجزيرة الخضراء ومنها اتجه

1- **البيان المغرب**، ج5، ص206 .

2- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص190.

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص206. (يذكر ميراندا أنَّ المرض كان عبارة عن مرض الحُمى والإسهال، وعادة ما كان يحدث ذلك في الحملات العسكريَّة التي تتم في فصل الصيف، ولم ينج منها الخليفة نفسه). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص337).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص206. (ويضيف ميراندا عامل التَّعب والإرهاق اللَّذين بدأ يتمكنان من الجيش الموحِّدي). (انظر: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص337).

5- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص178.

6- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص190.

إلى شنترين وشنَّ الغارات على مدينة أشبونة وأنحائها، فقطع الثمار وقتل وسبى وأضرم النيران في القرى وحرق الزرع وبالغ في النِّكاية، وانصرف إلى العُدوة بثلاثة عشر ألف سبية من النِّساء والذُرية فوصل مدينة فاس في الثلاثين رجب من سنة 585هـ/12 سبتمبر 1189م[1].

ورواية ابن أبي زرع هذه تقول أنَّ الخليفة يعقوب المنصور عاد إلى المغرب قبل استرجاعه لمدينة شِلب، وهذه الرِّواية تُفندها الرِّوايات الأخرى، خاصةً رواية ابن عذارى وابن خلدون حيث يذكران أنَّ الخليفة لمَّا عاد من حملة طُرَّش وطمان، استقرَّ بإشبيليَّة[2] واستعد من جديد لمحاولة استرجاع شِلب[3]، لأنَّ استرجاع هذه المدينة كان هو الهدف الرئيسي الذي عبر من أجله إلى الأندلس.

وقد تحرك عندما أتمَّ الأهبة والاستعداد، بقوَّاته من إشبيليَّة في غرة ربيع الآخر عام 587هـ/28 أفريل 1191م[4]، وعبر نهر وادي آنة مخترقًا أراضي البرتغال قاصدًا قصر أبي دانس[5]

1- **روض القرطاس**، ص218.

2- بعث السلطان صلاح الدِّين الأيوبي سنة 586هـ/1190م إلى الخليفة يعقوب المنصور سفارة محملة بالهدايا على رأسها أبو الحرث عبد الرَّحمان بن منقذ، يطلب منه إعانته بالأساطيل البحرية لمواجهة الصَّليبيِّين ببلاد الشام، وكان الخليفة المنصور آنذاك بالأندلس مشتغلًا بحرب البرتغاليِّين ومحاولة استرجاع مدينة شِلب، وقد أمر الخليفة باستقبال السفارة بحفاوة إلى غاية عودته إلى المغرب، وحينما عاد استقبلها في السَّادس محرم 588هـ/23 جانفي 1192م، وأعطاهم هدايا نفيسة، لكنه لم يستجيب لطلب صلاح الدِّين، ويُرجع بعض المؤرخين عدم استجابته لطلبه، لعدم مخاطبة صلاح الدِّين للمنصور بلقب أمير المؤمنين، وكذلك لسبب تحالف أهل مصر مع بني غانية وعرب بني هلال ضدَّ الموحدِّين، أمَّا السبب الرئيسي حسب اعتقادي هو الظروف التي كان يعيشها المغرب والأندلس، فالمغرب على وقع الثورات والفتن خاصةً ثورة بني غانية، والأندلس كان معرض لحروب الاسترداد المسيحي، فكانت الأساطيل الموحّديَّة في حالة نفير قصوى لرد عدوان المسيحيِّين. غير أنَّ ابن خلدون يقال أنَّ الخليفة يعقوب المنصور جهَّز له فيما بعد مئة وثمانين أسطولًا. (ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص209؛ **العِبر**، ج6، ص330-331 ؛ عنان، **عصر الموحّدين**، ص181 وما بعدها).

3- **البيان المغرب**، ج5، ص210 ؛ **العِبر**، ج6، ص329.

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص210 .

5- يُسمى قصر أبي دانس نسبةً إلى بانيه أبي دانس بن عوسجة المصمودي، وبنو دانس كانوا أصحاب قلنبيرة، وهذا الموضع يحمل الآن اسم (Alcacer do Sal) أي قصر الملح، ويُسمى أيضًا قاعدة قصر الفتح، ويقع جنوب شرق أشبونة على الضفة اليمنى لنهر سادو على مقربة من البحر. (انظر الإدريسي، **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس**، ص260، هامش111 ؛ عنان، **عصر الموحّدين**، ص186).

وعلى إثر وصول القوّات الموحّديّة قاعدة الحصن بدأ العبيد وأهل الخدمة بردم الخندق المحفور حول المدينة من جهاتها الأربع، وشرع الجيش في محاولة اقتحام المدينة، ولكن بدون جدوى حيث أمطر البرتغاليّين المهاجمين بوابل كثيف من النِّبال والحجارة، فأصابوا عددًا كثيرًا من جُند الموحّدين بالجراح فأمر الخليفة بإيقاف القتال ثلاثة أيام لكي يستريح الجيش، وفي نفس الوقت وصلت سُفن الأسطول الموحّدي النَّهر الذي تُطل عليه مدينة قصر أبي دانس، وبدأ الجيش الموحّدي بمهاجمة المدينة يوم الخميس الخامس عشر جمادى الأولى 587هـ/10 جوان 1191م حتَّى اضطر أهلها إلى طلب الأمان ونزلوا من المدينة مستسلمين فحملوا في المراكب وبعثوا إلى إشبيليَّة ليكونوا هنالك عنوان الفتح فاستولى بذلك الموحّدون على المدينة، وندب لولايتها أبا بكر محمَّد بن وزير وهو ابن أبي محمَّد سيد راي بن وزير زعيم غرب الأندلس السَّابق[1].

وسار الموحّدون بعد ذلك إلى حصن قلماله[2] وكان أمنع حصون هذه المنطقة، وله حامية قوية[3]، ولكنهم أيقنوا باستحالة المقاومة فعرضوا على الموحّدين الاستسلام مقابل الأمان وتركهم ينصرفون إلى بلادهم، فاستجاب المنصور لرغبتهم فأخذ الموحّدون أثاث وأقوّات وأسلحة وآلات هذا الحصن ثمَّ أمر المنصور بهدمه[4].

ثمَّ سار الجيش الموحّدي إلى حصن المعدن (Almad) فاستولوا عليه، وأمر المنصور كذلك بهدمه ثمَّ اتجه الموحّدون بعد ذلك جنوبًا إلى مدينة شِلب ووصلوا إليها يوم الخميس الثَّاني من جمادى الآخرة 587هـ/27 جوان 1191 م[5] وأطبقوا عليها الحصار، وردموا الخندق المحيط بها، وضربوها بالمناجيق واستمر الحصار والضرب حتَّى يوم الأربعاء الخامس عشر جمادى الآخرة وفي

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص210-211 .

2- يُسميه ابن عذارى حصن قلمالة، والحِميري حصن بلمالة وهو من القلاع السامية الارتفاع، الغريبة الارتفاق والانتفاع. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص211 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص343).

3- يقول ابن عذارى أنَّ ملك البرتغال ملأ هذا الحصن بأنجاد رجاله وكماه أبطاله، وهو حصن لا يتمكن لمنازلته جيش. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص211).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص211.

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص211 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص343 .

فجر تلك الليلة هجم الموحّدون على المدينة مستغلين غفلة حراسها وتهاونهم، ودخلوا المدينة بالتّهليل والتّكبير، وقرع الطبول، وقد قتلوا وجرحوا من تصدى لهم، وبادر الباقون إلى طلب الأمان وتسليم المدينة[1] فضرب لهم المنصور أجلًا قدره عشرة أيام لإخلاء قصبة المدينة، وخرج النّصارى من قصبة شِلب يوم الخميس الخامس والعشرين لجمادى الآخرة 587هـ/19 جويلية 1191م[2] وعادت بذلك شِلب إلى حظيرة الدّولة الإسلاميّة بعد أن لبثت في أيدي البرتغاليّين منذ سقوطها في العشرين رجب 585هـ/3 سبتمبر 1189م زهاء عامين، وندب الخليفة على ولايتها ابن وزير[3].

وقد أورد بن أبي زرع رواية مختلفة لكيفية استيلاء الموحّدين على شِلب، حيث يذكر أنّه في عام 586هـ/1190م استولى النّصارى على مدن شِلب[4] وباجة ويابرة مستغلين انشغال الخليفة يعقوب المنصور بالفتن والثورات التي حدثت في إفريقية. ولمّا علم الخليفة بذلك استعظم ذلك وغاظه، وكتب إلى قادة الأندلس وولاتها يوبخهم ويأمرهم بغزوّ غرب الأندلس، ويعلمهم أنّه قادم عليهم في أثر كتابه[5]، فاجتمع قادة الأندلس إلى محمَّد بن يوسف والي قرطبة، فخرج بهم في جيش

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص211-212. (يقول المرّاكشي أنَّ الرُّوم لم تُطق دفاعه، وخرجوا من شِلب وعمّا كانوا قد ملكوه من أعمالها في سنة 585هـ/1189م، بينما يذكر ابن الأثير أنَّ الخليفة الموحّدي يعقوب المنصور نزل بشِلب وحاصرها وقاتل من بها قتالًا شديدًا حتَّى ذلوا وسألوا الأمان فأمنهم، وسلموا البلد وعادوا إلى بلادهم، وذلك سنة 586هـ/1190م، أمّا ابن خلدون فذكر أنَّ الاستيلاء على شِلب كان سنة 587هـ/1191م دون ذكر اليوم والشهر والأرجَّح ما أثبتناه بالمتن). (انظر: **المُعجب**، ص199 ؛ **الكامل في التّاريخ**، دار صادر، مج10، ص200).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص212 . (غير أنَّ الحِميري يقول أنَّ خروجهم كان في السَّادس والعشرين من جمادى الآخرة 587هـ/20 جويلية 1191م). (انظر: **الرَّوض المعطار**، ص343).

3- ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص329.

4- **روض القرطاس**، ص219. (غير أنَّ ابن عذارى والحِميري يقولان أنَّ استيلاء النَّصارى على شِلب كان في العشرين رجب 585هـ/3 سبتمبر 1189م، وهو الأرجَّح). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص203 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص342).

5- يذكر ابن أبي زرع أنَّ الخليفة المنصور وعد قادة الأندلس بالقدوم إليهم في أثر كتابه، ولكنه لم يعبر إلى الأندلس حسبما يبدو من الوقائع التي سردها ابن أبي زرع، وهذا ينافي الحقيقة فأغلب المصادر التَّاريخيَّة تذكر بأنَّ الخليفة حضر بنفسه وقاد الجيش الموحّدي لتحرير شِلب من أيدي البرتغاليّين. (انظر: **روض القرطاس**، ص219 ؛ المرَّاكشي، **المعجب**، ص199 ؛ ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص199-200 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص210 وما بعدها ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص329).

عظيم من الموحِّدين والعرب والأندلسيِّين حتَّى نزل بمدينة شِلب فحاصرها وشدَّ عليها القتال حتَّى فتحها وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابرة[1] ورجع إلى قرطبة، فدخلها بخمسة عشر ألف سبية، وثلاثة ألاف أسير من الرُّوم وذلك في شوال 587هـ/نوفمبر 1191م[2].

بينما يُفنِّد ابن عذارى رواية ابن أبي زرع ويذكر أنَّ الخليفة يعقوب المنصور بقي ثلاث أيام في شِلب، ثمَّ غادرها في قوَّاته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة 587هـ/22 جويلية 1191م، ووصل إلى إشبيليَّة وليس إلى قرطبة كما ذكر ابن أبي زرع، في الرَّابع من شهر رجب سنة 587هـ/28 جويلية 1191م وانقضت هذه الغزوة بعد ثلاثة أشهر[3]. وبقي الخليفة المنصور شهرين آخرين في إشبيليَّة قام خلالهما بتنظيم شؤون الأندلس وتعيِّين الولاة وسدِّ الثغور وتحصينها وملئها بالقادة والجنود، وفي الخامس عشر من شهر رمضان عام 587هـ/6 أكتوبر 1191م عبر إلى بلاد المغرب، وبعد ثلاث أيام من مسيره وصل إلى عاصمة دولته مرَّاكش[4] فاستقبل استقبالًا حافلًا، وأنشده الشعراء ومدحوه منهم الشاعر الجراوي الذي أنشده بقصيدة من عشرة أبيات نورد منها الأبيات الثلاثة الأولى:

إياب الإمام حياة الأمم　　　توالى السرور به وانتظم

وجاد به الأرض صوب الحيا　　　وحلى الظلام به بدر تمَّ

فشكرًا لخيل وفلك دنت　　　بمستأصل الظالم ما حي الظلم[5]

1- انفرد ابن أبي زرع بالقول أنَّ الموحِّدين استولوا على باجة ويابرة بعد استيلاءهم على شِلب، بينما يذكر ابن الأثير أنَّهم فتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة، ولكنه لم يُسمى هذه المدن. (انظر: **روض القرطاس**، ص219 ؛ **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص200).

2- **روض القرطاس**، ص219.

3- **البيان المغرب**، ج5، ص212 .

4- يذكر ابن عذارى أنَّ الخليفة المنصور أصابه المرض عند وصوله إلى مرَّاكش، فسارع لعقد البيعة لولده أبي عبد الله محمَّد النَّاصر لدين الله، وكتب بذلك لولاة المغرب والأندلس، ولمَّا جاء أهل الأندلس لمبايعة ولي العهد الجديد، جاء معهم يوسف بن الفخار اليهودي رسولًا من ملك قشتالة لتجديد وتثبيت المهادنة مع الموحِّدين، وقد وجدوا الخليفة يعقوب المنصور قد برئ من مرضه فامتدحه الشعراء لشفائه. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص213).

5- عن نص القصيدة كاملًا. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص212-213.

وبقي في الأخير أن نُشير إلى أنَّ الرِّواية النَّصرانيَّة حول استرجاع مدينة شِلب من قبل الموحِّدين، تُقدم إلينا شيئًا من تلك التَّفاصيل، وتلزم معظمها الصَّمت، بل تزيد على ذلك أنَّ المدينة استطاعت أن ترد جميع هجمات المسلمين بنجاح بواسطة شجاعة حاميتها والأمداد السريعة التي لقيتها من الملكين المتحالفين ملكا البرتغال وليون وكذلك بواسطة معاونة الأسطول الانجليزي[1].

2- العبور الثَّاني ومعركة الأرك:

2-1- ظروف وأسباب العبور الثَّاني:

هدأت الحرب في الأندلس حوالي ثلاث سنوات بعد استرجاع الموحَّدين لمدينة شِلب عام 587هـ/1191م، وهذا بسبب توقيع الموحِّدين الهدنة مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن مدتها خمس سنوات[2]، وكذلك تجديد الهدنة مع مملكة ليون[3]، وانشغال الخليفة يعقوب المنصور بإخماد الثورات والفتن في إفريقية خاصةً ثورة بني غانية[4].

ومن الأسباب الرئيسيَّة لتوقف هذه الحرب وقوع الخلاف بين ملوك النَّصارى في تلك الفترة، فلم يكن من الميسور أن يفكر أحد في القيام بغزوة مشتركة ضدَّ المسلمين فقد انشغلت البرتغال وليون بقرار الحرمان البابوي، كما انشغلت أراغون ونافارا بالخلاف مع جيرانهما في فرنسا[5].

1- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص80.

2- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص200.

3- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص176.

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص217 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص329 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص81.

5- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص81.

ولكن أجواء السِّلم والهدنة لم تدم مدَّة طويلة بين الموحِّدين والقشتاليِّين، ففي أواخر عام 590هـ/1194م نقض ملك قشتالة ألفونسو الثامن العهد مع الموحِّدين[1] حيث استغل انشغال الخليفة يعقوب المنصور بشأن إفريقية وبالاستعدادات التي يقوم بها من أجل الخروج في حملة جديدة ضدها[2]، بمهاجمة بلاد المسلمين وقد قاد هذه الحملة مطران طليطلة مارتن دي بسيرجا[3] حيث سار على رأس جيش ضخم إلى ميدان الحرب، وشجعه ضعف الحاميات الإسلاميَّة على الحدود، فاخترق جبال الشارات (سيرا مورينا) وسار بجانب نهر الوادي الكبير إلى أعماق الأندلس ودمَّر جيشه كل شيء، حيث انتسفوا الغلات والكروم وقطعوا أشجار الزيتون، وخربوا الضياع والقرى وسبو وقتلوا من اعترض طريقهم، وزحفت قوى خفيفة من فرسانهم حتَّى أحواز إشبيليَّة واستجة، وإلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون العيث والتَّخريب[4].

ولم يقنع ملك قشتالة ألفونسو الثامن بهذه الغزوة التي قادها مطران طليطلة والتي حمل منها إلى طليطلة غنائم عظيمة، فكتب إلى الخليفة الموحِّدي يعقوب المنصور رسالةً من إنشاء وزيره اليهودي ابن الفخار[5] يهدِّده فيها ويتوعده بالهزيمة، ويدعوه للقتال في أعز مكان لديه[6]، ولمَّا قرأ المنصور الرِّسالة غضب لذلك غضبًا شديدًا وأخذته غيرة الإسلام، ثمَّ أمر بقرأته على الموحِّدين

1- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج7، ص5 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص200.

2- توالت كُتب والي إفريقية الشَّيخ أبو سعيد بن أبي حفص عن استفحال أمر بني غانية وتفاقم غارات العرب واشتداد عيثهم فاعتزم الخليفة يعقوب المنصور أن يقوم بحملة يقودها بنفسه لإخماد هذه الثورات. (انظر: ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص217 ؛ ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ص352-353 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص197).

3- عُين مطرانًا لطليطلة عقب وفاة المطران جُنزالوا وكان هذا المطران الجديد مُتحمس لحرب المسلمين، فأخذ يُعد العدة للقيام بحملة كبيرة ضدَّ مسلمي الأندلس. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص81).

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص81. (ذكر ابن الأثير وابن خلكان هذه الحملة باختصار شديد، حيث قالا أنَّ طائفة من الفرنج خرجت في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثًا شديدًا، كما ذكرها المرَّاكشي أيضًا بصيغة مختصرة حيث قال فخرجت خيلُ ألفونسو الثامن تدوس البلاد وتجوس خلالها، إلى أنَّ كثر عيثها بالأندلس). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 ؛ **وفيات الأعيان**، ج7، ص4 ؛ **المُعجب**، ص201).

5- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج7، ص6 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص198 .

6- عن نص الرِّسالة. (انظر: **الملحق رقم 10**، ص427-428).

والعرب وقبائل زناتة والمصامدة وسائر الأجناد فقرئ عليهم، فغضبوا كلهم من وقاحة ملك قشتالة وغروره، واستيقظ الحماس الدِّيني في نفوسهم، أمَّا الخليفة فقد عزم على الجهاد والجواز إلى الأندلس، وأمر ابنه وولي عهده محمَّد الناصر بالردِّ على ملك قشتالة، فقرأ الناصر الرِّسالة ثمَّ مزقها، وكتب على ظهر قطعة منها[1] قوله تعالى ((ارْجِع إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ))[2]، والجواب ما ترى لا ما تسمع، واستشهد بيت أبي الطيب المتنبي:

ولا كُتْبَ إلَّا المشْرفِيَّةُ والقَنَا[3] وَلَا رُسُلَ إلَّا الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ[4]

وعندما كتب محمَّد الناصر الرد أعطاه لأبيه يعقوب المنصور، فسرَّ بهذا الرد العجيب، ثمَّ أعطى الرد إلى رسول ملك قشتالة، وأمر في الحال الموحِّدين وسائر الأجناد بالاستعداد للجهاد والتَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي بالأندلس[5].

وتوجد رواية أخرى أوردها كلًا من ابن عذارى وابن خلدون عن الأسباب والظروف التي أقنعت الخليفة يعقوب المنصور بالعبور إلى الأندلس للمرة الثَّانيَّة، وخلاصة هذه الرِّواية أنَّ الخليفة الموحِّدي كان بمدينة مكناسة سنة 590هـ/1194م مرابطًا بقوَّاته، وعازمًا على المسير إلى إفريقية لإخماد ثورة بني غانية، فوصلته أنباء غارات القشتاليِّين على أراضي المسلمين بالأندلس، فغير

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص221. (بينما يذكر ابن خلكان أنَّ الخليفة يعقوب المنصور هو الذي مزَّق رسالة ملك قشتالة، وهو الذي ردَّ الجواب على ظهر قطعة منه وليس ولده محمَّد النَّاصر). (انظر: **وفيات الأعيان**، ج9، ص7).

2- **سورة النَّمل، الآية 37**.

3- ورد صدر البيت عند ابن خلكان وابن أبي زرع بصيغة "ولا كُتب إلَّا المشرفيَّة عنده" والصواب ما أثبتناه في المتن. (انظر: **وفيات الأعيان**، ج7، ص7 ؛ **روض القرطاس**، ص221).

4- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج7، ص7 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص221. (نُشير إلى أنَّ هذا الرد ورد أيضًا عن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين مع اختلاف بسيط بينهما، حينما رد على رسالة ألفونسو السَّادس ملك قشتالة عندما هدَّده في رسالته بالهزيمة السَّاحقة في حالة جوازه إلى الأندلس لنصرة إخوانه أمراء الطَّوائف). (انظر: ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص91 ؛ **الحُلل الموشيَّة**، ص43 ؛ ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص240.

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص221-222.

وجهة حملته من إفريقية إلى بلاد الأندلس، وقرّر العبور لصدّ حركة الاسترداد المسيحي بها والجهاد في سبيل الله[1].

فأمر الخليفة المنصور الموحّدين وسائر الأجناد بالاستعداد للجهاد، وكتب إلى إفريقية وسائر بلاد المغرب والقِبلة يستنفر النّاس للجهاد[2]، فأقبل إليه النّاس خفافًا وثقالًا من كل فج عميق، ومن كل مكان سحيق[3]، فجمع الخليفة بذلك جيش عرمرم[4]، يقول عنه ابن الأثير جيش يضيق عنه الفضاء[5] بلغ تعداده حسب الذّهبي مائتي ألف ما بين فارس وراجل[6]، وحسب ابن العماد الحنبلي فكان تعداده مائة ألف بخلاف المتطوعة[7].

1- **البيان المغرب،** ج5، ص217 ؛ **العِبر،** ج6، ص329. (نلاحظ تطابق هذه الرّواية مع الرّواية السّابقة التي أوردها ابن الأثير وابن خلكان وابن أبي زرع فيما يخص استغلال القشتاليّين لفرصة انشغال الخليفة المنصور بثورة بني غانية وقيامهم بشنّ الغارات على أراضي المسلمين بالأندلس، والاختلاف بينهم أنَّ ابن عذارى وابن خلدون لم يوردا في روايتهم رسالة ألفونسو الثّامن للخليفة المنصور والتي يدعوه فيها للقتال ويتوعده بالهزيمة في حالة جوازه للأندلس). (انظر: **الكامل في التّاريخ،** دار صادر، مج10، ص236-237 ؛ **وفيات الأعيان،** ج7، ص5 وما بعدها ؛ **روض القرطاس،** ص220 وما بعدها).

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس،** ص222. (يذكر ابن خلكان أنَّ الخليفة أمر بكتب الاستنفار واستدعى الجيوش من الأمصار، وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه وجمع العساكر). (انظر: **وفيات الأعيان،** ج7، ص7).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس،** 222. (يذكر أشباخ أنَّ صيحة الجهاد دوَّت في جميع أنحاء المغرب من سلا حتَّى برقة ضدَّ النَّصارى الذين غدوا خطرًا على الإسلام، وقد هرع الرِّجال والشباب والشُّيوخ وسكان الهضاب والصحاري والشواطئ في جميع أنحاء المغرب إلى ألوية القتال لافتتاح اسبانيا). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين،** ج2، ص82-83).

4- السَّلاوي، **الاستقصا،** ج2، ص165 .

5- **الكامل في التّاريخ،** دار صادر، مج10، ص237 .

6- **دُول الإسلام،** حقَّقه وعلَّق عليه حسن إسماعيل مروة، قرأه وقدَّم له محمود الأرناؤوط، ط1، دار صادر، بيروت، 1999م، ج2، ص100.

7- **شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب،** أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، حقَّقه وعلَّق عليه محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 1986م، مج6، ص500. (نلاحظ اختلاف التَّقديرات في تعداد الجيش الموحِّدي عند الذَّهبي وابن العماد الحنبلي، هذا الأخير قال بأنَّ العدد مائة ألف بخلاف المتطوعة الذي قال عنها قل ماشئت، وهي إشارة إلى عددها الضَّخم، والمؤكد في الأمر أنَّ الجيش الموحِّدي كان جيشًا عرمرمًا وكثير العدد).

وذكر ابن عذارى أنَّ النَّاس تشجعوا للعبور إلى الأندلس للغزوِّ، لقصر المسافة التي تفصلهم عنها، ووفرة المؤونة والأقوَّات بها[1]، وهو ما يجعل مشكل توفير الزاد من الخليفة يعقوب المنصور لقوَّاته غير مطروح[2].

ولما استكملت الاستعدادات بقصر الجواز (قصر مصمودة)[3] أمر الخليفة يعقوب المنصور بعبور الجيوش، فكان أوَّل من جاز البحر قبائل العرب، ثمَّ قبائل زناتة ثمَّ المصامدة ثمَّ قبيلة غمارة ثمَّ الجيوش المتطوعة من قبائل العرب وغيرهم من الأغزاز والرُّماة، ثمَّ الموحِّدون ثمَّ العبيد، وعندما عبر الجميع واستقروا بطريف[4] عبر أمير المؤمنين يعقوب المنصور في أثرهم في جيش عظيم من أشياخ الموحِّدين وأهل النَّجدة والزعامة، ومعه فقهاء المغرب وصلحاءه[5]، يوم الخميس العشرين جمادى الآخرة 591هـ/1 جوان 1195م[6] وأقام المنصور بطريف يومًا واحدًا، ثمَّ اتجه إلى إشبيليَّة فلقيه في الطَّريق واليها يعقوب بن أبي حفص وجماعة من أعيانها، ولمَّا وصل إلى إشبيليَّة نزل الخليفة

1- **البيان المغرب**، ج5، ص217 .

2- ميراندا، **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطورية الموحِّديَّة**، ص353 .

3- يذكر ابن أبي زرع أنَّ الخليفة يعقوب المنصور استكمل استعداداته في مرَّاكش وخرج منها يوم الثامن عشر جمادى الأولى 591هـ/30 ماي 1995م، والجيوش تتابع في أثره من جميع الأقطار والوفود تقصد لغزوِّ الكفار إلى أن وصل إلى قصر الجواز. (انظر: **روض القرطاس**، ص222).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص218. (غير أنَّ ابن أبي زرع يقول أنَّ الخليفة المنصور والجيوش الموحِّديَّة استقرت بالجزيرة الخضراء يومًا واحدًا ونهضت نحو العدوِّ قبل أن تكل قرائح المجاهدين وتفسد نياتهم). (انظر: **روض القرطاس**، ص222).

5- يذكر ابن أبي زرع أنَّ الله تعالى سهَّل على الخليفة يعقوب المنصور وجيشه الجواز إلى الأندلس. (انظر: **روض القرطاس**، ص222).

6- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص217. (يوافق ابن أبي زرع التَّاريخ الذي حدَّده ابن عذارى لكنه أخطأ في تقدير اليوم، فيوم العشرين جمادى الآخرة يوافقه يوم الخميس وليس الجمعة، أمَّا المرَّاكشي فلم يذكر اليوم واكتفى بالقول أنَّ الجواز كان في شهر جمادى الآخرة 591هـ/جوان 1195م، في حين اعتبر أشباخ أنَّ عبوره كان في العشرين رجب 591هـ/1 جويلية 1195م، الأرجَّح ما أثبتناه في المتن). (انظر: **روض القرطاس**، ص222 ؛ **المُعجب**، ص201 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص83).

بقصر البحيرة خارج باب جَهْوَر يوم الخميس السَّابع والعشرين جمادى الآخرة 591هـ/8 جوان 1195م[1].

ومكث الخليفة باشبيليَّة حوالي أسبوعين يستكمل أهباته، ويميِّز جنوده[2]، وفي صبيحة يوم الخميس الحادي عشر رجب 591هـ/22 جوان 1195م[3] خرج منها إلى قرطبة التي وصلها يوم غد الجمعة، واستراح بها ثلاث أيام ثمَّ واصل السير بقوَّاته الضَّخمة شمالًا جهة قلعة رباح[4].

2-2- وقائع المعركة:

لمَّا وصلت أنباء عبور الخليفة الموحِّدي يعقوب المنصور وجيشه العرمرم إلى ملك قشتالة ألفونسو الثامن، قام بجمع الكورتيس[5] في مدينة كريون على عجل وأخذ يتأهب للحرب بكل ما وسع، واستدعى أتباعه من الأمراء والأشراف في قوَّاتهم، وحشد كل ما استطاع من الجند[6]، وانظم إليه فرسان قلعة رباح وفرسان الداويَّة وفروسية قشتالة بأسرها[7]، وبعث إلى زميله ملكي ليون ونافارا في طلب العون، فواعداه بذلك وانتظر أيامًا بطليطلة حتَّى وفدت أتباعه في حشودهم، ثمَّ غادرها

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص218.

2- أثناء تمييّز الجُند، قام الخليفة بالطَّواف في مواضعهم صفًا صفًا وقبيلًا قبيلًا، وشكر استفاءهم واستعدادهم شكرًا جزيلًا، ثمَّ أخرج الرواتب والبركات ووزعت على سائر الجند. (انظر: المرَّاكشي، **المُعجب**، ص201 ؛ **البيان المغرب**، ج5، ص218 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص27).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص218. (غير أنَّ الحِميري يقول بأنَّ خروج الخليفة من إشبيليَّة كان في الحادي عشر جمادى الآخرة 591هـ/23 ماي 1195م، والأرجَّح هو رأي ابن عذارى، وهذا بالنَّظر إلى صيرورة الوقائع والأحداث التَّاريخيَّة). (انظر: **الرَّوض المعطار**، ص27).

4- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص218 ؛ ابن خلدون، **العِبر**، ج6، ص329.

5- (Cortes) المقصود به البرلمان في وقتنا الحالي. (انظر: أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج1، ص260، هامش1).

6- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص199. (يذكر ابن الأثير بأنَّ الفرنج لمَّا سمعت بجواز الموحِّدين إلى الأندلس، جمعت قاصيهم ودانيهم، ويقول المرَّاكشي بأنَّ ملك قشتالة تجهَّز في جموع عظيمة لم يجتمع له مثلها قط، ويذكر ابن خلكان أنَّ الفرنج جمعوا جمعًا عظيمًا). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 ؛ **المُعجب**، ص201 ؛ **وفيات الأعيان**، ج7، ص8).

7- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص84 .

مسرعًا إلى الجنوب، واخترق نهر وادي يانة متجهًا نحو أراضي قلعة رباح، ولم ينتظر مقدم زميله وحليفه ملك ليون، وقريبه ملك نافارا[1]، إذ كان ألفونسو الثَّامن واثقًا من تحقيق النَّصر على الموحِّدين لكثرة قوَّاته[2]، التي بلغت مائتي وأربعين ألفًا حسب الذَّهبي[3]، وأكثر من ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل حسب ابن أبي زرع[4].

1- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص199. (يذكر ابن خلدون أنَّ ثلاثة ملوك شاركوا في هذه الغزوة وهم ملك قشتالة وليون والبرتغال، وهذا غير صحيح فقد وجَّه ملك قشتالة دعوة المشاركة لملك ليون ونافارا ولكنهما لم يلتحقا. ويذكر أشباخ أنَّ ملك قشتالة رأى إزاء هذا الخطر الذي يهدِّد جميع الممالك النَّصرانيَّة أن يطلب من ملكي ليون ونافارا تناسي الخصومات التي فرقت بينهم من قبل، وأن يضما قواهما إلى قوته ليلقى الجميع أعداء دينهم مجتمعين، فواعداه بالعون والسير إليه يدفعهما فيما يبدو تحريض الأجناد والشعب أكثر ممَّا تدفعهما الرغبة الخالصة، وجمعا الجند، وتوليا القيادة بنفسيهما ولكنهما تحركا في كثير من البطء، حتَّى أنَّ ملك قشتالة أخذ يشك بحق في صدق نيتهما، وكاد يعتقد أنَّهما يضمران العدوان ضدَّ قشتالة، أكثر ممَّا يحفزهما الرغبة في محاربة المسلمين). (انظر: **العِبر**، ج6، ص329 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص84).

2- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص237 .

3- **دُول الإسلام**، ج2، ص100. (وحسب أشباخ فإنَّ جيش ألفونسو الثامن كان أكثر من مائة ألف مقاتل فقط، ويبالغ كثيرًا في تقدير جيش المسلمين الذي قال بأنَّه يقدر بستمائة ألف مقاتل. ويدعي ميراندا أنَّ تقدير هذه الجيوش المسيحيَّة بهذا العدد الضَّخم من قبل الذَّهبي فيه مبالغة، وهي رواية لا تخلو من الطرافة حسب زعمه، وقد نقل عن الذَّهبي بأنَّه يقدر القوَّات المسيحيَّة بخمسة وعشرين ألف فارس ومائتي ألف من المشاة، ولم يذكر من أي كتاب من كتب الذَّهبي أخذ منها هذه التَّقديرات، والصَّحيح أنَّ الذَّهبي قدر عدد الجيوش المسيحيَّة بمائتي وأربعين ألفًا. ورغم اختلاف هذه الرِّوايات فالمؤكد من الأمر أنَّ عدد الجيوش المسيحيَّة أكثر من عدد الجيوش الإسلاميَّة رغم كثرة عددها هي الأخرى، ونستدل على ذلك من قول المرَّاكشي الذي ذكر أنَّ ألفونسو الثامن جمع جموعًا لم يجتمع له مثلها قط، فلما تراءى الجمعان اشتدَّ خوف الموحِّدين وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة جيش عدوهم. كما أنَّ ألفونسو لم ينتظر قدوم جيش ملكي ليون ونافارا لأنَّه كان واثقًا من تحقيق النَّصر بجيشه الضَّخم). (انظر: **المُعجب**، ص201 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص84-85؛ **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطورية الموحِّديَّة**، ص354).

4- **روض القرطاس**، ص227 .

واستمر ألفونسو الثامن بالمسير بجيشه الجرار جهة الجنوب إلى أن وصل إلى أقصى نقطة في مملكة قشتالة إلى موضع يعرف بالأرك[1] فعسكر به، معتزمًا لقاء الموحِّدين به، وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه[2].

وقد أرسل ألفونسو الثامن سريةً من فرسانه إلى قلعة رباح وما جاورها ليتجسَّسوا على الجيش الموحِّدي الذي كان يسير من قرطبة ناحية حصن الأرك، فخرج إليهم من كان بالحصون المجاورة من قوَّات المسلمين واقتفوا آثارهم والتحقوا بهم وأبادوهم عن آخرهم، فكان هذا النَّصر على هذه السرية باكورة الفتح وتحفته[3].

واستمر جيش الموحِّدين في التَّقدم ناحية حصن الأرك للقاء العدوِّ والاشتباك معه، ويذكر أشباخ أنَّ الخليفة يعقوب المنصور كانت خطة غزوته هذه ترمي أولًا إلى اختراق قلب إسبانيا وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لمَّا علم بأنَّ ملك قشتالة قد حشد قوَّاته في حصن الأرك اتجه بجيشه إلى ذلك المكان[4].

وفي يوم الخميس الثالث شعبان 591هـ/13 جويلية 1195م وصل الجيش الموحِّدي إلى حصن الأرك وعسكر على مرحلتان قريبتان من الجيش القشتالي[5]، وفي يوم وصوله قام الخليفة

1- (Alarcos) سهل يُعرف ببرج الحديد حسب ابن الأثير وابن خلكان أو فُحص الحديد حسب المرَّاكشي، يقع شمالي قرطبة على مقربة من قلعة رباح، يطلق عليه اسم حصن الأرك أو قلعة الأرك أو مدينة الأرك حسب ابن أبي زرع، وهذا السهل أو المحلة يقع فوق ربوة عالية تمتد سفوحها حتَّى نهر وادي آنة، وتبعد مسافة أحد عشر كيلومترًا في غربي مدينة ثيوداد ريال الحديثة، (Ciudad Real) الحديثة، وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تُسمى (Sta Maria de Alarcos) في فحص قلعة رباح. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص237 ؛ **وفيات الأعيان**، ج7، ص8 ؛ **المُعجب**، ص201 ؛ **روض القرطاس**، ص223، هامش143 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص83 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص200، هامش1) ؛ (عن موقع المعركة الأرك، انظر: **خريطة رقم 2**، ص433).

2- يذكر عنان أنَّ ملك قشتالة قد بدأ قبل ذلك بقليل بإنشاء حصن جديد في الأرك. (انظر: **عصر الموحِّدين**، ص199-200).

3- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص218 .

4- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص83 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص223 .

المنصور بجمع أشياخ وقادة جيشه لمشاورتهم في الخطة التي يجب إتباعها في هذه المعركة[1]، فدعا أولًا أشياخ الموحّدين فاستشارهم، ثمَّ أشياخ العرب، ثمَّ أشياخ زناتة، ثمَّ أشياخ القبائل الأخرى، ثمَّ الأغزاز، ثمَّ المتطوعة، فقالوا أرائهم جميعًا، ثمَّ دعا أخيرًا قواد الأندلس[2]، وقال لهم "يا أهل الأندلس إنَّ جميع من استشرت قبلكم وإن كانوا أولى بأس وشدة، ومعرفة بالحروب وقوة في الجهاد ونجدة لا يعلمون من قتال النَّصارى ما تعلمون، فإنَّكم المجاورون لهم، المدربون على قتالهم، العارفون بخدعهم وأحوالهم"[3]، فقالوا يا أمير المؤمنين رأينا أجمع موقوف على واحد منا قد اتفقنا على تقديمه لدينه ومعرفته وحسن عقله وتدبيره، ومعرفته بالحروب ومكائدها وخِدعها، ونصيحته للمسلمين، فهو لساننا وما قال فهو مذهبنا، على أنَّ رأيكم سدَّده الله ووفقه أحسن رأي، وتدبيركم أوفق تدبير رضي الله عنكم، وأشاروا جميعهم إلى القائد أبي عبد الله صناديد، فقربه الخليفة عنده وسأله، فقال له ابن صناديد "يا أمير المؤمنين إنَّ النَّصارى أهلكهم الله تعالى أهل خداع ومكائد في الحروب فيجب علينا أم نقابلهم بما هم عليه[4]، وأشار عليه بإتباع الخطة التَّالية والمتمثلة في تقديم شيخًا من أشياخ الموحّدين الشجعان على رأس جيش القبائل المصامدة والعرب وزناتة والأغزاز والأندلسيّين وسائر قبائل المغرب من المتطوعة وغيرهم ويتقدم لقتال العدوّ، بينما يبقى الخليفة المنصور وجيوش الموحّدين والعبيد والحشم في موضع خفي عن أعين العدوّ بالقرب من مكان المعركة، فإن كان نصر

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص223. (يرى المؤرخ معمر الهادي محمَّد القرقوطي بأنَّ مبادرة الخليفة يعقوب المنصور باستشارة أشياخ وقادة جيشه حول خطة المعركة دليل على أنَّه يتصف بالكثير من الخلال الحربية، وصفات القائد المدرك بنفسيات قواده وجنوده). (انظر: **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص198).

2- يقول أشباخ أنَّ الخليفة يعقوب المنصور كان يفضل آراء الأندلسيّين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النَّصارى، إذ أنَّهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، وهم بذلك أعرف النَّاس بطرق النَّصارى ومكائدهم. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص83).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص223. (أورد السَّلاوي هذا القول مختصرًا وبألفاظ مختلفة). (انظر: **الاستقصا**، ج2، ص167-168).

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص223-224. (يبدو من كلام ابن صناديد خبرته الكبيرة بأحوال النَّصارى وطباعهم في الحروب، وكذا تمرسه في الحروب ومكائده وخدعها).

فذاك، وإن كانت الهزيمة فيبادر الخليفة بحماية المنهزمين، وتكون قوّات العدوّ قد ضعفت وانكسرت شوكته، فيتحقَّق النَّصر للمسلمين[1]. ووافق الخليفة على هذه الخطة، وأُعجب بهذا الرأي[2].

وفي يوم السبت الخامس شعبان 591هـ/15 جويلية 1995م عيَّن الخليفة أبا يحي بن أبي حفص الهنتاني قائدًا عامًا للجيوش، وعيَّن هذا الأخير قائد لكل قبيلة، وقدَّم ابن صناديد على جُند الأندلس[3]، وأمره بالمسير بقوّاته والاقتراب أكثر من الموضع الذي عسكر به القشتاليون في ربوة الأرك العالية ويلحقه هو وقوّاته، فوصل الجيش الموحّدي في يوم الأربعاء التَّاسع من شعبان 591هـ/19 جويلية 1195م إلى السهل المنخفض من الأرك، ونظم المسلمون صفوفهم حيث جعل أبو يحي عسكر الأندلس في ميمنته، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في ميسرته، وجعل المتطوعة والأغزاز والرُّماة في المقدمة، وبقي هو في القلب على رأس قبيلة هنتانة، أمَّا الخليفة وجُند الموحّدين والعبيد والحشم فقد كانوا في المؤخرة[4].

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص224.

2- يروي ابن أبي زرع منام رآه الخليفة يعقوب المنصور، مفاده أنَّه بات ليلة الجمعة في سجادته راكعًا وساجدًا ومبتهلًا وراغبًا إلى الله سبحانه وتعالى في تأيِّيده للمسلمين على أعدائه الكافرين، فلما كان عند السحر غلبته عيناه فنام في مصلاه قليلًا، ثمَّ انتبه فرحًا مستبشرًا، فبعث إلى أشياخ الموحّدين والفقهاء فدخلوا عليه، فقال لهم إنَّما بعثت لكم في هذا الوقت لأبشركم بما بُشرت به من نصر الله تعالى في نومي هذه الساعة المباركة، فقد رأيت في نومي كأنَّ بابًا قد فتح من السماء، ونزل منه فارس على فرسٍ أبيض حسن الوجه والرائحة، وبيده راية خضراء منشورة قد سدَّت الأفق عظمها، فسلَّم علي، فقلت له من أنت يرحمك الله ؟ فقال أنا ملك من ملائكة السماء السابعة جئتك لأبشرك بالفتح من رب العالمين لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك في الشهادة راغبين، ولثواب الله تعالى طالبين، ثمَّ أنشدني هذه الأبيات الشعرية فحفظتها فانتبهت وكأنَّما نُقشت في قلبي:

بَشَائِر نصر الله جاءتك سافرة　　لتعلم أنَّ الله ينصر ناصره

فأبشر بِنصر الله والفتح أنَّه　　قريب وخيل الله لاشك ظافره

فتفنى جيوش الرُّوم بالسَّيف والقَنا　　وتخلى بلادًا لا ترا بعد عامره

فقال لهم الخليفة فأيقنت بالفتح والظفر إن شاء الله تعالى .(انظر: **روض القرطاس**، ص224-225).

3- **روض القرطاس**، ص225. (يدعي أشباخ أنَّ حماسة الأندلسيِّين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، فيترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المعارك). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص83).

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص225-226 .

وقبل المعركة بقليل وجه الخليفة يعقوب المنصور رسالةً إلى جيشه، حيث قام القائد العام للجيش أبو يحي بن أبي حفص الهنتاني لينقل هذه الرِّسالة، وصاح بصوتٍ عالٍ يقول للجند "يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له، فإنَّ هذا موضع غُفران، وتغافروا فيما بينكم، وطيِّبوا نفوسكم واخلصوا لله نياتكم"، فبكى النَّاس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم، وما جرى إليه من حسن معاملتهم، ثمَّ قال الجميع "من خليفة الله نطلب العفو والغفران، وبيمن نيته وصدق طويته نرجو الخير من الرَّحمان[1]".

ثمَّ قام القاضي أبو علي بن حجاج وخطب خطبةً بليغةً في التَّحريض على الجهاد وفضله والتَّنبيه على مكانته وقدره عند الله تعالى، فتنورت بذلك بصائر النَّاس وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم وقويت عزائمهم[2].

ويذكر ابن أبي زرع أنَّه خرج أمير العرب جرمون بن رياح، بدوره ليخطب في النَّاس، فقد كان يمشي بين صفوف المسلمين ويقوي قلوب المجاهدين، ويحرضهم على الثبات في وجه العدوَّ، ويتلو الآيات القرآنية التي تحث على الجهاد[3]، منها قوله تعالى ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))[4]، وقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ))[5].

1- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص219. (يذكر المرَّاكشي أنَّه عندما تراءى الجمعان اشتدَّ خوف الموحِّدين وساءت ظنونهم لمَّا رأوا من كثرة عدوِّهم، وأمير في ذلك كلِّه لا مُستند له إلَّا الدعاء والاستعانة بكل ما يظنُّ عنده خيرًا من الصالحين). (انظر: **المُعجب**، ص201).

2- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص219 .

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص226 .

4- **سورة آلِ عِمران، الآية 200** .

5- **سورة محمَّد، الآية 7** .

وبينما كان المسلمون على هذا الوضع هجمت فرقة من جيش النَّصارى مكونةً من سبعة أو ثمانية آلاف فارس مسلحة بالدروع[1] على جيش المسلمين، وكان هذا الهجوم في ضحى يوم الأربعاء التَّاسع شعبان 591هـ/19 جويلية 1195م[2] فتصدى الموحِّدون لهذا الهجوم[3] فعاود النَّصارى الهجوم مرةً ثانية، إلَّا أنَّهم تقهقروا مرةً أخرى، ثمَّ تهيأت قوَّاتهم للهجوم الفعلي للمرة الثَّالثة وعززت صفوفها فأصبحت عشرة ألاف فارس[4]، فكان القائد ابن صناديد والزعيم العربي يحث كل منهما الجند على الثبات، واستطاعت هذه الفرقة اختراق قوَّات المسلمين، حيث ركزت هجومها على قوَّات القلب التي يقودها القائد العام أبو يحي بن أبي حفص الهنتاني، معتقدين أنَّه هو الجناح الذي يقوده الخليفة المنصور، فقاتل أبو يحي قتالًا شديدًا وصبر صبرًا جميلًا حتَّى استشهد مع جماعة من المسلمين من قبيلة هنتانة والمتطوعة وغيرهم[5].

1- يذكر ابن أبي زرع أنَّ فرسان النَّصارى كانوا كلهم قد احتجبوا بالحديد والبيضات والزرد النظيف النضيد. (انظر: **روض القرطاس**، ص226).

2- تتفق جميع المصادر التَّاريخيَّة في كون معركة الأرك وقعت يوم الأربعاء التَّاسع شعبان 591هـ/19 جويلية 1195م، وأخطأ ابن خلكان فقط في تحديد اليوم، فيوم التَّاسع شعبان يوافق يوم الأربعاء وليست الخميس، باستثناء المرَّاكشي الذي قال أنَّها حدث يوم الأربعاء الثالث شعبان، وقد أخطأ هو الآخر في تحديد اليوم فيوم الثالث شعبان يوافق يوم الخميس وليس الأربعاء، والصَّحيح ما أثبتناه في المتن، واتفقت عليه جميع المصادر التَّاريخيَّة. (انظر: **وفيات الأعيان**، مج7، ص8 ؛ **المُعجب**، ص201 ؛ ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 ؛ ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص220 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص226 ؛ الذَّهبي، **دُول الإسلام**، ج2، ص100 ؛ الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص27 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص85).

3- في بداية الهجوم ناد منادي الشَّيخ أبو يحي بن أبي حفص على المسلمين يحثهم على الثبات وإخلاص النِّيات والأعمال لله تعالى، وذِكر الله في قلوبهم للفوز بإحدى الحُسنيَّين إمَّا الشهادة والجنة أو الأجر والغنيمة. (انظر: **روض القرطاس**، ص226).

4- يذكر ابن أبي زرع والسَّلاوي أنَّ هذه الفرقة مكونة من عشرة آلاف فارس كلهم مدجج في الحديد، وكانت شوكة الجيش وحَدِّهِ، اختارهم ألفونسو الثامن، وصلَّت قساوستهم عليهم صلاة النَّصر، ورشوهم بماء المعمودية، وحلف هؤلاء الفرسان عند الصلبان أن لا يبرحوا حتَّى يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم. (انظر: **روض القرطاس**، ص227 ؛ **الاستقصا**، ج2، ص169). (من هذا الكلام يتبيَّن لنا جليًا الرُّوح الصَّليبيَّة الانتقاميَّة، والعدائيَّة الشديدة للمسلمين التي كانت تميِّز المسيحيِّين في تلك الفترة).

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص226-227 ؛ السَّلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص169-170.

وكان القتال شديدًا إلى درجة تحول النَّهار من شدَّة الغبار إلى ليل[1]، ويذكر ابن عذارى أنَّ الخليفة يعقوب المنصور في تلك الأثناء قال لخاصته ومن طاف به جددوا نياتكم واحضروا قلوبكم ثمَّ تحرك وحده وترك ساقته ومرَّ على الصفوف والقبائل وأمرهم بالهجوم على عدوِّهم فحميت بذلك نفوس الجُند وتشجعوا أكثر من ذي قبل[2]، وشرعوا في الهجوم فأقبلت قبائل المتطوعة والعرب والأغزاز والرُّماة وأحاطوا بالنَّصارى الذين هجموا على قلب الجيش الموحِّدي من كل جانب، وشرعوا في قتالهم[3].

في حين هاجمت قوَّات الأندلس بقيادة ابن صناديد، ومعه قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر على قوَّات ألفونسو الثامن المتواجدة في الربوة العالية من حصن الأرك، والتي تبلغ حسب ابن أبي زرع أزيد من ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل[4]، ولا تتعدى عشرة آلاف فارس منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح حسب أشباخ[5]، فاشتدَّ القتال بين الطرفين، وعظمت الأهوال[6] وحمى الوطيس، والتفت الأقدام والرؤوس[7] وفي تلك الأثناء حاولت فرقة النَّصارى المكونة من عشرة آلاف فارس الفرار إلى الربوة العالية التي كان ألفونسو الثامن وقوَّاته، ليعتصموا بها، لكن عساكر المسلمين الذين هجموا على الربوة سابقًا تصدوا لهم، فأصبحوا

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص227 .

2- **البيان المغرب**، ج5، ص219-220 .

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص227. (يذكر أشباخ أنَّ فرقة النَّصارى المهاجمين على قلب الجيش الموحِّدي والذي تمكنت من تحطيمه وقتل قائده العام وآلاف من جنده حسب ادعائه، اعتقدت أنَّ النَّصر قد لاح لهم، ولكن سرعان ما طوقتهم باقي عناصر الجيش الإسلامي). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص86).

4- **روض القرطاس**، ص227 .

5- يدعي أشباخ أنَّه بقي مع ألفونسو الثامن في الربوة العالية عشرة آلاف فارس فقط، وتحدث قبل ذلك عن فرقة الفرسان القشتاليِّين التي هجمت في بداية المعركة على قوَّات المسلمين والتي قدَّرها بسبعة أو ثمانية ألاف فارس مثقلين بالدروع، ولم يتحدث عن قوَّات النَّصارى الأخرى على الإطلاق، وكأنَّه حصر قوَّاتهم في هذا العدد وحسب، وكان قبل ذلك ذكر بأنَّ عدد جيش النَّصارى الذي جمعه ألفونسو الثامن بلغ أكثر من مائة ألف مقاتل، فلهذا يوجد خلل في روايته وتناقض كبير. (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص84 وما بعدها).

6- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص227 .

7- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص220 .

محاصَرين بين قوّات المسلمين، ولحقت بهم قوّات العرب والمتطوعة وهنتانة والأغزاز والرُّماة فأبادوهم عن آخرهم، فانكسرت بذلك شوكة ألفونسو الثامن بفنائهم وخرت عزائمه[1].

ورغم ذلك همَّ وعزم على إعادة تنظيم صفوف قوَّاته والهجوم بجميع جيوشه على المسلمين فبينما كان هذه الحال إذ سمع الطبول على يمينه قد ملأت الأرض، وأرجاء المكان تُدوي بوقع حوافر الخيل وأصوات الأبواق، فرفع رأسه لينظر فيها، فرأى المكان رايات الموحّدين قد أقبلت، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشًا عليه "لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله، لا غالب إلا الله" فقال ما هذا ؟ فقيل له هذا أمير المؤمنين يعقوب المنصور قد أقبل على رأس جيشه، وما قاتلك اليوم كله إلَّا طلائع جيوشه، ومقدمات عساكره[2]" فانتشر في قلبه الرعب والفزع، فالتحم القتال بين الطرفين وسرعان ما ولى النَّصارى الأدبار منهزمين، فلحق المسلمين فلولهم وأثخنوا فيهم قتلًا وسبيًا واقتحموا حصن الأرك بالقوة وأضرموا النيران في أبوابه واستولوا على جميع ما كان فيه وفي معسكر الجيش القشتالي من أموال وذخائر وأسلحة وأمتعة ودواب وغيرها[3] .

أمَّا ألفونسو الثامن فقد فرَّ بدوره من أحد أبواب حصن الأرك، مع شرذمة قليلة من أتباعه[4]، بلغت حوالي عشرين فارسًا يجرون أذيال الهزيمة تحت جنح الظلام[5]، ويذكر المقَّري أنَّ

1- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص227 .

2- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص227-228 ؛ السَّلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص170.

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص228 ؛ السَّلاوي **الاستقصا**، ج2، ص170.

4- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص228. (يذكر أشباخ أنَّ ألفونسو الثامن لم يشأ بالرغم من اشتداد ضغط العدوِّ عليه من كل صوب ومواجهته لخطر الهلاك والسَّحق، أن يُنقذ نفسه بالفرار وأن يتحمل عار الهزيمة. فتساقط بذلك معظم فرسان النَّصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم مدافعين عليه، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو، وأن تقتاد الملك بعيدًا عن ميدان المعركة وأن تنقذ بذلك حياته). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص87).

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص220 ؛ الحِميري، الرَّوض المعطار، ص72. (غير أنَّ المرَّاكشي يقول أنَّ ملك قشتالة نجا في نحو ثلاثين من وجوه قواده). (انظر: **المُعجب**، ص201).

ألفونسو وصل إلى طليطلة في أسوء حال، فحلق رأسه، ونكس صليبه، وأقسَّم أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النِّساء، ولا يركب فرسًا ولا دابة حتَّى يأخذ بالثأر من المسلمين[1].

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة النَّصارى هزيمة ساحقة[2]، وكتب الخليفة يعقوب المنصور بالفتح إلى جميع بلاد الإسلام تحت يده، من الأندلس والعُدوة وإفريقية[3]، وأمر بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع أنحاء مملكته الشاسعة[4].

وعقب النَّصر مباشرة سار الخليفة يعقوب المنصور بجيوشه في بلاد النَّصارى يخرب المدن والقرى والحصون، ويغنم ويسبي ويقتل ويأسر[5]، ويذكر المرَّاكشي أنَّه استولى على قلعة رباح بعدما انجلى عنها أهلها، فدخلها وأمر بكنسيتها فَغُيِّرت مسجدًا، فصلَّى فيها المسلمون[6]، واستولى أيضًا على حصون عديدة في أراضي طليطلة دون أن يتصدى له النَّصارى[7]، ثمَّ رجع إلى إشبيليَّة محملًا بالغنائم ودخلها يوم السَّابع والعشرين شعبان 591هـ/6 أوت 1195م فاستقبلته الوفود من سائر البلاد[8]، ومدحه الشعراء ومدحوا هذا الفتح، منهم الشاعر أبو العباس الجراوي الذي نظم قصيدة شعرية يمدح فيها الخليفة المنصور ويُثني على هذا النَّصر المبين[9].

1- **نفخ الطِّيب**، مج1، ص443. (غير أنَّ ابن الأثير يذكر أنَّ ألفونسو الثامن ركب حمارًا وأقسم أن لا يركب فرسًا ولا بغلًا حتَّى تنتصر النَّصرانيَّة). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237).

2- يذكر ابن الأثير وقائع المعركة باختصار شديد، حيث يقول أنَّ الفريقين اقتتلوا قتالًا شديدًا، فكانت الدائرة على المسلمين، ثمَّ عادت الفرنج فانهزموا قُبح هزيمة، وانتصر المسلمون عليهم، وتلا قوله تعالى من سورة التوبة، الآية40: ((وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237).

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص228-229 .

4- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص87.

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص229 .

6- **المُعجب**، ص201 .

7- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص229 ؛ المرَّاكشي، **المُعجب**، ص201 .

8- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص221 .

9- عن القصيدة الشعرية. (انظر: **الملحق رقم11**، ص429-430).

ويرجع انتصار الموحّدين في هذه الموقعة إلى اختيارهم التَّوقيت المناسب، حيث استغلوا الخلافات القائمة بين ألفونسو الثامن وبين ملكي ليون ونافارا، فلم يكن للقشتاليِّين نصير في هذه الموقعة[1]، وانضمام عدوِّهم الكون بيدرو فرنانديز دي كاسترو المبعد من قشتالة إلى الموحّدين[2].

فضلًا عن اعتماد الخليفة يعقوب المنصور على مشورة أشياخ ورؤساء وقادة جيشه، خاصةً قواد الأندلس الذين وكلوا ابن صناديد لقيادتهم، وقد كان له دور فعال في رسم خطة المعركة لدرايته وخبرته الفائقة في محاربة المسيحيِّين، ومعرفتهم لبلادهم[3]، بالإضافة إلى حفاظ الموحّدين خلال هذه المعركة على النِّظام وإطاعة الأوامر، وتناسق الصفوف، واعتماد المنصور على عنصر المفاجأة أثناء المعركة، وقد أدى ذلك إلى فرار القوَّات النَّصرانيَّة بعد أن أصابها الرعب والفزع[4].

التَّشجيع المستمر للخليفة يعقوب المنصور وكذلك كبار قادته، للجيش الموحّدي لكي يثبت ويخلص نيته في الجهاد في سبيل الله، وقد ذكرنا سابقًا نماذج لهذه الخُطب والأقوال التي قالها الخليفة وقادته في هذا الشأن[5]، كما اعتنى المنصور بتوفير المؤن، فلم يكن في هذه الغزوة مشكل في تموين الجيش، وقد تدارك بذلك الأخطاء التي وقع فيها والده يوسف في غزوتي وبذة وشنترين[6].

2-3- نتائج المعركة:

انتهت معركة الأرك بهزيمة ساحقة للقشتاليِّين وانتصار باهر للمسلمين، وقبل الحديث عن النَّتائج التي تمخضَّت عنها وما هي الأهداف التي حقَّقها الموحّدون خلال انتصارهم هذا، نتطرق

1- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص203 .

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص87 .

3- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص223-224 .

4- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص204 .

5- ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص219 ؛ ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص226-227 .

6- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس**، ص204 .

أولًا للحديث عن عدد القتلى في الجانبين، وكذلك أسرى هذه المعركة والغنائم التي استولى عليها الموحِّدون بعد نهاية المعركة.

وفيما يخص عدد القتلى من الجانبين فهناك تضارب في الرِّوايات لدى المؤرخون فيذكر كل من ابن الأثير والذَّهبي والمقَّري وابن العماد الحنبلي أنَّ عدد قتلى النَّصارى بلغ مئة وستة وأربعين ألفًا[1]، بينما يرى ابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والحِميري وأشباخ أنَّ عدد قتلاهم كان ثلاثون ألفًا[2]، أمَّا باقي المصادر التَّاريخيَّة فلم تذكر العدد، وأشارت فقط إلى كثرة عدد القتلى فيذكر ابن أبي زرع أنَّه قتل منهم ألوف لا تُعد ولا تُحصى، ولا يعلم لها أحد عددًا إلَّا الله تعالى[3] أمَّا قتلى المسلمين فيذكر ابن الأثير أنَّه استشهد منهم عشرين ألفًا[4]، بينما يذكر ابن عذارى أنَّه استشهد منهم نحو خمسمائة[5]، أمَّا الحِميري فيقول دون الخمسمائة[6]، ومهما تباينت الأرقام، فالمؤكد أنَّ عدد الضحايا في صفوف المسلمين كان قليلًا جدًا بالمقارنة مع المسيحيِّين الذي كان مرتفعًا جدًا، ويُرجع ميراندا ذلك إلى الإصرار الذي قاتل به فرسان النَّصارى بل وحتَّى رهبانهم، إضافةً إلى التَّفوق العددي للجيش الموحِّدي، وكذلك العشوائيَّة التي خرج بها فرسان النَّصارى لميدان المعركة[7]. وأرى أنَّ حجته الأخيرة صحيحة إلى حد بعيد، أمَّا الحجة الأولى والثَّانية أعتقد أنَّ فرسان الموحِّدين أيضًا قاتلوا بدورهم بإصرار وشجاعة كبيرة وكان عدد قتلاهم قليل، ومسألة

1- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 ؛ **دُول الإسلام**، ج2، ص100 ؛ **نفح الطِّيب**، مج1، ص443 ؛ **شذرات الذَّهب**، ج6، ص500 .

2- **البيان المغرب**، ج5، ص220 ؛ **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة**، ص269 ؛ **العِبر**، ج6، ص330 ؛ **الرَّوض المعطار**، ص27 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص87 .

3- **روض القرطاس**، ص 228. (ويذكر المرَّاكشي أنَّه لم ينج من القتل إلَّا ألفونسو الثامن في نحو ثلاثين من وجوه قوَّاده، ويُشير إلى الأمر نفسه ابن خلكان حيث قال فاستأصلهم الموحّدون قتلًا، وما نجا ملكهم إلَّا في نفرٍ يسير). (انظر: **المُعجب**، ص201 ؛ **وفيات الأعيان**، مج7، ص8).

4- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 .

5- **البيان المغرب**، ج5، ص220 .

6- **الرَّوض المعطار**، ص27 .

7- **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحَّديَّة**، ص357-358 .

التّفوق العددي فقد ذكرنا سابقًا وبالرغم من تضارب الرّوايات حول عدد الجيوش المتحاربة فالمؤكد أنَّ عدد الجيوش المسيحيَّة أكثر من عدد الجيوش الموحّديَّة بالرغم من كثرت عددها هي الأخرى.

وفيما يخص عدد أسرى هذه المعركة ومصيرهم فقد تضاربت الرّوايات بدورها فيذكر الذَّهبي والمقَّري وابن العماد الحنبلي أنَّ المسلمين أسروا ثلاثين ألفًا، دون توضيح لأصنافهم هل من الفرسان أو من العبيد أو من النِّساء وغيرهم، ودون ذِكر لمصيرهم[1]، أمَّا ابن الأثير فيذكر أنَّ عددهم كان ثلاثة عشر ألفًا، ولم يذكر هو الآخر أصنافهم ولا مصيرهم[2]، أمَّا ابن عذارى فيذكر أنَّ المسلمين حاصروا خمسة آلاف قشتالي بين صغير وكبير، ذكرًا وأنثى في حصن الأرك، فحدث اتفاق بين النَّصارى والخليفة المنصور بوساطة حليفه القشتالي الكونت بيدرو فرنانديز دي كاسترو[3] الموجود بمحلة الموحّدين، بأن يفرج على خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل إطلاق القشتاليِّين المحصورين بالحصن، فَسُرِّح القشتاليون وأخذ المنصور رهائن منهم إلى إشبيليَّة ثمَّ إلى رباط الفتح لكي يضمن تحقيق النَّصارى للاتفاق ويُسلمون أسرى المسلمين، ويختم ابن عذارى كلامه هذا بقوله وكان هذا الاتفاق من أعظم مكائد الكافرين وخُدع المشركين[4].

أمَّا ابن أبي زرع فيذكر أنَّ الموحّدين لمَّا اقتحموا حصن الأرك بالقوة أسروا أربعة وعشرون ألف فارس، فامتن عليهم الخليفة يعقوب المنصور وأطلق سراحهم، فعزَّ فعله هذا على جميع الموحّدين وعلى كافة المسلمين، واعتبروه سقطةً من سقطات الملوك، وقد ندم فيما بعد على فعله

1- **دُول الإسلام**، ج2، ص100 ؛ **نفح الطِّيب**، مج1، ص443 ؛ **شذرات الذَّهب**، ج6، ص500.
الكامل في التَّاريخ، دار صادر، مج10، ص237 .

2- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 .

3- بينما يُسميه ابن عذارى "بيطره بن فراندس". ويذكر أشباخ أنَّ هذا الكون المبعد من قشتالة، أبدى نشاطًا خاصًا في معاونة الموحّدين على سحق وطنه، فزاد ذلك من ألم النَّصارى). (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص220 ؛ أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين**، ج2، ص87 ؛ عنان، **عصر الموحّدين**، ص209).

4- **البيان المغرب**، ج5، ص200. (يظهر لنا جليًا من قول ابن عذارى أنَّ النَّصارى لم يلتزموا بالاتفاق الذي أبرموه مع الخليفة الموحّدي ولم يسرحوا الأسرى المسلمين).

هذا، وقيل أنَّه عندما اشتد مرضه قال "ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلَّا على ثلاث وددت أني لم أفعلها، إحداهما إطلاقي أسرى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم"[1].

وبالنِّسبة للغنائم فقد حصل المسلمون على العديد منها، فيذكر ابن الأثير أنَّهم غنموا شيئًا عظيمًا[2]، فمن الخيام مائة وثلاثة وأربعون ألفًا[3]، ومن الخيل ستة وأربعون ألفًا[4]، ومن البغال مائة ألف[5]، ومن الحمير مائة ألف[6]، ويذكر المقَّري أنَّهم استولوا أيضًا على جواهر وأموال لا تحصى[7] وهو ما ذهب إليه ابن أبي زرع حينما قال أنَّ المسلمين احتووا على جميع ما كان في حصن الأرك وفي محلة النَّصارى من الأموال والذخائر والأرزاق والأسلحة[8]، والأمتعة والدواب والنِّساء والذرية[9]

1- **روض القرطاس**، ص228 وما بعدها. (يُثني أشباخ على الخليفة يعقوب المنصور كونه لم يُشِن صفحة نصره بالالتجاء إلى قسوة لا مبرر لها في معاملة الأسرى والعُزل، فلم يشأ جريًا على سُنن الحرب المتبعة يومئذٍ أن يقتلهم ويرسلهم عبيدًا إلى إفريقية، بل آثر أن يمنحهم جميعًا الحرية دون فداء. ويرى المؤرخ معمر الهادي محمَّد القرقوطي بأنَّ الخليفة المنصور بالرغم من ندمه حينما أطلق هؤلاء الأسرى إلَّا أنَّ فعله هذا يعتبر حسنة من حسناته، لأنَّها تمثل صورة من صور مبدأ التَّسامح الذي عُرفت به الدَّولة الإسلاميَّة، وهو يبرهن على حسن معاملة المسلمين لأسرى الحرب). (انظر: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص88 ؛ **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص202). (وأرى بأنَّه عمل إنساني وحضاري ميَّز المسلمين في تلك الآونة بالرغم من أنَّ أعداءهم النَّصارى الصَّليبيِّين لم يعاملوهم بهذا المستوى الحضاري الراقي).

2- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237. (ويذكر ابن العماد الحنبلي أنَّ المسلمين غنموا غنيمة لم يُسمع بمثلها). (انظر: **شذرات الذَّهب**، ج6، ص500).

3- **الكامل في التاريخ**، دار صادر، مج10، ص237. (بينما يذكر المقري أنَّ عدد الخيام التي استولى عليها المسلمون كان مائة وخمسين ألف خيمة). (انظر: **نفح الطِّيب**، مج1، ص443).

4- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237. (في حين يذكر الذَّهبي والمقري أنَّ المسلمين أخذوا من خيلهم ثمانين ألف فرس). (انظر: **دُول الإسلام**، ج2، ص100 ؛ **نفح الطِّيب**، مج1، ص443).

5- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 ؛ الذَّهبي، **دُول الإسلام**، ج2، ص100 ؛ المقَّري، **نفح الطِّيب**، مج1، ص443.

6- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237. (غير أنَّ المقَّري يذكر أنَّ المسلمين استولوا على أربعمائة ألف من الحمير). (انظر: **نفح الطِّيب**، مج1، ص443).

7- **نفح الطِّيب**، مج1، ص443 .

8- **روض القرطاس**، ص228. (يذكر ابن الأثير أنَّ المسلمين استولوا على سبعين ألف قطعة من السِّلاح، بينما يذكر ابن خلكان أنَّهم استولوا على ستين ألف درع من دروع النَّصارى). (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 ؛ **وفيات الأعيان**، مج7، ص8).

9- **روض القرطاس**، ص228 .

وعن مصير هذه الغنائم فيقول ابن الأثير أنَّ الخليفة يعقوب المنصور ناد في عسكره أنَّه من غنم شيئًا فهو له سوى السِّلاح[1]، أمَّا المقَّري فيذكر أنَّ الخليفة قسَّم الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشَّرع[2]، وقد بِيع الأسير بدرهم والسَّيف بنصف درهم، والحصان بخمسة دراهم والحمار بدرهم[3].

ومن خلال عرض هذه الإحصائيات يتبين أنَّ خسائر الجيش النَّصراني كانت كبيرة جدًا وعدد قتلاهم أكبر بكثير من قتلى المسلمين، وأنَّ المسلمين أسروا عدد كبيرًا من النَّصارى، وغنموا مع نهاية المعركة غنائم وفيرة جدًا من الأموال والأسلحة والدواب وغيرها.

وعلى العموم فقد حقَّق الموحِّدون في موقعة الأرك أعظم نصر خلال حكمهم الطَّويل للأندلس[4]، وقد شبَّه المؤرخون كثيرًا هذه المعركة بمعركة الزَّلاقة، فقد قال المرَّاكشي عن هزيمة النَّصارى في الأرك، بأنَّها أُختًا لهزيمة الزَّلاقة[5]، وقال بعض المؤرخين بأنَّ معركة الأرك أعظم من معركة الزَّلاقة، منهم ابن عذارى الذي عقد مقارنة بينهما و قال بأنَّ غزوة الزَّلاقة مقسومة الثِّقل

1- **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237 .

2- **نفح الطِّيب**، مج1، ص443. (ويذكر ابن أبي زرع أنَّه أخرج خُمس الفيء، وقسَّم الباقي على المجاهدين، ويقول أشباخ أنَّ خُمس الفيء خُصِّص لبناء مسجد فخم في إشبيليَّة وبناء حصن كبير في مرَّاكش لتخليد ذكرى موقعة الأرك). (انظر: **روض القرطاس**، ص229 ؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص87-88).

3- الذَّهبي، **دُول الإسلام**، مج2، ص100 ؛ المقَّري، **نفح الطِّيب**، مج1، ص443 ؛ ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذَّهب**، ج6، ص500).

4- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص210 .

5- **المُعجب**، ص201 .

مُكدرة الصفوِّ[1]، وجاءت الأرك هنيئة الموقع عامَّة المسرة كأكلة جائع أو شُربة عاطش فأنست كل فتح بالأندلس تقدمها، وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها[2].

وعقدت بعض المراجع الحديثة أيضًا المقارنة بين المعركتين، وذكرت أنَّ معركة الأرك تميزت عن الزَّلاقة والتي اقتصرت على تحقيق النَّصر للمسلمين وقضت بصفة مؤقتة على خطر النَّصارى الذي كان يُهدِّد دول الطَّوائف[3]، في أنَّ الخليفة يعقوب المنصور توغل بقوَّاته بعد نهاية المعركة في أراضي النَّصارى فاستولى على قلعة رباح[4]، واخترق أراضي طليطلة واستولى على عدَّة حصون وقلاع وعاد إلى إشبيليَّة بغنائم وافرة[5].

وأرى بأنَّ اعتبار معركة الأرك أعظم من الزَّلاقة بسبب كون الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لم يُطارد الجيش المنهزم ولم ينطلق بجيوشه نحو عاصمة القشتاليِّين طليطلة لكي يستولي عليها، على عكس ما فعله يعقوب المنصور بعد الأرك من اجتياح لأراضي طليطلة والاستيلاء

1- يقصد ابن عذارى بقوله كانت غزوة الزَّلاقة مقسومة الثِّقل مُكدرة الصفوِّ، أي أنَّها لم تكن متناسقة الصفوف ومجتمعة في جبهة واحدة مثل الأرك، فقد ذكر أنَّ جنود الأندلس بقيادة ابن عبَّاد كانوا أوَّل من أُصيب من عسكر المسلمين في الزَّلاقة وكثر فيهم القتل لولا أن تداركتهم في النِّهاية قوات المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين. لا أوافق رأي ابن عذارى على الإطلاق، لأنَّ وضع قوَّات الأندلس بقيادة ابن عبَّاد في المقدمة وجزء من قوَّات المرابطين مع يوسف بن تاشفين في المؤخرة كان جزءًا من خطة المعركة، وبفضلها حقَّق المسلمون النَّصر، بالإضافة إلى أنَّ النَّصارى هجموا على المسلمين في معركة الزَّلاقة بصورة مفاجئة، فكان من الطبيعي أن تتصدى لهم قوَّات المقدمة والمتمثلة في القوَّات الأندلسيَّة، ثمَّ أنَّه رأينا أنَّ الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين أرسل المدد والعون لقوَّات الأندلس، حيث بعث قائده داود بن عائشة مع فرسانه لنجدة ودعم الأندلسيِّين، فتنفست قوَّات المعتمد الصعداء بمجيء المدد، وصمد داود أمام الهجوم وأرغم النَّصارى على الارتداد إلى خط دفاعهم الثَّاني، وكلفه ذلك هو الآخر خسائر فادحة في قوَّاته. كما أنَّ يوسف بن تاشفين تدخل بقوَّاته في الوقت المناسب وقام بعملية التفاف سريعة وباغت العدوِّ، واستردت جيوش الأندلس وباقي القوَّات المرابطيَّة إثر ذلك إقدامها وشجاعتها وقاتل الجميع في صفوف متراصة ومتناسقة وثابتة، وأحيط بجيش النَّصارى من كل الجهات، فتمَّت بذلك هزيمته. كما أنَّ الموحِّدين انتهجوا نفس الخطة بالتَّقريب في معركة الأرك فقد كانت قوَّات المقدمة متكونة من عدَّة فئات منها قوَّات أهل الأندلس بقيادة ابن صناديد التي تلقت الهجوم الأوَّل للنَّصارى، وبقي الخليفة مع جيوش الموحِّدين والعبيد والحشم في المؤخرة وتدخلوا بدورهم في الوقت المناسب. (انظر: **البيان المغرب**، ج5، ص220-221).

2- **البيان المغرب**، ج5، ص221 .

3- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص208 .

4- المرَّاكشي، **المُعجب**، ص201 .

5- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص229 .

على العديد من حصونها وقلاعها وكذلك الاستيلاء على قلعة رباح، أمر غير صحيح فلكل معركة ظروفها الخاصة، فيوسف بن تاشفين لم يرد المجازفة بجيشه خوفًا من توغله كثيرًا في أراضي طليطلة ويتعرض إلى كمين من قِبل القشتاليِّين[1]، كما أنَّ الاستيلاء على مدينة بحجم طليطلة يحتاج إلى أُهبة جديدة، واستعدادات ضخمة، ومن المؤكد أنَّ الجيش المرابطي بعد خوضه لمعركة الزَّلاقة قد أصابه التَّعب والإرهاق، فهو يحتاج إلى فترة راحة للاستعداد للجهاد من جديد. كما أنَّ الموحِّدين لم يستولوا بعد الأرك إلَّا على عدَّة حصون وقلاع بأراضي طليطلة، ولم يتمكنوا من فتح هذه الأخيرة.

والقول بأنَّ معركة الزَّلاقة قضت بصفة مؤقتة على خطر النَّصارى الذي كان يهدِّد دول الطَّوائف فهذا غير صحيح، فقد كسرت معركة الزَّلاقة شوكة ألفونسو السَّادس ملك قشتالة، ولم يستطيع طيلة حياته القيام بعمل عسكري ضخم ضدَّ المسلمين بالأندلس، وأعظم عمل عسكري قامت به الممالك النَّصرانيَّة كان بعد مرور ثلاثة وثلاثين سنة من نصر الزَّلاقة، وهذا أثناء استيلاء ملك أراغون ألفونسو المحارب على سرقسطة سنة 512هـ/1118م[2]، وكان سقوط سرقسطة أوَّل ضربة حقيقية هزت من أركان دولة المرابطين بالأندلس[3].

وبالنظر إلى ظروف معركة الزَّلاقة، فأعتقد بأنَّ الأمير يوسف بن تاشفين قام بعمل مهم جدًا، تمثل في توحيد أمراء الطَّوائف جميعًا لأجل التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي، وقاد جميع الجيوش الإسلاميَّة، المرابطية منها والأندلسيَّة ووحَّدها في جبهة واحدة، بالرغم من أنَّه لم يستولي بعد على بلاد الأندلس، بعكس الموحِّدين الذين كانوا يملكون أثناء معركة الأرك بلاد الأندلس بالإضافة إلى أنَّ يوسف بن تاشفين خلال معركة الزَّلاقة كان يواجه جميع الممالك النَّصرانيَّة الملتفة حول عميده ألفونسو السَّادس، أمَّا في معركة الأرك فقد كانت الجبهة النَّصرانيَّة مقتصرة على ملك

1- الحِميري، **الرَّوض المعطار**، ص291 .

2- ابن الكردبوس، **تاريخ الأندلس**، ص118 ؛ ابن الأبَّار، **الحُلَّة السِّيراء**، ج2، ص248 .

3- عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص102 .

قشتالة ألفونسو الثامن وقوّاته وبعض المتطوعة من فرسان الداوية، ولم يلتحق ملكا ليون ونافارا بقواتهما لمساعدة ملك قشتالة[1].

ومن أجل ذلك أرى بأنَّ اعتبار معركة الأرك أعظم من معركة الزَّلاقة، أمر غير منطقي وأعتقد أنَّ كلا النَّصرين عظيمين بالنظر إلى النتائج التي تمخضت عنهما، وأعظمها على الإطلاق هو كسر شوكة الممالك المسيحيَّة وإيقاف زحفها الجارف على بلاد المسلمين بالأندلس فترة زمنية معتبرة.

وبالعودة إلى الحديث عن النتائج العامَّة بعيدة المدى التي تمخضت عن نصر الأرك، نذكر مساهمة هذا النَّصر في رفع سمعة الموحِّدين الحربية في كل مكان[2]، وإثارة الرعب والذعر في قلوب النَّصارى في أوروبا الغربية، حيث وصلت أخبار نصر الموحِّدين عن طريق النَّصارى الأسبان إلى دول أوروبا الغربية، حتَّى أنَّ ملكي انجلترا وفرنسا فكرا في إرسال حملة لمواجهة الموحِّدين ثمَّ تنازلا عن هذه الفكرة[3].

وقد تمكن الموحِّدون بانتصارهم في الأرك من نشر سلطانهم الكامل على الأندلس وإيقاف حركة الاسترداد المسيحي مدى حين، كما تجلت أهمية هذه المعركة في أنَّ النَّصارى اضطروا إلى دفع الإتاوات الباهظة[4]، وعقد هدنة وصلح مع الخليفة الموحِّدي في حدود سنة 593هـ/1197م بعد أن قاد الخليفة يعقوب المنصور بعد معركة الأرك الكثير من الغارات على أراضي النَّصارى تمكن خلالها من تحقيق العديد من الانتصارات والحصول على غنائم كثيرة[5].

1- عنان، **عصر الموحِّدين**، ص213 .

2- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ج2، ص87 .

3- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص207 .

4- عمر راكة: **العلاقات السِّياسيَّة للدَّولة الموحِّديَّة بالإمارات الإسلاميَّة والممالك المسيحيَّة في الأندلس (540هـ-1145م/668هـ/1269م)**، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، قسم التَّاريخ، 2011م، ص95 .

5- ابن الأثير، **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر، مج10، ص237-238 ؛ المقري، **نفح الطِّيب**، مج1، ص443-444 .

وساهم هذا النَّصر أيضًا في بعث السَّكينة في نفوس أهل الأندلس، بتخلصهم من تهديد ملك قشتالة، الذي كان يُعد قبل هذه الموقعة مشروعًا لطرد المسلمين نهائيًا من جميع أنحاء الأندلس. فحال هذا النَّصر بين ملك قشتالة وبين تحقيق أطماعه في الأندلس إلى حين، فلو انهزم المسلمون في الأرك لتمكن النَّصارى من التَّوغل في الأراضي الإسلاميَّة والاستيلاء على المدن الكبرى كقرطبة وإشبيليَّة ومرسيَّة وغيرها، وبالتالي فقد حافظ هذا النَّصر على استمرار الوجود الإسلامي بالأندلس، بعد أن كادت أن تسقط في أيدي النَّصارى عند انهيار دولة المرابطين بالمغرب[1].

وخلاصة الفصل نقول أنَّ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن اهتم كثيرًا بشؤون بلاد الأندلس خاصةً الشأن المتعلق بمقارعة النَّصارى والتَّصدي لغاراتهم المدمرة على بلاد المسلمين، وقد خاض بنفسه العديد من المعارك والغزوات، حقَّق في بعضها النَّصر وفشل في تحقيقه في بعضها الآخر.

ولم يكتف الخليفة يوسف في بداية حكمه بمحاربة النَّصارى فحسب، بل حارب المتحالفين معهم من أبناء ملته، بالخصوص الثائر ابن مردنيش وصهره ابن هَمُشْكُ بشرق الأندلس اللَّذين شكلا خطرًا كبيرًا على الموحِّدين بالأندلس.

وقد خاض الموحِّدون ضدَّ ابن مردنيش منذ بداية دولتهم معارك عنيفة، ومن بين تلك المعارك معركة فحص الجلَّاب سنة 560هـ/1165م في بداية حكم الخليفة يوسف، وقد أسفرت عن هزيمة ابن مردنيش وقتل جميع من كان معه من النَّصارى المرتزقة، واحتل الموحِّدون خلالها مدينة أندوجر وغيرها من القلاع، وقضت هذه المعركة على هيمنة ابن مردنيش في شرق الأندلس، وأبرزت عدم ولاء أهل المنطقة له، وأدت إلى تشتيت جبهته مع حلفاءه النَّصارى.

كما تمكن الموحِّدون من هزيمة ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز واسترجاع مدينة بطليوس سنة 564هـ/1169م بمساعدة حليفهم ملك ليون فرناندو الثَّاني الذي عقد مع الخليفة الموحِّدي

1- معمر الهادي محمَّد القرقوطي، **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس**، ص207-208 .

يوسف بن عبد المؤمن تحالف دفاع وهجوم مشترك عام 563هـ/1168م، وقد قضى الموحِّدون على أطماع ملك البرتغال والمغامر جيرالدو سمبافور الذي شكل خطرًا محدقًا على المسلمين بغرب الأندلس، حيث استولى على العديد من مدنهم وقلاعهم وحصونهم وباعها لملك البرتغال، وقد أُسر هذا الأخير عندما حرَّر الموحِّدون بطليوس، وقيَّده ملك ليون فرناندو في الحديد ثمَّ أطلقه برغبة من النَّصارى وسرَّحه إلى بلده مهزومًا ذميمًا. أمَّا المغامر جيرالدو سمبافور فقد فرَّ إلى حصن جلمانية وخاض معارك كثيرة مع المسلمين إلى أن دخل في طاعة الموحِّدين في أوائل سنة 569هـ/1174م.

وعندما ازدادت اعتداءات المسيحيِّين على أراضي المسلمين بالأندلس، قرَّر الخليفة يوسف العبور إلى الأندلس سنة 566هـ/1171م وقيادة الجيوش الإسلاميَّة بنفسه، لرد حركة الاسترداد المسيحي ومحاربة ابن مردنيش بشرق الأندلس والقضاء عليه بصفة نهائية، وقد تمَّ ذلك بالفعل حيث قضى عليه سنة 567هـ/1172م واستولى الموحِّدون بذلك على جميع بلاد الأندلس. وتفرغوا بعدها لحرب النَّصارى وجهَّز الخليفة حملة ضخمة وغزا مدينة وبذة سنة 567هـ/1172م لكنه لم يتمكن من فتحها رغم كثرة جيوشه، ورغم استيلاء الموحِّدون على الأرباض المجاورة لسور وبذة، وقيامهم بإحراق الدِّيار المحيطة بها، واستيلاءهم على الجنات والكروم المتصلة بها. وقد اضطر الموحِّدون إلى الانسحاب من وبذة ورفع الحصار عنها لعدة أسباب منها نقص الأقوَّات والمؤن، والظروف المناخية الصعبة حيث هبت رياح عاتية وهطل المطر بغزارة أثناء الحصار رغم أنَّ الفصل كان صيفًا، فأدى إلى اضطراب كبير في صفوف الجيش الموحِّدي، بالإضافة إلى تفاني القشتاليون المحاصَرين داخل قصبة مدينة وبذة في الدِّفاع عنها.

ومن انعكاسات غزوة وبذة السلبية على الموحِّدين قيام ملك البرتغال أفونسو هنريكيز رفقة المغامر جيرالدو سمبافور بمهاجمة مدينة باجة بغرب الأندلس واستولوا عليها سنة 568هـ/1172م مستغلين غياب الخليفة يوسف والجيش الموحِّدي في هذه الغزوة، وقد قتل البرتغاليون عند دخولهم باجة الكثير من النَّاس وجماعة من أعيان المدينة، واستولوا على مقادير عظيمة من الأموال

والغنائم، وبعد خمسة أشهر غادروا المدينة لصعوبة الدِّفاع عنها، وقد عملوا على تهديم أسوارها وحرق ربوعها، وحملوا معهم كثيرًا من أسرى المسلمين، وقد أنقذ معظم هؤلاء الأسر فيما بعد بالفداء، وهاجر كثير من أهل باجة بعد خراب مدينتهم إلى مرَّاكش.

كما غزا الخليفة خلال عبوره الأوَّل إلى الأندلس مدينتي طلبيرة وطليطلة سنة 568هـ/ 1173م وهذا ردًا على الغارة التي شنها القشتاليون بقيادة خيمينو على أراضي المسلمين بناحية قرطبة، وقتلهم من وجدوه في طريقهم، وأسرهم أكثر من مئة وخمسين رجلًا، وأخذهم لنحو خمسين ألفًا من الماشية ومائتين من البقر. وقد لحق بهم المسلمون وهزموهم بعد معركة عنيفة وقتلوا قائدهم خيمينو وجميع من كان معه إلَّا قليل منهم قُدِّرو بنحو مائتي فارس تمكنوا من الفرار، واسترد الموحِّدون الغنائم من أبقار وأغنام، وأنقذ الأسرى المسلمون، ثمَّ توغلوا في أراضي العدوِّ وأغاروا على طلبيرة وطليطلة وأحوازهما، واستولوا على غنائم كثيرة وقتلوا عددًا من جند النَّصارى وأسروا بعضهم وعادوا إلى إشبيليَّة سالمين.

ونتيجةً لهاتين الغزوتين سارع ملوك النَّصارى لعقد الصلح مع الموحِّدين منهم حاكم طليطلة الكونت نونيو دي لارا وألفونسو الثامن ملك قشتالة، وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز وكذلك المغامر جيرالدو سمبافور.

وبعد حوالي خمس سنوات من مكوث الخليفة يوسف بالأندلس عاد إلى بلاد المغرب سنة 571هـ/1176م، فاستغل النَّصارى ذلك واستولوا على قونكة بعد محاصرتها ستة أشهر وذلك في سنة 573هـ/1177م، وكرد فعل على ذلك أعاد الموحِّدون الإغارة على طلبيرة وطليطلة وعادوا إلى إشبيليَّة بالغنائم والأسرى.

واستمرت المعارك والمناوشات المتفرقة بين الموحِّدين والممالك المسيحيَّة في جميع أرجاء بلاد الأندلس إلى غاية سنة 579هـ/1183م، وكان الموحِّدون يقومون في كل عام تقريبًا بالغزوِّ في أراضي النَّصارى، ويقوم ملوك قشتالة وليون وأراغون والبرتغال من جهة أخرى بغزوِّ أراضي

المسلمين، وكانت هذه المعارك سجالًا بين الفريقين دون أن تُسفر عن نتائج حاسمة أو حودث ذات شأن.

وفي سنة 580هـ/1184م قرَّر الخليفة يوسف العبور للمرة الثَّانية للأندلس لغزوِّ مملكة البرتغال بغرب الأندلس، واسترجاع مدينة شنترين ولكنه لم يتمكن من ذلك رغم إطباق الحصار عليها من البرِّ والبحرِّ، وقد استشهد الخليفة بعد إصابته أثناء الحصار في مناوشات مع البرتغاليِّين كما قُتل جملة من أعيان الموحِّدين ورؤساء الأندلس والكثير من العساكر، وأثناء انسحاب الجيش الموحِّدي إلى إشبيليَّة أغار على كل موضع مرا به، منها حصن طُرَّش الذي استاقوا منه غنائم كثيرة، وكان آنذاك الخليفة يوسف طريح الفراش، وقد توفي في الطَّريق إلى إشبيليَّة يوم السبت الثَّامن عشر ربيع الآخر 580هـ/29 جويلية 1184م.

وقد بايع الموحِّدون ولده يعقوب المنصور خليفةً عليهم، وعندما استقرَّ بحاضرة مملكته مرَّاكش، شرع بتنظيم شؤون دولته المترامية الأطراف، وقام بضبط الثغور وشحنها بالخيل والرِّجال وأعطى للجند الموحِّدين ولسائر الأجناد أموالًا كثيرة.

وبعد خمس سنوات استأنف الخليفة الجديد يعقوب المنصور الجهاد في الأندلس، فخلال هذه المدة اشتغل بالخصوص بقمع ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وإفريقية، حيث كانت هذه الثورة من أخطر الثورات التي كادت أن تقوّض من صرح دولة الموحِّدين، كما اشتغل بتفقد أحوال بلاد المغرب وتنظيم شؤونها. وقد قرَّر العبور إلى الأندلس لأول مرة سنة 586هـ/1190م بسبب تفاقم هجمات النَّصارى على بلاد المسلمين بالخصوص في غرب الأندلس حيث مملكة البرتغال.

وعندما وصل إلى قرطبة جاءته رُسل الممالك النَّصرانيَّة لتوقيع الهدنة معه، فقد وصل رسول من ملك قشتالة ألفونسو الثامن، فاستجاب الخليفة لمطلبه، ووقَّع الهدنة مع ملك قشتالة، كما جدَّد الهدنة مع مملكة ليون، وبهذه الطريقة تمكن من عزل البرتغاليِّين الذين أصبحوا وجهًا لوجه أمام الموحِّدين، وهو ما أجبرهم على التَّحصن داخل قلاعهم.

وقد وجه الخليفة المنصور فرقة كبيرة من الجيش لمحاصرة مدينة شِلب، وتوجه بنفسه على رأس فرقة أخرى لمهاجمة وسط بلاد البرتغال أي ناحية نهر التاجة، لتفادي مجيء سانشو الأوَّل ملك البرتغال لإنجاد المحاصَرين بمدينة شِلب فيخفِّف بذلك الضَّغط على القوَّات الموحِّديَّة المحاصرة لها.

وقد تحرك الخليفة المنصور بقوَّاته وعبر نهر التاجة وقام أثناءها بانتساف المزارع الموجودة شمال شنترين، وبتخريب ضياعها ثمَّ سار ناحية حصن طُرَّش فاستولى عليه وقام بتدميره عن آخره، ثمَّ هاجم الموحِّدون حصن طمان الذي تحميه حامية من فرسان المعبد (الداوية) وقد أتلفوا خلال تقدمهم كل المحاصيل الفلاحيَّة الموجودة بحقول المنطقة، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحه لمناعة أسواره وشجاعة فرسان المعبد الذين استبسلوا في الدِّفاع عنه.

ولم يتمكن الموحِّدون أيضًا من فتح مدينة شِلب، فأمر الخليفة بوقف القتال والانتهاء من الغزوِّ وأمر الجيش المحاصر لشِلب بمغادرة المدينة فغادرت قوَّات الموحِّدين إلى إشبيليَّة، ولم تُسفر هذه الغزوة التي استغرقت حوالي شهر ونصف عن نتائج تذكر، ولم تحقق أهدافها المرجوة باسترجاع مدينة شِلب. وهناك عدَّة أسباب أدت إلى انسحاب الجيش الموحِّدي منها شعور الخليفة المنصور بتوعك تمادى أمره، وتفشي الغلاء في معسكر الجيش، حيث اختلت شؤون تموينه وأخذت المؤن والعلوفات تنضب، وربما يمكن إضافة سبب آخر وهو الخوف من تعرض الجيش الموحِّدي لمثل المأساة التي تعرض لها في غزوة شنترين في عهد الخليفة يوسف.

ولكن في سنة 587هـ/1191م جهَّز الخليفة المنصور جيشًا ضخمًا وعاود الهجوم على مدينة شِلب، وفي طريقه إليها استولى على مجموعة من المدن والحصون، منها مدينة قصر أبي دانس التي اضطر أهلها لطلب الأمان بعد تضرره من الحصار، ونزلوا منها مستسلمين فحملوا في المراكب وبعثوا إلى إشبيليَّة، كما استولى الموحِّدون على حصن قلمالة بعد استسلام أهله، فتركهم الخليفة ينصرفون إلى بلادهم، مقابل أخذهم لأثاث وأقوَّات وأسلحة وآلات هذا الحصن، ثمَّ أمر المنصور بهدمه، ثمَّ سار الجيش الموحِّدي إلى حصن المعدن فاستولوا عليه، وأمر المنصور كذلك بهدمه، ثمَّ

اتجه الموحِّدون بعد ذلك جنوبًا إلى مدينة شِلب وأطبقوا عليها الحصار، وفي النِّهاية استولوا عليها، وقتلوا وجرحوا من تصدى لهم، وبادر الباقون إلى طلب الأمان وتسليم المدينة، وخرج النَّصارى من قصبة شِلب يوم الخميس الخامس والعشرين جمادى الآخرة 587هـ/19 جويلية 1191م وعادت بذلك شِلب إلى حظيرة الدَّولة الإسلاميَّة بعد أن لبثت في أيدي البرتغاليِّين منذ سقوطها في العشرين رجب 585هـ/3 سبتمبر 1189م زهاء عامين.

وبعد استرجاع الموحِّدون لمدينة شِلب بقي الخليفة المنصور شهرين آخرين في إشبيليَّة قام خلالهما بتنظيم شؤون الأندلس وتعيِّين الولاة وسدِّ الثغور وتحصينها وملئها بالقادة والجنود، وفي الخامس عشر من شهر رمضان عام 587هـ/6 أكتوبر 1191م عاد إلى بلاد المغرب.

وقد هدأت الحرب في الأندلس حوالي ثلاث سنوات بعد استرجاع الموحَّدين لمدينة شِلب عام 587هـ/1191م، وهذا بسبب توقيع الموحِّدين الهدنة مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن مدتها خمس سنوات، وكذلك تجديد الهدنة مع مملكة ليون، وانشغال الخليفة يعقوب المنصور بإخماد الثورات والفتن في إفريقية خاصةً ثورة بني غانية. ولكن أجواء السِّلم والهدنة لم تدم مدَّة طويلة بين الموحِّدين والقشتاليِّين، ففي أواخر عام 590هـ/1194م نقض ملك قشتالة ألفونسو الثامن العهد مع الموحِّدين، وقام جيشه بمهاجمة بلاد المسلمين، وسار بجانب نهر الوادي الكبير إلى أعماق الأندلس ودمَّر كل شيء، حيث انتسفوا الغلات والكروم وقطعوا أشجار الزيتون، وخربوا الضياع والقرى وسبو وقتلوا من اعترض طريقهم، وزحفت قوى خفيفة من فرسانهم حتَّى أحواز إشبيليَّة واستجة، وإلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون العيث والتَّخريب.

فقرَّر الخليفة يعقوب المنصور الجواز للمرة الثَّانية للأندلس سنة 591هـ/1195م لصدِّ حركة الاسترداد المسيحي التي تفاقم أمرها، وخاض ضدَّ ملك قشتالة معركة شهيرة عُرفت بمعركة الأرك وقد أسفرت عن انتصار مدوي للمسلمين وهزيمة نكراء للقشتاليِّين، وقد قُتل من النَّصارى خلق كثير ذكرت بعض الرِّوايات أنَّه قُتل منهم مئة وستة وأربعون ألفًا، وقيل ثلاثون ألفًا، ولم ينجو حسب بعض الرِّوايات إلَّا حوالي عشرين فارس مع ملكهم ألفونسو الذي وصل إلى طليطلة في

أسوء حال، واستشهد من المسلمين عدد قليل حوالي خمسمائة. وعن الأسرى فقد اختلفت الرِّوايات منها من قال أنَّ المسلمين أسروا ثلاثين ألفًا من القشتاليِّين، وقيل بأنَّ عددهم كان ثلاثة عشر ألف أسير، وقيل خمسة آلاف أسير، قام الخليفة المنصور بإطلاق سراحهم. وحصل المسلمون أيضًا على غنائم كثيرة من الأموال والذخائر والأسلحة والدواب وغيرها.

وبعد استيلاء الموحِّدين على حصن الأرك، سار الخليفة بجيوشه في بلاد النَّصارى يخرب المدن والقرى والحصون ويغنم ويسبي ويقتل ويأسر، فقد استولى على حصون عديدة في أراضي طليطلة، واستولى على قلعة رباح، ثمَّ رجع إلى إشبيليَّة محملًا بالغنائم.

وقد ساهم هذا النَّصر في رفع شُهرة الموحِّدين الحربية في كل مكان، ومن نشر سلطانهم الكامل على الأندلس وإيقاف حركة الاسترداد المسيحي مدى حين، وفي إثارة الرعب والذعر في قلوب المسيحيِّين في كامل أوروبا.

خاتمة

توصلنا من خلال هذا البحث إلى العديد من النتائج أهمها: حركة الاسترداد المسيحي للأندلس سواءً في عهد المرابطين أو في عهد الموحِّدين كانت قويةً جدًا، حيث حشدت الأمم المسيحيَّة في أكثر معاركها مع المسلمين جميع قواتها، فكانت حربًا صليبية باركتها الكنيسة الكاثوليكية ودعمتها بكل الوسائل، وشاركت جيوش أوروبا خاصةً الجمهوريات الإيطالية بيزة وجنوة ومدن الجنوب الفرنسي، وفرسان المعبد الداوية، والأساطيل البحرية العائدة من الحروب الصَّليبيَّة بالمشرق جميعها في حرب المسلمين.

الحرب بالأندلس كانت سجالًا يومٌ للمسلمين وآخر المسيحيِّين، والتَّفوق في المواجهة المباشرة بين الجيوش كان للمسلمين في الغالب مثلما حدث في معارك الزَّلاقة وأُقليش والأرك وغيرها، أمَّا عندما تكون المواجهة غير مباشرة أي بالتَّحصن داخل المدن ففي معظم الأحيان كانت الغلبة للجيوش المسيحيَّة، وقد حدث ذلك في معركة حصن لييط حيث لم يستطع المسلمون اقتحام هذا الحصن إلَّا بعد أن تركه المسيحيون بمحض إرادتهم، وكما حدث أيضًا في معركتي وبذة وشنترين في عهد الخليفة الموحِّدي يوسف بن عبد المؤمن حيث لم تتمكن جيوشه من اقتحام هاتين المدينتين المحصنتين.

تفاني أمراء دولتي المرابطين والموحِّدين في جهاد المسيحيِّين بالأندلس، حيث عبر جميع هؤلاء الأمراء إلى الأندلس وخاضوا معارك طاحنة بأنفسهم ضدَّ الجيوش المسيحيَّة، فقد عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بجيوشه أربع مرات للأندلس للتَّصدي لحركة الاسترداد، وعبر ولده علي أربع مرات أيضًا، وجاز الخليفة الموحِّدي عبد المؤمن إلى الأندلس مرة واحدة، وفي المرة الثَّانية جهَّز جيشًا ضخمًا للجواز من أجل غزوِّ جميع الممالك المسيحيَّة لكن المرض ثمَّ الوفاة حال دون جوازه هذا، كما عبر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مرتين، مكث في الأولى حوالي خمس سنوات وهو يقارع الممالك المسيحيَّة ويتصدى لغزوها الجارف على الأراضي الإسلامية، وفي عبوره الثَّاني سقط شهيدًا في ميدان الوغى وهو يغزو مدينة شنترين بغرب الأندلس، وجاز الخليفة يعقوب المنصور مرتين وقاد الجيوش فيهما بنفسه، وحقَّق انتصارات مدوية على المسيحيِّين باسترجاعه مدينة شِلب من أيدي البرتغاليِّين، وهزيمة ملك قشتالة ألفونسو الثَّامن في معركة الأرك.

التَّفاعل الحضاري بين الجيوش المتحاربة كان موجودًا رغم كثرة الحروب وحِدَّتها بين الطرفين، وهذا التَّفاعل لمسناه من خلال الجانب الإنساني، ومن أمثلة ذلك انتهاج أمير المسلمين علي بن يوسف سياسة التَّسامح والعطف مع الأسرى المسيحيِّين وإدماج بعضهم في الجيوش المرابطيَّة وإعطائهم مراكز التَّفوق والقيادة. وكذلك إطلاق الخليفة يعقوب المنصور لعدد كبير من الأسرى المسيحيِّين في معركة الأرك بدون فداء. وبالنِّسبة للمسيحيِّين فلم نلمس روح التَّسامح في معاملتهم لأسرى المسلمين بصفة كبيرة، فلم تكن بالمستوى التي كانت لدى المسلمين، وقد وجدنا مثالًا واحدًا عن روح التَّسامح لديهم تجلى في كون القيصرة برنجاريا زوجة القيصر ألفونسو السَّابع لم تُطق المنظر المروع عندما عُلق رأس واليي قرطبة وإشبيليَّة في القصر الملكي بعد استشهادهما عام 537هـ/1143م، فأمرت بغسل الرأسين ووضعهما في حرزين ثمينين وإرسالهما إلى زوجتي القائدين ليدفنا بالتَّكريم اللائق.

وقد تجلى التَّفاعل الحضاري بين المسلمين والمسيحيِّين بالأندلس أيضًا من خلال توقيع معاهدات السِّلم والصلح بين أمراء دولتي المرابطين والموحِّدين ونظراءهم من الممالك المسيحيَّة ففي خضم هذه الحروب الطاحنة تمَّ عقد بعض معاهدات الصلح والسلم، فقد عقد الأمير علي بن يوسف مع كونت برشلونة رامون برنجير الرَّابع معاهدة صلح سنة 528هـ/1134م لكي يتفرغ المرابطون لحرب ملك أراغون ألفونسو المحارب في مدينة إفراغة. كما عقد ملك ليون فرناندو الثَّاني مع الخليفة الموحِّدي يوسف بن عبد المؤمن تحالف دفاع وهجوم مشترك عام 563هـ/1168م. وعلى إثر غزوِّ الموحِّدون لمدينتي طلبيرة وطليطلة سنة 568هـ/ 1173م سارع ملوك النَّصارى لعقد الصلح مع الخليفة يوسف، منهم حاكم طليطلة الكونت نونيو دي لارا وألفونسو الثامن ملك قشتالة، وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز وكذلك المغامر جيرالدو سمبافور. كما عقد الخليفة يعقوب المنصور مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن الهدنة، وجدَّدها مع ملك ليون خلال عبوره الأوَّل إلى الأندلس سنة 586هـ/1190م. ونشير إلى أنَّ هذه المعاهدات في غالب الأمر لا تستمر حتَّى تنقضي مدتها، حيث يعمل ملوك النَّصارى على نقذها فيهاجمون بلاد المسلمين على حين غرة ويعيثون في أراضيهم قتلًا وسبيًا.

ونستنتج أيضًا من خلال هذا البحث أن إتحاد المسلمين يُعطيهم قوة، وتصارعهم يُضعفهم ويُمكِّن عدوِّهم منهم، فالتَّحالف الذي حدث بين العُدوتين المغرب والأندلس عن طريق ضمِّ الأندلس إلى دولة المرابطين ثمَّ إلى دولة الموحِّدين بعد ذلك، حقَّق بفضله المسلمون انتصارات باهرة على أعدائهم، مثل نصر الزَّلاقة وأُقليش والأرك وغيرها. وتشتت وحدة المسلمين يُؤدي بالضرورة إلى ضعف قواهم وبالتالي تقع بلادهم فريسة في أيدي أعدائهم، وقد عاشت بلاد الأندلس هذا الوضع في عهد دويلات الطَّوائف الأولى، ومع نهاية حكم المرابطين للأندلس أي عهد دويلات الطَّوائف الثَّانية فسهَّل على المسيحيِّين الاستيلاء على مدنهم وأراضيهم، وخير دليل على ذلك سقوط مدينة طليطلة سنة 478هـ/1085م ولولا تدارك المرابطين ثمِّ الموحِّدين للوضع لأدى إلى ضياع كافة بلاد الأندلس بعد سنوات قليلة من سقوط هذه المدينة.

لقد توصلت هذه الأطروحة في الأخير إلى حقيقة هامَّة جدًا تتمثل في أنَّ أمراء دولتي المرابطين والموحِّدين تمكنوا من إيقاف حركة الاسترداد المسيحي للأندلس والتَّصدي لزحفها الجارف وهذا بتحقيق الكثير من الانتصارات الخالدة مثل نصر الزَّلاقة وأُقليش وإفراغة والأرك وغيرها، وغنم الإسلام بفضل هذه الانتصارات حياة جديدة بالأندلس امتدت لحوالي قرن ونصف.

الملاحق

الملحق رقم 1:

خطاب تهديد من ألفونسو السَّادس إلى المعتمد بن عبَّاد يطلب منه تسليم أعماله إلى رُسله وعُماله

من القمبيطور ذي المِلَّتَيْنِ الملك المفضل الأذفنش بن شانجة، إلى المعتمد بالله سدَّد الله آراءه، وبصَّره مقاصد الرَّشاد: سلام عليك من مُشيِّد مُلكٍ شرفته القنا، ونبتت في ربعه المنى فاعتز اعتزاز الرُّمح بعامله، والسَّيف بساعد حامله، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها، وما صار بأهلها حين حصارها، فأسلمتم إخوانكم، وعطَّلتم بالدِّعة زمانكم، والحذر مَن أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذِمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزوّ ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلَّا من يخاف الفَوت فيما يرومه، أو يخشى الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرِّسالة إليكم القرمط ألبرهانس، وعنده من التَّسديد الذي يلقى به أمثالك، والعقل الذي يُدبر به بلادك ورجالك، ممَّا أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنَّظر بعد هذا من ورائك، والسَّلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك.

مجهول، **الحُلل الموشيَّة**، ص38-39.

الملحق رقم 2:

رد المعتمد بن عباد على رسالة ألفونسو السَّادس

من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمَّد بن المعتضد بالله أبي عمرو بن عبَّاد، إلى الطاغية الباغية الفنش بن شانجة الذي لقب نفسه بملك الملوك، وسماها بذي المِلَّتَيْنِ، قطع الله دعواه. سلام على من اتبع الهدى، أمَّا بعد:

فإنَّه أوَّل ما نبدأ به من دعواه أنَّه ذُو المِلَّتَيْنِ، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأنَّ الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد، ومجبى المملكة لا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه مِلَّتكم، وإنَّما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النَّظر السَّديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيِّس، وعاطيناك كؤوس دعة قلت في أثنائها ليس مباديك، ولا تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنَّا لنعجب من استعجالك برأي لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أشدَّ اغترار، وتعلم أنَّا في العُدد والعديد والنَّظر السَّديد، ولدينا من كماة الفرسان وجيل الإنسان وحُماة الشُجعان يوم يلتقي الجمعان رجال تدرَّعوا الصبر، وكرهوا الكِبر، تسيل نفوسهم على حدِّ الشفار، وتنعاهم الهمام في القفار، يديرون رحى المنون بحركات القوائم، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدُّوا لك ولقومك جلادًا، أزلية الاتفاق، وشفارًا حدادًا شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والنَّدم من عجلة الشروه، نُبِّهتَ من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدَّد أمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة، أو وقفة مساعدة، إلَّا ذلٍّ تعلم مقداره، وتتحقَّق إشاره، والذي جرأك على طلب مالا تدركه قوم كالحمر ((لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ))[1]، ظنوا المعاقل تعقل، والدُّول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة، ما أوجب القعود عن نصرهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم، من ترك الحزم، وإسلامهم لأعدائهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك، ولا نستبطئ في مسيرنا إليك والله ينصر دينه الكريم ((وَلَوْ كَرِهَ اَلْكَافِرُونَ))[2]، والسَّلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدعه.

ابن سماك العاملي، **الحُلل الموشيَّة**، ص92-93.

1- **سورة الحشر، الآية 14.**

2- **سورة التوبة، الآية 32.**

الملحق رقم 3:

رسالة ألفونسو السَّادس للأمير يوسف يدعوه للقتال ويتوعده بالهزيمة في حالة عبوره لنجدة إخوانه بالأندلس

من أمير المِلَّتَيْنِ أذفنش بن فرديناند إلى الأمير يوسف بن تاشفين.

أمَّا بعد فلا خفاء على ذي عينين أنَّك أمير المِلَّة المسلمة، كما أنَّا أمير الملَّة النَّصرانيَّة. ولم يخف عليكم ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التَّخاذل والتَّواكل وإهمال الرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنَّا أسومهم سوء الخَسْف، وأضرب الدِّيار وأهتك الأستار، وأقتل الشبان، وأسبي الولدان، ولا عذر لك في التَّخلُّف عن نُصرتهم، إن أمكنتك قُدرة. هذا وأنتم تعتقدون أنَّ الله تبارك وتعالى، فرض على كل منكم قتال عشرة منَّا، ثمَّ خفَّف عنكم فجعل على كل واحد منكم قتال اثنين منَّا، فإنَّ قتلاكم في الجنة وقتلانا في النَّار، ونحن نعتقد أنَّ الله أظهرنا بكم، وأعاننا عليكم، إذ لا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعون امتناعًا. وبلغنا عنك أنَّك في الاحتفال على نيَّة الإقبال فلا أدري إن كان الحين يبطئ بك من المراكب لأجوز إليك، وأُناجزك في أحب البِقاع، فإن غلبتني فتلك غنيمة جاءت إليك، ونعمة مَثَلَتْ بين يديك. وإن غلبتك كانت لي اليدُ العُليا واستكملتُ الإمارة. والله يتمُّ الإرادة.

ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج4، ص351.

الملحق رقم 4:

خطاب المعتمد بن عباد للأمير يوسف يطلب منه العبور إلى الأندلس لنجدته من عدوان ألفونسو السَّادس

بسم الله الرَّحمان الرَّحيم وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصرُ الدِّين، مُحي دعوة الخليفة الإمام أمير المسلمين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين.

من القائم بعظيم إكبارها، الشاكر لإجلالها، المعظم لِما عظَّم الله من كريم مِقدارها، اللائذ بحرمها، المنقطع إلى سموِّ مجدها المستجير بالله، وبطولها محمَّد بن عبَّاد. سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية، المعظمة السَّامية، ورحمة الله وبركاته.

وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيليَّة غرة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وأنَّه أيد الله أمير المسلمين، ونصر به الدِّين، إنَّا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا، بقطع المادة عنا من مُعيننا، فصرنا شعوبًا لا قبائل، وأشتاتًا لا قرابة ولا عشائر، فقلَّ ناصرنا، وكثر شامتنا، وتولى علينا هذا العدوِّ المجرم اللَّعين أذفنش، وأناخ علينا بِكَلْكَلِهِ، ووطئنا بقدمه، وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحدنا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا، إلَّا أنَّ الهوان منعهم من ذلك وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله، ملك المغرب أبيضه وأسوده، وسيد حِمْيَرَ ومَليكها الأكبر وأميرها وزعيمها، ونزعت بهمتي إليك، واستنصرت بالله ثمَّ بك، واستغثت بحرمك لتجوزوا لجهاد هذا العدوِّ الكافر، وتُحيوا شريعة الإسلام وتذبوا عن دين محمَّد عليه الصلاة والسَّلام، ولكم عند الله الثواب الكريم، والأجر الجسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم، والسَّلام الكريم على حضرتكم السَّامية، ورحمة الله تعالى وبركاته.

مجهول، **الحُلل الموشيَّة**، ص45-46.

الملحق رقم 5:

قسم من رسالة الإمام الغزالي إلى الأمير يوسف تُفتيه بشرعية خلعه لأمراء الطَّوائف وتحثه على الجهاد في الأندلس

الأمير جامع كلمة المسلمين وناصرُ الدِّين، أمير المسلمين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، الدَّاعي لأيامه بالخير محمَّد بن محمَّد بن محمَّد الغزالي. بسم الله الرَّحمان الرَّحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسَّلام على سيد المرسلين وسائر النبيِّين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

((.... ورد الشَّيخ الفقيه الوجيه أبو محمَّد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي، حرس الله توفيقه .... فإنه لمَّا وصل إلى مدينة السَّلام (العراق)، وحضرة الخلافة لم يزل يُطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من الذُلِّ والصَغَار .... واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدِّين وجامع كلمة المسلمين .... عن مداراة المشركين، فلبى دعوتهم وأسرع نصرتهم وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله، وجاهد بالله حق جهاده، ومنحه الله تعالى استئصال شأفة المشركين، والإفراج عن حوزة المسلمين، جزاه الله تعالى أفضل جزاء المحسنين، وأمده بالنَّصر والتَّمكين. وذُكر متابعته العُدوة إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة، وقتل كل من ظهر من النَّصارى بالجزيرة المذكورة، من الخارجين لإمداد ملوكها على عادتهم، أو من سراياهم في أي جهة يمَّموا من جهات المسلمين، وقذف الله الرُعب في قلوب المشركين.... ثمَّ ذكر مع ذلك توقف طائفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس، عن مُشايعة الأمير ناصر الدِّين ومتابعته وأنَّهم حالفوا النَّصارى واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدُّعاء عليهم والتبر منهم ليتوب عليهم أو ليقطع شأفتهم. وكتب هذا الشَّيخ سؤالًا على سبيل الاستفتاء، وافيته فيه بما اقتضاه الحق وأوجبه الدِّين، وأعجلني المسير إلى سفر الحجاز، وتركته مشمرًا عن ساق الجدِّ في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدِّين في حماية الثغور، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ليكون رئيسهم ورؤسهم تحت طاعته، وأنَّ من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن سيد المرسلين، ويتعين جهاده على كافة المسلمين)).

عنان، **عصر المرابطين والموحِّدين**، ص530 وما بعدها.

الملحق رقم 6:

أرجوزة شعرية تمدح الأمير يوسف وانتصار المرابطين في معركة الزَّلاقة

وإذْ أرادَ اللهُ نَصْرَ الدِّينِ	استصرخَ النَّاسُ ابنَ تاشفينِ
فجاءهُم كالصُّبحِ في إثر غسق	مُستدركًا لِمَا تبقّى من رَمَقْ
وافى أبو يعقوبَ كالعُقابِ	فجرَّدَ السَّيفَ من القِراب
وواصلَ السَّيرَ إلى الزَّلاقَة	وساقَهُ لِيومِها ما ساقَه
للهِ دَرُّ مثلها مِن وَقعَةْ	قامَتْ بنصرِ الدِّينِ يومَ الجُمعة
وثُلَّ للشركِ هناكَ عَرشُهُ	لم يُغنِ عنه يومَه أذفنشُهُ
فوجَبَ الخلعُ لذي الخلاعَة	وصَرَّحوا ليوسفِ بالطاعة
واتصَلَ الأمرُ على نِظامِ	وامتدَّ ظلُّ اللهِ للإسلامِ
وانصرفَتْ على العَدوِّ الكرَّةْ	ورَجعَ الجَمْعُ كأوَلى مَرَّة
فتلكَ خيلُ الله في العَدُوِّ	تَعيثُ في الرواحِ و الغُدوِّ
ثـمَّ ولى عليٌّ بنُ يوسفِ	مُهتديًا حُكْمِ أبيهِ يَقتَفي

ابن بسَّام، **الذَّخيرة**، ج1، ص593-594.

الملحق رقم 7:

قسم من رسالة الأمير تميم إلى أمير المسلمين علي عقب فتح أُقليش[1]

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدِّين، عماد الأنام، وعتاد الإسلام... والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام، ونصر بسيفه الإسلام، وغاظ به الكفار، وجعل عليهم الكرَّة فولوا الأدبار، والله تعالى يشفع سعوده، ويضمن مزيده، وينصر جنوده بمنه.

ولمَّا أن وضعني أمير المسلمين، أدام الله نصره، حيث شاء من آلة التَّشريف، والعزِّ المنيف... حفظت تلك الحرمة، وشكرت لأستزيد من تلك النِّعمة، وأخذت في الاجتهاد في الجهاد عالقًا سببه، أخذًا بمذهبه... وسرت عن حاضرة غرناطة حرسها الله في العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم[2] بجيشٍ تصم صواهله، وتطم كواهله، رياته خافقة، وعزماته صادقة، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة... وانخنا بثغر بيَّاسة وقد توافد الجمع، وملىء البصر والسمع... ولحقنا بطرف بلاد العدوِّ أعادها الله... وأفضت بنا الخيرة إلى المدينة الحصينة أُقليش... وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال[3]، فدرنا بها دور الحلقة بنقطها... وجئنا بكل ضرب من الحرب... حتَّى فض الختام، وعُض منه الإبهام، وعجَّل الله بالنَّصر وفتحها بالقسر.

ولمَّا استحر فيهم القتل... وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها، كما يلج العصفور، ويقوم العثور، قد غلقوا الأبواب، وأسدلوا الحجاب... ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين

1- الرِّسالة في الأصل من تأليف الوزير الكاتب ابن شرف على لسان الأمير تميم بن يوسف والي غرناطة والقائد العام للجيوش المرابطيَّة في الأندلس بعثها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف عقب انتصار المسلمين في معركة أُقليش، حيث تُلخص هذه الرِّسالة وقائع المعركة، وكيف استطاع المرابطون تحقيق النَّصر. وقد جاءت الرِّسالة في المراجع الحديثة بعنوان: "رسالة كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أُقليش أعادها الله بقدرته". واخترت العنوان المدون أعلاه لكي أزيل اللبس وأبين المصدر الحقيقي للرِّسالة ولمن أُرسلت، والغرض منها.

2- العشر الأواخر من شهر رمضان عام 501هـ الموافق للعشر الأوائل من شهر ماي عام 1108م.

3- يوم الأربعاء الرَّابع عشر من شهر شوال سنة 501هـ الموافق للسَّابع والعشرين من شهر ماي سنة 1108م.

بنا، مستسلمين لنا، فناشدونا بالملَّة وحرمتها... فأوينا شاردهم وأقمنا قاعدهم... فأصبحنا في عزٍّ وأنس، وأصبحوا لا ترى إلَّا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس.

وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة والقوم في السِّجن، والحصن في الحصر... وكان الطاغية[1] زاده الله ذُلًا قد حشد أقطاره وحشر أنصاره، وأبعد في الاستصراخ مضماره، وعبأ جيشًا قد أسرا إلى ذمر، وانطوى على غمر... فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغيَّة أذفونش[2]، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أرذونش[3]، وصاحب شوكتهم ألبرهانس والقمط بقبدره وقواد بلاد طليطلة وصاحب قلعة النسور وقلعة عبد السَّلام، وكل قاص ودان، وعاجل وان، أخزى الله جميعهم، وطلَّ نجيعهم، ولا أقام صريعهم.

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة... وتقدموا فتندموا... وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيرًا واقتنوه أسيرًا، ولله تعالى فيه خُبَأَةٌ أعدها من عنده، وبعثها من جنده، ونَزَعَ الفتى إلينا من معسكرهم منبئًا بهم دالًا عليهم، وكاشفًا بهم على النبأ العظيم، ومطلعًا منهم على المقعد المقيم... وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ذوى النَّصيحة والآراء الصَّحيحة أبا عبد الله محمَّد بن عائشة وأبا محمَّد عبد الله بن محمَّد بن فاطمة... فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين... وعبأنا الجيش يمناه ويسراه، وصدره ولهاه، وساقته وأولاه، ونهضنا بجملتنا من محلتنا... ووصلوا إلى مقدمتنا وكان هناك القائد أبو عبد الله محمَّد بن أبي زنغي مع جماعة، فصدهم العدوّ بصدور غِرَّة وقلوب أشرة... وتقهقر القائد أبو عبد الله غير مُوَلٍّ، وتراجع غير مخلٍّ إلى أن اشتدَّ منا بطَّوْد، وزَّحِمَ من جيشنا بعود. فتراءى الجمعان... وبرزت السيوف عن الأغماد... فبرز فارس من العرب، فطعن فارسًا منهم فأذراه من مركبه، ورماه بين يدي موكبه... فعند ذلك اختلطت

1- يقصد بالطاغية ملك قشتالة ألفونسو السَّادس (الأذفونش).

2- يقصد بابن الطاغية أذفونش الأمير سانشو (شانجة).

3- وردت هذه الجملة فقط في كتاب عنان محمَّد عبد الله.

الخيل، بل سال السيل، وأظلم اللَّيل، واعتنقت الفرسان، واندقَّت الخرصان، ودجا ليل القتام، وضاق مجال الجيش اللِّهام، واختلط الحسام بالأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحى الحرب تغر بنكالها، وثارت ثائرة الطَّعن والضَّرب تفتك بأبطالها... فما وضح النَّهار، ولا مَسَخَ الغبار حتَّى خضعت منهم الرِّقاب، وقبلت رؤوسهم التُّراب... ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلَّا أقلَّهم... وملئت الأيدي بنيلٍ وافي الكيل، خيلًا وبغالًا وسلاحًا ومالًا، ودروعًا... ثمَّ أمرت بجمع الرؤوس، فاحتيزت الدانية وزهد في جمع النائية، فكان مبلغها نيفًا على ثلاثة آلاف منهم غرسية أرذونش والقومط وقواد بلاد طليطلة وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم، فكانت كالهضب الجسيم، بل الطَّودِ العظيم، وأذَّن عليها المؤذِّنون، يوحِّدون الله ويكبِّرون، فلما جاء نصر الله... شكرنا مولى النِّعم ومُسديها، ومُعيد المنن ومُهديها، وصدرت غانمًا، وأبت سالمًا، وبقى القائدان محاصرين لحصن أُقليش، آخذين بمخنَّقهم، ومستولين على رمقهم.

فخاطبت أمير المسلمين... معلمًا بالأمر، مهنيًا بالنَّصر، فلنحمد الله عزَّ وجلَّ على ما وهب... فهو ولِّي الامتنان، والملبي بالفضل والإحسان، لا رب غيره ولا معبود سواه.

ميراندا أمبروسيو هويثي، **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص125 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ عنان، **دولة الإسلام في الأندلس– عصر المرابطين والموحِّدين**، ص533 وما بعدها عدَّة صفحات ؛ حسين مؤنس، **الثغر الأعلى الأندلسي**، ص35 وما بعدها عدَّة صفحات.

الملحق رقم 8:

رسالة الأمير علي بن يوسف إلى القائد أبي محمَّد بن أبي بكر عقب هزيمة القِلاعة

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهدى والرشد سعيك، من حضرة مرَّاكش حرسها الله في السَّابع من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرون وخمس مائة. وقبله وافى كتابك تذكر فيه المثيلة التي كانت للعدوِّ – دمره الله– عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه، بعد أن كان لكم صدره وأتيح لكم نصره، فأواخر الأمور أبدأ، أوكدُ وأهم والعواقب هي التي تُحمد أو تُذم، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أبْها وأتمَّ وإنَّ لسان العذر لتلك الحال لقصير، وإنَّ الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير، توافقتم مع عدوكم، وأنتم أوفر منه عدَّة وأكثر جمعًا، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعًا، وأقوى دونه دفعًا، فثبت وزللتم وجدَّ ونكلتم، وشدَّ عقد عزيمته وحللتم، وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسد، وشماتة العدوِّ الراصد، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة، فشغله عنكم من غررتموه من الرَّجْلِ الذي أسلمتموه للقتل وفررتم ونصبتموهم دريئة للرِّماح ثمَّ طرتم، ولو لا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه، لانكشف دون ذلك الرِّماح خبتكم ووقاؤكم، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم عاقبكم الله بما أنتم أهله، فأنتم أشجع النَّاس أقفاءً وظهورًا، وأجبنهم وجوهًا ونحورًا، ليس منكم من تدفع به كريهةً، ولا عندكم في الرشد رويته ولا بديهةً، فمتى وأيُ وقتٍ تفلحون ؟ ولأي شيءٍ بعد ذلك تصلحون ؟ ونحمد الله عزَّ وجهه كثيرًا، فقد دفع بفضله الأهم الأكبر، وأجرى بأكثر السلامة القدر. فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم وقصروا حبل اغتراركم وألبسوا منه جنة حذاركم واعلموا أنَّ وراء مجازاتنا إياكم جزاءً توفونه، ويومًا عصيبًا تلقونه، فكونوا بعد هذه الهناة لداعي الرشد بين مطيع وسامع، ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع، فإنكم لو خلصت غيوبكم، وحسنت سريرتكم واطمأنت على التقوى قلوبكم، لظهر أمركم وعلا جدكم، ولما ذهب ريحكم ولا فلَّ حدكم فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النِّيات وأصدق العزمات، وأثبتوا أحسن الثبات، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات.

وقد ذُكر أنَّ للعدوِّ دمره الله مددًا يأتيه من خلفه، والله يقطع به، فلتصغوا على مسالكه عيونًا تكلأ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ، فإن كان له مدد كما ذُكر، قطعتم به السبيل دون لحاقه، وأقمتم الحزم على ساقه والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب إنَّه الحميد المجيد، لا إله إلا غيره.

حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص51-52 ؛ عنان، **عصر المرابطين والموحّدين**، ص541-542 .

الملحق رقم 9:

رسالة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى ولاة الأندلس بشأن توجيه طليعة عسكرية لمحاربة المسيحيِّين في انتظار جوازه

بسم الله الرَّحمان الرَّحيم وصلى الله على محمَّد وآله وسلم، والحمد لله وحده، من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيَّده الله بنصره، وأمدَّه بمعونته، إلى الطبلة الموحِّدين من الذين بجزيرة الأندلس، أدام الله توفيقهم وكرامتهم. سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أمَّا بعد، فإنَّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلَّا هو، ونشكره على آلائه ونِعمه، ونصلِّي على محمَّد نبيه المصطفى ورسوله .... وإنَّا كتبناه إليكم- وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه- من حضرة مرَّاكش- حرسها الله- والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتَّوكل عليه .... ومازلنا وفَّقكم الله على إتمام العناية بتلكُمُ الجزيرة مهَّدها الله، والحرص على عونها، والانتواء لنُصرتها، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة، إشفاقًا على ما استضام منها، جيرتها الأعداء، وأبناؤها الأعِقَّاء، مُجسِّمين ورومًا وما كادوها به من التَّكلُّف والتَّحيُّف والتَّنقُّص وفَغْرِ الأفواه، وكشر النُّيوب والإرصاد لفيضٍ ما فاض فيها من نور التَّوحيد .... ونراه من الأهمِّ الأعنى، والأوَّل الأولى قيامًا بحقِّ الله في جهاد أعدائها ومُكابري مناويها، ومن لم تنفعه العِبر على مرورها على بصره، وتواردها على مشاهدته وإهابتها به .... وتوجَّه حفل الاشتغال إلى الجزيرة- مهَّدها الله- وتوفَّرت دواعي الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوِّها، ورأينا في أثناء ما نحاوله من مَرُوم هذه الغزوة الميمَّنة المباشر أن نقدِّم بين أيدينا عسكرًا مباركًا من الموحِّدين- أعانهم الله- صحبة الشَّيخ الأجل أبي حفص- أعزه الله- يكون تَقْدِمَةً لجواز جمهور الموحِّدين ومؤذنًا بما عزمنا عليه- والله المستعان- من التَّحرُّك بجملة أهل التَّوحيد والقصد لهذا الغزوِّ الميمون الذي جعلناه نصب العين، وتجاه الخاطر، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم، على جهاد أعدائكم إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم، ويلمَّ بكم هذا القصد، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها، المبرمة أمراسها التي انعقدت بها النيَّة، واحتدمت لها في ذات الله الحمية، واستعانت بتوفيق الله في

تأصيل أصولها الفكرة الموجَّهة والرَّوية .... وإذا وصلكم هذا الكتاب فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف النَّاس، وإرسالًا بنسخه إلى من نأى عنكم، حتَّى يجد أثر الاستبشار ويترقَّب بمودِّعه الغائب والشاهد، والحاضر والبادي إن شاء الله، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص292 وما بعدها عدَّة صفحات.

الملحق رقم 10:

رسالة ألفونسو الثامن للخليفة يعقوب المنصور يدعوه للقتال ويتوعده بالهزيمة في حالة جوازه إلى الأندلس:

باسمك اللَّهم فاطر السماوات والأرض، وصلى الله على السيِّد المسيح روح الله وكلمته الرَّسول الفصيح، أمَّا بعد فإنَّه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنَّك أمير الملَّة الحنيفية، كما أنِّي أمير الملَّة، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التَّخاذل والتَّواكل وإهمال الرعية وإخلادهم إلى الراحة[1]، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الدِّيار، وأسبي الذراري وأمثِّل بالرِّجال، وأُذيقهم عذاب الهون وشديد النكال، ولا عُذر لك في التَّخلف عن نصرهم، إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أنَّ الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منَّا بواحدٍ منكم، والآن خفَّف الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفًا، فقد فرض عليكم قتال اثنين منَّا بواحدٍ منكم، ونحن الآن نُقاتل عشرةً منكم بواحد منَّا لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا، وقد حُكي لي عنك أنَّك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال، وتُماطل نفسك عامًا بعد عام، تُقدم رِجْلًا وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجُبن أبطأ بك أم التَّكذيب بوعد ربك ؟ ثمَّ قيل لي أنَّك لا تجد إلى جواز البحر سبيلًا لعلةٍ لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن نفي بالعهود والمواثيق ونستكثر من الرِّهان، وترسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمةً كبيرةً جُلبت إليك، وهديةً عظيمةً مَثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا

1- هذه العبارة حملت بعض المؤرخين على الاعتقاد بأنَّ هذه الرِّسالة موجهة من ألفونسو السَّادس ملك قشتالة إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، وليست موجهة من ألفونسو الثامن إلى الخليفة الموحِّدي يعقوب المنصور، لأنَّ هذه العبارة تتلاءم مع ما كانت تعيشه بلاد الأندلس في عهد دويلات الطَّوائف الأولى (422-483)هـ/(1031-1090)م من اضطراب وفوضى وتخاذل لأمراء الطَّوائف وتخليهم عن رعاية شؤون رعيتهم. (انظر: ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص220، هامش141 ؛ عنان، **عصر الموحِّدين**، ص198).

عليك، واستحقّقت إمارة الملتين، والحُكم على البَرين، والله تعالى يوفِّق للسعادة، ويسهِّل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلَّا خيره، إن شاء الله تعالى[1].

1- وردت هذه الرِّسالة عند ابن الأثير وابن خلكان وابن أبي زرع مع اختلافات بسيطة بينهما في بعض الكلمات والجُمل وفيما يخص تطابق هذه الرِّسالة مع رسالة ملك قشتالة ألفونسو السَّادس التي بعثها إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين سنة 479هـ/1086م والتي يهدِّده فيها ويدعوه للقتال، نُقِّر بالتَّطابق الكبير بين هاتين الرِّسالتين، ولا يكاد يُفرَّق بينهما، إلَّا في كون هذه الرِّسالة أطول بقليل من الرِّسالة التي وجهت للأمير يوسف بن تاشفين. وقد ذكر ابن خلكان بأنَّه وجد هذه الرِّسالة وجوابها في كتاب "تذكير العاقل وتنبيه الغافل" لأبي الحجاج يوسف بن محمَّد بن إبراهيم الأنصاري التِّيفاشي وقد كتب هذه الرِّسالة ألفونسو السَّادس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشقين، ويضيف ابن خلكان قائلًا بأنَّ أبا الحجاج يوسف الأنصاري نقل هذه الرِّسالة من خط ابن الصيرفي، ومعروف عن هذا الأخير أنَّه من علماء وشعراء وكتاب الدَّولة المرابطية، وأنَّه توفي سنة 570هـ/1174م، فهو مُتقدم عن فترة حُكم الخليفة يعقوب المنصور. ومنه فأغلب الظنِّ أنَّ هذه الرِّسالة في الأصل موجهة من ملك قشتالة ألفونسو السَّادس إلى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين. (انظر: **الكامل في التَّاريخ**، مج10، ص236-237 ؛ **وفيات الأعيان**، ج7، ص6-7 ؛ **روض القرطاس**، ص220-221).

الملحق رقم 11:

أرجوزة شعرية تمدح الخليفة يعقوب المنصور وانتصار الموحِّدين في معركة الأرك

هو الفَتْحُ أَعْيَا وَصْفُهُ النُّظْمَ والنَثْرَا	وعَمَّتْ جَمِيعَ المسلمينَ به البُشرى
وأنجدَ في الدُّنْيَا وَغَارَ حَدِيثُهُ	فَرَاقَتْ بِهِ حُسنًا وطَابَتْ بِهِ نَشرَا
تميَّزَ بالأحجالِ والغَرِرِ الَّتِي	أقل سناهَا يُبهرُ الشَّمسَ والبدرَا
لقد أورد الأذفونش شِيعتَهُ الرَدَى	وسَاقَهُمْ جَهْلًا إلى البَطْشَةِ الكُبْرَى
حَكَى فِعْلَ إبليسٍ بأَصْحَابِهِ الأُلَى	تبرأَ مِنْهُمْ حِينَ أَوْرَدَهُمْ بَدرَا
أَطَارَتْهُ شَدَاتٌ تولَّى أَمَامَهَا	شَرِيدًا وأَنْسَتْهُ التَّعَاظُمَ والكُفْرَا
رأى الموتَ للأَبْطَالِ حَوْلَيْهِ يَنْتَقِي	فَطَارَ إِلَى أقصَى مَصَارِعِهِ ذُعْرَا
وقَدْ أوردتَهُ الموتُ طَعْنَةَ ثَائِرٍ	وإنْ لم يفارق من شَقَاوَتِهِ العُمْرَا
ولم يَبْقَى من أَفْنَى الزَّمَانُ حُمَاتَهُ	وجرعَهُ مَنْ فَقَدَ أَنْصَارَهُ صَبْرَا
أُلُوفٌ غَدَتْ مَأْهُولَةً بهم الفَلَا	وَأَمْسَتْ خَلَاءً منهم دُوُرُهُمْ قَفْرَا
ودَارَتْ رُحَى الهَيجَا عَلَيْهِمْ فَأَصْبَحُوا	هَشِيمًا طحينًا في مهبِ الصَبَا يَذْرَا
يطيرُ بأشلاءٍ لهم كُلُ قَشْعَمٍ	فمَا شِئْتَ من نِسْرٍ غَدَا بَطْنُهُ قَبْرَا
فَكَيْفَ رَأَى المُغْتَرُّ عُقْبَى اِغْتِرَارِهِ	وكيفَ رَأَى الغَدَّارُ فِي غَيِّهِ الغَدْرَا
وكيفَ يَرَى أَقْطَارُ أَنْدَلَسَ لَهُ	مَتَى يَرَمُ لم يُخْطِئ بِأَسْهُمِهِ قَطْرَا
فَسَلَاهُ يَوْمُ الأَرْبِعَاءِ عَنْ المُنى	فَمَا يَرْتَجِي مِمَّا تَمْلِكُهُ شِبْرَا
إِذَا عَزَلْتُهُ الرُّومُ كَانَتْ نَجَاتُهُ	وقد أَحْرَقَتْ جَمْرَ المَنَايَا بِهِ غَدْرَا

فَتْعْسًا لَهُ مَا دَامَ حَيًا وَلَا مُنَى وَكَسْرًا لَهُ مَا دَامَ حَيًا وَلا جَبْرَا

بِيُمْنِ الإِمَامِ الصَالِحِ المُصْلِحِ الرِضَى نَضَى سَيْفُهُ الإِسْلَامَ فَاسْتَأْصَلَ الكُفْرَا

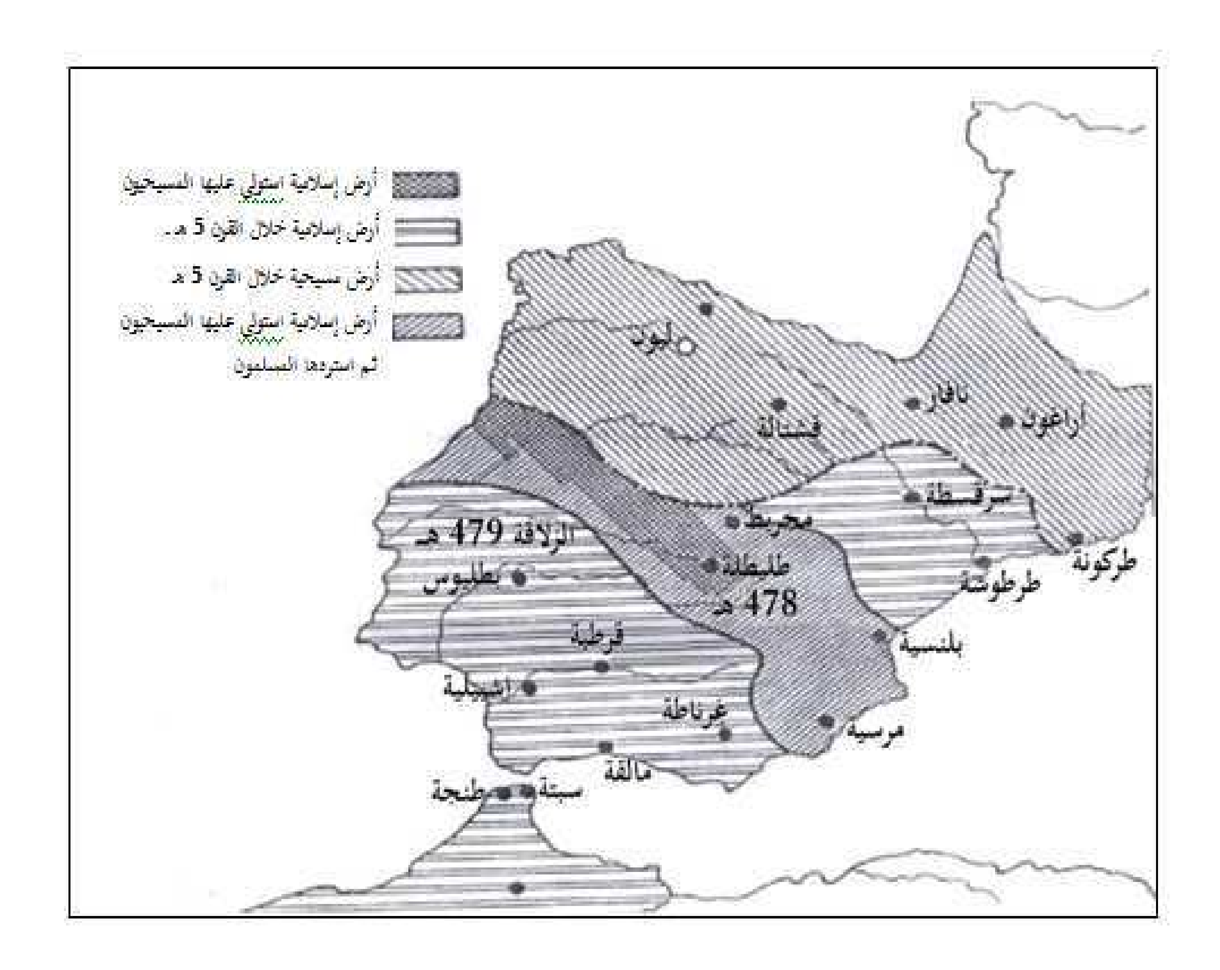
فَلَا زَالَ بالنَّصْرِ الإِلهِي يَقْتَضِي بَشَائِرَ تَحْصَى قَبْلَ إِحْصَائِهَا القُطْرَا

ابن عذارى، **البيان المغرب**، ج5، ص221-222 .

الخرائط

خريطة رقم 1 :

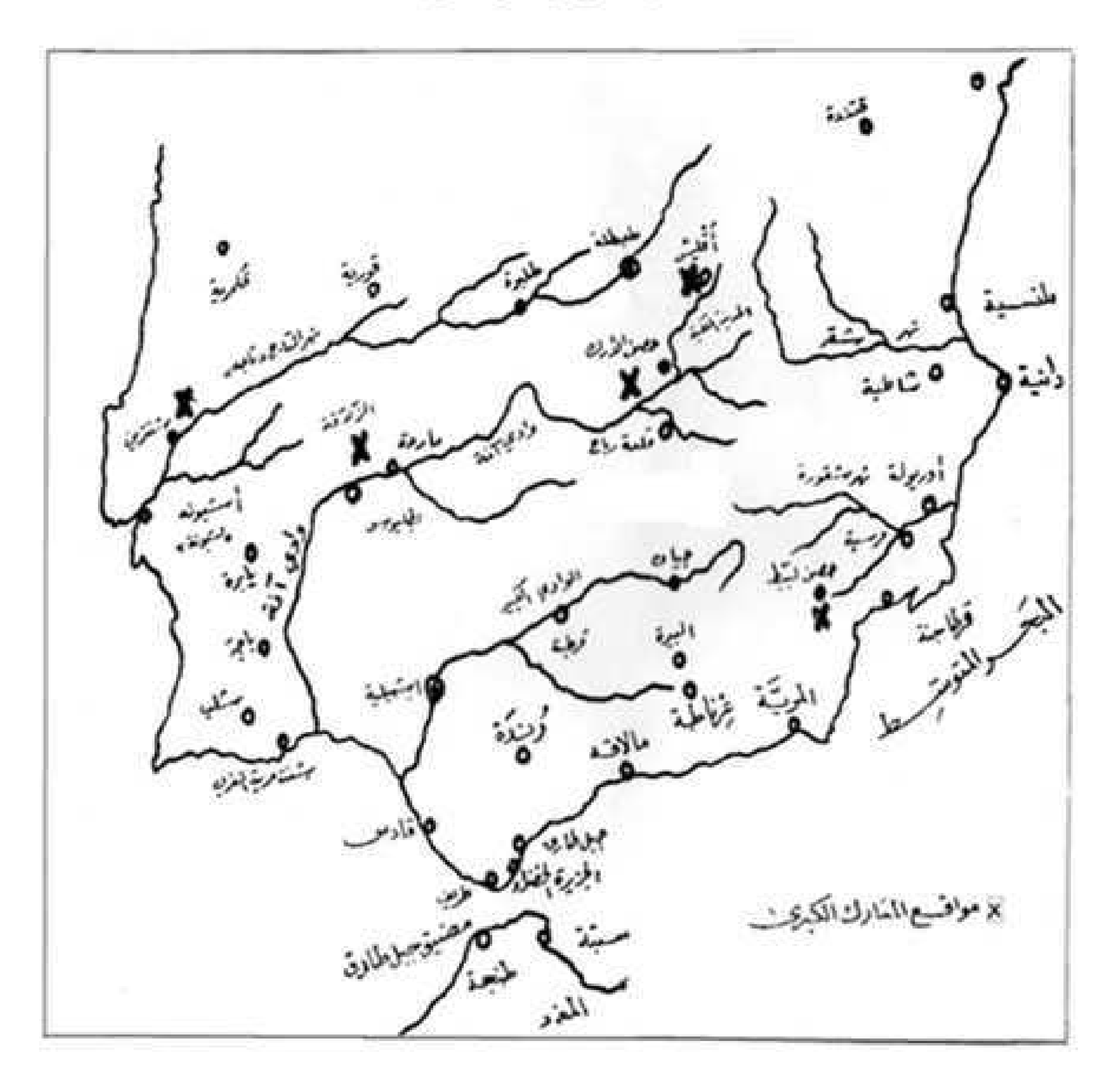
خريطة تعكس حركة الاسترداد المسيحي بالأندلس خلال القرن 5هـ/11م



شريفة محمّد عمر دحماني، **العلاقات السّياسيّة بين الطائفتين الأندلسيّة والبربريّة في جنوب الأندلس في عصر ملوك الطوائف القرن 5هـ/11م**، ص343.

خريطة رقم 2 :

مواقع المعارك الكبرى بالأندلس بين المسلمين والمسيحيين في عصري المرابطين والموحدين



عنان، عصر المرابطين والموحّدين، ص 91.

خريطة رقم 3:

دولة المرابطين بالأندلس في أقصى اتساعها في عهد الأمير علي بن يوسف



حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص1 .

خريطة رقم 4:

دولة الموحّدين بالأندلس في أقصى اتساعها في عهد يعقوب المنصور



عز الدين عمر موسى: **الموحّدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م، ط1، ص176.

المصادر والمراجع

- **المصادر العربيَّة:**

- **القرآن الكريم**

- **الحديث الشريف**

- البخاري، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت256هـ/869م): **صَحِيحُ البُخَاري**، تحقيق محمَّد علي القطب، المكتبة العصريَّة، بيروت، ج5، 1991م.

- مُسْلِم، أبي الحُسين مُسلم بن الحجَّاج القُشيري النِّسابوري (ت261هـ/875م): **صَحِيحُ مُسْلِم**، ط1، دار المُغني للنَّشر والتَّوزيع، المملكة العربيَّة السَّعوديَّة، دار ابن حزم للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 1998م.

- **المصادر المُحقَّقة:** (**كتب التَّاريخ العام، التَّراجم والسِّير**)

- ابن الأبَّار، أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658هـ/1260م): **الحُلَّة السِّيراء**، حقَّقه وعلَّق حواشيه حسين مؤنس، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

- ــــــــــ: **كتاب التَّكملة لكتاب الصِّلة**، تحقيق الفريد بل، وابن أبي شنب، المطبعة الشرقيَّة، الجزائر، 1919م.

- ــــــــــ: **إعتاب الكتاب**، تحقيق وتعليق وتقديم صالح الأشتر، ط1، مطبوعات مجمع اللغة العربيَّة، دمشق، 1380هـ/1961م.

- ابن الأثير، عز الدِّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمَّد بن محمَّد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/1232م): **الكامل في التَّاريخ**، دار صادر للطِّباعة والنَّشر، بيروت، مج9-مج10، 1966م.

- ــــــــــ: **الكامل في التَّاريخ**، راجعه وصحَّحه محمَّد يوسف الدَّقاق، ط4، دار الكتب العلميَّة، بيروت، مج8، 2003م.

- ابن أرنْبَغا الزَّرْدَكَاش (ت 867هـ/1463م): **الأنيق في المناجيق**، تحقيق إحسان هنيدي، دار الكتب الوطنيَّة، أبو ظبي، الإمارات العربيَّة المتحدة، 2013م.

- ابن بسَّام، أبو الحسن علي بن بسَّام الشَّنتريني (ت 542هـ/1147م): **الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق سالم مصطفى البدري، ط1، دار الكتاب العلميَّة، بيروت، 1998م.

- ـــــــــ: **الذَّخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ/1997م.

- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578هـ/1183م): **كتاب الصِّلة**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م.

- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر (ت 279هـ/892م): **فتوح البلدان**، تحقيق عبد القادر محمَّد علي، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2000م.

- ابن بلكين، عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس الزيري الصَّنهاجي (توفي بعد 483هـ/1090م): **مذكرات الأمير عبد الله** - أو - **كتاب التِّبيان**، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1988م.

- البيذق، أبو بكر بن علي الصَّنهاجي (توفي أواخر القرن السَّادس الهجري): **أخبار المهدي بن تومرت**، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، ط2، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1986م.

- ـــــــــ: **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطِّباعة والوراقة، الرباط، 1971م.

- ابن حزم الأندلسي، أبو محمَّد علي بن أحمد بن سعيد (ت456هـ/1063م): **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، د. ت.

- الحُميدي، أبو عبد الله محمَّد بن أبي نصر فتُّوح الحُمَيْدي (ت488هـ/1095م): **جَذْوَةُ المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النّباهة والشِّعر**، تحقيق وتقديم صلاح الدِّين الهواري، ط1، المكتبة العصريَّة، بيروت، 2004م.

- ـــــــــــ: **جَذْوَةُ المقتبس في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط$_{2}$، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج$_{7}$، 1989م.

- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمَّد بن عبد الله الإشبيلي (ت529هـ/ 1134م): **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، قدم له ووضع فهارسه محمَّد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

- ـــــــــــ: **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، ط$_{1}$، مطبعة الجوائب، قسنطينة، 1302هـ/1884م.

- ابن الخرَّاط الإشبيلي (ت581هـ/1186م): **الأندلس في اختصار اقتباس الأنوار**، تحقيق إيميليو مولينا، وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلميَّة، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، 1990م.

- ابن الخطيب، لسان الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله بن أحمد السليماني (ت776هـ/ 1374م): **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثَّالث من كتاب أعمال الأعلام**، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبَّادي ومحمَّد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1964م.

- ـــــــــــ: **تاريخ إسبانية الإسلاميَّة، أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق وتعليق إ.ليفي بروفنسال، ط$_{1}$، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة، 2004م.

- ـــــــــــ: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حقَّق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمَّد عبد الله عنان، ط$_{2}$، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1394هـ/ 1974م.

- ـــــــــــ: **ديوان الصيب والجهام والماضي الكهام**، تحقيق محمَّد الشريف قاهر، ط$_{1}$، الشركة الوطنيَّة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، 1973م.

- ابن خلدون، عبد الرَّحمان بن محمَّد (ت808هـ/ 1406م): **العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيَّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع

الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 2000م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدِّين أحمد بن محمَّد بن أبي بكر (ت 681هـ/1282م): **وَفياتُ الأعيانِ وأنباءُ أبناءِ الزمانِ**، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، 1994م.

- ابن خليل غلبون الطرابلسي: **تاريخ طرابلس وما كان بها من الأخبار**، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي، المطبعة السلفيَّة، القاهرة، 1930م.

- الذَّهبي، شمس الدِّين أبي عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/ 1348م): **سِير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمَّد نعيم العرقسوسي، ط4، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت، ج18، 1986م.

- ـــــــــ: **العِبر في خبر من غبر**، تحقيق وضبط أبو هاجر محمَّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميَّة، بيروت، د.ت.

- ـــــــــ: **دُول الإسلام**، حقَّقه وعلَّق عليه حسن إسماعيل مروة، قرأه وقدَّم له محمود الأرناؤوط، ط1، دار صادر، بيروت، ج2، 1999م.

- الرَّقيق القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت بعد سنة 425هـ/ 1033م): **قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق عبد الله العلي الزيدان، عز الدين عمر موسى، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله (ت726هـ/1325م): **الأنيس المُطرِب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصورة للطِّباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

- الزركشي، أبو عبد الله محمَّد بن إبراهيم: **تاريخ الدَّولتين الموحِّديَّة والحفصيَّة**، تحقيق وتعليق محمَّد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

- السبتي، محمَّد بن القاسم الأنصاري (من أهل القرن الثَّامن الهجري): **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الأثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1983م.

- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن محمَّد بن عبد الملك بن سعيد اليحصبي (ت685هـ/1286م): **المُغْرِب في حُلَى المغرب**، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964م.

- ابن سماك العاملي، أبي القاسم محمَّد بن أبي العلاء محمَّد بن سماك المالقي الغرناطي (من أهل القرن الثَّامن الهجري): **الحُلَلُ المَوْشِيَّة في ذكر الأخبار المرَّاكشيَّة**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2010م.

- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك (ت 594هـ/1198م): **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحِّدين)**، تحقيق عبد الهادي التازي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

- الضَّبي، أبو جعفر أحمد بن محمَّد بن عميرة (ت599هـ/1203م): **بُغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط1، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م.

- ابن عبد الحكم، عبد الرَّحمان بن عبد الله (ت257هـ/871م): **فتوح إفريقيا والأندلس**، حقَّقه وقدم له عبد الله أنيس الطبَّاع، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1964م.

- ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد الأنصاري المرَّاكشي (ت793هـ/1390م): **الذَّيل والتَّكملة لكتابي الموصول والصِّلة**، تحقيق إحسان عبَّاس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، السفر الخامس، القسم الأوَّل، 1965م.

- ابن عبدون، محمَّد بن أحمد التَّجيبي (القرن السَّادس الهجري): **رسالة في أداب الحسبة والمحتسب**، نشرت ضمن ثلاث رسائل أندلسية، تحقيق إ. ليقي بروقنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيَّة، القاهرة، 1955م.

- ابن عذارى المراكشي (كان حيًا سنة 712هـ/ 1312م): **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق إ. ليقي بروقنسال، ج3، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

- ــــــــــــ: **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب،** تحقيق إحسان عبَّاس، ط5، دار الثقافة، بيروت، ج4، 1418هـ/1998م.

- ــــــــــــ: **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحِّدين،** تحقيق محمَّد إبراهيم الكتاني، ط2، محمَّد بن تاويت، مطبعة النَّجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ج5، 1985م.

- ابن العماد الحنبلي، شهاب الدِّين أبي الفلاح عبد الحيّ بن أحمد بن محمَّد العكريّ الدِّمشقي (ت1089هـ/1678م): **شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب،** أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، حقَّقه وعلَّق عليه محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، بيروت، مج6، 1986م.

- ابن القطان المرَّاكشي، أبو محمَّد حسن بن علي بن محمَّد بن عبد الملك الكتامي (توفي في منتصف القرن السَّابع الهجري): **نُظُمُ الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزَّمان،** درسه وقدَّم له وحقَّقه محمود علي مكيّ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

- ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب القسنطيني (ت750هـ/1349م): **كتاب الوفيات،** تحقيق عادل نويهض، ط4، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983م.

- ابن القوطية، أبو بكر محمَّد بن عبد العزيز القرطبي (ت367هـ/ 977م): **تاريخ افتتاح الأندلس،** تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1989م.

- الكتبي، محمَّد بن شاكر بن أجمد بن عبد الرَّحمان (ت764هـ/ 1362م): **فوات الوفيات والذَّيل عليها،** تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، مج3، 1974م.

- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك (كان حيًا أواخر القرن السَّادس الهجري): **تاريخ الأندلس وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء،** تحقيق أحمد مختار العبَّادي، مطبعة معهد الدِّراسات الإسلاميَّة، مدريد، 1971م.

- مجهول (لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثَّامن الهجري): **الحُلل الموشيَّة في ذكر الأخبار المُرَّاكشيَّة**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرَّشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م.

- مجهول (مؤلف أندلسي عاش في القرن الرَّابع الهجري): **كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها**، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1989م.

- مجهول (من أهل القرن العاشر الهجري): **تاريخ الأندلس**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 2077م.

- مجهول (من أهل القرن الثامن الهجري): **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق وترجمة لويس مولينا، مدريد، ج1، 1983م.

- مجهول: **فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير**، تحقيق حساني مختار، منشورات دحلب، الجزائر، د.ت.

- مجهول (عاش في القرن الثَّامن الهجري): **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقراق للطِّباعة والنَّشر، الرباط، 2005م.

- المُرَّاكشي، عبد الواحد بن علي (ت 647هـ/ 1249م): **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط1، منشورات محمَّد علي بيضون، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1419هـ/ 1998م.

- المقَّري، أحمد بن محمَّد المقري التِّلمساني (ت 1041هـ/1631م): **نفحُ الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت، 1408هـ/1988م.

- النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي (ت بعد سنة 793هـ/1390م): **تاريخ قضاة الأندلس**- أو- **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، تحقيق مريم قاسم طويل، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1955م.

- ابن الوردي، زين الدِّين عمر بن مظفر (ت749هـ/ 1348م): **تاريخ ابن الوردي** –أو- **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ج1، 1996م.

- المصادر الجغرافيَّة:

- الإدريسي، أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ت 560هـ/ 1064م): **القارَّة الإفريقيَّة وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1983م.

- ابن بطوطة، محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت779هـ/1377م): **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظَّار في غرائب الأمصار**، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، دار الكتب العلميَّة، بيروت، د.ت.

- البكري، أبو عُبيد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م): **جغرافية الأندلس وأوروبَّا من كتاب المسالك والممالك**، تحقيق عبد الرَّحمان علي الحجي، ط1، دار الأرشاد للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 1387هـ/1968م.

- ابن جبير، أبو الحسن محمَّد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت 614هـ/1217م): **رحلة ابن جبير**، دار صادر، بيروت، د.ت.

- أبو حامد الغرناطي، محمَّد بن عبد الرَّحيم بن سليمان بن أبي الربيع بن محمَّد (ت565هـ/1169م): **تُحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب، الجزائر، 1989م.

- الحسن الوزان، الحسن بن محمَّد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، (توفي بعد عام 957هـ/ 1550م): **وصف إفريقيا**، ترجمة محمَّد حجي، محمَّد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، 1983م.

- الحموي، شهاب الدِّين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرُّومي البغدادي (ت626هـ/1828م): **مُعجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1399هـ/1979م.

- ـــــــــ: **المُشتركُ وضعًا المفترقُ صقعًا**، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ/1986م.

- الحِميري، أبو عبد الله محمَّد بن عبد المنعم (توفي في منتصف القرن الثَّامن الهجري): **الرَّوضُ المعطار في خبر الأقطار**، حقَّقه إحسان عبَّاس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

- ـــــــــ: **صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الرَّوض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، ط2، دار الجيل، بيروت، 1988م.

- الزُّهري، أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر (توفي في أواسط القرن السَّادس الهجري): كتاب **الجغرافيَّة**، تحقيق محمَّد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، مصر، د.ت.

- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن محمَّد بن عبد الملك بن سعيد اليحصبي (ت685هـ/1286م): كتاب **الجغرافيا** تحقيق إسماعيل العربي، ط1، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1970م.

- أبو الفداء، عماد الدِّين إسماعيل بن محمَّد (ت 732هـ/1331م): **تقويم البلدان**، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود والبارون ماك كوكين دسيلان، دار صادر، بيروت، 1840م.

- القزويني، زكرياء بن محمَّد بن محمود (ت 682هـ/1283م): **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار بيروت للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1404هـ/1984م.

- مجهول (لمؤلف مرَّاكشي من أهل القرن السَّادس الهجري): **الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافيَّة العامَّة أفاق عربية، بغداد، د.ت.

- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت845هـ/1441م): **جَنى الأزهار من الرَّوض المعطار**، تقديم وتحقيق وتعليق محمَّد زينهم، ط1، الدار الثقافيَّة للنَّشر، القاهرة، 1426هـ/2006م.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (ت284هـ/897م): **كتاب البُلدان**، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1408هـ/ 1988م.

- المعاجم اللغويَّة:

- الأزهري، أبو منصور محمَّد بن أحمد (ت 370هـ/980م): **مُعجم تهذيب اللغة**، تحقيق رياض زكي قاسم، ط1، دار المعرفة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، مج3، 2001م.

- الفيروز ابادي، مجد الدِّين محمَّد بن يعقوب الفيروز ابادي الشيرازي (ت817هـ/1414م): **القاموس المحيط**، ط3، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، مصر، ج1، 1980م.

- ابن منظور، جمال الدِّين أبي الفضل محمَّد بن مكرم الأنصاري (ت711هـ/1311م): **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، 1994م.

- المراجع العربيَّة:

- أدهم علي: **المعتمد بن عباد**، دار القدس للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، د.ت.

- إسماعيل العربي: **دولة بني زيري ملوك غرناطة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

- البتنوني محمَّد لبيب: **رحلة الأندلس**، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د.ت.

- البستاني بطرس: **معارك العرب في الأندلس**، ط1، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1950م.

- بشتاوي عادل سعيد: **الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ 100 عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)**، ط1، دار صبح للطِّباعة، بيروت، 2000م.

- بلغيث محمَّد الأمين: **فصول التَّاريخ والعمران بالغرب الإسلامي**، ط1، منشورات أنتر سيتي، الجزائر، 2007م.

- ـــــــــــــــــــــــ: **دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**، ط1، دار التّنوير للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2011م.

- ـــــــــــــــــــــــ: **نَظَرَاتٌ في تاريخ الغرب الإسلامي**، ط1، دار الخلدونية للنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2007م.

- بيضون إبراهيم: **الدّولة العربيّة في إسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة (92-422هـ/711- 1031م)**، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط3، 1986م.

- الجيوسي سلمى الخضراء: **الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الأندلس**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ج2، 1999م.

- الحايك سيمون: **ابن مَردنيش أو المُوَحِّدُون**، الطبعة البوليسيّة، لبنان، 1993م.

- حبيبة علي: **مع المسلمين في الأندلس**، مكتبة الشباب، مطابع سجل العرب، مصر، 1972م.

- الحجي عبد الرّحمان علي: **التّاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897)هـ/(711- 1492)م**، ط1، دار القلم، دمشق، بيروت، دار القلم، الكويت، الرياض، 1976م.

- حركات إبراهيم: **النّظام السّياسي والحربي في عهد المرابطين**، منشورات مكتبة الوحدة العربيّة، الدار البيضاء، د.ت.

- حسن أحمد محمود: **قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

- حمدي عبد المنعم محمّد حسين: **التّاريخ السّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، دار المعرفة الجامعيّة، 2008م.

- ـــــــــــــــــــــــ: **دراسات في التَّاريخ الأندلسي" دولة بني برزال في قرمونة" 404-459هـ/1013-1067م**، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، مصر، 1990م.

- حموش عبد الحق: **ابن تاشفين**، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت.

- أبو خليل شوقي: **عوامل النَّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي**، دار الفكر، دمشق، 1981م.

- دحماني شريفة محمَّد عمر: **العلاقات السِّياسيَّة بين الطائفتين الأندلسيَّة والبربريَّة في جنوب الأندلس في عصر ملوك الطوائف القرن 5هـ-11م**، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، مصر، 2006م.

- دندش عصمت عبد اللطيف: **أضواء جديدة على المرابطين**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م.

- ـــــــــــــــــــــــ: **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحِّدين، عصر الطَّوائف الثَّاني 510هـ-546هـ/1116م-1151م**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.

- رجب محمَّد عبد الحليم: **دولة بني صالح في تامسنا بالمغرب الأقصى (125-455)هـ/(743- 1063)م**، دار الثقافة للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، د.ت.

- ـــــــــــــــــــــــ: **العلاقات بين الأندلس الإسلاميَّة واسبانيا النَّصرانيَّة في عصر بني أمية وملوك الطوائف**، دار الكتب الإسلاميَّة، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.

- زغروت فتحي: **الجيوش الإسلاميَّة وحركة التَّغيِّير في دولتي المرابطين والموحِّدين (المغرب والأندلس)**، ط1، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة، القاهرة، مصر، 2005م.

- زغلول سعد عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي المرابطون صنهاجة الصحراء الملثمون في المغرب و السودان و الأندلس**، ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية، ج4، 1995م.

- زيدان جرجي: **فتح الأندلس**- أو- **طارق بن زياد**، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

- ابن زيدان، مولاي عبد الرَّحمان: **إتحاف أعلام النَّاس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ج1، تقديم عبد الهادي التازي، ط2، مطابع ديال، الدار البيضاء، المغرب، 1410هـ/1990م.

- السامرائي عبد الحميد حسين أحمد: **تاريخ الجهاد الإسلامي في الأندلس**، ط1، دار شموع الثقافة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، 2003م.

- السامرائي خليل إبراهيم: **علاقات المرابطين بالممالك الإسبانيَّة بالأندلس وبالدُّول الإسلاميَّة**، منشورات وزارة الثقافة الجمهوريَّة العراقيَّة، دار الحرية للطِّباعة، بغداد، 1975م.

- سعدون عباس نصر الله: **دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين**، ط1، دار النَّهضة العربيَّة، بيروت، 1985م.

- سعدون نصر الله: **تاريخ العرب السِّياسي في الأندلس**، ط1، دار النَّهضة العربيَّة للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1998م.

- السعيد محمَّد مجيد: **الشعر في ظلِّ بني عبَّاد**، ط1، مطبعة النعمان، العراق، 1972م.

- السَّلاويَّ، أبو العبَّاس أحمد بن خالد النَّاصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدَّولتان المرابطيَّة والموحِّديَّة**، تحقيق جعفر النَّاصري ومحمَّد النَّاصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ج2، 1954م.

- السملالي العباس بن إبراهيم: **الإعلام بمن حل مرَّاكش وأغمات من الأعلام**، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، ج8، **2002**م.

- السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: **تاريخ البحريَّة الإسلاميَّة في حوض البحر الأبيض المتوسط، البحريَّة الإسلامية في المغرب والأندلس**، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، ج2، 1993م.

- سيسالم عصام سالم: **جزر الأندلس المنسيَّة (التَّاريخ الإسلامي لجُزُر البليار) 89-685هـ/708-1287م**، ط1، دار العلم للملايِّين، بيروت، 1984م.

- الشطشاط علي حسين: **نهاية الوجود العربي في الأندلس**، دار قباء للطِّباعة والنَّشر والتوزيع، القاهرة، 2001م.

- شعيب عبد الواحد: **دور المرابطين في الجهاد بالأندلس 468-530هـ/1086-1147م**، ط1، منشورات جمعية الدعوة الإسلاميَّة العالميَّة، طرابلس، 1990م.

- شعيرة محمَّد عبد الهادي: **المُرابطون تاريخهم السِّياسي (430-529)هـ**، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، 1969م.

- شكيب أرسلان: **الحُلل السُّندسيَّة في الأخبار والآثار الأندلسيَّة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، مج3، ج3، د.ت.

- ــــــــــــــ: **خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة**، ط2، مطبعة المنار، مصر، 1925م.

- شيت خطاب محمود: **قادة فتح الأندلس**، ط1، مؤسَّسة علوم القرآن، بيروت، منار للنَّشر والتَّوزيع، دمشق، مج1، 2003م.

- الصَّلابي علي محمَّد: **الجوهر الثَّمين بمعرفة دولة المرابطين**، ط1، مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتب التَّابعين، القاهرة، 2001م.

- ــــــــــــــ: **تاريخ دولتي المرابطين والموحِّدين في الشَّمال الإفريقي**، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2009م.

- طقوش محمَّد سهيل: **تاريخ المسلمين في الأندلس 91- 898هـ/ 710- 1492م**، دار النفائس، بيروت، 2008م.

- طويل مريم قاسم: **مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر 403- 483هـ/1012-1090م**، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، مكتبة الوحدة العربيَّة، الدار البيضاء، 1994م.

- ـــــــــــــــ: **مملكة المريَّة في عصر المعتصم بن صمادح (443-484هـ/1051- 1091م**، مكتبة الوحدة العربيَّة، الدار البيضاء، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط1، 1994م.

- ابن أبي الضياف أحمد: **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تحقيق لجنة من كتابة الدَّولة للشؤون الثقافيَّة والأخبار، الدار التونسيَّة للنَّشر، ج1، 1396هـ/1976م.

- ضيف الله محمد الأخضر: **محاضرات في النُّظم الإسلاميَّة والحضارة العربيَّة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985م.

- عاشور سعيد عبد الفتاح: **أوروبا العصور الوسطى، التَّاريخ السِّياسي**، ط6، مكتبة الأنجلو المصريَّة، ج1، 1975م.

- العبادي أحمد المختار: **صور من حياة الحرب والجهاد قي الأندلس**، ط1، منشأة المعارف، الإسكندريَّة، 2000م.

- العسلي بسام: **المعتمد وابن تاشفين**، ط4، دار النَّفائس للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 1992م.

- عمر موسى عز الدِّين: **الموحِّدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م.

- عنان محمَّد عبد الله: **دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثَّاني، دول الطَّوائف منذ قيامها حتَّى الفتح المرابطي**، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

- ـــــــــــــــ: **دولة الإسلام في الأندلس- العصر الثَّالث- عصر المرابطين والموحِّدين في المغرب – القسم الأوَّل عصر المرابطين وبداية الدَّولة الموحِّدية**، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1411هـ /1990م.

- ـــــــــــــــ: **دولة الإسلام في الأندلس- عصر الموحِّدين**، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة، ج5، 2002م.

الغزَّال، أحمد بن المهدي: **نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد (رحلة الغزَّال وسفارته إلى الأندلس)**، تحقيق وتقديم إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعيَّة، الجزائر، 1984م.

- الغناي مراجع عقيلة: **سقوط دولة الموحِّدين**، ط2، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، 2008م.

- فتحي عثمان: **الحدود الإسلاميَّة البيزنطيَّة بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الثَّالث في الاتصال الحضاري**، دار الكتاب العربي للطِّباعة والنَّشر، القاهرة، د.ت.

- الفقي عصام الدِّين عبد الرؤوف: **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م.

- القرقوطي معمر الهادي محمَّد: **جهاد الموحِّدين في بلاد الأندلس (541–629هـ/1146–1233م)**، دار هومة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، 2005م.

- الكاتب سيف الدين: **أعلام من المغرب والأندلس**، مؤسَّسة عز الدِّين للطِّباعة والنَّشر، بيروت، 1982م.

- كنون عبد الله: **يوسف بن تاشفين**، ط2، منتدى ابن تاشفين المجتمع والمال، المحمديَّة، 2004م.

- الكيالي سامي: **في الربوع الأندلسيَّة**، مكتبة الشرق، حلب، سوريا، 1963م.

- مؤنس حسين: **الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النَّصارى سنة 512هـ/1118م، مع أربع وثائق جديدة**، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، مصر، 1413هـ/1992م.

- ــــــــــــــ: **سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس**، ط1، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة للنَّشر والتَّوزيع، مصر، 2000م.

- ــــــــــــــ: **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، القاهرة، 2004م.

- محمَّد خليفة حامد: **يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصَّليبيِّين، 400–500هـ = 1009–1106م**، ط1، دار القلم، دمشق، 2003م.

مرعشلي نديم: **المعتمد بن عباد بطل جسد مأساة الأندلس، وشاعر عنَّى مجدها المفقود**، دار الكتاب اللبناني، مطبعة الاجتهاد، د.ت.

- مزاري عبد الصَّمد توفيق: **النَّشاط البحري بالغرب الإسلامي في عهدي المرابطين والموحِّدين**، منشورات دار الثقافة حسن الحسني، شيكو للطِّباعة والنَّشر، المدية، الجزائر، 2010م.

- أبو مصطفى كمال: **محاضرات في تاريخ الغرب الإسلامي وحضارته (المغرب والأندلس)**، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، 2007م.

- المطوي محمَّد العمروسي: **الحروب الصَّليبيَّة في المشرق والمغرب**، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.

- مكيّ محمود علي: **وثائق تاريخيَّة جديدة عن عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة**، ط1، القاهرة، 2004م.

- النَّشار محمَّد محمود أحمد: **علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطة المماليك (1260–1341م/658–741هـ)**، ط1، عين للدِّراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعية، مصر، 1997م.

- نعنعي عبد المجيد: **تاريخ الدَّولة الأمويَّة في الأندلس، التَّاريخ السِّياسي**، دار النَّهضة العربية، بيروت، د.ت.

- الهرفي سلامة محمَّد سلمان: **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين– دراسة سياسية وحضارية**، دار النَّدوة الجديدة، بيروت، 1985م.

– وهبة مصطفى: **موجز تاريخ الحروب الصليبية**، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، 1997م.

– **المراجع المُعربة:**

– أشباخ يوسف: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين**، ترجمة وتعليق محمَّد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996م.

– بروفنسال ليفي: **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمَّد صلاح حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، مصر، 1995م.

– ـــــــــــــــ: **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، مطبعة النجوى، بيروت، د.ت.

– بروي ادوارد وآخرون: **تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى**، نقله إلى العربيَّة يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، عويدات للنَّشر والطِّباعة، بيروت، مج3، 2003م.

– دوزي رينهرت: **المسلمون في الأندلس**، ترجمة وتعليق وتقديم حسن حبشي، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، مصر، 1995م.

– ـــــــــــــــ: **ملوك الطوائف**، ترجمة كامل كيلاني، ط1، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1933م.

– ريسلر جاك: **الحضارة العربيَّة**، تعريب خليل أحمد خليل، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1993م.

– سيد أمير علي: **مختصر تاريخ العرب**، ترجمة عفيف البعلبكي، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.

- قايد مولود: **البربر عبر التَّاريخ في اسبانيا الإسلاميَّة ابتداء من عام 711م**، ترجمة إبراهيم سعدي، دار النَّشر ميموني، الجزائر، 2007م.

- كاربخال مارمول: **افريقيا**، محمَّد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنَّشر والتَّوزيع، الرباط، 1984م.

- كولان. ج. س: **الأندلس**، ترجمة لجنة دائرة المعارف الإسلاميَّة إبراهيم خورشيد وآخرون، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1980م.

- مونتغمري وات: **في تاريخ اسبانيا الإسلاميَّة (مع فصل في الأدب بقلم بيير كاكيا)**، ترجمة محمَّد رضا المصري، ط2، شركة المطبوعات للنَّشر والتَّوزيع، 1998م.

- ميراندا أمبروسيو هويثي: **التَّاريخ السِّياسي للإمبراطوريَّة الموحِّديَّة**، ترجمة عبد الواحد أكمير، ط2، منشورات الزمن، المغرب، 2015م.

- المعاجم والقواميس والموسوعات:

- جمال الدِّين عبد الله: **تاريخ المسلمين في الأندلس (93-897)هـ**، منشور ضمن **موسوعة سفير للتَّاريخ الإسلامي**، شركة سفير، القاهرة، د.ت.

- زبيب نجيب: **الموسوعة العامَّة لتاريخ المغرب والأندلس**، تقديم أحمد بن سودة، ط1، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ج2، 1995م.

- الزِّركلي: **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرِّجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م.

- السرجاني راغب: **الموسوعة الميسرة في التَّاريخ الإسلامي**، ط1، مؤسَّسة اقرأ، القاهرة، ج1، 2005م.

- مؤنس حسين: **موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ– وفكر وحضارة وتراث**، ط1، مكتبة الثقافة الدِّينية، القاهرة، ج2، 1416هـ-1996م.

- يوسف عيد، يوسف فرحات: **معجم الحضارة الأندلسيَّة**، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 2000م.

- يوسف فرحات: **موسوعة الحضارة العربيَّة العصر الأندلسي (الحضارة الأندلسيَّة)**، دار كلمات للنَّشر، مج6، 1995م.

- الرَّسائل الجامعيَّة:

- بلغيث محمَّد الأمين: **الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحِّدين**، رسالة ماجستير في التَّاريخ الإسلامي، جامعة الجزائر، قسم التَّاريخ، 1987م.

- ـــــــــــــــــ: **الحياة الفكريَّة بالأندلس في عصر المرابطين**، أطروحة دكتوراه الدَّولة في التَّاريخ الإسلامي، مج1، جامعة الجزائر، قسم التَّاريخ، 2003م.

- بوشراية بلقاسم: **مملكة بني هود في الثغر الأعلى أيام الطَّوائف والمرابطين بالأندلس 431هـ-1039م/524هـ-1131م – دراسة في الأحوال السِّياسيَّة–** رسالة ماجستير في التَّاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، قسم التَّاريخ، 2011م.

- الحسَّاني فايزة بنت عبد الله: **تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأمويَّة حتَّى سقوطها 316-512هـ/928-1118م، دراسة سياسية وحضارية**، رسالة ماجستير في التَّاريخ

الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، قسم الدِّراسات العليا التَّاريخيَّة والحضاريَّة، 2008م.

- بن الذيب عيسى: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دراسة اجتماعيَّة واقتصاديَّة (448-540)هـ/(1056- 1145)م**، أطروحة دكتوراه في التَّاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، قسم التَّاريخ، 2009م.

راكة عمر: **العلاقات السِّياسيَّة للدَّولة الموحِّديَّة بالإمارات الإسلاميَّة والممالك المسيحيَّة في الأندلس (540هـ-1145م/668هـ/1269م)**، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، قسم التَّاريخ، 2011م.

- شاكي عبد العزيز: **التَّطور السِّياسي لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف (500-537)هـ/(1106-1143)م**، رسالة ماجستير في التَّاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، قسم التَّاريخ، 2011م.

- فراد محمَّد أرزقي: **القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي)**، رسالة لنيل ديبلوم الدِّراسات المعمَّقة، دائرة الدِّراسات التَّاريخيَّة والأثريَّة، جامعة الجزائر، 1982م.

- فلنتيا سليمان عفانة: **مملكة اشبيلية زمن بني عباد وعلاقاتها الداخليَّة والخارجيَّة (414-484)هـ/ (1023- 1069)م**، رسالة ماجستير في التَّاريخ الإسلامي، كلية الدِّراسات العليا في جامعة النَّجاح الوطنيَّة، نابلس، فلسطين، 2003م.

- المقالات:

- بدري إبراهيم: **نصيحة الطُّرطوشي إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين**، مقال منشور بمجلة الإصلاح، دار الفضيلة للنَّشر والتَّوزيع، الجزائر، السنة الثالثة، العدد الخامس عشر، أوت 2009م.

- البشري سعد بن عبد الله: **جماعات الفرسان الدِّينيَّة الإسبانيَّة وحروبها مع المسلمين في الأندلس،** مقال منشور بمجلة جامعة أم القرى، السنة الخامسة، العدد السَّابع، 1992-1993م.

- التَّازي عبد الهادي: **تعقيب على عودة ابن تاشفين إلى المغرب بعد الزَّلاقة،** مقال منشور ضمن كتاب **أضواء جديدة على المرابطين،** ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991م.

- الدباغ عبد الوهاب: **التَّحدي الصَّليبي للوجود الإسلامي في اسبانيا،** منشور ضمن كتاب **الوحدة والتَّنوع في تاريخ المسلمين بحوث في التَّاريخ والحضارة الإسلاميَّة،** ط1، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2002م.

- السيد أبو مصطفى كمال: **تاريخ مدينة طُرطوشة الإسلامية وحضارتها في عصر دويلات الطَّوائف في القرن 5هـ/11م،** منشور ضمن كتاب **السِّجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التَّقلبات والعطاءات، القسم الأوَّل، التَّاريخ والفلسفة،** ط1، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامَّة، الرياض، 1996م.

- شرقي محمَّد: **طليطلة في الذكرى الألفية لسقوط أعظم حضارة أندلسية،** مجلة التَّاريخ، المركز الوطني للدِّراسات التَّاريخيَّة، قصر الثقافة، الجزائر، 1986م.

- العبادي أحمد المختار: **دور المغاربة في الحروب الصَّليبيَّة في المشرق العربي،** منشور ضمن كتاب **بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري 16-20 أكتوبر 1976م،** مؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندريَّة، 2000م.

- علي أحمد: **ظهور حركة الاسترداد بالأندلس وتطورها حتَّى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها،** مجلة الدِّراسات التَّاريخيَّة، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، السنة السَّادسة، العددان 97- 98، 2007م.

- ـــــــــــ: **اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى**، مجلة دراسات تاريخية، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، السنة 17، العددان 57- 58، 1996م.

- ميراندا أمبروسيو هويثي: **وقعة أُقليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، مقال منشور بمجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية، مطبعة كريماديس، تطوان، المغرب، العدد الثَّاني، 1957م.

- المراجع الأجنبيَّة:

- Altamira Don Rafael Y Crevea: **Histoire D'Espagne**, libraire Armand, Saint- Michel, Paris, 1931.

- Ballester Rafael: **Histoire de l'Espagne**, éditions Payot, 1928.

- Bringnon Jean est autre: **Histoire de Maroc**, librairie Nationale, Casablanca, 1967.

- Burlot Joseph: La Civilisation Islamique, Hachette, Paris, 1982, p139.

-Clôt André: **l'Espagne Musulmane**, éditions Perrin, Paris, 1999.

-Coissac De Chavrebière: **Histoire du Maroc**, librairie dar al aman, Rabat, Première édition, 2012 .

- Conrad Philippe : **Histoire de la Reconquista**, ISBN, 2em édition, 1999.

- Cornevin Robert: HISTOIRE DE L'AFRIQUE, Tome I, des origines au XVIe, siècle, payot, Paris, 1967.

- Dhina Amar: **Grand tournants de L'histoire de L'islam (de la bataille de badar à l'attaque d'Alger par charles-quint),** Société Nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1978.

- Gaid Mouloud : **Les Berbers dans l'histoire les Mourabitines d'hier et les Marabouts d'aujourd'hui**, tome 7, édition Mimouni.

- Guernier Eugène et G. Froment-Guieysse**: L'Encyclopédie Coloniale et maritime - Maroc**, éditions de l'empire Français, Paris, 1948.

- Julien Charles André: **Histoire de L'Afrique du nord Tunisie- Algérie- Maroc de la Conquête Arabe à 1830**, Société National, Alger, 1975.

- Laroui Abd Allah : **L'histoire du Maghreb un essai de Synthèse**, librairie françois Maspero, Paris,1970**.**

- Lavisse Ernest et Rambaud Alfred: **Histoire Générale du IV^{E} siècle A nos jours, tome II, L'Europe Féodale les Croisades 1095-1270**, Armand Colin et C^{ie}, Èditeurs, Paris, 1893.
- Lugan Bernard: **Histoire du Maroc Des origines à nos jours**, Critérion, Paris, 1992 .

- Mantran Robert: **L'expansion musulmane VII^{e}-XI^{e} siècle,** presses universitaires de France, Paris, 5^{e} édition , 1995.

- M. El Fasi **: Histoire generale de L'Afrique- L'Afrique du VII^{e} au XI^{e} siècle,** Unesco/NEA, France, tome 3, 1990.

- Millet René: **LES ALMOHADES histoire d'une dynastie berbère**, société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, Paris, 1923.
- Pidal Menendez Ramon: **EL CID CAMPEADOR**, segunda edicion, espasa-calpe Argentina, s.a, Buenos Aires, 1951 .

- Provençal E .lévi : **Islam D'occident,** librairie orientale et Américaine, Paris, 1948.

- Séguier Carnets: **2000 ans d'Algérie,** éditions Séguier, Paris, tome 1, 1998.

- Weibel Ernest: **Occident-Maghreb 13 siècles d'histoire**, Ellipses édition Marketing S.A, Paris , 2010.

- Homman Loudiyi Kenza, El Ghazouani Abdellah: **AL-ANDALUS ombres et lumière**, Afrique Orient, Maroc, 2014.

الفهارس

فهرس الأعلام:

فهرس القبائل والشعوب:

فهرس الأماكن والبلدان:

فهرس المحتويات

الباب الثاني: حركة الاسترداد المسيحي للأندلس في عصر الموحِّدين

541-591هـ/1146-1195م

الفصل الأوَّل: حركة الاسترداد المسيحي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي